مرکز القائمیة اصبهان للبحوث والتحریات الکمبیوتریة

السلام علیک یا صاحب الزمان

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

امثال القرآن

بسم الله الرحمن الرحیم

امثال القران

كاتب:

آیت الله العظمی ناصرمکارم شیرازی (دام ظله)

نشرت فی الطباعة:

مدرسه الامام علی بن ابی طالب (ع)

رقمی الناشر:

مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

الفهرس

الفهرس ----- ۵
امثال القران ----- ۳۳
اشارة ----- ۳۳
الإهداء ----- ۳۳
إنارة ----- ۳۳
المقدمة ----- ۳۳
تحليل لأمثال القرآن ----- ۳۴
أهمية القرآن وشهر رمضان ----- ۳۴
علاقة شهر رمضان المبارک بالقرآن ----- ۳۴
موضوع البحث ----- ۳۵
الأمثال العملية واللسانية ----- ۳۵
اشارة ----- ۳۵
۱- عندما تتراكم الذنوب الصغيرة ----- ۳۵
۲- ترسيم نار جهنم ----- ۳۵
الهدف من الامثال من لسان القرآن ----- ۳۶
أهمية خطاب المثل ----- ۳۶
تأمّل فی الآية ----- ۳۶
الشرح والتفسير ----- ۳۷
خطأ المنافقين ----- ۳۸
جاذبية القرآن وانقاذ المسلمين ----- ۳۸
نموذج آخر لتأثير القرآن ----- ۳۸
خطابات الاية ----- ۳۸
۱- البعوضة ليست حيواناً حقيراً! ----- ۳۸

۲- حجابان عظيمان: كثرة النعم والتعود عليها ----- ۳۹
۳- الهداية والضلالة فى القرآن ----- ۳۹
معنى الهداية والضلالة ----- ۳۹
المثل الأول: المنافقون ----- ۴۰
اشارة ----- ۴۰
تصوير البحث ----- ۴۰
الشرح والتفسير ----- ۴۰
دُوّن تفسيران للآية الشريفة: ----- ۴۰
خطابات الآية ----- ۴۱
۱- أقسام المنافقين ----- ۴۱
۲- صور النفاق ----- ۴۱
۳- علائم النفاق ----- ۴۱
۴- نبذة من تاريخ المنافقين ----- ۴۲
اشارة ----- ۴۲
المنافقون فى القرآن ----- ۴۲
خطر المنافقين من وجهة نظر رسول الإسلام صلى الله عليه و آله ----- ۴۲
۵- التعبير ب (النار) فى القرآن ----- ۴۳
۶- النور والظلمات ----- ۴۳
۷- خصال المنافقين الثلاث ----- ۴۳
۸- منشأ (النفاق) ----- ۴۴
للنفاق ثلاثة مناشىء: ----- ۴۴
المثل الثانى: تمثيل آخر للمنافقين ----- ۴۵
اشارة ----- ۴۵
تنوع أمثال القرآن ----- ۴۵

الشرح والتفسير ----- ۴۶
خطابات الآية ----- ۴۶
۱- كيفية ايجاد البرق والرعد والصاعقة ----- ۴۶
۲- الاختلاف بين المثلين ----- ۴۷
۳- عالم النفاق أو النفاق العالمى ----- ۴۷
۴- ظهور المنافقين فى الإسلام ----- ۴۷
مراحل جهاد الرسول لاعداء الإسلام ----- ۴۸
اشارة ----- ۴۸
المرحلة الاولى: الاستهزاء والاستخفاف بالدين ----- ۴۸
المرحلة الثانية: نسبة السحر والشعر للرسول صلى الله عليه و آله ----- ۴۸
المرحلة الثالثة: المحاصرة الاقتصادية وقطع العلاقات ----- ۴۸
المرحلة الرابعة: التدبير لاغتيال الرسول صلى الله عليه و آله ----- ۴۹
المرحلة الخامسة: الحروب المتوالية ضد المسلمين ----- ۴۹
المرحلة السادسة، اللجوء إلى اخطر سلاح (النفاق) ----- ۵۰
نتائج الأمثال ----- ۵۰
سعيد بن جبير عند الموت ----- ۵۱
المثل الثالث: قسوة القلب ----- ۵۱
اشارة ----- ۵۱
قصة بقرة بنى اسرائيل ----- ۵۱
الشرح والتفسير ----- ۵۲
القلب الصناعى مرآة لعظمة قلب الإنسان ----- ۵۲
تسبيح الموجودات جميعا ----- ۵۴
القسوة ----- ۵۴
العلم والعاطفة وجه تمايز الإنسان عن الحيوان ----- ۵۴

دنيا دون عاطفة ----- ۵۵
الدين أو المذهب يقويان العاطفة ----- ۵۵
عوامل القسوة فى القرآن ----- ۵۵
القسوة فى الروايات الاسلامية ----- ۵۶
المثل الرابع: الكفار ----- ۵۷
اشارة ----- ۵۷
الشرح والتفسير ----- ۵۷
خطابات الآية ----- ۵۸
التقليد فى القرآن ----- ۵۸
أقسام التقليد ----- ۵۹
المثل الخامس: الإنفاق ----- ۵۹
اشارة ----- ۵۹
تصوير البحث ----- ۵۹
طرق علاج الفقر ----- ۶۰
علاجات الإسلام ----- ۶۰
الإنفاق طريق لرفع الفقر ----- ۶۰
خطابات الآية ----- ۶۱
۱- المراد من (فى سَبِيلِ اللهِ) ----- ۶۱
اشارة ----- ۶۱
الأول: صندوق إعانة عوائل السجناء ----- ۶۱
الثانى: جمعية اعانة مرضى الكلية ----- ۶۲
۲- المراد من «الحبّة» فى الآية الشريفة ----- ۶۲
۳- المراد من (يضاعف) فى الآية الشريفة ----- ۶۲
اشارة ----- ۶۲

أرفع نموذج للإنفاق فی القرآن ----- ۶۲
۴- دراسة المشبّه فی آیة الانفاق ----- ۶۳
نمو المال المنفق فی کلام الرسول صلی الله علیه و آله ----- ۶۴
(الانفاق) فی تعابیر القرآن الجمیلة ----- ۶۵
المثل السادس: الإنفاق مع المنّ والأذی ----- ۶۵
اشارة ----- ۶۵
الشرح والتفسیر ----- ۶۶
خطابات الآیة ----- ۶۶
سیرة الائمة فی الإنفاق والبذل ----- ۶۷
الصدقة تدفع میتة السوء «۳» ----- ۶۸
المثل السابع: الإنفاق اللائق ----- ۶۸
اشارة ----- ۶۸
الشرح والتفسیر ----- ۶۸
خطابات الآیة ----- ۶۹
طرق الانفاق وإعانة الاخرین ----- ۷۰
ما أحسن السعادة التی ینالها الإنسان ----- ۷۰
آداب الانفاق ----- ۷۱
اشارة ----- ۷۱
۱- الإنفاق ممّا تحبون ----- ۷۱
۲- الانفاق فی غایة الادب ----- ۷۱
۳- التعجیل فی دفع الصدقة ----- ۷۲
۴- صدقات السر والعلانیة ----- ۷۲
۵- الأولویة للمساکین المتسترین ----- ۷۲
المثل الثامن: عاقبة الامور ----- ۷۲

اشارة ----- ۷۲
تصوير البحث ----- ۷۳
الشرح والتفسير ----- ۷۳
إنّ السوء كان عاقبة هذا الشخص ----- ۷۴
خطابات آية المثل هى الاحباط والتكفير ----- ۷۴
الاستدلال على وجود الاحباط والتكفير ----- ۷۴
المثل التاسع: أكل الربا ----- ۷۵
اشارة ----- ۷۵
تصوير البحث ----- ۷۵
علاقة الآية بما قبلها ----- ۷۵
الشرح والتفسير ----- ۷۵
خطابات الآية ----- ۷۶
عقاب آكلى الربا فى الدنيا والآخرة ----- ۷۶
نسبة الجنون إلى الشيطان ----- ۷۶
التناسب بين الجناية والعقاب ----- ۷۶
فلسفة تحريم الربا ----- ۷۷
الإرتباط بين الإخلاق والاقتصاد فى الإسلام ----- ۷۷
الاسوة فى القيم الاخلاقية ----- ۷۸
على عليه السلام والهدية الليلية ----- ۷۹
البحوث التكميلية للآية ----- ۷۹
۱- أكل الربا فى عصرنا ----- ۷۹
۲- النشاط المصرفى اللاربوى هل هو ممكن؟ ----- ۷۹
۳- حكم الايداعات والسلف ----- ۸۰
۴- آيات أخرى عن الربا ----- ۸۰

شأن نزول الآية ----- ۸۰
المثل العاشر: الخَلْق المدهش لعيسى بن مريم عليه السلام ----- ۸۱
اشارة ----- ۸۱
الشرح والتفسير ----- ۸۱
قدرة الله فى كلام أمير المؤمنين عليه السلام ----- ۸۱
قصة خلق الإنسان ----- ۸۲
الاختلاف بين (الفرضية) و (القانون) ----- ۸۲
رأى القرآن فى خلق الإنسان ----- ۸۲
المثل الحادى عشر: إنفاق الكفار ----- ۸۳
اشارة ----- ۸۳
تصوير البحث ----- ۸۳
الشرح والتفسير ----- ۸۳
خطابات الآية ----- ۸۳
۱- المراد من الإنفاق فى آية المثل ----- ۸۳
۲- الإنتقام من كافر النعمة ----- ۸۴
۳- فلسفة الكوارث الطبيعية ----- ۸۴
إعتبروا ----- ۸۵
المثل الثانى عشر: الكفر والإيمان ----- ۸۵
اشارة ----- ۸۵
تصوير البحث ----- ۸۶
شأن نزول الآية ----- ۸۶
ما هى الحياة؟ ----- ۸۶
أقسام الحياة ----- ۸۷
المراد من الحياة فى آية المثل ----- ۸۷

لماذا عُدّ عرب الجاهلية أمواتاً؟ ----- ۸۷
آثار النور وبركاته ----- ۸۸
نور الفرقان ----- ۸۸
التقوى ثمرة الصوم والفرقان ثمرة التقوى ----- ۸۸
الأعمال القبيحة تبدو حسنة فى نظر الكفار ----- ۸۸
المثل الثالث عشر: شرح الصدر ----- ۸۸
اشارة ----- ۸۸
تصوير البحث ----- ۸۹
الشرح والتفسير ----- ۸۹
خطابات الآية ----- ۸۹
۱- الهداية والضلالة بيد الله ----- ۸۹
۲- الاعجاز العلمى للقرآن فى آية المثل ----- ۹۰
۳- شرح الصدر ----- ۹۰
الرسول صلى الله عليه و آله وجاره اليهودى ----- ۹۰
المثل الرابع عشر: المبدأ والمعاد ----- ۹۱
اشارة ----- ۹۱
تصوير البحث ----- ۹۱
أهمية المبدأ والمعاد ----- ۹۱
المعاد الجسمانى والمعاد الروحانى ----- ۹۱
الشرح والتفسير ----- ۹۲
فواكه مختلفة من ماء وهواء وتراب واحد ----- ۹۲
آثار المعاد ----- ۹۳
المثل الخامس عشر: البلد الطيّب ----- ۹۳
اشارة ----- ۹۳

تصوير البحث ----- ۹۳
إشارة للمثل السابق ----- ۹۳
الشرح والتفسير ----- ۹۴
لِمَن هذا المثل؟ ----- ۹۴
خطابات الآية ----- ۹۵
۱- فاعلية الفاعل وقابلية القابل كلاهما ضروريان ----- ۹۵
۲- مردودات القرآن والوحى على الكافر عكسية ----- ۹۵
الناس ثلاثة أصناف ----- ۹۵
الفاعلية اكتسابية أم جبرية؟ ----- ۹۶
المثل السادس عشر: العالم المنحرف ----- ۹۶
اشارة ----- ۹۶
تصوير البحث ----- ۹۶
شأن نزول الآية ----- ۹۷
الشرح والتفسير ----- ۹۷
خطابات الآية ----- ۹۸
خطر العلماء المنحرفين ----- ۹۸
عالم الدين من وجهة نظر الإمام الحسن العسكرى عليه السلام ----- ۹۹
المثل السابع عشر: مسجد ضرار ----- ۹۹
اشارة ----- ۹۹
تصوير البحث ----- ۹۹
شأن النزول ----- ۱۰۰
الشرح والتفسير ----- ۱۰۰
أبو عامر النصرانى العدّو اللدود للإسلام ----- ۱۰۰
الأمر بتخريب مسجد ضرار ----- ۱۰۱

خطابات الآية ----- ۱۰۱
المثل الثامن عشر: الدنيا العابرة ----- ۱۰۱
اشارة ----- ۱۰۱
تصوير البحث ----- ۱۰۱
الشرح والتفسير ----- ۱۰۲
فلسفة المثل ----- ۱۰۲
تفسير وتطبيق للمثل المذكور ----- ۱۰۳
خطابات الآية ----- ۱۰۳
۱- معرفة الله ----- ۱۰۳
۲- كل ما فى الكون مخلوق على أساسٍ من النظم ----- ۱۰۳
۳- قد تتبدّل النعمة إلى نقمة ----- ۱۰۴
۴- إذا جرى الماء كان سالماً وهنيئاً وذا طعم لذيذ ----- ۱۰۴
۵- بعض النباتات سامة رغم جمالها ----- ۱۰۴
المثل التاسع عشر: الكافر والمؤمن ----- ۱۰۴
اشارة ----- ۱۰۴
تصوير البحث ----- ۱۰۴
إشارة إلى الآيات ما قبل آية المثل ----- ۱۰۴
سيرة الكافرين ----- ۱۰۵
سيرة المؤمنين ----- ۱۰۵
الشرح والتفسير ----- ۱۰۵
العين من أعظم آيات الله ----- ۱۰۵
الاذن آية الله الاخرى ----- ۱۰۶
العين والاذن وسيلتان مهمتان للمعرفة ----- ۱۰۶
الكافر يفتقد وسائل المعرفة ----- ۱۰۷

لماذا كان الكافر أعمى وأصم؟ ۱۰۷
كيف يمكن إزالة الحجب؟ ۱۰۷
علامات المؤمن ۱۰۷
المثل العشرون: الذين يدعون من دون الله ۱۰۷
اشارة ۱۰۷
تصوير البحث ۱۰۷
البرق والسحب الثّقال ۱۰۸
كيف يسبب البرق نزول المطر؟ ۱۰۸
الرعد دليل على عظمة الله ۱۰۸
الشرح والتفسير ۱۰۹
خطابات الآية ۱۱۰
۱- هل التوسّل بالمعصومين عليهم السلام شرك؟ ۱۱۰
۲- الصور المختلفة لعبادة الأصنام ۱۱۰
الدعاء من وجهة نظر القرآن والروايات ۱۱۱
الدعاء أفضل عبادة ۱۱۱
الدعاء فى الروايات ۱۱۱
سر الدعاء فى الإسلام ۱۱۲
العلاقة بين الدعاء والتربية ۱۱۲
موانع وشروط استجابة الدعاء ۱۱۳
اشارة ۱۱۳
۱- عدم معرفة الله أهم مانع عن الإستجابة ۱۱۴
۲- النيّة الصادقة والقلب المخلص ۱۱۴
۳- الاكل الحلال شرط مهم وصعب لاجابة الدعاء ۱۱۴
۴- حضور القلب ۱۱۵

استجابة بعض الأدعية ليست بمصلحة الإنسان! ----- ۱۱۵
سؤالان مهمان عن الدعاء ----- ۱۱۶
المثل الحادی والعشرون: الحق والباطل ----- ۱۱۶
اشارة ----- ۱۱۶
تصویر البحث ----- ۱۱۶
الشرح والتفسیر ----- ۱۱۷
خطابات الآیة ----- ۱۱۷
اشارة ----- ۱۱۷
۱- تعریف الحق والباطل ----- ۱۱۷
۲- علائم الحق والباطل ----- ۱۱۸
۳- سعة الحق والباطل ----- ۱۱۸
۴- عاقبة المواجهة بین الحق والباطل ----- ۱۱۸
۵- المواجهة بین الحق والباطل دائمة ----- ۱۱۸
۶- کیفیة تبلور الباطل ----- ۱۱۸
الحق والباطل من وجهة نظر الآیات والروایات ----- ۱۱۹
ما هی مصادیق الحق؟ ----- ۱۱۹
جولة الباطل ودولة الحق ----- ۱۱۹
کن مع الحق دائما ----- ۱۱۹
الحق مرٌ والباطل حلو ----- ۱۲۰
الباطل یتقمّص قمیص الحق دائما ----- ۱۲۰
علی علیه السلام محور الحق ----- ۱۲۰
المثل الثانی والعشرون: التقوی جواز دخول الجنة ----- ۱۲۰
اشارة ----- ۱۲۱
تصویر البحث ----- ۱۲۱

الشرح والتفسير ----- ۱۲۱
المراحل الأربع قبل الولادة ----- ۱۲۱
عجائب من عالم الجنين ----- ۱۲۱
مراحل كمال الإنسان الأربع ----- ۱۲۲
إيضاح ----- ۱۲۳
الخطابات المهمة للآية ----- ۱۲۳
المثل الثالث والعشرون: أعمال الكفّار ----- ۱۲۳
اشارة ----- ۱۲۳
تصوير البحث ----- ۱۲۳
ارتباط آية المثل بسابقاتها ----- ۱۲۳
الشرح والتفسير ----- ۱۲۴
فوائد الرماد ----- ۱۲۴
خطابات الآية ----- ۱۲۴
۱- الايمان شرط صحة الأعمال ----- ۱۲۴
۲- الدوافع المعنوية لغير المؤمنين ----- ۱۲۵
الاحباط فى القرآن ----- ۱۲۶
الحبط فى عالم الطبيعة ----- ۱۲۶
المثل الرابع والعشرون والخامس والعشرون: الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة ----- ۱۲۷
اشارة ----- ۱۲۷
تصوير البحث ----- ۱۲۷
ارتباط آيات المثل بسابقاتها ----- ۱۲۷
الشرح والتفسير ----- ۱۲۸
نقطة مهمة فى مجال المعرفة ----- ۱۲۸
ماهى (الكلمة الطيبة)؟ ----- ۱۲۹

كلمة طيّبة من الإمام الحسن المجتبى عليه السلام ----- ۱۳۰
المثل السادس والعشرون: لله المثل الأعلى ----- ۱۳۰
اشارة ----- ۱۳۰
تصوير البحث ----- ۱۳۰
اشارة ----- ۱۳۰
التفسير الأوّل ----- ۱۳۰
التفسير الثانى ----- ۱۳۱
ارتباط آية المثل بسابقتها ----- ۱۳۱
لماذا كان عرب الجاهلية يئدون بناتهم؟ ----- ۱۳۱
البنت كشدّة الورد ----- ۱۳۲
المثل السابع والعشرون: عبيد الأصنام وعباد الله ----- ۱۳۲
اشارة ----- ۱۳۲
تصوير البحث ----- ۱۳۳
ارتباط آية المثل بسابقاتها ----- ۱۳۳
دوافع العبادة ----- ۱۳۳
الشرح والتفسير ----- ۱۳۳
خطابات الآية ----- ۱۳۴
۱- العبيد فى الإسلام ----- ۱۳۴
۲- العبودية المتطوّرة ----- ۱۳۴
يوسف عليه السلام إنسان حر ----- ۱۳۵
على عليه السلام حرٌّ آخر ----- ۱۳۵
المثل الثامن والعشرون: المؤمن والمشرك ----- ۱۳۶
اشارة ----- ۱۳۶
تصوير البحث ----- ۱۳۶

الشرح والتفسير ----- ۱۳۶
خطاب الآية ----- ۱۳۷
الشرک وعبادة الأصنام فی القرن العشرین ----- ۱۳۷
المثل التاسع والعشرون: حدیثوالعهد بالإسلام ----- ۱۳۸
اشارة ----- ۱۳۸
تصویر البحث ----- ۱۳۸
الشرح والتفسیر ----- ۱۳۸
خطابات الآیة ----- ۱۳۹
أهمیة الوفاء بالعهد ----- ۱۳۹
المثل الثلاثون: کفران النعمة ----- ۱۴۰
اشارة ----- ۱۴۰
تصویر البحث ----- ۱۴۰
الشرح والتفسیر ----- ۱۴۰
خطابات الآیة ----- ۱۴۱
۱- العذاب والبؤس نتیجتان لأعمالنا ----- ۱۴۱
۲- هل کان وجود خارجی لهذه القریة؟ ----- ۱۴۱
المثل الحادی والثلاثون: أمثال الکفّار ----- ۱۴۲
اشارة ----- ۱۴۲
تصویر البحث ----- ۱۴۲
الشرح والتفسیر ----- ۱۴۲
ما هو الحجاب المستور؟ ----- ۱۴۲
ما تعنی المسحور؟ ----- ۱۴۳
أسلحة الجاحدین ----- ۱۴۳
الحقائق المستبطنة فی الاتهامات ----- ۱۴۴

لماذا نسبوا إليه الشعر؟ ----- ۱۴۴
خطاب الآيات التربوى ----- ۱۴۴
المثل الثانى والثلاثون: المستكبرون والمستضعفون ----- ۱۴۵
اشارة ----- ۱۴۵
تصوير البحث ----- ۱۴۵
علاقة آيات المثل بسابقاتها ----- ۱۴۵
تحطيم القيم الكاذبة من أهداف الأنبياء ----- ۱۴۵
الشرح والتفسير ----- ۱۴۶
طريقان لمعالجة الغرور ----- ۱۴۷
عاقبة الانسان المغرور ----- ۱۴۷
اعتبروا ----- ۱۴۹
خطابات الآية ----- ۱۴۹
۱- زمن تأثير التوبة ----- ۱۴۹
۲- لا قيمة للدنيا ----- ۱۵۰
اشارة ----- ۱۵۰
قصة بطل ----- ۱۵۰
المطبخ السلطانى ----- ۱۵۰
۳- التدقيق فى اختيار الصديق ----- ۱۵۰
۴- من هو ولىّ المؤمنين؟ ----- ۱۵۱
المثل الثالث والثلاثون: الحياة الدنيا ----- ۱۵۲
اشارة ----- ۱۵۲
تصوير البحث ----- ۱۵۲
الشرح والتفسير ----- ۱۵۲
بأى شىءٍ شبِّهت الحياة الدنيا؟ ----- ۱۵۳

اختلاف هذه الآية مع الآية ۲۴ من سورة يونس ----- ۱۵۳
خطابات الآية ----- ۱۵۴
۱- تنوّع النباتات من معالم القدرة الإلهية ----- ۱۵۴
۲- ما هى الباقيات الصالحات؟ ----- ۱۵۴
مباحث تكميلية ----- ۱۵۵
۱- ماهى الحياة الدنيا؟ ----- ۱۵۵
۲- الدنيا من وجهة نظر الروايات ----- ۱۵۵
۳- ما سبب ذم الروايات الدنيا؟ ----- ۱۵۷
تحليل الروايات ----- ۱۵۷
المثل الرابع والثلاثون: تنوّع أمثال القرآن ----- ۱۵۷
اشارة ----- ۱۵۷
تصوير البحث ----- ۱۵۷
هل هذه الآية من أمثال القرآن؟ ----- ۱۵۷
الشرح والتفسير ----- ۱۵۸
ماذا يعنى الجدل؟ ----- ۱۵۸
خطابات الآية ----- ۱۵۸
۱- تنوّع أمثال القرآن ----- ۱۵۹
۲- منع الجدال ----- ۱۶۰
المثل الخامس والثلاثون: التوحيد والشرك ----- ۱۶۰
اشارة ----- ۱۶۰
تصوير البحث ----- ۱۶۰
الشرح والتفسير ----- ۱۶۰
خطابات الآية ----- ۱۶۱
۱- ما المراد من الطيور؟ ----- ۱۶۱

۲- ما المراد من الريح ۱۶۱
۳- لا هدوء للمشرک ۱۶۱
۴- لا إرادة للمشرک ۱۶۱
أهمية التوحيد ۱۶۲
المثل السادس والثلاثون: عبادة الأصنام ۱۶۳
اشارة ۱۶۳
تصوير البحث ۱۶۳
ماهية عبادة الأصنام ۱۶۳
أساليب مواجهة عبادة الأصنام ۱۶۴
الشرح والتفسير ۱۶۵
اشارة ۱۶۵
۱- هل هناک تشبيه فی آية المثل؟ ۱۶۵
۲- هل الذباب موجود حقير؟ ۱۶۶
جسر نحو التوحيد فی شهر التوحيد ۱۶۶
المثل السابع والثلاثون: ذات اللّه لا مثيل لها ۱۶۶
اشارة ۱۶۶
تصوير البحث ۱۶۶
الآية تشتمل علی مثلين ۱۶۷
هل يجوز التمثيل لذات اللّه؟ ۱۶۷
الشرح والتفسير ۱۶۷
اشارة ۱۶۷
۱- الهداية ۱۶۸
۲- التربية والنمو ۱۶۸
۳- إيجاد القدرة والحركة ۱۶۸

۴- رفع موانع الحياة ----- ۱۶۸
الأشياء التى شُبِّهت بالنور ----- ۱۶۹
السراج فى التاريخ ----- ۱۷۰
الشرح والتفسير ----- ۱۷۱
خطابات الآية ----- ۱۷۱
۱- ما المراد من نور اللّه؟ ----- ۱۷۱
۲- «يَهْدِى اللَّهُ لنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ» ماذا تعنى؟ ----- ۱۷۱
كيف يقوى إيماننا؟ ----- ۱۷۲
مباحث تكميلية ----- ۱۷۳
تفاسير متباينة لآية واحدة! ----- ۱۷۳
اشارة ----- ۱۷۳
الف: التفسير الفلسفى ----- ۱۷۴
باء: التفسير الروائى ----- ۱۷۴
المثل الثامن والثلاثون: سراب الحياة ----- ۱۷۴
اشارة ----- ۱۷۴
تصوير البحث ----- ۱۷۵
الشرح والتفسير ----- ۱۷۵
خطابات الآية ----- ۱۷۶
۱- المثل لدنيا الكافرين أم لُاخراهم؟ ----- ۱۷۶
۲- الاسلام دين النوعية لا الكمية ----- ۱۷۷
المثل التاسع والثلاثون: أعمال المشركين ----- ۱۷۷
اشارة ----- ۱۷۷
تصوير البحث ----- ۱۷۷
الشرح والتفسير ----- ۱۷۷

خطابات الآية ----- ۱۷۸
۱- أعمال الكافرين فقط، لماذا؟ ----- ۱۷۸
۲- «ظُلُماتٌ بعضُها فَوْقَ بَعْضٍ» إلى أى شىء تشير؟ ----- ۱۷۸
۳- الجبر أم الاختيار؟ ----- ۱۷۸
مباحث تكميلية ----- ۱۷۹
۱- مظاهر من نور الإيمان ----- ۱۷۹
۲- علامة الإيمان ----- ۱۸۰
المثل الأربعون: الأضل سبيلا ----- ۱۸۰
اشارة ----- ۱۸۰
تصوير البحث ----- ۱۸۰
الشرح والتفسير ----- ۱۸۰
لماذا شُبِّه الكفار بالحيوانات؟ ----- ۱۸۲
خطاب الآية ----- ۱۸۳
العزَّة فى ظل الإيمان ----- ۱۸۳
المثل الحادى والأربعون: اتَّخذوا أولياءً من دون اللَّه ----- ۱۸۳
اشارة ----- ۱۸۳
تصوير البحث ----- ۱۸۳
أهمية التوحيد ----- ۱۸۳
الشرح والتفسير ----- ۱۸۳
خطابات الآية ----- ۱۸۴
۱- أصنام جديدة ----- ۱۸۴
۲- بيت العنكبوت من آيات اللَّه العظمى ----- ۱۸۴
۳- فلسفة التمثيل بحيوان ضعيف ----- ۱۸۵
۴- قيمة العلم ----- ۱۸۵

مباحث تكميلية ----- ۱۸۵
۱- لنعتبر من التاريخ ----- ۱۸۵
اشارة ----- ۱۸۵
خلاصة قصة قوم سبا ----- ۱۸۵
۲- أليس الاتكال على غير اللّه اتكال على بيت العنكبوت؟ ----- ۱۸۶
المثل الثانى والأربعون: توحيد المالك ----- ۱۸۶
اشارة ----- ۱۸۶
تصوير البحث ----- ۱۸۶
فروع التوحيد ----- ۱۸۶
اشارة ----- ۱۸۶
۱- توحيد الذات ----- ۱۸۷
۲- توحيد الصفات ----- ۱۸۷
۳- التوحيد فى الأفعال ----- ۱۸۷
۴- التوحيد فى الحاكمية ----- ۱۸۷
۵- توحيد المالك ----- ۱۸۸
الشرح والتفسير ----- ۱۸۸
خطابات الآية ----- ۱۸۸
بحث تكميلى ----- ۱۸۹
الرق من وجهة نظر الاسلام ----- ۱۸۹
المثل الثالث والأربعون: انتصار الفئة القليلة على الفئة الكثيرة ----- ۱۹۰
اشارة ----- ۱۹۰
تصوير البحث ----- ۱۹۰
الشرح والتفسير ----- ۱۹۰
خطابات الآيات ----- ۱۹۲

اشارة ۱۹۲
۱- لا تخافوا قلّة عددکم ۱۹۲
۲- الاتحاد سرّ الانتصار ۱۹۲
۳- التخطیط فی التبلیغ ۱۹۲
المثل الرابع والأربعون: الشرک والتوحید ۱۹۲
اشارة ۱۹۲
تصویر البحث ۱۹۳
التوحید أساس الاصول والفروع ۱۹۳
الشرح والتفسیر ۱۹۳
خطابات الآیة ۱۹۴
۱- وحدة مصدر القرارات ۱۹۴
۲- علی علیه السلام مصداق کامل لآیة المثل ۱۹۴
المثل الخامس والأربعون: المسیح عیسی علیه السلام ۱۹۵
اشارة ۱۹۵
تصویر البحث ۱۹۵
معنی (المثل) فی استخدامات القرآن ۱۹۶
هل آیة هذا البحث مثل قرآنی؟ ۱۹۶
اشارة ۱۹۶
التفسیر الأول ۱۹۶
التفسیر الثانی ۱۹۷
التفسیر الثالث ۱۹۷
خطابات الآیة ۱۹۷
الضجیج من معالم الجاهلیة ۱۹۷
المثل السادس والأربعون: الصحابة ۱۹۷

اشارة ----- ۱۹۷
تصوير البحث ----- ۱۹۸
شأن نزول الآية ----- ۱۹۸
أوصاف أصحاب الرسول فى التوراة ----- ۱۹۹
على عليه السلام نموذج كامل للصفات الخمس ----- ۲۰۰
مثل أصحاب الرسول فى الإنجيل ----- ۲۰۰
خطابات الآية ----- ۲۰۱
۱- الاسلام دين عالمى ----- ۲۰۱
۲- المثل لا يشمل جميع أصحاب الرسول ----- ۲۰۲
المثل السابع والأربعون: الغيبة ----- ۲۰۲
اشارة ----- ۲۰۲
تصوير البحث ----- ۲۰۲
تعريف مجمل بسورة الحجرات ----- ۲۰۳
الشرح والتفسير ----- ۲۰۳
خطاب الآية ----- ۲۰۴
الغيبة قبيحة للغاية ----- ۲۰۴
مباحث تكميلية ----- ۲۰۴
۱- عاقبة الذى يستغيب ----- ۲۰۴
۲- لا نخدع أنفسنا ----- ۲۰۵
۳- إضفاء صفة القداسة على الغيبة ----- ۲۰۵
المثل الثامن والأربعون: قرب اللّه من الانسان ----- ۲۰۵
اشارة ----- ۲۰۵
تصوير البحث ----- ۲۰۵
إلقاء نظرة على الآيات السابقة للمثل ----- ۲۰۵

الشرح والتفسير ----- ۲۰۶
خطاب الآية ----- ۲۰۷
آثار الايمان بقرب اللّه ----- ۲۰۷
مباحث تكميلية ----- ۲۰۷
۱- أمثال اخرى لقرب اللّه من الانسان ----- ۲۰۷
۲- حديث للامام الكاظم عليه السلام ----- ۲۰۷
المثل التاسع والأربعون: مثل آخر للحياة الدنيا ----- ۲۰۷
اشارة ----- ۲۰۸
تصوير البحث ----- ۲۰۸
الشرح والتفسير ----- ۲۰۸
خطابات الآية ----- ۲۰۹
۱- الدنيا خادعة وفانية ----- ۲۰۹
۲- الهدف من الخلق ----- ۲۰۹
المثل الخمسون والحادى والخمسون: اليهود ----- ۲۱۰
اشارة ----- ۲۱۰
تصوير البحث ----- ۲۱۰
تاريخ اليهود فى المدينة ----- ۲۱۰
شأن نزول الآيات ----- ۲۱۰
الشرح والتفسير ----- ۲۱۱
خطابات الآية ----- ۲۱۲
۱- أعداء الاسلام ضعفاء ----- ۲۱۲
۲- الجهل سبب الاختلاف ----- ۲۱۲
۳- الوثوق بالمنافقين خطأ ----- ۲۱۲
۴- تاريخ المتقدّمين يضىء الطريق للمتأخرين ----- ۲۱۲

۵- خُطى الشيطان والمنافقين واحدة ----- ۲۱۲
المثل الثانى والخمسون: جاذبية القرآن المتميّزة ----- ۲۱۳
اشارة ----- ۲۱۳
تصوير البحث ----- ۲۱۳
جاذبية القرآن العجيبة ----- ۲۱۳
الشرح والتفسير ----- ۲۱۳
خطاب الآية ----- ۲۱۴
هيبة القرآن وعظمته ----- ۲۱۴
المثل الثالث والخمسون: علماء بلا عمل ----- ۲۱۴
اشارة ----- ۲۱۴
تصوير البحث ----- ۲۱۴
شأن النزول ----- ۲۱۴
الشرح والتفسير ----- ۲۱۴
خطابات الآية ----- ۲۱۵
۱- المثل عام ----- ۲۱۵
۲- لماذا الحمار؟ ----- ۲۱۵
۳- سبب التعبير بالأسفار لا الكتب ----- ۲۱۵
۴- الهداية تستدعى قابلية ----- ۲۱۶
۵- الآية شاملة لكلِّ عالم غير عامل ----- ۲۱۶
العلماء غير العاملين فى الروايات ----- ۲۱۶
المثل الرابع والخمسون: من خصائص المنافقين ----- ۲۱۶
اشارة ----- ۲۱۷
تصوير البحث ----- ۲۱۷
أوصاف المنافقين ----- ۲۱۷

الشرح والتفسير ----- ۲۱۷
خطاب الآية ----- ۲۱۸
معيار النفاق ----- ۲۱۸
مباحث تكميلية ----- ۲۱۸
۱- مَن هو المنافق؟ ----- ۲۱۸
۲- أخطار النفاق ----- ۲۱۹
المثل الخامس والخمسون: الضوابط لا العلاقات ----- ۲۲۰
اشارة ----- ۲۲۰
تصوير البحث ----- ۲۲۰
دراسة إجمالية لسورة التحريم ----- ۲۲۰
قصة التحريم ----- ۲۲۰
الشرح والتفسير ----- ۲۲۱
خطاب الآية ----- ۲۲۱
ملاک النجاة هو العمل الصالح ----- ۲۲۱
المثل السادس والخمسون: استقامة زوجة فرعون ----- ۲۲۲
اشارة ----- ۲۲۲
تصوير البحث ----- ۲۲۲
الشرح والتفسير ----- ۲۲۲
خطابات الآية ----- ۲۲۳
۱- الاستقلال الفكرى ----- ۲۲۳
۲- لماذا لم تستخدم آسية التقية؟ ----- ۲۲۳
۳- التعذيب عامل تكامل أو وسيلة قهر! ----- ۲۲۴
قصة إيمان آسية ----- ۲۲۴
المثل السابع والخمسون: مريم بنت عمران ----- ۲۲۵

اشارة ----- ۲۲۵
تصوير البحث ----- ۲۲۵
الشرح والتفسير ----- ۲۲۵
فوارق هذا المثل مع المثلين المتقدّمين ----- ۲۲۶
خطابات الآية ----- ۲۲۶
۱- العفَّة رأس مال عظيم ----- ۲۲۶
۲- الارادة أساس العمل ----- ۲۲۷
المثل الثامن والخمسون: تصوير للمؤمنين والكافرين ----- ۲۲۷
اشارة ----- ۲۲۷
تصوير البحث ----- ۲۲۷
نظرة إلى الآيات التى سبقت المثل ----- ۲۲۷
الشرح والتفسير ----- ۲۲۸
مشاكل حركة الزواحف ومعايبها ----- ۲۲۸
خطاب الآية ----- ۲۲۸
الإيمان ينبوع المحاسن ----- ۲۲۹
من هو المؤمن؟ ----- ۲۲۹
مراتب الايمان ----- ۲۲۹
المثل التاسع والخمسون: البخلاء ----- ۲۲۹
اشارة ----- ۲۲۹
تصوير البحث ----- ۲۲۹
الشرح والتفسير ----- ۲۳۰
خطابات الآية ----- ۲۳۱
۱- الاستئثار بلاء خطر ----- ۲۳۱
۲- الهدف من البلاء والعذاب ----- ۲۳۲

۳- العلاقة بين الذنب وانقطاع الرزق ----- ۲۳۲

۴- العناد أو الإنابة؟ ----- ۲۳۲

۵- العلاقة بين التسبيح والتوبة ----- ۲۳۲

المثل الستون: الموقف تجاه الكلام الحق ----- ۲۳۳

اشارة ----- ۲۳۳

تصوير البحث ----- ۲۳۳

الشرح والتفسير ----- ۲۳۳

خطابات الآية ----- ۲۳۴

۱- القرآن ذكر والرسول مذكِّر ----- ۲۳۴

۲- ينبغي الإصغاء لنداء الحق ----- ۲۳۵

۳- عوامل التذكُّر ----- ۲۳۵

تعريف المركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية ----- ۲۳۵

امثال القران

اشارة

سرشناسه : مکارم شیرازی ناصر، - ۱۳۰۵ عنوان و نام پدیدآور : امثال القرآن تالیف مکارم الشیرازی اعداد ابوالقاسم علیان‌نژاد؛ تعریب تحسین البدری مشخصات نشر : قم مدرسه الامام علی‌بن ابیطالب ع ، ۱۳۸۲. مشخصات ظاهری : ص ۵۵۲ شابک : ۹۶۴-۶۶۳۲-۹۴-۷ وضعیت فهرست نویسی : فهرستنویسی قبلی یادداشت : عنوان اصلی مثالهای زیبای قرآن (امثال القرآن . یادداشت : عربی یادداشت : کتابنامه به‌صورت زیرنویس موضوع : قرآن -- امثال شناسه افزوده : علیان‌نژادی ابوالقاسم ۱۳۴۳ - ، گردآورنده و مصحح شناسه افزوده : بدری تحسین مترجم رده بندی کنگره : BP۸۴/۴/م۷م۲۰۴۳ ۱۳۸۲ رده بندی دیویی : ۲۹۷/۱۵۴ شماره کتابشناسی ملی : م۸۲-۱۳۱۸۱

الإهداء

إلی المتعطشین لزلال معارف القرآن الطاهرة. إلی الباحثین فی علومه الرفیعة. إلی عشاقه الذین أحبوا العیش فی ظله والحشر معه.

إنارة

إنّ کتاب (امثال القرآن) عبارة عن محاضرات القاها سماحة آیة الله العظمی مکارم الشیرازی خلال شهری رمضان من عامی ۱۴۱۸ و ۱۴۱۹ و قد قام بتدوینها و اعدادها حجةالاسلام والمسلمین ابوالقاسم علیان نژادی و قام دار النشر (نسل جوان) بنشر نسختها الفارسیة، کما قام بنقلها إلی العربیة الشیخ تحسین البدری و صُیفت حروفها فی المؤسسة الإسلامیة للبحوث و المعلومات (دانا فجر) و برعایة خاصة منها. و الموضوع باعتباره طُرح علی شکل محاضرات قد یفقد بعض الترتیبات الفنیة التی یستلزمها أی کتاب، لذا نأتی بعنوان مکتب المؤلف لتقبّل الاقتراحات و الانتقادات البناءة، ولإتاحة الفرصة لابداء الرأی لمن أحب ذلک. ایران- قم- شارع الشهداء- مدرسة الإمام أمیرالمؤمنین علیه السلام مرکز نشر و تدوین آثار سماحة آیةاللّه العظمی المکارم الشیرازی (مدّظلّه). gro .izarihsmerakam .www

المقدمة

الحمد لله رب العالمین، والصلاة والسلام علی جمیع الانبیاء والمرسلین، لا سیّما أفضلهم خاتم النبیین، وعلی آله الطاهرین المعصومین المنتجبین. لقد عدّ الرسول صلی الله علیه و آله (فی الخطبة الشعبانیة المعروفة) شهر رمضان شهر المغفرة والبرکة. «۱» انه شهر الرحمة، لان أعمال الانسان الروتینیة مثل النوم والتنفس فی هذا الشهر لها ثواب العبادة فضلًا عن العبادة نفسها. إنّه شهر المغفرة والعفو، لأن بحر لطف الله وعفوه موّاج فی هذا الشهر. أبواب الجنة فیه مفتوحة وأبواب جهنم مغلقة، والشیاطین فی غلّ وسلاسل. یغفر فی کل لیلة منه- حسب ما فی روایة- لسبعین الف وفی لیلة القدر یغفر بعدد الذین غفر لهم خلال هذا الشهر الا اولئک الذین یحملون البغض والعداوة عن اخوانهم فی الدین، ولا یغفر لهم حتی یتصالحوا. «۲» انه شهر البرکة، لان فیه نزول انواع النعم والمواهب المعنویة والالهیة، انه شهر نزول وابل الرحمة علی الانسانیة، واهم نعمة فیه هو نزول القرآن المجید (أی مائدة السماء العظمی). هنیئاً امثال القران، ص: ۸ لاولئک الذین ینهلون من زلال معارفه ویتأملون فیها ویتدبرون ویلتقطون من بحر تعالیمه الجواهر ومن حدیقة حکمه ومواعظه الازهار. ان بعضاً من الدول الاسلامیة وبخاصة ایران الاسلامیة تعطّر نفسها فی هذا الشهر بالتبلیغ والاعلام للمعارف الالهیة.

ان النـاس بـدخولهم فى ضـيافة الله يسـتقبلون المبلغين وعشـاق المعـارف الالهيـة، لـذلك نرى جلسات القرآن وتلاوته وتفسـيره وبيان معـارفه والاحكـام الدينيـة والتوسـل بأهل البيت عليهم السـلام فى كل شارع وزقاق. إنّ جلسات المرجع الكبير آيـة الله العظمى مكارم الشـيرازى (مد ظله) من جملة تلك الجلسات حيث اختصت بتفسير القرآن، فانه فى محاضراته هذه يسقى عشاق هذا الكتاب من زلال معارف القرآن المجيد. ان موضوع التفسـير فى محاضرات آية الله مكارم الشيرازى لعامى ۱۴۱۸ و ۱۴۱۹ ه. ق هو (أمثال القرآن) وهو موضوع رغم بساطته يعدّ من اهم وأعقد المفاهيم القرآنية. مع الالتفات إلى قوة طرح الموضوع وسلاسة بيان هذا المفسر الجليل وغنى المطالب التى تضـمنتها المحاضـرات، بادرت إلى جمع هذه المطالب وتدوينها وتنظيمها ونشرها بعد اخذ الرخصة من سماحته. وما فى متناول ايدينا هنا هو عبارة عن الشكل المنظم والمرتب لمحاضراته تقدم لعشاق المعارف الالهية والقرآنية. وننبه هنا على النقاط التالية: ۱- قـد يظن بعض القراء الاعزاء انّ آيات (أمثال القرآن) قـد فسـرت بالمقـدار الكافى فى تفسـير (الأمثل)، الا ان مطالعـة هـذا الكتاب يكشف لنا ان الاسـتاذ الجليل قـد توصل فى هـذه المحاضـرات إلى حقائق جديدة وبديعة ومفيدة جداً لم يشـر لها فى تفسـير (الامثل) رغم كـل مزايـاه وامتيـازاته، وهو لا يغنينا عن مطالعـة هـذا البحث. ۲- ينقل الاسـتاذ آيـة الله العظمى مكارم الشـيرازى (زيـد عزه): انّ البعض اعترض عنـدما بـدأت بتأليف تفسـير (الامثل) قائلًا بكفاية (مجمع البيان) ولا ضـرورة لتفسـير جديد، الا ان امثال القران، ص: ۹ مضى الزمان وتدوين تفاسير جديدة مثل (الميزان) و (الامثل) كشف عن حاجة الناس وتطلعهم للجديد مما يستشف من كتاب الوحى الالـهى. انه كتـاب مصـداق للحـديث الشـريف للرسول صـلى الله عليه و آله: «لاـ تشـبع منه العلمـاء ولا يخلق عن كثرة رد ولا تنقضـى عجائبه». «۱» وان المفسـرين فى كـل عصـر موظفون للنهل من مسـتجداته وذلك بالافادة من العلوم والإكتشافات الجديـدة؛ وكما قيل (كم ترك الاـول للاخر). ۳- نقرّ بنواقص التـدوين والتنظيم، لـذلك نمـدّ اليكم- أيها القراء الإفاضل- يـد العون لنسـتقبل الإقتراحات والانتقادات البناءة. ربنا أحينا مع القرآن وامتنا معه، واحشـرنا معه، آمين يا رب العالمين. ربنا تقبل منا انك انت السـميع العليم. الحوزة العلميـة فى قم ابو القاسم عليان نژادى ۱۸/ ۱۲/ ۱۳۷۶ الموافق للحادى عشـر من ذى القعدة يوم ولادة الامام على بن موسى الرضا عليه السلام.

تحليل لأمثال القرآن

أهمية القرآن وشهر رمضان

شهر رمضان الـذى هو شـهر نزول القرآن له علاقة محكمة بالقرآن. ولأجل بيان هذه العلاقة نقوم بدراسة اجمالية لبعض آيات القرآن المجيـد. يبيّن القرآن فى الآية ۱۸۳ من سورة البقرة حكم وجوب الصوم، وإيضاحاً لأهميته يطرح قضـية شـمولية الصوم للنحل الاخرى ويقول: «كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُم» ثم يعتبر التقوى وتربية الروح هى نتيجة الصيام. ثم يستثنى ثلاث طوائف من وجوب الصوم فى الايـة ۱۸۴ اما الطائفـة الاخيرة فملزمـة باداء الكفارة وهى بحجم ۷۵۰ غراماً من الحنطـة او ما شابه. كما أن هـذا العجز المـذكور فى الايـة يرفع وجوب الصوم على البنـات اللاـتى بلغن تواً باعتبـارهن لم يتجـاوزن العشـر؛ فان البلوغ هو احـد شـروط وجوب الصوم؛ والاطاقـة هو الشـرط الاـخر له، وبـذلك تحل مشـكلة هـذه البنات، فان الصوم غير واجب على البالغات تواً واللاتى لم يطقن الصوم لضـعف جسـمهن وصغر سنهن. وفى الاية ۱۸۵ من نفس السورة يعلن القرآن أن شـهر رمضـان شـهر الصوم، ويبين اهمية هذا الشـهر من حيث انه شـهر نزول القرآن ويقول: «شَـهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدَىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى والفُرْقَان ...» ان المسـتشف من هـذه الآيـة هو ان نزول القرآن فى ليلـة القـدر على صدر الرسول صـلى الله عليه و آله هو اهم خصوصـية يمتاز بها هذا الشهر الكريم.

علاقة شهر رمضان المبارك بالقرآن

شهر رمضان شهر العبادة والتربية وترك المعصية واداء الطاعة. لاجل القيام بهذه المهمة نحتاج إلى التعليم والتربية معاً. ان (القرآن) يعلم الانسان و (الصوم) يربيه. ولا يصل الانسان إلى الكمال الا بهما. وفى الحقيقة؛ ان (القرآن) من دون فريضة (الصوم) تعليم ناقص ومن دون تربية. والصوم من دون (قرآن) تربية فاقدة للعلم والمعرفة. ولذلك فعلى المسلم ان يصوم ويحيى شهر رمضان لكى يتربى، وباقترابه بالقرآن وانسه معه يهتدى، وذلك لان القرآن هداية وبينات وفرقان «هُدَىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى والفُرْقَانِ» إن كتاباً كهذا نزل فى شهر رمضان، كما قد وجب الصوم فى الشهر ذاته لذلك ينبغى الالتفات الخاص إلى هذين الهديتين.

موضوع البحث

تلاوة القرآن فضيلة كبرى، وبخاصة فى شهر رمضان المبارك فان فضيلة ذلك لا تعد ولا تحصى. وهذه الفضيلة تحصل فى وقت تتزامن فيه التلاوة مع التدبر والتفكّر الذى يطهر الروح ويوفر الأرضية للعمل. ولهذا الغرض ارتأينا ان يكون لنا درس تفسير القرآن فى شهر رمضان هذا العام «۱» وقد اخترنا موضوع (أمثال القرآن) ليكون ارضية جديدة فى التفسير ولكى تعم فائدته. لماذا جاء القرآن بالامثال؟ يشاهد فى القرآن اكثر من خمسين مثلًا «۲» ففى سورة البقرة التى هى ثانى سورة يوجد عشرة امثال على أقل تقدير. فما هى الحكمة فى الامثال بحيث جاء بها القرآن وبهذا الحجم؟ امثال القران، ص: ۱۳ الجواب: ان المثل يعنى تشبيه الحقائق العقلية بالامور الحسية الملموسة. فمن جانب هناك أمور عقلية كثيرة لا يفهمها اكثر الناس. ومن جانب آخر، فإن الناس اعتادوا على المحسوسات والعينات الملموسة، ولهذا كان المثل (عقول الناس فى عيونهم) وهو يعنى ان ادراك الناس للامور الملموسة والمرئية اسهل لهم. ومن هنا طرح القرآن بعض المفاهيم العقلية الرفيعة فى قالب الامثال ليسهل على الناس ادراكها. وعلى هذا؛ فان فلسفة امثال القرآن هو تنزيل القضايا العميقة والرفيعة إلى مستوى يتناسب مع أفق تفكير الناس.

الأمثال العملية واللسانية

اشارة

ينبغى الالتفات هنا إلى نقطة وهى ان بعض الامثال عملية وتبين بلسان العمل، وبعضها لفظية تبين باللسان والقول. ان أمثال القرآن هى من النوع الثانى، الا انه يشاهد بعضاً ما فى سيرة الرسول صلى الله عليه و آله واهل بيته الاطهار عليهم السلام امثال عملية، وهى بالطبع ذات تأثير اكثر، «۱» نأتى هنا بنموذجين من ذلك.

۱- عندما تتراكم الذنوب الصغيرة

إنَّ رسول الله صلى الله عليه و آله نزل بارض قرعاء فقال لاصحابه: «ائتونا بحطب»- قد هدف الرسول من ذلك شيئاً غير الاعداد للنار- فقالوا: يا رسول‌اللّه نحن بارض قرعاء ما بها من حطب. قال: «فليأت كل انسان بما قدر عليه»، فجاؤوابه حتّى رموا بين يديه بعضه على بعض. فقال رسول الله صلى الله عليه و آله: «هكذا تجتمع الذنوب» ثم قال: «اياكم والمحقرات من الذنوب فان لكل شىء طالباً الا وان طالبها يكتب ما قدموا وآثارهم. وكل شىء احصيناه فى امام مبين». «۲» نعم ان الذنوب الصغيرة قد تتراكم لتبلغ مستوى الجبل ارتفاعاً، وكثافة جبلٍ من النار. ان خطر الذنوب الصغيرة هو عدم الإنتباه إليها واتخاذ موقف اللامبالاة تجاهها، فذكَّر الرسول صلى الله عليه و آله بخطرها بهذا المثل العملى.

۲- ترسيم نار جهنم

عندما كان الامام على عليه السلام خليفة كان له اخ صاحب اطفال وعائلة وما كانت تكفيه مؤنة بيت المال فطلب من الامام سهماً اكبر من بيت المال فكان جواب الامام على عليه السلام ... ولنقرأ القصة على لسان الامام نفسه: «والله لقد رأيت عقيلًا وقد املق «۱» حتى استماحنى «۲» من بركم «۳» صاعاً، ورأيت صبيانه شعث «۴» الشعور، غبر الالوان «۵» من فقرهم، كانما سودت وجوههم بالعظلم «۶» وعاودنى مؤكداً وكرر على القول مردداً فاصغيت اليه سمعى فظن انى ابيعه دينى، واتبع قياده «۷» مفارقاً طريقتى، فأحميت له حديدة ثم أدنيتها من جسمه ليعتبر بها، فضج ضجيج ذى دنف «۸» من ألمها، وكاد ان يحترق من ميسمها. «۹» فقلت له: ثكلتك الثواكل «۱۰» يا عقيل! أتئن من حديدة احماها انسانها للعبه وتجرنى إلى نار سجرها جبارها لغضبه! اتئن من الاذى ولا ائن من لظى! «۱۱» وأعجب من ذلك طارق طرقنا بملفوفة «۱۲» فى وعائها ومعجونة شنئتها «۱۳» كانما عجنت بريق حية او قيئها، فقلت أصِلة «۱۴» ام زكاة ام صدقة؟ فذلك محرم علينا اهل البيت؟ امثال القران، ص: ۱۵ فقال: لا ذا ولا ذاك ولكنها هدية. فقلت هبلتك الهبول! «۱» أعن دين الله اتيتنى لتخدعنى؟ امختبط انت او ذو جنة «۲» ام تهجر» والله لو أعطيت الاقاليم السبعة بما تحت افلاكها على ان اعصى الله فى نملة اسلبها جلب «۴» شعيرة ما فعلته، وان دنياكم عندى لاهون من ورقة فى فم جرادة تقضمها «۵» ما لعلى ولنعيم يفنى، ولذة لا تبقى!! نعوذ بالله من سبات «۶» العقل، وقبح الزلل «۷» وبه نستعين». «۸» ان هذه الامثال تسهل ادراك وهضم كثير من المفاهيم، ولها وقع وتأثير يفوق النصيحة الموعظة ان هذا المثل لا يختص بعقيل وفى ذلك الزمن والعصر فحسب بل انه مثل للجميع وفى كل العصور والازمنة. ولهذا الغرض استخدم القرآن الامثال.

الهدف من الامثال من لسان القرآن

لقد بُيّن الهدف من الأمثال فى بعض آيات القرآن، نأتى هنا بثلاثة نماذج: ۱- فى الاية ۲۵ من سورة ابراهيم بعد ما شبّه (الكلمة الطيبة) بالشجرة الطيبة- وسيأتى بحث ذلك- يقول فى اخر الاية: «وَيَضْرِبُ اللهُ الأمثالَ للنّاس لَعَلّهُم يَتَذَكّرون» وعلى هذا فالتذكير هو من أهداف الامثال. ۲- فى الاية ۲۱ من سورة الحشر بعد ما يشبّه بعض القلوب بالجبال وان امكانية التأثير على الجبال اكثر من امكانية التأثير على هذه القلوب يقول فى نهاية الاية: «وتِلْكَ الأمثَال نَضْرِبُها للناس لَعَلّهُم يَتَفَكّرُون» وعلى هذا فالتفكّر هو من اهداف هذه الامثال. امثال القران، ص: ۱۶ ۳- وفى الايات ۴۰- ۴۳ من سورة العنكبوت، بعد ما يشبّه من اتخذ اولياء من دون الله بالعنكبوت الذى يتخذ بيتاً وهناً. يقول فى نهاية الاية ۴۳: «وَتِلْكَ الأمثال نَضْرِبُها للنّاسِ ومَا يَعْقِلُها إلّا العَالِمُون» وحسب ما فى هذه الاية فإنَّ تعقل العلماء هو من اهداف تلك الامثال. يمكننا استنتاج ثلاث مراحل لتأثير الأمثال على النفوس، هى كالتالى: الاولى: مرحلة التذكر وهى مرحلة مرور حقيقة الخطاب الالهى فى الذهن. الثانية: مرحلة التفكر، وهى مرحلة التفكير فى موضوع المثل وحكمته. الثالثة: مرحلة التعقل وهى مرحلة ادراك وهضم الحقائق. «۱»

أهمية خطاب المثل

إن الناس فى كثير من الأمور يعدّون الكبير دليلًا على العظمة والصغير دليلًا على قلة الأهمية، لكن الواقع ليس كذلك فالمهم هو الخطاب الذى يحمله ذلك الشىء أو يستهدف المتكلم بيانه. والأمر كذلك فى القرآن فالمهم هو الخطاب الذى يوجهه ويهدفه من خلال المثل لا عظمة او حقارة (الممثل به). يقول الله فى الاية الشريفة ۲۶ من سورة البقرة: «إنَّ اللهَ لا يَسْتَحى أنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فأَمَّا الذَّينَ آمنُوا فيَعْلَمُونَ أنَّهُ الحَقّ منْ رَبِّهِمْ وأمَّا الذين كَفَرُوا فيَقُولُونَ مَاذَا أرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِى بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إلّا الفاسقين».

تأمُّل فى الآية

إنَّ التأمل فى الايـة يرشـدنا إلى النتائـج التاليـة: الاولى: ان الله تعالى اعتبر الهدف من الامثال هو هداية البشـر. الثانية: ان موضوع المثل ومحتواه يحظى بأهمية تفوق اهمية المضـمون الظاهرى امثال القران، ص: ۱۷ والموجودات المذكورة فى المثل. الثالثة: إن المخلوقات جميعاً ولو كانت بعوضة تكشف عن عظمة الخالق.

الشرح والتفسير

قبل البـدء بتفسير الايـة ولأجل اعداد الاذهان للاستيعاب الاعمق نذكر هنا باقتضاب شأن نزولها. ان التحجج او التذرع بالحجج هو من مواصـفات المنـافقين. ان المنـافق يتحجـج ويماطـل ويتـذرع بالتبريرات الباطلـة فى كل قضـية ومسألـة، انه لا يهتم بتوجهات المخاطب ومواقفه؛ وذلـك لانـه ينظر إلى القضـية من موقف مخـالف ويعمـل على اساس هـذه الرؤيـة. وكمثال على ذلك نفرض ان شـخصاً او اشـخاصاً بنوا مركزاً اسـلامياً يضم مسـجداً و مكتبـة ومصـلى ومستشـفى وداراً للعجزة و .. ففى هذه الحالة سـيعرب المنافق عن شـعوره بالكلمات التاليـة: هل من الصـحيح بناء مركز بهـذه الضـخامة والكلفـة فى هذه المدينة رغم ما تضم من الفقراء والجياع؟ الم يكن من الصـحيح ان تصـرف هذه المبالغ لاجل اشـباع الفقراء وسد رمقهم؟ الم يكن من الأفضل ان تصـرف هذه المبالغ لاجل تزويج الشـباب العزاب؟ ألم يكن من الأفضل أن يـداوى بهذه المبالغ المرضـى من المحتاجين والفقراء؟ ألم يكن من الافضل أنْ تصـرف هذه المبالغ فى سبيل تعليم الشـباب وتربيتهم؟! إنّ هذا الشـخص او الاشخاص الخيرين لو صرفوا هذه المبالغ لاجل اطعام المساكين واعانة الشباب ومداواة المرضـى و .. لاحتج هذا المنافق بحجج اخرى ولتمسك بذرائع من قبيل قوله: أى اسـلام هذا واى مسلمين هؤلاء، فانا لا نجد فى هذه المدينة مسـجداً، وقد خصصتم هذه المبالغ الطائلة لامور تافهة لا فائدة فيها، انكم قد ضيّعتم الاسلام باعمالكم هذه! تعلّموا من اليهود والنصارى؛ فانهم يبنون معابـد فخمـة وجميلـة تجـذب الانسان نحوها تعلموا من الهنـدوس فإنهم يبنون معابد عظيمة لاصـنامهم الجامـدة. والخلاصـة؛ إنّ غايـة المنافق هى المشاكسـة والمخالفة وزرع بذور الشك والاختلاف وايذاء الآخرين. امثال القران، ص: ۱۸ ومع الالتفات إلى هـذه المقدمـة نقوم بشـرح الايـة المـذكورة. عنـدما نزلت بعض الامثال القرآنيـة بـدأ المنافقون بالترديـد فى المسألة والاشـكال فيهـا والقول: (مـا هـذه الامثـال التى جاءت فى القرآن)؟ إنّ شأن الله أرفع من ان يمثل بموجودات ضـعيفة مثل الـذباب «۱» والعنكبوت، او ان يمثل بموجودات جامـدة مثل الرعد والبرق «۲» وقد كانوا يهدفون من هذا الحديث القاء التشكيك فى الهية القرآن ومصـدره الربـانى، وان القرآن ليس من الوحى الالـهى. بـالطبع، لو لم تنزل هـذه الايـات والامثال او نزلت بكلمات وصـياغات معقـدة لتمسـك المنـافقون- قطعاً- بـذرائع اخرى ولقالوا: (كيف يمكن لهـذا ان يكون كلام الله مع انا لا نفهم منه شـيئاً)؟ او لقالوا: (لماذا لم ينزل الله هذه المفاهيم والحقائق بلغة بسـيطة يفهمها الجميع)؟ كما ان هذا قد حصل لشـعيب عليه السلام وقد حكته الآية الشريفة (۹۱) من سورة هود: «قَالُوا يَا شُعَيْبُ ما نَفْقَه كَثِيراً مِمّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً ولَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاك وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ». يستفاد من الآيـة ان التمسـك بالـذرائع كان منطقهم، من جانب اخر كانوا يقولون: «لا نَفْقَهُ كَثِيراً مِمّا تَقُولُ» أى لا نفهم ما تقول، ومن جانب اخر يقولون: «لَوْلا رهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ» أى لولا قبيلتك لقتلناك فيجيبهم شـعيب عليه السلام: «قَالَ يَا قَوْم أَرَهْطِى أعزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ الله؟!». «۳» بما ان المنافقين اللجوجين كانوا يشـككون ويحتجون على التمثيل بالجمادات او الموجودات الضعيفة جاءت الاية ۲۶ من سورة البقرة لتجيب عليهم وتـدحض حججهم: «إنّ اللهَ لا- يَسْتَحِى أنْ يضـرِبَ مَثَلًا ما بَعُوضَـةً فَمَا فَوْقَها ...». إنّ بلاغـة الكلام تقتضـى تارة التمثيل بالموجودات الكبيرة وتارة بالموجودات الصـغيرة؛ فكلما اريد من التمثيل بيان العظمة شـبّه بشىء كبير، واذا ما اريد بيان ضعف الشىء وخواءه امثال القران، ص: ۱۹ شـبّه بشىء ضعيف وصغير من الحيوانات والجمادات. وعلى هذا؛ فان التمثيل بالشىء الكبير لا يدل على فصاحة الكلام وبلاغته دائماً. اذن، لا اشـكال على القران عند تمثيله بشـىء يتناسب مع موضوع المثل والهدف منه مهما كان صـغيراً او كبيراً. ان المؤمنين والصـالحين، حيث يعلمون بحقيقـة هـذه الامثـال ومحتواهـا، يعلمون بانهـا الحق وأنهـا من ربهم ولا ينكرونها، لكن المنافقين والكافرين لتعصبهم ولجاجتهم يقولون: «مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً ويَهْدِى بِه كَثِيراً»؟!.

خطأ المنافقين

إنّ خطأ المنافقين الكبير هو عدم توجههم او عدم رغبتهم للتوجه إلى أنّ بلاغة القرآن وفصاحته أحد وجوه إعجاز القرآن المجيد والرسول الكريم. «۱» إنّ الفصاحة والبلاغة- وهما من العلوم التى تدرس فى الحوزة العلمية؟- بتعبير مقتضب هما عبارة عن ما يلى: إنّ ظاهر البيان إذا كان جميلًا قيل انه فصيح، واذا كان ذات معنى رفيع شاناً قيل انه بليغ. وعلى هذا؛ الفصاحة والبلاغة- وهما من وجوه اعجاز القرآن- يعنيان الجمال الظاهرى والرفعة فى محتوى الخطاب. حقاً ان القرآن فصيح وبليغ أى ان ظاهره جميل وجذاب يدعو إلى الإصغاء اليه، ومحتواه رفيع معنى وشأنا. ان بلاغة القرآن وفصاحته إلى درجة جعلت الاعداء تسميه السحر! وذلك لأنه يجعل الصاغى يسلّم اليه ويخضع له، وهذا بحد ذاته اقرار واعتراف بجاذبية القرآن امثال القران، ص: ۲۰ الشديدة والخارجة عن المتعارف. إنّ كثيراً من الناس آمن اثر سماعه آيات من القرآن.

جاذبية القرآن وانقاذ المسلمين

هاجر الكثير من المسلمين فى صدر الإسلام إلى الحبشة اثر الضغط المتزايد الذى لاقوه من المشركين فى مكة. ولهذا بعث الكفار مبعوثين عنهم حاملين معهم هدايا وافرة إلى النجاشى ملك الحبشة لارجاع المسلمين إلى مكة. طمَّع المبعوثان فى البداية حاشية ملك الحبشة ثم جاءوا للملك قائلين له: (أيها الملك، انه قد ضوى (أى لجأ) إلى بلدك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينك وجاءوا بدين ابتدعوه، لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا اليك فيهم اشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم اليهم، فهم أعلى بهم عيناً، واعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه). كان المجلس لصالح الكفار من جميع النواحى وقد كان المشركون اعدوا من قبل المقدمات لكسب الموقف لصالحهم. لكن باعتبار كياسة النجاشى ورفعته، طلب من المسلمين بيان مواقفهم؛ فبدأ جعفر بن أبى طالب (رض) بالحديث وعرّف بالاسلام وبالرسول صلى الله عليه و آله والقران فطلب النجاشى منه قراءة بعض من الآيات. وباعتبار الزمان والمكان وباعتبار ان الحضور ينتمون إلى الديانة المسيحية قرأ آيات من القرآن تناولت ولادة عيسى- على نبينا وآله وعليه السلام- وهنا انقلب المجلس الذى كان قد أعد ليكون لصالح الكفار وبضرر المسلمين فى البداية، انقلب لصالحهم وبدأت عيون النجاشى و رجال دينه تغرورق بالدموع. ان فصاحة القرآن وبلاغته وجاذبيته كانت بدرجة من التأثير على النجاشى حيث جعلته يرد هدايا الكفار ويسمح لجعفر والمسلمين بالاقامة فى الحبشة إلى أى وقت شاءوا. «۱»

نموذج آخر لتأثير القرآن

ان النموذج الآخر لتأثير فصاحة القرآن وبلاغته هو قصة اسعد بن زرارة. ان قبيلة اسعد كانت لفترة طويلة فى صراع محتدم بينها وبين قبيلة اخرى. فغادر اسعد يوماً ما المدينة إلى مكة قاصداً زيارة بيت الله والأصنام التى فيها، فواجه فى الطريق احد المشركين حذره من السماع لساحر يجلس قرب حجر إسماعيل، فانشغل اسعد بالطواف الا انه عندما شاهد وجه الرسول النورانى فكر، ورجح السماع والاصغاء لما يقوله الرسول صلى الله عليه و آله وقرر ان يعرض عنه إذا كان كلامه غير منطقى «۱» وعندما اقترب من الرسول وسمع منه بعض الايات انجذب له إلى مستوى طلب منه تلاوة آيات أُخرى، فتلى الرسول له .. ثم أسلم. وحكى للرسول قصة الاختلاف بين قبائل المدينة ودعى الرسول للمجيء إلى المدينة لأجل حل هذه الاختلافات. «۲»

خطابات الاية

۱- البعوضة ليست حيواناً حقيراً!

إنّ كثيراً من المفسرين المعروفين ومنهم المرحوم الطبرسى (ره) فى تفسيره القيم (مجمع البيان) ينقل حديثاً عن الامام الصادق عليه السلام فى ذيل الاية، حيث قال: «إنما ضرب الله المثل بالبعوضة لأن البعوضة على صغر حجمها خلق الله فيها جميع ما خلق فى الفيل مع كبره وزيادة عضوين آخرين فأراد الله تعالى أن يُنبّه بذلك المؤمنين على لطيف خلقه وعجيب صنعه». «۳» ان الله فى الحقيقة أراد بهذا المثال بيان ضرافة الخلق، وان التفكّر فى هذا الحيوان الضعيف ظاهراً- الذى خلقه الله شبيهاً لأكبر حيوان فى اليابسة- ليرشد الانسان إلى عظمة خالقه. امثال القران، ص: ۲۲ التوضيح: فى جسد البعوضة ضعيفة الجسم نفس الاعضاء الموجودة فى فيل ضخم. ففيه جهاز الهضم، وخرطوم دقيق ذات منفذ رفيع، وأعضاء للحركة واجهزة للتناسل و .. اضافة إلى هذا، فان للبعوضة قرنين تشبه الهوائيات وذلك للتواصل فيما بينها وبين البيئة المحيطة بها وهو أمر يفقده الفيل.

۲- حجابان عظيمان: كثرة النعم والتعود عليها

إنّ سبب غفلة الإنسان عن نعم الله العظيمة وعدم تفكره فى دقة الخلق وضرافته هو شيئان: الاول: حجاب كثرة النعم؛ فإن وفرة النعم تجعل الإنسان يستهين ولا يعتد ولا يفكر بها. وكمثال على ذلك: ان البعوضة لو كانت نادرة فى العالم ووقعت بأيدى العلماء، لاعتبرها هؤلاء العلماء موجوداً ذات اهمية وأهلًا للدراسات والتحقيق العلمى. الثانى: حجاب التعود؛ فان العين مثلًا من آيات الخلق العظمى؛ الا انا لم نفكر بها ولا نتمعّن فى خلقها. الاذن كذلك، فهو مستلم قوى ودقيق وعجيب الا انا بسبب تعودنا عليه لا نعرف قدره ولا نثمنه مع انا لو دققنا ليس فى هذين فقط بل فى كل اشياء العالم لوجدناها عجيبة ومدهشة وتكشف عن اسرار الخلق والعظمة والتوحيد.

۳- الهداية والضلالة فى القرآن

فى نهاية الآية يجيب الله المنافقين الذين قالوا: «مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِى بِه كَثِيرَاً» حيث قال: «وما يُضِلُّ بِهِ إلَّا الفَاسِقِينَ» فى هذه الاية وامثالها «۱» نسبت الضلالة إلى الله كما نسبت الهداية فى آيات اخرى «۲» اليه كذلك. إذا كانت الهداية والضلالة من الله ونحن مجبورون عليهما ولا إرادة لنا فى ذلك فلماذا يثيب امثال القران، ص: ۲۳ الله المهتدين ويعاقب الضالين رغم انهم مجبورون على ذلك؟ هناك آراء مختلفة فى تفسير هذه الآية وأمثالها، فبعض قال: ان المراد من (يضل) هو (يمتحن) أى ان الله يريد امتحان الناس من خلال هذه الامثال. «۱» ويقول البعض الاخر: ان الهداية والضلالة تعنيان إعداد المقدمات لهما لا نفسهما والقرار النهائى فيهما يرجع إلى ارادة الإنسان نفسه. وكأن الله يسلب الموفقية من الإنسان اللجوج، فيراد من الضلالة- على هذا- سلب الموفقية. «۲» ان سبب الاختلاف بين المفسرين يرجع إلى صعوبة معنى المفردتين وتعقدهما، ولهذا علينا ايضاحهما اولًا ثم البتّ فى حل مشكلة الاختلاف فى تفسيرهما.

معنى الهداية والضلالة

انتبهوا إلى هذا المثال: ان قطرات الغيث الشفافة والسليمة والمانحة للحياة تنزل على الكرة الارضية اجمع، كما ان الشمس تسطع على هذه الكرة وتمنحها نوراً وطاقة. انّ الغيث والشمس كلاهما من رحمة الله الا ان المحاصيل الزراعية التى تنتجها الأراضى التى تتمتع بهذين النعمتين تختلف، ففى الاراضى المالحة تنبت الادغال، بينما فى الاراضى الاخرى تنبت الازهار والنباتات المطلوبة. هل سبب هذا الاختلاف الغيث والشمس ام سببه ملوحة الارض؟ لا شك فى ان منشأ الاشكال هو الارض فلو نثرت بذور الازهار مكان بذور الادغال فى هذه الارض لتبدلت الارض إلى حديقة أزهار. وعلى هذا فلو قيل: ان المطر جاء لنا بالادغال فان ذلك لا يعنى ان المطر هو السبب فى ذلك بل الارض كانت سقيمة. ان قضية الهداية والضلالة تجرى هذا المجرى، فان وابل الرحمة الالهية نزل بواسطة الرسول صلى الله عليه و آله على قلوب جميع البشر، وقد اصغى الجميع لوحى القرآن، فالذين قد أعدوا أراضى قلوبهم من ذى قبل،

اهتدوا، اما اولئك الذين لم يغسلوا ملوحة قلوبهم بزلال الايمان ولم يعدوا انفسهم فضلّوا. امثال القران، ص: ۲۴ إنّ آيات القرآن تؤيد هذا الادعاء، فالاية الثانية من سورة البقرة تقول: «ذَلِكَ الكِتَابُ لا رَيْبَ فِيْهِ هُدىً للمُتَّقِين» أى ان الهداية تتغمد اولئك الذين ازالوا ستار التعصب واللجاجة عن نفوسهم ولهم اذن صاغية. وفى الاية المبحوثة هنا (۲۶ من سورة البقرة) يقول الله: «مَا يُضِلُّ بِهِ إلّا الفاسِقينَ» أى انهم كانوا فاسقين واراضى قلوبهم مالحة لذلك اضلهم الله، ونبتت فى قلوبهم- اثر نزول مطر الرحمة والإيمان- أدغال الكفر. ويقول الله فى سورة الروم الآية ۱۰: «ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الّذِينَ أسَاءوا السُّوأى أن كَذَّبُوا بِآياتِ اللهِ ..» أى أنّ تكذيب آيات الله والضلالة كانا نتيجة أعمال الظالمين انفسهم. «۱» وعلى هذا؛ فالهداية والضلالة نتيجة لاعمالنا والله- الحكيم على الاطلاق- وضع مقدرات للعباد حسب حكمته. إذا خطوتُ و خطوات لاجل كسب الالطاف الالهية فانى سافوز بهدايته واذا ما خطوتُ و فى طريق غير الحق فانى ساكون مصداقاً للآية الشريفة «إنَّ الله يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ويَهْدِى إلَيْهِ مَنْ أنَابَ» وكان مصيرى الضلالة. ذيل الاية يفيد ان الهداية ليست من غير حساب، بل تتغمد الإنسان هداية ربانية إذا ما خطى باتجاه طريق الحق وتاب إلى الله، إلّا أنّ الذى يعادى الله فلا يكون مصيره الا الضلالة. الخلاصة: لا جبر فى البين، وان الهداية والضلالة هما نتيجتان لاعمال الإنسان ذاته، وان الضلالة سم قاتل فلا يلوم الشخص إلّا نفسه إذا ما تجرّعه بارادته. إن آيات (الهداية والضلالة) ليست بتلك الدرجة من التعقيد؛ وقد فسرتها آيات أخرى من القرآن. وفى النهاية ان تكليف المسلم هو العمل ما فى وسعه لاجل اعداد ارض القلب لاستقبال مطر الرحمة الإلهية، وان يطلب من الله التوفيق والعفو عما صدر منه من أخطاء. امثال القران، ص: ۲۵

المثل الأول: المنافقون

اشارة

المثل الاول لموضوع بحثنا هو ما ورد فى الآيات ۱۷ و ۱۸ من سورة البقرة: «مَثَلُهُم كَمَثَلِ الَّذى اسْتَوقَدَ نَاراً فلمَّا أضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَب الله بِنُورِهِمْ وَتَرَكهُم فى ظُلُمَاتٍ لا يُبْصُرون صُمٌّ بُكم عُميٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ».

تصوير البحث

تحدثت الاية عن المنافقين الذين تستروا بستار النفاق؛ الا ان التمزق كان عاقبة هذا الستار، والخزى هو عاقبة المنافقين انفسهم. ان المنافق شُبّه هنا بانسان ضلّ وحيداً فى صحراء يسعى للحصول على طريق لانقاذ نفسه من خلال استيقاد النار، إلّا أنّ ذلك لم ينفعه ولا زال فى حيرة من أمره.

الشرح والتفسير

دُوّن تفسيران للآية الشريفة:

التفسير الأول: إنَّ مثل المنافقين مثل الذين يضلون فى صحراء ظلماء ومخوفة. افرضوا أنّ مسافراً تخلف وحيداً عن قافلته فى صحراء ظلماء، فهو لا- يملك نوراً ولا- ضوءاً ولا- دليلًا يرشده، ولا- يعرف الطريق ولا- يملك بوصلة. فهو يخاف قطاعى الطرق والحيوانات المفترسة من جهة، ويخاف الهلاك من الجوع والعطش من جهة أخرى. وهذا يدفعه للتفكير بجدية امثال القران، ص: ۲۶ بطريق والسعى الأوفر للخلاص مما هو فيه. فيجد حطباً بعد البحث المتوالى فيستوقد ناراً ثم يأخذ بشعلة نار بيده، إلّا أنّ الريح تطفئ الشعلة فيبادر إلى جمع حطب آخر ليوقد ناراً أخرى إلّا ان بحثه هذا لا- يؤدى به إلا إلى ضلال آخر وانحراف عن الطريق تارة اخرى. إنَّ المنافقين كهذا المسافر فهم قد ضلوا الطريق. انهم يعيشون فى ظلمات فى حياةٍ مضيئة. تخلفوا عن قافلة الانسانية والايمان. ولا دليل

لهم على الطريق، لأنّ الله سلب عنهم نور الهداية، وتركهم فى ظلمات. للمنافقين شخصيات مزدوجة، ظاهرها مسلمة وباطنها كافرة؛ ظاهرها صادقة وباطنها كاذب؛ ظاهرها مخلص وباطنها مرائى، ظاهرها أمين وباطنها خائن، ظاهرها الصداقة وباطنها العداوة و .. انهم يصنعون من ظاهرهم إنارة خادعة. يتظاهرون بالاسلام وينتفعون بمزايا الإسلام؛ فذبيحتهم حلال واعتبارهم وعرضهم محفوظ وأموالهم محترمة، ويتمتعون بحق الزواج من المسلمين و .. انهم يتمتعون بمنافع مادية ودنيوية قليلة يحصلون عليها من خلال تلك النار التى استوقدوها، إلا ان هذه النار تخمد بعد الموت «ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ» ويتركهم الله آنذاك فى ظلمات القبر والبرزخ والقيامة وحينئذ يدركون ان لا فائدة فى اسلامهم الظاهرى وايمانهم الريائى. النتيجة هى أن فى الآية أو المثل تشبيهاً، المنافقون هم المشبهون والمسافر المحتار فى الصحراء هو المشبه به ووجه الشبه هو الحيرة والضلالة وأن لا أثر لسعيه الظاهرى. التفسير الثانى: فيما يخص التفسير الأول ينبغى التذكير هنا بان الاضاءة الظاهرية لتلك النار والظلمات التى تلحق تلك الإضاءة لا تختص بعالم القيامة المعنوى؛ بل إنّ لها نتائج فى هذه الدنيا كذلك. لا يتمكن المنافق اخفاء نفاقه للابد فانه سيفتضح فى النهاية؛ وهذا يحصل فيما لو وجد نفسه أو مصالحه عرضة للخطر والفناء، فانه يفصح عن خلده القذر آنذاك كما افصح المنافقون فى صدر الإسلام عن بواطنهم فى الحروب والحوادث المختلفة؟! ألم نرَ بأم اعيننا فى الثورة الاسلامية وخلال النهضة التى سبقتها كم من المنافقين كشفوا بمرور الزمن عن بواطنهم النتنة وأزالوا نقاب النفاق عمّا فى دواخلهم وافتضحوا فى هذه الدنيا امثال القران، ص: ۲۷ - أعاذنا الله من شرور أنفسنا- وعلى هذا؛ فان «ذَهَبَ اللّه بِنُورِهِم» لا يختص بالاخرة والقيامة بل انه أمر يتحقق فى هذا الدنيا كذلك.

خطابات الآية

۱- أقسام المنافقين

ان المنافق ليس شخصاً بالضرورة، بل يمكن ان يكون جماعة أو منظمة أو حزب بل وحتى حكومة دولة ما. لقد شاهدنا افتضاح بعض الدول التى تتقمص بالاسلام ظاهراً وتشترك فى المجالس والمؤتمرات الاسلامية. وذلك إثر اتضاح العلاقة بينها وبين أكبر أعداء الإسلام أى اسرائيل الغاصبة، وافشاء أمر العقود المبرمة بينها وبين اسرائيل ما خفى منها وما ظهر. فان ضوء نار ادعاءاتها اخذت بالخمود وثبتت ازدواجيتها ورياءها. نعم؛ ان ذلك هو عاقبة النفاق «فاعْتَبِرُوا يَا أُولِى الأَبْصَار».

۲- صور النفاق

من الأمور التى تستنتج من البحث الاجمالى السابق هو صور النفاق المختلفة وهى كالتالى: أ- النفاق فى العقيدة: وذلك مثل الذى يدعى بلسانه الإسلام، الا انه لا يعد مسلماً، أو أنه يتظاهر بالايمان لكنه لا يحسب من زمرة المؤمنين. ب- النفاق فى الكلام: وهو كالذى ينطق بكلام لا يعتقد به. وعلى هذا، فان الكاذب منافق لأنه لا يتطابق قلبه مع لسانه. ج- النفاق فى العمل: وهو مثل الذى يتضاد ويختلف عمله مع نيته وباطنه، كالذى يتظاهر بالصلاة أو الامانة لكنه فى الواقع لا يصلى وخائن. «۱»

۳- علائم النفاق

يحكى الرسول صلى الله عليه و آله فى رواية له عن علائم المنافق حيث يقول: «ثلاث من كن فيه كان منافقاً امثال القران، ص: ۲۸ وان صام وصلى وزعم انه مسلم، من إذا أؤتمن خان، و إذا حدث كذب و إذا وعد اخلف ...». الأولى: الخيانة، ان الخائن منافق وذلك لانه يتظاهر بالأمانة وهو فى الواقع خائن. وعلى هذا لا يمكننا أن نأتمنه بيت المال. قد يكون البعض امناء تجاه الأموال القليلة إلا انهم

يفصحون عن واقعهم الخائن عند ائتمانهم على الأموال الطائلة. الثانية: الكذب، ان الكاذب منافق وذلك لانه يبطّن نوايا قذرة ومخالفة للحقيقة والواقع من خلال تملقه الكلامى، رغم انه يصلى ويقرأ دعاء الندبة والتوسل وغيرهما. الثالثة: خلف الوعد، ان الذى يخلف الوعد منافق، وذلك لأنَّ الوفاء بالوعد ضرورى من الناحية الاخلاقية ومن الناحية الفقهية قد يكون واجباً أحياناً. «۱» وخلاصة الكلام هنا ان كل نوع من الأزدواجية يعدّ نفاقاً.

۴- نبذة من تاريخ المنافقين

اشارة

لم تخل المجتمعات البشرية من المنافقين ابداً، ويمكن ان يقال ان النفاق وجد منذ ان بدأ الإنسان حياته على الكرة الأرضية، وعداء المنافقين للبشرية اتضح منذ ذلك الحين. إذا عد المنافقون اخطر أعداء المجتمعات البشرية فذلك بسبب انهم يتقمصون قميص الاصدقاء ويبطنون العداء. ان مقارعة الأعداء هى احد صفات المجتمعات البشرية، وهى آلية تفقد فاعليتها عند المنافق، وذلك لانه يظهر نفسه صديقاً، ولهذا كان ألد الأعداء، ولأجل ذلك كانت التعابير القرآنية فى حقه شديدة جداً.

المنافقون فى القرآن

كلما قلنا سابقاً، فإنَّ القرآن أشار إلى المنافقين بتعابير شديدة نشير إلى بعضٍ منها هنا: أ- يقول الله فى الآية ۴ من سورة المنافقين: «هُمُ العَدُوُّ فاحْذَرْهُمْ». امثال القران، ص: ۲۹ لقد أشار القرآن المجيد إلى أعداء المسلمين «۱» من خلال آياته الشريفة لكنه لم يستخدم هكذا اسلوب تجاه أيٍّ من الأعداء. وحسب قواعد اللغة العربية فان الجملة تفيد ان المنافقين هم الاعداء الحقيقيون للانسان. ب- يقول الله فى تتمة الاية: «قَاتَلَهُمُ اللهُ أنَّى يُؤْفَكُونَ» أى ينحرفون عن الحق. إنَّ هذا الخطاب الشديد فريد ولم يستعمله القرآن فى مورد اخر. «۲» ج- يقول الله فى الاية ۱۴۵ من سورة النساء: «إنَّ المُنَافِقِينَ فِى الدَّرْك الأسْفَلِ مِنَ النَّارِ ولَنْ تَجِدَ لهُمْ نَصِيراً» وعلى هذا ينبغى تجنب صداقة أعداء الله التى هى من علائم النفاق. إن (الدرج) أو (الدرجة) ذات معنى واحد وهو نفسه الذى فى (دَرْك) أو (دَرَك) إلّا أنّ المفردتين الأولتين تستخدمان للسّلم بلحاظ الاتجاه إلى الأعلى، بينما تستخدم المفردتان الاخيرتان بلحاظ اتجاه السلم إلى الأسفل. كما أنّ كلًا منهما استخدم مرة واحدة فى القرآن. «۳» ان (الدرك الاسفل) هو قعر جهنم أو اخفض نقطة فيها، ومن البديهى ان يكون العذاب فى هذه النقطة اشد، ومن هنا نستنتج أنّ الله أعدّ أشد العذاب للمنافقين. وهذا يكشف عن مدى حساسية موضوع النفاق وخطر المنافقين فى جميع العهود ماضياً وحاضراً.

خطر المنافقين من وجهة نظر رسول الإسلام صلى الله عليه و آله

ينقل المرحوم الشيخ عباس القمى (رض) فى كتابه القيّم (سفينة البحار) تحت مادة (نَفَق) حديثاً ملفتاً عن الرسول صلى الله عليه و آله نأتى به هنا: امثال القران، ص: ۳۰ «إنى لا أخاف على أمتى مؤمناً ولا مشركاً، أمّا المؤمن فيمنعه الله بايمانه وأما المشرك فيقمعه الله بشركه، ولكنى أخاف عليكم كل منافق عالم اللسان، يقول ما تعرفون ويفعل ما تنكرون». «۱» وفقاً لهذه الرواية، إنَّ الرسول صلى الله عليه و آله كان قلقاً على المجتمع الاسلامى من خطر المنافقين، وقلقه لم ينحصر فى العهود الماضية وفى الحجاز فحسب؛ بل ان قلقه

شامل لجميع العصور والبلاد الاسلامية وحتى الجمهورية الإسلامية الإيرانية.

۵- التعبير ب (النار) فى القرآن

هناك نتيجتان تترتبان على استخدام القرآن لمفردة (نار) لا (نور): الاولى: ان الدخان والرماد من لوازم النار، والمنافق يبلى الآخرين بما ينجم من مضار عن هذه النار التى اججها بنفسه، المضار التى نتيجتها التفرقة والضغوط التى تفرض على الناس، هذا مع ان المؤمن ينهل من النور الخالص والمشعل المضىء للايمان. الثانية: رغم تظاهر المنافقين بنور الإيمان الا ان واقعهم نار، واذا تمتعوا فبشعلة ضعيفة وقصيرة مدتها. «۲»

۶- النور والظلمات

يقول الله «وَتَرَكَهُمْ فى ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ». إنَّ مفردة (ظلمات) استخدمت ۲۳ مرة فى القرآن، ولم تستخدم فى مورد من الموارد بصيغتها المفردة بل كانت فى جميع هذه الموارد جمعاً. أما مفردة (النور) فقد استخدمت ۴۳ مرة فى القرآن وفى صيغة المفرد لا الجمع. ويا ترى أليس فى ذلك خطاب؟ سر هذا يرجع إلى أنّ القرآن يريد بيان ان النور واحد مهما كان نوعه، وهو نور الله «اللهُ امثال القران، ص: ۳۱ نُورُ السَّمَواتِ والأَرْضِ». «۱» أما نور الايمان ونور العلم ونور اليقين ونور الاتحاد والتلاحم وفكلها ترجع إلى نور واحدٍ، وهو نور الله ولا نور غيره؛ لذلك لم يستخدم القرآن النور الا بصيغة المفرد. أمّا النفاق والكفر والاختلاف والتفرقة فهى ليست ظلمة واحدة، بل ظلمات متعددة، هناك ظلمة الجهل وظلمة الكفر وظلمة البخل وظلمة الحسد وظلمة عدم الخوف من الله وظلمة الهوى والهوس وظلمة الوساوس الشيطانية و .. وخلاصة الظلمات متنوعة وليست واحدة، لذلك استخدمت بصيغة الجمع.

۷- خصال المنافقين الثلاث

إنّ المنافقين- حسب هذه الآية (۱۸)- لهم ثلاث خصال: الأولى: صمّ، وهى صيغة جمع لأصم وتعنى عدم السمع. الثانية: بكم، وهى صيغة جمع لأبكم وتعنى أخرس. والآية تعنى أنهم لا يسمعون ولا ينطقون. إنّ الاصم لا يستطيع التكلم رغم سلامة جهاز النطق عنده؛ لأنَّ الإنسان لا يمكنه ان ينطق بكلمة لم يسمعها ولم يتعلمها، ولذلك جاء القرآن بصفة الاصم قبل صفة الابكم، وهى تعنى فى النهاية ان المنافقين صمّ وبكم دائماً. الثالثة: عمى، وهى جمع (أعمى) وتعنى فاقد البصر، وعلى هذا فان المنافقين صم بكم وعمى، أى لا اذن لهم يسمعون بها ولا لسان لهم ينطقون به ولا عين لهم يبصرون بها. ومع هذا الحال، كيف يمكنهم معرفة الطريق الصحيح وكيف يمكنهم ادراك انحرافهم وخطأهم؟ إنَّ هذه الحواس والعناصر الثلاثة هى وسائل معرفة الإنسان، فالاذن وسيلة للتعلم، واللسان وسيلة لنقل العلوم من جيل إلى آخر، والبصر هو وسيلة لاكتشاف العلوم والظواهر الجديدة، والذى يفقد هذه العناصر الثلاثة لا يمكنه الخروج من الطريق المنحرف كما لا يمكنه الرجوع إلى طريق الحق. لكن يطرح سؤال هنا وهو: انا نشهد المنافقين يتمتعون بالحواس الثلاث، فلم القرآن ينفيها عنهم؟ امثال القران، ص: ۳۲ نقول فى الجواب: للقرآن منطقاً خاصاً فينُظر إلى كل شىء فى معجم القرآن من حيث الاثار التى تترتب عليه، ووجود الشىء وعدمه يتوقف على وجود آثاره وعدمها. وعلى هذا؛ فالذين يتمتعون بنعمة النظر لكنهم لم يستخدموه لمشاهدة آيات الله والاعتبار من مناظر الدنيا هم فى الحقيقة عمى حسب رؤية القرآن. واولئك الذين يتمتعون بنعمة السمع لكنهم لا يصغون لكلام الله ولا صوت المظلومين والمستضعفين فهم صم فى منطق القرآن. واولئك الذين يتمتعون بنعمة اللسان لكنهم لا يشغلونه فى ذكر الله والامر بالمعروف والنهى عن المنكر وارشاد الجاهل و .. فهم بكم فى معجم القرآن. ووفقاً لهذا المعجم فى مقياس اوسع اعتبر بعض الاحياء من الناس أمواتاً، وبعض الاموات احياءً، كمثال على ذلك يصف القرآن شهداء طريق

الحق بأنهم احياء رغم انهم اموات ظاهراً. «وَلَا تَحْسَبَنَّ الّذين قُتِلُوا فِى سَبِيْلِ اللهِ أمْوَاتاً بَلْ أحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ». «۱» إنَّ الشهداء من وجهة نظر القرآن احياء؛ وذلك لانهم يحضون بالتأثير الذى يحضى به الإنسان الحى، فانهم يقوّون الإسلام وذكرهم يداعى فى الاذهان المعروف والحسنات. ويقول القرآن فى مكان آخر: «إنْ هُوَ إلّا ذِكْرٌ وقُرْآنٌ مُبِينٌ لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيّاً وَيَحِقَّ القَولُ على الكَافِرِينَ». «۲» إنّ الأحياء من وجهة نظر القرآن المجيد وفق هذه الاية هم طائفتان: الاولى: المؤمنون الذين يعيشون حياة قرآنية. الثانية: غير المؤمنين وهم اموات يعيشون بين الأحياء، فإنّ الذين يفقدون الأذن الصاغية أموات حسب رأى القرآن. وفى النتيجة إنّ المنافقين رغم ما يحضون به من اذن وعين ولسان، يفقدون الآثار الوجودية المترتبة على هذه الحواس. لذلك عُدّوا صمّاً وبُكماً وعُمياً من وجهة نظر القرآن، فهم إذن (لا يَرْجِعُونَ) أى لا يرجعون عن طريق الباطل؛ وذلك لأنهم يفقدون آليات المعرفة؛ شأنهم شأن الذى تجتمع فيه صفات الصم والبكم والعمى وقد أخذ بالسقوط، فإنّا لا يمكننا انقاذه أبداً؛ امثال القران، ص: ۳۳ لأنه لا لسان له ليستنجد ولا اذن له ليسمع تحذيرنا، ولا يملك عيناً ليرى بها علائم الخطر قبل أن يسقط.

۸- منشأ (النفاق)

للنفاق ثلاثة مناشىء:

الأول- العجز عن المواجهة والنزاع المباشر: ان الاعداء عندما يخسرون النزاع ويفقدون القدرة عليه بشكل مباشر، يتقمصون قميص النفاق ليستمروا بالعداء والخصومة. إنّ اعداء الرسول صلى الله عليه و آله كانوا يتظاهرون بالعداء له، لكنهم تظاهروا بالاستسلام عندما تغلب الرسول عليهم واستمروا يبطنون الكفر والعداء له وللإسلام وإنَّ أبا سفيان وأمثاله ضلوا منافقين إلى آخر عمرهم. «۱» ولأجل ذلك كان الإعتقاد بأن النفاق بدأ من المدينة؛ لأن الإسلام فى مكة كان ضعيفاً، وما كان أحد يخافه. لذلك ما كان حاجة للتظاهر بالإسلام وتبطين الكفر الا انا نعتقد ان النفاق بدأ من مكة رغم ان دواعى النفاق فى مكة لم تكن الخوف، بل داعى النفاق آنذاك هو توقع البعض مستقبلًا زاهراً للإسلام، الأمر الذى يضمن لهم مستقبلًا وموقعاً جيداً. يمكننا مشاهدة هذا الاسلوب من النفاق فى جميع الازمنة والثورات منها الثورة الإسلامية فى ايران؛ فان بعض المنافقين هم الأعداء الذين خسروا المعركة ضد الثورة وعيوا النزاع المباشر والعلنى. الثانى- الإحساس بالحقارة الباطنية: ان الشخصيات الضعيفة والجبانة والتى تفقد الشجاعة اللازمة لابراز الاعتراض والتفوه بما يخالف الآخرين، تسعى هذه الشخصيات ان تسلك النفاق منهجاً لحياتها ولتتجنب المواجهة بل تتظاهر بالاتفاق مع الجميع. إن المنافق يتظاهر بالإسلام عند المسلمين ويتظاهر بعبادة النار عند عبدة النار، ويتظاهر امثال القران، ص: ۳۴ بالعلمانية عند العلمانيين؛ وذلك لضعف الشخصية، فهو لا يتجرأ التفوه بعقيدته الواقعية. «۱» الثالث- حب الدنيا: إنّ النفاق الدولى والعالمى لهذا العصر ينبع من هذا المنشأ. إن سبب الازدواجية فى التعامل وانطلاق دعواتٍ لاحترام حقوق البشر من قبل بعض الدول الاستكبارية فى موارد، وسكوت ذات الدول فى موارد أخرى، رغم ما تحصل من انتهاكات وجرائم ضد البشرية، هو حب الدنيا. فالدول تطلق هذه الدعوات متى ما تعرضت مصالحها للخطر وتستخدم هذه الحربة ضد الدول التى تعرض مصالحها للأخطار؛ إلّا أنها تتغاضى عن هذه الانتهاكات إذا ما صدرت عن احد صديقاتها التى لا تعرّض مصالحها للخطر، حتى لو كانت الانتهاكات واضحة ولا شبهة فيها ولا تبرير لها. القرآن المجيد يحكى نماذج بارزة ومؤلمة عن هذه الطائفة من المنافقين فى الايات ۷۵- ۷۷ من سورة التوبة: «وَمِنْهُم مَنْ عَاهَدَ اللَه لَئِنْ آتينا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَدَّقَنَّ ولنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ فَلَمّا آتاهُم مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُو بِه وتَوَلَّوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ فأعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فى قُلُوبِهِمْ إلى يَوم يَلْقَوْنَهُ بِمَا أخْلَفُوا الله مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ». هذه الايات نزلت فى ثعلبة بن حاطب، وكان من الانصار فقال للنبى صلى الله عليه و آله: ادع الله ان يرزقنى مالًا. فقال: «يا ثعلبة قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه» أمّا لك فى رسول الله اسوة حسنة؟ والذى نفسى بيده لو أردت ان تسير الجبال معى ذهباً وفضة لسارت». ثم اتاه بعد ذلك فقال: يا رسول الله ادع الله ان يرزقنى مالًا والذى بعثك بالحق،

لئن رزقنى الله مالًا لاعطين كل ذى حق حقه. «۳» فقال صلى الله عليه و آله: «اللهم ارزق ثعلبة مالًا». امثال القران، ص: ۳۵ فاتخذ غنماً فنمت كما ينمو الدود فضاقت عليه المدينة فتنحى عنها فنزل وادياً من أوديتها، ثم كثرت نمواً حتى تباعد من المدينة فاشتغل بذلك عن الجمعة والجماعة. وبعث رسول الله صلى الله عليه و آله اليه المصدق ليأخذ الصدقة فابى وبخل وقال: ما هذه الا اخت الجزية، «۱» فقال رسول الله صلى الله عليه و آله: «يا ويح ثعلبة، يا ويح ثعلبة»، وأنزل الله الآيات. «۲» أرجع القرآن سبب نفاق ثعلبة إلى بخله وحبه للدنيا وخلفه للوعد. والمدهش أنّ الآية الشريفة اعتبرت نفاق امثال ثعلبة مستمراً إلى يوم القيامة ولا يخرج من قلوبهم إلى يوم يلقون الله. اللهم اجعل عواقب امورنا خيراً. إذا اردنا ان لا نبتلى بهذا المرض الخطر علينا تجنب مناشىء النفاق والابتعاد عنها، وبخاصة أنا فى ليالى شهر رمضان المباركة، علينا ان ننهل من بركة هذه الليالى فى الاسحار وذلك باداء صلاة الليل ولو باختصار ومن دون المستحبات جميعها والسجود واللجوء إلى الله والعوذ به من النفاق وجميع الذنوب والرذائل الأخلاقية. امثال القران، ص: ۳۷

المثل الثانى: تمثيل آخر للمنافقين

اشارة

يقول الله فى الايتين ۱۹ و ۲۰ من سورة البقرة: «أَوْ كَصَيِّبٍ منَ السَّماءِ فيهِ ظُلُماتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ، يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُم فِى آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ المَوْتِ واللّه مُحِيطٌ بالكَافِرِينَ يَكَادُ البَرْقُ يَخْطِفُ أبصارَهُمْ كُلَّمَا أضاءَ لهُم مَشَوا فيه وإذا أَظْلَمَ عليهم قامُوا ولو شَاء اللّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِم وأبصَارِهِم إنّ اللّه عَلى كُلِّ شَىءٍ قَدِيْرٌ».

تنوع أمثال القرآن

أمثال القرآن متنوعة جداً. والله استعان بمختلف الأمثال لاجل ايضاح حقائق مهمة لها تأثير بالغ فى تربية الإنسان وسعادته. تارة يمثل الله بالجمادات كما فى الآية ۱۷ من سورة الرعد: (أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً فسَالَتْ أودِيَةٌ بِقَدَرِها فاحْتَمَلَ السَّيْلُ زبَداً رابياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فى النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةً أو مَتَاعٍ زَبَدٌ مثلُهُ كَذَلك يَضْرِبُ اللّه الحقَّ والبَاطِل ..». لأجل ايضاح ماهية الحق والباطل استعان القرآن هنا بالتمثيل بالمطر، فانه عندما ينزل من السماء ينزل زلالًا طاهراً، الا انه عندما يجرى على الارض يتسخ بالوحل وبما على الارض من أوساخ، وتتبدل الاوساخ أحياناً إلى رغوة (زبد) وعندما يصل هذا الماء الجارى إلى أودية يفقد رغوته تدريجياً ليرجع إلى زلاله. والحق والباطل مثل هذا الماء فالرغوة الوسخة بمثابة الباطل والماء الجارى الطاهر بمثابة الحق. وقد يمثل القرآن بالنباتات كما هو الحال فى الاية ۲۴ من سورة ابراهيم: «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ امثال القران، ص: ۳۸ اللّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أصلُهَا ثَابِتٌ وفَرْعُهَا فِى السَّماء». إنّ أبرز مصداق للكلمة الطيبة هو كلمة (لا اله الا الله) فمثّلها الله بالشجرة الطيبة الخضراء دائماً. وقد يمثل القرآن بالحيوانات ونموذج ذلك ما جاء فى الاية ۲۶ من سورة البقرة: «إنَّ اللّه لا يَسْتَحِى أنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ...» فمثّل هنا بحيوان صغير، كما مثل فى سورة العنكبوت الآية ۴۱ بالعنكبوت. وقد يمثل القرآن بإنسان كما فعل فى الآية ۱۷۱ من سورة البقرة: «وَمَثَلُ الّذينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الذى يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إلّا دُعاءً ونِدَاءً صُمٌ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ». مثل الله تعالى الرسول صلى الله عليه و آله فى الاية بالراعى والكفار بالحيوانات التى يرعاها الراعى. إنّ اهم سبب لتنوع أمثال القرآن هو تبسيط الفهم وتعميقه عند المخاطبين الاوائل للقران وهم العرب الاميون فى عهد الجاهلية وكذا المسلمون فانهم باستثناء عدد قليل منهم كانوا اميين وما كانوا يتمتعون بحظ وافر من الفهم والتعقل. وما كان بالامكان تفهيمهم المفاهيم القرآنية الا بهذا الأسلوب وبآلية التمثيل التى تجسد المفاهيم القرآنية الرفيعة. على الجميع وبخاصة العلماء والفقهاء والخطباء و .. ان ينتهجوا منهج القرآن هذا، ليسهلوا على المخاطب إدراك المفاهيم ويؤثروا فى نفسه ويجذبوه نحوها. إنَّ القرآن الذى هو من تجليات الجمال الإلهى هو بنفسه مظهر للجمال الكلامى. وعلى هذا ينبغى اتباع القرآن فى

تسهيل الكلام وتنميقه، ونحن نعدُّ هذا أصلًا قيمياً. اولئك الذين تحضى كتابتهم بالتعقيد وصعوبة الفهم ويعدون استخدام اسلوب التسهيل فى الكتابة علامة على قلة العلم، هم فى الحقيقة انتهجوا منهجاً عكس المنهج الذى سلكه القرآن. «۱» نأمل من الجيل الشاب للحوزة العلمية وطلاب الجامعة ان يعدوا سهولة البيان فناً امثال القران، ص: ۳۹ وقيمة ويعدوا صعوبة الكلام وتعقده كعمل غير قيمى بل مخالف للقيم.

الشرح والتفسير

الآيات ماضية الذكر «۱» تحدثت عن المنافقين وخطر النفاق، وقد تكون آيات المثل السابق ناظرة إلى مجموعة خاصة من المنافقين؛ وهذه الايات ناظرة إلى مجموعة أخرى من ذوى الوجهين. إنَّ مثل هؤلاء المنافقين حسب هذه الايات كمثل المسافر الذى يضل فى صحراء ويتخلف عن قافلته فى يوم ممطر ولا ـ ملجأ يأويه ولا ـ صديق يعينه ولا ـ يعلم الطريق ولا ـ ضوء ينير له الطريق، فى وقت ملئت ظلمات الغيوم السماء بحيث لا يصله حتى نور النجوم الضعيف، والسماء ترتعد، والبرق لا يزيده الا خوفاً ودهشة، وذلك لشدة صوت ووقع الرعد والبرق فى الصحارى، وكأنّ البرق يريد أن يخطف بصره ويعميه، وخوفه من الرعد يجره لوضع اصابعه فى اذنيه وهو مرتجف خوف موت الصاعقة. ان المنافق بمثابة هذا المسافر. «... واللهُ مُحِيطٌ بالْكَافِرِينَ» لقد فسرت الاحاطة فى الاية بتفسيرين: الاول: الاحاطة العلمية لله. الثانى: احاطة الله من حيث قدرته. فاذا كانت الاحاطة بمعناها الاول فالاية تعنى أنَّ الله يعلم بالكافرين. واذا كانت الاحاطة بمعناها الثانى فالاية تعنى ان الله قادر على كل شىء ولا يخرج شىء عن دائرة قدرته. «يَكَادُ البَرْقُ يَخْطِفُ أبْصَارَهُم» وذلك لأنَّ الإنسان إذا اعتاد على مكان مظلم، ثُمَّ يُسلِّط على عينه ضوءً قوياً، فانه سيكون حينئذٍ عرضة للعماء وفقدان البصر. «كُلَّمَا أضَاءَ لَهُم مَشَوْا فِيه» هذا المسافر عندما يشاهد البرق يفرح لأنّه اضاء له الطريق، لكن فرصته لم تدم؛ لأن الضوء سريعاً ما ينطفئ. «وإذا أظْلِمَ عَلَيْهِم قَامُوا» أى يتوقف المسافر بعد ان انطفئ نور البرق، ويرجع إلى حيرته السابقة. امثال القران، ص: ۴۰ «وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وأبْصَارِهِمْ». شأن المنافق شأن هذا المسافر حيث يفيد من نور الايمان، لكن بما أنّ ايمانه ظاهرى لم يستمر الا لمدة محدودة وما يمضى زمن طويل حتى يفتضح ويغرق تارة أخرى فى ظلمات ريائه وكفره ونفاقه.

خطابات الآية

۱- كيفية ايجاد البرق والرعد والصاعقة

إنّ البرق يحصل اثر اصطدام غيمتين أحدهما تحمل شحنات موجبة واخرى شحنات سالبة والاصطدام هذا يولد الضوء المعروف بالبرق؛ كما ان صوتاً شديداً يحصل اثر هذا الاصطدام يعرف بالرعد. وكلما كانت الغيمتان كبيرتين كان البرق والرعد أعظم؛ وذلك لكثرة الشحنات المحمولة من قبل كل من الغيمتين. أمّا الصاعقة فتحصل اثر اصطدام غيمة ذات شحنات موجبة مع مانع ارضى من قبيل الجبل أو الشجرة أو الإنسان، ونتيجة ذلك هى اشتعال الشىء المصطدم به- إذا كان قابلًا للاشتعال- وتبدله إلى كومة من الرماد بسرعة مدهشة، ولذلك يقال: إنَّ الصاعقة خطرة على الإنسان إذا كان فى سهل. ما يلفت الانتباه هنا هو أنَّ بعض الروايات عدت الرعد والبرق نتيجتين لاعمال موجودات ميتافيزيقية، فاعتبرت الرعد اصواتاً للملائكة والبرق من آثار جلد الملائكة للغيوم والسحب. «۱» وهذا أمر يتنافى مع المسلمات العلمية للعصر الحاضر، كما ان هذا الاختلاف يطبع تساؤلًا فى ذهن المتأمّل. يا ترى أى الامرين هو السبب الحقيقى والواقعى للرعد والبرق؟ فى الجواب نقول: لا ـ تضاد بين التبرير العلمى والدينى لظاهرتى البرق والرعد؛ وذلك لأنَّ احد معانى مفردة الملك الواردة فى الروايات هو القوى الطبيعية التى خلقها الله، فالجاذبية امثال القران، ص: ۴۱ والسحاب وغيرها من الظواهر الطبيعية التى سميت فى الروايات ملكاً. لقد جاء فى رواية أنَّ كل قطرة تنزل من السماء يحتضنها ملك وينزلها إلى الارض.

«۱» وبهـذا التبرير أى اعتبار الجاذبيـة ملكاً يمكن القول بعدم التضاد بين الرؤى والكشـفيات العلمية مع ما ورد فى الروايات الدينية، بل ينطبق احدهما على الاخر وتحل بذلك عقدة التضاد الظاهرى بينهما.

۲- الاختلاف بين المثلين

المثلان يتعلقان بالمسافر الذى ضل الطريق فى صـحراء؛ لكن المسافر فى المثل الأول يواجه خطر المجاعة والعطش والافتراس من قبل الحيوانات، أمّا فى المثل الثانى فان الأخطار التى تحدق به هى الاعصار والسيول والرعد والبرق والصاعقة. ومن الطبيعى ان تكون شدة الاخطار فى المورد الثانى اكثر من المورد الأول وتجعل حياته عرضة للموت بشـكل اشد. يعتقد البعض أنَّ المثلين يحكيان حال طائفة خاصـة وهى طائفـة المنـافقين عمومـاً، إلّا أنِّى أرى أنَّ كلًا من المثلين يحكى حـال قسم من المنـافقين، فـان المنافقين ينقسـمون إلى قسـمين: القسم الاول: هم المسـلمون الذين ضعف ايمانهم عن مواجهة المطامع المادية والدنيوية مثل المال والجاه والمقام، فلا يهابون الكذب وخلف الوعد ونكث العهد؛ وصولًا لمآربهم الشخصـية، فهم فى النتيجة (مسـلمون ضعيفو الإيمان) امثال ثعلبة بن حاطب الذى تكلمنا عنه فى الصـفحات الماضية. والقسم الآخر للمنافقين: هم اولئك الذين لم يدخل الايمان فى قلوبهم ابداً وقد تظاهروا به فحسب دون ان يحملوه، وذلـك خوفاً من قـدرة الإسـلام أو طمعاً بمصالـح المسـلمين، فهم فى النتيجـة (كفار متظاهرون بالاسـلام) أمثال أبى سفيان ومعاوية ومروان. ومن الواضح أنّ القسم الثانى هم الاعداء اللدودون للإسـلام ووجودهم يشـكل خطراً على الإسلام والمسلمين يفوق خطر القسم الاول بمرات، ولـذلك نرى أنّ المثل الأول ناظر إلى امثال القران، ص: ۴۲ القسم الاول من المنافقين، والمثل الثانى ناظر إلى القسم الثانى من المنافقين الذين يعدّ خطرهم أشد وأعظم من خطر القسم الأول.

۳- عالم النفاق أو النفاق العالمى

للنفـاق مسـتويات مختلفـة، فمنه ذات المسـتوى الفردى ومنه ذات المسـتوى الجمـاعى والحكومى والعالمى. ومما يؤسف له أنّ عالمنا اليوم عالم منافق حيث يدعو لشىء ويعمل بما يخالف دعوته، والحدث الآتى ذكره من أبسط مظاهر النفاق العالمى واوضحها فى ذات الوقت. أرسل الإنسان فى سـنة من السـنوات الماضـية كلباً فى مركب فضائى وذلك لدراسة تأثير الفضاء على الموجودات الحية، وبعد هبوط المركبـة على وجه الارض وجـد الكلب ميتاً. اذاعـة هذا الخبر آثار إعتراضاً من قبل منظمات الدفاع عن حقوق الحيوانات وكذا غيرهـا من المؤسـسات والجمعيـات وقـد كـان محور الاعتراضات هو: لماذا قتلتم حيواناً فى سبيل تجربـة علميـة؟ إنَّ هـذه الاعتراضات تكشف عن الوجه الظاهرى النزيه للمجتمع الدولى، إلّا أنا نشاهد حالياً مقتل العشرات بل المئات والآلاف من المواطنين الجزائريين فى مجازر جماعيـة دون أنْ تطلق صـرخات ضد هذه المجازر. لمن تلك الايادى التى ترتكب هذه المجازر من دون ان تلاقى اعتراضات معتـد بهـا؟ يـا لهـا من أيـد لا تسـتطيع الشـرطة بل ولا الجيش ان تقف امامها؟ انها ايـدى العالم المتستر والمتقمص قميص الـدفاع عن حقوق الحيوانـات فضـلًا عن حقوق البشـر. ألاـ يمكن ان نقول: ان هـذا العـالم هو عـالم منـافق؟ واى نفـاق يرتكبه؟ انه نفاق وقـح، فيه صرخات تعلو وتشـتد لاجل قتل كلب، كما فيه سـكوت على قتل الشـعوب وارتكاب المجازر الجماعية. إن الإسـلام ووجدان البشـرية ينفر من هذا النفاق العالمى ونحن مطمئنون بان زعماء النفاق سيفتضـحون يوماً ما. الهى اكف المستضعفين وبخاصة المسلمين شر هذا النوع من النفاق.

۴- ظهور المنافقين فى الإسلام

هل (جـذور النفاق) بـدأت من المدينـة ام من مكـة؟ قضـية مختلف فيها. ولاجل ايضاح الموضوع ودراسة تاريخ النفاق والمنافقين فى الإسـلام نسـتعين بالقرآن المجيـد، فقـد جاءت آيات كثيرة فى مجال النفاق، والدراسة الاجمالية للموضوع يكشف عن اسـتخدام هذه

المادة ۳۷ مرة فی القرآن. لکن أمر النفاق والمنافقین لا ینحصر فی هذه الموارد المحدودة؛ وذلک لانا نجد الکثیر من الایات تعرضت لهذه القضیة من دون ذکر لهذه المادة أبداً، کما هو الحال بالنسبة لثلاثة عشر آیة من الایات الاوائل لسورة البقرة «۱» فقد کان موضوعها النفاق من دون ان یأتی ذکر لمادة النفاق مباشرة بل استخدمت مواد مرادفة لمادة النفاق. إنَّ الایات السبع والثلاثین التی تضمنت مادة النفاق، نزلت کلها فی المدینة؛ ومن هنا یمکننا ان نستنتج ان القائلین ببدء النفاق من المدینة نظروا إلی ظاهر القرآن، إلّا أنّ الافضل لنا ان نرجع إلی الوراء قلیلًا لننظر إلی تاریخ حیاة الرسول صلی الله علیه و آله والنبوة وکیفیة التبلیغ ومراحل جهاد الرسول لاعداء الإسلام.

مراحل جهاد الرسول لاعداء الإسلام

اشارة

ان مواجهة الکفار و المشرکین للرسول صلی الله علیه و آله والدین الاسلامی الحنیف ذات مراحل ست:

المرحلة الاولی: الاستهزاء والاستخفاف بالدین

بُعث محمد نبیاً فی غار حراء ونزلت آنذاک اول آیات القرآن علیه، وأصبحت دعوته علنیة بعد ثلاث سنوات من الکتمان والتستر فی دعوة الناس إلی الدین الجدید. کان المشرکون والوثنیون یعتبرون هذا الدین خطراً علی مصالحهم، لکنهم ما کانوا یأخذونه مأخذاً جدیاً لذا بادروا إلی الاستهزاء بالرسول ونسبة الجنون الیه. یقول الله فی هذا المجال فی الایة ۶ من سورة الحجر: «قَالُوا یَا أَیُّها الّذی نُزِّلَ عَلَیْهِ الذِّکْرَ إِنَّکَ امثال القران، ص: ۴۴ لَمَجْنُونٌ» «۱» وکانوا یستهدفون من ذلک عدم اخذ الناس هذا الدین مأخذاً جدیاً، وعدم الاعتناء والتصدیق بکلام الرسول؛ إلّا أنّ المسلمین رغم هذه الاتهامات کانوا یزدادون یوماً بعد اخر، وکان الناس وبخاصة الشباب «۲» منهم یصغون لکلام الرسول وینجذبون الیه، لذلک باءت مواجهتهم فی هذه المرحلة بالفشل، وباتوا یفکرون بمواجهة أخری ومرحلة أخری من التصدی.

المرحلة الثانیة: نسبة السحر والشعر للرسول صلی الله علیه و آله

بما أنّ الکفار لم ینجحوا فی الحد من تأثیر الرسول علی الناس، من خلال المرحلة الاولی من المواجهة، بادروا إلی التصدی له بنعته بالکذب والشعر والسحر. إنّ النسبة هذه تعنی أنهم قالوا للناس: إنّ تأثیر الرسول فیهم لأجل کونه- نعوذ بالله- ساحراً ذکیاً وشخصیة مرموقة ویجذب النفوس نحوه لعلمه بالشعر وامتهانه مهارة انشاده. ولو کان کلامه کلاماً عادیاً ما کان یجذب الناس بهذه الشدة. یقول القرآن فی هذا المجال فی الایة ۴ من سورة (ص): «وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الکَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ کَذّابٌ». «۳» لم توفّر آلیة المواجهة هذه جمیع الاهداف التی کانوا یستهدفونها، وذلک لأن عدد المسلمین لا زال فی تزاید مستمر والرجال والنساء والشباب والشیوخ لا زالوا یتوافدون علی الرسول لیعلنوا الإسلام، وکان نتیجة ذلک ان بادر الکفار إلی تغییر اسلوبهم فی المواجهة.

المرحلة الثالثة: المحاصرة الاقتصادیة وقطع العلاقات

إنَّ فشل أسالیب التهم ونسبة الجنون وغیره إلی الرسول جعلت الکفار والمشرکین یفکرون بالمواجهة العملیة، لذلک فرضوا حضراً علی المسلمین وحبسوهم فی مکان یدعی (شعب ابی طالب)، فمنعوا التردد علیهم والتعامل معهم. لقد صبر المسلمون مدة ثلاث سنوات فی ذلک الشعب الخالی من الماء والکلاء، وتحملوا المشاکل التی واجهتهم آنذاک وثبتوا ولم تزل أقدامهم. «۱» والمکان هذا

رغم انه مشجر حالياً إلّا أن الإنسان لا يطيق قراءة الفاتحة على قبر ابى طالب عليه السلام هناك، وذلك لشدة الحرارة، والمسلمون آنذاك صمدوا وثبتوا، وقد قضى البعض نحبه هناك، رغم ذلك لم يستسلموا للاعداء. وبعد تجييش عواطف اهالى مكة بادر البعض إلى فك الحصار عنهم شيئاً فشيئاً إلى ان فقد الحصار تأثيره وباءت جهود الكفار مرة أخرى بالفشل الذريع وما باتت هذه الآلية تجدى نفعاً.

المرحلة الرابعة: التدبير لاغتيال الرسول صلى الله عليه و آله

لقد شاهد المشركون من جانب فشل آليات التصدى للرسول والمسلمين ومن جانب اخر شاهدوا انتشار الدعوة الاسلامية بشكل سريع بين الناس وإدبارهم عن الاصنام؛ لذا فكروا باجراءات جدية وخطرة اكثر من ذى قبل وقد استهدفوا فى هذه المرحلة شخصية الرسول صلى الله عليه و آله ذاتها. فقد وجد زعماء قريش حلولًا ثلاثة لمشكلتهم: الأول: نفى الرسول صلى الله عليه و آله خارج مكة حفظاً لمصالح الكفار فى مكة. الثانى: حبسه للحيلولة دون اتصاله بالناس والمسلمين. الثالث: قتله. امثال القران، ص: ۴۶ نتيجة شوراهم كان قرار قتل الرسول فى ليلة المبيت «۱» حيث حاصر أربعون شخصاً من شجعان العرب بيت الرسول صلى الله عليه و آله ليقتلوه فى صباح تلك الليلة. اطّلع الرسول صلى الله عليه و آله على مؤامرتهم بوحى الهى فامر الامام على عليه السلام ان ينام فى فراشه آنذاك، وخرج بشكل معجز من بيته قاصداً يثرب (المدينة)، إلّا أنه تحرك خلاف اتجاه وطريق المدينة لخداع المشركين، وبعد ان اطلع المشركون على تملُّص الرسول قاموا بتعقيبه وتتبع خطواته، لكنَّ الله شاء بقدرته ان يصل الرسول المدينة بسلامة ليقيم اول حكومة اسلامية زادت من قدرة المسلمين وشوكتهم.

المرحلة الخامسة: الحروب المتوالية ضد المسلمين

بعد ما نجع الكفار من النيل من شخصية الرسول صلى الله عليه و آله سلكوا طريق المواجهة المسلحة، وذلك لعدم نجاح آليات الحرب النفسية التى سلكوها ضد المسلمين لردهم عن دينهم وللحد من توسع رقعة الإسلام. إنّ الإسلام يهدد سلطة الكفار ومصالحهم؛ ولاجل القيام بمهمة المواجهة العسكرية هموا فى البداية اعداد رجال مكة ثم رجال القبائل الاخرى لبدء سلسلة حروب عسكرية متوالية ومتواصلة كانت معركة (بدر) البداية ومعركة الاحزاب «۲» هى الذروة. لقد استفاد كفار قريش فى معركة الاحزاب من جميع ما توفر لهم من امكانيات وقوى، وكما يبدو من اسمها فان جميع قبائل العرب وطوائفهم اجتمعوا واعدوا انفسهم للنزال ضد الإسلام ولقتل الرسول ورجال المسلمين وللإغارة على اموالهم ولهدم بيوتهم، وسبى نسائهم والقضاء على الإسلام فى النهاية. تشير الآيتان ۹ و ۱۰ من سورة الاحزاب إلى هذه المرحلة من المواجهة: «يَا أَيُّها الَّذِيْنَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُم إذْ جَاءَتْكُم جُنُودٌ فأرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيْحَاً وجُنُوداً لَم تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ امثال القران، ص: ۴۷ بِمَا تَعْمَلُون بَصِيْراً، إذ جَاؤوكُم مِنْ فَوْقِكُم وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإذْ زَاغَتِ الأبْصَارُ وبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَنَاجِرَ وتَظُنُّونَ باللهِ الظُّنُونا». إنّ هذه الايات أهل للتأمل من حيث أنها تكشف عن معاناة المسلمين فى صدر الإسلام. وحسب هذه الآيات، فإنّ العَدُو حاصر المدينة مِنْ جميع الجهات، وقد بلغت اعدادات الاعداء وعدتهم إلى مستوى جعلت أبصار المؤمنين تزيغ، وقلوبهم تبلغ الحناجر؛ وذلك لأن المسلمين قليلون وعدتهم محدودة وأسلحتهم بسيطة، وهذا هو السبب فى نفوذ الرعب والخوف فى قلوب ضعاف الايمان من المسلمين حيث كانت عبارات التزلزل والشك تدور فى اذهانهم وقد يكون المسلمون جميعاً باستثناء الرسول صلى الله عليه و آله والإمام على عليه السلام وعدة قليلة من المسلمين تزلزلوا إيماناً. فان ضعيف الإيمان يتزلزل عند مواجهته لأزمة شديدة، عكس قوى الايمان حيث يقوى ايمانه ويزداد ثباته عند مواجهة الأزمات والمشاكل. إنّ معركة الاحزاب كانت ساحة للإختبار لتمييز المؤمنين الحقيقيين عن غيرهم من ضعاف الايمان والمترددين فى إيمانهم. إنّ نهاية هذه المعركة كان لصالح المسلمين ولم تحصل مواجهة واراقة دماء الا فى مورد واحد، حيث قتل الإمام على عليه السلام عمرو بن ود.

عسكر الاعداء ابتلى باعصار شديد، ولشدته كانت تقلع خيامهم من اماكنها وتقلب قدور الطعام، كما سادهم خوف واضطراب وخيبة امل اجبرت أبا سفيان وغيره من زعماء الكفر على الرجوع كالجيش الخاسر، وبذلك تحقق وعد الله بنصر المؤمنين تارة أخرى، ونجى المؤمنون من خطر كبير كان يهدد وجودهم ودينهم، فكان نصراً للمسلمين اضفى عليهم قدرة وعظمة جعلت مكة وضواحيها لا تفكر بعدئذ بحرب مع المسلمين. ولاجل هذا استسلمت بعد فترة من الزمن مكة واهاليها ليصبح الإسلام القوة الوحيدة فى بلاد الحجاز.

المرحلة السادسة، اللجوء إلى اخطر سلاح (النفاق)

رغم انتكاسة الاعداء فى حرب الاحزاب وخسرانهم الحرب آنذاك، ورغم ما ترتب على هذه الانتكاسة من عدم تفكيرهم بعدئذ بدخول حرب مع المسلمين، إلّا أنّ ذلك ما كان يعنى تركهم لمعارضة الإسلام ومخالفته. إنّ الأعداء، اثر ادراكهم فشل وسائل المواجهة السابقة امثال القران، ص: ۴۸ واقرارهم بذلك، بدأوا يفكرون بوسيلة ناجحة وفضلى للتخريب والدمار، وما كانت وسيلتهم الجديدة إلّا النفاق. إنّ الأعداء خسروا الحرب مع المسلمين، وهو أمر جعلهم فى النهاية يستسلمون ويفتضحون إلّا أنهم لم ينسوا حربهم مع الإسلام وعدائهم له، وقد تستروا فى هذه المرحلة من المواجهة بنقاب النفاق وانتظروا يترصدون الفرصة للنيل من الإسلام وانزال الضربة القاصمة فيه. والآية الشريفة الأولى من سورة المنافقين ناظرة إلى هذه المرحلة من المواجهة «إذا جاءَكَ المُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إنّكَ لَرَسُولُ اللهِ واللّه يَعْلَمُ إنّكَ لَرَسُولُه واللهُ يَشْهَدُ إنّ المُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ». وبهذا الشكل تشكّل تيار النفاق ليصبح تدريجياً كالسيل الجارف، «۱» وظاهر هذه الآية وايات أخرى هو أنّ النفاق بدأ من المدينة. لكن هذا لا يعنى أنّ مكة كانت تخلو من النفاق والمنافقين، فقد يملك البعض قدرة حدس وتخمين المستقبل وفكراً سياسياً قوياً، وكان من خلال ذلك قد رأى النصر النتيجة الحتمية لنشاطات الرسول صلى الله عليه و آله، ولا يمكن بلوغ المقامات العليا آنذاك إلا من خلال التظاهر بالايمان الواقعى والقوى والتماشى مع هذا التيار.

نتائج الأمثال

يمكننا الخروج بالنتيجة التالية من الآيات الأربع للمثلين السابقين: (المنافق لا ـ ثبات له) وانه يعانى من حالات نفسية منها الوحدة والخوف والوحشة والاضطراب والفضيحة، كما تُتصور فى حقه جميع الأخطار التى عدت للمسافر الذى ضلّ الطريق فى الصحراء. أمّا المؤمن فيحضى بهدوء وسكينة واطمئنان خاص يحصل فى ظلّ الإيمان الخالص باللّه. ما أحسن ما قال الله تعالى فى هذا المجال: «الّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إيمَانَهُم بِظُلْم أُولئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ». «۲» امثال القران، ص: ۴۹ وقد فسّر الظلم فى الاية بتفسيرين، الاول: هو الشرك، أى أنّ «إيْمَانَهُمْ بِظُلْم» تعنى الإيمان الخالص الذى لم يمتزج بالشرك. والثانى: هو المعنى المعروف والمتبادر من المفردة، أى أنّ المؤمن الذى لم يمتزج ايمانه بظلم لأحد فله الأمن وهو مهتد. ونقرأ فى آيات أخرى: «ألا ـ إنّ أوْلِيَاءَ الله لا خَوْفٌ عَلَيْهِم وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الّذينَ آمنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُم البُشرَى فِى الحيوةِ الدُّنْيا وفى الآخِرَةِ لا ـ تَبْدِيلَ لِكَلِماتِ اللهِ ذَلك هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ». «۱» إنَّ عدم الأمن والاضطراب والخوف والوحشة فى الدنيا، وعذاب جهنم فى الآخرة هو نصيب المنافقين، أمّا المؤمنون فنصيبهم الأمن والسعادة والفلاح. وهذا أمر اثبت العلم الحديث صحته، ففى مؤتمر حمل عنوان (تأثير الدين على نفس الإنسان)، توصل العلماء المشتركون فيه إلى ان المؤمنين قليلًا ما يبتلون بالامراض النفسية وكثيراً ما نجد هذا النوع من الامراض فى الذين يفقدون الايمان بالله؛ وذلك لأنّ غير المؤمن يشعر بالوحدة دائماً وتهزه ابسط المشاكل. أمّا المؤمن فيرى الله معه، يتوكل عليه فى الحوادث ويبدى الثبات والصبر من نفسه دائماً، فإذا فقد أحد أعزته قال: «إنَّا للهِ وإنَّا إلَيْهِ رَاجِعُونَ» «۲» وبهذا الإعتقاد تسهل عليه الوطئة وتتغمده رحمة الله وألطافه كما تقول الاية ۱۵۷ من سورة البقرة. وهو إذا فقد رأس ماله لا يأسى ولا يحزن، كما انه إذا اتاه شىء ثمين لا يفرح ولا يفخر «لَكَيْلا تأسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ واللهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ» «۳» وإذا حصلت له حوادث أخرى

فيعـدها امتحانات الهية تسـلك به نحو الكمال فى الدنيا وتدرُّ عليه الثواب والأجر فى الآخرة. فهو لا يلعن الزمان ولا المكان بل يشـكر الله ويحكّم ايمانه بالله ويقوّيه. واذا ما تصفحنا سيرة عظمائنا لوجدنا مفاهيم هذه الايات متجسدة فيهم عملياً.

سعيد بن جبير عند الموت

إن سعيد بن جبير من العظماء والأولياء، كما انه من انصار الامام السجاد عليه السلام، فقد كان مؤمناً حنيفاً ومتوكلًا على الله فى اعماله، وقـد ابتسم عند مقتله. عندما جى بسـعيد بن جبير إلى الحجاج «۱» دار نقاش بينهما اسـتهدف الحجاج عبره النيل والاستهزاء بسعيد، إلّا أنَّه ما اسـتطاع، لقدرة سعيد على الكلام، فامر بقتله وقال له: اختر أى قتلة شئت! قال: اختر لنفسك فان القصاص امامك. ولما أمر بقتله قال «وَجَّهْتُ وَجْهِى لِلّذى فَطَرَ السَّمَواتِ والأَرْضَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا أَنَا مِنَ المُشْرِكينَ» «۲» فقال: شـدوا به لغير القبلة. فقال: «أيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ». «۳» قال: كُبوَّه على وجهه. فقال: «مِنْها خَلَقْنَاكُم وَفِيْها نُعِيـدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارةً أُخْرَى». «۴» وبعدما أمر الحجاج بقتله دعى سعيد بهذا الدعاء (اللهم لا تسلّطه على احد بعدى)، وقد استجيب دعاؤه ولم يبق الحجاج بعده الا خمسة عشرة ليلة «۵» ولم يقتل بعـده الحجاج احـداً. وقـد مات الحجاج اثر مرض كان يشـعر خلاله بالبرودة والرعشة بحيث كان يدخل يديه فى النار وتحترق وهو لا يشـعر بها. ولما جاءه احـد الوجهاء وطلب منه ان يدعو له، ذكّره بما قد أوصاه سابقاً من عدم الاكثار فى القتل. نعم إنَّ الامان فى الدنيا للمؤمنين فقط دون المنافقين، ودين الله ليس للاخرة فقط بل هو منهج للحياة الدنيا كذلك.

المثل الثالث: قسوة القلب

اشارة

يقول الله فى الايـة المباركة ۷۴ من سورة البقرة: «ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلـك فَهِىَ كالحِجَارَةِ أوْ أشَـدُّ قُسْوَةً وإنَّ مِنَ الحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وإنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَـقّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ المَاءَ وإنّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وما اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ». الآية الشريفة جاءت فى بنى اسـرائيل وضـربت مثلًا جميلًا فى قسوة قلوبهم؛ فـان دفتر أعمالهم مسوَّد على طول التاريـخ. وإن التعصب واللجاجـة والتحجج والغرور والضـغينة تجاه الانبياء والمقاومـة قبال الحق من خصال هـذا القوم العاصـى والكافر لنعم الله. لقد شاكس هذا القوم المسـلمين ونافق ضـدهم، فمن جانب كانوا يتعاهـدون مع المسـلمين ومن جانب اخر ينالون منهم بخنجر من الخلف. إنَّ عـداء هـذا القوم المعاند للمسـلمين لم تنته ابـداً ولا زال مشـهوداً فى عصـرنا هـذا، بل هو حالياً بلغ ذروته. ويمكن القول: إنَّ اكبر صـفعة نالتها الامـة الاسـلامية كـانت من بنى اسـرائيل ومن قسم خـاص منهم معروف بـاسم (الصـهاينة)؛ انهم فى الـدول الاسـلامية منشأ الفسـاد والقتـل والنزاعـات والاختلافـات والفحشـاء واللامبالاـة تجاه الاحكام الاسـلامية والربا و .. إنَّ انتهاكاتهم ومظالمهم لو جمعت فى مكان واحـد لاصـبحت كتاباً ضـخماً بل كتباً. إنَّ قسوة قلوبهم بلغت درجة حيث لا يرحمون حتى انبيائهم فضـلًا عن غيرهم، وقد حمل منهم نبيهم موسـى عليه السلام الكثير.

قصة بقرة بنى اسرائيل

الاية الشـريفة جاءت بعد آيات حكت قصة بقرة بنى اسرائيل؛ وخلاصة القصة محكية فى الايات ۶۷- ۷۳ من سورة البقرة نأتى بها هنا: قُتِل شـخص من بنى اسـرائيل من دون ان يعرف القاتل، وهو أمر سـبب اختلافاً بين القوم. وعادة عندما يُقتل شـخص يسـعى البعض ان يرجعه إلى عملية تصـفية الحسابات فيلقى القتل على عاتق اطراف خاصة. وقد كان اصل الحادث ان شـخصاً قتل عمه الثرى، وقد كان الشـاب الوارث الوحيـد لعمه وكان منزعجاً من جراء تأخر وفاة عمه فقتله لينال نصـيبه من الارث فى وقت مبكر. وقـد عـدَّ البعض حبّ

الشاب لابنة عمه هو سبب القتل؛ وذلك لان العم رغم حبه لابن اخيه زوج ابنته من شخص آخر. إنَّ بث خبر مقتل هذا الشخص اثار ضجة شديدة جعلت البعض ومنهم القاتل الحقيقى يبحثون عن القاتل، فكانت الفتنة العظيمة وكان الموقف يوشك على نزاع بين القبائل ليتبدل إلى حرب شاملة، فطلبوا من موسى ان يحل لهم المشكلة فكانت المساءلة التالية حسب ما دونها القرآن: «وإذْ قَالَ مُوسَىَ لِقَومِهِ إنَّ الله يَأمُرُكُم أنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أتَتَّخذُنا هُزُواً»؟ «قَالَ أعُوذُ باللهِ أن أكُون مِنَ الجَاهِلِينَ». أى أنَّ الاستهزاء من عمل الجاهلين، والانبياء مبرؤون من ذلك. بعد أن ايقنوا جدية المسألة، «قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّك يُبَيِّنُ لَنَا مَا هِى»؟ أجابهم موسى عليه السلام: «قَالَ إنَّهُ يَقُولُ إنَّهَا بَقَرَةٌ لا ـ فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلك»، أى لا ـ كبيرة هرمة ولا صغيرة بل متوسطة بين الحالتين «فافْعَلُوا ما تُؤْمَرُونَ» لكن بنى اسرائيل لم يكفوا عن لجاجتهم، «قَالُوا ادعُ لَنَا رَبَّك يُبَيِّنُ لَنَا مَا لَوْنُها» أجابهم موسى «قَالَ إنَّهُ يَقُولُ إنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُها تُسَرُّ النَاظِرِينَ» أى أنَّها حسنة ولا ـ يشوبها لون آخر. ثم لجوا مرة أخرى وعاودوا السؤال: «قَالُوا ادْعُ لَنَا ربَّك يُبَيِّنُ لَنَا مَا هِىَ إنَّ البَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وإنَّا إنْ شَاءَ اللهُ لمُهْتَدُونَ». أجابهم موسى «قَالَ إنَّهُ يَقُولُ إنَّهَا بَقَرَةٌ لا ذَلُول تُثِيرُ الأرضَ ولا تُسْقِى الحَرْثَ»، أى ليست امثال القران، ص: ۵۳ من النوع المذلل لحرث الارض وسقيها. وبعد المساعى الحثيثة وجدوا هذه البقرة وذبحوها ولمسوا الاعجاز الالهى.

الشرح والتفسير

المفروض بهذه الاية العظيمة ان تزيد من ايمان القوم إلا أنَّ ذلك لم يحصل، بل الآية الشريفة حكت حالهم بعد ذلك بالقول: «قَسَتْ فَهِىَ كالحِجَارَةِ أوْ أشدُّ قَسْوَةً» أى لم تزد هذه الاية الكبرى القوم الا ـ لجاجة وقسوة وتمرداً وعصياناً وانتهاكاً لحرمات الانبياء و .. وذلك بسبب قسوة قلوبهم تحجّرها. ان مفردة (قلب) استخدمت مائة وثلاثين مرة فى القرآن، لكن يا ترى هل يراد من هذه المفردة ذلك العضو الصنوبرى الذى يدق فى الدقيقة اكثر من سبعين مرة فى الجسم ليضخ دم الإنسان إلى جميع اجزاء جسمه مرتين فى الدقيقة؟ إنَّ هذا العضو من عجائب خلق الله حقاً وله فى الجسم وظائف مهمة، لكن مراد الله من القلب فى القرآن ليس ذلك العضو. نشير هنا باقتضاب إلى مهام هذا العضو وذلك لايضاح اهميته: أولًا: تغذية جميع خلايا الجسم؛ إنَّ الاغذية التى تصل المعدة تمتزج مع ترشحات المعدة لتتهيّأ للذهاب إلى الأمعاء؛ وتتم عملية هضم وجذب الاغذية فى الامعاء من خلال الدم، والأخير يوزعها على جميع خلايا الجسم وبذلك تتم عملية تغذية الجسم. ثانيا: ارواء الإنسان؛ إنَّ الجزء الاكبر من جسم الإنسان عبارة عن الماء واذا ما قلت نسبة الماء فى الجسم فانه قد يؤول ذلك الامر إلى الموت إذا ما بلغ مستوى الجفاف. ثالثاً: ايصال الحرارة الموحدة للجسم؛ ان جسم الإنسان حار، لكن هل فكرتم من اين قدمت له هذه الحرارة؟ ان الاوكسجين يدخل الجهاز التنفسى ومن خلال هذا الجهاز يدخل الدم ليصل من خلاله إلى جميع خلايا الجسم، واثر الاحتراق الذى يوجده الاوكسجين عند تركبه مع اغذية الخلايا تتولد حرارة تنتقل هذه الحرارة بشكل ثابت إلى جميع اجزاء الجسم بواسطة الدم. رابعاً: جمع المواد الزائدة والسمية ودفعها. ان احتراق الاغذية فى الجسم يولد مواد سمية امثال القران، ص: ۵۴ وزائدة يطرح جسم الإنسان بعضها من خلال الزفير وبعضها الاخر من خلال الكلية والادرار، وهذه العمليات كلها تتم من خلال الدم. حقاً ان القلب مع هذه الظرافة والعمل المتواصل آية إلهية عظمى، فلو كان هذا القلب من حديد لصدأ وتلف خلال سبعين سنة من عمر الإنسان الا ان قدرة الله اللامتناهية صنعت منه عضواً يعمل اكثر من مائة سنة فى بعض الموارد. والمدهش هنا أنَّ القلب من الاعضاء التى تعمل ليل نهار وفى النوم واليقظة رغم أنَّ نشاطه عند النوم أقل. ومن هنا نجد سر تعظيم المؤمنين وتمجيدهم مقولة الله تعالى: «وفِى الأرْضِ آياتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَفِى أنْفُسِكُمْ أفَلَا تُبْصِرُونَ». «۱» لو لم يكن لدينا دليل على عظمة الخالق غير القلب لكان كافياً لادراك قدرته وحكمته السرمدية. ولأجل استيعاب عظمة الخلق وادراك اكبر لهذه الهدية الالهية القيمة نقرأ الموضوع التالى:

القلب الصناعى مرآة لعظمة قلب الإنسان

كلّفت صناعة قلب صناعى قبل عدة سنوات ثلاثين مليون دولاراً، إلّا أنَّ هذا القلب لم يدم عمله اكثر من ستة أيام، كما أنَّ المستفيد منه لم يكن قادراً على الحركة والمشى خلال هذه الفترة. كيف يمكننا شكر الخالق على نعمة القلب التى منحها اياناً مجاناً؟ ما أجمل ما قاله القرآن: «وَفِى أَنْفُسِكُم أَفَلَا تُبْصِرُونَ». وبعد ما عرفنا أنَّ المراد من القلب فى الاية ليس ذلك العضو الصنوبرى نقول هنا: إنَّ المراد منه هو العقل والعاطفة. يقول الله فى سورة الاعراف الاية ۱۷۹: «وَلَهُم قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا» فالمراد من القلب هنا هو العقل والعاطفة؛ لأن الفهم والادراك من شأن العقل، كما أنّ الإحساس والشعور والحب والمعرفة من شأن العاطفة والعقل، وكنموذج على ذلك يقول الله فى الاية ۱۰ من سورة البقرة: «فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فزَادَهُم اللهُ مَرَضاً». امثال القران، ص: ۵۵ هل إنَّ قلب المنافق الصنوبرى يعطل من جراء مرض النفاق؟ أو أنَّ مرض النفاق يؤدى إلى اتساع فى صمام القلب؟ من الواضح أنَّه لا يراد من القلب ذلك العضو الصنوبرى، ولا يراد من المرض تلك الحالة الطبيعية التى تعرض للإنسان وأعضائه. إنّ القلب هنا هو العقل والعاطفة اللتان قد يضعفان بسبب مرض النفاق إلى مستوى يسمحان للانسان قتل الابرياء فى حرم الامام الرضا عليه السلام، فهما فى الحقيقة يموتان. نقرأ فى رواية أنّ للأمر بالمعروف ثلاث مراحل: الأمر بالقلب أولًا، وباللسان ثانياً، وبالعمل ثالثاً. فاذا كانت المرحلة الأخيرة غير ممكنة فتتوجب المرحلتان الاوليتان. وإذا استحالت المرحلة الثانية والثالثة فعلينا بالاولى أى علينا ان نكون متذمرين من الظالمين وسلوكهم وأن نكون محبين للمؤمنين والمصلحين. واذا ترك شخص الامر بالمعروف بمراحله الثلاث فقد صدق عليه الحديث التالى: «فمن لم يعرف بقلبه معروفاً ولم ينكر منكراً قُلبَ؛ فَجُعِلَ أعلاه اسفله». «۱» وهل يراد من القلب هنا هو ذلك العضو الصنوبرى؟ بالطبع لا، لان ذلك العضو لا يتحرك من مكانه ولا يتزلزل بل المراد منه هو العاطفة والادراك. مما مضى نستنتج ان للقلب معينين فى القرآن والروايات: ۱- العقل الانسانى ۲- العواطف الانسانية. وهما ظاهرتان روحيتان يعدان مركزاً للادراك والشعور. ولهذا عندما يقال: (لهم قلوب لكن لا يفقهون) فان المراد كونهم يملكون القلب لكن ملكة الادراك عندهم معطلة وإذا قيل (قَسَتْ قُلُوبُهُمْ) فإنَّ المراد أنَّ عواطفهم ميتة. القلب الذى فى الاية ۴۶ من سورة الحج «فإنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى القُلُوبُ التى فِى الصُّدُورِ» قد يعنى ذلك العضو الصنوبرى بقرينة (فى الصدور)، لكن هل الواقع كذلك؟ رغم أنَّ العقل ليس فى صدر الإنسان، إلّا أنَّ له ارتباطاً بالدماغ ولذلك نرى البعض قد تعطل دماغه لكنَّ قلبه لا زال يعمل. وعلى هذا فالصدر الذى فى الاية ليس ذلك الجزء من البدن المكسو بالقفص بل المراد منه الروح. وعليه فالقلب هنا يعنى العقل والإدراك، فمفهوم امثال القران، ص: ۵۶ الآية هو (العقول التى فى الأرواح). وهناك إحتمال آخر وهو: رغم أنّ هذا العضو الصنوبرى ليس مركزاً للعواطف والعقل، إلّا أنَّ الأمر لا يخلو عن علاقة بينهما؛ وذلك لان هناك علاقة مباشرة بين القلب والروح أو العقل والعاطفة فان القلب يتأثر مباشرة وأولًا فى أى ظاهرة تطرأ على الإنسان، فاذا واجه الإنسان موقفاً مفرحاً ازدادت ضربات قلبه وسرعت؛ وإذا واجه موقفاً مؤلماً شعر فى قلبه التعب والثقل، وكذا الامر فى كل الحوادث والقضايا الروحية. إنَّ العلاقة بين القضايا الروحية والقلب هى كالعلاقة بين الماء والعين وسطح الارض. إنَّ الماء يعلو من الطبقات التحتية للارض ثم ينبع من نقطة خاصة من الارض والظواهر الروحية مثل ذلك، فإنها تنبع من القلب. ومن خلال التفاسير الماضية يمكننا معرفة الكلام الالهى فى الاية الكريمة «قَسَتْ قُلُوبُهُمْ». تصوير القرآن لقلوب بنى إسرائيل لقد وصف القرآن قلوب بنى اسرائيل فى الاية ۷۴ من سورة البقرة بانها كالحجارة أو اشد قسوة: «ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُهُم مِنْ بَعْدِ ذلك فَهِىَ كالحِجَارةِ أو أشدّ قَسْوَةً» وقد اختلف المفسرون فى تفسير «فَهِىَ كالحِجَارَةِ» وفى «أو أَشَدَّ قَسْوَةً». بما أنَّ الآية نزلت فى المنافقين وبما أنَّ للنفاق درجات ومراتب فإنَّ صفة كالحجارة ترجع إلى طائفة خاصة من المنافقين، وأمّا «أو أَشَدُّ قَسْوَةً» فترجع إلى طائفة أخرى أسوء حالًا من السابقة. لكن كيف يمكن للقلب أنْ يَكُون أشدَّ قسوةً من الحجارة؟ إنَّ القُرآن يعدّ ثلاث بركات من بركات الحجارة: الأُولى: بعض الاحجار فى الجبال تتفجر لينبع منها الماء والأنهار وبجريانه تُروى المزارع والنباتات والحيوانات. نعم، ان للحجارة بركة التفجر لينبع الماء، وهى بركة عظيمة إلّا أنَّ قلوب بنى اسرائيل لا ينبع منها الفضيلة ولا العلم ولا الحكمة كما انها ليست مراكز للعواطف والحب والحنان؛ إنَّ قُلُوبهم أشدّ قَسوة من الحجارة حقاً. الثانية: إنَّ من الاحجار تتشقق لتضم فى شقوقها مقداراً من الماء. ورغم أنَّ هذا الماء لا يروى المزارع والحيوانات،

إلّا أنه قد ينقذ حياة سائرٍ عطشان. أمّا قلوب بنى اسرائيل فهى لا امثال القران، ص: ۵۷ تضم حتى ذلك المقدار القليل من المحبة والحنان. الثالثة: بعض الاحجار تهبط وتسقط خشية من الله وخضوعاً امام قدرته واستطاعته العظمى كما تؤكد ذلك الآية ۲۱ من سورة الحشر «لَوْ أَنْزَلْنَا هذا القُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَه خاشِعاً مُتَصَدّعاً مِن خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُها للنّاسِ لَعَلّهُمْ يَتَفكَرُونَ».

تسبيح الموجودات جميعا

إن خضوع وخشوع الاحجار والجبال امام قدرة الله وعظمته وتسبيحها عموماً أمر يمكن استظهاره من الايات العديدة للقران، والاية ۴۴ من سورة الاسراء نموذج على ذلك: «وَإِنْ مِنْ شَيءٍ إلّا يُسَبّحُ بِحَمْدِه وَلَكِن لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيْحَهُم ...» «۱» وقد اعتبر بعض المفسرين الجمادات حية ومنحها حياة ذات نوع خاص من الشعور والاحساس الذاتى يختلف عن الشعور الإنسانى، فشعورها مثل تسبيحها الذى لا يُفقه «لا يَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُم» حيث نجد مقابل الحمد والخشوع والخضوع امام الله القادر الذى يشهد من الموجودات وبخاصة الاحجار قلوباً قاسية لا تسبّح ولا تذكر الله ولا تخضع أمامه.

القسوة

للانسان قوتان قوة العقل والفكر وقوة العاطفة الإنسانية، الجهاز الذى يستطيع الإنسان من خلاله فهم الحقائق يقال له عقل، وكل ما يدركه الإنسان ويفهمه يتم من خلال عقله. أمّا العاطفة فهى القوة التى يتمكن الإنسان من خلالها ادراك القضايا الاخلاقية مثل الحب والبغض، فنحن مثلًا نتأثر من جراء سماعنا للمجازر الجماعية التى ترتكب من قبل اناس فقدوا العاطفة فى الدولة المسلمة (الجزائر). أو نتأثر بالاوضاع المتأزمة لافغانستان الذى ابتلى بحب وبغض بعض الزعماء الانانيين. امثال القران، ص: ۵۸ إنّ هذه الاحاسيس تتعلق بقوة العاطفة الإنسانية، والشعوب الانسانية حية ما دامت عواطفها حية، وفى الحقيقة ان موت هذه العواطف يعنى موت المجتمعات البشرية. تباً للإنسان فى اليوم الذى تموت فيه عواطفه حباً للدنيا؛ فإنّه يصبح انذاك انساناً خطراً اخطر من الحيوان المفترس والوحشى! من الذى صنع القنابل الكيمياوية؟ العلماء الذين فقدوا عواطفهم حباً للدنيا، اولئك الذين اشتروا العواطف الانسانية بالدولارات وغضوا اطرافهم عن الذين قتلوا فى حلبجة! من هم الذين قصفوا مدينتى هيروشيما وناكازاكى وقتلوا فيهما مئات الالاف بالقنابل النووية فى لحظة. «۱» انهم العلماء الذين ماتت عندهم العواطف والذين لم يأثروا من الإنسانية شيئاً، والذين يرون اللذة فى تدمير الاخرين! من هم الذين زرعوا اكثر من عشرين مليون لغم من النوع المضاد للافراد على سطح الكرة الارضية؟ هم اولئك الذين اتسموا بصفات حيوانية ولم يأثروا من الانسانية الا اسمها وما كان لهم نصيب من العواطف الإنسانية. إنَّ العالم قرر منع تصنيع هذا النوع من اللغم؛ وذلك لاجل كونها غير اخلاقية وذات ابعاد غير انسانية؛ إلا أن الدولة العطوفة والمهتمة بحقوق البشر، أى امريكا، خالفت ذلك، كما خالفت مشروع حضر تصنيع اسلحة الدمار الشامل رغم تظاهرها بالدفاع عن حقوق البشر وتزعمها لمنظمات انسانية تهتم بهذه المجالات. هذا كله بسبب الضغوط التى تمارسها اسرائيل والصهاينة المنافقين على أمريكا، وهى تستخدم هذه المنظمات والآليات الاعلامية دائماً لاجل تدمير الأعداء، وكأنّ رعاية حقوق البشر أمر ينبغى ان يحصل فى الدول المناهضة لامريكا فحسب دون الصديقة لها.

العلم والعاطفة وجه تمايز الإنسان عن الحيوان

اختلاف الإنسان عن الحيوان فى أنَّ الاول يتمتع بالعقل والعاطفة، أو بتعبير آخر يمكنه الادراك والشعور، أمّا الحيوان فانه يفقد هذين الامتيازين. ورغم أنَّ بعض الحيوانات تحضى بذكاء واحساس ضعيفين وفى بعضها نرى نوعاً خاصاً من العاطفة البسيطة، كدفاع الدجاجة عن افراخها عند الاحساس بالخطر، فإنَّ هذا لا يعد شيئاً بالنسبة للعاطفة الإنسانية، بل إنَّ بعض الحيوانات تأكل أفراخها وبعضها الاخر تطرد افراخها عند البلوغ. إن الإنسان إذا فقد عقله عُدَّ احمقاً ولا يستحق اطلاق الإنسان عليه، أمّا إذا فقد العاطفة فسوف

لا يرى معنى للترحم والمروة والحب والعشق، فهو حينئذ بهيمة بل أسوأ حالًا.

دنيا دون عاطفة

من المؤسف أنَّ عالم اليوم عالم يخلو من العواطف رغم أنَّ الإنسان بلغ المدارج العليا فى مجال العلم والمعرفة وقد حصل على المزيد من التقنيات، إلَّا أنَّه بنفس المقدار فقد العواطف والاحاسيس البشرية فى ذات الوقت. إنَّ القيم فى الدول الصناعية هى المال والمادة؛ أمّا سلعة المحبة والعاطفة فغير متوفرة، واذا وجدت فلا مشترى لها! إنَّ العواطف هناك حتى فى العائلة الواحدة قليلة وضعيفة. الوالدان يتخلّيان عن أبنائهما بمجرد ان يبلغوا، والأولاد يتخلون عن والديهم بمجرد ان يشيبوا ويضعفوا، واذا شعروا بعاطفة جزئية تجاههم أودعوهم فى دار العجزة، وتركوا السؤال عنهم حتى الموت. إنّ نسبة الطلاق فى هذه الدول كبيرة جداً وقد تقدر هذه النسبة فى بعض الدول إلى اكثر من خمسين بالمائة، أى أنَّ نصف حالات الزواج أو اكثر من ذلك تؤول إلى الطلاق. إلَّا أنَّ نسبة الطلاق فى بلدنا هى واحد بالعشرين رغم ذلك نعدها نسبة كبيرة. إنَّ البيئة التى تفقد العواطف لا تجد معنى لاعانة الفقراء والمحتاجين، فلا نسمع شيئاً عن امثال القران، ص: ۶۰ (حفلة العواطف) و (تعالوا لنتقاسم افراحنا) «۱» ولا شأن للناس هناك حتى لو سمعوا بشخص يوشك ان يموت من الجوع والعطش. لقد ورد فى الأخبار أنَّ شخصاً نفد وقود سيارته فى طريق مزدحم وفى يوم بارد جداً، فأخذ بوعاء البنزين يؤشر للسيارات المارة طلباً للوقود، إلَّا أنَّه لم يجد عوناً رغم انتظاره مدة احدى عشرة ساعة هناك، وما كانت النتيجة الا موته فى الطريق. فى الحقيقة ان موت العواطف فى هكذا مجتمعات ادى إلى موت هذا الشخص. ولاجل هذه الشواهد نعتقد أنَّ الغرب لا قدرة له على استيعاب المفاهيم الاسلامية الرفيعة، مثل الشهادة والجهاد والايثار واعانة المحتاجين وغيرها، وحتى دفاعهم عن حقوق البشر لا يكشف عن عواطفهم، بل انها وسيلة لتدمير وتسقيط أعدائهم. فاذا قُتل اسرائيلى مثلًا على يد فلسطينى فى عملية استشهادية ارتفعت اصوات مدوية لهذه الموجودات الفاقدة للعواطف؛ وذلك دفاعاً عن حقوق البشر، إلَّا أنه عند مقتل النساء والرجال والاطفال والشباب فى الجزائر وتقطّع أبدانهم إرباً إرباً لا تثار حفيضة هؤلاء المنافقين المترائين، وكأنه لم يحدث شىء ابداً.

الدين أو المذهب يقويان العاطفة

الدين أو المذهب هو اهم عامل يقوى العاطفة الانسانية؛ وذلك لأن الدين عُرّف فى الروايات (بالحب والبغض) أى محبة المسلمين وبغض الكافرين. جاء فى رواية عن الصادق عليه السلام يسأله فضيل بن يسار عن الحب والبغض، أمن الايمان هو؟ فقال: «وهل الايمان الا الحب والبغض»؟! «۲» ونقرأ فى رواية أخرى أن رسول الله صلى الله عليه و آله قبّل امثال القران، ص: ۶۱ الحسن والحسين عليهما السلام فقال الاقرع بن حابس: إنَّ لى عشرة من الاولاد ما قبلت واحداً منهم. فقال: «ما على ان نزع الله الرحمة منك». «۱» القلب الذى يخلو من الحب ليس قلباً بل قطعة من الحجر، وليس اهلًا لاستقبال نعم الجنة، بل اهل لعقوبة جهنم. ببركة دين الإسلام وببركة تمتع شعبنا المؤمن بالعواطف الإنسانية النبيلة نرى تسارع الإيرانيين للخيرات ونصبهم للخيم لاجل جمع الاعانات فى الشوارع والاحياء بمجرد حصول حادثة أو كارثة تستدعى المساعدة والاعانة .. ياله من منظر رائع وجميل للعواطف الانسانية.

عوامل القسوة فى القرآن

يشير الله من خلال الايات التالية إلى عوامل القسوة وأسبابها. الأول: يقول فى الاية ۱۳ من سورة المائدة: «فَبِمَا نَقْضِهِم مِيثَاقَهُمْ لَعَنّاهُمْ وَجَعلنَا قُلوبَهُمْ قَاسِيَةً». القرآن هنا يعتبر (نقض الميثاق) من عوامل قسوة القلب، نقض الميثاق مع الله ومع الرسول صلى الله عليه و آله ومع الفطرة الانسانية ومع البشرية. نعم إنّ بنى اسرائيل لم يحترموا أيّاً من المواثيق وكأنّهم- لأجل الدعامة العسكرية القوية التى كانوا يتمتعون بها- لم يبرموا ميثاقاً إلّا مع مصالحهم الدنيوية ولم يفوا بميثاق إلّا به. الثانى: يقول الله فى الآية ۱۶ من سورة الحديد: «أَلَمْ يَأن

لِلّذِينَ آمنوا أنْ تَخْشَعَ قُلوبُهُم لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَّلَ مِنَ الحَقِّ وَلَا يَكونُوا كَالذِّين أوتُوا الكِتَاب مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيْرٌ مِنْهُم فَاسِقُونَ». إنَّ الآيـة الشـريفة توقـظ فى البدايـة الغـافلين بكلام حق. يا انسان متى تصـدق الموت وانت ترى موت اعزتك وأقاربك؟! امثال القران، ص: ۶۲ إلى متى تستمر فى تعلقك بالدنيا رغم ما ترى منها من الفناء وعدم الوفاء. ثم تحذّر المؤمنين خوف ان يصـبحوا مثل بنى اسرائيل الذين قست قلوبهم بعد ما طالت اعمارهم، وتأخرت بعثة الرسول اللاحق، ونسيانهم تدريجاً لتعاليم نبيهم، وعدم نزول العذاب الإلهى عليهم، فكانت الغفلة التى لحقتها قسوة القلوب وكثرة الذنوب. يمكننا معرفة السـبب الثانى لقسوة القلب من خلال هـذه الآيـة وهو (الابتعـاد عن تعاليم الأنبياء والأولياء والأديان الإلهيـة). ومن خلال هـذه العوامل التى بينها القرآن يتضـح لنا أن بعضاً من العذاب الالهى فى الحياة الدنيا هو نوع من ألطافه تعالى؛ وذلك لأنَّه يؤدى إلى التوبة والابتعاد عن الذنوب والرجوع إلى الله، وهو فى الحقيقـة الحائل دون الابتلاء بقسوة القلب. «۱» إخوتى وأخواتى الأعزاء! اتصـلوا بالشباب والأشبال من خلال المجالس الدينية واذهبوا بهم إلى هكـذا مجالس لتعريفهم بالتعاليم الدينيـة الاسـلامية لكى لا يبتعـدوا عنها فيبتلوا بقسوة القلوب وترحل عنهم العواطف الإنسانية.

القسوة فى الروايات الاسلامية

اشـارت روايات المعصومين عليهم السـلام إلى عوامل عديـدة يمكنها ان تؤدى إلى قسوة القلب نشـير إلى بعض منها هنا: الاول: يقول الامـام على عليه السـلام: «مـا جفَّت الـدموع الا ـ لقسوة القلوب ومـا قست القلوب الا ـ بكـثرة الـذنوب». «۲» إذا شاهـدنا إنسانـاً لم يتأثر بالمصـائب الدنيويـة ولا ـ يبكى ولا ـ يشـتاق للعبادة والمناجاة، أو يفتقـد العواطف والترحم على أبناء جنسه ولا يفكر الا بنفسه وضـمان مصـالحه، ولا يقلقه ما يصـيب الآخرين، فتلك جميعها بسـبب كثرة الـذنوب وتراكمها. امثال القران، ص: ۶۳ فى إحـدى رحلاتى إلى بيت الله الحرام كنت جالساً فى المسـجد الحرام، جاءنى شاب وقال لى: إنّى احج الصرورة ولم اسبق بالمجئ إلى هذا المكان المقدس رغم ذلك لا اشـعر بالمعنوية ولا بالحيوية فى هذا المجال، فلم اشـتق للمناجاة والبكاء والتضـرع؟ فكان يريد معرفة سـبب ذلك. اجبته يبدو أنَّك ارتكبت ذنوباً كثيرة فى حياتك؟ عليك اولًا طلب المغفرة من الله على تلك الذنوب، ثم اشتغل بالزيارة والعبادة والمناجاة. الثانى: طول الامل هو من العوامل الاخرى لقسوة القلب. جاء فى احـدى الروايات أنَّ الله قال لموسـى عليه السـلام: «لا تطول فى الـدنيا أملك فيقسو قلبك والقاس القلب منى بعيد». «۱» الثالث: حب الدنيا والغرق فى الطلبات المادية. ان هذه الأمور من شأنها ان لا تترك مجالًا لنمو وبروز العواطف الانسانيـة ولا ـ لتقرب الإنسـان لله؛ وذلـك لان اكبر هـدف للانسان العطوف هو الوصال بالحق. وعلى هـذا فحب الـدنيا والابتعـاد عن الله هو ثالث عامل لقسوة القلب. يقول الرسول صـلى الله عليه و آله: «لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فان كثرة الكلام بغير ذكر الله تقسو القلب». «۲» فالرسول صـلى الله عليه و آله هنا يصـرح بان كثرة الكلام بالاشاعـة والكـذب والاتهام والمزاح الخارج عن حده والتدخل بما لا يعنى الشخص وغيرها من مظاهر كثرة الكلام هى اسباب لقسوة القلب. الرابع: هناك رواية أخرى عن الرسول صـلى الله عليه و آله يقول فيهـا: «ثلاـث يُقِسْنَ القلب اسـتماع اللهو وطلب الصـيد واتيـان بـاب السـلطان». «۳» إنَّ الاصـغاء إلى الموسـيقى حرام ويؤدى إلى قسوة القلب وينبغى هنا أنْ نكون نبهين دون الوقوع فى مصـيدة الشـيطان بتبريرات من قبيل: إنّ الموسيقى تنشـطنا روحيـاً، وأنَّ الموسـيقى امثال القران، ص: ۶۴ ليست للنزهـة فقـط، أو أنَّ الموسـيقى المحليـة والتقليديـة جائزة وما شابه ذلك. الصـيد إذا كان طلباً للمعيشـة فلا اشـكال فيه، أمّا إذا كان لاجل التسـلية والترفيه فهو حرام فى الإسـلام، وعلى الصـيّاد حينئـذٍ التمام فى الصـلاة دون القصـر؛ وذلك لان سـفره معصـية. أكثر الملوك والحكام كانت لهم اماكن خاصة يصطادون فيها للتسلية والترفيه. كيف يمكن ان يكون سـلب روح حيوان ما سبباً للتسلية والترفيه؟! إنَّ الحكام أشخاص قساة القلب، كما أنَّهُم ظلمة وهم مستعدون لارتكاب ابشع الجرائم لاجل حفظ كراسـيهم ومواقعهم القيادية، وقد يسـتعد الحاكم لقتل أبيه أو اخيه لديمومة عرشه، كما فعل المأمون بالأمين العباسـيين، فقـد قتل الأول الثانى، رغم انه كان أخاه. وفى الفترة الاخيرة قتل احد الملوك العرب اباه ليحكم بذلك موقعه القيادى. ان

الاشخاص الذين يرتبطون بهذه الطبقة من الناس تقسو قلوبهم ويبتعدون عن الله لما يرون من زخارف الدنيا التى تجذبهم إليها. نسأل الله ان يمنحنا قلباً عطوفاً، قلباً ينضح من حبه، ويجرى دموع العين من ذكره. الخامس: يقول الامام على عليه السلام: «كثرة المال مفسدة للدين ومقاساة للقلب». «۱» مما لاشك فيه أنَّ المال وسيلة جيدة لبلوغ المقامات المعنوية العليا ولعمل الخير، وقد يكون هذا هو مغزى مقولة القرآن فى الآية ۱۸۰ من سورة البقرة «... انْ تَرَك خَيْراً الوَصِيَّةُ» فقد فسّر المفسرون (خيراً) هنا بالمال والثروة. لكن الذين يحسنون الافادة من المال هم العدة القليلة بل نادراً ما يحصل ذلك. «۲» إنَّ اكثر المتمولين لا ينفقون اموالهم فى مجالات الخير وهذا يعنى أنَّ كثرة اموالهم سبب لابتعادهم عن الله، الامر الذى يؤدى إلى قسوة القلب. السادس: يقول الامام الصادق عليه السلام فى احدى الروايات المنقولة عنه: «أنهاكم أنْ تطرحوا امثال القران، ص: ۶۵ التراب على ذوى الارحام فإنّ ذلك يورث القسوة ومن قسى قلبه بَعُدَ من ربّه عزوجل». «۱» لقد وضع الإسلام منهجاً لجميع شؤون الإنسان حتى فى القضايا التى تبدو قليلة الاهمية، فعند استقبال الضيف مثلًا يأمر الإسلام إعانة المضيف للضيف فى حمل امتعته لادخالها فى البيت، إلَّا أنَّه عند التوديع يأمر بعدم اعانة الضيف على اخراج امتعته؛ وذلك لأن هذا يعنى رغبة صاحب البيت فى التخلص من الضيف وهذا يؤدى إلى قسوة فى القلب. وفى هذا الحديث اشارة أخرى لاحد القوانين الدقيقة التى تصب فى هذا المجال، فبما أنَّ ذوى الارحام يحملون العواطف الوافرة تجاه احدهم الاخر فان طرح التراب ونثره على موتاهم يحد من العواطف ويجلب للناس قسوة فى القلب وابتعاداً عن الله. السابع: يقول الامام على عليه السلام: «النظر إلى البخيل يقسى القلب» «۲» إنَّ الشخص إذا نظر إلى البخيل تذكّر بخله، وتذكُّر البخل يتداعى معه تذكُّر القساوة، وتذكُّر القساوة يؤثر تدريجياً على الإنسان. امثال القران، ص: ۶۷

المثل الرابع: الكفار

اشارة

يقول الله فى الآية ۱۷۱ من سورة البقرة: «وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إلّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ». العقبة الكبرى امام دعوة الانبياء هو التقليد الأعمى إنّ تقليد الآباء والاسلاف كان مانعاً مهما ومتواصلًا امام دعوة الأنبياء. عندما كان الانبياء يدعون اممهم للتوحيد والدين كانوا يسمعون الجواب التالى: «بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَائَنا». «۱» وفى الحقيقة، إنَّ سبب رد دعوة الانبياء هو عبادة الاصنام من قبل الاسلاف، والتقليد الأعمى للمعاصرين والأنبياء. وعندما دعى رسول الإسلام صلى الله عليه و آله الناس إلى الإسلام وعبادة الله الواحد كان رد فعلهم هو التعجب مما يدعو اليه الرسول من عقائد مخالفة لسننهم وتقاليدهم وكان وتبريرهم لرد دعوته هو اتباعهم لما كان عليه اسلافهم من عبادة اصنام كانوا يصنعونها بايديهم من التمر، ويأكلونها عند شعورهم بالجوع. يقول الله فى هذا المجال حكاية عن لسان الكافرين: «أَجَعَلَ الآلِهَةَ إلَهاً واحداً إنّ هَذَا لَشَىءٌ عُجَابٌ». «۲» امثال القران، ص: ۶۸ جاء فى بعض كتب التاريخ أنّ أبا طالب (رضى الله عنه) مرض يوماً وكان محمد ابن أخيه منشغلًا بالتبليغ خارج البيت فاتى اشراف قريش ابا طالب بحجة العيادة له وقالوا: أنت شيخنا وكبيرنا وقد أتيناك لتقضى بيننا وبين ابن اخيك فانه سفّه احلامنا وشتم الهتنا. فدعا ابو طالب رسول الله صلى الله عليه و آله وقال: يا بن أخى! هؤلاء قومك يسألونك فقال: «ماذا يسألوننى»؟ قالوا: دعنا وآلهتنا ندعك وإلهك. فقال صلى الله عليه و آله: «اتعطونى كلمة واحدة تملكون بها العرب والعجم»؟ فقال ابو جهل: لله أبوك نعطيك ذلك عشر أمثالها. فقال: «قولوا لا إله الا الله». فقاموا وقالوا: أجعل الالهة الهاً واحداً. «۱» وهو يدعوهم للتوحيد فى عبارته الأخيرة.

الشرح والتفسير

شُبِّه الكفار فى هـذا المثل القرآنى بالحيوانات؛ ولاجل تبرير هذا التمثيل اكد على تقليدهم التام والأعمى لأسـلافهم. يقول الله فى الآية ۱۷۰ من سورة البقرة: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلفَيْنَا عَلَيْهِ آبائَنا أَوَلَو كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ». وكأنّه يَقول: يا جهّال! هل أنَّ اتباعكم للاسـلاف الذين لا يعقلون شيئاً اتّباع عن بصيرة؟! ثم يمثل الرسول (عندما يقرأ الايات على هذا القوم المشـرك) بـالراعى الـذى ينادى رعيته بالاصوات لتوجيه حركتها، إلّا أنَّ هـذه البهائم لا تعقل من كلامه شـيئاً إلَّا الأصوات التى تتأثر بها، فاذا كانت اصوات الراعى شديدة وذات ايقاع قوى اثرت فى البهائم وإلّا فلا. إنّ مثل المشركين كمثل هذه البهائم لا تفهم ما تقرأه عليهم من المعـانى والمفـاهيم الرفيعـة لكنهم يفهمون الأـصوات وموسـيقى كلامك فحسب لـذا يسـتمرون فى تقليـدهم الأعمى للاسلاف.

خطابات الآية

الاـول: إن الآيـة جواب لاـئق للسؤال التـالى: إذا كـان القرآن المجيـد وحياً الهياً فينبغى أن ينفـذ فى القلوب ويترك اثره فيها، فلماذا لا نشاهـد هـذا الامر فى بعض المشـركين الـذين ظلّت قلوبهم نائمة دون يقظة إلى اخر عمرها؟ إنَّ التأثير على أى شـىء يسـتدعى وجود عاملين: ۱- فاعلية الفاعل. ۲- قابليـة القابـل. وممـا لاـ شـك فيه أنَّ القرآن فاعل وذات تأثير ونفوذ، إلّا أنَّ الكافرين ليست لهم القابلية لاستقبال مفاهيم القرآن واستقطابها. لا خلاف فى لطافة طبع الغيث لكنه إذا هبط على الحجر فانا لا نتوقع منه انبات الشجر؛ وذلك لان الحجر ليست له قابليـة على تنميـة البذور، وكذلك هو شأن الكافرين. فإنَّ كلام الله بروعة قطرات المطر وقلوب الكافرين بقسوة وشدة الحجر ولا تؤثر هـذه القطرات اللطيفـة فى الحجر، لكن بمجرد أن تحصل ادنى قابليـة لهذه الأحجار على الانبات نرى الغيث يؤثر فيها. وقلوب الكافرين المتحجرة إذا تبلورت فيها أى قابليـة على التأثر كان كلام الله نافـذاً فيها وتاركاً اثره. وعلى هذا فتأثير المؤثر غير كافية بل قابلية القابل مهمة أيضاً، والكافرين ما كانت لهم تلك القابلية. الثانى: افادة الناس من المعارف القرآنية يتوقف على مستوى لياقتهم وقدرتهم على الافادة. القرآن حديقة يسـتطيع أنْ يتمتع بها كل شـخص بمسـتوى ذوقه، أو هو ينبوع من الماء الزلال يستطيع كل واحد أنْ ينهل منه ماء الحياة ويروى عطشه. والاختلاف بين الجميع فى مقـدار ما ينهلون منه. إنّ هؤلاء الكفار لا هم يملكون الاناء للنهل من هـذا الينبوع، ولا هم قادرون على تجرع الفيض والرحمـة الالهيـة؛ وذلك لأنّ تقليدهم الأعمى لدين آبائهم يمنعهم من النهل من زلال المعرفـة الربانيـة. امثال القران، ص: ۷۰ وبتعبير آخر: إنَّ اتبـاعهم لـدين آبـائهم ضـرب حجابـاً ضـخماً على وسائـل معرفتهم حال دون سمعهم أو ابصارهم أو نطقهم فاصبحوا عمياً بكماً صـماً لا يفقهون شـيئاً. وقد فسرت الآية المذكورة بشكل آخر، هو: أيُّها المشركين! إنَّكم تركعون لاصـنام تعبـدونها وتناجونهـا وهى لاـ تسـمع حاجـاتكم ولاـ ترى اعمـالكم ولا تسـتطيع النطق والكلام معكم، فهى بكم وعمى وصم كالبهائم. أيُّها الإنسان! إنَّك قـد كسـرت شخصـيتك بنفسك من خلال العبادة والخضوع لهـذه الاصـنام الجامدة. بما أنَّ ضمير (هم) فى (فهم) والضـمير الذى فى (لا يعقلون) يشـيران إلى العقلاء لذا كان التفسـير الاول اقرب للمنطق والعقل. على أى حال، فإنَّ الخطاب الرئيسى للاية هو رفض التقليد الاعمى للاسلاف والآباء.

التقليد فى القرآن

تحـدثت آيات كثيرة عن التقليـد، ومن الايات ما تـذم التقليد وتعتبره عملًا مضاداً للقيم، ونموذج ذلك الآية ۱۷۰ من سورة البقرة. «۱» لكن بعض الايات التى وردت فى التقليـد لا أنّها لم تذمه فحسب، بل دعت له وشـجعت الناس عليه، كما فى الآية ۷ من سورة الأنبياء: «فاسْئَلُوا أَهْلَ الـذِّكْرِ إنْ كُنْتُمْ لَـا تَعْلَمُونَ». ومع الالتفـات إلى التضاد الظاهرى بين هـذين الطائفتين من الايات، ما هى وظيفـة المسـلم المؤمن؟ هل التقليد أمر مستحسن ام ممنوع ومحرم؟ وهل يتمكن المؤمن من تقليد أهل العلم؟

أقسام التقليد

لاجل ايضاح الموضوع من الافضل ان نـدرس اقسام التقليد. ۱- تقليد الجاهل للجاهل: ومثل هذا هو تقليد الكفار والمشـركين الجهال لابـائهم الجهال. امثال القران، ص: ۷۱ وهـذا النوع من التقليـد ممنوع وغير صـحيح حسب الموازين الشـرعية والعقلية. ۲- تقليد العالم للعالم: إنَّ العالم هو صاحب الرأى وليس من الصـحيح ان يقلد العالم عالماً اخر؛ لانه إذا كان صاحب رأى فعليه أن يفكر فى أن يبدى رأيه ويفيـد من علمه الذاتى، ولهذا قيل فى الفقه (يحرم التقليد على المجتهد). ۳- تقليد العالم للجاهل: بأن يترك صاحب الرأى رؤاه وافكـاره ويبحث عن رأى الجاهـل ليعمل على اساسه. من المؤسف أنَّ هـذا النوع من التقليـد يكثر فى عالمنا اليوم، ونموذج ذلك هو الديمقراطية الغربية، فإنّ أصحاب الرأى والمفكرين يتركون من خلال هذه الديمقراطية رؤاهم فى مجال تخصصهم ويبحثون عن آراء الناس فيها فاذا ابـدى الناس خلاف ما يمنحهم تخصصـهم من افكار طرحوا افكارهم واخذوا بما يشاء الناس. ۴- تقليد الجاهل للعالم: بأنْ يَسْأل الشـخص الـذى يفقـد المعرفة فى مجال أو تخصـص ما من العالم والمتخصـص فى ذلك المجال، فالمريض يراجع الطبيب، والـذى يريد بناء بيت يراجع المهندس، والفلاح الذى يريد حفر بئر يراجع المهندس المختص فى هذا المجال و .. والناس يرجعون فى مسائلهم الشـرعية إلى مرجع تقليـدهم. وخلاصة الكلام هنا أنَّ تقليد الجاهل للعالم يعنى الرجوع إلى المتخصصـين والخبراء، وهذا أمر متـداول فى جميع شؤون الحياة، كما أنَّه أمر معقول. وعلى هـذا، فالانواع الثلاثـة الاولى من التقليـد هى الاقسام الممنوعة منه، والآيات التى تـذم التقليـد ناظرة إلى هـذه الأقسام. أمّا القسم الرابع فهو ممـدوح لا جائز فحسب، والايات التى تشـجع التقليد وتحث عليه ناظرة إلى هـذا النوع منه. «۱» لكن ينبغى الالتفات هنا إلى ان التخصـص والعلم فى مجال ما، هو الشـىء الوحيـد الـذى يمنح الانسان امكانية ابـداء الرأى، ولاـ شـىء اخر يجيز للانسـان ابـداء الراى فى موضوع ما. ومن المؤسف أنَّا نشـهد مؤخراً البعض يبـدى رأيه فى مواضـيع مختلفـة قـد لا تدخل فى مجال تخصـصه. إنَّه يُبدى رأياً فى مجال الحجاب والقصاص والعاقلة والارث وقضاء النساء واجتهادهن امثال القران، ص: ۷۲ والـديات وغيرهـا، رغم أنَّه لاـ يملك الارضـية اللازمـة فى هـذه المجالات. لكن يا ترى هل هؤلاء يجيزون لانفسـهم الـدواء عنـد التمرض من دون مراجعـة الطبيب؟ وهل هؤلاء يقومون بعمليات جراحيـة عند الابتلاء بامراض حادة؟ بالطبع لا. اذن كيف يمكن لهم أن يسـمحوا لانفسـهم فى ابـداء الرأى فى القضايـا الشـرعية من دون أن يحملوا المعرفـة الكافيـة فى مجـال الفقه والمسـائل الشرعية؟

المثل الخامس: الإنفاق

اشارة

يقول الله تعالى فى الآية ۲۶۱ من سورة البقرة: «مَثَلُ الّذِيْنَ يُنْفِقُونَ أمْوَالَهُم فِى سَبِيْلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّة أنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ واللهُ وَاسِعٌ عَلِيْمٌ».

تصوير البحث

تحـدثت الآيـة الشـريفة عن (الإنفـاق) وذكرت مثالًا رائعاً للانفاق فى سبيل الله. إنَّ الفقر معضـلة، والبشـر لا زال يعانى منها فى مختلف مجتمعاته، وهى مشـكلة ترجع فى الحقيقـة إلى عدم التوزيع العادل للثروة، الأمر الذى يؤدى إلى تقسـيم البشـر إلى فقير وغنى. التاريخ يشـهد بأنَّه كانت هناك شخصـيات مثل قارون تمتلك ثروات عظيمة، بحيث حمل مفتاح مخازن ثروته يحتاج إلى طاقة عدة اشخاص أقوياء. «۱» وفى مقابل هؤلاء كان هناك اشـخاص بحاجة إلى قرص من الخبز يقضوا بها ليلتهم. إنَّ هذه المشـكلة اشـتدت فى عصـرنا الحاضـر. كمثال على ما نقول: إن بعض الاحصائيات حكت عن أن نسـبة ۸۰٪ من ثروة الكرة امثـال القران، ص: ۷۴ الارضية يمتلكها

نسبة ۲۰٪ من الناس فاذا كان مجموع البشر فى الكرة الارضية عبارة عن خمس مليارات؛ فان ۸۰٪ من الثروة تحت تصرف مليار من البشر و ۲۰٪ من الثروة العالمية يتقاسمها اربعة مليارات. وبعبارة أخرى: إذا كان مجموع شعوب الدول الصناعية يقدر بمليار فهذا المليار يملك اربعة اخماس من ثروة الكرة الارضية وما تبقى من البشر فلهم خمس تلك الثروة. والمدهش هنا أنّ هذه النسبة وتلك المفارقات تزداد يوماً بعد آخر ولصالح الأغنياء.

طرق علاج الفقر

لحل هذه المعضلة قدّم العلماء منذ القدم علاجات، والبشرية جربت علاجين مختلفين. الأول: يعتقد الاشتراكيون والشيوعيون أنَّ الفقر مشكلة نجد جذورها فى الملكية الخاصة، فاذا ما اجتثثنا جذور هذه المشكلة فانَّ المشكلة ستُحل. إنّ اصحاب هذه الفكرة جربوا هذا العلاج مدة سبعين عاماً، قتلوا خلالها الملايين من البشر، وارتكبوا جرائم كثيرة وتحلموا التكاليف الباهضة وواعدوا الناس وعوداً كاذبة كثيرة، وأمّلوهم بحياة متعالية، وتحدثوا مع الناس عن جنة الأرض، بل اعتبروا جنة الانبياء هى نتيجة اعمالهم و .. إلّا انهم اعترفوا بفشلهم بعد هذه التجربة وتلاشى نظامهم، الامر الذى أراح الناس الذين كانوا يرضخون تحت حكومتهم. الثانى: رسمت الدول الرأسمالية خططاً اخرى لرفع معظلة الفقر، فشكلوا لأجل ذلك مؤسسات و منظمات كثيرة، مثل: الهلال الأحمر و صندوق النقد الدولى و البنك الدولى و صندوق التعاون و مؤسسات الاعانات الاقتصادية و الغذائية للدول الفقيرة، و خصصوا لأجل ذلك ميزانيات، لكنها جميعاً كانت تعانى من نقطتى ضعف: الاولى إجراءاتها محدودة و قليلة و غير متناسبة مع نفوس الدول الفقيرة، و لذلك لم تحدث تغييراً فى مستوى الفقر فى هذه الدول. الثانية: كثيراً ما تقترن هذه الاعانات بأغراض سياسية، فاذا اقتضت مصالح هذه الدول الاعانة أعانوا و الَّا امتنعوا عن الاعانة، و أحياناً يعترف بعض مسؤولى هذه الدول بهذه امثال القران، ص: ۷۵ الامور. «۱» وعلى هذا فان العلاج الثانى ما حل عقدة من عقد الفقر العالمى.

علاجات الإسلام

إنّ العلاج الاخر لمعضلة الفقر هو وصايا الإسلام، فإنَّ العمل بها يؤدى إلى ملء فجوة الفقر وتقليل الفاصلة بين الطبقات الفقيرة والغنية. لقد حصل هذا فى عهد الرسول صلى الله عليه و آله فإنَّ العمل بها حصل لاول مرة فى التاريخ فى ذلك العهد وكانت نتيجة ذلك هو مجتمع غير مقسم إلى طبقات، أو مجتمع مع مفارقات طبقية محدودة جداً. إذا تمكنا اليوم تطبيق هذه الوصايا والاوامر الالهية فى مجتمعنا هذا بل وفى المجتمعات البشرية لكانت الثروة موزعة على البشر بشكل عادل ولصغرت الفجوة بين الفقير والغنى فى مجتمعات الكرة الارضية.

الإنفاق طريق لرفع الفقر

الانفاق هو احد الوصايا والأوامر الالهية القيمة التى هى موضوع بحثنا هنا. إنَّ القرآن المجيد أكَّد كثيراً على موضوع الانفاق وقد كان هذا الامر موضوعاً لكثير من آياته، والآيات التى تضمنت مادة الانفاق تقدر بسبعين آية، وإذا اضفنا اليها الايات التى اشارت لهذا الموضوع من دون أنْ تأتى بمادة الانفاق، فالعدد يتجاوز عن هذا الحد بكثير. أمر الله فى القرآن الإنسان أنْ يدفع مقداراً مما كان من نصيبه فى هذه الحياة الدنيا. الآية ۱۹ من سورة الذاريات أمرت بهذا بتعبير جميل: «وَفِى أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ والمَحْرُوم»، وبناء على هذه الآية فان للفقراء والمساكين حقاً فى أموال الناس. امثال القران، ص: ۷۶ ولأجل تشجيع الناس على الإنفاق جاء القرآن بآيات عبرت عن الأمر بتعابير جميلة: ۱- يقول الله فى الآية ۹۶ من سورة النحل: «مَا عِنْدَكُم يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ». يا له من تعبير جميل! فالعبارة تضم معان كثيرة رغم صغرها. وهى تعنى أنّ الإنسان إذا صرف الملايين من امواله فان تلك الملايين تعد نافدة ومستهلكة، بينما إذا

صرف اقل مقدار من امواله انفاقاً فى سبيل الله فإنَّ ذلك سيبقى فى خزينة الله الغيبية ولا ينفد، وهذا خلاف ما يتصوره اكثر الناس. ۲- جاء فى الآية ۸۹ من سورة النمل: «مَنْ جَاءَ بِالحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها» ونفسها فى سورة القصص الآية ۸۴. وحسب ما صرحت به هذه الآية، فإنَّ الصدقة والانفاق لا يذهبان سدى فحسب، بل يمنح الله عليهما شيئاً افضل منهما عوضاً عن ذلك. ۳- الآية ۱۶۰ من سورة الانعام رفعت من قيمة الانفاق لتصرح بما يلى: «مَنْ جَاءَ بِالحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أمْثَالِهَا». الآية تحدثت عن الحسنات عموماً، وباعتبار أنَّ الانفاق من الحسنات العظيمة فهى تشمله. وحسب ما صرحت به، فإنَّ للإنفاق عشرة أضعاف من الثواب والأجر. أمّا الآية المبحوث هنا (۲۶۱ من سورة البقرة) فقد رفعت مستوى الانفاق إلى أعلى مستوى ممكن، فمثلت الانفاق بالسنابل التى تضمّ حبات كثيرة وكل حبة تنبت سنابل كثيرة، وهى بذلك تشير إلى التضاعف التصاعدى للثواب المترتب على الانفاق. ولكى تجيب الآية عن بعض التساؤلات التى تتراود فى اذهان البعض عن مصدر هذه العطاءات أشارت إلى أن ذلك كله من كنوز الله العظيمة، وهو واسع وأوسع من أنْ يتصور.

خطابات الآية

۱- المراد من (فى سَبِيلِ اللّهِ)

اشارة

إنَّ اصطلاح «فِى سَبِيْلِ اللهِ» استخدم اكثر من ۴۵ مرة فى القرآن، واصطلاح «عَنْ سَبِيْلِ اللهِ» استخدم ۲۵ مرة. وقد أُريد من «سَبِيْلِ اللهِ» الجهاد فى كثير من الموارد كما فى الآية امثال القران، ص: ۷۷ الشريفة ۱۶۹ من سورة آل عمران التى جاءت لبيان المقام الرفيع للشهداء: «وَلَا تَحَسَبَنَّ الَّذِيْنَ قُتِلُوا فِى سَبِيْلِ اللهِ أمْوَاتاً بَلْ أحْياءٌ عِنْدَ رَبِهِمْ يُرْزَقُونَ» فقد اريد من «سَبِيْلِ اللهِ» هنا الجهاد كما اريد منه هذا المعنى فى موارد كثيرة أخرى. إلَّا أنَّ (سبيل الله) اختلف معناه فى الآية ۲۶ من سورة (ص): «وَلَا تَتَّبِع الهَوَى فَيضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ..» فقد نهت الآية النبى داود عليه السلام عن اتباع الهوى فى القضاء ودعته للقضاء فى سبيل الله، أى القضاء العادل والذى يصل المحق إلى حقه من خلاله. وعلى هذا؛ فلا نصحح ما ادعاه البعض من أنَّ المراد من «فِى سَبِيْلِ اللهِ» هو الانفاق لاجل الجهاد فقط؛ وذلك لأنَّ المُراد منه مطلق سبيل الله سواء كان فى الجهاد العسكرى أو الجهاد الثقافى أو الجهاد العمرانى أو تأسيس مكتبة أو اعانة المحتاجين أو بناء المستشفيات والمستوصفات أو تأسيس صندوق للقروض أو غير ذلك. بالطبع، إنَّ رعاية الأولوليات والضروريات أمر مهم وفى محله، كما أنَّ الابداع فى هذا المجال سوف يؤدى إلى جذب الناس إلى هذه الاعمال بشكل واسع، نأتى هنا بنموذجين لهذه المقولة:

الأول: صندوق إعانة عوائل السجناء

مهما كان سبب سجن الرجل فإنه غالباً ما يكون معيلًا لعائلته. وخلال فترة حبسه- بخاصة إذا كانت طويلة- تواجه عائلته مشاكل جمة، فمن جانب تهددهم مشكلة الفقر المالى، ومن جانب آخر تترصدهم المشاكل الإجتماعية والأخلاقية، وهنا إذا لم نلتفت إلى الأوضاع التى تعيشها عوائل السجناء ولم نجد حلًا لها فإنَّ عملية حبس رب العائلة سوف تورث بالقوة سجناء ومجرمين آخرين. ومن المؤسف أنَّ هذا الأمر لم يُلتفت اليه فى المجتمع وقلما نجد شخصاً يفكر فيه. إذا قمنا بمثل العمل الذى حصل فى بعض المحافظات وهو تأسيس صندوق القرض الحسن فإنَّ عملنا هذا سيكون علاجاً لكثير من المشكلات الخاصة بعوائل السجناء وبالسجناء انفسهم، وبذلك نقى المجتمع من كثير من الشذوذ والجرائم المحتمل وقوعها. إنَّ شخصا إذا كان سجيناً بسبب دين فى ذمته يعطى من هذا الصندوق قرضاً لكى يطلق سراحه، وبعد أن يحصل على عمل شريف يقوم بالدفع لهذا الصندوق. وبذلك نكون قد امثال القران، ص: ۷۸ عالجنا مشكلته ومشكلة عائلته وانقذناهم من المشاكل الأخلاقية والإجتماعية التى تترصدهم.

الثانی: جمعیة اعانة مرضی الکلیة

هناک الکثیر ممن یعانون من امراض الکلیة وقد یحتاج بعضهم للدیلزة اکثر من مرة فی الاسبوع وخلال هذه الفترة یعانون آلاماً حادة. واکثر هؤلاء یشفون إذا ما زرعت لهم کلیة جدیدة، لکنهم فی الغالب غیر قادرین علی دفع مبلغ الکلیة الجدیدة، وفی هذه الحالة إذا تشکّلت جمعیة لاعانة هؤلاء المرضی المحتاجین لأجل زرع کلیة فإن الجمعیة ستقوم بعمل جبار فی سبیل انقاذهم من الالام التی یعانون منها، کما تخرج عوائلهم من حالة الاضطراب والقلق. ویمکن تأسیس جمعیات مشابهة لهذه الجمعیة تعم منافعها قطاعات ومجالات أخری، وذلک سعیاً لتقلیل المشاکل الاجتماعیة والمالیة عن الناس.

۲- المراد من «الحبّة» فی الآیة الشریفة

هناک بحوث کثیرة قام بها المفسرون متناولین فیها موضوع الحبة والمراد منها. قیل: معنی ذلک أنَّ الله یقوم بهذه المضاعفة لمن یشاء، وهی قد تصل إلی سبعمائة ضعف. «۱» إنّ هذا المثل قد لا یکون له وجود فی الخارج لکن هذا لا یضر، فإنَّ شأن أکثر الأمثال هو هذا سواء کانت بالفارسیة أو العربیة أو بای لغة أخری. فالعنقاء وغیرها من الحیوانات التی لا وجود لها فی الخارج تستخدم فی الامثال. لکن بما أنَّ المثل صدر من الله الحکیم والعالم، فلابد وأن یکون له وجود خارجی. ولاجل ذلک قال البعض: المراد من الحبة فی المثل هو حبة الدِّخن لا حبة القمح؛ لأنَّ حبة الدخن قد تنتج سبعمائة حبة. لکن بما أنَّ مزارعاً بوشهریاً (مدینة فی جنوب إیران) استطاع فی امثال القران، ص: ۷۹ السنوات الأخیرة ان ینتج ۴۰۰۰ حبة من حبة واحدة، لذلک فسرنا الحبة هنا بالقمح، وأمکننا القول بان لذلک وجوداً خارجیاً. «۱»

۳- المراد من (یضاعف) فی الآیة الشریفة

اشارة

هل المراد من عبارة «واللهُ یُضَاعِفُ لِمَنْ یَشَاءُ» أنَّ الله یمنح للمحسن والمنفق ما یشاء من دون حساب بأن یمنح الشخص (أ) ضعفین من الثواب بینما یمنح الشخص (ب) ثلاثة أضعاف؟ أو أنَّ المضاعفة لها حساب خاص وقواعد خاصة؟ إنّ حکمة الله تقتضی بأن لا یکون منح الثواب بشکل اعتباطی ومن دون حساب، بل جعل الأمر مرتبطاً بمفارقات من قبیل درجة الاخلاص وکیفیة الانفاق ومورده وشخصیة المُنْفِق والمنفَق علیه، أی أنَّ ثواب الشخص الذی انفق خالصاً لوجه الله یختلف عن ثواب الشخص الذی لم یبلغ تلک الدرجة من الاخلاص، والشخص الذی ینفق سراً ومن دون منة واذی یختلف ثواباً عن الشخص الذی ینفق علناً، فهما یقعان فی مرتبتین لا مرتبة واحدة. والمسلم الذی ینفق قرصاً من قرصی الخبز اللذین یمتلکهما یختلف عن المسلم الذی ینفق قرصاً وهو یملک عشرة أقراص من الخبز. کما أنَّ الشخص الذی یعین عائلة مسکینة لم یتفوهوا بحاجتهم لاحد یختلف عن الشخص الذی یعین عائلة طلبت الاعانة منه.

أرفع نموذج للإنفاق فی القرآن

فی القرآن سورة باسم (الدهر) أو (الإنسان) أو (الابرار) نزلت فی شأن الانفاق الخالص، وقد ادرجت هذه السورة اجمل نعم الجنة للمنفقین. العامة والخاصة نقلوا أنَّ السورة نزلت فی الامامین الحسن والحسین علیهما السلام حیث مرضا فنذر الامام علی علیه السلام صیام ثلاثة ایام لشفائهما، فالتحقت فاطمة علیها السلام بهذا النذر، ثم فضة کذلک. وبعد الشفاء صام الجمیع وقد اعدت فاطمة فی

اليوم الاول خمسة اقراص من خبز الشعير امثال القران، ص: ۸۰ وعند الافطار طرق فقير الباب طالباً العون فاعطى الجميع اقراصهم له وافطروا على الماء فحسب. وفى اليوم الثانى جاءهم يتيم، وفى اليوم الثالث جاءهم اسير، وقد أعطوهما مثل ما اعطوا الفقير فى الليلة الاولى، وفى اليوم الرابع نزلت هذه السورة فى حقهم، «۱» وفيها توصيف وتمجيد للانفاق ووعود بنعم عظيمة فى الجنة. وعلى هذا، فإنّ هذه العائلة حصلت على ثواب عظيم اثر انفاقها لخمسة عشر قرصاً من الخبز. تقول الايات ۹ و ۱۰ من سورة الدهر: «إِنَّمَا نُطْعِمُكُم لِوَجْهِ اللهِ لِا نُرِيْدُ مِنْكُم جَزَاءً وَلَا شُكُوْراً إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْماً عَبُوْساً قَمْطَرِيْراً». النموذج المذكور وغيره من النماذج التى اثرناها عن المعصومين عليهم السلام، هى فى الحقيقة موارد نتأسى بها نحن المسلمون لنسير قدماً نحو مجتمع اسلامى مقبول خلو من المفارقات الإقتصادية. مما يمكن أنْ يُستشف من الاحاديث والروايات هو: أنَّ عدم الفقر والحاجة من خصائص المجتمع الاسلامى المطلوب. أى أنَّا إذا بلغنا يوماً مستوى اقتصادياً رفيعاً وتنمية صحيحة بحيث توزع الثروة فى المجتمع الاسلامى توزيعاً عادلًا فى جميع البلاد الاسلامية فانا قد بلغنا- من الناحية الاقتصادية- مستوى المجتمع الاسلامى المطلوب. إنَّ هذه العقيدة ليست شعراً ولا شعاراً ولا كلاماً عاطفياً وذات صبغة احساسية بل إنَّه مضمون رواية منقولة عن الامام الصادق عليه السلام: محمد بن مسلم من اصحاب الامام الصادق عليه السلام ينقل عن الامام قوله: «إنَّ الله عزوجل فرض للفقراء فى مال الأغنياء ما يسعهم ولو علم أنَّ ذلك لا يسعهم لزادهم. إنهم لم يؤتوا من قبل فريضة الله عزوجل ولكن اوتوا من منع من منعهم حقهم لا مما فرض الله لهم ولو أنَّ الناس ادوا حقوقهم لكانوا عايشين بخير». «۲» امثال القران، ص: ۸۱ المجتمع الذى يضمُّ فُقَرَاء، لا يكون الفقراء المتضرّرين الوحيدين من هذا المجتمع، بل اضرار الفقر تعم جميع المجتمع، فإنَّ الفقر منشأ كثير من الذنوب منها: السرقة والاعمال المنافية للعفة وغير ذلك. وقد جاء فى رواية أخرى للامام الصادق عليه السلام: «ولو أنَّ الناس ادوا زكاة اموالهم ما بقى مسلم فقيراً محتاجاً لاستغنى بما فرض الله وأنَّ الناس ما افتقروا ولا احتاجوا ولا جاعوا ولا عروا الا بذنوب الأغنياء». «۱» وحسب هذه الرواية فإنَّ الحقوق الشرعية الواجبة مثل الخمس والزكاة تسد حاجة المحتاجين، واذا ما تم العمل بهذه الواجبات، فإنَّ هذه المعضلة ستُجتث جذورها بالكامل. يطرح هنا تساؤل وهو: ما الحاجة إلى الانفاق والتبرعات المستحبة إذا كانت التبرعات الواجبة تعمل عملها وتسد حاجة الفقراء إلى المال؟ وعلى هذا فما دور الآية ۲۶۱ من سورة البقرة فى هذا المجال؟ يمكننا الاجابة عن هذا السؤال بطريقتين: الاولى: قد يتخلّف بعض المتمولين والاغنياء عن وظائفهم الشرعية ولا يدفع ما عليه من الزكاة الواجبة- كما هو الحال فى الوقت الحاضر فان كثيراً من المتمولين غير موفقين فى دفع ما عليهم من الزكاة الواجبة، وفى هذه الحالة يأتى دور الصدقات والتبرعات المستحبة لتملأ الفراغ الناشئ عن عدم دفع الاغنياء لما عليهم من صدقات واجبة. وعلى هذا، فالمحسنون من المؤمنين يقومون بدور الاغنياء العصاة ويتحملون نتائج عصيانهم، هذا اضافة إلى ما يتحملون من دفع الصدقات الواجبة عليهم. الثانية: إنّ الزكاة وغيرها من التبرعات الواجبة والمفروضة على الاغنياء تسد الحاجة الضرورية للفقراء إذا ما دفعت. واما الانفاق فدوره يبرز فى التوسيع على الفقراء ليبلغ بهم مستوى رفاهى نسبى ومعتد به. فى النتيجة: إذا اخذنا بنظر الاعتبار مستوى الفقر ونوعيته فى المجتمع يمكننا الحكم فى ضوئه على مستوى اقترابنا من المجتمع الاسلامى المطلوب.

۴- دراسة المشبَّه فى آية الانفاق

للمفسرين رأيان فى تحديد المشبّه فى الآية ۲۶۱ من سورة البقرة، فبعض قال بأنه المال المنفق، حيث شُبِّه بالحبة المباركة التى تنتج سبعمائة حبة. وقال بعض آخر: بأنَّ المشبَّه هو المنفِق الذى ينمو ويتكامل إلى مستوى رفيع جداً. اكثر المفسرين يعتقد بأنَّ المشبَّه هو المال المنفق ويقدرون جملة محذوفة هنا لتكون حقيقة الآية كالتالى: (مثل اموال الذين ينفقون ..). ونحن نعتقد أنَّ الآية لا تحتاج إلى التقدير، وحسب الظاهر فإنَّ المشبَّه هو الإنسان المنفِق الذى تعلو شخصيته وتتكامل وتنمو إلى مستوى سبعمائة ضعف، ومصداق هذا الاعتقاد هو الايات والروايات التى دلت على أنَّ الإنسان كالنبات ينمو ويتكامل. أولًا: يقول الله فى الايات ۱۷ و ۱۸ من سورة نوح: «واللهُ أَنْبَتَكُم مِنَ الأَرْضِ نَبَاتاً ثم يُعيدُكُمْ فيهَا ويُخْرِجُكُمْ إخْرَاجاً» فقد شُبّه الإنسان هنا بالنبات الّذى يُزرع لينمو ويتكامل ثم يجف ثم

يحيا مرة أخرى ثم يجف ثم يحيا وهكذا ... ثانياً: يقول الله فى الآية ۳۷ من سورة آل عمران: «فَتَقَبَّلَها رَبُّها بِقَبُولٍ حَسَنٍ وأَنْبَتَهَا نَباتاً حَسَناً وَكَفَّلَها زَكَريا ...» فقد استخدم هنا مادة الانبات للاشارة إلى تربية مريم من قبل زكريا، والشاهد هو تشبيه تربية الإنسان بتنمية الزرع بعد انباته. ثالثاً: جاء فى حديث نقل عن الرسول صلى الله عليه و آله: «إياكم وخضراء الدمن!» قيل وما خضراء الدمن؟ قال: «المرأة الحسناء فى منبت السوء» «۱» فقد شبه الإنسان هنا بالنبات الذى قد ينبت فى مكان سيء. من جانب آخر، انَّ فى هذا الحديث خطاباً واضحاً ووصية مهمة للشباب المقبلين على تشكيل عائلة. ففى هذا الحديث يوصى الرسول صلى الله عليه و آله المؤمنين أنْ لا يجعلوا الجمال المقياس الوحيد لانتخاب الزوجة بل اضافة اليه ينبغى النظر إلى العائلة، أى المكان الذى تربت فيه الزوجة، وذلك رغم أنَّ الجمال بحد ذاته قيمة إلّا أنّه يرضى الزوج فى الفترة الوجيزة الاولى من امثال القران، ص: ۸۳ الحياة المشتركة، أمّا القيم الأساسية والمهمة فى الحياة العائلية، وهى التربية والثقافة والفكر والقيم المكتسبة فى البيت فيبرز دورها فى المراحل اللاحقة من حياة الإنسان. والجميلة إذا لم تتميز بسيرة حسنة واخلاق جميلة بدلت محيط العائلة المقدس إلى جهنم يصعب تحملها. كما شاهدنا فى الايات والروايات السابقة، فإنَّ الإنسان شبّه بالنبات الذى ينمو ويتكامل، وبهذا يمكن أنْ نستدل على أنَّ المُراد من المشبَّه فى الآية هو الإنسان نفسه. وفى النتيجة يكون مفهوم الآية كالتالى: أيها الإنسان أنت كالنبات والإنفاق بمثابة الماء الذى يسقى النبات ليمنحه حياة ونمواً. وبعبارة أخرى: إنَّ الانفاق يُحيى فى الإنسان الصفات العليا مثل السخاء والعطاء والمروة والانصاف والشجاعة وغير ذلك. إنَّ هذه الصفات فى البداية تكون (فعلًا) أو عملًا مجرداً، واذا ما تكررت تصبح عادة وفى صورة الاستمرار تصبح (حالات) وفى النهاية تكون (ملكة) «۱» وجزءاً من وجود الإنسان. وعلى هذا، فالانفاق، قبل ان تكون له عوائد مادية، له مردودات معنوية، وكلما كان الانفاق عن اخلاص اشد وكلما كان اطهر وانسب كلما كانت هذه المردودات اكثر وأوسع. وقد نكون جميعاً جربنا عطاءنا مسكيناً لم يصّرح بحاجته لنا مقداراً من المال (رغم حاجتنا له) وجدنا فى ذلك لذة معنوية احسسناها بكل وجودنا، وبلغنا إثر ذلك هدوءاً باطنياً وحالة روحانية ومعنوية خاصة. ذلك هو النمو والتعالى الذى تشير اليه الآية من خلال مثلها. إنَّ الله القادر والحكيم بامكانه أنْ يغنى الجميع ويجتث جذور الفقر من المجتمعات، لكنه شاء أن تكون هناك فجوة بين الفقراء والأغنياء يسعى المؤمنون فى ملئها ليروا آثار أعمالهم الحسنة وبركات انفاقهم فى الدنيا ويشعروا بهذه الاثار ويبلغوا اثر ذلك الدرجات العليا من الكمال والمعنوية. وعلى هذا فلا نمن على الله بالانفاق ولا على المنفق عليه، بل الله هو الذى يمن علينا أنْ وفقنا لهذا العمل العظيم (اللهم وفقنا لما تحب وترضى). امثال القران، ص: ۸۴ ومن مجموع ما مضى يمكننا ان نفسر الآية ۲۶۱ من سورة البقرة بصراحة من دون حاجة إلى تقدير جملة محذوفة. رغم ذلك فانا لا نصر على تفسيرنا بل نعتبر أنَّ كلا التفسيرين مقبولان، أى يمكننا القول: الآية تفيد أنَّ مال الفرد المنفق ينمو كما أنَّ شخصيته تنمو من خلال نمو وتكامل خصالها الحسنة. «۱»

نمو المال المنفق فى كلام الرسول صلى الله عليه و آله

فى مجال نماء المال المنفق، للرسول صلى الله عليه و آله كلام جميل ننقله هنا: «ما تصدق احد بصدقة من طيب- ولا يقبل الله الا الطيب- إلَّا أخذها الله الرحمن بيمينه وإن كانت تمرة فتربو فى كف الرحمن حتى تكون اعظم من الجبل». «۲» فى هذه الرواية نرى عدة نقاط أهلًا للإنتباه: الاولى: الرواية صرحت بأنَّ الله ياخذ الصدقة بيمينه وهذا أمر يطرح تساؤلًا: هل لله جسم وأعضاء؟ من البديهى أنّ الله غير مجسم، وتعبير (الاخذ باليمين) كناية عن قدرة الله الكاملة، وذلك لأنَّ اليمنى عند الإنسان غالباً اقوى، لذلك كان مفهوم العبارة أنَّ الله يأخذ الصدقة بقدرة كاملة مع احترام. الثانية: انّ ما يحضى بالأهمية فى الإسلام هو كيفية العمل ودوافعه لا كميته وظاهره. وعلى هذا، فإنّ اعطاء تمرة حلال لمسكين من دون منة ولا أذى افضل عند الله من تمر كثير غير حلال أو تزامن مع منة أو أذى. الثالثة: وفقاً لهذه الرواية، فإنّ المال المنفق ينمو إلى سبعمائة ضعف أو أكثر. وعلى هذا الأساس، فإنَّ المال يبقى عند الله ينمو ويرد إلى صاحبه يوم القيامة ليكون سبباً لانقاذه من نار الجحيم.

(الانفاق) فی تعابیر القرآن الجمیلة

لاجل بیان اهمیة الانفاق فی الإسلام وقیمته فی القران، وردت فی القرآن تعابیر کثیرة عن هذا الأمر، وهی اهل للالتفات والدقة نکتفی هنا بـذکر نموذجین منها: الأول: جاء فی الآیة الشـریفة ۲۴۵ من سورة البقرة مـا یلی: «مَنْ ذَا الّذِی یَقْرِضُ اللهَ قَرْضـاً حَسَـناً فَیُضَاعِفَهُ لَهُ أضْـعَافاً کَثِیْرَةً». التعبیر بـالقرض الحسن عن الانفـاق تعبیر بـدیع ومـدهش. کیف یمکن لله القـادر والمالک لکل شـیء أنْ یقترض من الإنسان الفقیر والمحتاج لربه فی کل حرکاته وسـکناته وحتی فی الشـهیق والزفیر؟ ومع لحاظ أنَّ القرض الربوی فی الإسلام حرام فإنّ التعبیر عن الانفاق بالقرض الحسن لا یکشف إلّا عن اهمیـة الانفاق وتشـجیع للعباد لاجل اداء هذا العمل بإخلاص. ویبدو أنَّ ذکر هذه النقطـة ضـروری، وهی أنَّ (القرض الربـوی) نـاظر إلی العبـاد وسـلوکهم بینمـا القرض الحسن نـاظر إلی رب العبـاد، وهو یعنی أنَّ من یقرض الله قرضاً فالله یرجعه مع اضـعاف مضاعفة. والنقطة المدهشة کثیراً هنا هی أنَّ یَد الفقیر- حسب الآیة والروایات المذکورة- هی یـد الله، وبیته هو بیت الله. وفی الحقیقة ان ما یوضع فی ید الفقیر یوضع فی ید الله، ولذلک کانت الروایات توصـینا بأنْ نضع ایدینا فی مسـتوی ادنی من ید الفقیر عند التصدق إلیه، لأجل أنْ یَأخذها من أیدینا، ولأنَّ یده هی ید الله وقدرته الکاملة، وهو الذی یستلم المال من المتصـدق. حـذارا أن تصـدر منا اهانـة أو تحقیر لفقیر. وقـد تکررت العبارة المذکورة هنا فی الآیة ۱۱ من سورة الحدیـد، کما قد اضـیف لهـا جملـة أخری: «مَنْ ذَا الـذی یُقْرِضُ اللهَ قَرْضَـاً حَسَـناً فَیُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أجْرٌ کَرِیمٌ ...». الثانی: جاء فی الآیـة ۹۲ من سـورة آل عمران: «لَنْ تَنَالُوا البِرَّ حَتَّی تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَیءٍ فإنَّ اللهَ بِهِ عَلِیمٌ ...». وکذا جاء فی الآیة الشریفة ۲۶۷ من سورة البقرة «یَا أیُّهـا الَّذِینَ آمنُوا أنْفِقُوا مِنْ طَیّباتِ مَا کَسَبْتُم وَمِمَّا أخْرَجْنَا لَکُمْ مِنَ الأرْضِ»، أی علیکم أن لا تنفقوا الا من الطیبات فلا تنفقوا من امثـال القران، ص: ۸۶ الاشـیاء التی لاـ فائـدة فیها أو مضـرة مثل الملابس الخلقـة أو الفواکه والمأکولات الفاسـدة وما شابه ذلک، بل تـذهب الآیـة إلی ابعـد من ذلک لتأمر بانفاق ما یحبه الإنسان، والـذی هو أهل لان یعطی بید الله، فإنَّ غیر ذلک لیس أهلًا لوضـعه بید الله، فالانفاق بالاکل ینبغی أنْ یکون من النوع الـذی یحبه المنفق له ولعیاله وفی الملابس من النوع الذی یحب لبسه المنفق واهل بیته. إنَّ نظام القیم الحاکم فی الإسـلام یحکی عن منـح الإسـلام القیمـة والاهمیـة لکیفیة العمل لا کمیته ومقداره، ولهذا یضاعف الله أجرة تمرة واحدة ألف ضعف، بینما لا یفعل ذلک فی تمرة أُخری؛ لأنَّها قد لا تکون مکتسبة من حلال أو قد تنفق بنیة الریاء وما شابه. ننقل هنا حکایـة عن الرسول صـلی الله علیه و آله تکشف عن دقائق الانفاق: کان الرسول یعدُّ العدة لاحد غزواته وکان المسـلمون یتبرعون لاجل هـذه الغزوة .. فجاء رجل فتصـدق بشـیء کثیر فقالوا: مراء، وهذا القول صدر من المنافقین الذین لا یامن احد من لسانهم، وجاء أبو عقیل، الـذی ما کان مورده یسـعه للتصـدق فاضـطر للعمل لیل نهار لاجل الاشتراک فی هـذه التعبئة الجماهیریة، بنصف صاع فقال المنافقون: إنّ الله لغنی عن صدقة هذا، فنزلت الآیة ۷۹ من سورة التوبة: «الّذِیْنَ یَلْمِزُونَ المُطَّوِّعِینَ مِنَ المُؤمِنِینَ فِی الصَّدَقَاتِ والّذینَ لَا یَجِدُونَ إلّا جُهْدَهُم فَیَسْخَرُونَ مِنْهُم سَخِرَ اللهُ مِنْهُم وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِیْمٌ». «۱» امثال القران، ص: ۸۷

المثل السادس: الإنفاق مع المنِّ والأذی

اشارة

یقول الله تعالی فی الآیة ۲۶۴ من سورة البقرة: «یَا أیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِکُمْ بِالمَنِّ والأذَی کَالّذِی یُنْفِقُ مَالَهُ رِئَآءَ النَّاسِ وَلَا یُؤمِنُ بِاللهِ وَالیَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ کَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَیْهِ تُرَابٌ فأصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَکَهُ صَلْداً لَا یَقْدِرُونَ عَلی شَیءٍ مِمّا کَسَبُوا وَاللهُ لَا یَهْدِی القَوْمَ الکَافِرِیْنَ». المثلان الخـامس والسـادس کلاهما حول الانفاق لکنهما غیر مکررین، بل إنَّ المثل الخامس حکی فضل الانفاق وقیمته، أمّا فی المثـل السـادس فالحـدیث عن الانفـاق ذات الصـبغة السـلبیة وأنَّ المؤمنین لا ینبغی أنْ یبطلوا صـدقاتهم وانفاقهم بالمنّ وأذی الآخرین.

الشرح والتفسير

الآية بدأت حديثها بخطاب المؤمنين، ومعنى ذلك أنَّ ما ورد فى الآية من اوامر فهى خاصة بالمؤمنين، وشرطها الاول هو الايمان وأن الذى خرج مصداقاً عن هذه الآية وكان غير عامل بها فهو ليس بمؤمن. عبارة «لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالمَنِّ والأذَى» تفيد أنَّ شيئين يبطلان الصدقة، الأول: المنّ، والثانى: ايصال الاذى للاخرين؛ وذلك لأنَّه قد لوحظ أنَّ البعض يتصدق على آخرين لكن صدقته تتزامن مع اذى إلى آخر العمر، بأن يقول له: (لولاى لكنت محتاراً وما كان لك شأن واعتبار) أو (خذ هذا المبلغ ولا ترينى وجهك بعد ذلك). امثال القران، ص: ۸۸ ليس المنّ والاذى هما الوحيدان اللذان يبطلان الصدقة، بل قطع كلام الفقير الذى يريد حكاية حاله ومشاكله أيضاً أمر غير صحيح ومرفوض. جاء فى رواية: «لا تقطعوا على السائل مسألته، فلولا أنَّ المساكين يكذبون ما افلح من ردهم». «۱» لا بأس هنا ان نبتّ بتوضيح مفردة (المنّ). إنَّ أصل هذه المفردة هو (مَن) وهو وزن خاص، وقد استخدمت هذه المفردة للاشارة إلى المعنى المراد فى الآية؛ لأجل أنَّ الشخص المانَّ يحمِّل الممنون عليه عبئاً وثقلًا يشعر به. من جانب آخر، فإنَّ انعام الشخص على آخر يقال له (منّ) وهو على قسمين: الأول: المنّ العملى بأنْ ينعم شخص عملياً على شخص اخر، وهذا أمر مستحسن. الثانى: المنّ الادعائى بان ينعم شخص على اخر بالقول دون العمل، فهو عملياً لم ينعم عليه أبداً. وقد استخدمت هذه المادة فى القرآن المجيد عشرين مرة. من موارد استخدام هذه المادة هو ما جاء فى الآية ۱۷ من سورة الحجرات: «يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أنْ أسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إسْلَامَكُم بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُم أنْ هَدَاكُم للإيمَانِ». فالمنُّ الاول فى الآية هو منٌّ إدعائى، وذلك لأنّ الاعراب لم يمنوا على النبى بأى نعمة. فإنَّ المريض إذا جاء طبيباً وطلب منه الدواء فكتب الطبيب الدواء له وشفى من جرّاء استخدام هذا الدواء، فهل هذا يعنى انعام المريض ومنه على الطبيب؟! أمّا المنُّ الثانى فى الآية فهو مَنٌّ عَمَلَىٌ؛ وَذلك لأنّ الله أنعم عليهم نعمة الإسلام، فَمَنَّ عليهم بهذا العطاء. وعلى هذا، فالمَنّ الصادر من الله يعنى البذل والعطاء أو المنّ العملى، أمّا المنّ الصادر من الإنسان فيحتمل كلا المعنيين العملى والإدعائى. والمنّ الأول فى الآية هو منّ ادعائى وقولى. ثم تمثل الآية هؤلاء الاشخاص بقطعة من الحجر وتقول: «... كالّذِى يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ باللهِ واليَومِ الآخر فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فأصَابَهُ وابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لَا امثال القران، ص: ۸۹ يَقْدِرُونَ عَلى شَيءٍ مِمَّا كَسَبُوا ...». فالذى ينفق مع منّ واذى (كالكافر المرائى) انفاقه غير مقبول عند الله؛ لأنَّ الإيمان هو شرط القبول، ومثل هذين (أى المان والمؤذى من جهة والكافر المرائى من جهة اخرى) كمثل صفوان، أى قطعة من الحجر تراكمت عليها طبقة من التراب بحيث تبدو صالحة للزراعة، فاذا بوابل (مطر) يصيبها ليكشف عن واقعها الصلد المتحجر وعدم صلاحيتها للزراعة، فيجدون أنفسهم «لا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيءٍ» فذهبت مساعيهم هباءً؛ لأنَّ عَملهم لم يكن عن علم ومعرفة بل كان بناءً على النظر إلى الظاهر لا الباطن والعمق. الغيث نعمة يمكنه أنْ يروى المزارع وينمى البذور، كما يمكنه ان يدمر الزرع. كذلك سائر آيات الله فهى تفيد المؤمنين والصالحين من بركاتها، كما تفضح وتضل الكافرين والمنافقين. إنَّ كلفة وزحمة المزارع الذى يزرع بذور الاخلاص والمزارع الذى يزرع بذور الرياء واحدة لكنَّ حاصل الزرعين ليس واحداً، فاحدهما يحصل على سبعمائة ضعف والاخر قد لا يحصل على ادنى شيء بل يفقد كل ما كان لديه.

خطابات الآية

۱- خطابات القرآن المجيد غالباً ما تكون عامة (يا أيُّها النَّاس) و (يا بَنِى آدَمَ) و (يا أيُّها الإنْسَانُ) و (يَا أيُّها الَّذِين آمَنُوا) وهذا يعنى تعميم خطابات القرآن لجميع البشر مهما كان جنسهم ومهما كانت قوميتهم، ولذلك لا نجد فى خطاباته عبارات من قبيل: (يا أيُّهَا العَرَبُ) أو (يا قريش) وما شابه ذلك. هذه الخطابات تتضمن نقطة ظريفة وهى عولمة الدين الاسلامى، أى ان الإسلام دين لا يختص بقوم أو بلدٍ أو قبيلة أو جنس بل هو للجميع اينما وجدوا. ۲- إنَّ الرياء والتظاهر عمل لا أساس له ولا تواصل، والمترائى والمتظاهر

يحكم عليه بالفضيحة؛ وذلك لأنَّ كلّ وقتٍ يحتمل أنْ طروّ ظاهرة تكشف عن وجه الحقيقة، كما كشف الوابل فى الآية عن حقيقة الصخرة المتحجرة. ۳- إنَّ الذين ينفقون مع المنِّ والأذى كالحجارة وقلوبهم بشدة الحجارة. وما يلفت امثال القران، ص: ۹۰ الانتباه هنا هو أنَّ المطر اللطيف يكشف عن قسوة قلوب هؤلاء وطبيعتهم. إنَّ الغيث يروى البذرة لتنمو، لكن دوره هنا هو تدمير هذه البذرة. إنَّ الغيث من الآيات الالهية تنفذ فى قلب المترائى فتغسل فيه طبقة الرياء وتكشف عن صلابة القلب، ليفتضح صاحبه. ۴- انّ المترائين والمنفقين، الذين يمنون، لا ـ يحصلون على ثمرة من جرّاء عملهم هذا، كما هو الحال بالنسبة للمزارع الذى ينثر البذور فى الارض الصلبة فانه يفقد بذوره كما تذهب مساعيه هباء، وفى النهاية لا يحصل على أى ثمرة، كذا المنفق مع الرياء فهو لا يحصل على أى ثواب كما يفقد المال المنفق. ۵- بناء على التفكير الفلسفى لاكثر المدارس، وبناء على ما يعتقده عامة الناس، فإنَّ المال شىء ثمين، والغنى يُعدُّ من القيم. وحسب ما يرى الإسلام- مع الاخذ بنظر الاعتبار اهمية المال ودوره فى الحياة الدنيا- فإنَّ مفاهيم مثل الايمان والايثار والشهادة و .. لها قيمة اكبر من المال. ومن جملة تلك القيم التى يعتقد بها الإسلام هى احترام الانسانية وحفظ حرمة المؤمن وكرامته. وعلى هذا، هل يمكن عدُّ عمل الشخص، الذى يمنح مبلغاً لمسكين أمام أعين الناس ويُذهب بذلك اعتباره وماء وجهه، صدقة أو انفاقاً؟ وهل من الصحيح أنْ يتوقع هذا الشخص الأجر والثواب من الله؟ من المؤسف أنَّ نظام القيم للمذاهب المادية هو المال، ومظهره الراهن هو الدولار، وهو بامكانه ان يبرر كل شىء حتى الجرائم التى ترتكب فى حق الإنسانية. من تلك الجرائم هو مبايعة الإنسان وبخاصة البنات والبنين الصغار، فإنَّ دلالى البشر يقومون بشراء البنات والبنين من الدول الفقيرة وبخاصة الشرقية بابخس قيمة ثم يبيعونهم فى الدول الغربية المدافعة عن حقوق البشر بمبالغ باهضة. وقد يساء استخدام هؤلاء الاطفال بقطع اعضائهم وزرعها فى أجسام بعض المتمولين فى العالم الغربى، كما قد يستخدمون لاغراض جنسية وتجارية. ومن جملة اجراءات الغربيين التى بررتها دولاراتهم هى (الديمقراطية) التى تشكل البنية الاساس لدعوى حقوق البشر عندهم، فقد تم المعاملة على هذه القضية بالدولارات. ومثل امثال القران، ص: ۹۱ ذلك هو أصوات الشعب الجزائرى المظلوم حيث أبطلت وبتوا علاوة على ذلك بسلسلة من اجراءات تعسفية ومجازر جماعية، لكنّ مدعيى حقوق البشر فى الجزائر عمى وصم وبكم، فلا سمعوا بهذه المجازر ولا رأوا صورها ولا غير ذلك. إنَّ ذلك فى الحقيقة من الاثار القيمة للدولار؛ وذلك لأنَّ هذه الحوادث تؤمّن مصالحهم، بل انفسهم مباشرة أو بشكل غير مباشر يقومون بهذه الاجراءات؛ حفظاً لمصالحهم. هذا الامر لا ينحصر فى الجزائر بل الامر عام فى العالم أجمع، فإنَّ أى حكومة فى العالم تؤمن مصالحهم ولا ـ تحول دون زيادة مواردهم تعد حكومة جيدة مهما كانت قبلية أو بدوية أو لا يلحظ فيها أى دور لآراء الناس، بينما الحكومة التى تعرض مصالحهم واموالهم للخطر فهى حكومة غير انسانية ومخالفة لحقوق البشر ولو كانت تحضى بمعالم انسانية عالية وتدار بواسطة نظام سياسى متقدم. إنَّ الأمر فى الإسلام يختلف، فنظام القيم فيه يبتنى على قيم من قبيل الايمان والكمال الانسانى وكرامة الإنسان واعتباره وشرفه وحيثيته الرفيعة.

سيرة الائمة فى الإنفاق والبذل

إنَّ طريقة بذل الائمة وكيفيتها من الحكايات التى يُعتبر ويُتعلم منها الدروس. ينقل العلامة المجلسى عند ذكر سيرة الإمام الحسن المجتبى عليه السلام الحكاية الجميلة التالية التى ملؤها العبر والدروس: «خرج الحسن والحسين عليهما السلام وعبد الله بن جعفر (زوج زينب عليها السلام) حجاجاً ففاتهم اثقالهم، فجاعوا وعطشوا فمروا بعجوز فى خباء لها فقالوا: هل من شراب؟ فقالت: نعم فاناخوا بها وليس الا ـ شويهة فى كسر الخيمة، فقالت: احلبوها وامتذقوا لبنها، ففعلوا ذلك وقالوا لها: هل من طعام؟ قالت: لا إلَّا هذه الشاة، فليذبحنّها احدكم حتى اهيئ لكم شيئاً تأكلون. فقام اليها أحدهم فذبحها وكشطها ثم هيأت لهم طعاماً فأكلوا ثم اقاموا حتى ابردوا فلما ارتحلوا قالوا لها: نحن نفر من قريش نريد هذا الوجه، فاذا رجعنا سالمين فالمى بنا فانا صانعون اليك خيراً، ثم ارتحلوا. امثال القران، ص: ۹۲ واقبل زوجها واخبرته عن القوم والشاة، فغضب الرجل وقال: ويحك تذبحين شاتى لاقوام لا تعرفينهم ثم تقولين نفر من

قريش. ثم بعد مدة الجأتهم الحاجة إلى دخول المدينة، فدخلاها وجعلا ينقلان البعير اليها ويبيعانه ويعيشان منه فمرت العجوز فى بعض سكك المدينة، فاذا الحسن عليه السلام على باب داره جالس فعرف العجوز وهى له منكرة، فبعث غلامه فردها فقال لها: يا امة الله تعرفينى؟ قالت: لا. قال انا ضيفك يوم كذا. فقالت العجوز بأبى أنت وأمى فامر الحسن عليه السلام فاشترى لها ما شاء الصدقة ألف شاة «۱» وامر لها بألف دينار وبعث بها مع غلامه إلى اخيه الحسين عليه السلام فقال: بكم وصلك اخى الحسن؟ فقالت: بألف شاة والف دينار، فامر لها بمثل ذلك، ثم بعث بها مع غلامه إلى عبد الله بن جعفر عليه السلام فقال: بكم وصلك الحسن والحسين عليهما السلام؟ فقالت: بألفى دينار والفى شاة فامر لها عبد الله بألفى شاة والفى دينار». «۲»

الصدقة تدفع ميتة السوء «۳»

لقد قلنا سابقاً: إنَّ الصدقة تفيد المنفق قبل أنْ يفيد منها المحتاج، وقد درسنا فى السطور السابقة ما يترتب على الصدقة من صفات كمالية اضافة إلى الاجر والثواب المعنوى، ونقول هنا: بأنَّ الصدقة تدفع البلاء والموتة السيئة، والرواية التالية تكشف عن هذا الامر. مرَّ يهودى بالرسول صلى الله عليه و آله فقال: السام عليك «۴» فاجاب الرسول: «وعليك»، فقال النبى صلى الله عليه و آله: «إنَّ هذا اليهودى يعضه اسود فى قفاه فيقتله»، قال: فذهب اليهودى فاحتطب حطباً كثيراً فاحتمله ثم لم يلبث أنْ انصرف فقال له رسول الله صلى الله عليه و آله: «ضعه» فوضع الحطب امثال القران، ص: ۹۳ فاذا اسود فى جوف الحطب عاض على عود فقال: «يا يهودى أى شىء عملت اليوم؟» فقال: ما عملت عملًا إلَّا حطبى هذا احتملته فجئت به وكان معى كعكتان فاكلت واحدة وتصدقت بواحدة على مسكين، فقال رسول الله صلى الله عليه و آله: «بها دفع الله عنه» وقال: «إنّ الصدقة تدفع ميتة السوء عن الإنسان». «۱»

المثل السابع: الإنفاق اللائق

اشارة

يقول الله الرازق فى الآية ۲۶۵ من سورة البقرة: «وَمَثَلُ الّذِينَ يُنْفِقُونَ أمْوَالَهُمُ ابتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أنْفُسِهِم كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أصَابَهَا وابِلٌ فأتَتْ أُكَلَها ضِعْفَيْنِ فإنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيْرٌ». رغم أنَّ هذا المَثل كَسَابقه عن الإنفاق لكن يختلف عنه فى أنَّه يعكس الجوانب الايجابية للانفاق والمناظر الجميلة له غير تلك المناظر التى تحدث عنها المثل السابق والتى تزامنت مع المنّ والأذى، لأنَّ الحديث هنا عن الانفاق المتزامن مع الاخلاص.

الشرح والتفسير

يقول الله فى هذه الآية: إنّ مثل الذين ينفقون باخلاص ومن دون رياء وأذى كمثل البستان فى مكان مرتفع ذات تربة خصبة يسقيها الغيث، والشمس تسطع عليها من كل مكان، فكانت النتيجة هى محاصيل وافرة ومضاعفة، قياساً لمحاصيل الأراضى المماثلة، والذين ينفقون بمثابة البستان ويكون انفاقهم كمحاصيل هذا البستان وافراً ومتضاعفاً. إنَّ دَوافِع الإنفاق عند هؤلاء وفقاً لهذه الآية هى كالتالى: الاول: «ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ» وهذا اشارة إلى الحديث المعروف عن الامام على عليه السلام: «ما عبدتك خوفاً من نارك» رغم أنَّ نَاره مخيف تصورها فضلًا عن واقعها. «ولا طمعاً فى جنتك» رغم أنَّ نعمها ثمينة وقيّمة جداً ولا يمكنها أن تدخل فى مخيلة الانسان. «۱» امثال القران، ص: ۹۶ «لكن وجدتك اهلًا للعبادة فعبدتك» «۱» أى أنَّ أهليته للعبادة هى التى دفعت الامام للعبادة لا الخوف والطمع. إنَّ النوع الاول من العبادة هو عبادة العبيد؛ لأنَّ العبد يَمتثل الاوامر خوفاً من مولاه وسوطه. والنوع الثانى من العبادة هو عبادة التجار؛ لأنَّ العبادة هنا يُتوخَّى منها الثمن والعوض. والنوع الاخير من العبادة هو عبادة الاحرار، حيث إنَّ اطاعتهم لمولاهم لا خوفاً ولا طمعاً بل

لله خالصة. «۲» وقد تكون الآية الشريفة هنا ناظرة إلى النوع الاخير من العبادة، أى أنَّ الإنفاق هنا لم يتوخَّ منه إلّا وجه الله ورضوانه. الثانى: الدافع الثانى للمنفقين فى الآية الشريفة هو بلوغ الكمالات النفسانية والملكات الروحانية، حيث قالت الآية: «تَثْبِيتاً لأَنْفُسِهِمْ»، وقد جاء فى مفردات الراغب أنَّ التثبيت يعنى التقوية والتحكيم. بالطبع ليس المراد من التثبيت فى الدعاء «اللَّهُمَّ ثَبِّتْ أَقْدَامَنَا» هو تقوية الاقدام وتحكيمها، بل المراد تقوية خطى الاقدام وتحكيم هذه الخطى. «۳»

خطابات الآية

۱- فى هذا المثل شُبِّه المنفِق بالجنة «۴» والبستان الذى يقع فى ارضٍ مرتفعة، وفى هكذا أرض توجد عدة خصائص هى كالتالى: الف- نور الشمس من العوامل المهمة لنمو النباتات، والارض المرتفعة تنال نور الشمس من كل صوب؛ لأنه لا شىء يحول دون السطوع المباشر عليها. امثال القران، ص: ۹۷ باء- جو المناطق المرتفعة كثيراً ما يكون نقياً وذلك يعد من عوامل نمو الاشجار وإثمارها. جيم- الأراضى المرتفعة محفوظة من السيول والفيضانات، بينما البساتين التى تقع فى السهول والوديان والشواطئ كثيراً ما تكون عرضة للفيضانات. دال- أنَّ جمال وعظمة بستان يقع فى مرتفع اكثر بكثير من جمال وعظمة بستان فى سهل. وعلى هذا، فإنَّ منفقين كهؤلاء يتلقون انوار الهداية اكثر من غيرهم هذا أولًا. وثانياً: ينالون من نسيم بذل الله وعطاءه النقى بشكل افضل. وثالثاً: قلما يكونون عرضة للبلايا وميتة السوء. ورابعاً: يبدون محبوبين عند الاخرين اكثر؛ لما يحضون به من معنويات عالية. المشكلة الوحيدة لهكذا بساتين هى أنَّها محرومة من امكانية جريان قنوات وسواقى فيها، ولاجل ذلك ينزل الله وابلًا من المطر كثرته تروى تربة البستان بالمقدار الكافى. ۲- أشارت الآية الشريفة إلى نوعية المطر (وابل) وهى قد تكون ناظرة بذلك إلى درجات الانفاق؛ باعتبار أنَّ الوابل أو المطر الكثير يروى البستان بالكامل ونتيجة ذلك هو الثمار والفواكه الكثيرة أمّا المطر القليل فلا يروى الاشجار ولا ينضج الثمار جيداً. هناك فرق فى الانفاق فى سبيل الله بين أن يكون المنفق بحاجة إلى المال المنفَق وبين أنْ لا يكون هناك حاجة له. رغم أنَّ الإنفاق فى كلا الحالتين رضاء لوجه الله. كما أنَّ هناك فرقاً بين أنْ يصل المال المنفق إلى من يحتاجه حقاً وبين أنْ يصل بيد من لا يحتاجه حقاً. ذيل الآية القائل: «واللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيْرٌ» شاهد قيِّم على ما قلناه فى المقطع السابق حيث إنَّ مضمون هذا الذيل هو أنَّ الله بصير وعليم بكون هذا المنفِق انفق رغم حاجته للمال أو لا أو أنَّه انفقه للمستحق أم لا. ۳- موضوع الانفاق فى الايات الشريفة ۲۶۲ و ۲۶۳ و ۲۶۵ من سورة البقرة هو انفاق المال والثروة، فالايات تحدثت عن الانفاق فى الثروات من المال والثياب والمأكولات والادوية والكتب والقرطاسية ووسائل العمل وما شابه ذلك، إلّا أنَّ الآية الثالثة من سورة البقرة وسّعت نطاق الانفاق ليشمل كل ما انعم من نعم. وقد عدت الآية الانفاق من صفات امثال القران، ص: ۹۸ المؤمنين «وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ». «۱» وحسب هذه الآية فإنَّ موضوع الإنفاق عام ويشمل جميع نعم الله وارزاقه، مثل الموارد التالية: ألف- العلم، على العلماء أن يبذلوا من علمهم، وذلك من خلال تعليم الآخرين، وإلّا حُكوموا كالمحتكرين فى محكمة العدل الإلهى. وقد جاء فى رواية للامام الصادق عليه السلام «زَكَاةُ العِلْمِ نَشْرُهُ». «۲» باء- نفوذ الكلام وهو من ارزاق الله، ومن المستحسن أنْ ينفق منه. فاذا شاهدت اختلافاً بين زوج وزوجته أو بين الجيران أو بين شريكين أو بين الاخوة والاخوات أو بين اهالى قرية و .. فمن المستحسن استخدام النفوذ للمصالحة. جيم- الاعتبار والجاه فى المجتمع، وهذه نعمة الهية أخرى ينبغى أنْ ينفق منها، فاذا ما كان مظلوم متورطاً فى مخالب ظالم وكان بالامكان الشفاعة لهذا المظلوم باستخدام الوجاهة والإعتبار الاجتماعى وانقاذه من مخالب الظالم فلا ينبغى التكاسل، بل ينبغى العمل باشتياق. د- الاولاد، وهى من اكبر نعم الله وينبغى انفاقها فى سبيل الله متى ما اقتضت الحاجة، كما حصل ذلك للشعب الايرانى اثناء الثورة الاسلامية والحرب المفروضة فقد ضحّوا باولادهم دون أنْ يبخلوا بشىء من ذلك. ه- الفكر، وهو من أثمن نعم الله على الانسانية وينبغى انفاقه وبذله عند المشورة لاعانة الاخرين إلى مستوى يعد الإنسان خلاله مستشاراً صالحاً وناصحاً.

طرق الانفاق وإعانة الاخرين

للاعانة والانفاق طرق مختلفة، والطريق المتعارف عند الناس هو الانفاق المالى النقدى وغير النقدى للمحتاجين، وهو أمر مستحسن إلّا أنَّ هناك طرقاً افضل واكثر تأثيراً تفى بهذا العمل الخير، وهو تشكيل منظمات ومؤسسات خاصة للاعانة والانفاق المنظم. لقد تشكلت هكذا مؤسسات على مستوى واسع فى بعض المحافظات الايرانية وهى تسعى لجمع التبرعات من جهة، ومن جهة أخرى تستقصى المحتاجين لاعانتهم بمختلف الطرق، مثل إعداد وسائل البيت الرخيصة من بعض المؤسسات والشركات والدوائر. وقد تكفلت بعض هذه المؤسسات قضية دراسة الاطفال وتحمل نفقاتهم والاشراف عليهم من هذا الجانب، وارتقى بعض من هؤلاء الاطفال الدرجات العليا ودخلوا الجامعات وتخرجوا منها. وتقوم بعض منها بنشاطات ثقافية اضافة إلى الاعانات المالية، وذلك من قبيل تشكيل دورات تعليمية تثقيفية لمختلف الاعمار. على المسلمين فى العصر الراهن أنْ يلتفتوا إلى هذا النوع من الانفاق المنظم اكثر. ورغم أنَّ بعض الدوائر الحكومية تكفلت بهذه القضية إلّا أنّ كثرة المحتاجين والفقراء فى عصرنا هذا يستدعى وجود مؤسسات خيرية منسجمة على نطاق واسع. جمعيات اعانة السجناء والمرضى من ضمن الطرق الاخرى المنسجمة والجيدة التى اشرنا اليها فى السطور السابقة. إنَّ الالتفات إلى الابتكار والابداع «۱» فى مجال الاعانات لهذه المؤسسات والجمعيات يؤدى إلى انتاجية اكثر، بحيث تتم الاعانات والمساعدات بالافادة من اقل مقدار ممكن من الامكانيات. لقد قلنا سابقاً: إنَّ الصدقة كما قال رسول الله صلى الله عليه و آله تمنع من ميتة السوء، وهنا حديث اخر للرسول صلى الله عليه و آله يقول فيه: «إنَّ الله لا اله إلَّا هو ليدفع بالصدقة الداء والدبيلة والحرق والغرق امثال القران، ص: ۱۰۰ والهدم والجنون، وعد سبعين باباً من السوء». «۱» بالطبع، كلام الرسول صلى الله عليه و آله ليس هراء بل يحكى عن الواقع. وهذه آثار حقيقية للصدقة فاذا احيت هذه السنة الحسنة لزالت الكثير من مشاكلنا الاجتماعية والشخصية كذلك. ۴- فى آية المثل السابع يُلاحظ أربع خصائص: الاولى: الأرض المرتفعة. الثانية: اشجار البستان. الثالثة: الوابل أو المطر الشديد. والرابعة: الثمار والفواكه الكثيرة. وكلٌّ من هذه تشبيهات من ناحية، ومن ناحية أخرى تعبّر عن اعضاء الإنسان وصفاته أو النعم الالهية التى يتمتع بها هذا الموجود. التعابير التالية عن التشابيه الأربعة الماضية جاءت فى أحد التفاسير: لقد شبه روح الإنسان وقلبه بالارض المرتفعة التى يقع فيها البستان، أمّا اعمال الإنسان الصالحة واللائقة فقد شبهت بالانفاق والبذل فى سبيل الله، وقد شبهت رحمة الله ونعمه وهدايته التكوينية والتشريعية «۲» بالمطر الكثير (الوابل) الذى يروى الاشجار والاعمال الصالحة والملكات الفاضلة لتنمو. واما الفضائل النفسية والصفات الروحية والاخلاقية البارزة من قبيل الايثار والجود والسخاء والبذل والتواضع والخضوع وحب الغير فقد شبهت بثمار البستان وفواكهه المباركة. الهدف من هذه التشابيه وهذا المثل- كغيره من الامثال- هو التكامل الوجودى للانسان وبلوغ درجة القرب إلى الله، وبتعبير آخر: صيرورة الإنسان عبداً خالصاً لله، وذلك هو الهدف من خلق الإنسان وجميع الموجودات ذات الشعور والاحاسيس، «۳» وذلك عبارة أخرى عن ايصال الإنسان إلى مقام يؤهله للدخول فى خطاب الآية اللطيفة والمهدئة: «يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ المُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِى إلى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً، فادخُلِى فِى عِبَادِى وادْخُلى جَنَّتِى». «۴»

ما أحسن السعادة التى ينالها الإنسان

من النتائج المستوحاة من هذا المثل هى أن هناك جنة (علاوة على الجنة الموعودة فى الاخرة) فى الدنيا، وهى جنة قلب الإنسان المؤمن المملوءة بالأشجار والثمار، أى الصفات والفضائل الاخلاقية لروح الإنسان وصفائها من التلوث، والإنسان لا يمكنه ادراك هذه الجنة ولا يمكنه الشعور بها إلَّا أنْ تكون أعماله جميعها خالصة لوجه الله وابتغاءً لمرضاته، ولا يكون فيها ذرة من الرياء. والجملة الاخيرة للاية تشير إلى هذا الموضوع: «واللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» فإنَّ الله يرى الاعمال ويرى نواياها ويرى كل ما يطرأ على النوايا من اغراض غير إلهية. موضوع الشرك فى العمل الذى يصطلح عليه (الرياء) تعرضت له الايات والروايات على مستوى واسع. يقول رسول

الله صلى الله عليه و آله فى حديث نقل عنه: «إنَّ الشرك أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء فى ليلة ظلماء». «۱» وحسب هذه الرواية؛ فإنَّ الشرك اخفى من حركة نملة سوداء على صخرة سوداء فى ليلة ظلماء. الإنسان بعد سنوات من العبادة قد يدرك عدم خلوصه فى كثير من العبادات، إنَّ هكذا انسان سيكون سعيداً إذا ما تاب وبت فى الجبران. وتباً للإنسان الذى يدرك عدم خلوصه لكن ادراكه يكون متأخراً، يقول الله تعالى «... كَلَّا انَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ...». «۲» ننهى بحثنا عن الشرك بذكرى عن مرجع عالم الإسلام آية الله العظمى السيد البروجردى رضوان الله تعالى عليه. كان السيد قد ذهب لقرية بشنوة (فى ضواحى مدينة قم) لاجل الاستراحة، وفى احد امثال القران، ص: ۱۰۲ الايام هناك كان قد فرش سجادة قرب قنال هو مع مرافقيه، وقد شاهد المرافقون انذاك أنَّ السيد قد غاص فى التفكير كثيراً فسألوه عن علة ذلك فأجاب: (كنت افكر فى أنَّه هل كان لى عمل خالص لوجه الله وابتغاء مرضاته من دون أنْ يشوبه شائبة ام لم يكن؟). فقالوا له: مولانا! الحمد لله، إنّ لك خدمات كثيرة قدمتها للحوزة العلمية والمسلمين، «۱» فلا مجال للقلق. فهز السيد رأسه وقرأ الحديث «إخلص العمل فإنَّ الناقد بصير». «۲» الناقد هو الذى يميز السكك الخالصة عن المزورة، إنَّ نسبة التزوير إذا كانت كبيرة فقد يستطيع الناس عموماً تشخيصها أمّا إذا كانت نسبة الغش والتزوير قليلة جداً فذلك أمر لا يشخصه الا الناقد. وحسب هذه الرواية، فإنَّ الله هو الناقد لنوايا الإنسان ويمكنه تشخيص الخالص عن غيره، فهو بصير وعليم ويشخص حتى اقل مقدار من الغش وعدم الخلوص. وعلى هذا، ما علينا إلَّا أنْ نسعى بأنْ لا يكون أى جزء ولو بسيط من عدم الخلوص فى اعمالنا واقوالنا وافكارنا، وذلك لاجل التقرب إلى الله تعالى.

آداب الانفاق

اشارة

ندرس هنا بعض آداب الانفاق واصوله:

۱- الإنفاق ممَّا تحبون

إذا انفق شخص ما كان لديه من اغذية زائدة وألبسة رثة فلا اشكال فى ذلك وهذا اقل مرتبة للانفاق وادنى حد له، إلَّا أنَّ على الإنسان أن ينفق ما يحب لاجل بلوغ اعلى مراتب امثال القران، ص: ۱۰۳ الإنفاق: «لَنْ تَنَالُوا البرَّ حَتى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ». «۱» وقد قيل فى الزهراء عليها السلام: انها عندما ذهبت إلى بيت زوجها للعرس صادفت فى الطريق محتاجاً سألها الاعانة، فبذلت له ثوب عرسها رغم انها كانت تحمل ملابس رثة وزائدة. «۲» لا يمكن العثور فى كل التاريخ على انفاق خالص مثل ما صدر من الزهراء عليها السلام فهى شابة فى مقتبل العمر تنفق ملابس عرسها رغم ان بامكانها انفاق ما كان عندها من ملابس زائدة أخرى. وذلك مصداق حقاً للاية الشريفة السابقة. يمكننا العثور على انفاق من هذا القبيل صدر من المعصومين عليهم السلام، فإنَّ الإمام على عليه السلام انفق خاتمه لفقير وهو راكع فى صلاته، وقد نزلت فى هذا الشأن الآية ۵۵ من سورة المائدة. «۳» وفى حال الامام على عليه السلام ينقل انه كان يشترى قميصين، ويخير قنبر غلامه فى انتخاب احدهما ويترك الاخر له. «۴» وقد قال الامام الصادق عليه السلام فى رواية له: «ما من شىء إلّا وكِّل به ملك إلَّا الصدقة فانها تقع فى يد الله تعالى». «۵» وهل من المناسب واللائق للانسان ان يبذل اموالًا لا يحبها تصل مباشرة بيد الله؟!

۲- الانفاق فى غاية الادب

إنَّ الأدب ضرورى عند البذل والانفاق، وينبغى السعى آنذاك لاجل حفظ ماء وجه وشخصية المحتاج، يقول القرآن المجيد: «قَوْلٌ

مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أذَىً ...». «۶» امثال القران، ص: ۱۰۴ إذا راجعك محتاج وسألك شيئاً واجبته بهذا: (أعتذر، لا يمكنني اعانتك) أى ترده باحترام فذلك افضل من أن تنفق له مع أذية ومنة بأن تقول له: (لا اراك بعد هذا) أو (خذ هذا لتريحني من شرك). إنَّ هذه الأخلاقية الرفيعة فى الإنفاق تلاحظ عند المعصومين بشكل واضح، فقد قيل فى الإمام السجاد عليه السلام: إذا اعطى السائل قبّل يده، فقيل له لِمَ تفعل ذلك؟ قال: «لانها تقع فى يد الله قبل يد العبد». «۱» كم هو الفرق بين الانفاق المخلص والمتزامن مع الأدب والاحترام الوافر، والانفاق الذى يتم عن رياء وتحقير.

۳- التعجيل فى دفع الصدقة

لا ينبغى التأنى والتوانى الوافر والوسوسة عند دفع الصدقة تقرباً لله تعالى؛ لأنّ الشيطان فى ذلك الزمن يسعى كثيراً لمنع الإنسان من دفع الصدقة، يقول الله تعالى فى الآية ۲۶۸ من سورة البقرة: «الشَيْطَانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ ويَأمُرُكُمْ بِالفَحْشَاءِ واللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيْمٌ». إنَّ الشيطان يوسوس للانسان بشتى الطرق، فهو يقول مثلًا: (فكِّر بمستقبل أطفالك، وبأيام شيبك وحافظ على أموالك لذلك الحين). هذا لأجل صرف الإنسان عن الانفاق، بينما الله يعد بالمغفرة وبارجاع المال المنفق. وقد تعارف بين الناس أنَّ الشيطان يتعلق بيد الإنسان عندما يريد الاخير بذل المال؛ وذلك لمنعه عن البذل. وهذا اشارة أخرى إلى الآية الشريفة. ومن المثير أنَّ القرآن لم يستخدم كلمة (الفقر) «۲» الا فى هذه الآية، وقد نسبه إلى الشيطان. مَن كان يرزقك عندما كنت جنيناً فى ظلمات ثلاث؟ الله هو الرازق، وهو بنفسه سيكون امثال القران، ص: ۱۰۵ رازقاً لك ولأولادك عند الشيخوخة والعجز. هناك قول جميل لأحد العظماء يقول فيه: (لا أعمل شيئاً لمستقبل أولادى؛ لأنهم إنْ كَانُوا من أولياء الله فالله لا يكلّ وليه لنفسه، وإنْ كَانوا أعداء لله، فمالى أعينهم؟!).

۴- صدقات السر والعلانية

المستفاد من الروايات هو أنَّ الصدقة عملٌ الأفضل إتيانه سراً، إلَّا أنَّه فى بعض الأحيان يستدعى الأمر العلانية فى التصدق، وذلك لعنوان ثانوى طارئ. «۱» إنَّ هذا الأمر قد بُيِّن بوضوح فى الآية الشريفة ۲۷۱ من سورة البقرة: «إنْ تُبْدُوا الصَّدَقَات فَنِعِمَّا هِي وإنْ تُخْفُوهَا وَتُؤتُوهَا الفُقَرَاءَ فَهُو خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيْرٌ».

۵- الأولوية للمساكين المتسترين

القرآن المجيد يعتبر المساكين والمتسترين على فقرهم هم المحتاجون الحقيقيون كما هم أولى باستلام هذه الاعانات والصدقات، الآية ۲۷۳ من سورة البقرة تحكى هذا المضمون: «لِلفُقَرَاءِ الَّذينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيْلِ اللهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبَاً فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الجَاهِلُ أغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيْمَاهُم لَا يَسْئَلُونَ النَّاسَ إلْحَافاً وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ». من الفقراء ذو عزة نفس عالية ومثل هؤلاء هم اهل لهذه الصدقات وأولى بها، وبخاصة أنَّ هذا الشهر شهر مبارك والأعمال العادية فيه تعدّ عبادة، فكيف بطاعة ذات قيمة عالية مثل التصدق؟ كما أنَّ من فلسفة الصيام هو الاحساس بالآم المحتاجين للبتّ فى رفع احتياجاتهم. «۲»

المثل الثامن: عاقبة الامور

اشارة

يقول الله تعالى فى ثامن مثل من أمثال القرآن فى الآية ۲۶۶ من سورة البقرة: «أيَوَدُّ أحَدَكُمْ أنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيْلٍ وَأعْنَابٍ تَجْرِى

مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيْهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وأَصَابَهُ الكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ضُعَفَاءُ فأَصَابَهَا إعْصَارٌ فِيْهِ نَارٌ فاحْتَرَقَت كَذلك يُبَيِّن اللهُ لَكُمُ الآياتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ».

تصوير البحث

كيف يكون أحدكم راغباً فى ان يبتلى بمصير الشخص الذى له بستان فيه نخيل وأشجار مثمرة وفيه أنهار بعد ما بلغ هذا الشخص سن الكبر، وكان قد جمع حوله ذرية واطفالًا ضعفاء، حينئذ يواجه البستان إعصاراً متزامناً مع نار ملتهبة تلتهم بستانه وما فيه ليصبح ذليلًا بعد عمر من العز.

الشرح والتفسير

للمفسرين أقوال فى هذه الآية: يعتقد بعض المفسرين أنَّ هذا المثل يحكى عاقبة الإنسان الذى يحرق محاصيل انفاقه وبذله بنار الرياء، لتذهب بذلك أعماله الصالحة وعباداته سُدى. قد يقوم البعض باعمال كثيرة من قبيل الحج والصلاة والصيام والجهاد واعانة المساجد امثال القران، ص: ۱۰۸ وبناء المستشفيات واعانة الايتام، وقد يقضى عمراً طويلًا فى هذه الأعمال إلَّا أنه قد يحرقها ويُذهب بها مع الريح ليمحو آثارها وذلك بأن يتراءى بها. «۱» ويرى البعض أنَّ آية المثل لا تختص بالرياء، بل تشمل جميع الذنوب، فإنَّ الآية تحذّر المسلمين ليراقبوا أعمالهم وعباداتهم، ويحفظوها مما قد يدمرها ويحرقها من الذنوب. وحسب هذه الاية، فانّ الإنسان إذا لم يراقب أعماله قد يبتلى بمصير هذا الشيخ الذى تضرر هو مع عياله وأولاده وأوقع مستقبل اطفاله بخطر. «۲» وبعبارة أخرى: يا إنسان! حافظ على أعمالك وعباداتك دائماً وبشكل مناسب وفكر بعاقبة امرك؛ وأنَّ حفظ العمل اصعب من اداء نفس العمل. قال رسول الله صلى الله عليه و آله: «من قال لا ـ إله الا ـ الله، غرس الله بها شجرة فى الجنة»، والحديث يعنى أنَّ الإنسان كلما نطق بهذه الكلمة غرست له شجرة فى الجنة. والمستفاد من هذه الرواية هو أنَّ الجنة وكذا جهنم تبنى بواسطة أعمالنا، فهى ليست مبنية من ذى قبل. قال رسول الله صلى الله عليه و آله: «من قال: سبحان الله غرس الله بها شجرة فى الجنة. ومن قال: الحمد لله غرس الله له بها شجرة فى الجنة. ومن قال: لا اله الا الله غرس الله له بها شجرة فى الجنة. ومن قال: الله اكبر غرس الله له بها شجرة فى الجنة». فقال رجل من قريش: يا رسول الله إنّ شجرنا فى الجنة لكثير، قال: «نعم، ولكن إيَّاكم أنْ ترسلوا عليها نيراناً فتحرقوها وذلك أنَّ الله عزوجل يقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا أَطِيْعُوا اللهَ وأَطِيْعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُم». «۳» ويقول الرسول صلى الله عليه و آله فى حديث آخر: «العلماء كلهم هلكى إلَّا العاملون، والعاملون كلهم هلكى إلَّا المخلصون، والمخلصون على خطر». «۴» امثال القران، ص: ۱۰۹ وفى هذا الحديث تحذير آخر للانسان بان لا يذهب باعماله الخالصة الماضية بذنوبه المقبلة. «أَيَوَدُّ أَحَدُكُم أنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيْلٍ وَأَعْنَابٍ» إنَّ الإشارة إلى فاكهة العنب والتمر دون غيرهما يفيد أنهما أهم أغذية للبشر، أما الأهم منها فمعدم أو قليل. «تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ فِيْهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ» البستان قد يحتوى على بركة أو قنال يسقى منها، والأخير قد يستدعى بذل المال مقابل الماء. وفى كلا الحالتين، إنَّ السقى بهما يستلزم متاعب وزحمات جمة. إلَّا أنَّ البستان الذى تحدثت عنه الآية يقع فى مسير نهر، وهذا يعنى أنَّ السقى لهذا البستان مريح جداً ولا ـ يستدعى تحمل زحمات وافرة. اضافة إلى هذا؛ فإنَّ فى هذا البستان فواكه من قبيل التمر والعنب. «وأَصَابَهُ الكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ» أى أنَّ صاحب هذا البستان أصبح شيخاً كبيراً. وضعف الذرية اشارة إلى عدم امكانهم اعانته على شؤون البستان، بل انَّ عبء هؤلاء الأطفال واقع جميعاً على عاتق هذا الشيخ، وهذا البستان لا يحتاج إلى عناية كبيرة ومستمرة فيمكنهم التمتع بمحاصيله وثماره. «فَأَصَابَهَا إعْصَارٌ فِيْهِ نَارٌ فاحْتَرَقَتْ» أى فى الوقت الذى يكون فيه الشيخ بأمسِّ الحاجة إلى هذا البستان يأتى إعصار من نار يحرق هذا البستان ويبدله إلى تل من الرماد ثم يذهب هذا الرماد مع الريح متناثراً بحيث لا يبقى أى اثر منه. الإعصار يحصل اثر اصطدام ريحين قادمين من اتجاهين مختلفين، وهو يحضى بقدرة عجيبة إذا حصل فى مكان فانه يذهب معه كل ما يكون هناك من اشياء، فقد يذهب

بماء حوض مع اسماكه ويسقطها فى مكان اخر بحيث يتصور البعض انّ الاسماك جاءت من السماء، وقد يرفع انساناً من مكانه ويلقيه فى مكان آخر. سؤال: كيف يحصل النار ويتزامن مع هذا الاعصار؟ هناك إجابات عديدة لهذا السؤال: الف- يعتقد البعض أنَّ الاعصار خالٍ من النار، والنار تقدم من الصواعق فالصاعقة تحرق البستان ثم يأتى الاعصار ليذهب برماد البستان وينقله إلى مكان آخر. امثال القران، ص: ۱۱۰ باء- إنَّ الاعصار قد يتلاقى مع نار مستعرة فياخذ منها ويلقيه على البستان فيحترق البستان ويتبدل رماداً. جيم- هذه الأعصار ليست اعصاراً متعارفة، بل هى اعصار يطلق عليها (سموم) تهب غالباً فى السعودية والذين يقعون فى طريقها يتقنعون وينبطحون إلى أنْ تَتجاوزهم، وهذه الأعصار عندما تلاقى البستان تحرقه وتدمره. «كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآياتِ لَعَلَّكُم تَتَفَكَّرُونَ» يعتبر الله الهدف من هذا المثل هو التفكّر والتعقل. ووفقاً لهذه الآية الشريفة، فإنَّ على الإنسان أن يودع نفسه بيد الله ويعتقد أنَّ كل ما يقوم به من أعمال وطاعات وعبادات هى قليلة فى حق الله وأنَّ ما يصله من الله تعالى من نعيم هو بلطفه وإحسانه لا لعمل وعبادة استحق بهما الإنسان تلك النعم. من المؤسف أنَّ هذا الإنسان الضعيف قد لا يفكر جيداً ويغتر بما جاء به من ركعات صلاة وأيام من الصوم فيعد نفسه- لأجل ذلك- من أصحاب الجنة. بل يعد الجنة، واجبة له، ونفس هذا الإنسان قد يرى نفسه ميتاً خلو الإيمان. اللهم اجعلنا من المرحومين ولا تجعلنا من المحرومين.

إنّ السوء كان عاقبة هذا الشخص

فى زمن الطاغوت البهلوى كان طالب حوزة متدينٌ جداً ومتقٍ، وكان يواضب على اعماله كثيراً، وقد كان متذمراً من اخيه ولا يعاشره لاجل انه كان لا يدفع الخمس والزكاة. فى يوم من الأيام مرض هذا الطالب مرضاً شديداً فاخذه اخوه إلى بيته ليعتنى به وأثناء تواجده عند أخيه ذهب احد الاساتذة لعيادته وعند الدخول قال للاستاذ: لا تجلس على السجادة لانها مغصوبة .. لكن الزمان غيّر هذا الطالب ولم يبقه على ما كان، بل حوّله إلى درجة أنّه ما كان يجلس على مأدبة طعام خالية من المسكر. يقول الإمام على عليه السلام فى الخطبة القاصعة «۱» التى تعرض فى جزء منها إلى آثار التكبر امثال القران، ص: ۱۱۱ والعجب: «فاعتبروا بما كان من فعل الله بابليس إذ احبط عمله الطويل وجهده الجهيد وكان قد عبد الله ستة الاف سنة، لا يدرى أمن سنى الدنيا ام من سنى الاخرة عن كبر ساعة واحدة»، فإنَّ ساعة من العناد والتكبر احبطت اعماله وورطته بمصير لا- يحمد. وعلى هذا، فلا- ينبغى ان يغتر الإنسان ابداً بطاعاته واعماله، بل عليه ان يتطلع دائماً إلى عفو الله ورحمته. اللهم اجعل عاقبة أمرنا خيراً.

خطابات آية المثل هى الاحباط والتكفير

من البحوث المطروحة فى علم الكلام هى مسألة الاحباط والتكفير وقد أشارت اليهما الآية. إنَّ الاحباط عبارة عن أعمال وذنوب، الاتيان بها يؤدى إلى ذهاب حسنات الإنسان وعباداته. أمّا التكفير فهو عبارة عن اعمال، اداؤها يؤول إلى ذهاب الذنوب ومحوها. وعلى سبيل المثال، فإنَّ تكبر الشيطان وحسده ولجه سبب فى احباط اعماله التى أدَّاها خلال ست الاف سنة، أمّا توبة الحر بن يزيد الرياحى عند الامام الحسين عليه السلام فقد كانت تكفيراً لذنوبه التى ارتكبها. ان التوبة تطفى نار الذنوب، وعلى المسلمين ان يتوبوا وينيبوا إلى الله دائماً بالدعاء والمناجاة والتوسل بالأئمة المعصومين عليهم السلام. اضافة إلى الايات، فإن ادعية العشرة الثالثة من شهر رمضان أشارت إلى مسألة الاحباط والتكفير، فنقرأ فى دعاء ليلة القدر مثلًا: «وان كنت من الاشقياء فامحنى من الاشقياء واكتبنى من السعداء» «۱» فان القسم الاول من الدعاء يشير إلى مسألة الاحباط والقسم الثانى إلى مسألة التكفير.

الاستدلال على وجود الاحباط والتكفير

رغم أنَّ بعض العلماء المسلمين لا- يعتقد بالاحباط والتكفير ولا يرى تأثيراً لاحدهما على الاخر أى أنَّ الأعمال الحسنة لا تؤثر على

السيئة والسيئة لا ـ تؤثر على الحسنة، لكن القرآن يصرح فى بعض الآيات بالاحباط والتكفير. ونختار من ذلك بعض النماذج: الف- يقول الله فى الآية ۱۱۴ من سورة هود: «وَأَقِمِ الصَّلوةَ طَرَفَى النَّهَارِ وَزُلْفاً مِنَ اللَّيْلِ إنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلك ذِكْرَى للذّاكِرِينَ». باء- يتحدث القرآن المجيد عن الاحباط فى الآية ۵ من سورة المائدة: «وَمَن يَكْفُرْ بِالإيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِى الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ». «۱» وعلى هذا، فأصل الإحباط والتكفير قد بُيِّنَ فى الآيات، إلّا أنها لم توضح أى نوع من الذنوب توجب الاحباط وأى نوع من الاعمال توجب التكفير، وعلينا استفادة ذلك من الروايات. ما ينبغى علينا إلّا مُراقبة أعمالنا خوف أنْ يصدر منّا عمل يحبط اعمالًا قيّمة كثيرة. وإذا ما اذنبنا فعلينا طلب الاعانة من الله بالبكاء والنواح لكى يتوافر بذلك بحر من الماء يطفئ نار الذنوب. وإذا كانت شخصية مثل الإمام على (عليه السلام) يسجد ويقول خضوعاً: «آه من قلّة الزاد وطول الطريق وبعد السفر ...» «۲» فكيف بنا نحن انا وأنت؟!

المثل التاسع: أكل الربا

اشارة

يقول الله تعالى فى الآية ۲۷۵ من سورة البقرة: «الّذِيْنَ يَأكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إلّا كَمَا يَقُومُ الّذِى يَتَخَبَطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ المَسِّ ذلك بِأنَّهُم قَالُوا إنَّمَا البَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللهُ البَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأمْرُهُ إلى اللهِ وَمَنْ عَادَ فأُولئِكَ أصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيْهَا خَالِدُونَ».

تصوير البحث

إنّ آكلى الربا على أساس هذه الآية عندما يدخلون المحشر يوم القيامة يدخلون كالسكارى أو المجانين أو المصروعين، لا يتمالكون على انفسهم ولا يستطيعون حفظ تعادلهم فيقعون ويقومون بين الحين والاخر. وهذا المنظر المرعب يلفت انظار اهل المحشر ويجعلهم يدركون أنَّ هؤلاء هم آكلو الربا.

علاقة الآية بما قبلها

الايات السابقة تحدثت عن الصدقة والانفاق فى سبيل الله، وهذه الآية ترتبط بشكل وآخر بالصدقة؛ وذلك لأن الصدقة على قسمين: ۱- الصدقة دون عوض وهو الانفاق والبذل للمحتاجين. ۲- الصدقة مع العوض وهو الدين أو القرض الحسن. امثال القران، ص: ۱۱۴ إنّ الدين إذا لم يكن مع عوض وربح كان قرضاً حسناً والا عُدَّ رباً وحراماً. وقد جاء فى الروايات أنَّ الصدقة والبذل من دون عوض اجرها عشرة اضعاف، أمّا الإقراض أو الصدقة مع العوض فاجره ثمانية عشر ضعف، «۱» وسبب ذلك واضح من حيث أنَّ المقترضين محتاجون حقاً، وهم ذوى اعتبار وماء وجه. وعلى هذا، فإنَّ شيئين يتوخى من القرض هما: أولًا- رفع حاجة المحتاجين. ثانياً- الحفاظ على حيثية واعتبار المحتاج. وعلى أساس الآية الشريفة: «مَنْ جَاءَ بالحَسَنةِ فَلَهُ عَشْرُ أمْثَالِهَا» «۲» فإنّ كلًا منها له عشر حسنات والمجموع هو عشرون، ولكن باعتبار انّ القرض يسترجع بعد فترة من الزمن فتنقص منه حسنتان ليكون المجموع ثمانية عشر.

الشرح والتفسير

«الّذينَ يأكُلُونَ الرِّبَا ...» أى أنَّ آكلى الربا سيبتلون يوم المحشر بعدم التعادل والتوازن فى المشى ويبدون كأنهم مصروعون أو مجانين. «ذَلك بِأنَّهُمْ قَالُوا إنَّمَا البَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا» إنّ سبب ابتلاء هؤلاء بهذا المصير هو أنَّهم إضافة إلى اكلهم الربا كانوا يسعون فى تبرير عملهم

بـالقول: إنَّ البيع مثـل الربا، كما الاول حلال كـذلك الثانى. «أَحَلَّ اللهُ البيعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا» حليـة البيع والمعاملـة لأجل وجود مصـلحة فى ذلـك عكس الربـا، ففيه مفسـدة اضافـة إلى أنه يفقـد المصـلحة. ففى المعاملـة تارة يكون ربـح واخرى يكون امثال القران، ص: ۱۱۵ خسـارة إلّـا أنَّ الأمر فى الربا يختلف، فآكل الربا يحصل على الربـح دائماً ولا يتضـرر ابـداً والخسارة يتحملها المقترض فقط، ولـذلك عـدت امواله حاصـلة بلا تعب. اضافـة إلى هذا، فإنَّ أكل الربا سـبب فى ايجاد الفجوة بين طبقات المجتمع، وذلك لأنَّ ظاهرة الربا إذا تفشت فى المجتمع اجتمعت ثروات النـاس وأموالهم عنـد آكلى الربـا بعـد فترة وجيزة من الزمن، أمّـا الاـخرون فتتردى اوضـاعهم إلى أسوأ ما يمكن. «فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إلى اللهِ» فى بداية الاعلان عن هذا الحكم يصرح الله بشمول العفو والمغفرة لاولئك الذين كانوا يمارسون الربا قبل هذه الآية فلا خوف عليهم. وعليه، فالذين كانت لهم اموال عند الناس وتعاقدوا معهم على ان يكون لهم فيهـا ربـا، فـإنَّ هـذه المعاملـة تبطل واصـحاب الاموال من الان فما بعـد باتوا لا يملكون الا رؤوس اموالهم فحسـب ولاحق لهم فى اسـتلام اكثر من ذلك. «وَمَنْ عَادَ فَأُولئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيْهَا خَالِدُونَ» يهدد الله فى هذه الآية اولئك الذين يعاودوا ممارسـة هـذا العمل بعـد هـذه الآيـة ويقول بأنَّهم إذا فعلوا هـذا مرة أخرى- وهو عمل عـد فى بعض الروايات كممارسـة الفاحشـة مع المحارم «۱»- فإنَّ جهنم تنتظرهم وسـيكونون مخلـدين فيها. سؤال: إنّ الخلود فى جهنم خاص بالكفار فما يعنى الخلود بالنسـبة لآكلى الربا من المسـلمين؟ الجواب: من التفاسير التى ذكرت فى هذا المجال هو أنَّ آكلى الربا يموتون غير مؤمنين بسبب عملهم القبيح هذا، ومن الواضح أنَّ غير المؤمنين يخلدون فى جهنم. «۲»

خطابات الآية

عقاب آكلى الربا فى الدنيا والآخرة

هناك بحث بين المفسـرين فى هل أنَّ التَشبيه لآكلى الربا فى الآيـة تشبيه لمصـيرهم فى الـدنيا؟ ام أنّ ذلك نوع من العقاب والعـذاب الأُـخروى؟ يسـتفاد من الروايـات أنّ هـذا النوع من المصـير يتعلق بكلاـ العالمين. وقـد نقلت روايـة فى تفسـير (نور الثقلين) عن الامام الصـادق عليه السـلام يقول فيها: «آكل الربا لا يخرج من الـدنيا حتى يتخبطه الشـيطان»، «۱» والعبـارة الأخيرة تعنى الجنون. وفى رواية أخرى حكت موضوع المعراج «۲» أنَّ الرسول صلى الله عليه و آله قال: «لما أُسرى بى إلى السماء رأيت قوماً يريد أحدهم أنْ يقوم ولا يقدر عليه من عظم بطنه، قال: قلت: من هؤلاء يا جبرئيل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون الربا». «۳»

نسبة الجنون إلى الشيطان

لمـاذا نسب الجنون إلى الشـيطان فى آيـة المثـل؟ المسـتفاد من ظاهر الآيـة هو أنَّ الشـيطان سـبب الجنون عنـد الإنسان. لكن الأبحاث العلميـة أثبتت وجود أسـباب أخرى للجنون لا علاقـة لها بالشـيطان، ومن هنا كانت للمفسـرين آراء مختلفة فى تفسـير الآية، نشـير إلى بعضـها هنا. الف- القرآن يخاطب الناس بما يتماشـى مع عقائدهم؛ فإنّ الناس عصر النزول (العرب آنذاك) كانوا يعتقدون أنَّ الجنون من الشـيطان، أو أنَّ الشـيطان ينفـذ فى جسم الإنسـان فيجن، ولهـذا كـان هـذا التعبير القرآنى كنايـة عن الجنون. باء- المعنى الحقيقى للجملة هو المراد لا المعنى الكنائى، ونسـبة الجنون للشيطان من حيث امثال القران، ص: ۱۱۷ إنَّ الله جعل عقاب هؤلاء المذنبين تسلط الشيطان عليهم وهذا التسلط هو الذى يسبب القلق والجنون.

التناسب بين الجناية والعقاب

يعتقـد بعض المفسـرين أنَّ العقـاب الـذى يعينه القرآن لـذنب مـا يتنـاسب مع ذلك الـذنب، فبين العقاب الـذى عُيِّن لآكلى الربا وبين

الجنون تناسب، وبين هـذا الـذنب وذلك العقاب علاقة وارتباط، فبما أنّ آكل الربا يقوم من خلال عمله القبيح بتدمير اقتصاد المجتمع ويخرجه عن حالـة التعادل ويحول دون حركـة العجلـة الاقتصاديـة كـذلك هو ذاته فإنَّه سيبتلى بمصير من هذا القبيل فى الاخرة. فى رواية للامام الباقر عليه السـلام يقول فيها: «الظلم فى الدنيا هو الظلمات فى الاخرة». «۱» فإنّ العقاب فى هذه الرواية يتناسب مع الذنب، ذلك أنَّ الظالم يُظلم الدنيا والعالم فى عينيى المظلوم وعلى هذا الاساس تظلم الاخرة فى عينيى هذا الظالم.

فلسفة تحريم الربا

كما أنَّ الربا وآكله يُوجب مفاسـد عديـدة فإنَّ تحريمه ينمّ عن فلسـفات مختلفـة نشـير إلى بعضـها هنا: الف- إنَّ الظلم المشار اليه فى الآية ۲۷۹ من سورة البقرة هو فلسـفة تحريم الربا. باء- الفلسـفة الاخرى للتحريم هى تثبيت سـنة (القرض) فى المجتمع، وقـد جاء هـذا المطلب فى روايات عديـدة، منها روايـة سـماعة عن الامام الصادق عليه السـلام حيث يسأل فيها: إنى رأيت الله تعالى قـد ذكر الربا فى غير آيـة وكرره؟ قال عليه السـلام: «أوتدرى لم ذلك؟» قلت: لا. قال عليه السـلام: «لئلا يمتنع الناس من اصـطناع المعروف». «۲» امثال القران، ص: ۱۱۸ أى أنّ الربـا إذا تفشـى فسـيترك الناس سـنة القرض وتموت من جراء ذلك العواطف الانسانيـة ليحل محلها الانتهاز والربح. ولهذا كان الربا محرما فى الشريعة الاسلامية المقدسة. «۱»

الإرتباط بين الإخلاق والاقتصاد فى الإسلام

بين الاقتصاد الاسـلامى والاقتصاد المادى بون شاسع، واهم مفارقـة بينهما هو أنّ الاقتصاد الاسـلامى يعد مزيجاً من الاخلاق والاصول والمبادئ الانسانيـة، بينما الاقتصاد المادى لا أنه خال من الأخلاق والعاطفـة فحسب، بل إنَّ المصـلحة الماديـة تعدّ المبدأ الحاكم على هـذا الاقتصاد. وعلى هـذا، فكل شـىء يتعارض ويتضاد مع ذلك يُضـحّى به لأجل المصالـح الماديـة. إنَّ إنتاج المخدرات وعوائدها- الـذى يعـد امراً يتمانع مع المبادئ الإنسانيـة- يعـد امراً ليس مهماً عنـد كثير من الـدول وحتى تلك الـدول التى تدعى مكافحتها لهذه الظـاهرة وتعقـد بين الحين والاـخر مؤتمرات فى هـذا المجال، لها نصيب ليس قليلًا فى تجارة هـذه المواد. إنَّ مؤيـدى ودعاة الاقتصاد المـادى لاـ يكترثون من فساد جيل الشـباب وتزلزل المبادئ الاخلاقيـة وتفككك العوائل وما يهمهم هو مصالحهم الذاتيـة. إنَّ المتاجرة بالانسان وبيع الاطفال رغم تمانعه مع جميع المبادئ الانسانيـة يعـد جائزاً عند دعاة حقوق البشـر المزيفين ويعترفون بذلك بشـكل غير علنى. مَن الذى وفَّر للعراق أسـلحة الدمار الشامل والقنابل الكيمياوية والميكروبية والصواريخ بعيدة المدى والقنابل العنقودية وامثالها، وذلـك ليرتكب بواسـطتها ابشع الجرائم فى ايران الاسـلامية؟ لمـاذا سـكت دعـاة حقوق البشـر ولم يعترضوا على ذلك؟ لكنّهم رفعوا هتافات الإعتراض بمجرد أنْ هجم العراق على الكويت وحكموا عليه بضـرورة نزع السلاح. إنَّ سرّ هذه الإزدواجية واضح؛ فإنَّ مصالح الـدول الاسـتكبارية قـد اقتضت يومـاً أنْ امثـال القران، ص: ۱۱۹ يتسـلح العراق باحـدث الاسـلحة واشـدها فتكاً، وهـذه المصالح ذاتها اقتضت يومـاً أنْ يُنزع العراق أسـلحته ليضـمنوا بـذلك مصالحهم. والملاك فى كل ذلك هو مصالحهم الماديـة، أمّا المبادئ الإنسانية فمغلوب على أمرهـا. المبـدأ الحاكم على الاقتصاد الاسـلامى هو الأخلاق، وينبغى أنْ تتم عمليـة كسب المصالـح الماديـة تحت ضـلّ حفظ القيم الاخلاقيـة، وعلى هذا الاساس حرّم الإسـلام المعاملة التى تعد منشأً للفساد. وعلى سبيل المثال أنّ الإسـلام إذا منع تأسـيس مراكز للفحشاء أو حرّم بيع الشـراب ولعب القمار أو تأسـيس مصـرف ربوى وغيرها فـذلك لأجل أنَّ أموراً من هـذا القبيل تعـدّ منشـأ للفساد الكثير، الامر الذى لا يتناسب مع الأخلاق الإسـلامية. إنَّ القِيَم الأخلاقية التى تحكم الاقتصاد الاسـلامى لها مبادئ عديدة نشـير إلى بعض منهـا هنـا: الف- من المبـادئ الـتى تحكم الاقتصـاد الاسـلامى هى خطـاب الآيـة الشـريفة: «لَـا تَظْلِمُونَ وَلَـا تُظْلَمُونَ» أى أنَّ المُعَامَلاتِ الاقتصادية ينبغى أنْ تنظم بشـكل يخلو من الظلم لكلا الجانبين البائع والمشترى. باء- كسب النفع ودفع الضـرر العام؛ وعلى أساس هذا المبدأ، فإنَّ المصـلحة الشخصـية تكون ضـحية المصلحة العامة. والبتّ بالأعمال التى يحتاجها المجتمع يعد واجباً، فاذا كان

المجتمع بحاجة إلى معلمين، فعلى كل من يستطيع أن يبادر بهذا العمل. ومن جانب آخر، أنّ الأعمال التى تضر المجتمع تعد محرمة فى الإسلام رغم ما قد يكون فيها من مصلحة ومنافع شخصية، فبيع المسكر مثلًا، وكذا النشاطات المتعلقة بهذا النشاط، محرم وممنوع ولهذا جاء فى الروايات أنَّ غرس شجرة العنب لاجل صنع المسكر من ثمارها، وكذا سقيها وقطف ثمارها وحمله و .. هذا كله حرام. «۱» ويذكر هنا أنَّ المبادئ الاخلاقية لا تنحصر فى الواجبات والمحرمات، بل تشمل حتى المستحبات والمكروهات. ومن هنا كان (تلقى الركبان) مكروها فى الفقه الإسلامى. والمراد من امثال القران، ص: ۱۲۰ تلقى الركبان هو انتظار القوافل خارج المدينة أو القرية والمباشرة بشراء بضاعة القوافل قبل معرفة أصحابها بقيمها فى اسواق القرية أو المدينة. وقد اعتبر بعض الفقهاء هذا العمل حراماً، إلَّا أنَّ بعضهم الاخر اعتبره مكروها، «۱» كما أنَّ اعمالًا مثل بيع الكفن مكروهة، وذلك لأنَّ القائم بها يتطلع إلى موت الاخرين دائماً، وهذا أمر يسبب قسوة فى القلب. جيم- توجيه الرأسمال نحو الآخرة، و هذا المبدأ يستفاد من الآية ۷۷ من سورة القصص، حيث قال الله تعالى: «وابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الفَسَادَ فِى الأَرْضِ إِنّ اللهَ لَا يُحِبُّ المُفْسِدِينَ». وفقاً لهذه الآية، فإنَّ رأس المال يكون قيماً إذا ما صبّ فى طريق الاخرة، وبتعبير آخر: المال الذى يسد الحاجة الدنيوية والحاجة الاخروية. وفى النهاية: أنَّ القِيَم الأخلاقية هى الحاكمة على الاقتصاد الاسلامى، بينما يفقد الاقتصاد المادى هذه القيم ويضحِّى أتْبَاع هذا المذهب كلَّ شىء لاجل المصالح الذاتية.

الاسوة فى القيم الاخلاقية

يُوصِى الإمام على عليه السلام فى عهده لمالك الاشتر «۲» بطبقات المجتمع من العسكريين والقضاة والعلماء والتجار والمزارعين والوزراء والمسؤولين الحكوميين وغيرهم إلّا أنَّه عندما يصل إلى الطبقة المحرومة يستخدم فى حقهم تعابير لم يستخدمها فى حق غيرهم، حيث يقول: «ثمّ الله الله فى الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم من المساكين والمحتاجين وأهل البؤسى «۳» امثال القران، ص: ۱۲۱ والزّمنى «۱» فإنّ فى هذه الطبقة قانعاً «۲» ومعتراً «۳» واحفظ لله ما استحفظك «۴» من حقه فيهم، واجعل لهم قسماً من بيت مالك وقسماً من غلّات «۵» صوافى «۶» الإسلام فى كل بلد، فان للاقصى منهم مثل الذى للادنى وكل قد استرعيت حقه، فلا يشغلنك عنهم بطر «۷» فانك لا تعذر بتضييعك التافه «۸» لاحكامك الكثير المهم. فلا تشخص همك «۹» عنهم ولا تصعر خدك لهم «۱۰» وتفقد امور من لا يصل إليك منهم ممن تقتحمه العيون وتحقره الرجال ففرغ لاولئك ثقتك». «۱۱» ما أحسن هذا. إنَّه حديث جميل حقاً! فهو كالشمس التى لا زالت تضىء رغم مضى أكثر من ألف سنة على عمره وكل يوم يزداد ضياؤه. أحسن قائل هذا الحديث أحسن وأحسن ألف مرة. إنه حديث أهل لأن يكتبه الحكام بماء الذهب ليجعلونه على رأس قائمة اعمالهم. المدهش هو أنّ اسوة الأخلاق هذه، شخصية كانت حاكمة، ورغم ذلك توصى بالناس وبخاصة المستضعفين والمحرومين منهم خيراً. إنَّ رِجَال الدول الغربية حالياً يمثلون قدوة أخرى ونوع آخر من الحكام حيث يرتضون مقتل الالاف من المحرومين لاجل مصالحهم المادية. انظر للمفارقات! امثال القران، ص: ۱۲۲ سؤال: قد يتمانع الحفاظ على القيم الأخلاقية مع التنمية الاقتصادية، فكيف يمكن الجمع بين هذه القيم والتنمية المطلوبة؟ الجواب: إنَّ نظامنا نظام قيمى، والمهم عندنا هو حفظ هذه القيم الاخلاقية، ونرى أنَّ الحفاظ على القيم لا يتمانع مع التنمية الاقتصادية، ومزجهما مع بعض سوف لا يؤدى إلى التخلف، بل انَّ الإقتصاد الذى لم يعتمد القيم الاخلاقية والذى ساد العالم أدّى إلى أضرار لا يمكن جبرانها. ألم يكن هذا الاقتصاد غير القيمى هو السبب الاساس فى نشوب الحرب العالمية الثانية؟ الحرب التى دمرت بعض الدول بالكامل وأنزلت ببعض اخر اضراراً جسيمة وأودت بحياة ۳۰ مليون شخصاً و ۳۰ مليون معلولًا، هذا بعض ما خلفته هذه الحرب واودعته فى ذاكرتنا. فهل الاقتصاد المتخلف- حسب تعبير اتباع المذهب المادى- أفضل أم الاقتصاد المتطّور؟! ينبغى العلم أنَّ العالم لا يعمَّر ولا ينمو الا تحت ظل إقتصاد قيمى.

على عليه السلام والهدية الليلية

بعد ما يذكر الامام على عليه السلام قصة اخيه عقيل عندما طلب منه شيئاً من بيت المال يقول فى الذى أراد إرشائه لاجل قضية حقوقية ما يلى: «.. وأعجب من ذلك طارق طرقنا بملفوفة «۱» فى وعائها ومعجونة شنئتها «۲» كأنما عجنت بريق حية أو قيئها، فقلت: أصلة أم زكاة، أم صدقة؟ فذلك محرم علينا أهل البيت. فقال: لا ذا ولا ذاك ولكنها هدية، فقلت: هبلتك الهبول! «۳» أعن دين الله أتيتنى لتخدعنى؟ أمختبط «۴» أنت ام ذو جنة «۵» ام تهجر، «۶» والله لو اعطيت الاقاليم السبعة بما تحت افلاكها على أنْ اعصى الله فى نملة أسلبها جلب «۷» شعيرة ما فعلته وأنَّ دنياكم عندى لأهون من ورقة فى فم جرادة امثال القران، ص: ۱۲۳ تقضمها. «۱» ما لعلى ولنعيم يفنى، ولذة لا تبقى، نعوذ بالله من سبات «۲» العقل وقبح الزلل. «۳» هل يُؤمن حالياً على العالم مع وجود زعماء يضحون بكرامة واعتبار بلدهم مقابل امرأة ملوثة!! يا لها من مفارقات؟ على كل مسلم أنْ يتعلم القيم ويدركها ويدير عنجلات الاقتصاد مع حفظه على تلك القيم فى ذات الوقت.

البحوث التكميلية للآية

۱- أكل الربا فى عصرنا

كان أكل الربا فى العصور الماضية محدوداً باشخاص كانوا يسلفون الناس ويرجعون اموالهم بعد فترة من الزمن مع مقدار من الربح، إلَّا أنَّ الأمر اختلف فى عصرنا، فقد ازداد اكلة الربا، كما أنَّ رقعته اتسعت لتشمل الدول والشعوب ككل، فإنَّ الكثير اصبح يمارس هذا العمل القبيح حالياً. بعض الدول التى تجيز لنفسها اكل الربا اوقعت بعض الدول الفقيرة فى مخالبها باعطائها بعض الديون، وقد باتت هذه الدول تصرف كل ما تجنى من أرباح وعوائد وطنية لعلاج هذا المرض المتفاقم. ولأجل ذلك نرى أنَّ الفجوة بين الدول الفقير والغنية تزداد كل يوم، واذا ما استمر الوضع هكذا فلا يبعد أنْ تعلن هذه الدول عن افلاسها. وكمثال على ما نقول فى مجال الربا هو الوضع المرتبك لاقتصاد دول جنوب شرق آسيا «۴» فهو بسبب قضية اكل الربا. ان اكلة الربا العالميين بسطوا لنا فخاً بعد الحرب المفروضة على ايران- التى خرج من امتحانها الشعب الايرانى الشجاع مرفوع الرأس- وذلك ببذلهم السخى للاموال والديون. ورغم أنَّهم لوثونا بعض الشىء بهذه الديون إلَّا أنَّ المسؤولين بحمد الله سرعان ما التفتوا إلى خطورة هذا السم الفتاك، وأوقفوا عملية اخذ الديون ودفعوا تدريجياً اقساط الديون لينقذوا امثال القران، ص: ۱۲۴ بذلك بلدنا من هذا الفخ. اضافة إلى النوع المذكور من الربا هناك نوع اخر من الربا هو اقبح وأسوأ حالًا من سابقه، وهو الذى يعتمد رأس مال الناس، فإنَّ البعض إذا كانوا يبتّون بهذا العمل سابقاً وبأموالهم الشخصية تقوم حالياً البنوك (التى أموالها من الناس) بهذا العمل القبيح وهذا- قطعاً- يستتبع عذاباً اشد وأقسى من سابقه.

۲- النشاط المصرفى اللاربوى هل هو ممكن؟

يعتقد البعض أنَّ عصرنا يستدعى اقتصاداً ربوياً ولا يمكن فيه أى نشاط من دون ربا، وحذف الربا عن النشاطات المصرفية يؤدى إلى ركود فى العمليات المصرفية وركود فى الاقتصاد فى النهاية، وبعبارة أخرى: أنَّ الربا امتزج بالاقتصاد بشكل لا يمكن تفكيكهما. هذا النوع من التفكير يطرح من قبل المفكرين المغتربين، باعتبار حاجة الدول الثرية إلى مبلغين لها فى الدول الفقيرة؛ وذلك لأنَّ تفكيراً من هذا النوع يتطابق مع مصالحهم، رغم سقمه. إنَّ البنوك الاسلامية لو عملت بالقرارات المصوبة فى بلدنا ولو اطلعت الناس على محتويات هذه القرارات وكانوا اوفياء تجاهها فسوف تحل قضية الربا وسوف يفيد أصحاب روؤس الأموال من اموالهم، كما أنَّ البنوك نفسها ستستفيد وعجلة الإقتصاد ستتحرك. من العقود الاسلامية- التى جاءت فى قرارت البنوك- هو عقد (المضاربة)، وهو لا يختص بالتجارة «۱» بل يشمل الاستثمارات فى قطاع الصناعة والبيطرة والزراعة والخدمات وغير ذلك. على اساس عقد المضاربة يودع

الشخص رأس ماله عند البنك، والبنك يعين مستوى الربح على اساس العقد، بالطبع ينبغى ان يكون الربح نسبة من المنفعة لا من رأس المال. والمشترى يمكنه ان يوكل البنك فى ان يتصالح على سهمه بنسبة معينة ليقبضه كل شهر. لكن امثال القران، ص: ۱۲۵ يحسب مجمل الربح بعد انتهاء العقد، ثم يوكل البنك وكالة مطلقة لأنْ يستثمر الاموال فى أى مجال أراد، وعلى البنك أنْ يعمل طبقاً للعقد. وفى هذه الحالة فإنَّ مشكلة الربا منتفية رغم انتفاع صاحب رأس المال وانتفاع البنك اضافة إلى أنَّ عتلة الاقتصاد سوف لا تبقى ساكنة بل تعتمد تجارة سليمة وصحيحة. ينبغى الالتفات إلى أنّه ينبغى تنفيذ العقود الشرعية. وانزالها على الورق دون العمل بها لا ـ يغير شيئاً من الواقع وتبقى مشكلة الربا معضلة بلا حل. حذف الربا من المصارف أمر ممكن بدليل أنَّ الربا كان رائجاً فى صدر الإسلام وحرم بعد ظهوره رغم ذلك لم يحصل ركود اقتصادى واشكالات من هذا القبيل.

۳- حكم الايداعات والسلف

هل يحل للناس ايداع أموالهم فى البنوك وأخذ الأرباح التى تترتب عليها؟ وما حكم السلف التى يمنحها البنوك لزبائنه ويأخذ عليها ارباحاً نسبية؟ من المناسب قبل الاجابة على السؤالين ان نقدم مقدمة نطرح فيها فلسفة هذا النوع من الايداع والسلف. كثير من الناس يملك رأس مال وصله عن طريق الارث أو العمل أو شىء من هذا القبيل، لكن لا ـ يستطيع توظيف رأس المال هذا فى المجال الاقتصادى، من جانب آخر هناك الكثير ممن له طاقة على توظيف الاموال ويحضى بقدرة ادارية جيدة مثل خريجى الجامعات من الشباب ذوى الطاقة والحوافز الجيدة. يأتى هنا دور البنوك حيث يمكنها أنْ تلعب دوراً فاعلًا، بأنْ تجمع بين رأس المال والطاقات والكوادر، فتأخذ الاموال من اصحابها وتسلفها للكوادر لتوظيفها فى سبيل دفع عجلة الاقتصاد وتطلب من الاخيرين ارجاع الاموال من خلال اقساط. وفى هذا المجال تنال البنوك جزءاً من العوائد والارباح. من جانب آخر تتمكن البنوك أخذ رؤوس اموال فاقدى القدرة على توظيفها، لتشترك فى توظيفها واستثمارها، وترجع مقداراً من ارباحها إلى اصحاب روؤس الأموال. امثال القران، ص: ۱۲۶ وعليه، إذا تمت هذه المشاركة على أساس عقود شرعية فلا اشكال فى شرعيتها. ولأجل التحقق من هذا الأمر نوصى بالامور التالية: ۱- تعليم موظفى البنوك الاحكام والعقود الشرعية المتعلقة بالبنوك والزامهم بتنفيذ القوانين الخاصة فى هذا المجال. ۲- أن يقوم العلماء ومن له باع فى الاحكام الشرعية الخاصة بالبنوك بتبيين المسائل الشرعية الخاصة بالبنوك وايضاحها إلى الناس بلغة بسيطة ويذكروا اخطار الربا ومواقف الإسلام الشديدة تجاهه. ۳- من المناسب أنْ توازن البنوك بين ارباح الإيداعات والسلف، ولا ينبغى أن تكون ارباح السلف اكثر من ارباح الايداعات. كما أنّ عليها أن تحيى السنة الحسنة للاقراض وان تخطو فى هذا المجال خطوات مؤثرة.

۴- آيات أخرى عن الربا

لأجل تكميل البحث نشير هنا إلى ثلاث آيات تعرضت لجزئيات الربا واحكامه: الف- يقول الله فى الآية ۲۷۸ من سورة البقرة: «يَا أَيُّها الَّذينَ آمنُوا اتَّقُوا اللهَ وذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبا إنْ كُنْتُم مُؤْمِنِينَ». إنّ بداية الآية خطاب للمؤمنين ونهايتها مشروط بالايمان، ومعنى حسن المطلع وحسن الختام فى الآية هو أنّ أكل الربا لا يتفق وروح الايمان وأنَّ آكل الربا ليس مؤمناً.

شأن نزول الآية

بعض الاغنياء من المسلمين كانت لهم مطالبات ربوية ممن كانوا قد استلفوا منهم، ومن اولئك كان العباس بن عبد المطلب وخالد بن الوليد. وعندما نزلت آية تحريم الربا تساءل هؤلاء البعض عن مصير اموالهم وأرباحها، فنزلت الآية محددة الحكم هنا فى أنَّ لهم الحق فى إرجاع أصل رأس المال دون ربحه ورباه. وقد قال الرسول صلى الله عليه و آله عندما نزلت آية تحريم الربا: امثال القران، ص: ۱۲۷ «ألا ـ أنَّ كل ربا من ربا الجاهلية موضوع وأوّل ربا اضعه ربا العباس بن عبد المطلب»، «۱» وهذا يكشف عن أنَّ الإسلام لا يرى

قيمـة للعلاقـة السـببية والنسبيـة مقابل القوانين والضوابط. باء- يقول الله فى الآية الاخرى من نفس السورة البقرة (۲۷۹): «فإنْ لَمْ تَفْعَلُوا فـاذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِه وإنْ تُبْتُم فَلَكُم رُؤُوسُ أمْوَالِكُم لَـا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظلَمُونَ». «۲» ينبغى الالتفات هنا إلى أنَّ صدر الآية يشـير إلى اعلانـ الحرب من قبـل الله ورسوله لاـ من قبـل آكلى الربـا؛ وذلـك لأـنَّ (فأذنوا) تعنى فاعلموا أو فأيقنوا، إلَّا أنَّ الكلمـة إذا قرئت (فآذنوا)- كما قرأها البعض، وهى قراءة غير معروفـة- فانّ اعلان الحرب سـيكون من قبل آكلى الربا. جيم- الآية ۲۸۰ من سورة البقرة: «وَإنْ كَانَ ذُو عُسْـرَةٍ فَنَظِرَةٌ إلى مَيْسَـرَةٌ وأنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُم إنْ كُنْتُم تَعْلَمُونَ». أى على اصـحاب رؤوس الاموال ان يمهلوا المعسـرين والمحتـاجين ولاـ يطـالبوا بأموالهم .. وإن كان حالهم متأزم فالأفضل أن يعتبروا اموالهم صدقـة بـذلوها لمسـتحقها. من مجموع الآيات المذكورة يستشف أنَّ الربا عند الله اثم عظيم وخطر، وقد استخدم له القرآن تعابير لم يستخدمها فى أيٍّ من الذنوب.

المثل العاشر: الخَلْق المدهش لعيسى بن مريم عليه السلام

اشارة

يقول الله تعالى فى الآية ۵۹ من سورة آل عمران: «إنَّ مَثَلَ عِيْسَـى عِنْـدَ اللهِ كَمَثَلِ آدمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ». على هذه الآية، فإنَّ ولادة عيسى دون أب لا يدل على الوهيته.

الشرح والتفسير

يقول الله فى هذه الآية: إنَّ خَلْق عيسـى عليه السلام يشبه خَلْقْ آدم عليه السلام فى أنَّه خلق من تراب دون دخالة أب وأم فى ذلك، بل وجـد بمجرد ان قال له الله: كُن. تحـدث القرآن المجيـد فى الايات ۴۵ إلى ۵۹ من سورة آل عمران عن عيسـى بن مريم عليه السـلام وحكى مراحل حياته المختلفة من قبيل كيفية الولادة والتربية ونموه وبعثته ورسالته وكراماته ومعاجزه وعروجه إلى السـماء، وقد سـعى القرآن خلالـ هـذه الآيات أنْ يرفع الشـبهة المثارة حوله. سؤال: كيف يمكن أنْ يولـد انسان من أم فقط دون أب؟ أو كيف يمكن أو يولـد إنسـان من دون تركيب بين الأسبرم والبويضـة؟ هل الآيـة فى صـدد الاجابـة على هـذه الشـبهة، بحيث تقول: ألم نخلق آدم دون دخالة أب؟ أى كأنها تريد القول بأنَّ خلق آدم اصـعب من خلق عيسى؛ لأنَّ فى خلق عيسى توسطت الام، أمّا فى خلق آدم فلا واسطة، من قبيل أُم أو أب، فكان أصـعب خلقاً من عيسى عليه السلام. امثال القران، ص: ۱۳۰ إنَّ أفعالًا من هذا القبيل ليست صعبة بالنسبة لله؛ فإنَّ الله ما إن قال لشيء «كُنْ فَيَكُونُ» «۱» إنَّ الخلق عند الله لا يفرق فيه بين الصـغير والكبير والصعب والسهل. إنَّ الله إذا اراد أنْ يَخلق عالمـاً كعالمنا الحالى بمجراته ونجومه- الـذى كشـفت الاحصائيات والاكتشافات العلميـة عن سـعته وعظمته- فإنَّه سـينخلق بمجرد أنْ يأمر. إنّ الإنسان عند الصـلاة إذا تصور امامه خالقاً بهذه القدرة والعظمة وشـعر بأنَّه (لا شـيء) يتحدث مع (كل شـيء) لكانت صـلاته وحالاته فيها تختلف بالكامل.

قدرة الله فى كلام أمير المؤمنين عليه السلام

تحـدث الامام على عليه السـلام فى الخطبة ۱۸۵ من نهـج البلاغـة عن قـدرة الله وأشـار اليها بجمل جميلـة كما نرى هنا: «لو فكروا فى عظيم القـدرة وجسـيم النعمـة لرجعوا إلى الطريق وخافوا عذاب الحريق ولكن القلوب عليلة والبصائر مدخولة ألا ينظرون إلى صـغير ما خلق كيف أحكم خلقه واتقن تركيبه، وفلق له السمع والبصر ..»، ثم يتعرض إلى خلق النملة وظرافة ما تحتويه هذه الخلقة. من الحجب التى تحول دون التفـات الإنسـان إلى عجيب الخلقـة، هو حجاب العادة، وذلك لأنَّ العادة تنسـى الإنسان عظمـة الشـيء. فالنملـة، مثلًا، اصبحت عادية باعتبار كثرتها وتعوّدنا على رؤيتها، الأمر الذى يجعل الإنسان غافلًا عن عظمة خلقها، وهى إذا قيست مع أهم صـناعات

الإنسان لاتضحت عظمتها. إنَّ صناعة الطائرة صناعة تعتمد تقنية متقدمة جداً، فهى تحمل فى الفضاء أناساً وسلعاً، ولها اجزاء مختلفة تشبه المدينة الصغيرة. وهذه الطائرة- التى تكشف عن ذورة التقنية والصناعة البشرية- إذا قيست بالنملة- التى هى من اصغر صناعات قدرة الله اللامتناهية- لكانت النملة اكثر عظمة من الطائرة؛ وذلك لأنَّ النملة تضم كل شىء رغم جثتها الصغيرة والنحيفة، ففيها أجهزة من قبيل: الباصرة امثال القران، ص: ۱۳۱ والسامعة والرجل واليد وجهاز الهضم والدفع والتناسل وتعلم بهندسة بناء البيت وتهيئة الاغذية وخزنها بشكل يحول دون فسادها و .. ويا ترى كيف يمكن لموجود صغير أن يضم هذه الاجهزة جميعها؟! أمّا الطائرة فاضافة إلى أنَّها تفقد الكثير من هذه الاجهزة مثل جهاز التناسل وغيره، فهى بنفسها غير قادرة على تحريك نفسها، وتستعين لأجل الحركة بطاقم من التقنيين والمهندسين. نعم، إن الإنسان سيهتدى ولا يتعجب من خلق إنسان بلا أب إذا فكر فى خلق الله وتدبّر فيه. ينبغى السجود لربٍّ قادرٍ مثل هذا، كما ينبغى الصلاة والسلام على الإنسان الكامل (الإمام على عليه السلام) حيث استطاع توصيف هذه القدرة اللامتناهية وبشكل بديع ورائع.

قصة خلق الإنسان

هناك نظريتان رئيسيتان فى خلق الإنسان: ۱- (تنوع الأنواع)، يعتقد أصحاب هذه النظرية أن الإنسان خلق مستقلًا كما خلقت الحيوانات الاخرى. وقد يُسمى هذا التصور وهذه النظرية (ثبوت الانواع). ۲- (تبدّل الانواع)، وهى النظرية المشتهرة بين علماء الطبيعة والقائلة بأنَّ الخلقة بدأت بموجود أحادى الخلية كان يسبح فى البحار، نمى هذا الموجود بشكل تدريجى ليتبدل إلى سمكة، تكاثرت هذه السمكة، ثم ألقت أمواج البحر ببيض من أفراد فصيلتها خارج البحر، لتتبدل تدريجياً إلى حيوانات بريّة ومنها القرد، ثم تكاملت بعض أصناف القرد لتتبدل إلى إنسان. هل يمتلك أصحاب نظرية (تبدل الانواع) أدلة قاطعة على كلامهم؟ كلا؛ وذلك لأنّ كلامهم يرجع إلى ملايين من السنوات الغابرة، إلى زمن لم يكن فيه إنسان أبداً، إلى زمن لم تصلنا عنه معلومات دقيقة، وما لدينا من تلك العهود هو شواهد وقرائن أثرية جمعت من قبل منقبى الآثار.

الاختلاف بين (الفرضية) و (القانون)

إنّ مجموعة القضايا التى يسعها المختبر ويمكن أن تُحلل وتقع فى طريق التجربة العلمية تتبدل إلى قانون إذا ثبتت صحتها، كالقضية القائلة بأنَّ سرعة الضوء ۳۰۰/۰۰۰ كيلومتر فى الثانية. أما مجموعة القواعد التى لا يمكن اخضاعها للتجربة، ويُتمسك لأجل إثباتها بالعقل من خلال القرائن والشواهد الموجودة فهى فرضية. وعلى هذا؛ فإنَّ (تبدّل الانواع) فرضية لا قانون. ومن خصائص الفرضية أنَّها تحتمل التبدّل والتغيير والبطلان، كالفرضية القائلة بأنَّ الإنسان قبل أربعين ألف سنة يختلف عن الإنسان الحالى، فإنَّ علماء الآثار وجدوا جماجم تتعلق بمليونى سنة قبل عصرنا هذا كشفت عن شباهة الإنسان فى ذلك العصر مع الإنسان الحالى، وبهذا بطلت الفرضية السابقة.

رأى القرآن فى خلق الإنسان

إنّ نظرية (تنوّع الانواع) هى المستفادة من القرآن المجيد، ويبدو أنَّ القرآن يؤيد هذا الرأى وهذه النظرية، أمَّا (تبدّل الانواع) فلا يمكن النظر إليها كقانون ثابت يستحيل الخدش فيه. على أى حال، سواء كانت النظرية الأولى صحيحة أم الثانية، فإنَّ تفسير الآية لا يتغير، وحتى لو قلنا بتبدّل الأنواع فإنَّا سنقول: إنّ الذى استطاع أن يخلق الموجود أحادى الخلية يستطيع أن يخلق عيسى عليه السلام دون حاجة إلى أب وأُم. هذا اضافة إلى أنَّ العلماء عثروا على موجودات يمكنها التكاثر دون حاجة إلى التلاقح، وهى حيوانات تستطيع الانثى منها التكاثر دون حاجة إلى لقاح من الذكر. وإذا كان عالم كهذا ممكناً فان ولادة عيسى عليه السلام لا أنّه أمر غير

عجيب فحسب، بل قد حصل ما هو أعجب منه.

المثل الحادى عشر: إنفاق الكفار

اشارة

يقول الله فى الآية ۱۱۷ من سورة آل عمران: «مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِى هَذِهِ الحَيَاةِ الدُّنيا كَمَثلِ رِيْحٍ فِيْهَا صِرّ أصَابَتْ حَرْث قَوْمٍ ظَلَمُوا أنْفُسَهُمْ فَأهْلَكَتْهُ ومَا ظَلَمَهُمُ اللهُ ولَكِنْ أنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ».

تصوير البحث

فى هـذه الآيـة يمثّل القرآن بـذل الكفار بزراعـة كافر فى أرض خصـبة، فهو ينثر فيها البـذر، إلّا أن مجىء ريـح بارد وجاف يجفّف ما زرعه وأنبته هذا الكافر فى هذه الأرض.

الشرح والتفسير

«مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِى هَذِهِ الحَيَاةِ الدُّنْيَا» يعتقد بعض المفسرين أنّ كلمة النية أو الدافع مقدرة هنا، وهى توضّح هذا الجزء من الآية. وبهذا التقدير يصبح معنى الآية كالتالى: أنّ نية هكذا إنفاق ودافعه كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم، فكما أنَّ هذا الريح يدمر الحرث، كذلك النية هذه فانّها تدّمر هذا الانفاق. «كَمَثَلِ رِيْحٍ فِيْهَا صِرٌّ أصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أنْفُسَهُم فأهْلَكَتْهُ» إنَّ مفردة الصر بالعربية امثال القران، ص: ۱۳۴ تعنى ريحاً شديـد البرد، أو ريحاً شديـد الصوت. «۱» على أى حال، المراد من هـذه الكلمـة هو الريـح الشديد الذى يحرق حتى بعض الغابـات الكبرى أحياناً. وسـبب هـذا الحريق- كما نسـمع من المختصـين- هو الصواعق والرعـد والبرق، وقـد يكون هناك إعصار شديد تحتك بسببه بعض الاشجار اليابسة- التى تدّخر فى نفسها طاقة- فتتولد قدحة تشعل النار، فيحصل الحريق. وعلى هذا، فإنَّ مثل انفاق الكفّار كمثل المزرعة التى تواجه ريحاً شديدة تُضرم النار فيها. «وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ ولكِنْ أنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» وذلك لأنّ مـا يترتب على فعلهم لم يكن ظلمـاً من الله بـل كان ذلك كله بسـبب سوء نواياهم وعـدم صـدقها. إنَّ المزارع الـذى يتعمّـد الزرع فى أراضٍ تقع فى مسير الرياح الشديدة والباردة، إذا تلفت زراعته إثر هبوب الرياح فذلك ظلم أورده بنفسه على نفسه.

خطابات الآية

۱- المراد من الإنفاق فى آية المثل

أى نوع من الانفاق شُبِّه بالريـح الصـر فى الآيـة الشـريفة؟ إنّ فى ذلك احتمالات ثلاثـة نشـير إليها هنا. الف- المراد منه الانفاق الذى يُصرف فى غير سبيل الله، مثل الانفاق والبذل الذى كان يصدر من أبى سفيان الكافر والمنافق- فهو لم يُسلم قلبياً وضلّ كافراً إلى آخر عمره- فى سبيـل عظمـة الأصـنام ولأجـل إسـقاط الإسـلام. إنَّ القرآن المجيـد يقول: إنّ إنفاقـاً من هـذا القبيـل مثـل الأرض التى تعدُّ للزراعـة، ودوافع امثـال القران، ص: ۱۳۵ هؤلاء المنفقين- وهى الشـرك وعبادة الأصـنام- مثل الريـح الصـر. باء- المراد من ذلك هو الانفاق والبـذل الذى يصدر من المسـلمين المترائين لأجل بناء المساجد والحسـينيات والمستشـفيات والمستوصـفات والجسور والطرق وما شابه ذلك، فهى إنفاقات ذات دوافع غير إلهية، وتنمُّ عن دوافع مثل المباهاة وجلب رضاء الناس لأجل الفائدة الأكبر فى المستقبل. إنَّ إنفاق هؤلاء مثل الأرض الزراعية الخصبة، ونية المنفقين غير الخالصة مثل الريح الصر. جيم- المراد منه هو الانفاق الذى يقترن مع المنِّ والإيـذاء، فهو فى الظـاهر إنفاق وفى الواقع إذهاب لماء وجه الآخرين وسـلب اعتبارهم. فالإنفاق آنـذاك كالأرض الزراعيـة، أما

المن والأذى فبمثابة الريح الصر فأنها تُبطل الانفاق، كما أن لها أضراراً دنيوية، وذلك لأنّه فقد ماله اضافة إلى انّه ارتكب ذنباً عليه عقاب. «۱»

۲- الإنتقام من كافر النعمة

يستفاد من الآية وآيات اخرى من القرآن المجيد أن الله ينتقم فى كثير من الحالات من الذين يكفرون بنعمه ويطغون، فيجعل النعم وسيلة لعذابهم ويبدّلها إلى نِقم (أى الموت فى قلب الحياة). كمثال على ذلك، الله أباد قوم نوح بواسطة المطر والطوفان، مع أنّ المطر قطرات تمنح الحياة لمن تصله، وهو من أكبر نعم الله تعالى على هذا القوم. إنّ الغيث إذا لم ينزل ينتهى كل شىء على وجه الأرض، فهو نعمة لكنه تبدّل إلى مصيبة على قوم نوح! تحدّثت سورة سبأ عن قوم سبأ، والحكاية واقع وعبرة فى نفس الوقت. إنّ هذا البلد يقع فى مسير المياه الحاصلة من المطر، ولأجل الحدّ من أضرار الأمطار الغزيرة بنى هذا القوم سداً ترابياً لجمع المياه الزائدة والافادة منها عند الحاجة، وشقوا قنوات وسواقى من هذا السدّ إلى امثال القران، ص: ۱۳۶ أراضيهم، فأصبحت أراضيهم بذلك قطعة من الخضار لكثرة التشجير والمزارع والبساتين، وما كان الله يريد من هذا القوم إلّا شكر الرب على نعمه الوافرة، كما يصرّح القرآن بذلك فى الآية ۱۵ من سورة سبأ: «كُلوا مِنْ رِزْقِ ربّكُمْ واشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طيِّبةٌ وربٌّ غَفُورٌ» لكن باعتبار أنَّ الإنسان ينسى الله عندما يغرق فى نعمه، فكذا قوم سبأ كانوا قد نسوا الله وأصابهم الغرور والطغيان وكفران النعمة، وهذه من صفات الإنسان إذا كان ضيق الصدر، حيث ينسى كل شىء عندما يبلغ مستوى الرخاء. إنّ القرآن يصف العذاب والنقمة التى أصابتهم كالتالى: «فَأَعْرَضُوا فأرْسَلْنَا عَلَيْهِم سَيْلَ العَرِم وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِم جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأثْلٍ وَشَىءٍ مِنْ سِدْرٍ قَليلٍ». «۱» نعم؛ إنّ كفران النعمة هو الذى بدّل نعمة السد الترابى إلى نقمة وعذاب. وقد توفرت مقدمات العذاب، بعدما أوحى الله لفئران أن تثقب السدّ، فكان الماء يخرج من الثقوب شيئاً فشيئاً إلى أن توسعت الثقوب لتصل إلى مستوى استطاعت أن تدمّر السدّ، فتدفّق الماء بشدة ودمّر قصور القوم وبساتينهم وأنعامهم، وبدّل مزارعهم إلى أراض جرداء. وفى النتيجة تبدّل هذا السدّ- إثر إعراضهم عن الله- إلى عذاب ليكون عبرة لمن بعدهم، ولكى لا يطغى الإنسان أمام الله. النموذج الآخر، هو عذاب الله الذى نزل على قوم شعيب من خلال الصيحة (كما يعبر عنها القرآن فى الآية ۹۴ من سورة هود) أو الصاعقة، وهى من جهتين تعتبر عذاباً، الأولى: أنَّها تحرق كل ما تصطدم به. والثانية: أنّ أمواجها الصوتية تذهب بالسمع. ويُذكر هنا أنَّ هذه الصاعقة كانت نعمة لهم؛ لأنها تسبب هطول الامطار، تلك النعمة التى يدين لها جميع الأحياء على الكرة الأرضية. وحسب ما ذكر فى الآية ۱۶ من سورة هود، أنّ الاستئصال كان نتيجة طغيانهم وكفرانهم لنعم الله، وتبدّلت بذلك الأرض التى هى مهد الإنسان ومسكنه إلى وسيلة عذاب يتعذبون بها. امثال القران، ص: ۱۳۷ إنّ اهتزاز الأرض دمر جميع مدنهم، وقد أنزل الله وابلًا من الأحجار عليهم بحيث لم يبق من آثارهم شىءٌ أبداً. أشرنا سابقاً إلى أن الريح من نعم الله العظمى للمزارعين، كما أنَّه إذا لم يهب فانَّ عملية لقاح الاشجار سوف لا تتمُّ، كما أنَّ الهواء إذا لم يتغير فسوف يستهلك الاوكسجين فيه، وفى النهاية سوف لا تثمر الاشجار والنباتات من جراء ذلك.

۳- فلسفة الكوارث الطبيعية

منذ القدم كانت المسألة التالى ذكرها أحد مسائل بحث العدل الإلهى، وهى: إذا كان الله عادلًا فما فلسفه الكوارث والحوادث المؤلمة من قبيل الأمراض والسيول والطوفانات والزلالزل والامطار الشديدة والاعصار المخيفة؟ هل تتلاءم هذه الامور المؤلمة للإنسان أو المدمّرة له مع عدالة الله؟ لا نعرف التاريخ الدقيق لطرح هذه الشبهة، وقد يرجع تاريخها إلى ما قبل ميلاد السيد المسيح عليه السلام. وقد دوِّنت فى هذا المجال البحوث والكتب الكثيرة، وهممنا فى كتاب (خمسين درساً عقائدياً) بالاجابة على هذه الشبهة. وقد تصدَّى القرآن فى بعض آياته للاجابة على هذه الشبهة، نشير إلى نماذج من تلك الآيات: ۱- تعتبر بعض الآيات التنبّه واليقظة من أهداف

هـذه البلايا والكوارث، كما هو كـذلك فى الآيـة ۴۱ من سورة الروم: «ظَهَرَ الفَسَادُ فِى البَرّ والبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أيـدِى النَّاسِ لِيُذيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِى عَمِلوُا لَعلَّهُمْ يَرْجِعُونَ». على أسـاس هـذه الآيـة، تعـدُّ الكوارث لطفـاً من الله للغـافلين من الناس، فإنَّها قـد تفيق الغافلين عن غفلتهم لعلهم يرجعون إلى الله، مثلمـا ابتلى الله النـاس فى زماننـا هـذا بمرض الايـدز لكـثرة فسـادهم لعلهم بهـذا الابتلاـء يرجعون عن فسادهم وينتبهون إلى أنفسـهم، أو مثلما يبتلى شـعوب العالم حالياً بالحروب والاختلاف الطبقى الفاحش والانقلابات والسقوط وتدمّر الحضـارات البشـرية وذلـك لتفشـى أمراض مثـل أكـل الربـا فيهم. فهـذه الابتلاءات تحلُّ بالناس امثال القران، ص: ۱۳۸ لعلّهـا تنبههم وترجعهم إلى الطريق الصواب وتفيقهم من غفلتهم هـذه. إذن، الابتلاـءات هـذه مواهب إلهيـة فى الواقع. ولأجل اتضاح هـذه الفلسـفة بشـكل أفضل التفتوا إلى هذا المثال: نشاهد فى بعض الشوارع الطويلة والمسـتوية بعض العقبات والعكر تعَّمد إيجادها المعنيوّن. إذا ما سألنا عن سـبب ذلك قالوا: إن شوراع من هـذا القبيل قـد تؤدى إلى غفوة السائق وغفلته الأمر الـذى قد يودى، بحياته وحياة الآخرين، ولأجـل الحيلولـة دون غفوة السـائق نتعمـد إيجاد هـذه العكر ليبقى السائق منتبهاً دائماً. إنّ حياة الإنسان إذا خلت من هـذه العقبات قد تؤدى إلى غفلـة الإنسان وغفوته وسـقوطه فى الهاويـة فى نهايـة الأمر، لكن وجود هـذه العقبات تحول دون غفلته وتنجيه من السـقوط رغم أنها تؤذيه ولا تريحه. ۲- الفلسـفة الاخرى المستفادة من الآيات هى أنَّ بعض هذه البلاءات والحوادث نتيجة عمل الإنسان نفسه، وبتعـبير آيـة المثـل: أنَّ الإنسـان يظلم نفسه وأنَّ الله لاـ يظلم أحـداً. على سبيـل المثـال، الأـبوان اللـذان لايكترثـان بسوء أو حسن تربية الاطفال، ولا يهتمان بتعليمهم المسائل الدينية، ولا يرشدونهم إلى الاماكن الدينية مثل المساجد والحسـينيات ولا يعوّدونهم على التردد على هذه الأماكن، فان النتيجة ستكون اطفالًا غير مهذبين أو متعاطين للمخدرات، الأمر الذى يعود بأضراره لا على نفسيهما فحسب بل على جميع المجتمع، لكن يا ترى من كان السبّاق والناثر للبذرة الأولى لهذا الشذوذ وهذا الظلم؟ لا أحد غير الأبوين.

إعتبروا

قبل مـدة جاء شـخص محترم لمكتبنا لغرض دفع ما عليه من واجبات ماليـة، فقضـى الموظفون حاجته وأدى ما عليه، ثم رحل. بعد فترة من الزمن جاء نفس الشـخص مع صديق له، وهو يحمل معه الكثير من الهمّ والغمّ، ورأيته يبكى، فسألته عن سـبب بكائه؟ فأجابنى: أنَّ إطفالى صادروا جميع ما جمعت من المال خلال السـنوات الماضـية من عمرى، وقـد طردونى من البيت، وأنا الآن أنام فى كل ليلة فى بيت امثال القران، ص: ۱۳۹ من بيوت المعارف. ثم أشار إلى صـديقه وقال: إنّ الطريق الذى سـلكه صديقى كان طريقاً صـحيحاً، فهو سعى منـذ البدايـة فى تربيـة أولاـده وتعـاليمهم والاحكام الإسـلامية وأرشـدهم منـذ الصـغر إلى المساجـد والحسـينيات، وأولاده حالياً كالعصى بيد والديهم يحترمونهما ويؤدون واجباتهم تجاههما، إلّا انى أخطأت منذ أن فكّرت فى إرسالهم للخارج وتعليمهم العلوم من دون الاكتراث بما قـد يسـىء ذلك إلى تربيتهم. وحالياً عنـدما رجعوا إلينا وجـدناهم لا يفكرون إلّا بأنفسـهم ومصالحهم الماديـة، فلا يهتمون بشىء غير المال «وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلكِنْ كَانُوا أنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ». «۱» إنّ لطف الله ورحمته على العباد مثل الغيث الذى يهطل على الأراضـى، ففى بعضها تنبت الزهور والنباتات، وفى بعضها الآخر تنبت الأدغال، والاشكال ليس فى المطر بل فى ذات الأرض. كما أنه لا اشـكال فى أنوار الهداية الإلهيّة، بل الاشـكال فى قلوب الناس. وعلى هذا، فإنَّ الفلسـفة الاخرى لهذه الابتلاءات هى أنَّها ردود فعل لأفعالنا نحن. بالطبع هناك فلسفات اخرى لهذه الظواهر، نحن نكتفى هنا بالموردين السابقين.

المثل الثانى عشر: الكفر والإيمان

اشارة

يشير الله تعالى إلى هذا المثل فى الآية ۱۱۲ من سورة الأنعام، حيث يقول: «أوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِى بِهِ فِى النَّاسِ

كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

تصوير البحث

فى الآيـة مثلاـن كلاهمـا عن الكفر والايمـان. شبّه القرآن الايمـان فى المثل الأول بالحياة، والكفر بالموت. وفى المثل الثانى شبّه الله الايمان بالنور والكفر بالظلمات.

شأن نزول الآية

ذُكر شأنان لنزول الآية: ۱- نزلت الآية فى حمزة العم الجليل لرسول الله صـلى الله عليه و آله وفى أبى جهل العدوّ اللدود للرسول صلى الله عليه و آله. إنّ حمزة لم يؤمن فى صـدر الإسـلام، وقـد يكون ذلك تأنياً منه لدراسـة الـدين الجديـد بشـكل افضل، فهو فى صـدر الإسـلام سـلك سبيـل السـكوت تجاه الـدعوة. أما أبو جهل فكان يؤذى الرسول دائماً بشـكل وآخر وكان يضع أمام الرسول العقبات لأجـل إيـذائه. فى يوم كان حمزة قـد ذهب للصـيد، وفى نفس اليوم كان أبو جهل قـد آذى الرسول بشـدة بحيث تأثر من جراء ذلك امثال القران، ص: ۱۴۲ حتى عبدة الأصنام، وقد وصل خبر إيذاء الرسول صلى الله عليه و آله لحمزة بعد أن قدم من الصيد، فذهب إلى أبى جهل وضـربه على أنفه بحيث رعف أنفه دماً، ورغم ما كان لأبى جهل من قوم وأنصار، إلّا أنه هاب حمزة، ولم يصدر منه أى ردّ فعل، وفى هـذه الاثناء استسـلم حمزة. إنّ الآية نزلت هنا، وكأنها تريد القول: إنَّ حمزة حيى عندما أسـلم، وبذلك تنوَّر قلبه، عكس ما كان عليه ابوجهل فى تورّطه بالظلمات، وأنَّ تعصـبه ولجّه حال دون الخروج منها. الكفار يعتقـدون بصـحة أعمالهم ورفعـة شأنها رغم أنهم يزدادون كـل يوم غطساً فى طين الشـقاء والكفر. «۱» ۲- الشـأن الآـخر هو أنَّها نزلت فى عمار بن ياسـر وأبى جهل. إنّ عمار من الشـباب الشجعان ومن أوائل الذين أسلموا ونوروا قلوبهم بالايمان، فهو من أنصار رسول الله صلى الله عليه و آله، وأصبح نصيراً للإمام أمير المؤمنين عليه السـلام بعد وفاة الرسول صـلى الله عليه و آله، وقد استشـهد فى صـفين. «۲» عندما أسـلم هذا الشاب ذمّه الكثير من المشـركين، منهم أبو جهـل، وقـد تعرّض آنـذاك لأـنواع من العـذاب. ومن هنـا قيل: إنَّ الآيـة نزلت فى إيمان عمار وكفر أبى جهل، باعتبار أنَّ عمار قبل الإسـلام كان ميتاً وحيى بعد الإسلام وتنوّر قلبه به، أما أبو جهل فظل فى وادى الظلمات باصراره على الكفر ولجه فى ذلك، ولا أمل له فى النجاح والسعادة؛ لأنَّه كان يعتبر أعماله القبيحة حسنة. «۳»

ما هى الحياة؟

لأـن نسـتوعب بعمق المثل الأوّل علينا أن نفهم معنى الحياة. رغم أن آثار الحياة نجـدها فى كل مكان، ورغم أنّه يمكننا أن نميّز الحياة عن الممات، إلَّا أنَّ تعريف الحياة وإدراك حقيقتها أمر مشـكل، وقد لا يوجد شـخص استطاع إبداء تعريف جامع لحقيقة الحياة. امثال القران، ص: ۱۴۳ يعتقد العلماء أنّه لا يمكن أن يولد الحى من الميّت. ورغم ما انجزه العلماء من صـناعات مدهشة كالكامبيوتر والطاقة الذريـة و ... إلّـا أنهم مـا اسـتطاعوا أن يخلقوا موجوداً حيّاً من موجود ميّت. اعتبر القرآن قبل ۱۴۰۰ سـنة الإنسان عاجزاً، حيث قال فى الآية ۷۳ من سورة الحـج: «إِنَّ الَّذِينَ تَـدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يخلقُوا ذُبَابَاً ولو اجْتَمَعُوا لَهُ». وفى هذا العصـر الملىء بالاختراعات، يعجز الإنسـان عن إدعـاء الخلق فضـلًا عن الخلق نفسه. من المبـادئ التجريبيـة المسـلمة هى أنَّ الحى لاـ يمكن خلقه من الميّت، وظنُّ بعض العوام أن الرطوبـة تخلق بعض الموجودات الحيَّة فذلك ظن باطل، كما أنَّه لا يتصور أنَّ التفاحة بنفسـها توجد الدودة التى فى داخلها، بل ينبغى أن يكون فى داخل التفاحـة بيضـة الـدودة لكى توجد الدودة، فلا الحيوان يوجد النبات ولا النبات يوجد الحيوان. سؤال: فى اليوم الذى انفصلت الارض عن الشمس لم يكن موجود حيٌّ على الكرة الأرضية، لكن الموجودات الحية وجدت بعد ذلك. ألم يكن ذلك بسـبب أنَّ الموجودات الحيـة تخلق من الموجودات الجامدة؟ الجواب: نعم كانت هناك ظروف معقدة خاصة خلقت الجمادات

الموجودات الحية، لكن هذه الظروف غير متوافرة بالفعل، كما لا يمكن للإنسان أن يوافر تلك الظروف. وعلى هذا، فانَّ الحياة أعجب ظاهرة فى عالم الوجود. والأعجب من ذلك هو خالق الحياة، فرغم تحقيق ودراسة الملايين من العلماء، ما أستطاع أحد منهم كشف هذا السر ومعرفة سر الخلق! ولهذا كانت قضية الحياة من أهم أدلة وبراهين معرفة الله.

أقسام الحياة

إن الحياة على ثلاثة أقسام: ۱- الحياة النباتية، وعلاماتها أشياء ثلاثة: الف- النمو. باء- التغذية. جيم- التناسل. ۲- الحياة الحيوانية، وهى حياة تضم علامتين، هما: الحس والحركة. امثال القران، ص: ۱۴۴ ۳- الحياة الإنسانية، وهى تحضى- أضافة إلى الخصائص السابقة المذكورة فى الحياة النباتية والحيوانية- بخصائص من قبيل العلم والمعرفة والايمان والأخلاق والحب والارادة. واذا فقدت الحياة الإنسانية الخصائص الثلاث الاخيرة تبدلت إلى حياة حيوانية. ولذا، اعتبر القرآن المجيد غير المسلمين موتى؛ لأنّه ينظر إلى حياتهم من الزاوية الدينية الإسلامية.

المراد من الحياة فى آية المثل

لا شك فى أنَّ المراد من الحياة فى الآية الشريفة هو الحياة الإنسانية، أى أنَّ حمزة أو عمار أو أى شخص آخر يحيى إذا ما أسلم، فتظهر فيه علائم الحياة الإنسانية، أى العلم والمعرفة والاخلاق والايمان والحب والارادة. ومن هنا كان امثال عمار وحمزة والشهداء فى سبيل الله أحياء «۱» أمّا أمثال أبى جهل فأموات غير أحياء. «۲»

لماذا عُدّ عرب الجاهلية أمواتاً؟

يبحث الإمام على عليه السلام هذا الأمر فى الخطبة رقم ۲۶ من نهج البلاغة ويقول: «إنَّ الله بعث محمداً صلى الله عليه و آله نذيراً للعالمين، وأميناً على التنزيل ...» ثم يذكر عشر خصال لعرب الجاهلية. ۱- «وأنتم معشر العرب على شرِّ دين» فإنَّ عبادة الأصنام هى أسوأ خرافة، كيف يمكن للإنسان أن ينحت صنماً ثم يسجد ويركع إليه ويناجيه ويطلب منه الطلبات؟ والأسوأ من ذلك كله هو أنّه يضحّى بولده لهذه الأصنام، وعند الجوع يأكل أصنامه التى صنعها من التمر. ۲- «وفى شر دارٍ» فهم كانوا فى دارٍ لم يحكمها السلام أبداً، فنار الحرب كانت مستعرة دائماً، وكانوا يصرون على النزاع والمخاصمة ويورثون الأحقاد لأولادهم، وكان الموت مصير من لم يستطع الانتقام من خصمه، وكانوا يوصون أولادهم بالانتقام. ۳ و ۴- «مُنيخون بين حجارةٍ خُشنٍ وحيَّات صُمٍّ» أى كانوا فقراء يعيشون بين الاحجار امثال القران، ص: ۱۴۵ الصلبة والخشنة والحيات الخطرة التى كانت صماء لا تسمع، «فكانت الأرض فراشكم والسماء غطاءكم». ۵- «تشربون الكدر» أى ما كانوا يشربون ماءً زلالًا بل ماؤهم كان وسخاً دائماً. ۶- «وتأكلون الجشب» أى مأكولاتهم ما كانت لذيذة بل متواضعة ولا تلذ. ۷- «وتسفكون دماءكم» فان عدم الأمن والأمان كان هو الحاكم آنذاك. ۸- «وتقطعون الأرحام» فما كانوا يرحمون أولادهم فضلًا عن غيرهم، إنّ وأد البنات كان من عاداتهم. ۹- «الأصنام فيكم منصوبة» أى أنَّها كانت منصوبة للاحترام والتبجيل والعبادة ... ۱۰- «والآثام بكم معصوبة» أى كانوا قد غرقوا فى وحل الذنوب والعصيان. من مقال الإمام يستفاد أن الفقر كان هو السائد، سواء كان بمعناه الدينى أو الثقافى أو السياسى أو الاقتصادى أو الأمنى ... فبعث الله فى هذا الوسط- الذى كان ميتاً بكامل معنى الكلمة- رسولًا مع باقة من العلم والمعرفة. عندها التقى عرب الجاهلية ومسلمو صدر الإسلام مع العلم والمعرفة وما مرّ زمن طويل حتى تزعموا عالم العلم، ووفّروا الأرضية للحركة العلمية فى اوروبا. وخلال أربعة أو خمسة قرون استطاع المسلمون أن يرشدوا الاوربيين نحو العلم. ورغم أنَّ المسلمين تزعموا العلم وكانوا روّاد الحركة العلمية فى العالم، إلّا أنَّهم تخلفوا حالياً عن عجلة الصناعة والتقنية، وهم يمدون أيديهم الآن إلى الدول الأوروبية لارسال خبراء ومستشارين رغم ما يترك هذا الأمر من مضار أخلاقية

واجتماعية ودينية. وعلى العلماء فى الوقت الحاضر أن يشدوا الشباب بماضيهم المنير وأن يعرّفوا هذا الجيل بما أقرّ به الاوربيون للمسلمين من علوم واختراعات وابتكارات علمية قبل النهضة الاوربية ... وبتدريسهم هذه المطالب فى الجامعات والمراكز العلمية سوف يحرّضون الشبان نحو النشاط الاكبر والأكثر فاعلية.

آثار النور وبركاته

لقد شُبِّه الايمان فى المثل الثانى بالنور، والكفر بالظلمات. ولأجل اتضاح عظمة النور من المناسب ان نشير إلى آثاره المادية وبركاته هنا: النور هو ألطف موجود وأسرعه فى عالم المادة؛ فإنَّ سرعته فى الثانية ۰۰۰/ ۳۰۰ كيلومتر، وبعبارة اخرى: النور يستطيع أن يطوى الارض سبع مرات ونصف المرة فى الثانية الواحدة، لأن قطر الأرض فى خط الاستواء هو ۴۰ الف كيلوا متر، واذا قسمنا ۰۰۰/ ۳۰۰ على ۰۰۰/ ۴۰ فان الناتج سيكون سبعة ونصف. إنَّ بركات عالم المادة جميعها من النور، وذلك لأنَّ بواسطته تُقتل الميكروبات المضرّة وتُعالج بعض الامراض، وببركته يدفء الجو، وببركته تتنوّر الأرض، وببركته تنزل نعمة المطر الالهية. فى الإسلام والايمان إضاءة كما فى النور. إنَّ حمزة وعمار كانوا أمواتاً قبل الإسلام، كما هو حال عرب الجاهلية أجمع، ثمّ تنوّروا بعد إيمانهم، وأحيى هذا النور وجودهم وقلوبهم، وقد سلكوا طريق الحق والحقيقة بواسطة هذا النور، وطبيعى أن يختلف صاحب هذا النور عمن لا يمتلكه.

نور الفرقان

الآية التالية (۲۹ من سورة الأنفال) من الآيات ذات المحتوى والمعنى العميق التى نزلت فى هذا المجال: «يَا أَيُّها الَّذِيْنَ آمَنُوا إنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً». الفرقان لغوياً يعنى ما يميز به الحق عن الباطل. والآية تعنى أنَّ الإنسان إذا اتقى الله، فالله يلقى فى قلبه نوراً يستطيع الإنسان من خلاله أنْ يميز الحق عن الباطل. ولهذا قد يحصل أن يكون بين الناس العوام اشخاص يحملون هذا النور ويعلمون بواقع الأمر رغم اكتناف الواقع بملابسات وغموض بحيث يعلمون بالمنشأ والأهداف. إنَّ أصحاب هذا النور لا يقعون فى فخ الشيطان ولا يكونون آلة بيده، كما لا يتورطون بشباك المحتالين؛ وذلك لأن نور الفرقان يكشف لهم عمّا غمض ويهديهم إلى الصواب، لذا قال رسول الله صلى الله عليه و آله: «المؤمن ينظر بنور الله». «۱»

التقوى ثمرة الصوم والفرقان ثمرة التقوى

شهر رمضان شهر التقوى والنور، والإنسان يحصل بالصوم على تقوى أكثر إلى مستوى تتجذر فيه نبتة التقوى (لعلكم تتقون). وعليه، فالتقوى ثمرة الصوم ونتيجته، وعلى أساس الآية الشريفة، إنَّ الفرقان هو ثمرة التقوى. ومن المناسب فى هذه الليالى والأيام المباركة وبخاصة عند الاسحار أنْ نرفع أيدينا إلى السماء خشية وتضرّعاً سائلين الله التقوى والفرقان (اللهم آمين).

الأعمال القبيحة تبدو حسنة فى نظر الكفار

يقول الله فى نهاية الآية الشريفة: «زُيِّنَ لِلكَافِرِيْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ»؛ وذلك لأنَّ حب الذات والهوى والأنانية والغرور تجعل الإنسان فى غفلة عن أعماله القبيحة وتتزيّن له الأعمال القبيحة، بحيث تبدو جميلة وحسنة.

المثل الثالث عشر: شرح الصدر

اشارة

يقول الله تعالى فى المثل الثالث عشر من أمثال القرآن فى الآيـة ۱۲۵ من سورة الأنعام: «فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلأسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأنّمَا يَصَّعَّدُ فِى السَّمَاء كَذَلك يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الّذِين لَا يُؤمِنُونَ».

تصوير البحث

إنَّ الآيـة الشـريفة فى صـدد بيان الأرضـيات الروحيـة للناس لقبول الحق. والمسـتفاد من هذه الآية، أنَّ الناس يختلفون من هذه الحيثية، فبعض من الناس بمجرد أن يواجه الإسـلام يتلقاه ويحتضـنه؛ وذلك لطهارة روحه و نورانية قلبه، ولأجل ذلك يشرح الله صدوره. وفى قبال هـذا البعض، هناك البعض الـذى لا يتأثر بالقرآن حتى لو قرأته كله عليه؛ وذلك لأنه يفقـد الأرضـية اللازمة لقبول الحق، فيجعل الله صدر هذا ضيّقاً ومظلماً.

الشرح والتفسير

«فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَح صَدْرَهُ للأسْلَام» والعبارة الاخرى لشـرح الصدر هى توسـيعه بحيث يجعله مؤهلًا وقابلًا لاسـتقطاب الحق والحقيقيـة. «وَمَنْ يُرِدْ أنْ يُضِلّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيّقاً حَرَجاً» والعبارة الاخرى لضـيق الصـدر هى سـلب القدرة والطاقة عن القلب بحيث يختل توازنه الفكرى لأصغر مشكلة وأتفهها. امثال القران، ص: ۱۵۰ «كَأنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى السَّماءِ ...» أى أنَّ ضيق الصدر يصل إلى مستوى وكأنه يحلق إلى السـماء بدون وسـيلة، كما أنّ تحليقاً من هذا النوع محال بالنسـبة إلى الإنسان، كذلك تحّمل الضـيق والظلمة بالنسـبة لهؤلاء، فهم لا يطيقون ذلك. إنَّ الله يجعل هكذا ظلمة وكفر فى قلوب غير المؤمنين.

خطابات الآية

۱- الهداية والضلالة بيد الله

إنّ المفهوم الـذى يتطابق مع ظاهر الآيـة هو أنَّ الهدايـة والضـلالة بيد الله، وهذا لا يعنى إلّا الجبر. ففى هذه الحالة يُعدُّ الإسـلام والكفر أمرين غير اختياريين، لكن قبول هـذا- حسب عقيـدتنا- يتنافى مع عدالـة الله. ومن هنا كان علينا أن نقـدم مقدمة نوضح فيها الأمر: من الفرق الإسـلامية- التى لا تنهل من المنبع الزلال للولايـة والامامـة- فرقـة تقول بالجبر وتعتقد أنَّ الإنسان مسـلوب الإختيار. إنَّ الإعتقاد بهـذا المـذهب- المخالف لمـذهب الشـيعة- يتساوى مع انكار اصول الـدين الخمسـة. إنّ أول أصل يغض النظر عنه هـذا المذهب هو أصل العـدل الإلهى، فإنَّ الإنسان اذا كان مُجبراً على أعماله فعـذاب الكافر وثواب المؤمن ليسا من العدالـة؛ لأنّه لا الكافر اختار الكفر، ولا المؤمن اختار الايمان. ولهـذا لم يقل بعدل الله من قال بالجبر. إنَّ التوحيد هو الأصل الثانى الذى ينفى بالاعتقاد بالجبر؛ وذلك لأنَّ الله إذا لم يكن عادلًا فهو ليس أهلًا لادارة وتـدبير هذا العالم الواسع الذى يُدار على أساس النظم والحكمة. من هنا كان إرسال الرُسُـل وبعثـة الأنبيـاء خاليـاً من أى معنى وتبرير؛ فـإنَّ الانبيـاء لا قـدرة لهم على هدايـة الكفار وذلك لأنَّهم مسـلوبو الإختيار، كما أنّه لا تأثير للأنبيـاء على إيمـان المؤمنين، فـإنَّ الجَبْر يحول دون انحرافهم، وبعبارة أُخرى: أنّ الأوّل محال، والثانى تحصـيل حاصل، وكلاهما غير ممكنين من وجهة نظر فلسـفية. الإمامة- التى هى اسـتمرار للنبوة- تبطل للسـبب السابق. وآخر أصل يبطل بالجبر هو امثال القران، ص: ۱۵۱ أصل المعاد؛ فإنَّ المعاد يبتنى على الاختيار. وعليه، إذا كان الناس جميعهم مجبورين ومسلوبى الاختيار فإنَّ الجزاء والجنة وجهنم والقيامـة والمعـاد كلها تكون مفاهيم دون معانٍ. وفى النهايـة، لا يمكننا أنْ نكون مسـلمين بالاعتقاد بالجبر، كما لا يمكننا على أساسـه قبول أصول الـدين «۱» ولهـذا على الشـيعة أن تشـكر الله على أنَّه لم يوقعها- ببركـة الائمـة المعصومين عليهم السـلام- فى وادى الجبر المظلم، كما لم يتركها تتسـيب فى صـحراء التفويض المظلمـة، بل سـلك الله بالشـيعة طريقاً بين المذهبين المنحرفين، وهو طريق الحق

المستقيم والواضح. إنَّ ما تدل عليه الآية هو: أنَّ الخطوة الأولى للهداية والضلالة يخطوها الإنسان نفسه، فاذا كانت هذه الخطوة باتجاه الهداية، فإنَّه سيكون مشمولًا للهداية الربانية، وإذا كانت هذه الخطوة باتجاه الضلالة فإنَّه سيكون مشمولًا للضلالة الربانية. سلمان الفارسى- مثلًا- تحرك من إيران وخطى باتجاه منبع الهدى، وتحمّل فى هذا السبيل المشاكل إلى مستوى أنّه أُخذ رقاً، لكن باعتبار أنّ خطاه الأولى كانت باتجاه الهداية، شملته هداية الله وشرح الله صدره ونال ما نال من جرّاء ذلك. أما أبو جهل وأبو لهب فرغم أنَّهما كانا بجنب منبع الهدى، إلَّا أنَّ خطاهما الأولى كانت باتجاه العناد والعداوة، أى اختارا طريق الضلالة تبعاً للشيطان وأغلقا أعينهما وأسماعهما للحيلولة دون رؤية أو سماع الحق ونداءه، لذا شملتهما ضلالة الله وضيّق الله صدورهما وأظلمها. وعلى هذا، فإنَّ الهداية والضلالة نتيجة لخطى الإنسان الأولى، والآية الشريفة كغيرها من الآيات لا تتنافى مع اختيار الانسان. «۲»

۲- الاعجاز العلمى للقرآن فى آية المثل

رغم أنَّ المُفسرين يعتبرون جملة «كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ» كناية عن الأمر المحال وغير امثال القران، ص: ۱۵۲ الممكن، إلّا أنَّه باعتبار التقدّم الملحوظ فى العلوم البشرية وامكانية الوصول إلى الفضاء، يمكن ذكر تفسير آخر لهذه الجملة يكشف عن إعجاز علمى للقرآن المجيد. «۱» يحيط الكرة الأرضية وإلى ارتفاع ۳۰ كيلومتراً مقدار من غاز الاوكسجين، والذين يفيدون من هذا الاوكسجين من الموجودات الحية يفيدون من المقدار الموجود إلى ارتفاع كيلومترات محدودة، اما الموجود فى الفضاء المرتفع فالإفادة منه صعب للغاية، بحيث بالنسبة للإنسان كلّما ارتفع عن سطح الأرض كلّما صعب عليه التنفّس وضاق. ولأجل ذلك قد يبتلى متسلقو الجبال بمشاكل عسر التنفس إذا ما ما تسلقوا جبالًا عالية، أى بلغوا مستوى يصعب بعده جذب الاوكسجين فى البدن، الأمر الذى قد يؤدى بهم إلى الغيبوبة، والموت بعضاً ما. ولنفس السبب تُجهَّز الطائرات بمعدات لتنظيم مقدار الاوكسجين فى الطائرة عند التحليق فى اماكن مرتفعة، واذا اختل عمل أجهزة الهواء فى الطائرة يضطر المسافرون للبس الاقنعة الخاصة التى تمدّهم بالاوكسجين والتى أعدت للحظات من هذا القبيل، واذا تعسر الافادة من ذلك تضطر الطائرة للتحليق فى ارتفاعات أدنى للحفاظ على حياة المسافرين. فى الوقت الذى نزلت فيه الآية لم يكن الإنسان على علم بهذه القضية العلمية إلَّا أنَّ القرآن المجيد فى ذلك الزمان (۱۴۰۰ سنة قبل) كشف عن هذا اللغز العلمى وقال بعدم امكان الافادة من الهواء فى الفضاءات المرتفعة، وشبَّه الضالين بأولئك الذين يريدون التنفس فى تلك الفضاءات.

۳- شرح الصدر

عندما بلغ النبىّ موسى عليه السلام مقام النبوة، طلب من الله عدة أشياء، منها: شرح الصدر حيث جاء: «قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ...». «۲» امثال القران، ص: ۱۵۳ نال الرسول صلى الله عليه و آله هذه النعمة الإلهيّة العظمى دون أن يطلبها من الله: «أَلَمْ نَشْرَح لك صَدْرَكَ». «۱» ما معنى شرح الصدر باقتضاب؟ لا يعنى الصدر ذلك القسم العلوى من البدن، بل يعنى الروح والفكر. وعلى هذا، فشرح الصدر يعنى الروح المنفتحة والفكر المنفتح، أى منشرح الصدر هو صاحب الفكر العميق والصبر والتأنى الفكرى والروحى بحيث لا يتزلزل أمام أبسط الحوادث أو أشدها. ولهذا كان شرح الصدر أحد أهم مستلزمات الترقى والتعالى نحو الله تعالى.

الرسول صلى الله عليه و آله وجاره اليهودى

كان للرسول صلى الله عليه و آله جار يهودى يلقى فضلات بيته وجمر ناره على الرسول عند مروره من بيته، وكان يمارس هذا العمل يومياً، وفى يوم مرّ الرسول من بيت اليهودى ولم يواجه الظاهرة اليومية التى كانت تصدر من اليهودى، فسأل الرسول أصحابه؟ فأجابوه بأنه مريض، فذهب الرسول لعيادته، وطرق الباب وكانت إمرأته خلف الباب فسالته عمّا يريد فأجابها أن الهدف هو العيادة ففتحت له

الباب، وكان سلام الرسول صلى الله عليه و آله وتحياته لليهودى تبدو وكأنَّ اليهودى لم يكن من المؤذين للرسول يومياً. عندما شاهد اليهودى هذه المعاملة من الرسول سأله عمّا إذا كانت هذه الاخلاق من صلب الدين الذى يدعو له؟ فاجابه بالايجاب. ونجد الكثير من هذه النماذج فى سيرة الرسل والأئمة وعلماء الدين. على سبيل المثال، كتب شخص فى شيراز رسالة إلى أحد علماء تلك المدينة يهجره ويشهّر به فيها، فيرى العالم ذلك الشخص الكاتب فى الغد ويقول له: (لقد رميت الرسالة التى كتبتها لى «۲» يبدو أنك تعانى من مشكلة مالية، فخذ هذا المبلغ لعلَّ مشاكلك تُحل به). امثال القران، ص: ۱۵۴ ففرح كاتب الرسالة وكان يقول مع نفسه (كان خيراً أن السيد لم يقرأ رسالتى). على المسلم أن يتأسَّى بالرسول صلى الله عليه و آله وأن يشرح صدره ويوسع فيه، وأن تكون همّته أرفع من أن يتنازل ويضعف أمام المشاكل؛ بل عليه أن يتحمّل ولا يكفر بالنعم لكل مشكلة يواجهها ولو كانت صغيرة، وما عليه أن يحقد ويسعى للإنتقام. إلهى ببركة هذا الشهر (رمضان) اشرح صدورنا ووفقنا جميعاً لتحمل ما لا نستسيغه.

المثل الرابع عشر: المبدأ والمعاد

اشارة

يقول الله تعالى فى المثل الرابع عشر من امثال القرآن الجميلة فى الآية ۵۷ من سورة الأعراف: «هُوَ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرَاً بَيْنَ يَدَى رَحْمِتِه حَتَّى إذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالًا سُقْنَاه لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فأنْزَلْنَا بِهِ المَاءَ فأخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلّ الثَمَرَاتِ كَذلك نُخْرِجُ المَوتَى لَعَلَّكُم تَذَكّرُونَ».

تصوير البحث

جاءتنا الآية بخطابين مصيريين، هما صدر الآية الذى تضمّن التوحيد ومعرفة الخالق وببرهان مقنع على المبدأ، وذيل الآية الذى تضمّن مثلًا جميلًا أشار به إلى عالم الآخرة والمعاد.

أهمية المبدأ والمعاد

إن المبدأ والمعاد من المسائل المهمة جداً والتى طرحت فى القرآن بشكل واسع بحيث اختص ما يقرب الالفين من الآيات (أى ثلثا القرآن) بالمعاد، كما أن ثلث الآيات اختصت بموضوع المبدأ. وهذا الأمر يكشف عن أهمية المبدأ والمعاد. إنّ القضايا التى تناولتها الآيات هى من قبيل العدل الإلهى والجنة والنار، ودفتر الاعمال وتجسّم الأعمال والمعاد الجسمانى وثمار الجنة وغير ذلك. وسر الاهتمام البالغ بالمعاد واضح، من حيث أنَّ الإنسان لا يمكنه أن يقع فى طريق السعادة ولا يمكنه أن يخطو فى هذا الطريق إلَّا أنْ امثال القران، ص: ۱۵۶ يكون معتقداً بالأصلين المهمين، الأول: هو المبدأ أو التوحيد والثانى: هو المعاد أو رجوع الإنسان إلى الله. إنّ الإعتقاد بالله يعلِّم الإنسان أنَّ الله يراقبه فى كل زمان ومكان «وَهُوَ مَعَكُمْ أيْنَمَا كُنْتُمْ». «۱» والإعتقاد بالمعاد يعلِّم الإنسان أنَّ الله لا يخفى عليه شىء وهو عالم بأعمال الإنسان جميعاً «عَلِيْمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ»، «۲» «يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأعْيُنِ وَمَا تُخْفِى الصُّدُورَ». «۳» وحسب ما جاء فى الآيات، يُدرس سجل الإنسان يوم القيامة فى محكمة العدل الإلهى، وهى محكمة لا يمكن إغواء القاضى فيها كما لا يمكن انكار شهودها، فقد جاء فى الآية الشريفة: «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّة خَيْراً يَرَه وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّة شَرَّاً يَرَه»، «۴» كما جاء فى الآية الشريفة التالية: «لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرةً إلّا أحصَيها» «۵» فالإنسان مسؤول على جميع أعماله ولو كانت صغيرة جداً. إنّ الإلتفات إلى الاصلين يجعلان من الإنسان أن يعتبر الله ناظراً على أعماله، الأمر الذى يحول دون ارتكابه المعصية. كما أنّ الغفلة عن ذلك يترك للشيطان فجوة ينفذ من خلالها، كما قالت ذلك الآية الكريمة: «وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانَاً فَهُوَ لَهُ قَرِيْنٌ». «۶»

المعاد الجسمانى والمعاد الروحانى

المعـاد من وجهـة نظر القرآن جسـمانى وروحانى، أى أنَّ جسم الإنسان يحشـر يوم القيامـة كما تحشـر روحه. وبعبارة أُخرى: أنَّ روح الإنسان تكون مشـمولة لنعم الله ونقمه، كما هو الحال بالنسـبة إلى جسـمه، وذلك هو مقتضـى العدل الالهى، فكما أنَّ الإنسان بجسمه وروحه عمل امثال القران، ص: ۱۵۷ خيراً أو شـراً، ففى القيامة ينبغى أن ينال كلٌّ من الروح والجسم نصـيبه وجزاءه من العمل الدنيوى من ثواب أو عقاب. إنَّ ما أثار دهشـة وإعجاب منكرى المعاد فى صدر الإسـلام هو القول بالمعاد الجسـمانى لا الروحانى؛ وذلك لأنَّ عقـل أكثر الناس فى عيونهم فيصـدقون ما يرون ويكـذبون ما لم يروا. من هنا كان يسأل منكرو المعاد: كيف يمكن أن يحيى الإنسان بعد ما تبدل إلى تراب بعد الموت بحيث يتعذّب يوم القيامة؟ فأجابهم الله على شـبهتهم هذه فى الآيتين ۷ و ۸ من سورة سبأ حيث قال: «قَالَ الَّذينَ كَفَرُوا هَلْ نَـدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيـدٍ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذينَ لَا يُؤمِنُونَ بالآخِرةِ فِى العَـذَابِ والضَّلالِ البَعِيْـدِ». «۱» لقـد تمسـك القرآن المجيـد بالمثل لاثبات المعاد الجسـمانى والروحانى، كما هى سيرته فى تفهيم المطـالب لمخاطبيه. وقـد أفاد هنا من ثلاثـة أمثال: ۱- التمثيـل بالنباتات وتشبيه الحياة بعـد الموت بإحياء النباتات بعد موتها. ۲- التمثيل بالمراحل الجنينيـة لخلق الإنسان حيث تبـدأ حياته بنطفة صـغيرة تنمو كل يوم، ويُعدُّ كل يوم من هذه المراحل حياة جديـدة لهذا الجنين. ۳- التمثيـل بنوم أصـحاب الكهف، فـإنَّ نومهم كـان بمثابـة الموت، ويقظتهم كـانت بمثابـة الحياة الجديـدة بعد سنوات عديدة. كيف يمكن لشـخص أن يستيقظ من النوم سالماً بعد أكثر من ثلاثمأة سـنة دون أن يأكل أو يشرب خلال هذه الفترة؟ حسب مـا أقرته الآيـة، انَّ أصـحاب الكهف نـاموا مـدّة مليون يومـاً، وخلالـ هـذه الفترة لم يتنـاولوا شـيئاً من الطعام أو الماء رغم هـذا استيقظوا سـالمين، مع أنَّ الإنسـان العـادى لا يسـتطيع العيش لأكثر من يومين أو ثلاثـة دون أكل وشـرب. من عجائب خلق الإنسان هو قلبه، فـان ضـرباته تصـل إلى مـأة الف ضـربة فى اليوم. وإذا امثال القران، ص: ۱۵۸ اعتبرنا عمر الإنسان العادى سـبعين عاماً، فإنَّ عـدد ضربات قلبه سـتصل إلى ۲۵۰ مليون ضـربة (عَجَباً لِحِكْمَـةِ اللهِ)! إنَّ قلب الإنسان كافٍ لأجل معرفـة الله ولأن يقرّ الإنسان بعظمة الخالق ويخضع له ... وعليه، فاذا كانت أجسام أصـحاب الكهف تعيش بالأغذية التى تناولتها قبل النوم ولمدة مليون يوماً، فإنَّ على قلوبهم أن لا تـدق فى اليوم الواحـد أكثر من مرّة واحدة. وعلى هذا، فإنَّ أصـحاب الكهف كانوا أشـبه ما يكونون بالموتى، أحياهم الله بعد أكثر من ثلاث مأة عام. واذا كان الله قادراً على أن يوقظ أناساً بعـد مليون يوم من النوم، فكيف لا يمكنه أن يُحيى الموتى! لهـذا يصـرّح الله فى ذيل آية أصحاب الكهف بالحديث التالى: «وَلِيَعْلَمُوا أنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ».

الشرح والتفسير

إنّ الآيـة إحـدى الآيات الثلاث التى شـبهت المعاد بإحياء النباتات «هُوَ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ ...» أى أنَّ الله يُرْسِـله كبشـرى لنزول الغيث؛ وذلك لأن السـماء تتهيّأ للمطر بواسـطة الرياح. «حتَّى إذَا أقَلّتْ سَحَاباً ثِقَالًا ...» أى تستمر الرياح حتى تجتمع الغيوم ويتراكم فيها الماء. «۱» إنّ الله يُرسـل الرياح ليجمع بها الغيوم الممطرة فى المـدن والبلاد الميتـة فيحييها ويحيى أراضـيها. «فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ...» فإنَّ المَطر هو الذى يثمر الاشـجار ويمنحها القدرة على انتاج الفواكه. «كَذَلك نُخْرِجُ المَوْتَى لَعَلَّكُم تَذكَّرُون» أى أنَّ الله يحيى الموتى يوم القيامة مثلما يحيى الأشجار والاراضى الميتة. وفى نهاية الآية يعتبر الله التذكّر وتوعية الناس هو فلسفة المثل.

فواكه مختلفة من ماء وهواء وتراب واحد

كمـا قلنـا سابقاً: إنَّ التعود من حجب المعرفـة الإنسانيـة، فالإنسان عنـدما يتعوّد على شـىء سوف لا يفكر فى ماهيته وسبر غوره، وهـذا حجاب عظيم. ومن هنا كان إنبات النباتات المتنوعـة وإثمار الاشـجار المتنوّعـة من عجائب الطبيعـة. فإنَّ هذا من مظاهر قدرة الله تعالى حيث تنبت من تراب وماء وهواء واحـد ثمار وزهور متنوّعـة بألوان مختلفـة وطعم متفاوت. وهذا يدعو الإنسان أن لا يتعجّب من إحياء

الإنسان يوم القيامة. لقد خلق من هذه الارض الواحدة أصناف عديدة من البشر منهم الصالحون والأنبياء والائمّة والشهداء، ومنهم الفجرة والوضيعون مثل الفراعنة والنماردة ومعاوية وصدام و ... فكل هؤلاء مبعوثون من هذه الأرض الواحدة. إنَّ الإنسان من خلال مشاهدته لهذه الظواهر يرى لقطات من المعاد وتتكرّر عنده هذه اللقطات كل يوم إلى حين الممات. والعجيب أنَّ السماء تمطر فى يوم البعث، وذلك المطر يحيى من فى القبور جميعاً. «۱» القانون الكلى الذى يستفاد من الآية الشريفة هو أنَّ مبادىء الموت والحياة واحدة فى جميع المخلوقات الحية، فكما أنَّ هناك حياة بعد ممات فى النباتات كذلك بالنسبة إلى الإنسان. سؤال: فى عالم النبات نتمكن من إعادة حياة نبات ما من خلال زرع بذوره، اما فى عالم الإنسان فالأمر يختلف من حيث انه إذا مات يتبدل إلى تراب، فكيف يمكن إعادته من تراب؟ الجواب: إنّ الحياة الثانية للنبات ليست من خلال البذور دائماً، بل قد تكون حياة وموت النبات شبيهة بحياة الإنسان وموته، فقد تصفرّ أوراق الاشجار فى الخريف وتسقط، وبعد مدة تصبح تراباً تمتصها جذور الشجرة لترجع ورقة من جديد وهذا ما يحصل فى الربيع، وبهذا تحيى الورقة الميتة مرة أخرى رغم أنّها ماتت بالكامل وتبدلت إلى تراب، فالانسان كذلك يموت بالكامل ويُبعث مرة أُخرى. وعلى هذا، فالإنسان يرى- كل عام- المعاد بعينه، لكنه يغفل عن أنَّ الله القادر على إحياء النبات بعد موته قادر على إحياء الإنسان الميت.

آثار المعاد

إنّ الاعتقاد بالمعاد يعلّم الإنسان الخضوع والتسليم إلى الحق، وأنْ لا- يظلم ولا- يخون، وهذا ما نراه منعكساً فى كلام جميل لمولى المتقين الإمام على عليه السلام فى الخطبة ۲۲۴ من نهج البلاغة يخاطب به أخاه عقيل: «والله لأنْ أبيت على حسك السّعدان «۱» مسهداً، أو أجرَّ فى الأغلالِ مصفّداً، أحب إلىَّ من أن ألقى الله ورسوله يوم القيامة ظالماً لبعض العباد». أى أنَّ المبيت على أشواك نبات السعدان أو الجرّ بالأغلال والسلاسل فى النهار أحبُّ لعلى من أن يلاقى الله ورسوله يوم القيامة وهو ظالم لبعض عباد الله. هل من المحتمل صدور ظلم من هكذا زعيم عارف بالمبدأ والمعاد ومتيقن بهما؟! هل يحتمل صدور تمييز من حاكم كهذا؟ هل يقبل أو يتحمّل هكذا رئيس أقل خطأ من حواشيه؟! قطعاً جواب هذه الأسئلة هو النفى، فإنَّ إنساناً كهذا يعتقد بيوم القيامة والمعاد يعظّم الذنب ولو كان صغيراً، فلا يرتكبه. وينقل من خلال الخطبة ذاتها قصتين ذات عبرة عن أخيه عقيل و المنافق الأشعث بن قيس، وفى القصتين آثار الاعتقاد بالمعاد واضحة وجلية. «۲»

المثل الخامس عشر: البلد الطيّب

اشارة

يقول الله فى مثله الخامس العشر، فى الآية ۵۸ من سورة الاعراف: «وَالبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بإذْنِ رَبِّهِ وَالّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إلَّا نَكِداً كَذَلك نُصَرِّفُ الآياتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ».

تصوير البحث

إنَّ هَذه الآية الشريفة التى جاءت مباشرة بعد المثل الرابع عشر هى فى الواقع استمرار لبحث المعاد وجواب عن سؤال مقدّر قد تتداعى معانيه فى أذهان البعض، وسنأتى به فى الصفحات المقبلة.

إشارة للمثل السابق

فى المثل الرابع عشر (الآية ۵۷ من سورة الاعراف) جاء القرآن فى بيان جميل ببرهان على المبدأ وأصل التوحيد، كما استدل على المعاد وعالم الاخرة. إنّ حركة الرياح واجتماع الغيوم الثقيلة ونزول المطر وإحياء الأرض بعد مماتها، وتوفّر الثمار المتنوّعة والأزهار والنباتات والاشجار المختلفة كلها أدلة قاطعة على التوحيد، وهى أدلة لو لم يكن غيرها لكانت كافية فى إثبات المراد. مِمَّا لا شك فيه أنَّ آثار موت تبدو على البستان كله بحلول فصل الشتاء بحيث تصبح امثال القران، ص: ۱۶۲ الاشجار وكأنها مهمومة وجرداء من الروح، لكن بعد فترة من الزمن أى بعد حلول فصل الربيع تبدأ الحياة الجديدة تنبض فى البستان، فتخضرّ الاشجار و تتفتح الزهور وتنمو النباتات المختلفة وتثمر الاشجار فواكه حامضة وحلوة بألوان متنوّعة بحيث تضفى طراوة على روح الإنسان. هذه الطبيعة المدهشة دليل قاطع على وجود الله القادر المطلق، واذا ما فكّر الإنسان بورقة خضراء فقط لكان ذلك كافياً لمعرفة الحق. إنَّ هذه الورقة- كما يقول العلماء- إذا قصت من العرض فيبدو فيها سبع طبقات، كل طبقة منها تحضى ببناء خاص ومهام خاصة، إذا دققنا قليلًا نجد خطوطاً رَفِيعة على هذه الورقة الظريفة وكأنها تشبه تأسيسات الماء فى مدينة، وهى تتكفل بايصال الأغذية والماء إلى الاقسام المختلفة من الورقة. مَن الذى خلق هذه الطبقات الظريفة والجميلة؟! يا له من خالق حكيم صمَّم هذه الشبكة العظيمة والدقيقة. إنَّ الورقة وما فيها يُعدُّ كتاباً لمعرفة الخالق لمن كان أهلًا للعلم المعرفة. إذن، صدر الآية يدل على التوحيد، أما ذيلها «كَذِلك نُخْرِجُ المَوْتَى» فيدل على مسألة المعاد ويرشدنا إليها.

الشرح والتفسير

كما قلنا سابقاً: إنّ الآية الشريفة جواب لسؤال مقدّر يمكن أن يتداعى فى ذهن الذى يلتفت إلى الآية السابقة، وهو: إذا كان الماء واحداً والهواء واحداً والتراب واحداً فلماذا تنبت الزهور والنباتات فى بعض البقاع، وتنبت الأدغال والأشواك فى البعض الآخر؟ وإذا كان وابل الرحمة الإلهية يصبُّ على القلوب جميعاً بشكل متساوٍ، فكيف أنَّ بعض القلوب تهتدى وتكون مصداقاً للبلد الطيّب وبعضها الآخر يكون مصداقاً للبلد الخبيث؛ لأنها ظلّت ولم تهتدِ؟ إنّ الآية فى صدد الأجابة على هذا السؤال، حيث تقول: «وَالبَلَدُ الطَّيِّبَ يَخرُجُ نَبَاتُهُ بإذنِ رَبِّهِ» فإنَّ التربة الطاهرة وغير المالحة تكون مناسبة ولائقة وتُخرج باذن الله نباتات مناسبة وجيّدة، كذلك القلوب المستعدة والطاهرة ينمو فيها الثمار الحلو من الاخلاص والصفاء، ذلك كله بوحى من الله. امثال القران، ص: ۱۶۳ «والَّذى خَبُثَ لا يَخْرِجُ إلَّا نَكِداً» فإنَّ الأرض غير المناسبة لا تنبت إلّا النكد. والنكد يعنى الإنسان البخيل، ويُطلق على النباتات غير المفيدة التى تنمو فى الأراضى المالحة. فكما أنَّ البخيل لا يصل نفعه إلى غيره، كذلك الأراضى المالحة لا يخرج منها الشىء المفيد ولا ينتفع بها أحد. «كَذَلك نُصَرِّفُ الآياتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ» أى أنا نبيّن آيات الله للناس بعبارات وأمثله بسيطة ليستفيدوا منها ويشكروا ربّهم عليها. وعلى هذا، فلا اشكال على وابل الرحمة الإلهيّة ولا على الوحى السماوى؛ وذلك لأنَّ هذين الرحمتين تنزلان على القلوب كلها بشكل متساوٍ، واذا كان هناك قصور أو تقصير فمن نفس القلوب والأراضى ذاتها، فإنَّ بعض الأراضى غير مستعدة وغير مؤهّلة لنمّو النباتات فتنمو فيها الأشواك والأدغال فحسب، كذلك بعض القلوب فإنَّها غير مؤهلة للهداية وترى نفسها فى غنى عن الوحى الإلهى.

لِمَن هذا المثل؟

هناك بحث فى هذا المجال بين المفسرين، فالكثير منهم يعتقد أنَّ الآية جاءت فى الكفار والمؤمنين، أى شُبِّه الوحى الإلهى هنا بالغيث، باعتباره ينزل على جميع القلوب، لكن لا يفيد منه إلّا ذلك البعض الذى يكون مصداقاً للبلد الطيّب، أى يحضى بقلب طاهر، وتكون ثمار هذه الاراضى الطاهرة هى الاخلاق الحسنة والايمان القوى والشوق إلى أولياء الله، والاخلاص فى العمل، والعمل بما تستدعيه الوظيفة و ... وفى مقابل هؤلاء هم الكفّار الذين قلوبهم تشبه الأراضى الملوّثة التى لا تستفيد من المطر شيئاً.

خطابات الآية

۱- فاعلية الفاعل وقابلية القابل كلاهما ضروريان

إنَّ الآيـة الشـريفة وكـذا آيات أخرى تشـير إلى مطلب مهم، وهو: ضـرورة توافر شـيئين لبلوغ الكمال: الف- فاعليـة الفاعل. باء- قابلية القابـل. امثال القران، ص: ۱۶۴ لأجـل بلوغ الكمـال والرقى ينبغى توافر العوامل كما ينبغى توفير الأرضـية. وعلى هـذا، ففاعليـة الفاعل (الغيث) ليس كافياً، بل ينبغى أنْ يَكُون القابل قابلًا (اسـتعداد الأرض وشأنها) فإنَّ المطر لو هطل مـدة مأة عام على الأرض المالحة لما أنبتت هـذه الأرض ولا زهرة واحـدة. إنَّ الرسول صـلى الله عليه و آله كما دعى سـلمان وأبا ذر والمسـلمين الآخرين للإسـلام كذلك دعى أبـا جهـل وأبا لهب وباقى الكفار، فالقلب الطاهر لسـلمان أنبت الإيمان، لكنّ الـدعوة لم تنبت فى قلوب أبى جهل وأبى لهب إلَّا البخل والبغض.

۲- مردودات القرآن والوحى على الكافر عكسية

آيـات القرآن فى بعض الأحيـان لاـ أنها لا تكون هاديـة فحسب، بل قـد تكون ضالـة لأولئك الـذين ساءت طينتهم من الكفار، فإنّهم بسـماعهم للآيات يزدادون ضـلالة. إنّ هـذا الأمر بيّنته آيات من القرآن، منها الآية ۱۲۴ و ۱۲۵ من سورة التوبـة: «وإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَنْ يَقُولُ أَيُّكُم زَادَتْهُ هذِهِ إِيمَاناً فأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُم إِيْمَاناً وَهُم يَسْتَبْشِرُونَ وأَمَّا الّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُم رِجْسًا إلى رِجْسِـهِم وَمَاتُوا وَهُم كَافِرُونَ». سؤال: كيف يمكن للآيات القرآنية المنيرة أن تكون سـبباً لضـلال البعض؟ الجواب: أنّ القرآن المجيد بمثابـة المصـباح الـذى اذا وقع بيد أحد العلماء أفاد منه لأجل العلم والاكتشاف والاختراع والتقدّم، وهو بذاته اذا وقع بيد لصّ أفاد منه لأجل سـرقة أشـياءٍ ثمينـة، وبـذلك تزداد ذنوبه وآثامه. الإشـكال هنا ليس من المصـباح ذاته، بل من قابليـة القابل، كذا الحال بالنسـبة للغيث حيث إنتاجه يتوقف على نوعيـة الأرض، فاذا كانت جيدة نبتت فيها الزهور والنباتات الصالحة واذا كانت مالحة وغير مؤهلة نبت فيها الأدغال والأشواك. «فَزَادَتْهُم رِجْساً إلى رِجْسِـهِمْ» فإنَّ الآية اذا نزلت فزعوا للمخالفة والعناد والعداوة، لذلك لا عجب إذا قلنا: إنَّ آيات القرآن قد تسبب للضالين ضلالة أكثر.

الناس ثلاثة أصناف

لِإيضاح هـذا المطلب (الـذى يتناول قابليات الناس المختلفـة) نأتى بكلام لأمير المؤمنين عليه السـلام مخاطباً فيه كميل بن زياد بعـد ما دعاه إلى المقبرة، وعنـد بلوغهما الصـحراء قال الإمام له بعد أن تأوّه: «يا كميل بن زيادٍ إنّ هذه القلوب أوعية فخيرها أوعاها». وكمثال نقول: إنَّ النـاس يختلفون فى إفادتهم من المطر، واحـد منهم يفيـد من المطر بمقـدار بحيرة ماء، وذلك لسـعة ظرفيته والآخر يفيـد منه بمقدار كأسٍ صـغير، وذلك لأنه لا يسـتوعب أكثر من ذلك. وقد يكون هناك شـخص لا يفيد من المطر أبداً، لأنه قد قلب إناءه على ظهره. والمثال يوضـح أنَّ الإشـكال ليس من جانب الله بل من جانب الأوعيـة التى تُهيّئ للافادة من ماء المطر .. ثمّ يخاطب الإمام أمير المؤمنين عليه السـلام كميـل قائلًا: «فاحفـظ عنّى مـا أقول لـك النّاس ثلاثـة: فعالم ربّانى ومتعلم على سبيل نجاةٍ وهمـجٌ رُعاعٌ» أى أنَّ الناس ثلاثة أصناف: ۱- الصنف الأول هو صنف العلماء الذين طووا طريق الحق والحقيقة ويسعون لارشاد الناس وتربيتهم. ۲- والثانى هم الذين يفقدون العلم لكنهم يسعون فى سبيل تحصيله العلم وكسب المعرفة. ۳- والثالث هم الحمقى من الناس الذين لا يعلمون ولا يسـعون لأـن يعلموا ولاـ يسألون أهل الطريق لإرشادهم إليه. يوضـح الإمام خصال الصـنف الثالث فى أربع: الف- أتباع كلّ ناعق، أى يتّبعون أصـحاب الرايات المختلفـة دون علم وبصـيرة. باء- يميلون مع كلّ ريـح، فهم كالريـح تهزّهم الـدعوات المختلفة وتميلهم إلى جنبها، ومثلهم كمثل الذين قاتلوا تحت راية الرسول فى عصـره، وقاتلوا تحت راية معاوية بعد وفاته، ولو كان الأجل يسمح لهم لقاتلوا

تحت راية يزيد كذلك؛ وذلك كله لأجل أن الريح آنذاك كان بهذا الاتجاه. جيم- لم يستضيئوا بنور العلم، فهم المستضعفون المحرومون من العلم. دال- لم يلجؤوا إلى رُكن وثيق، أى لا أنهم يفقدون العلم فحسب، بل لا يعتمدون على أعمدته المحكمة. «۱» امثال القران، ص: ۱۶۶ إنَّ الصنف الثالث وهم ذووا الأوعية الصغيرة أشخاص خطرون، كما أنَّهم مصداق للآية الشريفة «والَّذى خَبُثَ»، إلّا أنَّ الصنف الأوّل والثانى مصاديق للآية الشريفة: «البَلَدُ الطيِّبُ».

الفاعلية اكتسابية أم جبرية؟

قابلية القابل- التى هى شرط الكمال- اكتسابيه أم جبرية؟ وبعبارة أخرى: هل أنّ الله خلق بعضاً بقابلية ضخمة وخلق آخرين مع قابلية ضعيفة؟ إنّ قابلية القابل اكتسابية لا جبريّة؛ وذلك لأنّ القول بجبريتها يعنى عدم ترتب الذنب على الشخص الذى ينبت قلبه الرياء بدل الاخلاص، وما عليه من عقاب، كما أنّه لا فائدة فى بعثة الأنبياء. من هنا نقول: إن الإنسان كلّما سعى لكسب التقوى والمعرفة الإلهية أكثر، كلّما استعدّ قلبه أكثر لقبول الوحى الإلهى والآيات القرآنية. إنّ القرآن يُوكّد على كون الإنسان مخلوقاً بأفضل شكل وصورة «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسَانَ فِى أحْسَن تَقْوِيم»، «۱» ووفقاً لهذه الآية فانه لا فرق فى خلق الناس، والهداية والضلالة يتوقفان على الإنسان ذاته. وحتى الشيطان لم يُخلق خبيثاً، ولذلك كان فى صفوف الملائكة وعبد الله ستة آلاف عاماً. «۲» نعم، انَّ الناس يختلفون عن بعضهم البعض، ليس بمعنى أنَّ بعضهم خلق حسناً وبعضهم الآخر خلق سيئاً، بل فى أن بعضهم خلق حسناً وبعضهم الآخر أحسن، لذلك قال رسول الله صلى الله عليه و آله: «الناس معادن كمعان الذهب والفضة». «۳» فى النتيجة لم يخلق إنسان شقياً أو خبيثاً، وقابلية القابل اكتسابية لا جبرية. إنَّ المطر يهطل شفافاً وزلالًا لكنّه يتسخ عندما يلتقى بالأرض الوسخة، لكنه يبقى نظيفاً عندما يقع على امثال القران، ص: ۱۶۷ الأرضى النظيفة، فيبقى على فطرته وطهارته. إنّ البيئة الموبوئة والكتب المنحرفة والمفاهيم الفاسدة والأصدقاء السيئين والعائلة غير السليمة هذه كلها بمثابة الأرض الملوّثة، تلوّث قلب الإنسان الطاهر وفطرته النقية. أيُّها الشباب الاعزة! يا أمل الإسلام والثورة والوطن! إن الله خلقكم كقطرة المطر الشفافة الطاهرة، إسعوا للحفاظ على هذه الطهارة، واحذروا معاشرة صديق السوء، لأن هذا الصديق قد يغيّر مستقبل الإنسان بالكامل. من وجهة نظر الإسلام، ليس أداء الذنب لوحده معصية، بل الحضور فى مجلس يرتكب فيه الذنب يُعدُّ محرماً ومعصية. أى إذا حضر الإنسان فى مجلس يُعصى فيه الله فإنَّ حضوره فى هذا المجلس يُعدُّ معصية كذلك، رغم أنّه لم يفعل الذنب الذى اقترف فى المجلس، وذلك لأنَّ المحيط الملوّث يؤدى إلى التلوث تدريجياً، ويفقد الذنب آنذاك قبحه تدريجياً الأمر الذى قد يؤدى إلى اقتراف الذنب فى المستقبل. إنَّ المتعاطين للمخدرات تعاطوها بهذا الشكل وبهذا الاسلوب. وعلى هذا، ينبغى السعى لأجل الحفاظ على نقاء الباطن، وتهيئة أرض القلب وإعدادها للافادة من وابل الرحمة اقصى إفادة. امثال القران، ص: ۱۶۹

المثل السادس عشر: العالم المنحرف

اشارة

يقول الله تعالى فى الآيات ۱۷۵ و ۱۷۶ و ۱۷۷ من سورة الأعراف فى مثله السادس عشر: «واتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأ الَّذى آتَيْنَاهُ آياتِنَا فانْسَلَخَ مِنْهَا فأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلكنَّهُ أخْلَدَ إلى الأرْضِ واتَّبَع هويَهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلْبِ إنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَلك مَثَلُ القَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بآيَاتِنَا فاقْصُصِ القَصَصَ لَعَلَّهُم يَتَفَكَّرُونَ».

تصوير البحث

الحديث فى الآيات الثلاث عن العالم الذى كان فى الطريق الصواب والصحيح وبلغ فى هذا الطريق مقامات رفيعة، إلّا أنّه تدريجياً انحرف وطُرد من الساحة الربانية، فيشبّه الله هذا العالم بالكلب ليعتبر الآخرين منه.

شأن نزول الآية

هناك بحث وخلاف بين المفسرين حول المراد من هذا العالم الذى تحدثت عنه الآية. وأكثر المفسرين يعتقد أنَّه (بلعم بن باعورا) فهو من علماء بنى اسرائيل وقد نال بعبادته مقامات عليا إلى مستوى انه حصل على اسم الله الأعظم، وأصبح مستجاب الدعوة. وعندما بعث موسى (على نبينا وآله وعليه السلام) نبيّاً ونال هذا المقام الشامخ، كانت بعثته قد اثارت حسد بلعم، امثال القران، ص: ۱۷۰ وقد كان الحسد يزداد كل يوم، ويأكل حسناته شيئاً فشيئاً، كما أنَّ هذا الحسد من جهة، وحب الدنيا من جهة اخرى بلغا به إلى مستوى أن لجأ إلى فرعون وبلاطه ليصبح من وعّاظ السلاطين. ففقد بذلك كل افتخاراته وكانت عاقبته السوء. فبيّن القرآن قصة هذا العالم المنحرف ليكون عبرة للآخرين. يعتقد مفسرون آخرون أنَّ العالم فى الآيات هو (أمية بن الصلت) فهو من الشعراء المعروفين فى عهد الجاهلية، أسلم فى البداية، لكنه بعد ذلك شاكس وخالف؛ حسداً للرسول ومقام نبوّته. ويعتقد مفسرون آخرون أنَّ العالم هنا هو (أبو عامر النصرانى) فقد كان راهباً مسيحياً أسلم ثم التحق بركب المنافقين، ثم سافر إلى الروم للتحالف مع سلطانه، ثمّ رجع إلى المدينة والتحقق بدينه بعض المنافقين، وبنى مسجد (ضرار) المعروف. إنَّ القول الأوّل هو أصح الثلاثة، والآخران مستبعدان من حيث أنَّ صدر الآية «واتْلُ عَلَيْهِم نَبَأ الّذى ...» قرينة على حكاية قصة تتعلق بالأقوام السالفة. «۱»

الشرح والتفسير

«واتْلُ عَلَيْهِم نَبَأ الَّذى آتَيْنَاهُ آياتِنَا» يطلب الله من الرسول أن يحكى للأصحاب قصة ذاك العالم. المراد من الآيات هو أحكام التوراة ومواعظها، فإنَّ هذا العالم كان عالماً باحكام التوراة ومواعظها، كما كان عاملًا بها. ويعتقد البعض أنَّ المراد من الآيات هو الاسم الأعظم، ولهذا كان بلعم بن باعورا مستجاب الدعوة وكان صاحب نفوذٍ وجاه رفيع فى المجتمع. «فانْسَلَخَ مِنْهَا فأتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الغَاوِيْنَ» إنَّ مادة السلخ تعنى نزع جلد الحيوان، ولذلك قيل لمن ينزع جلد الخروف سلّاخاً. إلّا أنَّ كلمة (فاتبعه) لها معنيان: امثال القران، ص: ۱۷۱ الف- تعنى تبع ولحق، أى أنَّ الشيطان جعل العالم تبعاً له. باء- أنَّ الفعل استخدم هنا بمعناه لو كان ثلاثياً مجرداً بحيث يكون المعنى أنّ الشيطان اتّبع هذا العالم، بعبارة اخرى: أنّه سبق الشيطان فى الضلالة، وتجاوزه مهارة فى هذا المجال. مثله مثل ذلك الشخص الذى كان يفعل عملًا قبيحاً جداً بطريقة جديدة وكان يلعن الشيطان دائماً على فعله هذا، فظهر له الشيطان وقال: اللعن عليك لا علىَّ، لأنى رغم مهارتى فى الشيطنة ما كنت أعلم بهذه الطريقة، بل انت الذى علمتنى إياها. وعلى هذا، فالآية تعنى أنّ بلعم بن باعورا خُلِّى من آيات الله، وانسلخت هذه الآيات عنه رغم أنَّه كان يحيط بها جميعاً، لكنها انسلخت واتّبع الشيطان، أو أنَّ الشيطان اتّبعه، وكانت عاقبته الشر والشقاء فكان فى عداد الاشقياء والضالين. «وَلَو شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أخْلَدَ إلَى الأرْضِ واتّبَعَ هَوَاهُ» أى أنا لو أردنا إجباره على البقاء على الحق لفعلنا لكنّا تركناه لنرى ما يفعل باختياره وإرادته، وذلك لأنَّ فى الإسلام الاختيار لا الاجبار، «إنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إمَّا شَاكِرَاً وإمَّا كَفُورَاً» «۱» فالله يستطيع أن يجعل جميع الاعمال من قبيل الحج والصوم والصلاة جزءاً من غرائز الإنسان، كما جعل الأكل والشرب، لكنّه لم يفعل ذلك، بل خلق الإنسان حراً ومختاراً ليكون هناك هداية وتكامل وتقدّم واختبار وثواب وعقاب و ... ولكى لا تفقد هذه المفاهيم معانيها. وفى النهاية يكون معنى الآية هو: أنّا تركنا بلعم بن باعورا إلى نفسه، إلّا أنَّ هذا العالم المنحرف- الذى سبق وأن كان مبلغاً قوياً لموسى عليه السلام- تبع الهوى والهوس حباً للدنيا وحسداً من موسى عليه السلام وانجذاباً بوعود فرعون، وكان عاقبته الطرد من الساحة الربانية. وعلى هذا، فإنَّ شيئين كانا سبباً لسقوط بلعم بن باعورا هما: أوّلًا: حبّ الدنيا والميل إلى فرعون. وثانياً: الهوى واتباع الشيطان. «فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلْبِ إنْ تَحْمِل عَلَيْهِ يَلْهَثْ أوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ»، إنَّ الكلاب عادة

ذات منفعة متعارفة يفيد منها الإنسان ولذلك يصح اجراء معاملة عليها فى الفقه الإسلامى، إلّا أنَّ بعض امثال القران، ص: ۱۷۲ الكلاب تكون مسعورة دائماً إثر ابتلائها بداء الكَلَب، وهو مرض يجعلها تلهث دائماً وتصيح، وتفرز سماً، وإذا عضت الإنسان يمكن أن تؤدى هذه العضة إلى موته أو ابتلاءه بالجنون. والكلاب تُعد حينئذ فاقدة للقيمة لا تُجرى معاملة عليها؛ لأنَّها تفقد الفائدة اضافة إلى ما فيها من مضايقة للآخرين. علائم هذا المرض فى الكلاب هو أنَّها تفتح فمها وتحرك لسانها دائماً؛ وذلك لتخفِّف من الحرارة الداخلية التى تشعر بها، وحركة اللسان عندها بمثابة المروحة التى تدفع بالهواء لتبرّد الجسم. ومن علائمه أيضاً العطش الدائم ... وعلى كل حال يكون هذا الكلب مهاجماً. والقرآن بمثله الجميل هذا يشبِّه العالم المنحرف بالكلب الذى يفقد القيمة ويحمل أخطاراً كثيرة ... فحب الدنيا والهوى والهوس يُحرف العالم ويفقده البصر والبصيرة بحيث يصبح لا يميز صديقه عن عدوّه. «ذَلِكَ مَثَلُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنَا فَاقْصُصِ القَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ» «۱» أى أنَّ هذا مثل المجتمعات التى كذّبت بآيات الله فاقصص- أيها النبىّ- على الناس وبخاصة اليهود والنصارى هذه القصص ليعتبروا منها، ولكى يعلموا أنَّهم إذا كذّبوا بايات الله فإنَّ مصيرهم سيكون كمصير بلعم بن باعورا.

خطابات الآية

خطر العلماء المنحرفين

لقد سقط بلعم بن باعورا من مقامه الرفيع من جراء حبه للدنيا وتبعيته للشيطان، وقد كان سقوطه بدرجه أن شبّهه القرآن بالكلب المتوحش الذى لا يرحم شخصاً وكأنّه مجنون. إنّ حب الدنيا والهوى والتبعية للشيطان أجنّت عالماً كان قد حصل على الاسم الأعظم، وكان جنونه بشكل يبدو عطشاناً للدنيا دائماً ولا يبدو مرتوياً منها أبداً، إنَّ عالماً مثل هذا يحمل معه امثال القران، ص: ۱۷۳ أخطاراً جمّة نشير إلى بعض منها هنا: الف- أنَّ عالماً كهذا يكون فى خدمة الظلمة، كما هو الحال بالنسبة إلى وعّاظ السلاطين الذين كانوا فى خدمة أهل الجور من الحكام والملوك. ومن الواضح أنَّ خطر علماءٍ كهذا لا يقل عن خطر الظلمة ذاتهم. أراد سلطان فى العصور الماضية أن ينفذ مشروعاً خاصاً، فطلب أحد علماء البلاد يسأله عن رأى الشارع فى المشروع، فأجابه العالم: (إن رأى الشارع متسع، والأمر يتوقف على إرادة السلطان) أى يمكنه أن يجعل مخرجاً شرعياً لكل ما يريد السلطان. نعم، انَّ علماء كهذا يمكنهم أن يبرروا ظلم السلاطين الظلمة! هؤلاء هم الذين يحكّمون أسس الظلم، ويصرفون الناس عن أى رد فعل تجاه الظلم. إن علماء كهؤلاء، استطاعوا فترة حكومة بنى امية وبنى العباس أن يزوّروا أحاديث الرسول صلى الله عليه و آله والأئمة عليهم السلام ويمتدحوا فى بعضها سلاطين ظلمة من سلسلة بنى العباس وبنى امية! باء- أنّ علماء كهذا يمكنهم أن يزلزوا الأسس الاعتقادية للناس؛ فإنَّ الناس العوام، عندما يشاهدون عالماً غير عامل، يتزلزل اعتقادهم فى الدين، بل قد يترددون فى حقائق من قبيل الجنة والنار ويوم الحساب والقيامة فيقولون لأنفسهم: (إذا كانت هناك قيامة فالآمرين بالدين والتدين أولى بأن يعملوا لذلك اليوم). وعلى هذا، فالسلاطين إذا أظلموا على الناس دنياهم، فالعلماء المنحرفون يُظلمون على الناس أُخراهم. جيم- العالم المنحرف يجرُّ الناس نحو الذنب. إنَّ الدول المخالفة للإسلام أسسوا فى القرن الأخير- لأجل مواجهة الإسلام- فرقة ضالة، ولأجل تقوية هذه الفرقة ربُّوا فى أحضانهم عالماً منحرفاً استطاع تأليف كتاب أيّد فيه الفرقة واستفاد فى تأييده للفرقة من الآيات، وكان كتابه بدرجة من الضلالة بحيث عدّت خدمته للفرقة أكثر من خدمة مؤسسها لها. من هنا على متعلمى المعارف الإلهية أن يعلموا أن سبب هكذا انحراف هو عدم الإخلاص، فإنَّ بعض الطلاب يبغى العلوم لا لوجه الله تعالى بل لأغراض دنيوية مثل الهوى والهوس وحب الدنيا، وبهذه الأغراض تتهدم آخرته لتصبح جحيماً. امثال القران، ص: ۱۷۴ الإنسان مهما بلغ من مقام، عليه أن لا يرى نفسه فى أمان من وساوس الشيطان، فإنَّ هذا الاحساس هو بداية الانحراف والسقوط، بل على الإنسان أن يكون دائماً بين الخوف والرجاء، الخوف من الهوى والهوس والوساوس الشيطانية، والرجاء

والأمل برحمة الله ولطفه، فهو أرحم الراحمين.

عالم الدين من وجهة نظر الإمام الحسن العسكرى عليه السلام

ينقل الفقيه الشيخ الأعظم الأنصارى- رضوان الله عليه- فى كتابه القيّم (فرائد الأصول) حديثاً جميلًا من التفسير الجليل المنسوب للإمام الحسن العسكرى عليه السلام نأتى به هنا: (ومثل ما فى الاحتجاج عن تفسير العسكرى عليه السلام فى قوله تعالى: «وِمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الكِتَابَ ...» الآية من أنَّه قال رجل للصادق عليه السلام: فاذا كان هؤلاء القوم من اليهود والنصارى لا يعرفون الكتاب إلّا بما يسمعون، ومن علمائهم لا سبيل لهم إلى غيره فكيف ذمهم بتقليدهم والقبول من علمائهم، وهل عوام اليهود إلّا كعوامنا يقلدون علمائهم؟ فإنْ لم يجز لأولئك القبول من علمائهم لم يجز لهؤلاء القبول من علمائهم. فقال عليه السلام: «بين عوامنا وعلمائنا وبين عوام اليهود وعلمائهم فرق من جهة وتسوية من جهة. أمّا من حيث استووا فإنَّ الله تعالى ذمَّ عوامنا بتقليدهم علمائهم كما ذمّ عوامهم بتقليدهم علمائهم. واما من حيث افترقوا فلا». قال: بيّن لى يا بن رسول الله! قال: «إن عوام اليهود قد عرفوا علمائهم بالكذب الصريح وبأكل الحرام والرشاء وتغيير الاحكام عن وجهها ... فلذلك ذمّهم لما قلدوا من عرفوا ومن علموا أنه لا يجوز قبول خبره ولا تصديقه ولا العمل بها بما يؤديه إليهم عمّن لا يشاهدوه. ووجب عليهم النظر بأنفسهم فى أمر رسول الله صلى الله عليه و آله ... وكذلك عوام امتنا إذا عرفوا من فقهائهم الفسق الظاهر والعصبية الشديدة ... فمن قلّد من عوامنا مثل هؤلاء الفقهاء فهم مثل اليهود الذين ذمهم الله تعالى بالتقليد لفسقة فقهائهم، فأمّا من كان من الفقهاء صائنا لنفسه حافظاً لدينه مخالفاً على هواه مطيعاً لأمر مولاه فللعوام أن يقلدوه وذلك لا يكون إلّا بعض فقهاء الشيعة لا جميعهم. فأمّا من امثال القران، ص: ۱۷۵ ركب من القبائح ... وآخرون يتعمدون الكذب علينا ... فضلوا أو أضلوا اولئك أضرّ على ضعفاء شيعتنا من جيش يزيد (لعنة الله عليه) على الحسين بن على عليه السلام». «۱» سؤال: لماذا كان العلماء المنحرفون أسوأ حالًا من جنود يزيد؟ الجواب: إنَّ جند يزيد أعلنوا بصراحة عدائهم، إلَّا أنَّ علماء السوء بمثابة الذئاب الذين تقمصوا قمصان الرعاة وهم يكيدون بالدين باسم الدين. وواضح أنَّ خطر هؤلاء أشدّ من خطر من أعلن عدائه بصراحة. إنَّ ما يفتخر به الشيعة هو أنّهم خلال العصور الماضية كانوا تبعاً للمراجع والعلماء الذين اجتمعت فيهم شرائط الزعامة حسب ما أراده الأئمّة عليهم السلام، وأنَّهم كانوا ولا زالوا تحت مضلّة وألطاف هؤلاء العظماء. ولا شكّ أن تقليد علماء زهّاد ذوى بصيرةٍ لا أنّه غير مذموم فحسب بل واجب حسب ما نستشفه من آيات القرآن وروايات أهل البيت عليهم السلام. امثال القران، ص: ۱۷۷

المثل السابع عشر: مسجد ضرار

اشارة

يقول الله تعالى فى الآيات (۱۰۷- ۱۰۹) من سورة التوبة: «والَّذِيْنَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيْقاً بَيْنَ المُؤمِنِينَ وإرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحلِفُنَّ إنْ أرَدْنَا إلَّا الحُسْنَى وَاللهُ يَشْهَدُ إنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ لَا تَقُمْ فيه أبَدَاً لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلى التَّقْوَى مِنْ أوّلِ يَوْمٍ أحَقُ أنْ تَقُومَ فيهِ فيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللهُ يُحِبُّ المُطَّهِّرِينَ أفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَه على تَقوى مِنَ اللهِ ورِضْوَانٍ خَيْرٌ أمْ مَنْ أسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فانْهَارَ بِهِ فِى نَارِ جَهَنَّمَ واللهُ لا يَهْدِى القَوْمَ الظَّالِمِينَ».

تصوير البحث

إنَّ الآيات الثلاث التى تعتبر المثل السابع عشر للقرآن تحدثت عن مسجد ضرار الذى اسّسه أعداء الدين لأجل مواجهة الدين الجديد واعتبروه متراساً ومرصداً محكماً لهم لمواجهة الدين بالدين.

شأن النزول

أشار أكثر المفسرين إلى شأن نزول الآية، «۱» ونحن هنا نذكر شأن النزول أيضاً: امثال القران، ص: ۱۷۸ إنّ بنى عمرو بن عوف اتخذوا مسجد قبا، وبعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه و آله أن يأتيهم فأتاهم وصلّى فيه فحسدهم جماعة من المنافقين من بنى غنم بن عوف فقالوا: نبنى مسجداً فنصلى فيه ولا نحضر جماعة محمد، وكانوا اثنى عشر رجلًا، وقيل: خمسة عشر رجلًا، منهم: ثعلبة بن حاطب ومعتّب بن قشير ونبتل بن الحارث فبنوا مسجداً إلى جنب مسجد قبا. فلّما بنوه أتوا رسول الله صلى الله عليه و آله وهو يتجهّز إلى تبوك فقالوا: يا رسول الله إنّا قد بنينا مسجداً لذى العلة والحاجة والليلة الممطرة والليلة الشاتية، وإنّا نحب أن تأتينا فتصلى فيه لنا وتدعو بالبركة فقال صلى الله عليه و آله: «انّى على جناح سفر ولو قدمنا أتيناكم إن شاء الله فصلّينا لكم فيه»، فلمّا انصرف رسول الله صلى الله عليه و آله من تبوك نزلت عليه الآية فى شأن المسجد.

الشرح والتفسير

«والّذِيْنَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ المُؤمِنِينَ وإرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْل». نعم إنّ جبرئيل عليه السلام نزل على الرسول مانعاً إياه عن الصلاة فى هذا المسجد؛ وذلك رغم أنَّ ظاهره للعبادة، لكن واقعه معبد للأصنام ومركز للتآمر ضدّ المسلمين، فالآية هنا بيّنت أربعة أهداف من وراء بناء هذا المسجد. ۱- «ضِرَاراً» إىأنَّ مؤسسى هذا المجسد كانوا يستهدفون الإضرار بالمسلمين من خلاله وذلك بجعله متراساً لأعداء الإسلام. ۲- «كُفْراً» إنّ الهدف الآخر لهم من وراء بناء هذا المسجد هو تقوية أسس الكفر، والمسجد دوره هنا كمركز لدعم الشرك والكفر. ۳- «تَفْرِيقَاً بَيْنَ المُؤْمِنِينَ» الهدف الآخر لهم وهو من أخطر الاهداف عبارة عن إيجاد الفرقة بين المسلمين، واستهلاك الطاقة الموحدة التى يمتلكونها، فى النزاعات فيما بينهم، الأمر الذى يُضرّ بالاطراف الإسلامية المتنازعة أكثر من اضراره فى شىء آخر، وهذا مبدأ يحكم جميع الاختلافات. ۴- «إرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْل» إىإعداد مركز للاعداء فى قلب الدولة الإسلامية، الأعداء الذين يكنون العداء لله ورسوله من ذى قبل.

أبو عامر النصرانى العدّو اللدود للإسلام

عن (مجمع البيان): «إنّه كان قد ترهّب فى الجاهلية ولبى المسوح فلمّا قدم النبىّ صلى الله عليه و آله المدينة حسده، وحزّب عليه الأحزاب ثم هرب بعد فتح مكّة إلى الطائف. فلمّا أسلم أهل الطائف لحق بالشام، وخرج إلى الروم وتنصر وهو أحد المسببين والموقدين لحرب أحد. وسمّى رسول الله صلى الله عليه و آله أبا عامر (الفاسق)، وكان قد أرسل إلى المنافقين ان استعدوا وابنوا مسجداً فإنى أذهب إلى قيصر وآتى من عنده بجنود، وأخرج محمداً من المدينة، فكان هؤلاء المنافقون يتوقعون أن يجيئهم أبو عامر فمات قبل أن يبلغ ملك الروم». «۱» وبعد هذا طلب هؤلاء من الرسول صلى الله عليه و آله أن يفتتح المسجد، لكن جبرائيل نزل ونهاه عن ذلك بهذا الخطاب: «وَلَا تَقُمْ فِيهِ أبَدَاً» والرسول (صلى الله عليه واله) لم يقم فيه ولم يصلّ فيه أبداً. «لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوى مِنْ أوَّلِ يَوْمٍ أحَقُّ أنْ تَقُومَ فِيْهِ» أى أنَّ مسجد ضرار ليس محلًا مناسباً لعبادة الله الواحد، والمسجد المؤهل لذلك يتسم بالسمات التالية: ۱- أن يكون أساس تأسيسه هو الإيمان والتقوى، وهذا القسم من الآية يعلمنا أن يكون أساس تأسيس مراكز مثل الحسينيات والمدارس الدينية والسياسية والاقتصادية والادارية هو الايمان والتقوى، فهما روح الأعمال. ۲- السمة الاخرى هى أن يكون الحضور من المتقين والطاهرين؛ وذلك لأن المصلين فى المسجد يعدون معرّفاً للمسجد. إن السمتين حاصلتان فى مسجد قبا، فقد كان أساس تأسيسه الإيمان والتقوى، كما أنّ مصليه كانوا من المؤمنين عكس ما كان فى مسجد ضرار فلا أساسه كان يعتمد الإيمان والتقوى ولا حضوره كانوا من المؤمنين.

الأمر بتخريب مسجد ضرار

الرسول صلى الله عليه و آله لم يكتف بعدم افتتاح المسجد والصلاة فيه، بل أمر المسلمين بإحراقه ثم امثال القران، ص: ۱۸۰ تخريب جدرانه وتهيئته ليكون مرمى للنفايات. «أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَه عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ وَرِضْوانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ». (الشفا) يعنى الطرف من كلّ شىء، واطلقت هذه المفردة على شفاه الفهم لأجل ذلك. (الجرف) يعنى الجنب فجرف الشىء أى ما يجانبه ولذلك اطلق على شاطئ النهر جرف. (هارٍ) يطلق على الشىء الآخذ بالسقوط. إنَّ النهر قد يفرغ جرفه من الداخل ليصبح الجرف أجوف، والإنسان الذى لا يعلم بذلك قد يقدم على المشى على هذا الجرف فيسقط فيه ويغرق. الله تعالى يشبّه بناء مسجد ضرار ببناءٍ على جرف نهر، والجرف لا يشرف على ماء النهر، فانّ ذلك قد لا يؤدى بالإنسان إلى موته وهلاكه الحتمى لانه قد يكون عارفاً بالسباحة، بل إنَّ هذا الجرف مشرف على جهنّم ذاتها بحيث إذا سقط إنسان فيه فذلك يعنى هلاكه الكامل وانتفاء احتمال نجاته ... وهل الإنسان إذا كان عاقلًا يرضى باقامة بنيانه فى أرضٍ رخوة كهذا الجرف ويتحمل ما فيه من مخاطر؟ نعم؛ إنَّ المسجد الذى أساسه التقوى ورضاء الله فبناؤه يكون محكماً جداً ولا يؤدى بالإنسان إلّا إلى النجاة، أمَّا المسجد الذى يؤسّس على أساس الكفر والشرك ويكون مقراً للأعداء فهو بدرجة كبيرة من الخطورة ويؤدى بالإنسان إلى السقوط. وحسب ما تذكر الآية إنه سقوط فى جهنّم. هل يمكن العثور على تعبير أجمل ومَثَلٍ أوضح لمصادر الشرك والنفاق مثل التعبير الذى تضمنته الآية الكريمة؟!

خطابات الآية

۱- إنّ المستفاد من الآية هو ضرورة مراقبة المسلمين أعمالهم، وأنَّ الأعداء قد يواجهون الدين بالدين نفسه وبآلياته ذاتها ... ولهذا عندما نقرأ تاريخ الإسلام نعثر على الكثير من الفرق امثال القران، ص: ۱۸۱ التى أسسها الأعداء لضرب الإسلام الخالص. من المذاهب الموضوعة (فرقة البهائية الضالة) التى اتضح حالياً للجميع مكان تأسيس هذه الفرقة وشخصيات المؤسسين والمستفيدين من تأسيس هذه الفرقة. «۱» ۲- على المسلمين أن يكونوا كيّسين وأن لا تغرّهم الظواهر. ما أن تحصل فتنة فعلى المسلمين أن يتعرّفوا على متوليها ومموّليها والمستفيدين والمتضررين منها؛ وذلك خوف الاغترار باولئك الذين ينوون تخريب البلاد باسم استعماره، أو أسر المسلمين باسم تحريرهم أو سلب الدين عنهم باسم الدين نفسه. وقد قال الرسول صلى الله عليه و آله فى هذا المجال: «المؤمن كيّسٌ فطن حذرٌ». «۲»

المثل الثامن عشر: الدنيا العابرة

اشارة

يقول الله تعالى فى الآية ۲۴ من سورة يونس: «إِنَّمَا مَثَلُ الحَياةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّماءِ فاخْتَلَطَ بِهَ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ والنَّاسُ وَالأَنْعَامُ حتَّى إذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وازَّيَّنَتْ وظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُم قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنا لَيْلًا أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بالأَمْسِ كَذَلك نُفَصِّلُ الآياتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ».

تصوير البحث

الحديث فى المثل عن الحياة الدنيا العابرة، والتذكير بها خوف أن يغتر الإنسان بظاهرها الخلّاب ويتعلّق بها، فإنَّ الإنسان قد يفقد كل شىء فى وقت يتصوّر أنّ كل شىء قد تهيّأ وأُعد لصالحه. ويدعو الله فى نهاية الآية الإنسان للتفكير لعلّه ينقذه ويجد لنفسه من خلاله مخرجاً.

الشرح والتفسير

«إِنَّمَا مَثَلُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا» استخدمت عبارة (الحياة الدنيا) ما يقرب السبعين مرة فى القرآن، والدنيا قد تعنى أحد المعنيين التاليين: الف- أن تعنى القرب، ودنيا مؤنث (أدنى)، وذلك باعتبار أن الحياة الدنيا أقرب قياساً للحياة الآخرة التى هى بعيدة نسبياً. باء- أن يراد منها السافلة أو التافهة، ومنها اطلاق (الدنى) على الإنسان الساقط امثال القران، ص: ۱۸۴ والسافل. وباعتبار أنَّ الحياة الدنيا حياة تافهة وتفقد القيمة الكافية فهى حياة دنيا عكس ما عليه الحياة الآخرة فإنَّها عليا وتمتاز بالقيمة المتفوّقة. هذا، اضافة إلى أنَّه يستفاد من آيات قرآنية مثل الآية التالية: «وإنّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيَوَانُ» «۱» أنَّ الحياة هى الحياة الآخرة فحسب، أمّا الدنيا فهى لا تستحق من الحياة إلّا الاسم، بل هى موت تدريجى! على كل حال، فإنَّ الحياة الدنيا إمّا أنّها حياة لا قيمة لها، أو أنّها ليست حياة بالكلية. «كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ» أى مثل هذه الحياة العابرة كمثل الماء الذى ينزل من السماء بقطراته الشفافة والفاقدة للون، وباختلاطه بالأرض تنمو نباتات ومحاصيل متنوّعه. المراد من الاختلاط فى الآية هو تنوّع النباتات. إنّ النباتات على ثلاثة أقسام: ۱- القسم الذى يشكل الأغذية للإنسان مثل الفواكه والخضروات والحبوب «مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسَ». ۲- القسم الذى يشكل أغذية للحيوانات «مِمّا يَأْكُلَ ... الأَنْعَامُ» وهى قد تشترك- نوعاً ما- بين الحيوان والإنسان كالاشجار التى يفيد الإنسان من ثمارها، والحيوان يفيد من أوراقها وغصونها. وقد تكون خاصة بالحيوانات مثل العلف. ۳- القسم الآخر هو النباتات والأشجار التى تزيّن الطبيعة مثل الأزهار والحشائش الاخرى «حَتَّى إذا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وازيَّنت وَظَنَّ أهلُهَا أَنَّهُم قَادِرُونَ عَلَيْهَا». أى فى الوقت الذى هطل فيه المطر وأثمرت الاشجار وحان الوقت لجنى الثمار فى هذا الوقت تحدث حادثة وتخلبط كل حسابات الإنسان وتحول دون جنيه ثمار ما زرع. وهذا أمر مؤلم لمن تعلّق بالدنيا. «أَتَيها أَمْرُنَا لَيْلًا أو نَهَارَاً» نعم، فى الوقت الذى يرى الإنسان أن الدنيا أقبلت عليه امثال القران، ص: ۱۸۵ وكشفت عن وجهها الخلاب والخادع، ويجد أنَّ كل شىء حسب ما يرام، فى هذا الوقت يصدر أمر الله بالعذاب ليلًا أو نهاراً لتتدمر بذلك كل الآمال والزحمات، بحيث تبدو الدنيا لم تكن شيئاً مذكوراً. إنّ كلمة «أَمْرُنَا» فى الآية الشريفة تدعونا للدقة والتأمل الوافر من حيث إنّها تضمُّ موارد ومصاديق كثيرة وتشمل كل أنواع العذاب الذى يصدر من الله. نشير إلى بعض من تلك المصاديق. ۱- قد تؤمر مجموعة من الحيوانات تبدو كأنها ضعيفة مثل الجراد، فتؤمر الجراد لتهجم على مزرعة بشكل كتلة، لم تبقِ منها شيئاً إلّا أكلته أو دمرته، كما يحصل ذلك بين الحين والآخر فى بعض الدول. ۲- وقد يلقى هذا الأمر على عاتق السموم من الرياح، فيؤمر بتنفيذ مهمة العذاب الإلهى، وهو عندما يمرّ بشىء يسمّه ويجفّفه، بحيث إذا مرّ من مزرعة أبدلها إلى رماد يذهب مع الريح. ۳- وقد يتكفل بتنفيذ المهام الإلهية موجود هو أخطر من ريح السموم، مثل الصاعقة «۱» التى تدمّر كل شىء تصطدم به مثل الجبال والاشجار والانعام والناس، أو مثل موجودات أخرى نشير إليها فى البحوث المقبلة. هناك نقطة مثيرة تضّمنتها عبارة «لَيْلًا أَوْ نَهَارَاً» وهى أنَّ الإنسان لا خيار له غير التسليم والخضوع للعذاب الإلهى. ولا يفرق فى ذلك الليل والنهار ولا يتصّور أن الإنسان سوف يخضع للعذاب فى الليل باعتباره مسلوب القدرة آنذاك، بل انَّ العذاب إذا نزل سيستسلم له الإنسان سواء كان نازلًا فى الليل أو فى النهار. «فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدَاً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بالأَمْسِ» أى عندما يصدر أمر بالعذاب تتهدم ممتلكات الإنسان وتدمّر مزارعه فى آن، بحيث لا تبدو الأرض وكأنها كانت مزروعة قبل لحظات، بل تبدّل إلى كومة من الرماد. «كَذَلك نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ» أى أنَّ اهداف هذا المثل لا يدركها إلّا الذين امثال القران، ص: ۱۸۶ يتفكّرون فيه، ولا يدرك غور هذه الآيات الإلهية إلّا بالتفكّر والتأمل الذى لا توجد عبادة أرفع مستوى منه. «۱»

فلسفة المثل

لأجل استيعاب فلسفة المثل نشير هنا إلى ثلاث من خصائص الحياة الدنيا: ۱- الحياة الدنيا عابرة ولا ثبات ولا دوام فيها. ۲- الحياة

الـدنيا جوفـاء، ظاهرهـا فـاتن وباطنهـا خـالٍ من المحتوى، وقـد تبلورت بوضوح فى حيـاة بعض النـاس الـذين تجـذبنا حياتهم من بعيد وتجعلنا نأسف على حياتنا ونتحسّر على حياتهم، لكن عنـدما نقترب لهم نحمد الله كثيراً على كون حياتنا ليست مثل حياتهم من حيث كثرة المسـاوىء والابتلاءات. ۳- الحيـاة الـدنيا تُغرُّ الإنسـان وتخـدعه. وفى حـديث للرسـول صـلى الله عليـه و آله أشـار فيه إلى هـذه الخصائص الثلاث: «الـدّنيا تغر وتضـر وتمر». «۲» من هنا نسـتوعب فلسـفة المثل فى أنَّه من دونه لا يمكننا إدراك ماهيـة الحياة الـدنيا. والإنسان من خلال المثل يدرك حقيقة الدنيا وماهيتها أفضل. ولذلك تمسك الله به إيضاحاً وبياناً.

تفسير وتطبيق للمثل المذكور

فى الآية الشريفة شُبِّه الإنسان وحياته الدنيا بالمطر، وبذلك يشير القرآن إلى قابليته وأهليته العالية، فاذا فُعّلت هذه الأهلية لأمطرت عليه ثماراً من قبيل الابتكار والخلاقيـة المتنوّعـة، ولاسـتخدم كل طاقته فى سبيل الحياة الأفضل، ولنشط فى مختلف المجالات، ولاسـتهلك طاقات جمـة فى سبيل بلوغ الأهـداف الخاصـة. إلّا أنَّ حادثة تحصل فجأة تخيّب كل امثال القران، ص: ۱۸۷ آماله وتـدمّر كل ما جناه فى حياته حتى هذه اللحظة ليبدو وكأنه لم يفعل شـيئاً لحياته أبداً ولم يكن قد فعل وتحمّل لأجل ضـمان المسـتقبل. إنَّ هذه الحوادث هى (الأمر الالهى)، وقد تتبلور فى داخل جسم الإنسان ويسلّم لها الإنسان رغم ضعتها وصغرها. وعلى سبيل المثال قد تحصل جلطة فى دم الإنسان تسـرى فى الشـرايين لتصل إلى القلب فتحدث سـكتة فيه، أو تصل إلى الدماغ فتحصل سـكتة فيه أيضاً قد تتسـبب فى شـل جزء من جسـمه إذا لم تمته. والأبسـط من ذلـك هـو أن يـأمر الله تعـالى خليـة من خلايـا جسم الإنسـان للتكـاثر بشـكل غير متعـارف وبتصاعد هندسـى كأن تصبح الخلية خليتين والخليتان أربع خلايا والأربع ثمانية والثمانية ستة عشر وهكذا إلى أن تتبدّل فجأة إلى غدة سرطانية تنتشر فى جميع بدنة شيئاً فشيئاً لتجعل من الإنسان قعيد البيت «فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كأنْ لَمْ تَغْنَ بِالأمْسِ» فيبدو وكأنه قد مات منذ سنوات وآماله قـد انـدثرت منـذ ذلك الحين. وقـد يلقى الأمر الإلهى فى عهـدة حادثـة خارجيـة مثل الزلزلة أو الطوفان أو الاعصار أو الشهاب السماوى او غير ذلك. هذا المثل وما شابهه من الحوادث التى شهدناها طوال عمرنا مرات عديدة بمثابة صافرة الانذار تحذرنا أن لا تغرّنا الحياة الـدنيا ولا نتعلّق بها ولا نرتكب الجرائم لأجل بلوغ الأهداف الدنيوية الآنية. من المناسب أن نفكر بعمق فى هذه الآية الشريفة وفى أمثالها، ونعدّها كالمصباح نستنير به الطريق.

خطابات الآية

۱- معرفة الله

إنّ الله بتشبيهه الحياة بقطرات المطر علمنا شـيئاً من دروس المعرفـة، ورسّخ فى قلوبنا الايمان بالله. الآية تعلّمنا أنَّ الله بواسـطة هذا الماء الشـفاف الذى لا لون له يسـتطيع أن يخلق ألواناً مختلفة. امثال القران، ص: ۱۸۸ إنّ الأرض تُسـقى بماء واحد «يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ»، «۱» لكنّ الثمار والفواكه والاشجار تنبت متنوّعة، فيخرج من هذا الماء أحلى الفواكه وأشدّها حموضة وأشد السموم مرارة، وأجمل الأزهار و ... هـذه كلها من ماء واحـد وتراب واحـد. إنَّ قـدرة الله عجيبـة حقاً! لكن أسـفاً للعادة لكونها تحجبنا وتمنعنا دون أن نفكر فى هـذا الكتاب الناطق لله.

۲- كل ما فى الكون مخلوق على أساسٍ من النظم

إنَّ الله جعـل مـاء المطر سـبباً للبركـة والعمران، وهو بـذاته إذا زاد عن حـدّه المتعـارف سـبب الـدمار والكوارث، وإذا قلّ عن مقـداره المتعـارف سبّب الجفـاف والقحط. وهـذا درس آخر للإنسان فى أن يكون معتـدلًا ومنتظماً فى جميع مجالات حياته ويجتنب الإفراط

والتفريط. على الإنسان أنْ لا يفرط حتى فى العداء والخصومة، ولهذا فرض الإسلام آداباً للحرب وهى عبارة عن أوامر جميلة ولطيفة محذراً من خلالها المسلمين التفريط فى العداء. وعليه، فالمسلم يكون منتظما ومبرمجاً فى جميع شؤونه.

۳- قد تتبدّل النعمة إلى نقمة

أى قد يكون الشىء الذى يمنح الإنسان الحياة هو بذاته يكون سبباً لدمار الإنسان وموته، وذلك بأمرٍ من الله تعالى. إن الماء يمنح الإنسان حياة فى هذه الدنيا لكنّه قد يتبدل إلى سيل جارف وقاتل.

۴- إذا جرى الماء كان سالماً وهنيئاً وذا طعم لذيذ

أمّا اذا ركد الماء تعفّن وتلوّث ويكون غير صالح للشرب. ففى هذه الحالة لا أنَّه لا يمنح الحياة فحسب، بل يكون سبباً للتلوّث. إنَّ الاموال والثروات ذات نفس الخصلة هذه، امثال القران، ص: ۱۸۹ فيمكنها أن تنمّى اقتصاد البلاد إذا كانت جارية ويتداولها الناس، إلّا أنها عندما تحتكر وتركد فى مكان واحد فقد تسبب السقم فى اقتصاد البلد.

۵- بعض النباتات سامة رغم جمالها

بعض النباتات تبدو زينة جميلة مثلما تبدو بعض الزهور لكنها فى الواقع سموم قاتلة. لهذا كان علينا أن لا نغتر بالظاهر وإن كان جميلًا، بل علينا سبر الغور والتفكّر فيه لكشف الواقع ثم انتخاب المناسب. وفى نهاية الآية وصية للتفكير، ومدح للعلماء والمفكّرين. يقول رسول الله صلى الله عليه و آله: «أعطوا أعينكُم حظها من العبادة». قالوا: وما حظها من العبادة يا رسول الله؟ قال: «النظر فى المصحف والتفكّر فيه والاعتبار عند عجائبه». «۱» فكّروا فى آيات القرآن لكى لا تبتلوا بما ابتلى به النماردة والفراعنة وامثال ابو لهب كما فكروا من جهة اخرى بامثال سليمان وموسى وداود و ... توقفوا وتأملوا فى عجائب آيات القرآن. لا- تكتفوا بقراءة القرآن رغم ما لهذه القراءة- وبخاصة فى شهر رمضان المبارك- من أجر وثواب جزيل، بل لتقترن مع التدبّر والتأمّل.

المثل التاسع عشر: الكافر والمؤمن

اشارة

يقول الله تعالى فى الآية ۲۴ من سورة هود: «مَثَلُ الفَرِيْقَيْنِ كالأعْمَى والأَصَمّ والبَصِيْرِ وَالسَّميعِ هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثلًا أفلا تَذَكَّرُونَ».

تصوير البحث

يقارن الله العظيم فى هذا المثل بين الكافرين والمؤمنين، ويشبِّه أحد الفريقين بالأعمى والأصم والآخر بالبصير والسميع، وذلك لأنَّ الايمان والتقوى يورثان السمع والبصر، أما اللجاجة والتعصب والكفر فيحجبان عن هذين الموهبتين الالهيتين.

إشارة إلى الآيات ما قبل آية المثل

الآيات التى تسبق آية المثل هذه تبيّن أحوال المؤمنين والكفار، ومن الضرورى إلقاء نظرة عليها لكى نتمكن من شرح الآيات وتفسيرها ببصيرة أكثر.

سيرة الكافرين

شرحت الآية ۱۹ من سورة هود أحوال الكافرين حيث قالت: «الَّذِيْنَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيْلِ اللهِ وَيْبغُونَها عِوَجاً وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ». لقد بيّنت الآية ثلاثاً من خصال الكفّار: امثال القران، ص: ۱۹۲ ۱- الكفار يمنعون عن سبيل الله ويحولون دون دخول الآخرين فى هذا السبيل. ۲- الكفار يبغون الأعوجاج عن طريق الحق، أو أنَّهم يريدون إظهاره معوجّاً، مع أنه- حسب سورة الحمد- طريق مستقيم ولا إعوجاج ولا افراط ولا تفريط فيه بل هو متعادل ومتوازن. ۳- الكفار ينكرون المعاد والحياة بعد الموت. ويبدو أن هذه القضية هى السبب الأساس فى انحطاطهم؛ وذلك لأنَّهم عندما أنكروا المعاد سعوا فى اظهار طريق الحق معوجاً ومنعوا من اهتداء الآخرين إلى هذا الطريق. ثم يقول الله فى الآية ۲۲ من نفس السورة: «لَا جَرَم أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمْ الأَخْسَرُونَ». أى أنَّ الكفار الذين منعوا من اهتداء الناس إلى طريق الحق، وأظهروه وكأنّه معوجاً، وفى النهاية أنكروا المعاد، إنّهم فى المعاد أخسر من الجميع.

سيرة المؤمنين

الآية ۲۳ من سورد هود همّت بدراسة الفريق الثانى (المؤمنين) وقالت: «إنَّ الّذينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وأَخْبَتُوا إلى رَبِّهِمْ أولئك أصْحَابُ الجَنَّةِ هُمْ فِيْهَا خَالِدُونَ». بيّنت الآية الشريفة ثلاث خصال للمؤمنين: ۱ و ۲- الإيمان والعمل الصالح، إنّ هذين الخصلتين ذكرتا معاً فى كثير من الآيات القرآنية، فهما لازم وملزوم ولا يمكن تفكيكهما، «۱» ولهذا كان إدعاء الإيمان بالنسبة للذين لا يعملون إدعاء خواء، وهم غير مؤمنين فى الواقع. ومن جانب آخر، أنَّ الصادقين الذين يعملون صالحاً من دون إدعاء، هم المؤمنون الحقيقيون؛ وذلك لأنّهم- كما أشرنا سابقاً- بمثابة الغصون والاوراق لشجرة واحدة. ۳- الخصلة الثالثة التى يحملها المؤمنون هى خصلة (الاخبات). إنَّ (الاخبات) جمع (خبت) والاخيرة تعنى- فى الاصل- الصحراء الواسعة والمستوية، وقد اطلقت بعد ذلك على امثال القران، ص: ۱۹۳ بعض خصائص الإنسان، نشير هنا إلى ثلاث حالات منها: الف- تستخدم فى الإنسان ذى الروح المتواضعة، فكما أنَّ الصحراء المستوية تتواضع أمام الماء وتسمح له بالسير فى جميع بقاعها، كذلك روح الإنسان المتواضع فإنَّها تستسلم للحق ببساطة. باء- أنَّ مفردة (مخبتْ) كما تُطلق على الإنسان المتواضع تطلق كذلك على من سلّم نفسه لله تعالى، أى كما أنَّ الأرض المستوية مستسلمة، كذلك روح الإنسان المؤمن. جيم- تطلق هذه المفردة على من اطمئنَّ بالله تعالى. الإنسان عموماً عندما يخطو فى الصحراء يخطو باطمئنان ومن دون خوف وذعر، عكس ما لو كان يمشى فى جبال وأراضٍ وعرة، فإنَّ خطاه ستقترن بالخوف والذعر، وخطى الإنسان المؤمن فى طريق العبودية تقترن بالاطمئنان. وعلى هذا، فالمؤمنون الذين يحملون هذه الصفات (الايمان والعمل الصالح والاخبات) هم اصحاب الجنة خالدين فيها ويتمتعون بنعمها.

الشرح والتفسير

«مَثَلُ الفَرِيْقَيْنِ كالأعْمَى والأصمِّ والبَصِيْرِ والسَّمِيع» بعد أن بيّن الله خصائص الفريقين فى الآيات السابقة نعت هنا كلًا من الفريقين بصفات فقال: إن الكافر مثل الأعمى والأصمّ، والمؤمن مثل البصير والسميع. «هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ» والسؤال هنا استنكارى أى أنَّ الفريقين لا يستويان فالأعمى ليس كالبصير والأصم ليس كالسميع؛ كذلك المؤمن فهو غير الكافر وليس مثله. المفروض بهذه المقارنة أن تثير مخاطبى الآية وتذكّرهم، أليس كذلك؟! لأجل الوقوف على عمق هذا المطلب واستيعاب آثار الايمان والقدرة اللامتناهية لرب العالمين، نقوم فى البداية بدراسة أهمية العين والاذن ودورهما فى جسم الإنسان.

العين من أعظم آيات الله

لا شك أنَّ العين من أعظم الآيات الإلهية، بل يمكننا القول: إنها أعجب آيات الله سخرها امثال القران، ص: ۱۹۴ تعالى فى خدمتنا. إنّ العين ذات بناء معقد جداً، والأعجب من ذلك أن البناء يتشكل من مواد بسيطة جداً، فهى تتكون من مقدار قليل من الشحوم والعضلات ومقدار بسيط من السوائل. إنَّ هذا يكفى للكشف عن قدرة الله تعالى، فهو يستطيع بناء وسيلة معقدة من مواد بسيطة جداً. للعين سبع طبقات ممتازة ومجزّأة، وهى مستقلة عن بعضها البعض بالكامل وقد رتّبت بشكل لطيف جداً، كما أنه تعالى جعل لكل طبقة وظائف خاصة. لا يوجد فى الدنيا كاميرا يمكنها التصوير تلقائياً مثل ما تعمل العين، فهى تعمل دون حاجة إلى منظّم لعدستها، فهى تنظم نفسها لتصوير أدنى وأقصى نقطة فى أقل زمن ممكن. مع أن تنظيم العدسة للاماكن البعيدة فى كاميرات التصوير يحتاج إلى وقت غير قصير نسبياً، وقد يستدعى هذا الأمر ساعة من الزمن إذا أُريد تصوير لقطة حساسة. كذلك الأمر بالنسبة لتنظيم النور، فاذا كنا- مثلًا- فى محيط مضىء ثم انطفأت الكهرباء فيه وساد الظلام، فإنَّ بؤبؤة العين توسع نفسها لتتكيف مع المحيط وتتمكن من الرؤية. وفى العين يوجد عضلات تتحرك فى ست جهات تمكنها من الحركة إلى الأمام والخلف اضافة إلى الحركات الاربع أى اليمين واليسار والفوق والتحت. ومن عجائب العين الاخرى هو السائل الذى يترشح منها ويسمى الدمع. إنَّ الدمع غذاء للعين كما أنَّه سائل لغسلها ولتطهير هذا البناء الدقيق والظريف من أى تعفن يحتمل حصوله. من خصائص العين أنَّها هى بنفسها تقوم بترميم ما يطرأ عليها من اشكالات ونواقص. هل هناك شىءٌ من مصنوعات الإنسان يحضى بهذه الخصائص؟ لننصف ونرى لو لم يكن هناك دليل وآية على اثبات الخالق غير هذه العين أليس ذلك بكاف؟ «۱» كيف يمكن تصديق أن الطبيعة الفاقدة للأحاسيس والشعور يمكنها خلق جهاز بهذه العظمة؟

الاذن آية الله الاخرى

رغم أنَّ بناء الاذن قياساً للعين ليس بنفس الدرجة من حيث التعقد والظرافة، إلّا أنَّه امثال القران، ص: ۱۹۵ يحكى كما هو حال العين عن قدرة الله تعالى. إنَّ الاذن تتكون من الجزء الخارجى والداخلى والوسط. والاقسام تقع فى مناطق متجزءة عن بعضها الآخر، ولكلٍّ وظائف خاصة ومستقلة. هناك عظام يشبه عملها عمل المضرب، كما أنَّ هناك طبلة ترتعش بضربات المضرب، والارتعاشات هذه عندما تنتقل إلى الدماغ بواسطة الأعصاب تُفسَّر هناك. والعجيب فى هذا كله أنَّ الاذن يمكنها تعيين جهة الصوت. إنَّ العين والاذن نعمتان إلهيتان أنعمهما الله علينا، وهما عجيبتان جداً، وفى توصيفهما كتبت كتب كثيرة، ولكلٍّ منهما من حيث الطبابة مختصون، بل انَّ فى العين لوحدها عدة تخصصات.

العين والاذن وسيلتان مهمتان للمعرفة

إنَّ أهمّ وسائل المعرفة عند الإنسان هى العين والاذن. إنّ الإنسان عندما يولد يكون خلواً من أى علم «وَاللهُ أَخْرَجَكُم مِنَ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً». «۱» والإنسان يحصل على العلوم بعد أن تنمو عنده حاسة السمع والبصر. إنَّ العلوم التجريبية تنتقل للإنسان عبر حاسة البصر، فالإنسان يبلغ النتائج المختلفة فى المختبرات بعدما يراها بعينه، ورؤيته هذه هى التى تنقل النتائج إلى الذهن. أما العلوم النقلية- وبخاصة العلوم التى قدمت من الوحى الالهى- فهى تنتقل عبر حاسة السمع (الاذن). بالطبع أن العلوم العقلية تعتمد فى الأساس على العلوم الحسية أى أنَّ الأشياء ما لم تر أ و لم تسمع فلا يتمكن العقل من إدراكها، وذلك لأنَّ أساس العلوم العقلية هو (تجريد) و (تعميم) المحسوسات، ولهذا اذا كان هناك إنسان بالغ أصم وأعمى- وهو بالنتيجة أخرس- فان مستوى فهمه سيكون بمستوى فهم طفل عمره خمس سنوات حتى لو كان يحضى بدماغ بمستوى دماغ ابن سيناء؛ لأنَّ هكذا انسان يكون فاقداً لعمودين أساسيين من أعمدة العلوم العقلية وهما البصر والسمع.

الكافر يفتقد وسائل المعرفة

وفقاً لما ذكرت الآيـة، أنّ الكافر أعمى وأصم، أى أنَّه يفقد وسائل المعرفة أو أنَّ هذه الوسائل مسلوبة منه، لذلك لا يدرك شيئاً من نور الأيمان. أما المؤمن فهو- بفضل نور الإيمان- يتمتع بحاسة السمع والبصر بشكل كامل، ويفيد من العلوم، ووسائل المعرفة.

لماذا كان الكافر أعمى وأصم؟

الوصف المستخدم فى الآية يفيد أنّ العمى والصم هما بسبب حاجب الكفر الذى يحول دون السمع والنظر «خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِم وَعَلَى أبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ». «۱» إنَّ اللجاجة مع الله وعدم التسليم له والصفات الرذيلة الاخرى سببت عدم إدراك الكفار للحقائق. يقول الإمـام السـجاد عليه السـلام فى دعـائه العرفانى (أبو حمزة الثمالى): «إنّك لا تُحْجَب عن خلقك إلّا أن تحجبه الأعمالُ دونك». وعلى أساس هـذا الـدعاء، فإنَّ أعمال الناس هى التى تحجب الإنسان عن الله. وفى بعض نسـخ هذا الدعاء ذكرت مفردة (آمال) مكان أعمـال، وعلى هـذه النسـخة، فإنَّ الآمال هى التى تحجب الإنسان عن الحقائق والمعارف الإلهيـة. الإيمان عنـدما يظهر فى الإنسان فإنَّ حجب التعصب والجهل والغرور والكبرياء والأنانيـة تتلاشـى لوحـدها، ويتضـح للإنسان بعـد ذلك كل شـىء، بل الله نفسه يهـديه من الظلمات إلى نور الإيمان، لـذلك قال الله فى الآية ۲۵۷ من سورة البقرة: «اللهُ وَلِيُّ الَّذينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُورِ والَّذِينَ كَفَرُوا أوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوت يُخْرِجُونَهُم مِنَ النُّوْرِ إلَى الظُّلُماتِ أُوْلئِكَ أصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيْهَا خَالِدُونَ».

كيف يمكن إزالة الحجب؟

كيف يمكن أن يكون لنا عين واذن قرآنيـة؟ كيف يمكن أن يكون لنا عين ترى الحقيقـة؟ وفقاً امثال القران، ص: ۱۹۷ لما أقرَّته الآية الشـريفة فـإنَّ هـذه الحجب تزال إذا أزلنـا عن أنفسـنا سـتار الجهـل والتعصب واللجاجـة لنرى مـا يرى أوليـاء الله. ما علينا هو أن نكون مؤمنين. لقد ذكرت علامات للمؤمن فى روايات أهل البيت عليهم السلام، ولأجل الاطلاع نأتى بنموذجين هنا:

علامات المؤمن

۱- يقول رسول الله صـلى الله عليه و آله: «لا يؤمن عبدٌ حتّى يحب للناس ما يُحب لنفسه». «۱» ۲- فى رواية اخرى يقول الإمام الصادق عليه السـلام: «إنَّ من حقيقة الإيمان أن تؤثر الحقّ وإن ضرّك على الباطل وإن نفعك». «۲» وحسب هذه الرواية فإنَّ الحقيقة والصدق من علائـم المؤمن، وهى تحمـل فى طيّاتهـا خطابـاً للأحـزاب والتكتلات السياسـية فى البلـد بـأن يقوم نشاطهم على الصـدق والحقيقة وتجنّب الزيف. إنهم إذا بلغوا مرحلة يرجّحون فيها حديث عنصـرهم الطالح على حديث العنصـر الصالح للتكتل المنافس فذلك يعنى أنّهم لم يدركوا حقيقة الايمان، ودعواهم الايمان زيف لا أكثر. اللهم ارزق جميع المسلمين الايمان الكامل.

المثل العشرون: الذين يدعون من دون الله

اشارة

يقول الله فى الآية ۱۴ من سورة الرعد: «لَهُ دَعْوَةُ الحَقِّ والَّذِيْنَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِه لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَىءٍ إلّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إلى المَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الكَافِرِينَ إلّا فِى ضَلالٍ».

تصوير البحث

إنّ آيـة المثـل درست قضـية الـدعاء والتوسّـل، وهى تسـعى لتعليم الإنسان إلى مَن يمـدّ يـده؟ ثم مثّلت أولئك الـذين يطرقون أبواب المخلوقـات دون خـالقهم طالبين حاجاتهم بمن بسط يـديه إلى الماء .... سؤال: قبل البتّ بشـرح وتفسـير آيـة المثل ينبغى التساؤل عن سبب عـدم التطرّق إلى بعض الأمثـال التى جاءت قبل سورة الرعـد، مثل الآيـة الشـريفة ۳۲ من سورة المائـدة التى اعتبرت قتـل النفس البريئـة بمثابـة قتـل النـاس جميعـاً واحياء نفس بريئـة بمثابـة احياء الناس جميعاً. فإنّ فيها تشبيهاً وتمثيلًا نوعاً ما، فَلِم لم تأت فى البحث. الجواب: فى القرآن امثـال وتشـابيه كثيرة، لكن بحثنـا فى الامثـال القرآنيـة لا التشابيه. إنَّ التشبيه هو تنظير شـىء بشـىء كأن يقال: (إن حسن كالأسـد). فهـذا تشبيه وليس مثلًا، امثال القران، ص: ۲۰۰ أما المثل فهو تجسـيد وبيان لقصةٍ أو جماعة أو قضـية أو مطلب عقلى ليس فى متناول أذهان الناس، كما لو أنَّ الله أراد بيان قضـية الحق والباطل وهما قضـيتان غير حسـية مثّلهما بالمطر والسيل والزبد الذى يتجمع على الماء، فيمثّل الحق بالماء والباطل بالزبد، من حيث أنّ الزبد رغم ابهته وارتفاعه وظهوره إلّا أنه أجوف ويتلاشـى بسـرعة ... وبناءً على هذا الايضاح فقد حصلنا على معيار كلى للتمييز بين الأمثال والتشابيه.

البرق والسحب الثّقال

لأجل الاستيعاب الأفضل للمثل المذكور علينا شـرح الآيات ۱۲ و ۱۳ من سورة الرعـد باقتضاب. يقول الله تعالى فى الآية ۱۲ من سورة الرعد: «هُوَ الَّذِى يَرُيْكُمُ البَرْقَ خَوْفَاً وَطَمَعاً وَيُنْشِأُ السَّحَابَ الثِّقَالَ». إنّ البرق من آثار عظمة الله تعالى، فهو يزرع الأمل فى نفس الإنسان كما يزرع الخوف والقلق. إنّ البرق يبشّر الناس بهدية المطر الإلهية؛ وذلك لأن الرعد والبرق يتسببان فى نزول الكثير من المطر.

كيف يسبب البرق نزول المطر؟

اصـطدام السـحب التى تحمل شـحنات كهربائيـة متضادة يوجد حرارة تقدّر بخمسة عشـر ألف درجة سانتيغراد. إن هذه الحرارة تحرق الهواء المحيـط بهـا وبـذلك يقـل ضـغط الجو الأمر الـذى يؤدى إلى هبوط المطر. من جانب آخر قـد يتبلور البرق على شـكل صاعقة فيحرق حينئـذٍ مـا يصـطدم به من الغابات والقرى والاشـخاص والحيوانات والمزارع، وهـذا هو الـذى ينجم عنه خوف الإنسان. «وَيُنْشِأُ السَّحَابَ الثِّقَالَ» قـد يتصور كثير من النـاس أنَّ السُّحُب لاـ تختلف، وهى تعمـل على وتيرة واحـدة، مع أنَّ الحقيقـة شـىء آخر، وهى تختلف عن بعضـها الآخر كثيراً. امثال القران، ص: ۲۰۱ ممّـا تختلف فيه السـحب هو أنّها تنقسم إلى ثقال وخفاف، والثقال تتموقع فى جوٍّ أقرب إلى سـطح الأـرض، أمَّا الخفاف ففى جوّ مرتفع أكثر عن سـطح الأرض، وسـبب اقتراب الثقال هو كثرة الرطوبـة والماء فيها، الأمر الذى يمنعها من التصاعد إلى أجواءٍ أبعد.

الرعد دليل على عظمة الله

يقول الله تعالى فى الآيـة ۱۳ من سورة الرعـد: «وَيُسَبِّحُ الرَّعْـدُ بِحَمْدِهِ وَالمَلائِكَةُ مِنْ خِيْفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِى اللهِ وَهُوَ شَدِيْدُ المِحَالِ». تشـير الآيـة الشـريفة إلى موضوعين، أحـدهما: الرعـد، والثانى: الصواعق. وبما أنَّا تناولنا موضوع الصواعق فى البحوث السابقة لذا نخص بحثنا هنا بالرعد. لقد قلنا سابقاً: إنَّ اصـطدام سحب ذوات شحنات كهربائية مختلفة تولّد قدحة ضوئيـة وصوت، فـالنور يقـال له: برق، أمـا الصوت فيقـال له: رعـد. إنَّ الصوت والضوء يحصـلان فى وقت واحـد، لكن بما أنَّ سـرعة الضوء أسـرع من الصوت بمرات، لذلك يصـلنا الضوء قبل أن يصلنا صوت الاصطدام. رغم ما يبدو من بساطة فى ظاهرة الرعد، إلّا أنّه يُعـد من آيات الله العظمى، وله تأثير مهم على حياة جميع الموجودات. لقد ذكر العلماء آثاراً كثيرة للرعد والبرق نشـير هنا إلى أهمها:

۱- هطول الأمطار هى أول فوائـد الرعـد والبرق، وهى فائـدة تعم جميع الموجودات سواء الإنسان أو الحيوان أو النباتات أو الجمادات.

۲- يقتل الرعـد والبرق بعض الآفات النباتيـة؛ وذلك لأنَّ الحرارة التى توجد من خلال هذين الظاهرتين تسـبب أكسـجة الماء أى خلق

ماءٍ مؤكسج يتكون من ذرتين من الأوكسجين بدل ذرة واحدة مع ذرتين من الهيدروجين. ومن فوائد هذا الماء أنه من المطهرات ويمكنه قتل بعض الآفات والموجودات المضرة. إنَّ هذا الماء متوفّر فى الصيدليات ويستخدم لغرض التطهير. وكلما زادت ظاهرتا الرعد والبرق كلّما قلت الآفات النباتية. الفائدة الاخرى للرعد والبرق هو انتاج الكثير من الاسمدة للنباتات. إنّ هذين الظاهرتين امثال القران، ص: ۲۰۲ تنتجان كل عام عشرات الملايين من الاطنان من الأسمدة القوية والمفيدة والمؤثرة على جميع النباتات. طريقة ايجاد هذه الاسمدة هو أنَّ الحرارة الناشئة عن الرعد والبرق تسبب تركيب الماء بذرات الكاربون فينتج أوكسيد الكاربون، وعندما يهبط هذا الاوكسيد على الأرض يتركب مع الاتربة فينتج نوعاً من السماد المفيد والقوى والمؤثر. نعم، إنَّ الرعد والبرق لهما هذه الآثار، وهما من آيات الله العظمى. والمدهش أنَّ الله كشف عن هذه الأسرار العلمية فى وقت لم تخطر فى ذهن الإنسان هذه الامور أبداً. طبقاً للآية الشريفة، الرعد يحمد الله ويسبّح له، والتسبيح هنا يعنى تنزيه الله من أى عيب ونقصٍ، ألم يكن قتل الآفات النباتية تنزيهاً لله من كل عيب ونقص؟ أليست هذه الظاهرة تسبيحاً لله نوعاً ما؟ إنَّ الرعد يحمد الله على صفاته وجلاله وجماله. ألم تكن تغذيه النباتات نوعاً من الحمد والثناء لله فى عالم الممكنات والمخلوقات؟ لا شكَّ أنَّ الآيات ۱۲ و ۱۳ تشير إلى هذه النقطة وتعدّها من وجوه عظمة الخالق. الخلاصة: أنَّ الآيتين أشارتا إلى بعض من الآيات الإلهية المهمة، أى الرعد والبرق والمطر والصاعقة.

الشرح والتفسير

«لَهُ دَعْوَةُ الحَقِّ» يختلف المفسرون فى المراد من هذه الجملة، فالبعض يرى أنها تعنى التوحيد، والتوحيد خاص بذاته تعالى. ويعتقد بعض آخر أنَّ المراد منها هو القرآن المجيد، فهى تشير إلى هذا الكتاب الإلهى. وكثير من المفسرين فسَّرها بالدعاء، أى إذا أراد الإنسان أن يستجاب دعاؤه دعى الله خالصاً، فغيره لا يحلّ شيئاً من المشاكل بل الله هو الوحيد القادر على استجابة الدعاء وحل المشاكل. والشاهد على هذا الرأى (الرأى الثالث) الذى نحن نذهب إليه هو ذيل الآية، حيث تقول: امثال القران، ص: ۲۰۳ «وَمَا دُعَاءُ الكَافِرِينَ إلّا فِى ضَلَالٍ». إنَّ سبب كون دعاء الكافرين فى ضلال هو أنَّهم يسألون من لا يقدر حتى على الدفاع عن نفسه، ولا يستطيع كسب منفعةٍ لنفسه فضلًا عن نفعه الآخرين. «والّذِيْنَ يَدْعُونَ مِنْ دُوْنِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَىءٍ إلّا كَبَاسِطِ كَفّيْهِ إلى الماءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ» إنّ شاهد حديثنا فى المثل العشرين هو هذا الجزء من الآية. إن الذين يدعون غير الله ويقصدون معابد الاصنام ويتوسلون بها لأجل حلّ مشاكلهم، فمشاكلهم سوف لا تُحل. ومثل إنسان كهذا مثل الذى يبسط يده ويمدها ليأخذ الماء ويشرب، وهو لا يستطيع من خلال هذا العمل شرب الماء أبداً. اختلف المفسرون فى تفسير «كَبَاسِطِ كَفّيْهِ إلى المَآءِ ...» نشير إلى أقوالهم هنا: ۱- المراد منها هو شخص عطشان يريد إرواء عطشه فيقصد بئراً ليس فيه حبل ولا دلو، وعمق البئر كثير جداً، فيبسط هذا الشخص يديه فى البئر، لكن يديه لا تمتدان إلى أكثر من مترٍ واحدٍ. ولا شك أنَّ شخصاً مثل هذا سوف لا يبلغ هدفه ولا يروى عطشه. ۲- مراد الآية هو الشخص الذى يقف بجنب البئر ويشير للماء لكى يصعد ويشرب منه. ومن الواضح أن الماء هنا لا يُنال بالاشارة إليه، بل هناك حاجة واقعية لوسيلة ترفعه. نعم، دعاء الكافرين عند معبد الأصنام ضلال، وحالهم حال إنسان كهذا. ۳- إنَّ (باسط) تعنى الذى يفتح يديه ولا يحنيهما بحيث يتمكن الاغتراف بهما. فإنَّ هذا الشخص يذهب إلى جنب الماء ويغترف منه بيديه حال كونه فاتح يديه وباسطهما، وهو أمر لا يوفّر له الماء فيضطر للابتعاد عن مصدر الماء، وهو عطشان. نرى أنَّ التفسير الأوّل هو أنسب الثلاثة، رغم إمكانية القول بأنّ الثلاثة صحيحة وكلها تبيّن مراداً واحداً؛ وذلك لانَّا نعتقد بامكانية استعمال لفظ واحد فى أكثر من معنى واحد. «۱» وعلى ما تقدم علينا- لأجل حل المشاكل- أن لا نطرق غير باب الله، بل نقصد بابه منذ البداية، فهو الخالق والرازق والمحيى والمميت وهو حلّال المشاكل وكل شىء بيده. اما غيره فلا امثال القران، ص: ۲۰۴ شىء بيده؛ لأنّه ما من موجود إلّا وهو يحتاج إلى الله الغنى، فالكل يحتاج إليه فكل شىء عاجز، وهو القادر، وكل شىء ضعيف، وهو القوى والقادر المطلق، فلا يصح الذهاب لا لمعبد الأصنام فحسب بل لكل شىء غير الله.

خطابات الآية

۱- هل التوسّل بالمعصومين عليهم السلام شرك؟

وبعبارة اخرى: هل أنَّ الأدعية والتوسلات بالأئمة تشملها الآية الشريفة وينهى عنها الشارع المقدس وينبغى الاجتناب عنها؟ نقول جواباً عن التساؤل الماضى: إنَّ التوجه لهؤلاء العظماء لا يعنى طلبنا منهم حل المشاكل بشكل مباشر، بل نطلب منهم أن يشفعوا لنا عند الله ويبحثوا لنا عن حلٍّ لنا من الله القادر المطلق؛ وذلك لأنّا نعتقد أنَّ هؤلاء إذا استطاعوا فعل شىء فبأذنٍ من الله. أما الوهابيون الذين ينسبون لنا الشرك والكفر لأجل هذه الأدعية والتوسلات فانّهم على خطأ، وهم لا يعرفون المعنى الحقيقى للشرك والكفر، كما أنَّهم لم يستوعبوا ماهية التوسل الذى عند الشيعة. فى رحلتى لمكة والمدينة عام ۱۴۱۹ ه. ق التى كانت لغرض أداء العمرة، حضرت صلاة الجمعة فى اليوم الثانى والعشرين من شعبان فى المسجد الحرام، وكنت أصغى لما يقول الخطيب. والمدهش هنا أنَّ الخطيب كان يقرأ عن ورقة قد أعدّها من ذى قبل، يبدو أنّه ما كان مجازاً لإضافة او تنقيص ولو كلمة واحدة، فتذكرت خطبة الجمعة فى مدن ايران ومدى ما يتمتع به الخطيب من حرية التعبير والتحليل. وعلى أى حال هاجم هذا الخطيب فى أثناء خطبته اولئك الذين يتوسلون عند القبور المشرّفة ورماهم بالشرك والكفر. بالطبع لم نسكت أمام هجوم هذا الخطيب، بل كتبنا رسالة إلى زعماء السعودية اعترضنا فيها عما تفوّه به هذا الشخص. إنَّ الذين يعتقدون بالدعاء والتوسّل لا يعتبرون أولياء الله شركاء لله، بل شفعاء عنده. وبعبارة اخرى: أنَّ اعتقادنا هو تجسيد للآية الشريفة (المائدة ۱۱۰) التى تحدّثت عن السيد امثال القران، ص: ۲۰۵ المسيح (على نبينا وآله وعليه السلام) «وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهْيَئَةِ الطَّيْرِ بإِذْنِى فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِى وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِى وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِى ...». فى هذه الآية نسب الخلق والاحياء والشفاء كلها للسيد المسيح عليه السلام لكن بإذنٍ من الله تعالى. «۱» والشيعة لا تقول شيئاً غير هذا الذى فى الآية الكريمة، فالشيعة تعتقد أنَّ العظماء والأولياء يمكنهم فعل الكثير الذى يعجز عنه البشر لكن باذن الله، كما يمكنهم أن يشفعوا للعباد عند الله لحل مشاكلهم. وعلى هذا فدعاء الشيعة وتوسلهم لا شرك ولا كفر. ومع هذه الايضاحات نقول: إنَّ الذى يعدُّ الشيعة لاجل دعائهم وتوسلهم مشركين، فهو يعدُّ السيد المسيح مشركاً كذلك. ويمكننا أن نستفيد مما سبق ضمنياً أن المعجزة قد لا تحصل بدعاء النبى وإجابة الله مباشرة، بل قد تكون من النبىّ أو الولى مباشرة لكن بإذنٍ من الله تعالى كما هو الحال بالنسبة لمعجزة شق القمر «۲» التى صدرت عن رسولنا صلى الله عليه و آله، وهذا أمر غير مستبعد.

۲- الصور المختلفة لعبادة الأصنام

لعبادة الاصنام تاريخ طويل واشكال مختلفة، فقد تكون بشكل صنم يُصنع بأيدى الناس من الحجر أو الخشب أو الفلز بل وحتى من الاغذية، ثم يقع لها الإنسان ساجداً وعابداً. فى برهة من الزمن كان المشركون يقدمون على انتخاب موجودات غير ذات شعور يعتبرونها أصناماً للعبادة، لذلك عبد البعض الشمس، والآخر النجوم أو القمر، «۳» بل انّ البعض أقدم على عبادة أنهار أو بحيرات مهمة مثل نهر النيل أو بحيرة ساوة فى ايران، وقد يكون جفاف بحيرة ساوه وانطفاء معبد فارس عند ولادة الرسول «۴» بسبب أنها كانت معابد للإنسان آنذاك. امثال القران، ص: ۲۰۶ وفى بعض من بقاع العالم كان البعض يعبد الاشجار وبخاصة شجرة الصنوبر التى كانت منذ القدم معبوداً لمجموعة من الناس. من هنا اعتقد بعض المفسرين أنَّ (أصحاب الأيكة) هم أنفسهم عبدة شجرة الصنوبر الذين كانوا منشأ لخرافة (سيزده به در) أى الثالث عشر من بداية السنة الشمسية. وفى زمن كانت الحيوانات آلهة لبعض من الناس. ومِمّا يؤسف له أنّ هذا النوع من العبادة لا زال موجوداً فى بعض المناطق من الهند. وقد ألّه البعض أشخاصاً من البشر، كما هو الحال بالنسبة لفرعون حيث كان البعض يعبده كربٍّ لهم، ويقول القرآن المجيد نقلًا عن فرعون نفسه: «وَقَالَ فِرْعَوْنُ يا أَيُّهَا المَلأ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِى» «۱» وقد ألّه البعض الملائكة فى بعض الأحيان. يقول أحد المؤرخين: (كل شىء فى العالم قد تألّه، وكان يُعبدُ فى

يوم ما ونحن لا نعرف شيئاً لم يتألّه ولم يُعبد فى يوم من الأيام). على كل حال، أنَّ ما يجمع عبادة الأصنام هو التوجه إلى ما سوى الله والغفلة عن الله رب العالمين، وقد جاء على لسان بعض العظماء: (كلّ ما شغلك عن الله فهو صنمك). من هنا عُدَّ المال والبنون والمرأة والثروة والمقام والصديق وكل شيء يغفلنا عن الله صنماً. القرآن قد شطب على كل شيء سوى الله، ولا يرى أهلية العبادة لغير ذاته الحقة، فإنَّ جميع المخلوقات فقيرة وتحتاجه وتفتقر فيضه فى كل آنٍ ولحظة، ليس فى بداية الخلق فحسب بل لادامة الحياة واستمراريتها كذلك. إنّ مثل حاجة الإنسان إلى الله كمثل حاجة المصباح إلى مولد الكهرباء، فكما أنَّ المصباح يحتاج إلى المولد فى كل لحظة ما دام متقداً، كذلك الإنسان فانه يفتقر فيض الله فى كل لحظاته ما دام حياً. وبعبارة أُخرى: أنَّ كل لحظة من لحظات العمر هى خلق وصنع جديد «كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى امثال القران، ص: ۲۰۷ شَأنٍ» «۱» وبخاصة إذا فسرنا ذلك حسب رؤية (الحركة الجوهرية) فإنَّ الأمر سَيكون أوضح. «۲»

الدعاء من وجهة نظر القرآن والروايات

إنّ الدعاء قضية مهمة جداً وقد انعكست بشكل واسع فى القرآن وروايات المعصومين عليهم السلام. وفى هذا المجال مباحث وأسئلة عديدة نشير إلى بعضها هنا: ۱- ما هى فلسفة الدعاء؟ إذا كنا مستحقين للاجابة فالله العالم بالظاهر والباطن سيستجيب لطلباتنا من دون حاجة إلى دعاء، وإذا لم نستحق الاجابة فإنَّ الله سوف لا يجيب لطلباتنا سواء دعوناه أم لم ندعه، ولا تأثير لدعائنا هنا! وبتعبير آخر: أنَّ طلبتنا إذا كانت بمصلحتنا فسيوفرها لنا الله من دون حاجة إلى دعاء، وإذا لم تكن بمصلحتنا فانه سوف لا يوفرها مهما أصررنا بالدعاء والتوسّل. إذن ما فلسفة الدعاء وما دوره؟ ۲- ما هى شروط إجابة الدعاء؟ وما علينا فعله لكى يستجيب لنا الله الدعاء ولكى نبلغ هدف الاجابة؟ ۳- ما هى موانع استجابة الدعاء؟ لماذا لم يُستجب لبعض الأدعية رغم الاصرار الوافر فى طلبها؟ ۴- ما هو أسوأ دعاء؟

الدعاء أفضل عبادة

المستفاد من الآيات والروايات هو أنَّ الدعاء ليس كونه عبادة فحسب، بل من أفضل امثال القران، ص: ۲۰۸ العبادات. ولأجل إيضاح أهمية الدعاء نشير إلى ثلاث آيات من القرآن وست روايات من المعصومين: ۱- يقول الله تعالى فى الآية ۶۰ من سورة غافر (المؤمن): «وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونى أسْتَجِبْ لَكُمْ إنَّ الّذِين يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّم دَاخِرِينَ». استخدمت الآية فى البداية مادة (الدعاء) ثم أبدلتها بمادة (العبادة) فى نهاية الآية. لماذا عبّر القرآن بالعبادة عن الدعاء؟ قال البعض: إنَّ العبادة بمعناها المطلق هى دعاء، ولأجل ذلك كان تعبير الروايات بأنَّ «الدعاء مخ العبادة». «۱» ۲- يقول الله تعالى فى الآية ۷۷ (آخر آية) من سورة الفرقان: «قُلْ مَا يَعْبَؤُ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَاؤُكُم فَقَد كَذَّبْتُم فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامَاً». إنَّ هذا التعبير «ما يعبؤُ بِكُم ...» والذى يعنى عدم اهتمام الله بكم لو لم تدعوا، لم يستعمل فى العبادات الاخرى مثل الحج والصوم والجهاد وغير ذلك، وقد استخدم فى الدعاء فقط، وهو تعبير يعنى باطلاقه أنّ الذى يجعل الله يهتم بكم ويعتنى رغم الذنوب والآثام هو الدعاء، فقدروا هذه العبادة وثمّنوها. ۳- يقول الله تعالى فى الآية ۱۸۶ من سورة البقرة بعد الحديث عن فضيلة واحكام شهر رمضان المبارك: «وإذا سَألك عِبَادِى عَنِّى فَإنِّى قَرِيْبٌ أُجِيْبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ». لا شكّ أنّ تعبير الآية التالية: «نحن أقْرَبُ إلَيكْمْ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ» «۲» للإشارة إلى قرب الخالق إلى المخلوق، هو أجمل تعبير يمكن أن يرد فى هذا المجال. وعلى هذا، فإنَّ التفكير فى الآيات السابقة يرشدنا إلى أنَّ الدعاء من وجهة نظر الإسلام أمر مهم جداً بحيث اضافة إلى كونه عبادة يوجب اعتناء الرب بالإنسان، كونه وسيلة لتقرّب العبد إلى مولاه.

الدعاء فى الروايات

قلنا سابقاً: إنَّ الكثير من الروايات تناولت قضايا الدعاء، نكتفى هنا بذكر ستٍ منها. ۱- يقول رسول الله صلى الله عليه و آله: «الدعاءُ

سلاح المؤمن وعمود الدين ونور السماوات والأرض». «۱» نعم، رغم أنَّ الدعاء عبادة سهلة، لكنّه، حسب ما يستفاد من كلمات الرسول صلى الله عليه و آله- يحضى بشأن رفيع عند الله. إلّا أنَّ الإنسان غافل عنه بسبب سهولته وبساطته. ۲- يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «الدعاءُ مفتاحُ الرحمة ومصباح الظُّلمة». «۲» نعم، هو مصباح ليس فى الدنيا فحسب بل فى الآخرة كذلك. ۳- يقول رسول الله صلى الله عليه و آله فى رواية اخرى: «عمل البرّ كلّه نصف العبادة، والدعاء نصف». «۳» ۴- يقول الإمام الصادق عليه السلام: «أكْثِرْ من الدعاء فإنّه مفتاح كلّ رحمةٍ ونجاح كلِّ حاجة، ولا ينال ما عند الله إلّا بالدعاء، وليس باب يكثر قرعه إلّا يوشك أن يفتح لصاحبه». «۴» وعلى هذا، فالإنسان لا ينبغى أن يخيب أمله بمجرد عدم الإجابة، لأنّ الله قد يريد تطهير قلب العبد وتأديبه وتربيته من خلال الدعاء. ۵- يصف الإمام الصادق عليه السلام الدعاء بالشكل التالى: «أفضل العبادة الدعاء». «۵» ۶- يقول الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام: «عليكم بسلاح الأنبياء»، قيل: ما سلاح الأنبياء؟ قال: «الدعاء». «۶» يستشف مما سبق من الآيات والروايات أنَّ للدعاء شأناً عظيماً فى الإسلام ويحضى بأهمية كبيرة.

سر الدعاء فى الإسلام

لماذا يحضى الدعاء فى الدين بدرجة وقيمة كبيرة، بحيث عُدَّ أفضل العبادات وسلاحاً للمؤمن وعموداً للدين ونور السماوات والأرض ومفتاح الرحمة ومصباح الهداية ونصف العبادة وسر النصر وسلاح الأنبياء وسبباً لرفعة شأن الإنسان عند الله؟ إذا دققنا فى هذه التحفة والهدية الإلهية ودرسناها جيداً لوجدناها أهلًا لهذه الأُمور كلها. إنَّ الدعاء يترك آثاراً مهمةً فى الإنسان، وأهم تلك الآثار هو التربية، فإنَّ الدعاء سبب لتربية الإنسان وتزكيته. إنَّ التعليم والتربية اللتين ابتنيت عليهما بعثة الأنبياء، يُعدان من أهم أهداف البعثة، «۱» ومما لا شك فيه أن التعليم مقدمة للتربية، لذلك كانت التربية الهدف النهائى للبعثة.

العلاقة بين الدعاء والتربية

للدعاء آثار تربوية كثيرة نشير إلى ثلاثة منها: إنّ الأثر الأوّل هو إيجاد نور الأمل فى قلوب الناس، فالإنسان الخائب الأمل يكون فى عداد الموتى. إنَّ المريض يتحسّن إذا كان قد ملأ قلبه بنور الأمل وسوف لا يتحسّن إذا فقد أمله فى التحسن، كما أنَّ السبب الرئيسى لنجاح المقاتلين فى ميادين الحرب هو الأمل والمعنويات العالية، أما العسكر الذى يفقد الأمل ولا يتحلى بمعنويات عالية فسوف يخسر المعركة ولو كان قد عُدَّت له العدة وجُهِّز بأكثر الاسلحة تطوراً. إنَّ الدعاء يعكس ضوء الأمل فى قلب الإنسان. إنَّ أصحاب الدعاء والمتوكلين على الله- رغم مشاكلهم الكثيرة وأعداءهم الجسورين وفقرهم المالى- إذا توجهوا إلى الله وناجوه، حيث قلوبهم نضحت بنور الأمل، وتفاءلوا بالمستقبل، وكأنّهم مُنحوا حياة جديدة؛ وذلك لأنّهم مدوا أيدى العون إلى من كانت أصعب الشدائد عنده أسهلها، مدوا أيديهم إلى الله الذى لا موقع للصعب والسهل عنده، وذلك لأنَ امثال القران، ص: ۲۱۱ الصعب يعنى الشىء الذى فوق القدرة والسهل يعنى الشىء الذى أدنى من القدرة، وهل هناك شىء يفوق قدرة اللّه؟ وعلى هذا، فلا اختلاف عند الله بين الصعب والسهل، فاذا أراد شيئاً قال له (كن) فيكون فى لحظة حتى لو كان ذلك الشىء هو صنع ملايين من الشموس المثيلة لشمس الأرض. إنَّ الإنسان إذا دعا وناجى من يملك مثل هذه القدرة وسجد له وخشع وبكى وطرح مشاكله عليه، فلا شك أنَّ نور الأمل سيستحوذ على قلب هذا الشخص. ۲- الاثر الثانى للدعاء هو ايجاد نور التقوى فى الإنسان الذى هو السبب فى تقرّب الإنسان إلى ربّه. «۱» التقوى هو زاد نجاة الإنسان يوم القيامة؛ «۲» وهو جواز دخول الجنة. «۳» الدعاء يحيى هذه الجوهرة الثمينة فى قلب الإنسان، إنَّ الإنسان إذا ناجى الله وتوسل به ودعاه باسمائه الحسنى وصفات جماله وجلاله، فإنَّ ذكر هذه الصفات سيترك أثراً يسوق الإنسان نحو الله بشكل يشعر الإنسان بأنه إذا أراد الاستجابة تاب وأناب إلى الله. إنَّ الدعاء يدعو الإنسان إلى التوبة، والتوبة تدعو الإنسان لاعادة النظر فى حياته، وفى نهاية هذه الحركة يتقد نور التقوى فى حياة الإنسان. جاء فى حديث: «من تقدّم فى الدعاء استجيبت له إذا نزل به البلاء،

وقالت الملائكة: صوت معروف ولم يحجب عن السماء، ومن لم يتقدّم فى الدعاء لم يستجب له إذا نزل به البلاء وقالت الملائكة: إنّ ذا الصوت لا نعرفه». «۴» يقول الإمام على عليه السلام فى خطبة همّام القيّمة عند بيانه لأوصاف المتقين: «نُزّلت أنفسهم منهم فى البلاء كالّتى نزلّت فى الرّخاء». «۵» امثال القران، ص: ۲۱۲ ولهذا، لا فائدة فى مناجاة فرعون وإقراره بالتوحيد، فقد جاء فى الحديث ما يلى: «... قال جبرائيل: ... لمّا غرق والله فرعون قال: آمنت أنّه لا إله إلّا الذى آمنت به بنو اسرائيل. فأخذت حمأة (جكومة من طين) فوضعتها فى فمه ...». «۱» ۳- إنّ الاثر التربوى الثالث للدعاء هو تقوية نور المعرفة. إنّ الإنسان عندما يتجه إلى الله سوف يبدأ بالتفكير بأن الله قادر وعالم بما خفى عنا وبما ظهر ومحيط بجميع الأسرار، وهذا سوف يرفع من مستوى معرفة الإنسان، وبخاصة إذا كانت الأدعية المقروءة من الصحيفة السجادية أو المناجاة الشعبانية أو الصباح أو كميل أو الندبة، فهى تضمّ أرقى الدروس العرفانية، ومع وجود أدعية، أمثال هذه، لا داعى بالنسبة لطلبة العرفان أن يلجؤوا إلى كتب مشكوك فى أمرها. وعلى هذا، فالدعاء يوقد نور التقوى والمعرفة فى قلب الإنسان. سؤال: نقرأ فى دعاء شهر رجب- الذى يستحب قراءته بعد كل صلاة من الشهر- العبارة التالية: «يا من يعطى من سأله، يا من يعطى من لم يسأله ومن لم يعرفه». وعلى أساس هذه العبارة فان الله يعطى كل شخص سواء دعاه أم لم يدعه، وسواء كان عارفاً به أم لم يكن. وعلى هذا فما فائدة الدعاء وجدواه؟ الجواب: إنّ لفيض الله وبركاته أقساماً وأنواعاً: قسم يمنحه الله لجميع البشر، مثل الغيث، فالجميع من الكافر والمؤمن والعارف وغيره يفيدون منه. وقسم من البركات تمنح للعارفين من المؤمنين ولا تشمل غيرهم. وقسم من البركات والفيض يُمنح للداعين فقط دون غيرهم. جاء فى حديث: «لا تقل إنَّ الأمر قد فرغ منه، إنَّ عند الله منزلة لا تُنال إلّا بمسألة». «۲» وعلى هذا، فإنَّ القسم الأول هو الوحيد الذى يشمل الجميع أما القسم الثانى والثالث فالإيمان والدعاء يؤثران فيهما.

موانع وشروط استجابة الدعاء

اشارة

لماذا لم يُستجب لبعض أدعيتنا؟ لماذا لم تتحقق وعود الله فى مجال استجابة الدعاء؟ هل الاشكال من قبل الله- نعوذ بالله- أم الاشكال من قبل الداعين أنفسهم؟ إنَّ هذه الشبهات كان يطرحها الصحابة والمسلمون فى زمن الأئمة المعصومين (عليهم السلام)، وكان أهل الذكر (الائمة) يجيبون عليها فى روايات وردت عنهم. مجموع الروايات السابقة وروايات اخرى جاءت فى هذا المجال (ولم تتضمن أسئلة) تكشف عن أنّ هناك شروطاً لاستجابة الدعاء، على الداعين توفيرها وتحصيلها، كما عليهم إزالة الموانع والعقبات عن الاستجابة. وعلى هذا، فإنَّ الإنسان إذا دعى من دون تحصيل الشروط ورفع العقبات والموانع، ولم يستجب دعاؤه، فما عليه أن يلوم إلّا نفسه. إنَّ مَثَلَ الداعى من دون تحصيل الشروط ورفع الموانع مَثَلُ المريض الذى يذهب للطبيب للتداوى فيكتب الطبيب له نسخة تتضمن إرشاد المريض بحقن ابرٍ فى كل يومين مرة، وبعد استلام المريض الدواء واستهلاكه وعدم الشفاء يرجع المريض للطبيب قائلًا له بعصبية: (أى طبيب أنت وأى دواء كتبت لى؟! لم أشف منه أبداً) فيسأله الطبيب: (هل حقنت الابر فى كل يومين مرة؟) فيجيبه: (لا بل فى كل ثلاثة أيام). ويسأله مرة اخرى هل: (استخدمت المضادات الحيوية فى كل ثمان ساعات؟) فيجيبه المريض: (كنت أبتلع فى اليوم كبسولة واحدة) ويسأله مرة اخرى: (امرتك بالاستراحة لمدة اربعة أيام هل استرحت فيها أم لا؟) فيجيبه: (وهل هذا أمر ممكن رغم ما نعانيه من غلاء فى السلع والأغذية؟ فانى رجعت للعمل فى نفس اليوم). فيهز الطبيب رأسه ويقول له: (لا إشكال فى الأدوية التى كتبتها لك، والاشكال هو فيك من حيث إنَّك لم تعمل بما أمرتك به، الامر الذى أدى بك أن لا تسترجع صحتك وعافيتك فلا تلم إلا نفسك). كذا الحال لو أعطى متخصص زراعى بذوراً لفلاحٍ وأمره بنثرها وزرعها والعناية بها بشكل خاص وسقيها فى أوقات محددة، والفلاح لم يعمل بوصايا المتخصص، وكانت النتيجة هى عدم إثمار البذور، فإنَّ المقصّر هنا هو الفلاح نفسه لا

شخص آخر. اعزتی: أيها الصيام المحترمون! إخوانی وأخواتی الأعزة! إن أدعيتنا مثل البذور فلا يكفی امثال القران، ص: ۲۱۴ نثرها علی الأرض، بل هی بحاجة إلی سقی وعناية خاصة واستخدام الأسمدة والسموم لمكافحة الآفات. إنّ ما تقرّه الروايات هو ضرورة توافر الظروف والشروط وارتفاع الموانع لأجل الاستجابة. لكن المؤسف هنا هو توقعنا الأجابة من دون توفير هذين الأمرين، وذلك غير معقول. نشير هنا إلی بعض من شروط وموانع استجابة الدعاء:

۱- عدم معرفة الله أهم مانع عن الإستجابة

بعبارة اخری: أَنَّ معرفة الله من الشروط الاساسية بل أهم شرط لاستجابة الدعاء. وهل يمكن الطلب مِمَّن لا يُعرف وممَّن نجهله؟! فی رواية عن الإمام الصادق عليه السلام سأله البعض عن سبب عدم استجابة الدعاء فأجابهم: «لأنّكم تدعون من لا تعرفونه». «۱» وعليه، فكما قلنا سابقاً: إنّ الدعاء يلقی بنور المعرفة فی قلب الإنسان، والمعرفة هی الأساس للدعاء، أی أنّ لهذين آثاراً متبادلة. يقول الله فی القرآن: «إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَی عَنِ الفَحْشَاءِ والمُنْكَرِ» «۲» أی أنَّ المجتمع المصلی لا يتلوّث بالذنوب وكذا الأفراد؛ لأنَّ الصلاة هی الضمان والأمان من الذنوب. مع ملاحظة الآية الشريفة السابقة، لماذا نری بعض المصلين يرتكبون الذنوب؟ هل الاشكال- نعوذ بالله- من الآية نفسها أم من المصلی ذاته؟ المصلی إذا ما كان عارفاً بالذی يصلی إليه ويسجد له، فإنَّ صلاته سوف لا تكون تأميناً له من الذنوب ومانعاً له عن المعصية. إنَّ معرفة الله جوهرة ثمينة وهی شرط لكثير من العبادات، بل هی شرط حتی للزيارات؛ وذلك لأنَّ ثواب وآثار الزيارات تخص ذلك البعض الذی تقترن زيارته بمعرفة اللّه. «۳» امثال القران، ص: ۲۱۵ وعلی هذا، فإنَّ الشرط الأوّل لاجابة الدعاء هو معرفة صفات جلال الله وجماله وأفعاله واسمائه الحسنی، وعلی كل شخص أن يحوی هذه المعرفة قدر طاقته وامكانه.

۲- النيّة الصادقة والقلب المخلص

إنَّ الشرط الثانی لاجابة الدعاء هو النية الصادقة والطاهرة والقلب المخلص والعاری عن الرياء. وفی هذا المجال يقول الإمام الصادق عليه السلام «إنّ العبد إذا دعا الله تبارك وتعالی بنيّةٍ وقلبٍ مخلصٍ استجيب له بعد وفائه بعهد الله عزّوجلّ». «۱» إنَّ العمل بعهد الله والوفاء به- والذی هو صفاء القلب والاخلاص فی النية- هو شرط قبول الدعاء. ينبغی الالتفات إلی كيفية تربية الدعاء للإنسان، إنَّا نطرق باب الله لقضاء الحاجة وحلّ المشاكل، إلّا أنَّه علينا أن نعلم بعدم امكانية الاستجابة إلّا بالاخلاص وصفاء القلب، لذلك كان علينا السعی فی التزكية وتهذيب النفس.

۳- الاكل الحلال شرط مهم وصعب لاجابة الدعاء

يقول الرسول صلی الله عليه و آله فی رواية جميلة جداً ومنذرة كذلك: «أطب كسبك تستجاب دعوتك، فإنّ الرجل يرفع إلی فيه حراماً فما تستجاب له دعوة أربعين يوماً». «۲» بعض الناس تلوثت أموالهم ومكاسبهم بالحرام وذلك بالتطفيف والربا وظلم الآخرين وعدم أداء الواجبات المالية، رغم ذلك يتوقعون من الله الإجابة. المستفاد من الكلام الثمين لرسول الله صلی الله عليه و آله هو أنَّ الدعاء عامل مهم فی تربية الإنسان ويحضُّ الإنسان علی رعاية الحلال والحرام. امثال القران، ص: ۲۱۶ من الإنصاف أن نقول: إنَّ رعاية الحلال والحرام له دور مهم فی حياة الإنسان، وأنَّ الناس إذا اهتموا بهذا الجانب من حياتهم لما تكدست الاضبارات والشكاوی فی المحاكم. إذا راعی الناس الحلال والحرام ما كان مجتمعنا يضمُّ هذا المقدار من الفقراء. أسفاً أنّ البعض غافل عن هذا ويبرّر عمله بشكل أو آخر ويقول: أين الحلال والحرام؟ لا- وجود للحلال لكی نراه. يقول أحد هؤلاء الذين يتمسكون بتبريرات هی هراء فی الواقع: (إنَّ الحلال الوحيد فی الدنيا هو ماء المطر ويمكنك الاستفادة منه فی وسط النهر فقط لأنه مكان نطمئن بعدم غصبه، فعند هطول الامطار قف هناك وافتح فمك لتناول القطرات، وهذا هو المقدار الوحيد المسلّم بحليته). إن أُناساً مثل هذا يخادعون أنفسهم

«يُخَادِعُونَ اللهَ وَالّذينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إلّا أنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ». «۱» وبعبارة اخرى: أنّهم يغالطون أنفسهم؛ وذلك لأنَّ حديثنا فى الحلال والحرام الظاهريين، وهم يتحدثون عن الحلال والحرام الواقعيين، مع أنّا مأمورون بالعمل حسب الظاهر لا الواقع. ألم يهىء أئمتنا مأكولاتهم ومشروباتهم من سوق المسلمين هذا، وهم فى الوقت ذاته يلتزمون بالظواهر ولا يحتاطون إلّا فى الاماكن المناسبة. مثلًا كانوا يفيدون من الخبز واللحم اللذين لم تدفع زكاتهما؟ ومن المناسب لنا كذلك أن نعدّ مقدار استهلاكنا السنوى للخبز واللحم وندفع زكاته؛ لأنّ الكثير من المزارعين والرعاة لا يدفعون زكوات أموالهم ونحن نفيد من محصولاتهم ومنتجاتهم، وهذا مؤسف حقاً؛ لأنه ابتلاء لنا. رغم أننا معذورون بسبب عدم العلم إلّا أنَّ عدم الدفع سوف يترك أثره الوضعى. ولذلك كان عده ودفع زكاته أمراً مستحسناً ويسبب الطهارة القلبية والنزاهة الروحية. النتيجة هى أنَّ الأكل الحلال لا يؤثر فى الدعاء فحسب، بل فى جميع عبادات الإنسان من امثال القران، ص: ۲۱۷ الصلاة والصوم والحج والزيارات الواجبة والمستحبة وأمثال ذلك. ومن ناحية أُخرى، انّ الأكل الحرام لا ـ يمنع عن استجابة الدعاء، بل يؤثر سلباً على نشاط الإنسان ومعنوياته وعباداته وزياراته ويجره إلى الكسل عن قراءة القرآن واقامة الصلاة، وهو فى النهاية يحول دون الالتذاذ بهذه الأعمال.

۴- حضور القلب

الشرط الرابع لاستجابة الدُّعاء هو حضور القلب، ومن الواضح أنَّه شرط ذات أهمية وقيمة؛ لما جاء فى رواية: سُئل النبى صلى الله عليه و آله عن اسم الله الأعظم؟ فقال: «كل اسم من اسماء الله أعظم ففرِّغ قلبك من كلِّ ما سواه وادعه بأى اسم شئت». «۱» من هنا يتضح أنَّ الأسم الأعظم ليس لفظاً خاصاً- كما يتصوره البعض- لكى يُنطق به وتحل به جميع المشاكل، بل إنّه حالة وصفة خاصة ينبغى ايجادها فى باطن الإنسان، وهى عبارة عن تطهير القلب. «۲» القلب إذا كان مركزاً للأصنام (صنم المال وصنم المقام وصنم الشهرة وصنم الزوجة والاولاد وما شابه ذلك) فالدعاء إذا صدر فيصدر من معبد الأصنام هذا. ومن الواضح أنَّ دعاءً كهذا لا يستجاب. الخطوة الأولى للاستجابة هو الاقتداء بما فعله ابراهيم عليه السلام وعلى عليه السلام فى كسرهما الأصنام، فبذلك تطهر القلوب، فهى آنذاك تصفى للواحد الأحد، ثم ادعه بأى اسم شئت، وسوف لا تكون النتيجة إلّا الاستجابة. مع الالتفات إلى الشروط الاربعة الماضية نقول: هل نحن وفرّنا هذه الشروط؟ هل كان طعامنا من حلال؟ هل كان قلبنا خالياً من الأغيار؟ هل كان الصفاء والاخلاص فى النية هو الذى يحكمنا؟ هل كنا نعرف الله؟ امثال القران، ص: ۲۱۸ إذا كنا نفقد هذه الشروط علينا السعى فى كسبها وبخاصة فى شهر رمضان المبارك، شهر الرحمة واللطف الالهى، وهو شهر تستعدُّ فيه روح الإنسان لهذه الامور أكثر، كما هو فرصة مناسبة للدعاء ...

استجابة بعض الأدعية ليست بمصلحة الإنسان!

رغم أنَّا كُلّفنا بالدعاء ونأمل الاجابة، لكن ينبغى الالتفات إلى أنَّ إجابة بعض الأدعية ليس بمصلحة الإنسان رغم أنَّه يراها بمصلحته وأنها توفر سعادته، لكن الله يرى فيها الهلاك والشقاء لذلك لا يستجيب لها. قلنا فى قصة ثعلبة الانصارى التى مضت فى البحوث السابقة: إنَّ ما أراده وطلبه من الله لم يكن بمصلحته، إلّا أنَّه كان يصرّ على دعائه وطلبه، وكانت نتيجة الاستجابة هى فقده الايمان وضلالته واعتراضه على بعض القوانين الإلهية. وهذه القصة تتضمن دروساً وعبراً عظيمة للجميع. قد يُقدم شاب على خطبة بنت ترفض الزواج منه، فيدعو الله ويتوسل إليه كثيراً لكى يميل رأيها ويغيره نحوه، رغم ذلك لا يستجاب دعاؤه، فتضلّ فى ذاكرته فترة طويلة من الزمن، إلّا أنّه يلتفت إلى مصلحة عدم استجابة الدعاء بعد ما يفهم أنَّ المرأة تلد اطفالًا معتوهين مثلًا. وعلى هذا، ما علينا أنْ نقلق من عدم استجابة أدعيتنا؛ وذلك لأنَّه يمكن أن تكون عدم الاستجابة بسبب عدم المصلحة. إضافة إلى هذا، فإنَّ هناك روايات وردت عن المعصومين عليهم السلام حكت عن أنَّ الله يعطى العبد فى الآخرة ما يعادل أدعيته غير المستجابة. «۱»

سؤالان مهمان عن الدعاء

السؤال الأوّل: نجد فيما ورد عن أئمتنا أدعية لا تستجاب أبداً، كما هو الحال فى أدعية شهر امثال القران، ص: ۲۱۹ رمضان الذى تضمّن بعضها عبارة: «اللهم اقضِ دين كلّ مدين» مع أنّا نعلم أنَّ هذا الدعاء لا يستجاب؛ لأنَّه ما دامت الدنيا موجودة فهناك ديون للناس، والحياة من دون هذه الديون حياة خيالية لا أكثر، فما الهدف من هذه الأدعية؟ الجواب: إنَّ الديون على قسمين، قسم نشهد ممارسته من قبل التجار والكسبة بأن يستلفوا السلع دون دفع ثمنها، ويسددون الثمن بعد بيعها، أو استلاف الموظفين والعمال السلف من أصحاب العمل، وتسديدها تدريجياً من إيراداتهم الشهرية. والقسم الآخر هو الدين الذى لا تتوفر للإنسان أرضية دفعه، رغم ذلك هو مجبور على استلافه ويعلم بعجزه عن الدفع. ويبدو أنَّ مراد الامام من الدين هو القسم الثانى لا الأول. القسم الثانى من الديون لا أنه يستحسن الدعاء فيه ويمكن تحقق الاجابة له، بل إنَّه بناءً على ما أمر به الإسلام ينبغى تزامن الدعاء مع اجراءات عملية؛ وذلك لأنَّ فى المجتمع الإسلامى المتكامل- وهو مجتمع صاحب العصر والزمان (عج)- لا ينبغى وجود حتى جائع واحد أو عار واحد أو فقير واحد، لذلك نقرأ فى الدعاء: «اللهم أشبع كلَّ جائع، اللهمَّ اكسُ كلَّ عُريان، اللهم أغن كلّ فقير». إنَّ شاهد هذا الحديث هو رواية وردت عن الإمام الصادق عليه السلام: «إنَّ الله عزّوجلّ فرض للفقراء فى مال الأغنياء ما يسعهم، ولو علم أنّ ذلك لا يسعهم لزادهم». «۱» ومضمون الرواية السابقة وغيرها هو أنَّ الناس لو دفعوا ما عليهم من واجبات مالية لما بقى جائع ولا فقير ولا عارى فى المجتمع، وإذا وجدت هذه الشرائح فبسبب عصيان الاغنياء ومنعهم الفقراء عن حقهم. إنَّ مجتمع صاحب الزمان يخلو من الفقر والجوع والدين ... والدعاء لرفع هذه المشاكل لا تبعد إجابته. السؤال الثانى: من الاعمال ذات الفضيلة الوافرة فى ليلة القدر هى وضع القرآن على امثال القران، ص: ۲۲۰ الرأس، رغم أنَّ القرآن كوصفة الطبيب «وَنُنَزِّلُ مِنَ القُرآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ للمُؤمِنِيْنَ»، ولكنها وصفة لا تنفع إلّا بعد العمل بها، فما جدوى وضع القرآن على الرأس عند الدعاء فى تلك الليلة؟ الجواب: القرآن ذات جانبين ووصفة الطبيب ذات جانب واحد. فإنَّ القرآن هو كلام الله من جهة، وهو ذات الفاظ بذاتها مقدسة من جهة أُخرى. ولذلك يعتقد المسلمون بلزوم الوضوء إذا أرادوا لمسه. ومن جهة أخرى، مضمونه مقدس، لذلك عدّ القرآن (الثقل الأكبر) وأهل البيت عليهم السلام (الثقل الأصغر)، ولهذا لا يصح قياس وصفة الطبيب على القرآن. بالطبع، انَّ هذا العمل (وضع القرآن على الرأس) يحمل فى طياته رسالات خاصة، فهو يعلمنا لزوم عدم وضع القرآن تحت الأيدى والارجل (من حيث الظاهر)، ومن حيث المحتوى والمضون فهو يعلمنا اعتبار القرآن على رأس قائمة الاعمال والنشاطات، وعلى العمل بقوانينه بشكل متواصل، وعدم نسيان أحكامه. امثال القران، ص: ۲۲۱

المثل الحادى والعشرون: الحق والباطل

اشارة

من أجمل امثال القرآن هو مثل الحق والباطل، يقول الله تعالى فى بيان هذا المثل ذات المغزى العميق فى الآية ۱۷ من سورة الرعد: «أنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أوْدِيةٌ بِقَدَرِهَا فاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَابِياً وَمِمّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلك يَضْرِبُ اللهُ الحقَّ والبَاطِلُ فأمَّا الزَّبَدُ فيَذهَبُ جُفَاءً وأمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فيَمْكُثُ فِى الأرْضِ كَذَلك يَضْرِبُ اللهُ الأمْثَالَ».

تصوير البحث

إنَّ الحديث فى هذا المثل عن الحقّ والباطل وسعتهما ومجاليهما وعلائمهما وآثارهما وتعريفهما، وفى النهاية المواجهة الطويلة والمتواصلة بينهما التى كانت على طول التاريخ.

الشرح والتفسير

«أَنْزَلَ مِنَ السّمَاءِ مَاءً فسالَتْ أوْدِيةٌ بِقَدَرِهَا» إنَّ نتيجة هطول الامطار على الجبال ونزوله منها هو تجمع المياه فى الاودية حسب حجمها، وجريانه وصيرورته أنهاراً صغاراً، وإذا التقت صنعت نهراً كبيراً، واذا تجاوز الماء سعة النهر تبدّل إلى سيول عظيمة ومخرّبة. «فاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَابِياً» هذه الانهار كثيراً ما يحصل فيها أمواج تضرب الاحجار والموانع التى تقع فى طريقها، وهذه العملية توجد زبداً فى الماء يشبه الزبد الذى يوجده امثال القران، ص: ۲۲۲ مسحوق الغسيل، يتجمّع على سطح النهر يبدو ساكناً، أمّا النهر فيستمر فى حركته تحت الزبد. «ومِمّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أو مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ» هذا الزبد الاجوف والمتكبّر لا يختص بالماء بل قد يحصل للفلزات عند الصهر والذوبان مثل الحديد والنحاس وغيرهما. ما يلفت النظر هنا هو أنَّ عبارة «مِمَّا يُوْقِدُونَ عَلَيْهِ» أشارت بظاهرها إلى أنَّ النار تُسلّط من الفوق على هذه المعادن رغم أنَّ النار فى السابق كانت توقد على الفلزات من تحت أمّا حالياً فمعامل الصهر المتطوّرة تسلّط النار من فوق ومن تحت أى لم تستغن عن تسليط النار على الفلز من الاعلى، وهو أمر أشار له القرآن منذ ذلك الحين. «كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الحَقَّ والبَاطِلَ» أى أنَّ الله لأجل إيضاح المواجهة بين الحق والباطل والتى يمتد عمرها إلى طول التاريخ يضرب هذا المثل، فيشبّه الحق بالماء والباطل بالزبد الأجوف. «فأمّا الزّبدُ فيَذْهَبُ جُفَاءً» فإنَّ الزبد، رغم تفوقه على الماء ورغم علوه عليه، يذهب جفاء وكأنَّه لا شىء. إنّ الأمواج التى توجدها السيول هى السبب فى ايجاد هذا الزبد، وبمجرد أن تصل المياه المتلاطمة إلى سهول تصبح آسنة وسرعان ما يذهب الزبد وتترسب الاوساخ العالقة فى الماء ولا يبقى إلَّا الماء الخالص؛ ذلك لأنّ عمر الباطل قصير، والهلاك هو نهايته. «وأمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى الأرْضِ» فالذى يبقى هو ما ينفع الناس من الماء الصافى والفلزات الخالصة. فالماء، إمَّا أن يركد فى مكان يستخدم للشرب والسقى وإمَّا أن ينفذ فى الأرض ليلتحق بالمياه الجوفية ذخراً للمستقبل، يستخدم بعد ما يخرج كعيون تلقائياً أو من خلال حفر الآبار. «كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأمْثَالَ» أى يبيّن الله هذه الأمور للناس فى صورة أمثال لكى تدرك بشكل أفضل.

خطابات الآية

اشارة

لقد تناولت الآية قضايا دقيقة جداً ممّا يتعلّق بالحق والباطل باقتضاب، نقوم هنا بتفصيل هذه القضايا وبيانها.

۱- تعريف الحق والباطل

على أساس هذه الآية، فإنَّ الحق يعنى الحقائق والواقعيات، وأما الباطل فيعنى الاوهام والخيالات التى لا أساس لها. إنَّ الماء واقع وحقيقةً، يتطابق ظاهره مع باطنه، وله آثار واقعية. أمّا الزبد فله ظاهر خادع من دون أن يكون له باطن، كما هو الحال فى الخيالات والاوهام. لقد جاء فى الآيتين ۱۱۷ و ۱۱۸ من سورة الاعراف فى بيان قصة موسى عليه السلام مع السحرة كما يلى: «وأوْحَيْنَا إلى مُوْسَى أنْ ألقِ عَصَاكَ فإذا هِىَ تَلْقَفُ ما تَأفِكُونَ فَوَقَعَ الحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ». إنّ الحق هو معجزة النبىّ موسى عليه السلام، والباطل هو سحر السحرة، فالمعجزة حقيقة وواقع؛ لأنَّ عصا موسى عليه السلام تبدلت واقعاً إلى أفعى ولم تكن الحادثة تلك شعوذة- نعوذ بالله- أمّا أفاعى السحرة فكانت شعوذة خالصة ولم تكن واقعاً، بل إفكاً، كما يعبر عنها القرآن. إنَّ السحرة كانوا قد أعدوا عصياً وحبالًا ملؤوها بالزئبق، ووضعوها جميعاً فى مكان ما، وكان الناس وفرعون والسحرة وكذا موسى عليه السلام جالسين يشاهدون ما يحصل. عندما سطعت الشمس على هذه الحبال والعصى ارتفعت درجة حرارة الزئبق، الأمر الذى جعل الحبال والعصى تتحرك وتلتوى على بعضها البعض بحيث تبدوا كانها أفاعى، ولكنَّها فى الواقع خيال لا أكثر.

۲- علائم الحق والباطل

مما يستفاد من الآية هو أنَّ علامة الحق كونه مفيداً للناس، وعلامة الباطل كونه مضراً لهم، فالماء مفيد وله تأثير، والزبد مضر ولا فائدة تتوخى منه؛ وذلك لأن الزبد لا يروى ضمأ العطشان ولا يسقى الزرع ولا يُنميه ولا يولّد شيئاً من الطاقة، ولا يُشغّل طاحونة أو دولاباً. ومن العلائم الاخرى للحق والباطل هو كون الحق خاضعاً ومتواضعاً، أما الباطل فمتكبر. فالحق هو الماء المتواضع تحت الزبد، وأما الباطل فهو الزبد العالى والمتكبّر. العلامة الثالثة للحق والباطل هو أنَّ الباطل ضوضائى، أما الحق فهادىء وساكن. فالماء امثال القران، ص: ۲۲۴ هادئ وساكن، أمّا الزبد فصارخ وصاخب، ولا يمكنه العيش دون هذا الضوضاء والصراخ والصخب.

۳- سعة الحق والباطل

إنَّ سعة الحق والباطل بسعة مفاهيم الحياة. فالحق والباطل لا ينحصران فى جانب من الحياة، بل يعمان جميع شؤونها ويشملانها، من السياسة والثقافة والصحافة وغير ذلك. وبعبارة اخرى: يشمل جميع الجوانب المادية والمعنوية للحياة. وهذا المعنى يستفاد من القرآن المجيد ومن آية المثل ذاتها، فكما أنَّ الزبد لا يختص بالماء كذلك الباطل لا يختص فى شيءٍ ما.

۴- عاقبة المواجهة بين الحق والباطل

فى هذه المواجهة يبقى الحق ويزهق الباطل ويمحق، إلّا أنَّ انتصار الحق على شكلين مؤقت وزمنى وآخر نهائى. إن أنصار الحقّ إذا استقاموا ولم ينحرفوا فسينتصرون فى أزمنة مختلفة ما داموا مستقيمين غير منحرفين، أمّا النصر النهائى فلا يحصل إلّا بظهور صاحب العصر والزمان بقية الله الأعظم (عجل الله تعالى فرجه)، وحينئذٍ سيتغير وجه الدنيا وستحكم الدنيا حكومة عالمية حقة. من الآيات التى فسرت فى الحجة بن الحسن العسكرى عليه السلام هى هذه الآية، حيث فسِّر الماء فى المثل بوجود الحجة المبارك، والزبد بالظلم والجور والانتهاز والاستعمار فانها ستزول يوماً ما.

۵- المواجهة بين الحق والباطل دائمة

كما أشرنا سابقاً، فإنَّ المواجهة بين الحق والباطل بدأت منذ بداية الخلق، والعصور جميعها ضمت هذين الظاهرتين، وستضم العصور المقبلة هذين الظاهرتين وستستمر هذه المواجهة امثال القران، ص: ۲۲۵ حتى النهاية. لقد كان لكل نبى شيطان، «۱» فقبال آدم عليه السلام كان ابليس، وقبال الأنبياء الآخرين شياطين اخرون، كما تكشف الآية التالية عن هذا الأمر: «وَكَذَلك جَعَلْنَا لُكِلِّ نبيٍّ عَدُّواً شَيَاطِينَ الأنْسِ والجِنِ». «۲» المستفاد من الآية الشريفة هو أنَّ الشيطان ليس شيئاً خفياً دائماً، بل قد يكون من الناس أنفسهم، وقد يكون هذا هو سبب تقديم الآية شياطين الانس على الجنّ. وعلى هذا، فإنَّ المواجهة بين الحق والباطل لا زالت مستمرة حتى استقرار حكومة الحق وبسط سيطرتها على بقاع الأرض جميعاً، وتتحقق الآية الشريفة التالية: «وَقُلْ جَاءَ الحَقُّ وَزَهَقَ البَاطِلُ إنَّ البَاطِلَ كَانَ زَهُوْقاً» «۳» فى ظل ظهور المهدى (عجل الله تعالى فرجه الشريف)، والمواجهة قبل ذلك متواصلة.

۶- كيفية تبلور الباطل

كيف نشأ الباطل وتبلور؟ هل الله تعالى هو الذى خلق بعض الموجودات الباطلة رغم أنَّه حق بل ابرز وأرفع حق؟ إنَّ الباطل موجود عدمى وهو وهم وخيال قد تلبّس ثوب الحق، مثل الزبد الأجوف، ذات الظاهر الخلاب والخادع. الجميل هنا هو أنَّ الباطل اذا عمل على إبطال نفسه فذلك ببركة الحق. إنَّ المزيفين- الذين يعتمدون الزيف كمهنة لهم- إذا لم يتقمّصوا قمصان ذوى الشأن والاعتبار

سوف لا يتوفقون فى عملهم الباطل هـذا، كـذلك الكذّابين فإنَّهم إذا لم يتمسكوا بالحق ولم يتظاهروا بالصدق لما امثال القران، ص: ۲۲۶ صـدّقهم أحـد. والمنافق إذا لم يرتـدِ ثوب الإنسان الصالح، والعدو إذا لم يتقمص قميص الصديق، والزبد إذا لم يطفو على الماء، وبالجملـة مالم يجتمع الباطل بمختلف مصاديقه إلى جنب الحق فلا تكون هناك مواجهـة. وعليه فالباطل عـدمى ووجوده يتوقف على الحق. أمّا الحق، فأمر وجودى وهو مصدر البركات والمنافع وذا آثار كثيرة للإنسان.

الحق والباطل من وجهة نظر الآيات والروايات

بما أنَّ أهم بحث فى حياة الإنسان هو قضـية (الحق والباطل)، وهى تحضـى بموقع خاص عند جميع البشر بمختلف توجهاتهم الفكرية، لـذلك كان من المناسب دراسـة هـذه القضـية من وجهـة نظر الآيات والروايات: لقـد تحـدث القرآن عن الحق والباطل بمقـدار كثير، وتكررت مفردة الحـق ۲۴۴ مرة، مـع أنَّ مفردة الباطـل تكررت ۲۶ مرة فقـط. وهـذه النسـبة تكشـف عن أنَّ القرآن المجيـد ذاته من مصاديق الحق.

ما هى مصاديق الحق؟

لقـد ذكر فى القرآن مصـاديق مختلفـة للحق نشـير إلى بعض منهـا هنا: ۱- أبرز وأرفـع مصـداق للحـق هو ذات الله القدسـية، وهى فى الحقيقة جامعة لجميع مصاديق الحق، وهى عين الواقع والوجود المطلق. من هنا صرّح الله فى الآية الكريمة ۶۲ من سورة الأنعام ما يلى: «ثُمّ رُدُّوا إلى اللهِ مَوْلَيهُم الحَقِّ ألا لَهُ الحُكْمُ وَهُوَ أسْرَعُ الحَاسِبِيْنَ» فعلى أساس هذه الآية، إنَّ الله الذى لا مثيل له هو الحقّ. ۲- النموذج الآخر وهو من أبرز مصاديق الحقّ عبارة عن خلق السـموات والأرض أو الكون أجمع. تقول الآية الشريفة ۲۲ من سورة الجاثية: «وَخَلَقَ اللهُ السَّمَـاوَاتِ والأرْضَ بالحَقِّ». ۳- المصـداق الثـالث للحق هو القرآن نفسه؛ وذلـك لأن الآيـة ۴۸ من سورة المائـدة عنـد بيانها لهذا المطلب تقول: «وأنْزَلْنَـا إلَيْـكَ الكِتَـابَ بِـالحَقِّ». امثال القران، ص: ۲۲۷ ۴- الـدين المبين والمنقذ للبشـرية، أى الإسـلام، وهو مصداق واضح آخر من مصاديق الحق. لذلك يقول الله تعالى فى الآية ۲۸ من سورة الفتح: «هُوَ الّذِى أرْسَلَ رَسُولَهُ بالهُدَى وَدِيْنَ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الـدِّيْنِ كُلِّهِ». «۱» وخلاصـةً، كـل وجود هو منبع لخير البشـر وسـعادتهم يُعـدّ حقـاً، لـذلك كـان الله الحق المطلق؛ لأنَّه منبع جميع البركـات والسـعادات، كما أن السـماوات والأرض والقرآن المجيـد ودين الإسـلام والتوحيـد، باعتبارها جميعاً منشأ للهدايـة والبركـة، عدّت حقاً. وكل شىء هو منبع ومصدر للشقاء فهو باطل، مثل الشيطان والأصنام وعبادتهما والرياء والتظاهر والنفاق وامثال ذلك.

جولة الباطل ودولة الحق

المسـتفاد من الروايات هو أنَّ الباطل قد يكون له جولة وصراخ وصخب إلّا أنَّ عمره مهما كان فهو قصير ومؤقّت: «للباطل جولةٌ وللحقّ دولة» «۲» والدولة هى الثبات والبقاء والخلود، والجولة هى النفاق والخداع المؤقت.

كن مع الحق دائما

حسب مـا ورد فى الروايات الإسـلامية، على المسـلم فى كل حال أن يكون مع الحقّ والحقيقـة. إذا أردت التسـلّح بسـلاح النصـر أمام الأعداء، فعليك التمسك بسـيف الحقّ الصارم، كما قال الإمام على عليه السـلام: «الحق سيف قاطع». «۳» إذا أردت أن تكون من أهل النجاة فى مقام العمل، وأن تكون صاحب حجة وبرهان فى مقام الكلام، فعليك بالتوجّه نحو الحقّ، كما يقول الإمام على عليه السلام: «الحقّ منجـاة لكل عاملٍ امثال القران، ص: ۲۲۸ وحجّة لكلِّ قايلٍ». «۱» إذا أردت من الاخرين قبول كلامك، واذا ابتغيت النصـر، فقل الحقّ والتزمه. وإذا أردت مركبـا هادئـاً يوصـلك إلى غايتـك فكن مع الحقّ. يقول الإمام على عليه السـلام: «ألا وإنّ الحق مطايا ذلل،

ركبها أهلها، وأعطوا أزّمتها، فسارت بهم الهوينا حتى أتت ظلًّا ظليلًا». «۲»

الحق مرٌّ والباطل حلو

تقترن مع الحق والدفاع عنه مشاكل؛ وذلك لأنّه مرٌّ والباطل حلو. إنَّ مرارة الحقّ كمرارة الدواء الذى فيه شفاء، وحلاوة الباطل كحلاوة السم القاتل، لذلك قال الرسول صلى الله عليه و آله: «الحق ثقيل مرٌّ، والباطل خفيف حلوٌ، ورُبَّ شهوة ساعةٍ تورث حزناً طويلًا». «۳» نعم، انَّ الحقّ ثقيل ومرّ؛ لأنَّه لا يكون فى صالح الإنسان دائماً بل قد يضره، وقد يكون عكس ما تروق له النفس والشهوات الإنسانية، وقد يتزامن مع لوم الاخرين وعتابهم ومع مشاكل جمّة يثقل على الإنسان تحّملها، أما الباطل فخفيف وحلو، لكنه كالسم القاتل، لذلك قد يؤدى إلى ندمٍ يرافق الإنسان حتى موته، كما لو ارتكب الإنسان ذنباً لم يستغرق فترة طويلة، لكن عقابه الحبس المؤبد، فذلك يعنى كفارة ساعة من الذنب عمر فى الحبس والسجن.

الباطل يتقمّص قميص الحق دائما

المهم هنا هو أنّ الباطل لا يظهر بثوبه الحقيقى دائماً؛ وذلك لأنَّ اتضاح واقعه يعنى عدم تمكّنه من الخداع، بل إنّه يظهر بمظهر الحق لكى يغرَّ ويخدع الكثير. يقول الإمام على عليه السلام فى هذا المجال فى الخطبة رقم خمسين من نهج البلاغة: «يؤخذ من هذا امثال القران، ص: ۲۲۹ ضغث ومن هذا ضغث فيمزجان، فهناك يستولى الشيطان على أوليائه». أى بما أنَّه لا زبون للباطل المحض، لذلك يمزجه أتباعه مع شىء من الحق ليبدو وكأنه حقّ، فعندئذٍ يأتى دور الشيطان ليستولى على أوليائه وأصحابه. لذلك علينا أن لا ننخدع بالظاهر، إذا أردنا شراء كتاب مثلًا فما علينا أن ننخدع بغلافه الجميل أو يغرّنا عنوانه الخلّاب وشعاراته؛ وذلك لأنّ أهل الباطل قد يستخدمون هذه الخدع لترويج سمومهم وأباطيلهم. وهذا الأمر نفسه صادق بالنسبة للافلام والمسرحيات والجرائد والمجلات والاساتذة والمعلمين والجيران والأحزاب و ... إنَّ أهل المعرفة والبصيرة هم الذين يميزون الباطل عن الحقّ، وذلك لما أعطاهم الله من (فرقان) منحةً لتقواهم.

على عليه السلام محور الحق

هناك الكثير من المطالب المدونة عن فضائل الإمام على عليه السلام وشخصيته وردت فى كتب السنة والشيعة، ومن جملة ما اتفق الفريقان على نقله هو الحديث العجيب واللطيف القائل: «على مع الحقّ والحقّ معه وعلى لسانه، والحقّ يدور حيثما دار علىّ» «۱» وهو حديث منقول عن الرسول الاكرم صلى الله عليه و آله. إنّ هذا الحديث مقياس معتبر لتمييز الحقّ عن الباطل؛ ولذلك أفادت بعض الروايات أنَّ المسلمين فى صدر الإسلام عندما يتشابه عليهم المسلمون والمنافقون والمتظاهرون بالإسلام ويصعب تمييز ذلك، أفادوا من هذا المقياس واعتبروا المسلمين هم المحبون لعلى وأتباعه، المنافقون هم الذين يكنّون العداء والبغض له. «۲» إنَّ الشيعة تفتخر بأن لها زعيماً عظيماً ومحقاً ما كان يمنعه شىء عن احقاق الحقوق، ما كان يتحمل الانحراف عن جادة الحقّ ولو كان صادراً من صحابى أو أحد أقربائه، وكان يأمر بالجبران بمجرد حصوله. امثال القران، ص: ۲۳۰ من جملة مصاديق هذا الكلام هو قصة قنبر غلام على الوفى وعضده التنفيذى فى حكومته، لقد أُمر هذا الغلام بإجراء حدِّ الجلد، إلّا أنه أخطا فى التنفيذ وزاد على الحدّ ثلاث جلدات على المجرم، فأمر هذا القائد المحق قنبر أن يعدّ نفسه لأجل اقتصاص المجرم منه. «۱» ونقرأ فى قضية عقيل أنه ما وافق منحه شيئاً زائداً على ما منحه للمسلمين، بل أحمى حديدة وقرّبها من يد عقيل، فصاح عقيل من شدّة الحرارة. «۲»

المثل الثانى والعشرون: التقوى جواز دخول الجنة

اشارة

يقول الله تعالى فى الآية ۳۵ من سورة الرعد: «مَثَلُ الجَنَّةِ الَّتى وُعِدَ المُتَّقُونَ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقوا وعُقبى الكَافِرِيْنَ النَّارُ».

تصوير البحث

الآيـة السابقـة، رغم بساطـة ظاهرها، تعـدّ من أعقد الأمثال القرآنية، إنها بتّت بتشبيه الجنة- التى هى مأوى المتقين- وذكرت لها ثلاث خصال.

الشرح والتفسير

إنَّ التشبيه المسـتخدم فى الآية يبدو تشبيهاً بسـيطاً، إلّا أنَّه فى الواقع- كما قلنا سابقاً- من أعقد التشابيه المسـتخدمة فى القرآن المجيد. يعتقد المفسّرون أنَّ فى الآية شيئاً محذوفاً، وهو جملة يجب تقديرها إمَّا فى بداية الآية لكى تتلقى الآية خبراً للمبتدأ المحذوف، أو أن نقول بأنَّ صدر الآية مبتدأ، وخبرها محذوف. نعتقد نحن أنَّ خبر الآية محذوف، ولأجل اتضاح الأمر نقدّم مقدمة:

المراحل الأربع قبل الولادة

إن الإنسان يجتاز أربع مراحل ليكتمل ويكون إنساناً. امثال القران، ص: ۲۳۲ فى البداية يكون الإنسان عبارة عن تراب تنمو فيه نبتة أو شجرة، فيصـبح هذا التراب جزءاً من النبات، يأكل حيوان ما هذا النبات ليصبح جزاءاً من بدنه، يتناول الإنسان لحم هذا الحيوان فيصبح لحم الحيوان هذا جزءاً من بدن الإنسان. يمكن بيان المراحل الأربع هذه بشـكل آخر بأن نقول: إن الإنسان كان تراباً فى يوم من الإيام (المرحلـة الأـولى) ومن الطبيعى أن الإنسـان لاـ يمكنه تنـاول التراب مباشـرة بل ما تبـدّل منه إلى نبات أو حيوان (المرحلـة الثانيـة) فى (المرحلـة الثالثـة) يتبـدل النبات أو الحيوان إلى نطفة إنسانية. الجنين فى مراحله الأولى ينمو نمواً نباتياً؛ لأنه يفقد الحس والحركة، فهو ينمو فقط، وبعـد الشـهر الرابع حيث يكون قادراً على الحركـة والحس، و عنـدها تبدأ (المرحلة الرابعة)، وهى تسـتمر حتى تعلّق الروح بالجنين. إنّ لهذه المراحل الأربع عجائب كثيرة، والمرحلة الجنينية من أعجبها.

عجائب من عالم الجنين

اسـتطاع العلماء اليوم إعـداد صورٍ حيّـة عن الجنين، وصـنع فيلم مـدّته نصف ساعـة يصوّر المراحل الجنينية جميعها، وهذا الفيلم بمثابة هديـة عجيبـة قـدّمت للإنسانيـة فى عصـرنا الحالى. كيف اسـتطاع الله خلق هـذه العجائب كلها؟ نلفت انتباهكم إلى نموذجين من هذه العجائب. ۱- نطفـة الإنسان تبـدأ من خليـة واحـدة، ثم تنتصف هـذه الخليـة لتصـبح اثنين، وكلٌّ من هذين الخليتين ينتصـفان كذلك لتصـبح الخلايا أربعاً، ويسـتمر الانقسام هكـذا بشـكل تصاعدى. إنّ هذا التكاثر فى الخلايا يسـتمر حتى تتكون خلايا متشابهة بالكامل وتنقسم حينئـذٍ إلى مجـاميع. بعض منهـا يتكفل بخلق رأس الإنسان وبعض يؤمر بخلق العين أو اليـد أو الرجل أو غير ذلك. إنَّ هـذه الخلايا جميعاً متشابهة لكن كيف حصل أن تخصـصت البعض فى صـنع اليد والبعض الآخر بصنع الرجل؟ من أمر هذه الخلايا بالصنع المختلف رغم التشـابه الموجود فيهـا؟ كيف تلهم هـذه الخلايا؟ ومن الـذى ألهمها هـذه القابليـة؟! لم يسـتطع أحـد الكشف عن هـذه الأسـرار بعـد. امثال القران، ص: ۲۳۳ ۲- إنَّ الجنيـن فى بطن أمه يسـبح فى كيس خـاص ملىء بسائـل غليـظ وزنه يعـادل وزن الطفل تقريباً. وعلى هذا، فالجنين لا يضـغط بشـكل مباشـر على جسم الأم، كما أنَّ الأُم لا تحمّل الطفل ضغطاً مباشراً. يا ترى ما يحدث لو لم

يكن ذلك الكيس؟ كيف يمكن للجنين أن يحافظ على نفسه ويستمر فى حياته رغم ظرافته ونعومته ورغم ما يتعّرض له من ضربات تنشأ عن الجلسة الخاصة للأُم أو نومها فى اتجاهات مختلفة؟ أعدَّ الله العالم القادر محيطاً وبيئة للجنين تشبه حالة الإنسان عند فقدان الجاذبية، بحيث لا ـ يتأثر بالضغط إذا تعرض له مهما كان اتجاهه، ولهذا عندما يلد يشعر بالوزن، الأمر الذى يحرّضه على الصراخ والصياح. إنَّ كيس السائل هو أفضل مكان للجنين. فإنَّ هذا الكيس يصدّ الضربات من أى اتجاه وردت، كما أنَّه يعدّل درجة الحرارة، بحيث إنَّ الام اذا تعرّضت للحرارة الشديدة أو البرودة الشديدة سوف لا تنتقل هذه الحرارة أو البرودة إلى الجنين مباشرة، بل ينتقلان إلى الجنين بعد مرورهما بالسائل الموجودة فى الكيس ودور السائل هنا هو تعديل درجة الحرارة ونقلها بعد ذلك لجسم الجنين. وعلى هذا الأساس، يقول الله فى الآية السادسة من سورة الزمر: «خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وأَنْزَلَ لَكُم مِنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِن بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ذلِكُم اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ المُلْكُ لَا إلهَ إلّا هُوَ فأَنَّى تُصْرَفُونَ». «۱»

مراحل كمال الإنسان الأربع

لاجل بلوغ الكمال، على الإنسان أن يطوى أربع مراحل أو عوالم: ۱- عالم رحم الام. ۲- عالم الدنيا. ۳- عالم البرزخ. ۴- عالم القيامة. والمدهش هنا أنَّ الإنسان يجتاز كل مرحلة، وهو لا يعلم بالضبط بما تضمّ وتؤول إليه المرحلة اللاحقة. إنَّ الطفل فى رحم الام لا يمكنه تصوّر مفاهيم الدنيا، حتى لو كان له عقل امثال القران، ص: ۲۳۴ وذكاء كذكاء وفهم ابو على ابن سيناء، وحتى لو استطاع أن يتواصل مع امه لتحكى له عن القمر والشمس والليل والنهار والنجوم والاشجار والأزهار والنباتات، وقد استطاعت أن تبيّن له هذه الأمور بأفصح بيان وأبلغه، رغم ذلك فهو سوف لا يفهم شيئاً. إنَّ مثلنا نحن بالنسبة إلى البرزخ كمثل هذا الطفل بالنسبة إلى الحياة الدنيا، نحن سمعنا بوجود عالم باسم البرزخ قطعاً، لكن ما هى الف باء تلك الحياة؟ ما معنى أنّ الشهداء هناك أحياء؟ كيف أنهم يرزقون فى ذلك العالم؟ كيف يعذّب الله الروح أو ينعم عليها؟ نحن لا ـ ندرك أياً من هذه الامور. إنّ بعض اولياء الله استطاع أن يتصل بعالم البرزخ فسأل أهل البرزخ عن ذلك العالم فأجابوه لا يمكننا وصف هذا العالم بالألفاظ والمفاهيم التى تدركونها انتم فى الحياة الدنيا. إنّ مثل مفاهيم البرزخ وألفاظ الدنيا كمثل المصفاة والماء، وهل يتوقف الماء فى المصفاة؟! إنَّ موقف البرزخيين تجاه مفاهيم القيامة كموقفنا تجاه البرزخ لا ـ يمكنهم استيعاب نعم الجنة، كما لا يمكنهم استيعاب أنواع العذاب فى جهنّم. وعلى هذا الأساس، تقول الآية الشريفة ۱۷ من سورة السجدة: «فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُم مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ». إذا أخذنا مفردة (نفس) باطلاقها كانت شاملة للأنبياء والائمة- صلوات الله عليهم أجمعين- وذلك يعنى هؤلاء أيضاً لا يعلمون ما أُعدَّ للمؤمنين من نعم فى الجنة. جاء فى حديث قدسى ما يلى: «أعددت لعبادى الصّالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشرٍ». «۱» أى أنَّها نعم لم ترَ فى المنام ولا فى اليقظة ولا فى عالم الخيال ولا التصور، وذلك لأنّ عالم القيامة لا يمكن استيعابه. وعلى هذا، فمن جهةٍ أنَّ مفاهيم عالم القيامة مفاهيم لا يمكن استيعابها وإدراكها، ومن جهة أخرى ينبغى بيان نعم الجنة وعذاب الآخرة بشكل يسوق البشر نحو الأعمال الحسنة ويبعدهم عن الأعمال السيئة. امثال القران، ص: ۲۳۵ من هنا كان توصيف وبيان هذه الحالات والأعمال بالالفاظ الدنيوية أمراً مستحيلًا ولا يمكن بيانها بوضوح، لذلك كان علينا مزاولة هذا العمل باستخدام المفاهيم الدنيوية المشابهة لتلك المفاهيم والألفاظ الأقرب لهذا البيان، لترتسم بذلك صور قريبة لواقع النعم والعذاب الاخروى. كمثال على ذلك، عندما يقال بأنَّ فى الجنة أشجاراً، فإنّه لا يمكن القياس والمقارنة بين فوائد الأشجار فى العالمين. وبالنسبة إلى تفسير الآية ۵۴ من سورة الرحمن «وَجَنَى الجَنَّتَيْنِ دَانٍ» فيقال: إنَّ ثمار أشجار الجنة قريبة غير بعيدة بحيث تكون سهلة الوصول. وفى تفسير الآية ۴۸ من السورة المذكورة «ذَوَاتَا أَفْنَانٍ» يقال: إنّ الغصن الواحد يضمّ ثماراً مختلفة، لكن لا يعرف أنَّ الثمار هناك هى نفسها التى هنا. أو أنَّ أصحاب الجنة إذا ما أرادوا الاصغاء إلى الأنغام والموسيقى، أخذت غصون الاشجار تتلاطم وتخرج من نفسها أصواتاً وأنغاماً. وعلى هذا، فنحن ندرك

وجوه الشبه بين أشجار الدنيا والآخرة، لكنا لا ندرك ولا نشعر بها ولا بما يتولد من أنغام وموسيقى وثمار.

إيضاح

مع الالتفات إلى المقدمة، فإنَّ الآية من جملة الآيات التى هى فى صدد عرض تشابيه للجنة، وبيان أو ترسيم موقع المتقين فيها. من هنا كان خبر الآية محذوفاً، أى أنَّ الآية كانت بهذا الشكل: «مَثَلُ الجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ المُتَّقُونَ كجنةٍ تَجْرِى ...» أى أنَّ فى الجنة بساتين ليست مثل بساتين دنيانا؛ لأنّه أولًا: أن منابع المياه فيها ذاتية وتلقائية، وتوجد عين قرب كل شجرة ولا حاجة لتأمين المياه من الخارج. ثانياً: أنَّ ثمار الجنة دائمية وفى جميع الفصول. ثالثاً: أنَّ ظل الاشجار هناك دائمى وخالد، أى أنَّ أوراق الاشجار لا تتساقط أبداً.

الخطابات المهمة للآية

المستفاد من الآيات العديدة هو كون التقوى هو مقياس الثواب الإلهى فى الآخرة. امثال القران، ص: ۲۳۶ فى مجال التقوى دوّنت البحوث الكثيرة، ولأجل الاستيعاب الأكثر لهذا المضمون، الذى هو جواز دخول الجنة وميزان قيمة الإنسان وزاده فى الآخرة نشير إلى روايتين وردتا هنا: ۱- يقول الرسول فى حديث مختصر وذات مغزى عميق فى نفس الوقت: «تمام التقوى أن تتعلّم ما جهلت وتعمل بما علمت». «۱» بناءً على هذه الرواية، لا يُعدُّ الجهل عذراً، بل على الإنسان أن يتعلّم ما يجهل ليعمل بما علم ويُعاتب الذين يبرّرون أعمالهم بأنهم جهال، ويقال لهم: لماذا لم تتعلموا؟ «۲» ۲- يقول الإمام على عليه السلام فى حديث مختصر ومميّز: «من ملك شهوته كان تقياً». «۳» إنَّ الإنسان بتقواه يتمالك غضبه وشهوته وحب الجاه والمقام وحب الشهرة والتطرّف و ... فهو سيتحكم بهذه الامور جميعاً. إنَّ هذين الروايتين يعرضان تعريفاً جميلًا وجامعاً ومفهوماً للتقوى، ينبغى السعى والعمل لأجل تحقيق ما ورد فى هذين الروايتين الشريفتين وبخاصة فى شهر رمضان المبارك؛ باعتبار أنَّ التقوى هى جواز دخول الجنّة وزاد الآخرة.

المثل الثالث والعشرون: أعمال الكفّار

اشارة

يقول القرآن فى الآية ۱۸ من سورة إبراهيم: «مَثَلُ الّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِم أعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشتَدَّتْ بِهِ الرِّيْحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ لا يَقْدِرُونَ مِمّا كَسَبُوا عَلى شَىءٍ ذَلك هُوَ الضَّلال البَعِيْدُ».

تصوير البحث

تناولت الآية بيان أعمال الكفار الصالحة، وتلمّح بأنَّ أعمالهم بسبب كفرهم غير مقبولة. من هنا كان احتمال حساب أعمالهم الصالحة بمعزلٍ عن كفرهم أمراً مرفوضاً.

ارتباط آية المثل بسابقاتها

الآيات السابقة تناولت دراسة من اصطلحت عليه «جَبَّارٍ عَنِيْدٍ» وهو الشقى الذى يأس من ألطاف الله ورحمته، وأنَّ جهنم ستتطلع إلى أمثال هذا، وسيسقى من ماء متعفن، نتنة رائحته. وهنا يطرح سؤال وهو: هل سيُتغاضى عن أعمال الكفار الصالحة؟ المتعارف أنَّ الأعمال الصالحة قد تصدر من هؤلاء الاشقياء، فيقال عن فرعون مثلًا: كان له مطبخ واسع يغذى به بيوت المدينة، وكان يستفيد الجميع من هذا المطبخ ومن طعامه، من الفقراء والمرضى والحوامل وغيرهم. قد تنجز أعمال خيرية مهمة على يد حكامٍ ظلمة، وهناك الكثير

من المساجد التاريخية امثال القران، ص: ۲۳۸ الفخمة التى بنيت على يد هؤلاء الظلمة. إن العتبات المقدسة للائمة المعصومين وغيرهم عليه السلام كثيراً ما بُنيت أو عمّرت ووسعت على يد الظلمة، وكمثال على ذلك المسجد الحرام ومسجد النبىّ حيث وسِّعا من قبل زمرة آل سعود الظالمة، كما أن كثيراً من المستشفيات المهمة والجامعات الضخمة والمستوصفات والمدارس العلمية وما شابه ذلك بنيت على يد أمثال هؤلاء الظلمة وبأمرٍ منهم، لكن يا ترى هل أنَّ هذه الأعمال الصالحة والعظيمة تفقد الأثر ولا تفيد صاحبها شيئاً فى الآخرة؟ ألا تتغمّد هؤلاء الطاف الله ورحمته بسبب هذه الأعمال الكبيرة؟ إنَّ آية المثل التى سنقبل على شرحها وتفسيرها فى الاسطر المقبلة هى بصدد الاجابة على هذا السؤال المقدر الذى قد يخطر فى ذهن القارئ للآيات التى سبقتها.

الشرح والتفسير

«مَثَلُ الّذِيْنَ كَفَرُوا بِرَبِّهِم» إنَّ أمثال القرآن على قسمين: قسم يُضرب على أعمال الإنسان، وآية المثل هذه من هذا القسم حيث تناولت دراسة أعمال الكفار. القسم الآخر هو الامثال التى تضرب على الشخصيات ذاتها بأن يشبّه الاشخاص أنفسهم بشىء ما مثل ما مرّ فى الآية الشريفة ۲۶۱ من سورة البقرة، حيث شبّهت المنفق بحبة الحنطة التى تنتج سبعمائة حبّة. على أى حال، الآية الشريفة تناولت اولئك الذين كفروا بربهم، لكن الملفت فى الآية هنا هو أنَّها استخدمت مفردة (رب) بدل مفردة (الله)، وكأنها تريد الاشارة إلى الآثار الربوبية فى كل مكان ورحمة الله وبركاته على جميع أعضاء جسم الإنسان وفى جميع اللحظات، فهى تريد القول للإنسان: إنَّك تفيد من نعم الله- التى يكفى واحدة منها لشكر الله- كل يوم وعلى طول العمر، رغم ذلك تكفر وتجحد به، مع أنَّ على الإنسان أن يكون شاكراً لله على نعمه دائماً. «أعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ» الآية شبَّهت أعمال الكفار الصالحة بالرماد، ولم تتطرق الآية إلى أعمال الكفار السيئة، وذلك لأنَّها دون القيمة التى تستدعى التطرّق لها وبحثها.

فوائد الرماد

نشير هنا إلى بعض من فوائد الرماد وآثاره: ۱- إذا خلط الرماد بالتربة سينتج سماداً مفيداً جداً، ولهذا نرى البعض يحرق ما تبقى من المزارع بعد الحصاد بغية تبديله إلى سماد جيد. ۲- إنَّ الرماد ينظف الاشياء الوسخة ويذهب بصدئها ويصقلها، وفى الازمنة السابقة كان الناس يصقلون بعض الصفائح الفلزية بالرماد لكى يصنعوا منها مرآة شفافة. ۳- الفائدة الاخرى للرماد أنّه يحافظ على النار وحرارته، بحيث إذا ألقينا التراب على النار أنطفأت النار، لكن إذا ألقينا رماداً عليها ضلّت النار تحافظ على نفسها وما انطفأت إلّا فى زمن متأخر. «اشْتَدّتْ بِهِ الرِّيْحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ على شىءٍ مِمّا كَسَبُوا» من الواضح أنَّ اليوم اذا كان عاصفاً أخذ الريح معه كل ما كان خفيفاً ودقيقاً، وكلما كان ذلك الشىء أدق كلّما صعب جمعه، أما اذا كان رماداً فاستحال الجمع؛ وذلك لصغر الأجزاء المكونة للرماد وتلوّنها بلون البيئة التى تسقط فيه. وإذا اجتمع اهالى المدينة كلهم- لا صاحب الرماد فحسب- ما استطاعوا أن يجمعوا شيئاً مما فقدوه من الرماد ولو بمقدار مثقال. إنّ عاصفة الكفر والجحود تعمل بأعمال الكافر كما تعمل العاصفة الطبيعية بالرماد، بحيث لا يبقى شىء من ذلك العمل للكافر يتمتع به. «ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ البَعِيْدُ» إنَّ انحراف هؤلاء عن الصراط المستقيم كالانحراف والضلال البعيد عن الطريق الذى يصعب جبرانه والرجوع عنه نحو الطريق الصواب.

خطابات الآية

۱- الايمان شرط صحة الأعمال

رصيد الأعمال الحسنة والصالحة هو الايمان، فاذا لم يقترن العمل بالايمان فانه سيفقد قيمته. ذكر الفقهاء: أنّ الايمان هو شرط قبول

العبادة، بل شرط صحتها، أى أنَّ الصلاة والصوم امثال القران، ص: ۲۴۰ والحج والانفاق وإعانة المحتاجين وغير ذلك من الاعمال تكون فاقدة للقيمة إذا لم تتزامن مع الإيمان. ولقد طرح نفس البحث فى قضية (الولاية) فاعتقد البعض أنَّ الولاية شرط قبول الأعمال، أى رغم أنَّ الأعمال- من وجهة نظر شيعية- صحيحة إلّا أنَّ الله لا يقبلها إذا لم تقترن بالاعتقاد بالولاية. وقد يعتقد البعض أنَّها شرط القبول والصحة أى لا يسقط التكليف من ذمة من لا يعتقد بها وإن جاء به. فى هذا المجال وردت روايات كثيرة فى كتب الشيعة نأتى بنموذج واحدٍ منها: يقول الإمام الباقر عليه السلام: «لو أنّ رجلًا قام ليله وصام نهاره وتصدّق بجميع ماله وحج جميع دهره ولم يعرف ولاية وليّ الله فيواليه ويكون جميع أعماله بدلالته إليه ما كان له على الله حقٌّ فى ثوابه أبداً». «۱» إنّ هذه الآية طرحت ذات البحث فى أصل الايمان بالله ولّمحت بأنّ الذى لا ايمان له لا ثواب له رغم اتيانه بأفضل الأعمال، وقد طرح هذا البحث فى آيات عديدة أُخرى نشير إلى بعضٍ منها: الف- لقد جاء فى الآية ۲۶۴ من سورة البقرة التى مرّ الحديث عنها ما يلى: «... كَالَّذِى يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فأصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَىءٍ مِمّا كَسَبُوا واللهُ لا يَهْدِى القَومَ الكَافِرِينَ». باء- جاء فى الآية ۳۹ من سورة النور: «وَالَّذِيْنَ كَفَرُوا أعْمَالُهُم كَسَرَابٍ بَقِيْعَةٍ يَحْسَبُهُ الظمآنُ ماءً حتّى إذا جآءَه لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَه فَوَفّاهُ حِسَابَهُ واللهُ سَرِيْعُ الحِسَابِ». جيم- ويقول الله فى الآية ۲۳ من سورة الفرقان: «وَقَدِمْنَا إلَى مَا عَمِلُوا مِن عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَآءً مَنْثُوراً» وهذه الآية كغيرها لم تمنح أى قيمة امثال القران، ص: ۲۴۱ للعمل إذا لم ينشأ عن إيمان. دال- جاء فى الآية ۵۴ من سورة التوبة: «وَمَا مَنَعَهُم أنْ تُقْبَلَ نَفَقَاتُهُمْ إلّا أنَّهُمْ كَفَرُوا باللهِ ورَسُولِهِ ولا يأتُونَ الصَّلاةَ إلّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إلّا وَهُمْ كَارِهُونَ». إنَّ هذه الآية كذلك تعتبر الإيمان شرط قبول العمل. وعليه، فإنّ الآية المذكورة وآيات وروايات كثيرة اخرى عدّت الإيمان شرطاً لصحة العمل وكماله، كما أنَّ بعض الآيات والروايات اعتبرت الولاية بنفس المستوى ومنحت الاعتقاد بها نفس القيمة التى منحتها هذه الآيات لمبدأ الايمان بالله. لماذا الإيمان والولاية شرطان لصحة العمل؟ بعبارة أُخرى: لماذا لم يفتح الله لاعمال الكفار الصالحة أو الطالحة حساباً مستقلًا، بأن يحاسب الكافر على أعماله الطالحة بمعزلٍ عن حسابه لأعماله الصالحة؟ الجواب: لقد جاء جواب هذا السؤال فى الآيات والروايات التى عدّت الولاية والإيمان شرطين لصحة الأعمال. جاء فى رواية تقدمت أنَّ الإمام عليه السلام يقول: «ولم يعرف ولاية وليّ الله فيواليه ويكون جميع أعماله بدلالته إليه»، أى أنَّ للأعمال الصالحة شروطاً ومقدمات وملابسات يحدّدها الإمام المعصوم نفسه وإذا لم تتم بتنسيقٍ معه فانها قد تكون ناشئة عن هوى وهوس وتصبّ فى غير مجالها. إنّ غير المؤمنين عندما يؤدون أعمالًا صالحة مثل المرضى الذين يداوون أنفسهم بعقاقير خاصة من دون مراجعة طبيب، ومعالجة من هذا القبيل قد تلحق بالإنسان أضراراً كثيرة تصل إلى الموت أحياناً. إنّ الرسول صلى الله عليه و آله والأئمّة عليهم السلام هم أطباء روحيون، ولأجل أن يداوى إنسان أوجاعه، عليه بالعمل حسب وصفتهم لا وصفة غيرهم. من هنا يقسم الإمام على عليه السلام- فى كلام جميل يخاطب به كميل بن زياد- الناس إلى ثلاثة أصناف: امثال القران، ص: ۲۴۲ ۱- العلماء الربانيون الذين وجدوا وسلكوا طريق الهداية والصراط المستقيم. ۲- المتعلّمون والذين هم فى طريقهم إلى المعرفة ويفيدون من العلماء والاساتذة لبلوغ طريق الهداية والنجاة. إنّ مثل هذين الاثنين كمثل الشمس والقمر حيث احدهما يعدّ مصدراً ومنبعاً للنور والإضاءة، والآخر رغم أنَّه ليس مصدراً للنور إلّا أنه يلهم من نور الآخرين ليتنوّر ويكون مصباح هداية فى الليالى الظلمانية. ۳- الصنف الثالث هو أولئك الذين لا هم أساتذة وعلماء ولا هم متعلمون ولا هم فى طريقهم إلى العلم، فلا هم مصدر للنور ومنبع له ولا هم متنورون بنور الاخرين، بل انّهم اناس غير هادفين ولا يعتمدون شيئاً فى حياتهم إلّا الخواء، وهم مثل البعوضة التى يهددها أبسط نسيم ويذهب بها إلى أى جهة شاء. إنَّ الذين ينتشلون أنفسهم من خط المعصومين عليهم السلام ويرفضون الولاية، رغم ذلك يؤدون أعمالًا صالحة، هم من الصنف الثالث، وحياتهم كلها اضطراب واعوجاج، وشأنهم شأن الشجرة التى ترقص مع كل ريح. وعلى هذا، فإنَّ فلسفة اشتراط الايمان والولاية هو هداية الأعمال باتجاه الصراط المستقيم، وشأن ذلك شأن المريض الذى يتداوى تحت رعاية الطبيب المختص.

۲- الدوافع المعنوية لغير المؤمنين

ثانی خطاب للآیـة هو أنّ غیر المؤمنین لا یملکون الـدوافع المعنویـة، بل دوافعهم کثیراً ما تکون مادیـة، کنموذج لذلک هو الخدمات الإنسانیـة التی یقوم بها ثلـة من البشـر، فی اطار المنظمات الإنسانیـة الدولیـة، فهی من جهـة خدمات إنسانیة اخلاقیة وتصل المحتاجین إلیهـا من البشـر، لکنهـا فی نفس الوقت کثیراً مـا تکون غطاءً لممارسـة التجسـس لصالـح الـدول الکبری. قـد یکون الهـدف من هـذه الاعانات هو الحفاظ علی حیاة هؤلاء المستضعفین لاجل استغلالهم أکثر فأکثر، کما کان یفعل النخاسون وأصحاب العبید حیث کانوا یطعمون عبیـدهم المقـدار الـذی یحافظ علی حیاتهم وهو مقـدار لا یشـبعهم، ولـذلک نری أنَّ بعض هذه الخدمات امثال القران، ص: ۲۴۳ الإنسانیة تستهدف اغراضاً مادیة غیر إنسانیة. وقد أشارت الآیة ۵۴ من سورة التوبة- التی مضـی شرحها- إلی هذا المطلب، حیث قـالت: «وَمَـا مَنَعَهُم أنْ تُقْبَـلَ مِنْهُمْ نَفَقَـاتُهُم إلّا أنّهُمْ کَفَرُوا باللهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا یُأتُونَ الصَّلَاةَ إلّا وَهُم کُسَالَی وَلَا یُنْفِقُونَ إلّا وَهُم کَارِهُونَ». من هنـا خـاطب الإمـام علی علیه السـلام مالـک الاـشتر فی عهـده له طالبـاً منه أن یختـار لصـلاته أفضل أوقاته؛ «۱» وذلـک لأنک اذا أحکمت علاقتـک بخالقـک فـالله سـیحکم علاقتـک بباقی المخلوقات. علی أساس الآیـة الکریمـة، أنّ انفاق المنافقین وغیر المؤمنین وإعاناتهم المادیـة لم تنشأ عن نیـة خالصة بل نشأت عن کراهة وعدم رغبة. لا قیمة لانفاقهم ولو بذلوا أفضل أموالهم وأکثرها؛ وذلک لعـدم ایمانهم بالله وبالولایة، کما أنَّ عملهم لم یکن عن صدق نیة. علی سبیل المثال إذا أراد المؤمن بناء مدرسة اختار منطقة محرومة لرفع الحاجة عن تلک المنطقة کما أنّه سوف لا یبخل فی احکام بناء المدرسة وصـرف المبالغ فی هذا السبیل، أما الإنسان غیر المؤمن أو المنافق بما أنَّ هـدفه الریاء والتظاهر لـذلک یختار مکاناً ذا طلعـة وفی مرأی من الناس وفی منطقـة قد تکون مسـتغنیة عن المدرسة، ولاـ یفکر فی إحکـام البنـاء؛ وذلـک لأـنّ جمـال البناء یحقق اهـدافه. إنَّ أعمال غیر المؤمنین غالباً ما تکون عن هوی وهوس، ولاجل کسب الشـهرة والجاه والمورد، ولا علاقـة لهم بالنیة الخالصة. اضافة إلی هذا، نحن نعتقد أنَّ غیر المؤمنین لا یمکنهم التحلّی بالاخلاق الحسنة.

الاحباط فی القرآن

کما أنَّ الایمان والولایـة شـرطان فی البدایـة، ولا قیمة لعمل بدونهما، کذلک ادامة واسـتمراراً، فالمفروض أن یسـتمر هذان الشـرطان حتی نهایـة العمر والانتقـال من هـذا العـالم إلی عـالم الآـخرة. امثـال القران، ص: ۲۴۴ وعلی هـذا، لو أنّ شـخصاً جـاء بجمیع الاعمـال الحسـنة، لکنه فی اللحظات الأخیرة من عمره رحل خلو الایمان، فإنَّ أعماله التی انجزها فی الدنیا سوف لا تفیده شـیئاً فی الاخرة أبداً. هـذه المسألـة من مصـادیق (الاحباط) الـذی تعرّض له القرآن بشـکل واسع. إنَّ ست عشـر آیـة أشارت إلی قضـیة الاحباط فی العمل، نتعرض لاثنین منها. ۱- جاء فی الآیـة ۸۸ من سورة الأنعام ما یلی: «وَلَو أشْـرَکُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا کَانُوا یَعْمَلُون» تعـدّ هذه الآیة الشـرک أحد عوامل إحباط الأعمال الحسـنة. ۲- وجاء فی الآیـة ۶۵ من سورة الزمر: «وَلَقَـدْ أُوْحِیَ إِلَیْکَ وَإِلی الّـذِیْنَ مِنْ قَبْلِکَ لَئِنْ أشْـرَکْتَ لَیَحْبَطَنَّ عَمَلُـکَ وَلَتَکُونَنَّ مِنَ الخَاسِـرِیْنَ». رغم أنَّ الآیـة تخاطب الرسول صـلی الله علیه و آله، لکن من الواضـح أنَّه هو مرکز التوحید والحنیفیة ولا یتوقع منه أن یکون مشرکاً یوماً، لذلک نقول: إنّ الآیة تحذیر للآخرین لا له.

الحبط فی عالم الطبیعة

هل من العدالـة أن تحبط الأعمال الکثیرة بـذنب ما؟ بعبارة اخری: هل الأمر یتفق مع قوانین الطبیعـة؟ الجواب: أنَّ الاحباط مشـهود فی عالم الطبیعـة والتکوین وموجود کذلک فی عالم التشـریع والقوانین الدینیة، کما أنَّه موجود فی أعمالنا الروتینیة. قد یعمل المزارع لیل نهار ویبـذل قصاری جهـده للحفاظ علی البسـتان الکبیر والملیء بالثمار المتنوعة، إلّا أنَّه قد یوقد النار فی جانب منه ویغفل لفترة لیری أنَّ النار سـرت إلی جمیع البسـتان وأکلت کل جهوده التی بذلها لانضاج ثمار هذا البسـتان. وقد یقوم الإنسان السلیم خلال سنوات من

العمر بكل ما تستدعيه اصول الصحة والرعاية الصحية، لكنه لأسباب واخرى يتعاطى المخدرات ليصبح بعد عدة أيام إنساناً سقيماً لا حول له ولا ـ قوة ولا صبر ولا صحة ولا طاقة ولا بهجة. وعلى هذا، فانَّ النار احبطت ما زرع المزارع وما أنتج، والمخدرات أحبطت سلامة الإنسان ودمرتها. ويمكن الاتيان بمثال ثالث وهو: بناء سدّ ضخم يستدعى استخدام طاقة عمال ومهندسين لمدة سنوات متوالية، وبعد ملئه بالماء واستخدامه فى الاغراض الخاصة، يأتى سيل عظيم يغفل امثال القران، ص: ۲۴۵ المشرفون عليه عن فتح المنافذ والبوابات المخصصة لتقليل وطأة ضغط الماء على السدّ، الأمر الذى يؤدى إلى كسر السدّ وإذهاب جهود سنوات من العمل سدى. و على هذا، فمسألة الحبط لا تختص بالقضايا الدينية والعقائدية، بل إنَّها جارية فى قضايا التكوين والممارسات اليومية والعادية للإنسان، ولا يتنافى ذلك مع العدالة الإلهية. علماً أنَّ المسبب الأساسى لهذا الاحباط هو الإنسان نفسه، فهو نفسه المسبب فى اندلاع الحريق فى البستان وتبدد طاقات جسم الإنسان المتعاطى للمخدرات وانكسار السد وتهديمه. إذن، على المسلمين أن لا يفكروا بالاتيان بالأعمال الحسنة فحسب، بل عليهم التفكير فى الحفاظ على هذه الأعمال. فإنَّ الحفاظ على الأعمال أصعب بمرات من الاتيان بها، فقد يقدم الإنسان على إحراق بستان حياته بوسائل بسيطة جداً، وكمثال على ذلك ما ورد فى الآية ۲۶۴ من سورة البقرة، التى اعتبرت أنّ المنّ والأذى عوامل لاحباط الانفاق والصدقات. إذا تبنى شخص يتيماً وربّاه منذ صغره وأنفق عليه الكثير وأرسله إلى المدرسة الابتدائية ثم الاعدادية والجامعة، ثم وفّر له فرصة الزواج وعمل على تزويجه، وفى يوم من الأيام وفى مجلس عام أراد أن يتباهى هذا الشخص ويمنّ على اليتيم فقال له: (لم تكن إلّا طفلًا يتيماً فأعلتك وأنفقت عليك وأرسلتك إلى المدرسة والجامعة وأنا الذى منحتك هذا الشأن و ...)؛ فوفقاً لمفاد آيات القرآن، هذا الشخص أحبط أعماله التى أنجزها طوال حياته. وحسب المستفاد من بعض آيات القرآن، انَّ المسلمين ما كان لهم الحقّ أن يسيئوا الادب للرسول صلى الله عليه و آله أو يرفعوا أصواتهم عليه، وإلّا فتحبط أعمالهم: «يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُم فَوْقَ صَوْتِ النَّبيّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالقَولِ كَجَهْرِ بَعْضِكُم لِبَعْضٍ أنْ تَحْبَطَ أعْمَالُكُم وَأنْتُم لَا تَشْعُرُونَ». «۱» كما أنَّه عدّ مرض الحسد النفسى من عوامل الاحباط .. فى بعض الروايات. يقول الرسول صلى الله عليه و آله: «إيّاكم والحسد فإنّه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب». «۲» فى النهاية: انّ الايمان والولاية شرطان لصحة الأعمال، وعدمهما يحبط العمل سواء كان فى بداية العمر أو أثنائه. امثال القران، ص: ۲۴۷

المثل الرابع والعشرون والخامس والعشرون: الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة

اشارة

جاء فى الآيات ۲۴ و ۲۵ و ۲۶ من سورة إبراهيم ما يلى: «أَلَم تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبةٍ أصْلُها ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى السَّماءِ تُؤْتِى أُكُلَهَا كُلّ حِيْنٍ بِإذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الأمْثَال للنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيْثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيْثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوقِ الأرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ».

تصوير البحث

هذه الآيات من أجمل الآيات ومن أبلغ الأمثال القرآنية. إنّ فى الآيات الثلاث تمثيلًا جميلًا وبليغاً للكلمة الطيبة من جانب، وللكلمة الخبيثة من جانب آخر، وفيها يعدّ الله الفوائد والآثار المترتبة على كل واحدة منهما.

ارتباط آيات المثل بسابقاتها

إنَّ ذكر هذين المثلين لا يخلو من ارتباط بما ورد فى الآيات السابقة من نسبة الكلمة الطيبة إلى الله والخبيثة إلى الشيطان، كما أنّها قد

تضـمّنت مضـامين ومفاهيم رفيعـة. وهنا نص الآيـة ۲۲ من سورة إبراهيم: «وَقَـالَ الشّـيْطَانُ لَمّـا قُضِـيَ الأَـمْرُ إنَّ اللهَ وَعَـدَكُمْ وَعْـدَ الحَقِّ وَوَعَـدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُـلْطَانٍ إلّا أنْ دَعَوْتُكُم فاسْـتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُوْنِي وَلُوْمُوا أنْفُسَـكُمْ مَا أنَا بِمصْـرِخِكُمْ وَمَا أنْتُمْ بِمُصْـرِخِيَّ إنّي كَفَرتُ بِمَا أشْـرَكْتُمُونِ مِنْ قَبلُ إنَّ الظَالِمِينَ لَهُمْ عَـذَابٌ أَلِيْمٌ». امثال القران، ص: ۲۴۸ ينبغى الالتفـات إلى أنّه نقل كلامان فى الآية، أحدهما لله، وهو وعده الحقّ الذى أوفى به، وهو مصداق للكلمة الطيبة. والثانى هو للشيطان الذى هو وعد باطل ولم يفِ به الشـيطان، كما أنّه مصداق للكلمة الخبيثة. حسب ماورد فى الآية الشـريفة، فإنَّ استجابة دعوة الشيطان اختيارية غير جبرية، وكل من تابع الشـيطان فبارادته، لذلك يلوم الشـيطان الإنسان يوم القيامة؛ لأنّ الإنسان يعلم بطبيعة الشـيطان الخبيثة رغم ذلك يلتحق بركبه. ألاـ يعلم الإنسـان بمعاملـة الشـيطان لابيه آدم عليه السـلام؟ إنّ مكره هـو الـذى أدى به إلى خروجه وانقطـاع نسـل الإنسـان من الجنّة بالكامل. «۱» ألم يسـمع الإنسان بقسم الشـيطان باتيان الإنسان من بين يديه ومن خلفه لاجل إغوائه وحرفه عن الصـراط المستقيم؟ «۲» إذن لماذا الإنسان، رغم علمه الوافر، يغرّه الشيطان بوعوده الباطلة والكاذبة ويترك كلام الله الصادق؟!

الشرح والتفسير

«أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَـرَبَ اللهُ مَثَلًـا كَلِمَـةً طَيِّبَـةً كَشَـجَرَةٍ». إنَّ هـذه الشـجرة التى ضـرب الله بهـا مثلًـا ذات خمس خصـائص: ۱- «طَيِّبَـةً» أول خصائصـها أنهـا طيّبـة أى طـاهرة وذات رائحـة مطلوبـة. إنَّ بعض الاشـجار يسـتفاد من جميع أجزائهـا من الاـوراق والاغصـان والثمـار والجـذور وأصـماغها، كما أنّ منظرها جميل وعطرها مريـح، إلّا أنّ بعض الاشـجار ذات منظر قبيح ورائحة كريهة وجذور نتنة وثمارها مُرّة. إنَّ الشـجرة التى ضـرب الله بها مثلًا هى شـجرة طاهرة وجميلة وبالجملة طيبة. ۲- «أَصْـلُهَا ثَابِتٌ» الخاصية الاخرى لهذه الشجرة أن جذورها ثابتة ومحكمة فى الأرض. من مظاهر قدرة الله تعالى أنه جعل تناسـباً بين غصون الشجرة وجذورها فكلما كانت امثال القران، ص: ۲۴۹ الغصون أعظم وأكثر، كانت الجـذور عظيمـة وكثيرة وعميقة بتلك النسـبة التى للغصون، وهى تحفظ الشـجرة وغصونها من العواصف والفيضانات كما يفعل الحبل بما شـدّ به. ۳- «فَرْعُهَا فِي السَّماءِ» الخاصـية الاخرى أنّ نموها صـعودى وعمودى نحو السماء. ممـا لاـ شـك فيه أنّ دور الجـذور هو تغذيـة الغصون والاوراق، لكن ما دور الغصون المرتفعـة جـداً والمتجهـة نحو السـماء؟ للغصون المرتفعة فوائد وآثار مختلفة نشـير إلى بعضٍ منها: الف- الغصون المرتفعة تتنفس الهواء بشـكل أفضل من غيرها من الغصون الاخرى. المعروف هو أنَّ أوراق الاشـجار تتنفس، والعجيب هنا هو أن مردود هذا التنفّس عكس مردود تنفس الإنسان، فالأشجار تستنشق ثانى اوكسـيد الكاربون وتطرح الاوكسيجين، بينما الإنسان يستنشق الاوكسيجين ويطرح ثانى اوكسيد الكاربون. إنَّ فلسفة المفارقة هذه هى أنَّ الأشـجار لو كـانت تتنفس نفس الغازات التى يتنفسـها ويحتاجها الإنسان، لأصـبحت الأرض بعـد فترة وجيزة من الزمن غير صالحة للعيش؛ لأنّ الاوكسـيجين سـينفد تدريجياً، ولا يبقى فى الجو غير ثانى اوكسـيد الكاربون، وهو غاز قاتل بالنسـبة للإنسان. لذلك كان علينا أن نزرع فى المدن وبخاصة المدن الكبرى أشـجاراً لتصـفية الهواء من الغازات السامة الناشـئة عن اسـتهلاك الوقود فى السيارات والمعامل، اضافة إلى أنَّ الأشـجار توفر لنا غاز الأوكسيجين. من فوائد الريح أنه يبدل الهواء الملوّث الخالى من الاوكسيجين بهواء نقى فيه مقدار كافٍ من الاوكسيجين. إنّ رحمة الله تأتى بالهواء النقى وتذهب بهواء المدن الملوّث. باء- تستفيد الاغصان المرتفعة من نور الشـمس بشـكل أفضل. إنَّ هذا النور يؤثر كثيراً على عملية جذب ثانى اوكسيد الكاربون وطرح الاوكسيجين، ولذلك كانت الحدائق فى النهـار ذات جو وهواء أفضـل من هوائهـا الليلى الخـانق. جيم- انَّ الاغصـان المرتفعـة فى مـأمن من الغبـار والتلوّثات التى يوجـدها الإنسان على سطح الأرض، وقلما تطال هذه التلوثات الاغصان المرتفعة كثيراً.

نقطة مهمة فى مجال المعرفة

من دروس المعرفة الإلهيّة التى ننتقيها هنا هى أنَّ الأرض تجذب المياه التى تعلو سـطحها وتمتصـها إلى أدنى مسـتوى ممكن أى نهاية

القشرة، وهذا قانون عام، لكن المدهش هنا هو أنَّ الأشجار تجتذب الماء الذى فى حواليها وتحول دون نفوذ المياه إلى الطبقات السفلى من قشرة الأرض ليتحول إلى مياه جوفية. فالاشجار بايصالها الماء إلى الغصون والاوراق مهما علت تعمل عكس تيار جاذبية الأرض، وعملها يشبه مضخة الماء الضخمة التى قد تمد غابة كثيفة باطنان كثيرة من الماء لكن من دون صوت وعكس اتجاه الجاذبية الأرضية. وهل غير الله القادر يستطيع أن يفعل هكذا؟! فى النهاية نقول: إنّ ثالث خاصية للشجرة الطيبة هو احتواؤها على أغصان مرتفعة جداً تفيد من الهواء النقى المرتفع عن سطح الأرض كما تفيد من نور الشمس بشكل أفضل، وهى أخيراً فى مأمن من تلوّثات الهواء فى الطبقات الدنيا من جو الأرض. ۴- «بإِذْنِ رَبِّهَا» الخاصية الاخيرة لهذه الشجرة هى أنَّها رغم كون ثمارها تنضج فى جميع الفصول، إلّا أنَّها تنمو وتعمل حسب قوانين الطبيعة ولا تشذّ عنها، وهى مطيعة لهذه السنن التى جعلها الله تعالى. إن هذا الأمر لم يختص بأمثال هذه الشجرة، بل جميع ما فى الطبيعة خاضع وخاشع له: «وَلَهُ أَسْلَمَ من فِي السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ». «۱» «وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيْثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيْثَةٍ» إنّ لهذه الشجرة الخبيثة خاصيتين: ۱- «اجتُثَّتْ مِنْ فَوقِ الأَرْضِ» أى أنَّها عكس الطيبة ذات الجذور الثابتة والمحكمة فى الأرض، فجذور الخبيثة مقتلعة من الأرض ولا تستطيع هذه الجذور الحفاظ على الشجرة من الطوفان والسيول والاعصار، فهى مجتثة الجذور. ۲- «مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ» أى لاثبات لها ويطرأ عليها التزلزل لأدنى ريح عاصف. إنّ شجرة تخلو من الثمار والعطر ولا يمكنها ايجاد الظل المناسب لا تفيد إلّا للايقاد.

ماهى (الكلمة الطيبة)؟

هناك بحث بين المفسرين فى تفسير معنى (الكلمة الطيبة)، نشير إلى بعض النظريات فى هذا المجال: ۱- يعتقد البعض أنَّ المراد من «الكلمة الطيبة» هى كلمة «لَا إله إلَّا اللّه» «۱» فإنَّ هذه الكلمة كالشجرة الطيبة التى أصلها ثابت وفرعها فى السماء، وهى فى الحقيقة شجرة سعادة الإنسان. إنّ هذه الشجرة التى هى حقيقة التوحيد، تحيى قلب الإنسان وتكسر كل ما فيه من أصنام، بحيث تجعله لا يسجد أمام أصنام المال والرشوة والربا والسرقة والاعتداء. ولا يكذب الآف الكذبات لأجل الحفاظ على مقامه، ولا يرتكب الجرائم لأجل الحفاظ على مال الدنيا؛ وذلك لأنّ أعمالًا كهذه تعدّ شركاً ولذلك يُدعى المرائى فى الاخرة منافقاً أو فاجراً. «۲» إن التوحيد إذا حل وحيى فى قلب الإنسان قضى على الهوى والهوس الذى هو السبب الرئيسى لجميع الانحرافات ودمّره. من هنا جاءت رواية جميلة فى هذا المجال: «أبغض إلهٍ عُبد على وجه الأرض الهوى». «۳» إن شجرة التوحيد الطيبة إذا زرعت فى قلب الإنسان طردت كل ما حولها من أصنام. ۲- يعتقد بعض آخر من المفسرين أنَّ المراد من الكلمة الطيبة هو (المؤمن)، فقد اطلق على الموجودات (كلمة الله) فى القرآن المجيد، والمؤمن كلام إلهى كذلك، الشمس والقمر والنجوم والسماء والأرض كلها كلمات الله، فهى فى كتاب الله التكوينى من كلمات هذا الكتاب، كما أنَّ هذا المصطلح استخدم فى حق السيد المسيح عليه السلام. «۴» إنَّ شجرة وجود المؤمن هى من قبيل الشجرة الطيبة التى تثمر فى جميع الفصول، وثمارها السخاء والشجاعة والجود والرحمة والحب والاحسان والايمان وما شابه ذلك. «۵» امثال القران، ص: ۲۵۲ ۳- وقد فسّر البعض الكلمة الطيبة بالأئمّة المعصومين عليهم السلام. إنَّ هؤلاء بمثابة الشجرة الطيبة التى ملأت غصونها بالثمار، وكل من طالع تاريخ حياتهم وسيرتهم أو اقترب لمزارهم وحرمهم أو أصغى أو طالع كلماتهم وخطبهم أو مدّ يد العون إليهم فسوف لا يبقى خلو اليدين. «۱» ۴- إنَّ (العلماء) هو تفسير آخر للكلمة الطيبة؛ وذلك لأنّ الناس يفيد من ثمار وجودهم. ۵- (الفكر النزيه) هو خامس تفسير للكلمة الطيبة، فإنَّ الافكار النزيهة والطاهرة هى بمثابة الشجرة الطيبة التى ثبتت على طول التاريخ. ۶- (الحديث الحسن) هو تفسير سادس ذكر للكلمة الطيبة، فإنَّ الحديث الحسن قد يخلد ويثبت ويفيد منه المجتمع. «۲» وهناك رواية معروفة عن النبىّ صلى الله عليه و آله مدوّنة فى كتاب (إرشاد الديلمى) حيث يقول فيها: «ما أهدى المرء المسلم عن أخيه المسلم هديّة أفضل من كلمةٍ حكمة يزيده الله بها هدى ويردّه عن ردىً». «۳» لقد جاء فى قصة النبىّ موسى عليه السلام والخضر عليه السلام انهما عندما بلغا مدينة انطاكية واجهوا جفاءً من قبل ساكنى المدينة، خرجوا من المدينة ووجدوا هناك حائطاً خرباً، أمر الخضر ببنائه،

فكـان أمر الخضـر لموسـى مزعجـاً فقـال له الخضـر آنـذاك: إنَّ تحت الحائـط كنزاً ليتيمين كـان ابوهما امرئ جيـداً ويؤمل أن يكونا كذلك. لقد ورد فى بعض الروايات أنَّ الكنز هناك لم يكن ذهباً وفضةً، بل مجموعة من الحكم التى تركها أبوهما لهما، «۴» كما هو الحال بالنسبة إلى الكلام الثمين لأمير المؤمنين عليه السلام، فهو أغلى من أى كنز وهو يصلح لجميع العصور والأجيال.

كلمة طيّبة من الإمام الحسن المجتبى عليه السلام

إنّ جنادة بن أبى سـفيان من أصـحاب الإمام الحسـين عليه السـلام المخلصـين، طلب من الإمام أن يعظه فى الساعات الاخيرة من عمره المبـارك، ورغم أنّ الإمـام كـان فى وضع صـحى غير مناسب، إلّا أنه اسـتطاع أن يزوّد هـذا الإنسان المخلص ببعض النصائـح الجميلة وذات المغزى العميق، منهـا الجمـل التاليـة: «إن أردت عزاً بلاـ عشـيرة وهيبـة بلاـ سـلطان فـأخرج عن ذلِّ معصـية الله إلى عزّ طاعـة الله عزّوجلّ». «۱» نعم، كلام حق، فإنَّ العزة والاعتبار والسلطة فى طاعة الله والعبودية له «فإنَّ العِزَّةَ للهِ جَمِيْعاً». «۲»

المثل السادس والعشرون: لله المثل الأعلى

اشارة

يقول الله تعالى فى الآية الكريمة ۶۰ من سورة النحل: «لِلّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السّوْءِ وَلِلهِ المَثَلُ الأعْلَى وَهُو العَزِيْزُ الحَكِيْم».

تصوير البحث

اشارة

كمـا ذكرنـا سابقـاً، فـإنّ الهـدف من أمثـال القرآن هو بيان المسائل العقليـة المعقـدة فى صـيغة مسائل حسـية قابلـة للاستيعاب من قبل الجميع؛ وذلك لأنَّ القرآن للجميع، فكما أنّه يخاطب النوابغ من العلماء، يخاطب ابسط الناس والاميين منهم كذلك. هناك بحث بين المفسّرين فى أنَّ هذه الآية تُعدُّ من أمثال القرآن أم لا؟ سبب الاختلاف هو وجود تفسرين للآية، على أساس أحدهما تكون الآية مثلًا، وعلى أساس الاخر تكون الآية ليست مثلًا، ولأجل اتضاح الأمر، نأتى بالتفسيرين هنا:

التفسير الأوّل

طبقاً للتفسير الأوّل، انّ مفردة المثل جاءت بمعنى الصفة، أى أنَّ الذين لا يؤمنون بالقيامة يحملون صفاتٍ قبيحة وغير مطلوبة. والحقيقة كـذلك، لأنَّ الـذين يظلمون ويرتشون ويكـذبون ويقتلون و .... لابدّ أنهم لا يعتقدون بيوم القيامة، وإلّا ما ارتكبوا هذه الذنوب. يقول القرآن الكريم فى الآية ۴ من سورة المطففين: «ألَا يَظُنُ أُولَئِكَ أنَّهُم مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيْم». امثال القران، ص: ۲۵۶ وحسب ما يستشفُّ من الآية، فإنَّ سـبب تطفيف المطففين هو عدم اعتقادهم وايمانهم بيوم القيامة. نعم، إنَّ غير المؤمنين بيوم القيامة يحملون صفات سيئة وقبيحـة. من هنا كان على الإنسان أن يخطو جميع خطاه فى ظلّ منهـج يتحكّم بسـلوكه ويضـبطه، وإلّا فكثير هم الذين يقترفون الذنب وإن عظم لأجـل كسب المـال والمنافع، مهما كانت تافهـة وحقيرة. «ولِلهِ المَثَلُ الأعْلَى» لأنَّه قـدير لا يمكن هزمه، كما أنّه حكيم وذات منهـج قويم. إنّ ذوى السـلطة الظاهريـة هم كثيراً مـا يكونون غير حكمـاء، ولا يفيـدون من سـلطتهم بشـكل مطلوب. إنَّ للسـلطة آفات كـثيرة، منهـا الغفلـة عن البرمجـة والنظـام والحكمـة، لكن الله القـادر- وله أرفع قـدرة وسـلطة- هو الحكيم المطلق. وعلى أسـاس هـذا التفسير، فالآية الشريفة لا تُعدُّ مثلًا.

التفسير الثانى

طبقاً لهذا التفسير، انَّ مفردة المثل حافظت هنا على معناها اللغوى. إنَّ الذين لا ـ يؤمنون بيوم القيامة والمعاد لا فى العمل ولا فى العقيدة، لهم مثل السوء كالامثال التى ذكرت لهم فى القرآن المجيد. إنَّ المثل الذى ذكر فى الآية ۱۷ من سورة البقرة، والذى كان فى حق المنافقين، هو من جملة الأمثال السيئة التى تُضرب لغير المؤمنين بالمعاد. يقول الله هنا: «مَثَلُهُم كَمَثَلِ الّذِى اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلمّا أضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ». «۱» ومن الأمثال التى جاءت فى هذا المجال هو المثل المذكور فى الآية ۱۷۶ من سورة الاعراف، حيث شبّه الله المشركين هناك بالكلب المريض الذى يلهث والذى لا يحترم الصديق ولا العدو. امثال القران، ص: ۲۵۷ «وَلِلهِ المَثَلُ الأعْلَى وَهُو العَزِيزُ الحَكِيْم» أى أنَّ لله من الأمثال ما ليس لغيره، فلله المثل الأعلى، ويُعدُّ كل مثل فى حقه ناقصاً مهما ارتفع شأنه؛ وذلك لأن أمثلتنا من عالم الموجودات الممكنة، وهى جميعاً ناقصة ومحدودة، ولا يمكن تصوير اللامحدود بالمحدود. والآية التالية: «فَلَا تَضْرِبُوا لِلهِ الأمْثَالَ» تشير إلى هذا المطلب. رغم ذلك، إذا أردنا بيان مثال لله تعالى فالآية ۳۵ من سورة النور هى أنسب ما يمكن الاتيان به، فإنَّ الله هناك شُبِّه بالنور؛ وذلك لأنّه لا موجود أكثر فائدة وبركة ولطافة وسرعة من النور، فإنَّ لله الامثال العليا والرفيعة. سؤال: قد يخطر فى الذهن هذا السؤل: خلق الله كل شىء، لكن مَن خلق الله؟ الجواب: نعم، انَّ الله خلق كل شىء، لكن لم يخلق أحدٌ الله؛ وذلك لأنّ الله موجود أزلى وأبدى، أى كان ويكون وسوف يكون. إنّه لم يُخلق أبداً لكى نبحث عن خالق له. لأجل اتضاح المطلب نسترعى انتباهكم إلى المثال التالى الذى فيه صياغة للامور المعقولة فى قوالب محسوسة: إنّ الفحم الحجرى الذى هو نفايا الغابات فى العصور الغابرة معلول للطاقة الشمسية. وحتى النفط الذى هو الآن أكبر مصدر للطاقة فى العالم معلول للطاقة الشمسية؛ وذلك لأنَّه يقال: إنَ النفط عبارة عن بقايا أو مستحاثات الحيوانات فى العهود الماضية دُفنت لتتحول إلى هذه المادة بعد قرون. ومن الطبيعى أنَّ الحيوانات تتغذى من النباتات، والاخيرة تفيد من نور الشمس ولو لم تكن الأخيرة لما كانت النباتات. إنَّ المحركات الضخمة التى تُنصب على الشلالات لأجل توليد الطاقة تستمد طاقتها من الشمس بالشكل التالى: الشمس تسطع على البحار، فتتبخّر مياه البحار، فتتبدل المياه إلى سحب، لتنزل على الأرض تارة اخرى بشكل مطر وغيث مبارك، وهذه الامطار تتبدل إلى سيول تحرك المحركات لتوّلد الطاقة الكهربائية. أما طاقة الشمس فذاتية، أى لا تصلها من خارج الشمس، بل فى الشمس نفسها ما يمنحها الطاقة دون الحاجة إلى ما هو خارج عنها. وعليه، رغم أنَّ الشمس مخلوقة إلّا أنَّها لا تحتاج إلى من يولّد لها الطاقة. وهذا المثال يمكنه امثال القران، ص: ۲۵۸ أن يوضح أزلية الله وأبديته وأنه غنى عن الخالق ومن يمنحه الوجود أو السلطة. فى النتيجة: انَّ التفسير الثانى للآية الشريفة يجعل الآية من أمثال القرآن.

ارتباط آية المثل بسابقتها

تحدثت الآيات التى سبقت هذه الآية (أى الآيات ۵۷ و ۵۸ و ۵۹) عن العادات والعقائد القبيحة لعرب الجاهلية التى منها وأد البنات. جاء فى الآيتين ۵۸ و ۵۹ ما يلى: «وإذَا بُشِّرَ أحَدُهُم بالأنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيْمٌ يَتَوَارَى مِنَ القَوْمِ مِنْ سُوْءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أيُمْسِكُهُ عَلَى هَوْنٍ أمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرابِ ألَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ». المستفاد من الآيتين هو أنَّ العرب كانوا يغتمون إذا رزقوا بنتاً، وهذا أمر يجعل الجميع يتساءل عن سبب ذلك.

لماذا كان عرب الجاهلية يئدون بناتهم؟

إنَّ الدراسات كشفت عن وجود علتين لهذه الظاهرة: ۱- كانوا يظنون أنَّ الذكور مولّدون للثروات والمال، أما البنات فمستهلكات لهذه الثروة. ما كان للنساء آنذاك نشاط اقتصادى، أما الذكور فكانوا ينتجون فى قطاعات اقتصادية مختلفة أو فى مجال السرقات

وقطع الطريق وما شابه. لذلك كانوا يقولون: إن حقّ العيش خاص بالذكور، أما الاناث فلا حقّ لهنَّ فى الحياة الدنيا. ۲- التعصّب الأعمى، يقال: إنَّ حرباً حصلت بين قبيلتين من العرب، وقد أسرت القبيلة المنتصرة رجال ونساء وبنات القبيلة الخاسرة. وفى فترة الأسر تزوجت نساء القبيلة الخاسرة من رجال القبيلة المنتصرة. وبعد زمن انتهى أمر القبيلتين إلى الصلح وتبادل القبيلتان أسراهم، لكن النساء اللاتى تزوجن رفضن الرجوع إلى قبيلتهن، الأمر الذى تبع ملامات وافرة ضد تلك النساء. ومن شخصيات القبيلة الخاسرة شخص أقسم أن يقتل البنت امثال القران، ص: ۲۵۹ إذا ولدت له لكى لا يرى بعد ذلك عاراً كهذا. «۱» سرى هذا المرض تدريجياً إلى الآخرين، ليتخذ هذا الذنب العظيم عنواناً مقدساً مثل (الدفاع عن العرض) أو (حفظ الغيرة والحميّة) وما شابه ذلك. لقد أصبح متعارفاً فى الوقت الراهن أن ترتكب الجرائم العظمى بعناوين مقدسة، ومن جملة تلك العناوين هى عنوان (حقوق البشر)، وبهذا الشعار يسلبون حقوق الكثير من الناس والشعوب. كما أنهم يأسرون الإنسان تحت عنوان (الحرية) أو يقترفون الذنوب والجرائم تحت عنوان (التحضّر)، وهى جرائم لم يرتكبها الإنسان البدائى وغير المتحضّر. على أى حال، إنّ عرب الجاهلية كانوا ملوّثين بهذا الذنب العظيم، إلّا أن مجىء الإسلام أغلق اضبارة هذه الجريمة العظمى ليتوج الإنسانية ويقدّم للنساء خدمة عظمى. من جانب آخر، هؤلاء العرب الذين كانوا يعتبرون البنات موجودات مشؤومة، كانوا يعتقدون أنّ ملائكة الله بنات، وكانوا يعبدونها ليكسبوا رضا الله. ولذلك جاء فى الآية ۵۷ من سورة النحل ما يلى: «وَيَجْعَلُونَ لِلهِ البَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ». خاطب الله فى الآية العرب وكلمهم بالمنطق الذى يعتقدون به، وسألهم إذا كنتم تعدّون الملائكة بنات الله، فلماذا تئدون البنت عندما يرزقكم الله إياها؟! بالطبع ترسبات هذا الفكر الجاهلى لا زال موجوداً فى أذهان البعض، ولذلك عندما يريدون رسم الملائكة يرسمونها على شكل بنات.

البنت كشدّة الورد

من المؤسف أنَّ هذا الفكر الجاهلى الخاطىء لا زال يشغل حيزاً فى أدمغة بعض العوائل ولا يرون مساواة بين الذكر والانثى، ويتأذون من سماع ولادة بنتٍ لهم. امثال القران، ص: ۲۶۰ هناك الكثير من الروايات فى مصادرنا الإسلامية تبنّت الردّ على هذه الافكار، نشير إلى نموذجين منها، نأمل أن نزيل بهما وبالروايات الاخرى هذه الافكار المشؤومة. ۱- بُشِّر النبىّ صلى الله عليه و آله بابنةٍ فنظر إلى وجوه أصحابه فرأى الكراهة فيهم، فقال: «مالكم؟ ريحانة أشمّها ورزقها على الله عزّوجلّ». «۱» كثير من الاولاد كانوا وبالًا على والديهم وسبباً لنكستهم، وكثيراً من البنات كنّ سبباً لرفعة رأس والديهن. إن فاطمة الزهراء (عليها السلام) كانت فخراً لابيها، ونسل الرسول صلى الله عليه و آله كله يرجع إلى هذه البنت. ۲- جاء فى ذيل الآية الشريفة: «وأمّا الغُلَامُ فَكَانَ أبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِيْنَا أنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً فأرَدْنَا أنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرَاً مِنْهُ زَكَوةً وَأقْرَبُ رُحْماً» «۲» إنَّ الله رزق هذين الأبوين بنتاً كانت كشدة الورد، لا أنَّها لم تسبب نكسة للابوين فقط بل كانت سبباً لرفعة رأسهم، وذلك لأنَّ سبعين نبيّاً كان من نسلها، «۳» فهل هذه البنت شؤم والذكر جيد وحسن؟! وفقاً لآية المثل، إنَّ الكفار بالله وباليوم الآخر لهم أسوأ الامثال، وكلامهم بذىء، ويعتقدون أنّ لله بنات، مع أنَّه ليس كذلك، فهو لم يلد ولم يولد. لحيثيتين يحتاج الإنسان إلى ولده: الاولى: أنَّ عمر الإنسان محدود، ويحتاج الإنسان إلى الاولاد لكى يحافظ على نسله. الاخرى: لا يتمكن الإنسان الحفاظ على قواه حتى نهاية عمره، بل يضعف الإنسان كثيراً ببداية الكهولة، وحينئذٍ يحتاج إلى من يعتمد عليه ويعينه فى تلك الأيام. اما بالنسبة إلى الله، فهو أزلى وأبدى ولا معنى للموت بالنسبة إلى ذاته المقدسة، كما أنَّه قادر وقوى مطلقاً فلا يحتاج إلى الولد ذكراً أو أنثى. اضافة إلى هذا، امتلاك الولد يستلزم الجسمانية، وبديهى أن ذات الحق ليست جسماً «تَعَالَى اللهُ عَنْ ذَلك عُلُوّاً كَبِيْرَاً».

المثل السابع والعشرون: عبيد الأصنام وعباد الله

اشارة

يقول الله تعالى فى المثل السابع والعشرين وفى الآية ۷۵ من سورة النحل ما يلى: «ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا عَبْدَاً مَمْلُوكاً لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيءٍ وَمن رَزَقْنَاهُ منّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرّاً وَجَهْرَاً هَلْ يَسْتَوُونَ الحَمْدُ للهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ».

تصوير البحث

تحدّثت الآية عن عبيد الأصنام والمؤمنين. ويشبّه الله عبدة الأصنام هنا بالعبد المملوك الذى لا يملك شيئاً من المال، كما أنّه غير حرٍّ فى اتخاذ القرار. أمّا المؤمنون فإنّ الله هو رازقهم، كما أنهم يشركون الاخرين بأرزاقهم، وذلك بالانفاق سراً وجهراً.

ارتباط آية المثل بسابقاتها

تحدثت الآيات السابقة عن عبادة الأصنام، وعن سبب عبادة الإنسان لموجودات لا يمكنها حل أى مشكلة من مشاكله، رغم أنّه عاقل والمفروض بأعماله أن تكون هادفة. من هنا جاء فى الآية ۷۳ من نفس السورة ما يلى: «وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُوْنِ اللهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُم رِزْقاً مِنَ السّمَاوَاتِ والأَرْضِ شَيْئاً وَلا يَسْتَطِيعُونَ».

دوافع العبادة

للعبادة دوافع عديدة، ومن دوافع عبادة الله القادر هو قضية "شكر المنعم، "فالإنسان امثال القران، ص: ۲۶۲ عندما ينظر إلى ذاته وحواليه يرى نفسه غارقة بالنعم العديدة من العين والاذن واليد والرجل والفكر والسماء والأرض والشمس والهواء والاشجار والغابات وأمثال ذلك، ولهذا يحكم وجدانه بضرورة شكر المنعم وتقديره. هل يمكن شكر المنعم دون معرفته؟ من هنا كان الشكر سبباً لمعرفة الله. وعليه، شكر المنعم هو من دوافع عبادة خالق المخلوقات. قد يكون المعبود خالياً من التأثير على حياة الإنسان، لا أنه لا فائدة فيه، ولا ـ يزوّد عابديه بأى خير، بل إنّه لا يستطيع الدفاع حتى عن نفسه، وهو بحاجةٍ إلى حماية الاخرين. وإنّ موجوداً كهذا ليس أهلًا للعبادة، ولا شك أنّ عقل الإنسان يرفض هذا النوع من العبادة. بالطبع، إنَّ عبدة الأصنام لا يعدون أصنامهم هى خالقة المخلوقات، بل حسب ما ورد فى القرآن: لو سألناهم مَن خلق السماوات والأرض لأجابوا: الله هو الذى خلقها «۱» لا أصنامهم العاجزة. وهذا يكشف عن أنَّهم لم يكونوا مشركين فى الخلق، كما أنَّهم كانوا يعدّون الله الرازق الوحيد. «۲» غاية الأمر أنَّهم كانوا يعتقدون أنَّ الاصنام تبتُّ بحل المشاكل بشكل مباشر ومستقل أو كشفعاء عند الله، لذلك جاءت الآية ۳ من سورة الزمر لتقول: «ألا لِلهِ الدّينُ الخَالِصُ والّذِين اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أوْلِيَاءَ ما نَعْبُدُهُمْ إلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إلَى اللهِ زُلْفَى». لا شك أنَّ كلام المشركين باطل وواضح عدم صحته، كيف يمكن لأصنام أن تحلّ مشاكل الآخرين رغم أنّها عاجزة عن حلّ مشاكلها ذاتاً. وفقاً لما جاء فى النص القرآنى، فإنَّ إبراهيم عليه السلام عندما حطّم الأصنام (فى تلك القصة المعروفة والجميلة) قال: «أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُوْنِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُم أُفٍّ لَكُم وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُوْنِ اللهِ أَفَلَا تَعْقلُونَ». «۳» امثال القران، ص: ۲۶۳ فالإنسان العاقل- إذن- لا يستسلم ولا يركع أمام أصنامٍ كهذه. تعقيباً على ما ورد فى هذه الآيات من نهى الإنسان عن عبادة الأصنام جاءت آية المثل.

الشرح والتفسير

الآية سعت للتمييز بين المؤمن (عبدالله) والمشرك (عابد الصنم)، فشبّهت المشرك بالرق الذى لا إرادة له بل إرادته تابعة لمولاه، كما أنّه لا يملك شيئاً من المال ولا يملك قرار نفسه، بل إنَّ بعض المالكين يجيزون لأنفسهم قتل عبيدهم فى حالة الغضب والضجر، فهم كانوا يعتقدون أنَّ المالك له الحق فى التصرف بأمواله بأى شكل شاء. إنّ المشركين لهم شأن كهذا الرق الذى يفقد الارادة

والاختيار. أمّا المؤمن الموحّد فهو بمثابة الإنسان الحر الذى رزقه على الله هنيئاً مريئاً، ويشرك الاخرين فى هذا الرزق الحسن بالانفاق إليهم فى السر والعلانية. هل يتساوى هذان الاثنان؟ طبعاً لا يتساوون. إنَّ الذى جرّ هؤلاء المشركين إلى هذا العمل هو جهلهم.

خطابات الآية

۱- العبيد فى الإسلام

هل امتلاك العبيد أمر مطلوب؟ هل يسمح الوجدان البشرى بممارسة العبودية؟ لماذا لم يحرر الإسلام العبيد عند ظهوره؟ ولماذا لم يلغ هذه الظاهرة بالكامل؟ لماذا هناك احكام خاصة فى الفقه تتعلق بالعبيد؟ لماذا لم يتساو العبيد والاحرار فى حقوقهم الإنسانية؟ وآخر سؤال هو: هل تتفق روحية العبودية مع الإسلام الذى هو دين فطرى؟ إنَّ جواب الاسئلة الماضية نجدها فى كتاب مستقل يحمل عنوان (الإسلام وتحرير امثال القران، ص: ۲۶۴ العبيد) «۱» وكذلك فى محال متعددة من تفسير الأمثل، رغم ذلك نشير إلى الاجابات بشكل مختصر هنا: إنَّ تحرير العبيد من الأهداف المهمة لدين الإسلام، وقد تحقق هذا الهدف تدريجياً وبمرور الزمان. وينبغى الالتفات هنا إلى أنَّ ظاهرة سيئة ما إذا تجذّرت فى المجتمع فلا يمكن اقتلاعها فى فترة قصيرة، بل ينبغى اتخاذ اجراءات ابتدائية خاصة لأجل اجتثاثها من المجتمع، وفى غير هذه الحالة، فان مشاكل جمة ستواجه المجتمع والقائمين على اصلاح سلوكياته. لو بتَّ الرسول صلى الله عليه و آله منذ البداية بإلغاء هذه الممارسة مباشرة، وقام المسلمون بتحرير عبيدهم (الذين يفقدون رأس المال) وبإخراجهم من بيوتهم، لأدى ذلك إلى مشاكل عديدة ومفاسد اجتماعية من قبيل السرقة والزنا واللواط، وهم فى النتيجة سيهدمون أساس المجتمع، لذلك كان تحريرهم المفاجىء أمراً غير صحيح. من هنا وضع الإسلام منهجاً تدريجياً خاصاً لتحرير العبيد ولضمهم إلى المجتمع الحر ومن دون حصول هذه المشاكل المحتملة. عمل الإسلام فى البداية على قطع مناشىء التعبيد فى المستقبل، لكى لا يُرقّ إنسان فيما بعد، ولم يبق إلّا طريق واحد وهو الإسترقاق عن طريق الحرب، وذلك عند أسر الأعداء، رغم ذلك جعل الإسلام بديلًا لذلك حيث منح المسلمين الحق فى تحرير الاسرى أو تبديلهم بفدية، ومن جانب آخر أكد على استحباب تحرير العبيد وفرض لذلك ثواباً عظيماً «۲» لكى يتشجّع المسلمون على تحرير عبيدهم. وقد ورد فى بعض الروايات أن عليّاً أعتق ألف عبدٍ من كدّ يده. «۳» كما قد جاء فى رواية أن الإمام الحسن عليه السلام حرّر جارية له بمجرد أن أهدت له يوماً زهرة، امثال القران، ص: ۲۶۵ وقال لها: «أنتِ حرة لوجه الله»، وبعد تعجب أحد أصحابه على عمله هذا، قال له: «أدّبنا الله تعالى». «۱» وتمشياً مع مبدأ التحرير المطلق للعبيد، فرض الإسلام تحرير الرقّ ككفارة لكثير من الذنوب. إنَّ الشخص إذا أفطر فى شهر رمضان عمداً، فعليه- اضافة إلى القضاء- الكفارة، وأحد خيارات الكفارة المفروضة هو تحرير عبدٍ، وكذا الحال بالنسبة إلى حنث اليمين والعهد والنذر فإنَّ تحرير عبد هو أحد الخيارات المفروضة هنا. وبهذا المنهج الدقيق للإسلام تحقق التحرير التدريجى للعبيد، قبل أن تُعلن الدنيا عن قرار تحرير العبيد بمئات السنين.

۲- العبودية المتطوّرة

يعتبر القرآن المجيد المؤمنين أحراراً والمشركين عبيداً. ومن هنا ندرك أنَّ مصطلح (العبيد) لا ينحصر فى معناه المتعارف، بل هناك أنواع اخرى للعبودية، وهى عبودية الشهوة والهوى والهوس والمال والثروة والجاه والمقام وأصناف اخرى للعبودية المتطوّرة. يقول ابن عباس: «إنَّ أول درهمٍ ودينارٍ ضرباً فى الأرض نظر إليها إبليس فلمّا عاينهما أخذهما فوضعهما على عينيه، ثمّ ضمّهما إلى صدره، ثمّ صرخ ثم ضمهما إلى صدره ثمّ قال: أنتما قرة عينى، وثمر فؤادى، ما ابالى من بنى آدم إذا أحبّوكما أن لا يعبدوا وثناً، حسبى من بنى أدم أن يحبّوكما». «۲» أى أن صنم المال والثروة وعبودية المال والدنيا هى أخطر من العبودية المتعارفة. العالم اليوم الذى أعلن عن

تحرير العبيـد، هو فى الحقيقة غيّر نوعية العبودية ولم يزلها بالكامل. أرباب القوى العظمى عند تبريرهم للجرائم التى يرتكبونها يقولون بصـراحة: إنَّ هـذه الجرائم تقتضـيها مصالحنا، فإنَّه لو لم يكن هناك حرب وإهراق للدماء وقتل واختلاف وتفرقة، فإنَّ معامل الاسـلحة ستتعطّل. ألم يكن هذا شركاً وعبادة للأصنام؟! امثال القران، ص: ۲۶۶ أليس هؤلاء أسرى أموالهم وثرواتهم وعبيداً لها؟! هناك بعض يغتمون كثيراً ويقيمون العزاء لأجل حرمانهم من تجمّلات الدنيا وزخرفها! إن هؤلاء أسرى حقيقيون.

يوسف عليه السلام إنسان حر

المستفاد من القرآن المجيد هو أنَّ زليخا (زوجة عزيز مصر) لم تكن الوحيدة التى دعته لتنفيذ رغباتها وشهواتها الشيطانية، بل إنَّ كثيراً من نساء اشـراف مصـر وكبارها كنَّ يشـجّعن يوسف عليه السـلام على إطاعة زليخا والقيام بهذا العمل الشيطانى، لذلك جاء فى كلام يوسف عليه السـلام: «رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إلى مِمَّا يَدْعُونَنِى إلَيْهِ». «۱» هناك احتمالات فى مضـمون الكلام المسـتخدم لتشجيع يوسف عليه السـلام، فقـد يكون مضـمون الكلام هو: (يوسف! أنت شاب وزليخا إمرأة جميلـة فلماذا لا تستسـلم لها)؟ وقد يكون: (إذا لم تهو جمـال زليخا وحسـنها، فلا أقل فكّر فى مقامها وجاهها، فانك قـد ترتقى مقاماً من خلالها)، وقـد يكون: (إذا لم تكن من أهل الجمال والجـاه والمقـام، فخف انتقام زليخا وطعنها بك). أما يوسف الحر فقـد قاوم هـذه الوساوس التى تقمّصت ثياباً جميلـة وجذابـة ورجّح عبوديـة الله على أى شـىء آخر وقال: «رَبِّ السِّجْنُ أحَبُّ إلَى مِمّا يَدْعُونَنِى إلَيْهِ». إلهى! إنَّ هـذه النسوة الملوّثات يدعننى لتحمّل أسـر الهوى والهوس، وأنا أبغى الحرية وأحبها رغم أنّها قد لا تحصل إلّا فى الزنزانات والسـجون، وذلك أحب إلى من أسر النفس الأمارة، يا إلهى العظيم! إنّ هذه المحنة عصـيبة جداً وأنا غير قادر عليها لوحدى فلا تتركنى دون عناية منك، ولا تكلنى إلى نفسـى طرفة عين. انَّ الله أعان يوسف الحر وجعله يعيش الحريـة فى سـجون العزيز، التى اقترنت مع رفعـة رأس وافتخار، كما أنها كانت مقدمة لحكومته وسـلطانه وإثبـات نزاهته وطهارته. امثال القران، ص: ۲۶۷ إنَّ يوسف عليه السـلام لو لم يـذهب إلى السـجن لما توافرت له فرصة تعبير المنام، وتعبير المنام لو لم تتوافر فرصته لما تبرّء من الاتهامات ولما اقترب من السلطان ولما حكم فى النهاية. إلهى! نحن جميعاً أسارى الهوى والهوس نوعاً ما، لكن نحب أن تنقذنا من أسرنا، فأعنّا على ذلك.

على عليه السلام حرٌّ آخر

من التفاسـير الواردة فى تفسـير المؤمن الـذى ورد فى آيـة المثـل هو الإمـام على بن أبى طالب عليه السـلام. «۱» نعم إنّه كـان حرّاً من عبوديـة الهوى والهوس والمال والثروة. كان ينفق كل ما عنـده من ثروة فى سبيل الله حتى فى اثناء الصـلاة. نال الحكومة الظاهرية بعد سكوت وقعود فى البيت ومظلومية تحّملها مدة سـنوات، وقد أصـبح آنذاك حاكماً وذا سـلطة، رغم ذلك ما كان يجرؤ على التلاعب فى بيت المال وإنفاقه بما تروق له نفسه. وقصـته مع أخيه عقيل خير شاهـد على هذا، ولنقرأ القصة على لسان أخيه هنا، وقد مرّت على لسان الإمام على عليه السـلام فيما سـبق: «أقويت (أى افتقرت) وأصابتنى مخمصة شديدة، فسألته فلم تند صفاته (التعبير كناية عن بخل الإمـام) فجمعت صبيانى وجئته بهم والبؤس والضـر ظاهران عليهم. فقال: (ائتنى عشـية لأدفع إليك شـيئاً)، فجئته يقودنى أحـد ولـدى، فأمره بالتنحى ثم قال: (ألا فدونك)، فأهويت حريصاً قد غلبنى الجشع (الحرص الشديد) أظنها صـرّة، فوضعت يدى على حديد تلتهب ناراً، فلمّا قبضـتها نبـذتها وخرت كما يخور (أى يصـيح) الثور تحت جازره، فقال لى: (ثكلتك امّك هـذا من حديـدة أوقـدت لها نار الدنيا، فكيف بك وبى غداً إن سـلكنا فى سلاسل جهنّم)؟ ثم قرأ: «إِذْ الأَغْلَالُ فِى أَعْنَاقِهِم وَالسَلَاسِلُ يُسْحَبُونَ» «۲» ثم قال: (ليس لك عندى فوق حقك الذى فرضه الله لك إلّا ما ترى) فانصـرف إلى أهلك». «۳» امثال القران، ص: ۲۶۸ إنَّ عقيل قام ليخرج بعد ما رأى فى هـذا الحاكم الصـلابة وعـدم اسـتعداده للعدول عن طريق العدالة ولو للحظة واحدة. هل نعلم على طول التاريخ حاكماً قادراً يعامل أخـاه هـذه المعاملـة، التزاماً بالعدالـة؟ إلهى! وفّق مسؤولينا للعمل كما كان يعمل الامراء الاحرار، لكى يقـدموا الضوابط والقوانين على

العلاقات.

المثل الثامن والعشرون: المؤمن والمشرک

اشارة

يقارن الله فى الآية ۷۶ من سورة النحل بين المشرک والمؤمن ويقول: «ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أحَدُهُمَا أَبْكَمْ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَولَيهُ أيْنَمَا يُوَجِّهَهُ لَا يَأتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوىَ هُوَ وَمَنْ يَأمُرُ بِالعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ».

تصوير البحث

عنت الآية بالمقارنة بين الإنسان المؤمن والإنسان المشرک، وقد قارنت الآية بين الاثنين بمثل جميل ودقيق بحيث لا يمكن إثره انكار الفوارق بين الإنسانين، وبخاصة إذا لاحظنا الصفات التى ذكرت للمشرک فى الآية، فانَّ ملاحظتها يفرض علينا القول بعدم امكانية المقارنة بينهما لشدة الاختلاف فى هذه الصفات.

الشرح والتفسير

«وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ» فى هذا المثل قارن الله بين شخصين الأوّل وهو المشرک يحمل الصفات الخمس التالية: ۱- «أَحَدُهُمَا أبْكَمٌ» أى أنّه أخرس. وأبكم مفردة اخرى للاخرس، والفرق بينهما أن الأخرس هو الذى عرضت له هذه الحالة أثناء حياته، ولم يكن أخرس منذ الولادة. أمّا الأبْكَم فهو الذى يلد على هذه الحالة. امثال القران، ص: ۲۷۰ وقد أضاف بعض من أهل اللغة أن الابكم هو الذى يكون على هذه الحالة منذ الولادة، والسبب عقلى أى الضعف فى قواه العقلية، فهو يعانى من تخلف عقلى. وعلى هذا فالابكم صاحب دماغ ضعيف وسقيم، ويشبّه الله المشرک بهذا الذى يلد ضعيف العقل. ۲- «لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيءٍ» الخصلة الثانية لهذا الإنسان هى أنّه غير قادر على عمل شىء، فهو ضعيف روحياً وجسمياً. ۳- «وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَولَيهُ» الخصيصة الاخرى لهذا الإنسان أنّه كلٌّ أو ثقل على الآخرين، أى أنّ هذا العبد ثقل على مولاه. المتعارف أنَّ الناس يقتنون العبيد لأجل حلِّ مشاكلهم، إلّا أن العبد هذا، لا أنه لم ينجز عملًا انتاجياً أو خدمة ما فحسب، بل هو مستهلک بحت ولذلک كان كلًا على مولاه. ۴- نستفيد من العبارة الماضية أن هذا الشخص عبد وليس حراً، بعبارة اخرى انه ملک لغيره لا لنفسه ولا يملک إرادة نفسه. ۵- «أيْنَمَا يُوجّهُ لَا يَأتِ بِخَيْرٍ» آخر خصلة له أنه لا يتوفّق فى أى عمل يقدم عليه، ويرجع منتكس الرأس كلّما ارسل لقضاء حاجة. وعلى هذا، فإنَّ المشرک يبدو شخصاً يحمل الصفات التالية: ۱- عبد يفقد الارادة. ۲- أبكم منذ الولادة. ۳- لا يستطيع انجاز عملٍ ما. ۴- كَلٌّ على مولاه. ۵- فاشل فى جميع أعماله. «هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَنْ ...» أى هل يستوى هذا الإنسان الحامل لهذه الصفات مع إنسان ستأتى صفاته؟ الإنسان الآخر (المؤمن) الذى سنبثُّ بتوصيفه يحمل خصلتين ممتازتين وبارزتين: ۱- «يَأمُرُ بِالعَدْلِ» أول خصائصه أنّه يأمر بالعدل والقسط، أى أنَّه عادل ويعمل طبقاً لما تستلزمه العدالة. وأمره بالعدالة يكشف عن شخصيته القيادية والادارية. امثال القران، ص: ۲۷۱ ۲- «وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» فهذا الإنسان اضافة إلى عدالته وأمره بها، يحضى بخصيصة اخرى، وهى أنَّه يخطو على الصراط المستقيم. قد يكون البعض من طلّاب العدالة والقسط فى المجتمع، لكن بما أنّ مساعيهم لم تنشأ ولم تصب فى الطريق الصواب والصحيح فهى كثيراً ما تنتهى إلى الظلم والجور. وقد نجد شخصيات من الشيوعيين يطالبون بالعدالة حقاً، لكنهم سلكوا طريقاً غير صائب لاجل تحقيق العدالة، فانتهى أمرهم إلى جرائم كثيرة وبشعة اقترفوها خلال سبعين عاماً من حكومتهم. إذن، مثل المؤمن مثل الإنسان العادل والطالب للعدالة الذى يسير على طريق الحق والصواب، أما مثل الكافر فمثل العبد الابكم الذى لا إرادة له و .... وهل يتساوى (مع هذه المفارقة) المشرک والمؤمن؟ لا

شك أنه لا يوجد من ينكر المفارقة هذه.

خطاب الآية

الشرك وعبادة الأصنام فى القرن العشرين

يتصور البعض أنّ عهد الشرك وعبادة الأصنام قد ولّى ولا يوجد مشرك حالياً، مع أنّ الواقع ليس كذلك، فهناك مشركون وعبدة للأصنام؛ وذلك لأنَّ للشرك (ذلك البلاء المهلك) أنواعاً وأقساماً كثيرة. من هنا قال القرآن: «وَمَا يُؤمِنُ أكْثَرُهُمْ بِاللهِ إلّا وَهُم مُشْرِكُونَ». «۱» نعم، إنَّ أكثر الذين يدّعون الايمان نجد فى معتقداتهم عروقاً من الشرك تصب فى قلوبهم. لو قيل للذى ادّخر مالًا وأعدّ لنفسه ثروة ضخمة: انَّ هذه الثروة ليست لك، وأنت مجرد أمين عليها، فاعط المحتاجين كما نصّت الآية على ذلك: «وَأَنْفِقُوا مِمّا جَعَلَكُم مُسْتَخْلَفِيْنَ فِيْهِ». «۲» امثال القران، ص: ۲۷۲ لأجاب: لى أولاد وبنات وهم مقبلون على الزواج وعلى دخول الجامعات، ومصارفهم كثيرة وثقيلة ... إنّ هذا المسلم مشرك فى الحقيقة؛ وذلك لأنَّه غير مقتنع برازقية الله بشكل كامل، وتوحيد رازقية الله عنده ناقص، وإلّا فإنَّ الله الذى كان قادراً على حفظ هؤلاء الأطفال فى أرحام امهاتهم قادر على إعانتهم فى الدنيا إلى نهاية عمرهم. إنّ المترائين الذين يتظاهرون بعبادة الله أمام الناس، لأجل كسب العزة والجاه عند الناس، هم فى الحقيقة يمارسون الشرك بتظاهرهم هذا؛ لأنَّ الآية ۲۶ من سورة آل عمران نصّت على أنّ الذل والعز بيد الله تعالى لا بيد هؤلاء الناس الفقراء إلى ربّهم «قُلِ اللَهُمَّ مَالك المُلْكِ تُؤْتِيَ المُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وتَنْزِعُ المُلْكَ مِمّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلّ مَنْ تَشَاءُ ...». إنّ المشرك ضعيف وفاشل ووحيد دائماً، أما المؤمن الموحّد والآمر بالعدل والسائر فى الطريق الصواب فإنَّ الله معه دائماً. لذلك يقول الله تعالى فى الآية ۵۱ من سورة غافر: «إنّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا والّذِيْنَ آمَنُوا فِى الحَياةِ الدُّنْيَا وَيَوْم يَقُومُ الأشْهَادُ». كما قال الله فى الآية ۳۰ من سورة فصلت المباركة: «إنّ الّذينَ قَالُوا ربّنا اللهُ ثُمّ استَقَامُوا تتنَزَّلُ عَلَيْهِمُ المَلائِكةُ ألّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وأبْشِرُوا بالجَنّةِ الّتى كُنْتُمْ تُوعَدُونَ» حسب ما صرّحت به هذه الآية، فإنّ الله يعين المؤمنين من خلال إرسال الملائكة إليهم. وعلى هذا، فإنَّ الشرك (الذى هو منشأ كثيرٍ من المفاسد) لا زال موجوداً فى عالمنا اليوم، وله أقسام عديدة على المؤمنين أن يتبرؤوا منها. من الآيات التى فُسّرت فى الإمام على عليه السلام هى هذه الآية (آية المثل)، وحسب ما جاء فى رواية وردت عن أهل البيت عليهم السلام: أنَّ المُرَاد من «مَنْ يَأمُرُ بِالعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم» هو الإمام على والائمّة المعصومون عليهم السلام. «۱» بالطبع هذا لا يعنى عدم شمول الآية للآخرين، بل الرواية تعنى أنَّ علياً والائمة عليهم السلام هم امثال القران، ص: ۲۷۳ أبرز مصاديق هذه الآية. «۱» نعم، إنّ عدالة على عليه السلام بمستوى جعلته يستحوذ لا على قلوب المسلمين فحسب، بل على قلوب جميع الأحرار فى العالم. من هنا يقول الكاتب المسيحى (ميخائيل نعيمة): لا يختص على بالمسلمين فحسب، بل نحن المسيحيون كذلك نحب علياً. حقاً كما قال، ولو كان الإمام على عليه السلام مختصاً بالمسلمين فحسب لما كتب الكاتب المسيحى المعروف (جورج جرداق) كتاباً فى على عليه السلام أسماه: (صوت العدالة الإنسانية)، حيث تعامل فيه مع على عليه السلام كمعاملة عاشق له، عاشق لفكره، عاشق لعدالته، عاشق لقلمه، عاشق لسلوكه واخلاقياته، عاشق لتقواه. ويبدو أنَّ هذا الشخص ذاته الذى قال فى على عليه السلام: يا دنيا! مالك لو تستنفرى جميع قواك ليكون لك رجل كعلى فى كل قرن، لكن أسفاً أن الدنيا غير قادرة على ذلك. هناك مطالب كثيرة وردت فى عدالته، إلّا أنّ بعضها باعتبار شهرتها لم تنل الاهتمام الدقيق والكافى. إنَّ كثيراً من خطبه ورسائله فى نهج البلاغة تحكى عن عدالته، منها قصته المعروفة مع أخيه عقيل التى قد أشرنا لها فى البحوث الماضية مراراً، وهى تشكل قصة لا مثيل لها فى التاريخ أبداً. وفى نفس الخطبة التى جاءت فيها قصة عقيل جاءت قصته مع الأشعث بن قيس المنافق الذى كان سبباً لكثير من الاختلافات والإستفزازات والمؤمرات فى عصر حكومة الإمام على عليه السلام. إنَّ هذا المنافق تخاصم مع مسلم على قطعة أرض وقد وقعت اضبارة الاثنين بيد على القدوة فى العدالة. وفى ليلة أراد الاشعث إرشاء على عليه السلام بإهداء حلوى له

فكـان جواب على هو النفى والتأنيب، فهى إمّا رشوة أو صدقـة أو زكاة، وكلها حرام، فالرشوة حرام على جميع امثال القران، ص: ۲۷۴ القضـاة، وأمّا الزكاة والصدقـة فهى حرام على آل الرسول جميعاً. «۱» أراد الأشـعث المنافق أن يكسب الموقف ولو بطلى الباطل صبغة الحقّ، حيث قال: إن هـذه هديـة، وهى لا تـدخل فى العناوين السابقـة، ولكل مسـلم الحقّ بأن يهـدى، وردّها غير صـحيح. «۲» فاجابه: «هبلتك الهبول! أعن دين الله أتيتنى لتخـدعنى؟ أمختبط أنت أم ذو جنّـةٍ، أم تهجر؟ والله لو أعطيت الأقاليم السـبعة بما تحت أفلاكها، على أن أعصـى الله فى نملـةٍ أسـلبها جُلب شـعيرة ما فعلته، وإن دنياكم عندى لأهون من ورقة فى فم جرادة تقضـمُها». نعم، الدنيا التى تُقترف الجرائم لأجل كسب مقدار قليل من زينتها هى أهون من ورقة شـجرة فى فم جرادة. علينا نحن الشيعة أن ندرس أنفسنا ونراجع لنعرف إلى أى مـدى نتحلى بالعدالـة العلويـة؟ وأى مقـدار فهمنا من دروس عدالـة على؟ وهل يا ترى خطونا الخطوات الكافيـة لأجل ذلك، أم أنّا شـيعة فى القول واللسان فقط دون العمل؟ لا شك إذا كنا نبحث عن السـعادة والنجاة، فلا مفرّ من العبور من صراط على، كما علينا التزام حبه وعشقه دائماً، لأنَّ السعى لا يجدى نفعاً إذا لم يقترن بالحب. امثال القران، ص: ۲۷۵

المثل التاسع والعشرون: حديثوالعهد بالإسلام

اشارة

يقول الله فى الآية ۹۲ من سورة النحل: «وَلَا تَكُونُوا كَالّتى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أنْكَاثاً تَتَّخِذُونَ أيْمَانَكُم دَخَلًا بَيْنَكُمْ أنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أرْبَى مِنْ أمَّةٍ إنَّمَا يَبْلُوَكُمُ اللهُ بِهِ وَلَيُبينّنّ لَكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيْهِ تَخْتَلِفُونَ».

تصوير البحث

كان المسـلمون فى صدر الإسـلام أقلية والمشـركون يشـكلون الأكثرية. وتلك الثلة من الشباب، الذين عشقوا الرسول وآمنوا به، كانوا يواجهون ضـغوطاً من قبل عوائلهم وأصـدقائهم والمجتمع المشـرك عموماً، «۱» فبعض منهم مثـل أبى ذر وبلالـ وعمـار قاوموا جميع الضـغوط وثبتوا على عقيـدتهم وضـحّوا لأجلها وماتوا وهم مسـلمون، إلّا أنّ البعض الآخر لم يطق ملامـة المحيطين به (وهم الاكثريـة) واعتراضـاتهم، وارتـدّوا بعـد مـا اجتـازوا مراحل الإسـلام والايمان الصـعبة، والآيـة هـذه تعرضت للثلـة الاخيرة من المسـلمين المتزلزل إيمانهم.

الشرح والتفسير

«وَلَا تَكُونُوا كَالّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أنْكَاثاً» يخاطب الله فى هـذه الآيـة حـديثى العهـد بالإسـلام الـذين تحمّلوا مشاق الإسـلام والايمان وتخطّوا مشاكل هذه المرحلة وتتوجوا امثال القران، ص: ۲۷۶ بالإسلام أفضل دين سماوى، ويحذّرهم دون أن يكونوا كتلك التى نقضت غزلها بعـد أن تحملت مشاق ومتاعب الغزل والحياكة. فإنَّ مثل الذى يرتد عن الإسـلام والايمان إلى الشـرك كمثل تلك السـفيهة أو البلهاء. اختلف العلماء فى اسم تلك السـفيهة، فبعض قال: انها رائطـة، وبعض قال: انها ربطـة، وبعض آخر قال: إنّها رابطـة. المهم أنها امرأة كانت تعيش فى عهد الجاهلية ولشدة غبائها وبلهها كانوا يسمونها حمقاء. إنَّ ما كانت تعمله هذه الحمقاء المتموّلة هو أنّها فى صـباح كل يوم كانت تعدُّ صوفاً وتأمر جارياتها بغزل الصوف، ثم تأمر الجاريات عصر ذلك اليوم بارجاع الغزل إلى الصوف، أى تأمر بنقض الغزل. وعملها هـذا كان يتكرر كل يوم. يحذّر القرآن الكريم حديثى العهد بالإسـلام أن لا يعملوا بايمانهم واسـلامهم كما كانت تعمل هـذه المرأة الحمقاء بغزلها. «تَتَّخِذُونَ أيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ» أى لا تتخذوا قسـمكم ذريعة للخيانة والفساد ولا تتماطلوا فى بيعتكم مع الله. «أنْ تكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أرْبَى مِنْ أمَّةٍ» أى لاـ تتخـذوا قلتكم وكثرة المشـركين ذريعـة لنقض بيعتكم مع الله ورسوله، فإنَّ

القلـة والكثرة ليسـتا إلّا ذرائع وتبريرات. «إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللهُ بِهِ» أى أنَّ هـذه القلـة فى العدد هى امتحان لكم، وما عليكم إلّا السـعى لأجل اجتيـازه بنجـاح. «وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ القِيَامَـةِ مَـا كُنْتُمْ فِيْهِ تَخْتَلِفُونَ» لاـ شـك أنّ الله سـيبّين للجميع يوم القيامـة ما كان يختلف فيه الناس، وآنذاك سـيندم الكفار والمشـركون على عدم إيمانهم. هذا المثل جميل وبليغ وجذّاب جداً، كما أنَّه تحذير للمسلمين على أن يغزلوا حبال إيمانهم باستحكام وقوة خوف النقض بعد هذه المشاق والمتاعب وخوف الوقوع فى الشرك تارة اخرى.

خطابات الآية

۱- إنَّ الصوف إذا لم يُفتـل فلاـ فائـدة فيه، ولا يمكن صـناعة شـىء منه، أما عنـدما يُغزل، فاذا امثال القران، ص: ۲۷۷ كان غزله رفيعاً ودقيقاً تبـدل إلى خيوط تصلح لصـناعة الاقمشـة والسـجاد، وإذا كان سـميكاً تبـدل إلى حبال وأمكن صـناعة خيام صـحراوية منه. إنَّ المجتمع المتشـتت والمتفرق كالصوف غير المفتول لا يصـلح لشـىء، أما إذا اتحـد وتلاحم، فانّ ذلك سـيكون منشأ لخيرات وبركات كثيرة. ۲- إنَّ الصوف فى الحالات الاعتياديـة ضـعيف وهش ويـذهب به الريـح حتّى لو كان نسـيماً، ولا قـدرة له على المقاومة، رغم ذلك فإنَّه لو افتل وغُزل باسـتحكام فقد نتمكن حمل أثقل السـلع بواسـطته، بل قد يتحكمون ويسيطرون على السفن الكبيرة من خلال ربط خطاف السـفينة به. ۳- إنّ السـبب الوحيـد لاسـتحكام هـذا الصوف هو اتحاد وتلاحم فتائله. نعم؛ إنَّ اتحاد هذه الفتائل والتنسـيق والتعاضـد فيما بينها وترك الاختلاف والتشـتت هو منشأ لخيرات كثيرة. وهذا يعلّم الإنسان أن فى ذاته قابليات كثيرة تكمن وتوجد فيه بالقوة، وهى قابليات إذا فتلت واسـتحكم غزلها فسـتثمر محاصـيل جديدة اخرى مثل الارادة ووحدة الكلمة والايمان والتوكّل على الله. من هنـا خـاطب القرآن المسـلمين بـأنهم فُتلوا بالايمـان، وعلى العاقل أن لا يفتـح فتائل الايمان هـذه. لقـد ورد فى خطبـة زينب (عليها السـلام) عنـدما وصـلت بوابة الكوفة وخاطبت الناس هناك: «إنّما مثلكم كمثل الّتى نقضت غزلها من بعد قوّة ...». «۱» والواقع كذلك حيث بايعوا علياً فى عهـده وبايعوا سـفير الحسـين مسـلم بن عقيل بعـد ذلك. وهذا أمر أحكم غزلهم لكنهم نقضوا هذا الغزل إثر وعد ووعيـد وتهديدات. وبذلك يثبت أنّ دعوتهم للإمام الحسـين عليه السـلام وإعلانهم عن الوفاء له لم تكن إلّا خدعة، وهم الآن يبكون ويقيمون المآتم عليه! إنَّ الـذى له باع فى الأدب العربى وطالع خطبـة زينب (عليها السـلام) يـدرك قيمـة هذه الخطبة. ونحن نعتقد أنَّ زينب (عليها السـلام) بعملها هـذا هزت عرش حكومة الشام، وكانت المقدمة لسـقوط بنى أُمَيَّة والثورات والحركات التى حصـلت بعد ذلك الحين.

أهمية الوفاء بالعهد

هناك الكثير من الروايات أكّـدت على أهميـة الوفاء بالعهـد، نشـير إلى ثلاث منها: ۱- فى حديث قصـير للرسول صـلى الله عليه و آله يقول: «لا دين لمن لا عهـد له». «۱» هـذا الحـديث المهم يعنى أنَّ الـذى لا يلتزم بعهده يتساوى مع الذى لا دين له أبداً. والذى يعاهد اليوم وينقضه غـداً هو إنسان دون دين، فإنَّ الإنسان الـذى لا يفى بعهـده أمام خلق الله سوف لا يفى بعهـده أمام الله كذلك. ۲- يقول الإمـام على عليه السـلام فى عهـده لمالـك الاشتر: «۲» «وإن عقـدت بينك وبين عـدوّك عقـدة، أو ألبسـته منك ذمـة، فحط عهدك بالوفـاء، وارع ذمتك بالأمانـة، واجعل نفسك جُنّـة دون ما أعطيت، فإنّه ليس من فرائض الله شـىء الناس أشـدُّ عليه اجتماعاً، مع تفرّق أهوائهم، وتشـتُّت آرائهم، من تعظيم الوفـاء بالعهودِ». إنّ العالم اليوم يفى بالعهود وأكثر الـدول تلتزم بما تعهـدت به، وكـذا الناس فى عهـد الجاهلية وعهد عبادة الاصـنام، فإنّها سـنة لم تختص بالقرآن والمسـلمين فحسب بل عامة، ومما ينبغى على المسـلمين هو وفاؤهم بعهودهم مع الله ومع خلقه. ۳- يقول الإمام الباقر عليه السلام فى حديث جميل له: «ثلاث لم يجعل الله عزّوجلّ لأحد فيهنّ رخصة أداء الأمانـة إلى البرّ والفـاجر والوَفاء بالعهـد للبرّ والفاجر وبرّ الوالـدين بَرين كانا أو فاجرين». «۳» على مـا قرأنـا فى الآيات والروايات، فإنَّ الوفاء بالعهد يقع فى صدر قائمة أعمالنا. وإذا أراد عبد أن يستجيب الله لدعوته وطلباته عليه أن يفى بعهوده مع الله.

المثل الثلاثون: كفران النعمة

اشارة

يقول الله تعالى فى الآيتين ۱۱۲ و ۱۱۳ من سورة النحل: «وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأتِيْهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأنْعُمِ اللهِ فَأذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الجُوعِ وَالخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ وَلَقَدْ جَائَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأخَذَهُم العَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ».

تصوير البحث

تعرّضت الايتان إلى مصير اولئك الذين لا يشكرون نعمَ الله بل يكفرون بها، ولأجل ذلك استحقوا العذاب الشديد من الله.

الشرح والتفسير

«ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا قَرْيَةً» شبّه القرآن المجيد الكافرين بنعم الله والمنكرين لها بالقرية «۱» المعمورة التى تحضى- بسبب عمرانها المادى والمعنوى- بالمواصفات الأربع التالية: ۱- «آمنة»، إنَّ الأمان هو أوّل صفة لهذه القرية، وباعتبار أنَّ نعمة الأمان أهم النعم امثال القران، ص: ۲۸۰ الإلهية لذلك قدّمها على غيرها من النعم على ما يبدو. فى الحقيقة، الامان إذا كان مفقوداً فى مكان ما فإنَّ المكان سيفقد الإقتصاد السليم، كما أنَّه سيفقد امكانية التعليم والصناعة والتقنية الحديثة، وامكانية العبادة وأداء الشعائر الدينية، وخلاصة سوف لا يُنجز عمل بشكله الصحيح إذا لم يقترن بالأمان. إنَّ شعب ايران الأبى سوف لا ينسى أنه كان يواجه مشاكل أثناء الدفاع المقدس «۱» حتى فى مجال العبادة، فقد يكون البعض فى أثناء صلاته ويسمع صفارة الأنذار، الأمر الذى يوقع المصلى فى حرج ومازقٍ روحى يجعله يشك فى كيفية أداء عبادته. وعلى هذا، فإنَّ قضية الأمن تحضى بأهمية كبيرة تؤثر حتى على العبادة وكيفية أدائها. عندما وطأت قدما إبراهيم الخليل عليه السلام أرض مكة الجرداء، وبنى بين الجبال بيت الله الحرام، دعى لأهل تلك المدينة دعاءً ينقله الله فى الآية ۱۲۶ من سورة البقرة كما يلى: «رَبِّ اجْعَلْ هَذا بَلَداً آمِنَاً وارْزُقْ أهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخَرِ». فى هذه الآيات النورانية نقرأ أنَّ أوّل دعاء دعى به إبراهيم لأهل المدينة هو الأمن. إنَّ عقوبات اولئك الذين يخلّون بأمن البلد والمجتمع هى من أشدّ العقوبات فى دين الإسلام المقدس، ولذلك فرضت على "المحارب "عقوبات شديدة قد تصل إلى مستوى الإعدام. إنّ السّراق المسلحين- سواء بالاسلحة النارية أو غير النارية- يُعدُّون محاربين وينبغى عقابهم بأشد العقوبات، كما أنَّ الذين يخلّون بأمن منطقة واسعة يعدون (مفسدين فى الأرض) وعقابهم الإعدام. «۲» ۲- «مُطْمَئِنَّةً» قد تحضى المدينة بأمان، لكنَّ أمانها متزلزل وغير ثابت، وقد تحضى بأمان ثابت وغير متزلزل، والامان الذى أشارت إليه الآية هو الأمان المتواصل والثابت. ۳- «يَأتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدَاً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ» كما مضى فإنَّ الأمان يجلب كل شىء حتى الإقتصاد السليم والقوى. فى هذا البلد الذى أمن من السوء تأتى الناس أرزاقهم من كل مكان وصوب، امثال القران، ص: ۲۸۱ وهناك مجالات كثيرة ومتنوّعة لكسب الرزق. ۴- «وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ» أى أنَّ الله إلى جانب ما وفَّر لهم من نعمٍ مادية (الأمان والإقتصاد السليم) منحهم نعمة معنوية وهى إرسال نبىّ معصوم وبصير منهم؛ لكى يتمَّ تعاليمهم ومعارفهم. إنَّ أهل هذه المدينة يتمتعون بهذه الخصال الأربع ويعيشون فى رخاء، رغم ذلك لم يشكروا الله على نعمه. «فَكَفَرَتْ بِأنْعُمِ اللهِ فَأذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الجُوعِ والخَوفِ» إنّ أهالى هذه البلدة كفرت بدل أن تشكر نعم الله، وكانت النّعم سبباً لتكبرّهم وغرورهم وأنانيتهم، فظلموا بدل أن يفيدوا من النعم بشكل صحيح، وكان نتيجة ذلك نزول العذاب الإلهى، وأذاقهم الله، إثر ذلك، الطعم المرَّ للجوع وسلب منهم الأمان، فكانت السرقات والغارات تهددهم فى كل وقت، وتسلَّط أوباشهم عليهم، وتدمَّر اقتصادهم إثر تزلزل الأمان عندهم. سؤال: إنَّ تعبير «أذَاقَهَا» لا يتناسب مع تعبير «لِبَاسَ» بل المناسب هنا استخدام مفردة «ألْبَسَهَا»، فما سرّ هذا التعبير؟

الجواب: هناك نقطتان دقيقتان فى مجال استخدام (اذاق) مع (لباس) نشير إليهما هنا: الف- اللباس يضم الجسم كله ويحتويه، وكذا العذاب الإلهى فانه يشمل جميع القرية. باء- بالنسبة إلى عبارة «أَذَاقَهَا» ينبغى الالتفات إلى أنّ إحساس الإنسان واستيعابه ذات مراحل ومراتب: قد يدرك الإنسان شيئاً من خلال حاسة السمع، كأن يسمع بصوت النار، فيدرك وجود حريق. وقد يرى الإنسان النار فيستوعب وجودها بالباصرة، وهذا الادراك ذات مرتبة أعلى من سابقه. وقد يلمس النار فيدرك وجودها، وهذا النوع من الادراك يقع فى مرتبة أعلى من السابقتين. وقد يدرك الإنسان الشىء من خلال تذوّقه، وهذا أعلى درجات الاحساس. وسبب امثال القران، ص: ۲۸۲ استخدام الآية الشريفة لمادة الاذاقة هو أنها تريد الأشارة إلى شدّة إدراكهم وتحسسهم للعذاب الإلهى وطعمه المر. «بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ» أى أنَّ صنيعة أهل القرية هو السبب فى نزول هذا العذاب الإلهى، فانَّ الإنسان قد يقترف الذنوب التى ترجع عواقبها عليه، رغم صعوبة تحمّلها. على سبيل المثال، إذا حلَّ النظام الطبقى فى مجتمع ما، وكان الاغنياء لا يكترثون من معاناة الفقراء، فإنَّ الأمان الاقتصادى سيسلب من هذا المجتمع وتعود مردوداته جُلّها على الاغنياء أنفسهم، وسبب ذلك ليس إلّا بخل الاغنياء وامتناعهم عن الانفاق وإعانة الفقراء. لذلك جاء فى رواية: «إذا بخل الغنىّ بمعروفه باع الفقير آخرته بدنياه». «۱» أى أنّ الفقر هو السبب فى السرقات وفى النهاية السبب فى فقدان الأمن فى المجتمع. كما جاء فى رواية اخرى: «سُوسُوا أموالكم بالصّدقة». «۲» أى أنَّ طريقة حفظ الأموال ليست هى ادخارها، بل فى التصدُّق ببعضها لكى لا يؤدى نار الفقر إلى إحراق أمن المجتمع وإحراقها فى النهاية.

خطابات الآية

۱- العذاب والبؤس نتيجتان لأعمالنا

إن الذى يُستشفُّ من آيات القرآن، وبخاصة الايتين هنا، هو أنَّ مشاكلنا وما نتحمله من العذاب هو نتيجة أعمالنا وأنَّ الله لا يظلم أحداً. إذا كان معظم الشباب فى مجتمع لا يتمتعون بأبسط وسائل العيش ولا يمكنهم التقدم على الزواج، ومن جانب آخر فيه أفراد يتمتعون بأفضل وسائل العيش ويوفّرون لأولادهم مبالغ كبيرة كصداق لزواجهم ويصرفون الملايين فى هذا المجال، وشاع فى هذا المجتمع الفساد والفحشاء وعدم الأمن، فهل المقصر فى هذه الظواهر غير أفراد المجتمع ذاتهم؟! مَنْ يُلامُ غير أفراده؟ امثال القران، ص: ۲۸۳ من هنا يقول القرآن المجيد فى الآية (۴۱) من سورة الروم: «ظَهَرَ الفَسَادُ فِى البَرِّ وَالبَحْرِّ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ لِيُذِيْقَهُمْ بَعْضَ الّذِى عَمَلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ». نعم، إنَّ منشأ جميع هذه المصائب والمشاكل هو ذات الإنسان. إنَّ الأب الذى لا يفكر إلّا فى جمع المال وادخاره ولا يكترث بتربية الأولاد والعائلة، إذا واجه فى المستقبل مشاكل اخلاقية ومصائب من قبيل تعاطى أولاده للمخدرات، فلا يلوم إلّا نفسه؛ لأنّه هو السبب فى تلك المشاكل لا غيره. عندما اعتقلنا عام ۱۳۴۲ ه. ش بصحبة بعض الشخصيات السياسية والدينية، وارسلنا إلى معتقل طهران، كنا نسمع فى بعض الأيام أصواتاً مرعبة، كنت أتصور أنها نتيجة التعذيب الروحى الذى كان يلحقه أفراد الأمن بالسجناء، إلّا أنّى علمت بعد ذلك أنّ منشأها هو المتعاطون للمخدرات وقد حان الوقت لتناولهم هذه المواد، وباعتبار فقدانها فى السجن كانوا يواجهون آلاماً شديدة ... لا شك أنَّ هذه المصائب نتيجة لأعمالهم. ليت النتائج تتوقف إلى هذا الحد، بل إنَّها قد تطال العرض، فيبيع هذا الشخص عرضه مقابل مقدار بسيط من هذه المخدرات. شخص من أهل الهوى والهوس كان يحب بنتاً ولا يتوفق للقاء بها رغم أنّه جرّب جميع الطرق، إلى أن فكّر فى جرّ أخيها إلى المخدرات وتعاطيها، فتوفق فى ذلك، وبعد الاعتياد عليه قطعها عنه، وقال له: لا طريق لك إليها بعد ذلك إلّا أن تصطحب اختك معك. وبذلك توفق من النيل من هذه البنت. لقد استفاد العدو من طرق كثيرة لإيقاع شبابنا فى الفخ. والمخدرات هى أحد تلك الطرق التى استفاد منها، وهو يعلم أنَّ الشاب الذى يتعاطى هذه المادة ويبتلى بهذا المرض يفقد إرادته ويمكن جرّه إلى أى عمل شاء.

۲- هل كان وجود خارجى لهذه القرية؟

المستفاد من الآيـة هو أنَّ للقريـة ذات المواصـفات الاربع وجوداً خارجياً، لذلك كان النقاش بين المفسّـرين فى تحديد مكانها. امثال القران، ص: ۲۸۴ هناك احتمالات كثيرة نضـمّن بحثنا هـذا اثنين منها فقط: ۱- يعتقد بعض المفسّـرين أنَّ هذه القرية الآمنة هى مكة، «۱» فهى مصداق بارز للقرية الآمنة، كما أنَّها فى الحقيقة تحضى بنعمة توفّر جميع انواع الثمار فيها، ورغم أنها تفقد بذاتها بعض النعم، إلّا أن ذلك البعض يفـدها من باقى المناطق والدول، وهى بذلك تحضـى بنعم قلما نجد مكاناً يحضـى بها. عندما هجر الرسول صـلى الله عليه و آله مكـة قاصـداً المدينـة، كانت مكـة تعانى من الجفاف الـذى دام سـبع سـنوات، وكانت هـذه المحنة نتيجة كفرانهم نعمة تواجـد الرسول فيهم، وقـد بلغ بهم الجفاف أنَّ رسول الرحمـة صـلى الله عليه و آله أرسل لهم أغذية من المدينة، كما أنَّ الجفاف هذا اقترن مع فقدان الأمن فيها. نعم، إنّ كفران النعمة سيتبعه عذاباً إلهياً وهذه سنة إلهية صادقة فى كل مكان وزمان، وتكرّر فى كل مكان تتكرر فيه كفران النعمة. ۲- يعتقد بعض آخر من المفسـرين أنّ المراد من هذه القرية هو مدينة سـبأ «۲» حسب ما جاء فى سورة سـبأ، فإنَّ تلك البلـدة كانت عامرة كثيراً، وكان فيها سـدّ يُـدعى (مأرب) تبـدلت هذه البلدة بفضل هذا السدّ إلى قطعة من الخضار، وكانت النعم فيها متوفرة بشـكل لا يحتاج قاصـدها إلى أن يصـطحب معه غذاء ومتاع؛ لأنَّه يكفيه أن يضع سـلة على رأسه ويمشـى فى طرقها، فإنَّ السـلة سـتمتلئ بعد فترة وجيزة بثمار الاشجار التى فى طرفى الشارع. إنّ هذه المدينة كانت تتمتع بالأمن والاستقرار والنعم الوافرة، إلّا أن أهلها اختاروا طريق الكفر لهـذه النعم، فأوحى الله إلى فئران أن دمّرى هـذه المدينـة، فأثقبت هـذه الفئران السـد، وتوسـعت هذه الثقوب تـدريجياً إلى أن دمّرت السـد فى ليلـة، وأخـذ المـاء بسـيوله الجارفـة المدينـة بأجمعهـا ودمّر مـا فيها من قصور ومزارع وبيوت وأشـجار وبساتين. وكان التدمير إلى درجة اضطّر بعده للهجرة من سلم من أهالى المدينة، وما استطاعوا العيش فيها. امثال القران، ص: ۲۸۵ لقـد ذاق عصـرنا حالياً ثمرة كفران النعمـة، فاوربا قبل الحرب العالميـة الثانيـة كانت غارقـة فى النعم وكانت مدنها معمورة وذات حضارة متقدمة وتقنية عالية و ... فقد كانت تحضـى بكل شـىء، إلّا أنَّ كفرانهم للنعم أبلاهم بحرب شاملة كان ضـحيتها ثلاثين مليوناً من القتلى وثلاثين مليوناً آخرين بين معوّق أو مجروح، وتدمّر إثر ذلك قسم كبير من أوربا. وعلى هذا، فإنَّ الآيات هذه تحذير لنا بأن لا نكفر بنعم الله المعنوية والمادية، ما علينا هو شكرها. امثال القران، ص: ۲۸۷

المثل الحادى والثلاثون: أمثال الكفَّار

اشارة

يقول اللَّه تعالى فى الآية ۴۸ من سورة الاسراء: «انظُر كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأمثالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطيعُونَ سَبيلًا».

تصوير البحث

هـذا المثل يختلف عمَّا تقدَّم وعمَّا سـيأتى من أمثال؛ لأنَّ الأمثال التى جاءت فى القرآن أوضـحت أموراً عقلية معقَّدة وغير حسـية، أمَّا هذه الآية فحكت الأمثال التى جرت على ألسن الكفَّار فى حق الرسول صـلى الله عليه و آله، وهى أمثال استهدفوا بها الإضلال، عكس أمثال اللَّه حيث استهدفت الهداية والإرشاد.

الشرح والتفسير

لأجل معرفـة ما جاء على لسان الكفار فى حق الرسول صـلى الله عليه و آله ينبغى الرجوع إلى الآيات التى سـبقت هـذه الآية. يقول اللَّه فى الآية ۴۵ من سورة الاسراء: «وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَايُؤمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً».

ما هو الحجاب المستور؟

اختلف المفسرون فى معنى الحجاب المستور، فبعض اعتبره الستار الحقيقى الذى يمنع من امثال القران، ص: ۲۸۸ رؤية الأشياء التى خلفه. وعندما كان الرسول صلى الله عليه و آله يتلو القرآن يُجعل ستار حائل بينه وبين الكفار يمنع من رؤيتهم إيَّاه، لكنهم كانوا يسمعون صوته. والمراد من المستور هنا هو غير المرئى، أى أنَّه كان ستاراً لا ـ يُرى بالعين يُجعل بين الرسول صلى الله عليه و آله والكفار. فلسفة هذا الستار غير المرئى هى أنَّ الرسول صلى الله عليه و آله عندما كان ينشغل بتلاوة القرآن يقرأ آيات فى ذمِّ الكفّار والمشركين والأصنام وآيات عن مستقبل الاسلام وانتصاراته ممَّا قد يغيظ الكفار ويجعلهم ينفجرون غيضاً وكمداً، وهو أمر يشكِّل خطراً على حياة الرسول؛ لاحتمال هجومهم على الرسول وتعرّضه لبعض المساوئ، وقد جعل اللَّه هذا الستار لكى يحول بينه وبينهم «۱». يعتقد بعض آخر من المفسرين أنَّ عبارة «حجاباً مستوراً» كناية عن الحجاب المعنوى من اللجاجة والتعصّب والجهل والعداوة، فهذه الصفات المذمومة تبلورت على نحو حجاب للمشركين حالت دون فهمهم آيات القرآن، التى هى سبب هداية القلوب وضيائها، لكنها لا تؤثر فى هذه القلوب بسبب هذا الحجاب المضمر «۲». إذن، كلا التفسيرين فى مقام بيان مفهوم أنَّ هذا الحجاب كان مانعاً عن نفوذ الآيات فى قلوب المشركين. جاء فى الآية ۴۶ من نفس السورة: «وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِى آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً». بلغ تعصّبهم ولجالجتهم مستوى جعلهم يولّون أدبارهم عن الحق ويعرضون عنه نفرةً منه بدلًا من أن يولوا أدبارهم عن الباطل ويعرضوا عنه. ولهذا جاء التعبير العجيب واللافت التالى على لسان نوح عليه السلام فى الآية ۷ من سورة نوح: «وَإِنِّى كُلَّما دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُم جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِى آذانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَروا اسْتِكْبَاراً». الآية تحكى مستوى جهل وعناد معاصرى النبىّ نوح عليه السلام حيث ما كانوا يكتفون بوضع امثال القران، ص: ۲۸۹ أصابعهم فى آذانهم بل كانوا يستغشون ثيابهم ويضعونها على رؤوسهم لكى ينتفى بالكلية احتمال سماعهم شيئاً من كلام نوح عليه السلام الحق. نعوذ باللَّه جميعاً من بلاء التعصّب واللجاجة وحفظنا من حريق ناره. وجاء فى الآية ۴۷ من سورة الاسراء: «نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُون إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوى إذ يَقُولُ الظّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُوراً». والآية تشير إلى شيطنتهم من الاستماع ثم التسقيط والتنقيص بغية منع الناس من الإهتداء، فيناجى أحدهم الآخر ويقول: إنَّ النبى رجل مسحور. إنَّ الرجل المسحور يُعدُّ من الأمثال التى قالها المشركون فى حق الرسول.

ما تعنى المسحور؟

عرب الجاهلية كانوا يرون سبب الجنون مساس الجن أو حلوله فى الانسان «۱» ويدعون الذى حلَّ فيه الجن مجنوناً، كما يرون سبباً آخر للجنون، وهو سحر السحرة ويدعون المبتلى بهذا مسحوراً. وبناءً على هذا شبَّه المشركون الرسول صلى الله عليه و آله بالمسحور علَّهم بذلك يحولون دون ترك أثر لكلام الرسول الجذّاب فى قلوب الناس. يستفاد من آية المثل الشريفة أنَّ المشركين كانوا قد ضربوا للرسول أكثر من مثل واحدٍ عَدُّوه فيها مسحوراً أو مجنوناً أو كاهناً «۲» وساحراً وشاعراً.

أسلحة الجاحدين

على طول التاريخ كان ولا زال الرسل وأوصياؤهم والأئمة ونوّابهم الخواص والعوام امثال القران، ص: ۲۹۰ والعلماء والفقهاء وكلٌّ من خطى خُطاهم موضع إتِّهام من قبل الجاحدين ومنكرى اللَّه، ولا ـ ينفكون دائماً عن إلصاق مختلف التهم والتخرُّصات والأكاذيب بهؤلاء الثلَّة من سالكى طريق الحق والحقيقة لغرض إبعاد طلَّاب المعارف الإلهية عنهم، كما فعلوا ذلك عند الثورة الاسلامية فى إيران وقد شهدنا الأعداء دائماً يلصقون التُّهم بالثوّار وبالامام رحمه الله وبأتباعه وأنصاره الأوفياء، لكنَّا نعلم جميعاً أن حبل الكذب قصير، ولا تبقى الحقيقة خافية دائماً. من التهم التى الصقوها بالرسول صلى الله عليه و آله تهمتان رائجتان سبق وأن اتُّهم بهما باقى الأنبياء، وهما:

ساحر ومجنون، وفى ذلك يقول القرآن: «كَذَلِكَ مَا أتى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إلَّاقَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ» «۱». كما قلنا فإن هذه التهم والتخرُّصات ما كانت إلَّالإغفال الناس، لكنها لم تترك أثراً، لذلك ما انفكوا عن تبديلها وتغييرها إلى مستوى التناقض أحياناً من قبيل نسبة السحر والكهانة والجنون للرسول وهى متناقضة؛ لأن السحر والكهانة يستدعيان الذاكرة القوية والذهنية الناشطة، ولا يمكن لمجنون أن يكون ساحراً أو كاهناً.

الحقائق المستبطنة فى الاتهامات

فى هذه الاتهامات حقائق مستبطنة ينشرها الأعداء بنحوٍ لا إرادى، فهم ينسبون الجنون والسحر للرسول مثلًا، وفلسفة هذه النسبة المستقبحة أنهم جاءوا للرسول وقالوا له: ما الهدف من دعوتك للدين الجديد؟ إذا كان هدفك جمع المال فسنعطيك مالًا تصبح به اغنى رجال مكة وإن كنت ترغب الزواج فسنزوّجك أفضل نساء مكة، وإذا كنت ترغب فى الرئاسة فسنجعلك رئيساً علينا. لكن الرسول صلى الله عليه و آله أجابهم بعبارته التالية: «واللَّه لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يُظهره اللَّه أو أهلك فيه ما تركته» «۲». امثال القران، ص: ۲۹۱ ولأجل هذا الجواب الصريح كانوا ينسبون له الجنون؛ لأن شخصاً يترك أفضل النساء والجاه والمقام والثروة لغرض الدعوة للتوحيد لابدَّ وأن يكون- حسب عقليتهم- مجنوناً. نعم، إنَّ الموحِّدين مجانين من وجهة نظر عبدة الدنيا، الموحِّد عندما يجد ضالة فى الشارع أو الزقاق يسعى متواصلًا للحصول على صاحبها، وهذا العمل يُعدُّ جنوناً من وجهة نظر الدنيويين؛ لأن العقل من وجهة نظرهم هو عبادة الدنيا، أمَّا الطهارة والتقوى فجنون! من هذه التهم التى أطلقها الأعداء نفهم أن الرسول صلى الله عليه و آله كان رجلًا لا يراهن على مبادئ الاسلام ولا يستبدلها بأى شىءٍ، ولذلك دُعى مجنوناً ومسحوراً. ونستفيد من نسبة الكهانة إليه أنه كان يعلم الغيب ويخبر عنه دون أن يخطأ بحيث يصدق إخباره ويتطابق مع الواقع، ولهذا جاء ما يلى فى الآيات الاولى من سورة الروم: «غُلِبَتِ الرُّومُ فِى أَدْنَى الأرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِى بِضْعِ سِنِينَ للَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ ومِنْ بَعْدُ ويَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ المُؤمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشاءُ وَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ». وفقاً للآية غُلبت الروم بواسطة الفرس، وبعد فترة غير طويلة غلبت الروم الفرس، وتزامن مع ذلك انتصار المسلمين، وعندما شاهد الكفار تحقُّق هذا الأمر وصدق إخبار الرسول بالغيب نسبوا إليه الكهانة، واين هو من الكهانة مع أن إخباره عن الغيب يكشف عن واقع وحقيقة مستقبلية لا كذباً ولا وهماً.

لماذا نسبوا إليه الشعر؟

سبب نسبة الشعر إلى الرسول صلى الله عليه و آله هو أنَّ آيات القرآن كانت فصيحة وبليغة وموزونة بدرجة استقطبت قلوب الناس، فما كان مفرٌّ للكفار إلَّاأن يقولوا: إنَّه شاعر، وقد أجابهم القرآن الكريم من الآية ۶۹ من سورة ياسين بما يلى: «وَمَا عَلَّمنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِى لَهُ إنْ هُوَ إلَّاذِكْرٌ وقُرآنٌ مُبِينٌ». نسبة الشعر للرسول صلى الله عليه و آله تكشف عن جاذبية ولطافة وظرافة فى القرآن. ونسبة السحر للرسول صلى الله عليه و آله تحكى عن آثار مهمة ومعجزة ترشَّحت عن الرسول صلى الله عليه و آله، الأمر الذى أعجزهم عن مواجهته بالحق والحقيقة والواقعية فاضطرَّهم ذلك لإلصاق هذه امثال القران، ص: ۲۹۲ التهمة، وقصة أسعد بن زرارة التى مضى ذكرها فى الجزء الاول شاهد حسن على ما نقول.

خطاب الآيات التربوى

الآيات المزبورة تعلِّمنا أنَّا إذا أردنا إدراك الحقيقة فعلينا إزالة الحُجُب التى تمنع من الإدراك وبخاصة حجاب التكبّر والتعصُّب والأنانية واللجاجة، وإذا لم تزل هذه الحجب فسيبدو الباطل حقاً، وعندها ينحرف الانسان عن طريق الحق. يقول الرسول صلى الله عليه و آله: «مَن كانَ فِى قَلْبِه مِثْقالُ حبَّة مِن خَرْدَلٍ من عصبيّة بعثه اللَّه يوم القيامة مع أعراب الجاهلية» «۱». إذن، ينبغى إزالة حجاب

التعصُّب لرؤية الحق.

المثل الثانى والثلاثون: المستكبرون والمستضعفون

اشارة

إثنى عشر آية من سورة الكهف (وهى الآية ۳۲ إلى ۴۴) تشكِّل المثل الثانى والثلاثين من بحثنا، يقول اللَّه فى هذه الآيات: «وَاضرِب لَهُم مَثَلًا رَجُلَينِ جَعَلْنا لأحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أعْنَابٍ وحَفَفْناهُما بِنَخلٍ وجَعلنا بَيْنَهُما زَرْعاً* كلتا الجَنَّتَينِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظلِم مِنْهُ شَيئاً وفجَّرنَا خِلالهُمَا نَهَراً* وكَانَ لَهُ ثَمرٌ فَقالَ لِصَاحِبِه وهَوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أكْثَرُ مِنكَ مَالًا وأَعَزُّ نَفَراً* وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفسِه قَالَ مَا أُظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هذِهِ أبَداً* وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُددْتُ إلى رَبّى لأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنقَلَباً* قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحاورُهُ أكفَرْتَ بالَّذِى خَلَقَكَ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِن نُطفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا* لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّى وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّى أحَداً* وَلَولَا إذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إلَّا بِاللَّهِ إنْ تَرَنِ أَنَا أقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَداً* فَعَسى رَبِّى أن يُؤتِيَنِ خَيْراً مِن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسَباناً مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً* أوْ يُصبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً فَلَن تَستَطِيعَ لَهُ طَلَباً* وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأصْبَحَ يُقلِّبُ كَفَّيهِ عَلَى مَا أنفَقَ فِيهَا وهى خَاويةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّى أحَداً* وَلَمْ تَكُن لَهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ ومَا كَانَ مُنتَصِراً* هُنَالِكَ الوَلايةُ للَّهالحَقِّ هُوَ خيرٌ ثَوَاباً وَخيرٌ عُقْباً»

تصوير البحث

تضمَّنت الآيات الإثنى عشر مثلًا هو من أكبر أمثال القرآن، وهو مثل المؤمنين والكافرين امثال القران، ص: ۲۹۴ أو المستكبرين والمستضعفين، فشبَّه اللَّه الطائفتين بشخصين، أحدهما: ثرى ومغرور بماله وثروته، والآخر: مستضعف لكنه موحِّد. ونهاية هذين الشخصين زوال ثروة الثرى وفناءها، ممَّا أدى إلى استيقاظه من نوم الغفلة. والمثل يستبطن نكات ظريفة ولطيفة نعرض لها تدريجياً.

علاقة آيات المثل بسابقاتها

لماذا طرح اللَّه هذا المثل ضمن هذه السورة؟ وهل هناك علاقة بين آيات المثل والآيات التى سبقتها؟ الجواب: إذا راجعنا الآيات السابقة للمثل وجدنا علاقة بينها وبين آيات المثل، وبذلك تبدو ضرورة بيان هذا المثل فى هذه السورة. ولأجل ذلك يقول اللَّه فى الآية ۲۸ من نفس السورة: «وَاصْبِر نَفْسَك مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بالغَدوة والعَشِيِّ يُريدُونَ وَجهَهُ وَلَا تعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الحَيَاةِ الدُّنْيا وَلا تُطِعْ مَنْ أغْفَلنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا واتَّبَعَ هَواهُ وَكَانَ أمْرُهُ فُرُطاً». قيل فى شأن نزول الآية: إنَّ مجموعة من أثرياء العرب المشركين جاءوا للرسول صلى الله عليه و آله وأعربوا عن رغبتهم للإلتحاق بدين الرسول ولكنهم قالوا: ما يمنعنا من الالتحاق بركبك وجود فقراء حواليك من أمثال سلمان وأبى ذر وصهيب وخبَّاب، فلا تناسب بيننا وبينهم فأبعدهم عنك لكى نلتفَّ حولك «۱». ولهذا الشأن نزلت الآية وأوضحت معيار الاسلام الأصيل ومنهجه فى هذا المجال، وأوضحت وظيفة الرسول صلى الله عليه و آله تجاه القضية.

تحطيم القيم الكاذبة من أهداف الأنبياء

من الأهداف المهمة للأنبياء والأولياء وبخاصة الرسول الكريم صلى الله عليه و آله هو تحطيم القيم الكاذبة؛ لأنه كان للمال والثروة أرفع قيمة من وجهة نظر عَبَدَة الأصنام عهد الجاهلية، ولا امثال القران، ص: ۲۹۵ زالت هذه النظرة تحكم عالمنا اليوم، ولا تنتظم الحياة الدنيا ما دامت هذه القيم الكاذبة تحكم مجتمعاتنا. عندما بُعث الرسول صلى الله عليه و آله وأنبأ عن دينه الجديد قال بعض مشركى مكة: تعالوا اسمعوا خبراً جديداً، إنَّ يتيماً فقيراً لا يملك مالًا يدَّعى النبوّة ويبلّغ لرسالة جديدة من اللَّه، وهل هذا ممكن؟ ولو أراد اللَّه

أن يبعث لنا رسولًا فلماذا لم يبعث واحداً من أثرياء مكة أو الطائف؟ «وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ» «۱». سبب تفوّه المشركين بهذا الكلام هو أنهم كانوا يصنّفون المال والثروة فى أعلى مرتبة للقيم، وقد سبقهم فى ذلك فرعون، فعندما دعاه موسى عليه السلام إلى الدين الالهى نظر إلى ظاهره وقال ضاحكاً: وهل يمكن لراعٍ أن يكون نبياً؟ أنا لا أستسلم لراعٍ مع ما أملك من ثروة وسلطة. نعم، كانت السلطة والثروة تشكّل أعلى مراتب القيم عند هؤلاء الناس، وكانت بعثة الرُسُل لغرض تحطيم هكذا قيم سقيمة. فى آيات كثيرة من القرآن المجيد عدَّ اللَّه القيم الدنيوية كالمال والبنون لعباً ولهواً «۲»، كما اعتبر القيمة الحقيقية تتمثّل فى التقوى «۳». من هنا قال اللَّه فى الآية ۳۳ من سورة الزخرف: «وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ امَّةً وَاحِدَةً لجَعَلْنا لِمَنْ يَكْفُرُ بالرَّحْمنِ لِبُيُوتِهِم سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرونَ». وفى الآية ۵۳ من نفس السورة يتحدَّث فرعون عن نبوّة موسى عليه السلام ويقول لمن حواليه وللمصريين: «فَلَوْلَا القِيَ عَلَيْهِ أسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ المَلائِكَة مُقْتَرِنِينَ» ويريد بذلك أنَّ على الرسول أن يكون ثرياً. بُعث الأنبياء لإبطال هذه التوهّمات وتحطيم هذه القيم الكاذبة، وآية المثل الكريمة تدخل امثال القران، ص: ۲۹۶ فى هذا الاطار، أى أنَّها تريد تحطيم هذه القيم الكاذبة، حيث قالت: «واصْبِر نَفْسَكَ مَعَ الَّذِين يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالغَدوة والعَشِيّ يُريدَون وَجْهَهُ» أى عليك يا أيها الرسول أن تكيّف نفسك مع أمثال سلمان وأبى ذر وبلال وصهيب الذين يدعون ربَّهم دائماً ويتوجّهون إليه رغبة فى وجهه الكريم رغم فقرهم وفقدهم للمال والثروة وغيرها من القيم الدنيوية الكاذبة. «وَلا تَعْدُ عَيْناكَ عَنْهُم تُرِيدُ زِينَةَ الحياة الدُّنْيا وَلَا تُطِعْ مَنْ أغْفَلنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنا» أى لا تتناسهم رغبة فى زينة الحياة الدنيا وطاعة لمن غفل قلبه عن ذكرنا، أى ذكر اللَّه. «واتَّبَعَ هَواهُ وَكَانَ أَمرُهُ فُرُطاً» «۱» فإن هؤلاء الأثرياء تابعون لأهوائهم، وأعمالهم لا تخلو عن الإفراط والتفريط. المستفاد من هذه الآية أن الاسلام للمستضعفين والفقراء لا ـ الأثرياء المغرورين. كان هذا المنطق والنهج عجيباً للبعض لذلك ضرب لهؤلاء مثلًا أوضح فيه شأن المستضعفين والمستكبرين لكى تتضح من خلال ذلك القضية للجميع.

الشرح والتفسير

«وَاضْرِب لَهُم مَثَلًا رَجُلَيْن» يطلب اللَّه من الرسول أن يضرب لهم مثل رجلين أخوين أو صديقين. اختلف المفسرون فى أنهما كانا صديقين أو أخوين، فبعض قال بأنهما كانا أخوين بلغهما ثمانية آلاف درهم كإرث من أبيهما، أحدهما اشترى بمقدار قليل من الأربعة آلآف درهم وسائل بسيطة يعيش بها وانفق ما تبقى أمَّا الآخر فاستهلك سهمه من الإرث كله لأغراضه الشخصية ولم ينفق منه فى سبيل اللَّه ولا درهماً، فأصبح صاحب رأس مال وبستان وحياة مرفّهة، والآية تشير إلى قصة هذين الأخوين. امثال القران، ص: ۲۹۷ يرى بعض آخر من المفسرين أنَّ الرجلين كانا صديقين ولا نسبة بينهما «۱». مضمون الآيات يفيد أنَّ النظرية الثانية هى الصحيحة، أى أن المراد من رجلين هو صديقان لا أخوان. المطلب الآخر الذى يمكن استفادته من الآيات هو أن الآيات ليس بياناً محضاً لمثلٍ كما ظن البعض ذلك، بل هى بيان لقصة حقيقية حصلت فى الأزمان الماضية بيَّنها اللَّه فى صيغة مثل. «جَعَلْنا لأحَدِهمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُما بِنَخْلٍ وَجَعَلْنا بَيْنهُما زَرْعَاً كِلْتا الجَنَّتَيْنِ آتَتْ اكُلَهَا وَلَمْ تَظلِمْ مِنْهُ شَيئاً وَفجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَراً وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ». المستفاد من عبارة «وَفَجَّرْنَا خِلالَهُما نَهَراً» أن البُستان كان يُسقى من الخارج، ثم اكتفى ذاتياً من حيث السقى بعد ما فُجرِّ النهر فى داخل آرضه. «فَقَالَ لِصَاحِبِه وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَراً». عندما ينال ضيّقو الصدر والمغرورون شيئاً من مال الدنيا ويبلغون مستوى فيها يبدون وكأنَّ الزمان والمكان يدين لهم، فبعضهم عندما يبلغ شأناً فى المجتمع ينسى صديقه الذى كان إلى جنبه مدَّة سنوات، وعندما يلتقيه يتصرَّف وكأنَّه لم يلتقِ به من قبل. إن صاحب البستان الثرى الذى تحدَّثت عنه الآية كان من هذا القبيل، فقد اغترَّ بنفسه عندما شاهد بستانه والنهر الذى يجرى فيه وما انتج من ثمار، فكان يتفاخر بما حصل وينظر إلى صديقه القديم والفقير نظرة تحقير ويقول: أنا أكثر منك مالًا وأعزُّ نفراً من العمال والمزارعين والحشم والخدم. «وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لَنَفسِهِ قَالَ مَا أظُنُّ أنْ تَبِيدَ هَذِهِ أبَداً» أى أنه ما كان يظن أن بستانه سيفنى يوماً ما بل سيبقى دون أن يزول بآفة أو ما شابه. عبارة «وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ» تشير إلى أن كل ظالم يبدأ

بظلم نفسه فى البداية ثم ظلم الآخرين، كما هو حال المحسنين حيث يفيدون أنفسهم بأعمالهم الصالحة ثمّ يفيد الآخرون بها. على أى حال، نسى هذا المغرور ذكر اللَّه الذى خلق له هذه الجنَّة والذى يمكنه أن يفنيها فى كل لحظة بحيث لا يبقى لها أثر مذكور. امثال القران، ص: ۲۹۸ «وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمةً وَلئِنْ رُدِدْتُ إلى رَبِّى لأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنْقَلَباً». لقد أنكر هذا الرجل يوم القيامة بسبب تفاخره وغروره ونسيانه ربّ العالمين، وبلغ جحوده مستوى أن قال لصديقه: لا أظن أنَّ هناك قيامة، ولو كانت هناك قيامة كان ذلك يعنى موتى وانفصالى عن أموالى وجنتى وزراعتى، وأنا لا اريد الانفصال عن الدنيا لذلك أنكر يوم القيامة. ثمّ قال: على فرض وجود قيامة فإنِّى سأكون من المقرّبين كذلك، ولو لم أكن من المقرّبين لما أعطانى اللَّه هذا المقدار من المال والثروة، فكثرة الثروة دليل على قربى إلى اللَّه فى عالم الآخرة- على فرض وجوده- وسأكون هناك أقرب منك إلى ربِّ العالمين. هذا هو ظن كثير من الأثرياء، جهلًا منهم بأنَّ ذلك اختبار إلهى وقد يكون بلاءً. «قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بالَّذِى خَلَقَكَ مِنْ تُرابٍ ثُمّ مِن نُطْفَةٍ». صديقة الفقير صاحب الصدر المشروح يرى رفيقه مريضاً فيهمُّ فى علاجه بأساليب نفسانية جميلة لعلاج مرض الغرور فيه، أى مرضه الأساس الذى سببته كثرة النعم، ولو عالج مرضه هذا تعالجت باقى أمراضه.

طريقان لمعالجة الغرور

يمكن معالجة الغرور عن طريقين: الاول: أن نرجع المغرور إلى ماضيه، إلى طفولته، حيث كان عاجزاً عن الاحتفاظ بلعاب فمه، إلى الزمن الذى كان فى رحم امّه، حيث كان جنيناً يتغذّى من الدم، وما كان أحد غير اللَّه قادراً على مساعدته، نرجعه إلى حيث كان نطفة قذرة ينفر الانسان من النظر إليها، ونرجعه إلى حيث كان تراباً فاقداً للقيمة. الثانى: أن نذكِّره بالمستقبل ونرسمه له، فنأخذ بيده إلى المقبرة ونقول له: يرقد فى هذه المقبرة اناس كانوا مثلنا أقوياء ومتموّلين لكنهم ماتوا فى النهاية، فتلاشت أجسامهم ولم يبق منها إلَّاالعظام، والعظام ستتآكل كذلك بمرور الزمان ولم يبق من الإنسان إلَّاالصخرة التى توضع على قبره، والصخرة ستزول كذلك ولم يبق من الانسان إلَّااسماً فى التاريخ، والتاريخ امثال القران، ص: ۲۹۹ سينسى بعد مدَّة من الزمان، بحيث لم يبق من الانسان شىء يُذكر وكأنَّه لم يلد أبداً.

عاقبة الانسان المغرور

لم يكن ولن يكون عاقبة حسنة للمغرور أبداً. كان وزير عهد حكومة رضا خان الظالم يُدعى تيمور تاش وكان مغروراً وجباراً وخطراً وصاحب صلاحيات وسلطة واسعة بحيث يُعدُّ المحور الأساس للسلطة. فى يوم كان علماء طهران قد اجتمعوا فى مجلس فبلغهم أن تيمور تاش وزير البلاط يقصد المجىء إليهم، فدخل هذا الرجل الذى يعيش سكرة الغرور وقال: «أنتم تقولون: للكون ربٌّ؟! يمكننى أن أبرهن على عدم وجود الربّ بألف دليل». نظر العلماء إليه وما كان أحدهم يتجرّأ بالتفوّه بشىء، كما أنَّهم يعلمون ما من شىء يؤثِّر فيه ولا يرونه أهلًا للإجابة. وعلى كل حال ختم المجلس وذهب تيمور تاش. لكن رياح الزمان لا تجرى دائماً بما تشتهيه السفن، فلم يمضِ زمن طويل حتى أصبح تيمور تاش موضع غضب الشاه فادع السجن الانفرادى ثم حكم عليه بالإعدام. عندما كان فى السجن ذهب أحد العلماء لزيارته فوجده يدور فى زنزانته مردداً أبيات عرفانية للشاعر مولوى «۱» تقرُّ باللَّه. يقول هذا العالم: تعجبّت من ذلك واقتربت منه وقلت له: هل تعرفنى؟ قال: نعم، قلت: جئتُ لُابطل ألف دليل ادعيت وجودها بدليل واحد، وهو: إن اللَّه هو الذى أسقط تيمور تاش المغرور من قمة السلطة ليضعه فى سجن. فهزَّ رأسه معرباً عن أسفه. نعم، هذا هو شأن ضيقى الصدر والمغرورين، أما واسعو الصدر فيكونون متواضعين، كالامام على عليه السلام، حيث لم يختلف شأنه أثناء ۲۵ سنة من سكوته مع شأنه أثناء ۵ سنوات من حكومته. امثال القران، ص: ۳۰۰ يقول الامام على عليه السلام: «سُكْر الغفلة والغرور أبعد إفاقة من سُكر الخمور» «۱»؛ وذلك لأنَّ الانسان يفيق من سكرة الخمر بعد لحظات أمَّا سكرة الغرور فلا يفيق منها الانسان حتى الموت أحياناً ولا يوقظه منها إلَّاصفعة الموت

والأجل، حيث لا وقت للتدارك والجبران. وفى رواية اخرى يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «بينكم وبين الموعظة حجاب من الغِرَّة» «۲». إذن، علينا التوقّى من الابتلاء بالغرور من خلال استذكار الماضى والتفكّر فى المستقبل، وخاصة بما بعد الموت. «ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا». أى صَنَع منك رجلًا بعد اجتياز مراحل الجنين المختلفة، والتى تشكّل كلٌّ منها اعجوبة فريدة من نوعها، ومن خلال برنامج منتظم ومتكامل يخلق إنسان كامل لا ينقصه شىء، ولو طرأ أقل تغيير فى هذا البرنامج لولد الطفل أعمى أو أصم أو معتوه أو توأم متلاصق وما شابه. من فلسفة وجود ولادة الأطفال المشوهين وناقصى الخلقة هو الاطلاع على هذه المرحلة المهمَّة من الخلقة، ولكى يتذكّر الانسان بعدما يصبح متموِّلًا وصاحب سلطة، ولكى لا يغتر، ولكى يكون شاكراً لنعم اللَّه ولولى نعمته دائماً. ولأجل ذلك لا يسأل النزيهون عن جنس الطفل عند ولادته بل عن سلامته؛ لأن الذكورة والانوثة كلاهما من نعم اللَّه تعالى والمهم هو سلامة الطفل. «لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّى وَلَا اشْرِكُ بِرَبِّى أَحَدًا». بعد ما بيَّن القرآن منطق ذلك الصديق الثرى الغافل عن اللَّه بدأ ببيان منطق الصديق الفقير المؤمن الذى نصح الثرى ولم تؤثر نصيحته فى صديقه. استخدام الآية لمفردة الربّ دون باقى أسماء اللَّه يحضى بأهمية قصوى، فهو استخدام دقيق ويعنى أنَّ اللَّه ربّانى منذ أن كنت نطفة إلى آخر عمرى، ولو لم تكن تربية الربّ القادر لم أكن شيئاً يُذكر، فهو ولى نعمتى وصاحبى ومالكى، وهل يمكن جعل شريك لربٍّ يملك كل ما لدى؟! امثال القران، ص: ۳۰۱ «وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلَّابِاللَّه». بعدما بيَّن الصديق المؤمن منطقه ومنهجه اتَّجه إلى صديقه قائلًا: عند دخولك جنَّتك الواسعة ذات الثمار الكثيرة والمعطَّرة بعطور الفواكه والمضلَّلة بالاشجار والباردة والمنشطة لماذا لا تقول: هذه ممَّا أنْعَمَ اللَّه علىَّ من نعم فلا قوة لأحدٍ غيره، وكل قوّة تنشأ منه. يا صديقى! عليك عدّ هذه النعم من اللَّه، وعليك شكره على هذه النعم والألطاف والرحمات، ولا تغتر بل استفد منها بأفضل ما يمكن، كما عليك أداء حق الأيتام والفقراء والمحتاجين منها. «إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَداً فَعَسى رَبِّى أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ». يذكّر المؤمن صديقه هنا قائلًا له: إنَّك تفكّر بوضعك الراهن حيث إنك متموّل وصاحب سلطة، وأنا فقير ولا أملك سلطة ولا أفراداً، لكنَّك لا تفكّر فى المستقبل الزمن الذى قد يدمّر فيه اللَّه جنتك فى لحظة واحدة ويعطينى جنَّة أفضل من جنتك. الروايات التى وردت فى ذيل هذه الآية حكت عن أن الوضع المالى لذلك الفقير كان جيداً «۱». «ويُرسِلَ عَلَيْهَا حُسْباناً مِنَ السَّماءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً». الحسبان يعنى إصابة السهم للهدف، والتسمية باعتبار أن الإصابة كانت عن حساب، كما يُطلق الحسبان على الصاعقة التى تصيب الهدف، وكذلك الزلزال التى تصيب الهدف وتدمّره، والخلاصة أن الحسبان يُطلق على كلِّ بلاء مؤثر ومحسوب. الآية تتمة خطاب المؤمن الفقير لصديقه، فيقول له: قد يغيّر اللَّه كلّ شىء فى لحظة واحدة ويرسل على جنتك بلاء سماوياً أو حسباناً يبدّل به جنتك المثمرة إلى صحراء. «أَوْ يُصْبِحَ ماؤها غَوْراً فَلَنْ تَستَطِيعَ لَهُ طَلَباً». أو تبتلع الأرض كل ما احتوته جنتك فلا يبقى منها أثر، ولا قدرة لك عندئذٍ لعمل شىء، كما يحصل ذلك عند حصول الزلزال وماشابهها من الكوارث الطبيعية بحيث تُدمَّر قرية كاملة أو تغطَّى بالوحل فى لحظة واحدة. امثال القران، ص: ۳۰۲ إذن، على الانسان أن لا يغتر بما لديه، بل المفروض به التفكير فى تحولات قد تطرأ فى المستقبل. «وَاحِيطَ بِثَمَرِه فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلى ما أَنْفَقَ فِيها». وكما قال له صديقه المؤمن فإنَّ بلاءً سماوياً وصاعقة نزلت ودمَّرت أشجار جنَّته وزراعته، فبهت المغرور عندما دخل جنَّته ورأى الثمار مدمَّرة والأشجار قد احترقت، وقد ذهبت كل أمواله وآماله سُدى فأصبح يُقلّب كفّيه تحسراً على ما كان قد أنفق على زراعته وما استثمره من الأموال فيها. «وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِها». الآية تصف كيفية خراب الأبنية والعمارات، وهى عجيبة من حيث إنها تصف الانهدام بأن الجدران والأعمدة سقطت على السقوف، بينما المألوف هو سقوط الجدران والأعمدة ثم سقوط السقوف عليها. قد يكون سبب ذلك هو أنَّ الصاعقة هدَّمت السقوف فى البداية ثم هدمت الأعمدة والجدران فسقطت على السقوف «۱». «وَيَقُولُ يا لَيْتَنى لَمْ اشْرِك بِربّى أَحَداً». استيقظ الصديق المغرور من سكرة الغرور بعد ما نزل العذاب الإلهى ودمَّر جنّته وزراعته وأفقده كل ما يملك من رأس مال، وقال: ليتنى لم اشرك باللَّه ولم أنكر يوم القيامة والمعاد ولم ابتلِ بسبب الشرك والجحود بالعقاب الإلهى. «وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّه وَمَا كَانَ مُنْتَصِراً». لم ينصره أحد ممَّن كان يحوم حوله عندما كان صاحب مال وثروة من الأصدقاء والمعارف، ولم يحمه أحد من عذاب اللَّه،

وما كان لهم القدرة لنصرته.

اعتبروا

كان شخص فى قم يُدعى السيد صادق، كان قد فقد إحدى عينيه، وكان له بستان عنب، امثال القران، ص: ۳۰۳ عندما كان يحلُّ فصل جنى العنب يجتمع حوله أصدقاؤه ويهمّون بتمجيده واحترامه ويدعونه فى هذه الأيام (الحاج السيد صادق)، وعند انتهاء فصل جنى العنب يتباعدون عنه وإذا أرادوا ذكره دعوه بصادق الأعمى كان السيد صادق ملتفتاً إلى اتصاف أصدقائه بأحد صفات الذباب وقد أنشد فى المجال أبياتاً وصف فيها أصدقاءه وأحوالهم السقيمة. «هُنالِكَ الوَلايَةُ للَّهِ الحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَواباً وخَيْرٌ عُقْباً». أى أنَّ الولاية الحقيقية للَّهوحده فقط، ولا يمكن الوثوق بولاية وصداقة أحدٍ غيره. اختلف المفسرون فى أن «هُنالِك» إشارة لعالم الدنيا أم الآخرة. لكن يبدو أنها إشارة إلى العالمين، والآية تعرّضت لولاية اللَّه فى كلا العالمين. الولاية شأن مهم جداً، وتأتى من مادة التوالى، أى مجىء شيئين أحدهما بعد الآخر، فيقال لشعبان ورمضان اللذين يأتى أحدهما بعد الآخر شهران متواليان. وإذا جاء طبيبان إلى العيادة أحدهما تبع الآخر قيل: توالى الطبيبان على المجىء إلى العيادة. بما أن الصديق يصاحب صديقه الآخر دائماً قيل له: ولى، أى كلٌّ منهما وليّ الآخر، وبما أن اللَّه صديق المؤمن ومصاحبه وناصره قيل له: ولى. إذن، الولى يعنى الصديق والناصر والمعين والرئيس. فرَّق البعض بين الوِلاء (بالكسر) مع الوَلاء (بالفتح)، فبالكسر تعنى النصرة وبالفتح تعنى السيادة والرئاسة. وهناك بعض آخر اعتبر الكلمة بمعنى واحد سواء كانت بالكسر أو بالفتح.

خطابات الآية

۱- زمن تأثير التوبة

ممَّا يستفاد من آيات المثل الاثنى عشر هو: أنَّ للتوبة زمناً خاصاً فاذا مضى ذلك الزمن ترفض التوبة. امثال القران، ص: ۳۰۴ رغم أن الروايات حكت سعة باب التوبة وأنه باب يدخله المذنبون والعاصون والمجرمون إلَّا أن هذا الباب يُغلق فى ثلاثة أزمنة: الف: التوبة عند نزول البلاء إذا تاب الانسان عند تورطه بشوكة البلاء فلا تُقبل توبته. ولهذا يقول اللَّه فى الآية ۶۵ من سورة العنكبوت: «فَإِذا رَكِبُوا فى الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخلِصِينَ لَهُ الدِّين فَلَمَّا نَّجاهُمْ إلى البَرِّ إِذَا هُمْ يُشرِكُونَ». أى أنهم يتوبون ويدعون اللَّه عندما يبتلون بأمواج البحر وعندما يشعرون بتهديد وتحدّى الموت، وتوبتهم هنا مرفوضة؛ لأنها نشأت عن اضطرار، وهى من قبيل إعلان شخص عن توبته واستغفاره تحت ضربات السوط، فإن توبةً من هذا القبيل غير مقبولة. هؤلاء المشركون الذين أعلنوا عن توبتهم واستغفارهم ودعوا اللَّه فى ظرف الخوف الذى عاشوه فى السفينة، وعندما يهدأ البحر أو ترسو السفينة قرب اليابسة ينسون اللَّه تارة اخرى ويعودون إلى شركهم. إذن، لا تُقبل توبة كهذه؛ لأن التوبة هى التى يتغيّر معها منهج حياة الانسان، وهذه التوبة لم تغيِّر من منهج المشركين ولا سلوكهم شيئاً. التوبة التى تحصل فى الزنزانة وتُنسى بعد الخروج منها، أو التى تحصل عند المرض وتُنسى بعد الشفاء، أو التى تحصل فى خضم الحوادث وتُنسى بعدها، هذه كلها توبات غير مقبولة؛ لأنها ردود فعل مؤقتة تحصل إثر جلد الحوادث الإلهية وصفعاتها. باء: توبة المذنبين عند الموت عندما يسمع الانسان صفعة الأجل وتفتح عينيه نحو البرزخ ويتبلور عنده اليقين بالموت والوداع مع الدنيا فلا تقبل منه توبة، وقد قال اللَّه تعالى فى الآية ۱۸ من سورة النساء: «وَلَيْسَت التَّوبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُون السَّيِّئاتِ حَتَّى إذا حَضَرَ أحَدَهُمُ المَوْتُ قَالَ إنِّى تُبْتُ الآنَ وَلَا الذِينَ يَمُوتُونَ وهُمْ كُفَّارٌ اولئكَ أعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أليماً». وفرعون من زمرة هؤلاء، فانَّه عندما شاهد شوكة الموت ووجد نفسه على عتبة الغرق امثال القران، ص: ۳۰۵ قال: «آمَنْتُ أنَّهُ لَاإلَهَ إلَّاالَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُو إسْرائِيلَ وَأنَا مِنَ المُسْلمين» «۱» ، لكن توبته هذه لم تُقبل، وقد ورد فى بعض الروايات أن جبرئيل أخذ حمأة (أى طيناً أسود منتناً) فوضعه فى فم فرعون وقال له: «أَلآن

وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ» «۲». وهل من المناسب قبول توبة فرعون بعد كل هذه الجرائم التى ارتكبها من شق بطون الحوامل وقتل أولادهنّ الذكور، والاجراءات الظالمة بحق الناس ومطاردة بنى اسرائيل وتعذيب مؤمنيهم؟ إذن، لا تُقبل التوبة على عتبة الموت وعندما تفتح عينا الانسان نحو البرزخ. جيم: التوبة عند مشاهدة العذاب الإلهى كثير من الناس يتوب عند مشاهدة العذاب الإلهى، وتوبة من هذا القبيل غير مقبولة. يقول اللَّه فى هذا المجال فى الآيات ۸۴ و ۸۵ من سورة المؤمن (غافر): «فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنا بِما كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِى قَدْ خَلَت فِى عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ». لا تأثير للتوبة عند رؤية العذاب، ولذلك لم تُقبل توبة قوم نوح عليه السلام عند الطوفان ولا توبة قوم لوط عند نزول عذاب الأحجار التى تساقطت من السماء وكذا غيره من العذاب. أعزّتى، الموت لا يخبر عن وقت مجيئه، بل هو يكمن فى كلِّ لحظة من لحظات العمر، وعوامله وأسبابه بسيطة جداً تتحقق لأىإنسان. ولذلك على الانسان أن ينوب إلى اللَّه ويتوب توبة حقيقية فى كل لحظة، ولا يترك التوبة إلى زمن قد اغلقت فيه جميع أبوابها. المستفاد من الآيات المتقدِّمة أنَّ رفض التوبة فى ظل الظروف المزبورة لا يختص بقوم أو شعب أو نحلة ما، بل هو سنة إلهية تجرى فى حق جميع الأقوام والشعوب والنحل.

۲- لا قيمة للدنيا

اشارة

يستفاد من آيات المثل أن لا ـ قيمة ولا ـ اعتداد بالأموال والمقام والثروات والقوى الجسمانية، والاعتماد على الامور الدنيوية بمثابة الاعتماد على بيت العنكبوت بل على ما هو أضعف وأوهن «۱». قوة الشباب والنشاط والقوى العضلية ليست دائمة، لا ينبغى الاغترار بها. قد يصبح بطل من الأبطال أضعف انسان بسبب المرض، كما حصل ذلك فى الواقع، وهناك بعض من الأبطال عجزوا فى آخر عمرهم عن المشى والحركة دون الاستعانة بالآخرين.

قصة بطل

كان بطل قمى معروف بالقدرة البدنية وطول القامة وكان يخدم فى حرم فاطمة المعصومة سلام اللَّه عليها فى قم «۲»، وعند إرتدائه ملابس الخدمة يكتسب ابّهة أكثر، وكان يهابه الشرورون فى المدينة بحيث يبتعدون عنه عندما يرونه، وفى يوم من الأيام وجدته على كرسىالمقعدين يدفعه طفل لإيصاله للحرم لغرض الزيارة. تذكرت عندها أيام بطولته وقدرته البدنية العالية وقلت: أين هذا وأين ذاك؟! يا لها من دنيا غادرة، لم تكن جنَّة ذلك المغرور الأمر الوحيد الذى هو عرضة للزوال والدمار بل انَّه لا يمكن الوثوق بجميع امور الدنيا.

المطبخ السلطانى

تشاجر اثنان من امراء خراسان إثر اختلاف بينهما، وقد انتهى الشجار إلى حرب وهزيمة وأسر أحدهما بيد الآخر. وفى يوم من الأيام جىء للأسير بالغذاء وكانت آنية ذلك الزمان تشبه السطل ذات المقبضين، وقد تركه إلى جانب ليبرد فجاء كلب وأراد الأكل منه، فلعق منه وبسبب حرارته صدر منه رد فعل سريع أدَّى إلى دخول رأسه فى مقبض الآنية ففرَّ والآنية معلّقة برقبته، فضحك الأمير الأسير بصوت عالٍ وقال: كان مطبخ السلطان تحمله أربعمائة امثال القران، ص: ۳۰۷ عربة واليوم يسرق كلب حساء ومطبخ الأمير «۱».

۳- التدقيق فى اختيار الصديق

كما تقـدَّم أنَّه كان لهـذا الثرى صاحب البسـتان والثروة والسـلطة أصدقاء كثيرون، وكان يتفاخر بهم، لكنهم تفرّقوا وابتعدوا عنه عندما فقر وواجه الخسارة وأصبح مُداناً، فما أعانوه على مشـكلته، كما أنَّه بنفسه ما اسـتطاع جبران ما تحملّه من خسائر. يا ترى ما سبب عدم إعانـة إصـدقائه له؟ سـبب ذلـك واضـح، فـإنهم لم يكونـوا أصـدقاءً له بـل لـثروته وسـلطته، فكـانوا بمثابـة الـذباب الـذى يحوم حول السكريات. إنَّ أصدقاءً من هذا القبيل تنتهى صداقتهم بنهاية سلطة الانسان وثروته، فبعض منهم أصدقاء لسلطة الانسان وتنتهى صداقته بانتهاء السـلطة، وبعضـهم أصدقاء لجمال الانسان وتنتهى صداقته بانتهاء الجمال، وبعضهم أصدقاء لثروة الانسان وتنتهى صداقته بانتهاء الثروة، وبعضـهم أصـدقاء للمقام، وتنتهى صـداقته بانتهاء المقام وبلوغه نهايـة الخط. أصدقاء الثرى الذين ورد ذكرهم فى آيات المثل كانوا من هـذا القبيل، أى أنهم كانوا أصـدقاء لثروة ذلك الانسان وسـلطته ولم يكونوا أصـدقاءً له بالـذات، مضافاً إلى أنَّهم لم يكونوا أصـدقاء حقيقيين عنـدما كان ثريّاً بل كانوا بلاءً عليه؛ لأن أشـخاصاً من هذا القبيل وبأهداف ماديـة دنيويـة يظهرون له- بتملّقهم- الزين شيناً والشـين زيناً، أى أنَّهم لم يكونـوا أصـدقاءً حقيقيين أبـداً. سـؤال: من هم الأصـدقاء الحقيقيـون؟ وعلى مَن يُطلق عنوان الصـديق الحقيقى؟ الجواب: ينبغى الأخـذ بنظر الاعتبـار معـايير خالـدة لانتخـاب الصـديق، لكى تبقى صـداقته وتـدوم. علينـا اعتبار محبىّ العلم والإيمان والتقوى وما شابه ذلك أصـدقاء لنا؛ لأنَّ محبـة هؤلاء لا تتزلزل بالحوادث والمتغيّرات، والمحبة تسـتمر مادام التقوى والايمان والعلم والاعتقـاد بالآـخرة موجوداً. امثال القران، ص: ۳۰۸ وقـد وردت هـذه المواصـفات كمعايير لاختيار الصديق فى بعض الروايات نشـير إلى اثنين منها: ۱- يقول الامـام على عليه السـلام: «مودَّة أبنـاء الـدنيا تزول لأدنى عَرَضٍ يُعْرَضُ» «۱». إن أصـدقاء من هذا القبيل يتخـذون صـبغة خاصـة فى الحوادث بحيث يبـدون وكـأنهم لاـ يعرفون صـديقهم السابق أو لم يروه من ذى قبل. ۲- يقول الامـام أمير المؤمنين عليه السـلام فى روايـة اخرى «وُدُّ أبناء الآخرة يدوم لدوام سـببه» «۲». صداقـة أمثال هؤلاء صامـدة وثابتة على كل حال، سواء أقبلت الـدنيا أم أدبرت، وفى الأسـر والحريـة، وفى المرض والسـلامة. هكـذا أصـدقاء قليلون وبخاصة فى آخر الزمان، لذلك ورد عن الرسول صـلى الله عليه و آله قوله: «أقـلُّ ما يكون فى آخر الزمان أخ يوثق به أو درهم من حلال» «۳». حقاً إنَّ كليهما قليلان وعزيزان. فلنفرض حصول الانسان على مالٍ حلال بمشـقة كثيرة فيضعه فى حسابه فى البنك، عندئذٍ يختلط بأموال أشخاص مرابين ولا يعتقدون بالخمس والزكاة ولا يـدفعون ما عليهم من وجوه شـرعية اخرى أو يرتزقون عن طريق السـرقة أو يحتكرون ما يحتاجه الناس أو يهرّبون السـلع المحظورة وغيرهم ممَّن لا تخلو أموالهم من الحرام، ورغم أنه لا تكليف فى الظاهر ملقى على عاتق الانسان المفروض هنا إلَّاأنَّ اختلاط أمواله الحلال بالأموال الحرام يترك أثراً وضعياً. وقد يكون هذا هو سبب ما ورد فى الحديث التالى: «يأتى على الناس زمان لا يبقى أحـد إلَّاأكـل الربا فمن لم يأكله أصابه من غباره» «۴» نتطلع إلى اليوم الـذى يسـعى فيه الناس جميعاً لكسب الرزق الحلال ويرفع المرابـون أيـديهم امثـال القران، ص: ۳۰۹ عـن الربـا ويمتنـع السـارقون عن السـرقة والمحتكرون عن الاحتكـار والمهربـون عن تهريب المخدرات.

۴- من هو وليّ المؤمنين؟

اللَّه ولى الـذين آمنوا وناصـرهم ومعينهم فى الدنيا والآخرة، فهو القادر على كل شـىء، كما جاء ذلك فى الآية ۲۵۷ من سورة البقرة: «اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ وَالَّذين كَفَرُوا أوْلِيـاؤهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إلَى الظُّلُمَاتِ اولئكَ أصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ». كما أن أولياء اللَّه هم أولياء للمؤمنين كـذلك، حيث يقول اللَّه فى الآية ۵۵ من سورة المائدة: «إنَّما وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقيمُون الصَّلاةَ وَيُؤتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ رَاكِعُون». بناءً على هـذه الآيـة يُعدُّ الرسول صـلى الله عليه و آله والامـام على عليه السـلام «۱» أوليـاءً للمؤمنين. كمـا ورد فى الآـيتين ۳۰ و ۳۱ من سـورة فصِّلت كون الملائكـة أوليـاء للمؤمنين كـذلك: «إنَّ الَّذِينَ قَـالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمّ اسْتَقَامُوا تَتَنزَّلُ عَلَيْهِمُ المَلائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا ولَا تَحْزَنُوا وَأبْشِرُوا بـالجَنَّةِ الَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ نَحْنُ أَولِياؤُكُمْ فِى الحَيَاةِ الدُّنْيَا وفِى الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيها مَا تَشْتَهِى أنْفُسُكُمْ ولَكُمْ فِيها مَا تَدَّعُونَ». وبما أنَّ الناس غير معصومين فالملائكة تهمُّ

دائماً بحفظ المؤمنين من الحوادث والمخاطر، وهذه هى الولاية التكوينية. وجود الرسول صلى الله عليه و آله والأئمة عليه السلام وأولياء اللَّه سبب للبركة والآثار المعنوية، وعندما يُسأل المعصوم عن فائدة وجود إمام غائب، أى المهدى (عجل اللَّه فرجه) بيننا، يقول: «كما ينتفعون بالشمس إذا سترها سحاب» «۲». امثال القران، ص: ۳۱۰ إذن، اللَّه والرسول صلى الله عليه و آله والأئمة عليهم السلام والملائكة أولياء للمؤمنين، بشرط أن يخطو المؤمن فى طريق الحق تعالى، فاذا خطى المؤمن خطوة نحوه تعالى خطى اللَّه باتجاهه خطوات كثيرة، وإذا قلنا (ربّنا) واستقمنا شملتنا ألطاف إمام الزمان (عجل اللَّه فرجه)، كما شملت بعضنا. علينا مدّ أيدينا نحو السماء والتضرُّع إلى اللَّه تعالى لكى يحلَّ مشاكلنا الفردية والاجتماعية والسياسية بعناياته الخاصة.

المثل الثالث والثلاثون: الحياة الدنيا

اشارة

يقول اللَّه تعالى فى الآيات ۴۵ و ۴۶ من سورة الكهف: «وَاضرِبْ لَهُم مَّثَلَ الحَيَاةِ الدُّنيَا كَمَاءٍ أَنزَلنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاختَلَطَ بِهِ نَباتُ الأَرْضِ فَأصبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَىءٍ مُقْتَدِراً* المَالُ وَالبَنُونَ زِينَةُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً وَخَيْرٌ أَمَلًا».

تصوير البحث

شبَّه اللَّه تعالى الحياة الدنيا فى هذا المثل بماء الغيث. الخصوصية البارزة لهذا الماء أنَّه يضفى طراوة ونشاطاً على الزرع والنباتات مدّة أيام، لكن هذه الطراوة والنشاط تنتهى بحلول فصل الخريف، أى فصل الموت المؤقت للنباتات، وينتهى به شوط قصير من حياة النباتات. وهذا الشوط تحذير فى الحقيقة إلى الانسان الغارق فى الحياة الدنيوية بأنَّ حياته سيحلُّ فيها فصل الخريف حيث بداية الموت.

الشرح والتفسير

«وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الحَياةِ الدُّنيا». يخاطب اللَّه بهذه الآية الرسول صلى الله عليه و آله بأن يضرب للناس الغارقين فى الدنيا مثلًا على هذه الحياة ويشبّهها بما شبهها. لماذا ضرب اللَّه هذا المثل هنا؟ امثال القران، ص: ۳۱۲ قد يكون ذلك باعتبار أنَّه أشار إلى عاقبة عَبَدَة الدنيا والذين غرقوا فى مُتعها من خلال الآيات الاثنى عشر الماضية، ولأجل اتّضاح أصل الحياة الدنيا طرح اللَّه هذا المثل تعقيباً للمثل المتقدِّم. «كَمَاءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ». يسقط هذا الماء على أرجاء الأرض كلها سواء كانت خصبة أو سبخة، لكن الأراضى لم تستفد من هذا الماء بنحوٍ واحد، فقد يكون هذا الماء سبباً للحياة فى جزءٍ وقد يكون سبباً للعذاب الإلهى فى جزءٍ آخر. «فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ». عندما يسقط هذا الماء على الأراضى الخصبة يضفى عليها حياة وطراوة ونشاطاً وافراً، فتنبت من جراء ذلك نباتات مختلفة ومتنوّعة، كلٌّ منها تكشف عن قدرة الخالق، وتتشكل بذلك مناظر طبيعية خلابة ومحيّرة للعقول فى فصلى الربيع والصيف، وتحرّض كل صاحب بصيرة لتمجيد الخالق وتحسينه. «فَأَصبَحَ هَشيماً تَذْرُوهُ الرِّياحُ». لكن عمر الطراوة والنشاط، الذى منحه الماء للنباتات وجمَّل الارض، قصير؛ لأنّه بعد أيام حيث يحلُّ فصل الخريف والشتاء ويتبدَّل الخضار إلى صفار والنشاط إلى خمول وموت، وعندما تهبُّ الرياح حاملة معها رسالة الموت الظاهرى للطبيعة تتساقط أوراق الأشجار التى كانت تجمّل الطبيعة وتجعلها خضراء خلابة، وبعدما ترقص فى الهواء للحظات تقع على الأرض لتُدفن فى باطنها. «وَكَانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شيءٍ مُقتدِرَاً». بالطبع، هذه التحولات والتغييرات التى تطرأ على الانسان وجميع الموجودات فى العالم تحتاج إلى قدرة اللَّه من حيث الوجود والبقاء، فهى فقيرة إلى قدرته تعالى، أمَّا ذات

الحق فقادرة ومستطيعة دائماً، ولا ـ يؤثّر فيها مرور الزمان وتحوّلات الفصول والمناخات وغير ذلك، بل اللّه بقدرته أوجد هذه التحوّلات، وكل شيء يتغيّر إلّاذاته الطاهرة. نعم، اللّه قادر على كل شيء. امثال القران، ص: ۳۱۳ «المَالُ والبَنُونَ زِينَةُ الحَيَاةِ الدُّنْيا». البنون كالمال بمثابة رأس مال فى الحياة الدنيا، كما هو حال النباتات ففى برهة من الزمن تُعدُّ سبباً لجمال الأرض ويتباهى بها الانسان أحياناً، لكنها ممَّا لا ينبغى الوثوق بها، ولا ممَّا تسبب إنقاذ الانسان ونجاته فى الدنيا وفى الآخرة. «والبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ ربِّكَ ثَواباً وَخَيْرٌ أَمَلًا». الرصيد الذى يمكن الاعتماد عليه والذى يُعد ذخراً حَسَناً عند اللّه تعالى هو الأعمال الصالحة الباقية التى عبَّر عنها اللّه فى هذه الآية بالباقيات الصالحات. نعم، الأعمال الصالحة والقيم الثابتة تعدُّ رصيداً يعتمد عليه، فهى ذات صبغة خالدة ولا خريف فيها ولا موت.

بأى شيءُ شبِّهت الحياة الدنيا؟

سؤال: بأى شيءً شُبِّهت الحياة الدنيا فى هذه الآية؟ هل شبِّهت بالأشجار الطرية ذات العمر القصير والتى تموت بحلول فصل الخريف، كما تقدَّم شرح ذلك، أو أنَّها شبِّهت بماء المطر الذى ينزل من السماء شفافاً صافياً؟ إذا كان الثانى فعلينا معرفة وجوه الشبه بين الدنيا والمطر؟ الجواب: الإنصاف أنها شبِّهت بكليهما، والمعنيان والتشبيهان صحيحان، وقد تقدَّم تفصيل تشبيه الدنيا بالنباتات، أما وجه تشبيهها بالغيث فهو كون الغيث ينزل من السماء وينصبُّ فى قالب النباتات، ويمنحها حياة ونشاطاً وقوة فتخضر الدنيا بها وتصبح زاهية بزهور النباتات، وبعد مدَّة قصيرة من عمرها تتَّجه نحو الموت وتنتهى ويتبخَّر الماء ويتركها هيكلًا بلا روح متّجهاً نحو السماء تارة اخرى وهذا هو الذى يُؤدى إلى موت النباتات. نعم، ينزل الغيث من السماء لكى يرسخ فى صلب النباتات ويمنحها حياة، وبعد مدَّة يرجع إلى السماء «إنَّا للَّهِ وإِنَّا إلَيْهِ راجِعُونَ» «۱» عائداً إلى أصله ومحافظاً على سنة الرجوع والعود إلى الأصل. امثال القران، ص: ۳۱۴ الهدف من تشبيه الحياة الدنيا بالغيث هو إفهام الانسان بأنَّ روحه مثل الماء الذى ينزل من السماء ومن العالم العلوى جُعلت فى هيكله المادى، فعليه انتهاز فرصة تواجدها فى جسمه والاستفادة من الحياة بأحسن وجه ممكن، وعليه الإكثار من الأعمال الصالحة، وليكن مطيعاً مخلصاً وعبداً خاضعاً لذات الحق تعالى، وهذا هو متاعه فى سفره نحو الآخرة والصعود إلى دار العقبى والعالم العلوى. إذن فليقدّر الانسان لحظات عمره القصيرة فى الدنيا ولينتهزها حتى أقصى لحظة. يشبّه أحد العلماء أرواح الناس بالغواصين الذين يبحثون عن اللؤلؤ والمرجان ويضطرّون لأجل ذلك للغوص إلى أعماق البحار، والغوص يستحيل على الغواص إلّاأنْ يصحب معه ثقلًا ثم يفصله عندما يعثر على اللؤلؤ أو المرجان المستهدف لكى يمكنه أن يطفو على سطح الماء تارة اخرى الانسان فى هذه الحياة بمثابة الغواص الباحث عن اللؤلؤ والمرجان المعنوى، وهى المقامات والكمالات الاخلاقية والطاعات العبودية، خضوعاً للّهالأحد فى بحر الوجود الموّاج، قضاءً لأيام من الاسر فى عالم التراب، والانسان الموفّق والناجح والمنتصر فيه هو الانسان الذىاصطاد صيداً جيداً واستطاع تحرير نفسه من قيد جسمه الترابى صعوداً نحو دار البقاء متحرّراً من كل قيد.

اختلاف هذه الآية مع الآية ۲۴ من سورة يونس

جاء ما يلى فى الآية ۲۴ من سورة يونس والتى تقدَّم الحديث عنها فى المثل الثامن عشر: «إِنَّمَا مَثَلُ الحَيَاةِ الدُّنيا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الأَرْض مِمَّا يَأْكُلُ النّاسُ والأَنْعَامُ حَتَّى إذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وأَزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهلُها أَنَّهُمْ قَادِرونَ عَلَيْها أَتَاهَا أَمْرُنا لَيْلًا أَوْ نَهاراً فَجَعَلْنَاها حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بالأَمْسِ كَذَلِك نُفَصِّلُ الآياتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ». والسؤال: هل المثل المذكور فى الآية ۴۵ من سورة الكهف تكرار للمثل المذكور فى الآية ۲۴ من سورة يونس من حيث اتحاد وجه التشبيه فيهما؟ الجواب: المثلان مختلفان وليسا مكرَّرين؛ لأنَّ الحديث فى المثل المطروح فى سورة يونس امثال القران، ص: ۳۱۵ عن حصول حادث مفاجئ يمحو آثار حياة النباتات ونشاطها، وذلك قبل إتمام عمرها الطبيعى، أمَّا المثل الذى هو موضع بحثنا (الآية ۴۵ من سورة الكهف) فالحديث فيه ليس عن حادث

خاص يطرأ فجأة بل الحديث عن حادث يطرأ تدريجياً فى فصل الخريف يسلب النباتات خضارها ونشاطها وطراوتها حتى ينتهى الأمر إلى جفافها وموتها فى نهاية المطاف، لكن تدريجياً لا فجأة. هذه السنَّة الالهية تصدق فى حق الانسان كذلك، فهو يمرُّ بمرحلة الطفولة ثمّ الشباب ثم الكهولة والشيخوخة. على كلِّ حال، هذه الحياة الدنيا زائلة وينبغى الإعداد والتهيّوء لحياة البقاء الاخروية حيث الديمومة والقيمة العالية.

خطابات الآية

۱- تنوّع النباتات من معالم القدرة الإلهية

«فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ». هذه العبارة تشير إلى تنوع واختلاف النباتات، وعدد فصائلها حالياً يبلغ مئات الآلاف، وهذه الإحصائية التى يقرُّها علماء النباتات تخص الأماكن التى بلغها البشر دون تلك التى لم يستطيع بلوغها أو الوصول إليها. يقول العلماء: ما يعادل هذا العدد وقد يزيد عليه من فصائل نباتية توجد فى أعماق البحار والغابات التى لم تطئها أقدام البشر ولم يكتشف نباتاتها، ولهذا يقال بأن عدد فصائل النباتات قد يصل إلى المليون «۱»، ولكلِّ فصيلة منهج وبرنامج خاص، كما أنَّ لكلٍّ عجائب كثيرة. امثال القران، ص: ۳۱۶ هناك نباتات تتشكّل من زهرة فقط، أى أنَّها لا- تحتوى على غصون وأوراق وغير ذلك بل كل ما هناك زهرة تنبت مباشرة على الأرض. والأعجب من ذلك هو النباتات الآكلة للحوم، فهى تحس وتتحرّك، وعندما يقترب منها حيوان تلفُّ غصونها وأوراقها حول ذلك الحيوان لتلتقمه وتبتلعه. كلٌّ من هذه النباتات مَعْلَمٌ من معالم القدرة الإلهية، يسلِّم بها حتى المنكرون لو فتحوا أعينهم وأبصروا بها، فإنَّ آثار اللَّه تجدها كل مكان لكن رؤيتها تحتاج إلى عين باصرة.

۲- ما هى الباقيات الصالحات؟

ذكر المفسرون احتمالات عديدة للباقيات الصالحات، نشير إلى خمسة منها: الف: المراد هو الصلوات اليومية الخمس «۱»؛ لأنها أعمال صالحة وخالدة كذلك، فالصلاة تعمر كل مكان اقيمت فيه من البيت والدائرة والمجتمع والبلد، والمكان الذى لا تُقام فيه صلاة يخرب ويُدمَّر. الصلاة إذا وجَّهت القلب الذى هو مركز الاضطرابات والقلق نحو اللَّه طمأنته وسكّنته «۲»، وملخَّص الكلام هو أنَّها معيار قبول أوردّ الأعمال وباقى العبادات «۳». باء: المراد من الباقيات الصالحات هو الذكر الشريف التالى: «سبحان اللّه والحمدُ للّه ولا إله إلَّااللَّهُ واللَّهُ أكبر» «۴». هذا الذكر ينزّه اللَّه تعالى عن كل عيب ونقص ويوصفه بصفات الكمال، وربٌّ بهذه الصفات جدير بالحمد والثناء؛ لأنَّه الوحيد المتصف بهذه الصفات الكمالية والوحيد الذى هو جدير وأهل للعبادة، ولا معبود غيره، وهو أرفع شاناً ممَّا نصفه به وممَّا نظن ونتصوَّر وأعظم من أن تحدَّه افكارنا. امثال القران، ص: ۳۱۷ جيم: المراد منها صلاة الليل «۱»، فهى صلاة تحضى بأهمية كبيرة، وكل ما قلنا فيها كان قليلًا، يقول اللَّه فى هذا المجال: «وَمِنَ اللّيلِ فَتَهَجَّد بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أنْ يَبْعَثَكَ ربُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً» «۲». بلوغ المقام المحمود غير ميسَّر حتى للرسول صلى الله عليه و آله إلَّامن خلال صلاة الليل. بالطبع لا- ينبغى للانسان أن يأتى بجميع آداب ومستحبات صلاة الليل وبخاصة بالنسبة إلى أولئك الذين قصدوا تواً نيل هذه السعادة العظمى بل يكفيهم الاتيان بأحد عشرة ركعة بنحوها العادى والمألوف، رغم أن الذى يأتى بباقى آدابها ومستحباتها سينال قسطاً أوفر من الثواب عند اللَّه قطعاً. أتمنى التوفيق للقيام بهذه العبادة الكبرى لكى يتسنَّى لنا الإحساس بلذة بلوغ المقام المحمود تدريجياً. دال: فسَّر بعض المفسِّرين الباقيات الصالحات بالبنات اللاتى يتم تربيتهنَّ بالآداب الاسلامية ليصبحن امهات نموذجيات «۳»؛ لأنَّهن منشأ أمل لوالديهن فى عالم الآخرة. هاء: نقرأ فى رواية وردت عن الامام الصادق عليه السلام أن حبَّ أهل البيت وولايتهم من مصاديق الباقيات الصالحات «۴». هذه خمسة تفاسير مختلفة للباقيات الصالحات، لكن تقدَّم منا أنَّ هذه التفاسير رغم تضادها الظاهرى غير متضادة ولا متنافية فى الواقع، ويمكن شمول

الباقيات الصالحات لها جميعاً من خلال القول بأن كلًا من التفاسير التى ذكرناها والتفاسير التى لم نذكرها «۵» بمثابة المصاديق للباقيات الصالحات «۶»، فإنَّ لهذا العنوان مصاديق متعدّدة ومختلفة. امثال القران، ص: ۳۱۸ والنتيجة هى أن لا ـ يتعلَّق الانسان بدنياه الفانية والعاجلة بل عليه التعلُّق بالباقيات الصالحات.

مباحث تكميلية

۱- ماهى الحياة الدنيا؟

الدنيا مؤنث أدنى والحياة فى عبارة «الحياة الدنيا» مؤنث موصوف، والدنيا صفتها. الدنيا والأدنى يعنيان القرب وقد تعنى الدنائة والوضاعة. وبهذا يكون معنى الجملة الحياة القريبة ويقابلها الحياة البعيدة أى الآخرة، أو بمعنى الحياة الوضيعة والدنيئة، ويقابلها الحياة العليا والرفيعة، أى الآخرة. الدنيا مجموعة من الامكانيات المادية من قبيل الثروة والمال والمقام والزوج والولد والمنزل والسيارة والامور الاخرى التى تحضى بأربع خصال: ۱- فانية وغير دائمة، كما اشير إلى ذلك فى كثير من الآيات والروايات. ۲- خادعة وذات مظهر جذاب، فهى جميلة وفاتنة جداً إذا نظرنا إليها من بعيد. ۳- جوفاء، أى رغم ظاهرها الجذّاب نجدها- عند الاقتراب منها- جوفاء خالية، كالسراب الذى يبدو ماءً من بعيد، لكنه لا شىء فى الواقع ومن قريب. ۴- ممزوجة بمختلف المشاكل والمصائب، فلا تخلو الحياة من المشاق والمتاعب أبداً. مجموع ما تقدَّم مع هذه الخصائص الأربع يشكّل الحياة الدنيا، رغم ذلك فانَّها إذا اتّخذت صبغة إلهية والتزمت الأهداف السامية والعليا فلا تبقى دنيا بل تصبح آخرة. عن ابن أبى يعفور: قلت لأبى عبداللَّه عليه السلام: إنَّا لنحبّ الدنيا، فقال لى: «تصنع بها ماذا»؟ قلت: أتزوّج منها وأحج وأنفق على عيالى وأنيل إخوانى وأتصدق، قال لى: «ليس هذا من الدنيا، هذا من الآخرة» «۱». إذن، إذا اتُّخذت الحياة لغرض الالتذاذ المادى ولتلبية الشهوات والأهواء كانت عبادة امثال القران، ص: ۳۱۹ للدنيا، وإذا اتّخذت جسراً لبلوغ الأهداف المعنوية السامية كانت آخرة.

۲- الدنيا من وجهة نظر الروايات

فى الروايات نجد مباحث كثيرة وواسعة عن الدنيا، بل يمكن القول بأنَّ الدنيا من أوسع المباحث المطروحة فى الروايات. من المباحث المطروحة فى الروايات عن الدنيا هو التمثيل لها، نشير إلى نماذج منها. الف: يقول الإمام الكاظم عليه السلام: «مثل الدنيا مثل ماء البحر كُلَّما شرب منه العطشان ازداد عطشاً حتى يقتله» «۱». وفقاً لهذا الحديث كون الدنيا لا تروى عطش أيٍّ من عَبَدة الدنيا، وإذا ظنَّ أحد أنَّه سيقتنع، بمستوى خاصٍ من مستويات الدنيا ومقاماتها فإنَّ ظنَّه وَهْمٌ وخيال لا أكثر، ومن المحالات، وعكسه، أى طلب الزيادة، هو الواقع الصادق. لم يبلغ أثرياء الدنيا الكبار مستواهم المعاشى ودنياهم الدنية إلَّابعد ارتكاب جرائم تنفر النفس لبيانها فضلًا عن أرتكابها، وقد أعدوا لهم إثر هذه الجرائم حياة كمالية اسطورية يصعب تصوّرها على الآخرين، فقد قيل فى بعضهم أن له حوض سباحة فى طائرته الخاصة. لكن يا ترى هل يشبعون؟ وهل ذلك يروى ضمأهم؟ كلا، انّهم يسعون لاكتساب الأكثر فالأكثر دائماً، ولأجل ذلك يقتحمون كل مجالات التجارة مهما كانت، فيتاجرون بالأسلحة التى يُقتل بها المذنبون وغير المذنبين سواء، كما يتاجرون بالأسلحة الكيمياوية التى يكفى قذيفة منها لقتل الآلآف من المدنيين العُزَّل بأبشع وجه، فيضيق العيش عندئذٍ لا على البشر فحسب بل على جميع الموجودات الحية، رغم ذلك فهم غير مكترثين بالعواقب المفجعة والوحشية لهذه الأعمال والتجارة، وما يهمهم هو زيادة أرباحهم وأموالهم. إنَّهم مستعدون- لإرواء عطشهم تجاه الدنيا لأن يتاجروا بالمخدرات وأن يحطّموا عوائل ومجتمعات ويسلبوا الشباب إرادتهم بهذه المواد؛ وذلك لأجل زخرفة دنياهم أكثر فأكثر. امثال القران، ص: ۳۲۰ إن هؤلاء القذرين حاضرون للمتاجرة بالبشر، وهى تجارة قذرة تشمئزُّ منها النفوس، فيشترون الأطفال- سواء بنات أو بنين- من الدول الفقيرة وبمبالغ زهيدة

ليبيعونهم بمبالغ طائلة للمتموّلين وأصحاب الأهواء من أمثالهم، وهى عملية تخلّف آلاماً وحسرات، حيث يبقى الوالدان يتحسَّران على رؤية ولدهم ويتحمّلون حرقة فراقه إلى آخر العمر. ولا يهمهم ذلك؛ لأنَّ هدفهم زيادة المال وإنماءه. يا لهم من اناس دنيئين؟ لكن لماذا هم كذلك؟ يمكن الإجابة على ذلك بالقول: إنَّهم لا يفكّرون بغير الدنيا ولذاتها المتنوعة، ولا علاقة لهم بشأن الدين والشرف والانسانية، وقد قُيِّد وجدانهم البشرى فى زنزانة الحرص والطمع وطلب الزيادة، ودُفنت فطرتهم تحت تلٍّ من الرذيلة والدناءة. باء: يقول سابع إمام للشيعة موسى بن جعفر عليهما السلام واصفاً الدنيا: «مَثَلُ الدنيا مَثَلُ الحيَّة مسُّها ليِّن وفى جَوفِها السمُ القاتل» «۱». هذا الحديث يشير إلى خداع الدنيا ويشبّهها بالحية ذات المنظر الفاتن والباطن المسموم والقاتل. جيم: يقول الامام على عليه السلام: «إنَّما الدنيا شَرَكٌ وقع فيه مَن لا يعرفه» «۲». ويا له من شرك واسع وكبير يسع لصيد وقرابين مختلفة ومتنوّعة! دال: كما يقول أول أئمة الشيعة: «الدنيا ظلُّ الغَمَام وحُلم المَنَام» «۳». يحكى هذا الحديث الشريف جانباً من الدنيا، وهو كونها زائلة وغير دائمة، فهى من قبيل امثال القران، ص: ۳۲۱ الظلّ الذى تفتعله الغمام، وهو ظلٌّ سائر وغير دائم ولا ثابت فى محل ما، فلا يمكن اللجوء إليه هروباً من حرارة الشمس. الدنيا منام يراه الانسان النائم، وهو خيال أجوف، من قبيل رؤية الانسان لكنوز كثيرة يمتلكها، ولا يجدها ولا آثارها فى اليقظة. إذن، الدنيا فانية، كما أنها جوفاء وخالية من المحتوى. هاء: فى حديث يصف لقمان الحكيم الدنيا لابنه كما يلى: «إنَّ الدنيا بحر عميق قد غِرق فيها عالَمٌ كثير» «۱». الذى يغرق إمَّا أن يصبح طعاماً للحيوانات البحرية أو أن أمواج البحر تلقى به إلى أماكن بعيدة، بحيث لا يبقى منه أثر. والدنيا تفعل بالانسان كما يفعل البحر بالغريق، فهى قاسية وغير وفيّة. عاش فى هذه الدنيا أقوام ونحل كثيرة لا نجد لها أثراً حالياً، فهى قد غرقت فى بحر الدنيا، فعلينا البحث عن وسيلة نجاة من بحر الدنيا يُطمئن إليها ننقذ بها أنفسنا من الغرق. واو: يقول الامام على عليه السلام فيما يخصُّ أهل الدنيا: «أهل الدنيا كَرَكْبٍ يُسار بِهِم وهُمْ نيام» «۲» عبدة الدنيا يقضون حياتهم فى نوم الغفلة، وقد أدهشتهم شهوات الدنيا ولذّاتها، لذلك لا يصطحبون معهم متاعاً فى سفرهم نحو الآخرة، يستيقظون عندما يشعرون بصفعة الأجل، عندها يندمون ويأسفون، لكن ذلك لا يفيدهم؛ لأن زمن التدارك قد مضى وولَّى زاء: يصف رسول اللَّه صلى الله عليه و آله الدنيا بمثل جميل ويقول: «الدنيا سجن المؤمن وجنَّة الكافر» «۳». يحكم المؤمنين قيود كثيرة فى الدنيا، هى من قبيل الحلال والحرام ورضا اللَّه وغضبه والمحرمات والواجبات، وهى قيود تحدُّ من نشاطات المؤمنين كثيراً، أمَّا الكفَّار فهم فى حلٍّ من امثال القران، ص: ۳۲۲ جميع هذه القيود، فهم أحرار والأهواء هى التى تحكمهم، ولذلك يُعدُّ المؤمن سجين الدنيا فى زنزانة تتحطّم عند الموت لتحلِّق روحه منها نحو الحرية. وهذا هو السبب فى أنَّ أولياء اللَّه يتطلّعون إلى الموت ويعدونه فوزاً «فُزْتُ وربِّ الكعبة» أو يتمنّونه «اللهمَّ عجِّل وفاتى سريعاً»، فهم يستقبلون الموت برحابة صدر ولا يهابونه أبداً. إذا كان دفتر أعمال الانسان أبيض كان الموت نعمة له؛ لأنه يتخلَّص عنده من الدنيا المفعمة بالمصائد والفخاخ الشيطانية، ويتخلَّص كذلك من قيود الدنيا ليبلغ نعمة الحرية التى ينالها المؤمن فى الآخرة. حاء: يصف النبى عيسى عليه السلام الدنيا كما يلى: «إنَّما الدنيا قنطرةٌ فاعبروها ولا تعمروها» «۱». الدنيا ليست هدفاً ولا غاية، بل وسيلة، والنظر إلى الدنيا من هذه الزاوية يعدُّ إيجابياً جداً، ونرتكب خطأً كبيراً إذا نظرنا إليها كهدف وغاية. لذلك شبّهها النبى عيسى عليه السلام بالجسر الذى ينبغى العبور عليه لا المكث فيه، فالعاقل لا يبنى منزلًا على الجسر، فهو ليس محلًا للتوقف والعيش، والعجيب إذا صدر ذلك من الانسان. فى هذا المجال ورد حديث عن الامام على عليه السلام يقول فيه: «عجبت لعامر الدنيا دار الفناء وهو نازل دار البقاء» «۲». طاء: ينقل الامام على بن الحسين عليهما السلام مكاشفة عن أمير المؤمنين عليه السلام فيما يخصُّ الدنيا الدانية، حيث يقول: «إنّى كنت بفدك فى بعض حيطانها، فإذا أنا بامرأة قد قحمت علىّ وفى يدى مسحاة وأنا أعمل بها، فلمّا نظرت إليها طار قلبى ممَّا تداخلنى من جمالها فشبهتها ببُثينة بنت عامر الجُمحى وكانت من أجمل نساء قريش، فقالت: يا ابن أبى طالب، هل لك أن تتزوّج فاغنيك عن هذه المسحاة وأدلك على خزائن الأرض فيكون لك الملك ما بقيت ولعقبك من بعدك؟ فقال لها: مَن امثال القران، ص: ۳۲۳ أنت حتى أخطبك من أهلك؟ فقالت: أنا الدنيا. قال: قلت لها: فارجعى واطلبى زوجاً غيرى». ثمّ أنشد عليه السلام أبياتاً جميلة فى ذمها «۱». تقدَّمت تسعة من الأمثال الواردة عن الدنيا على لسان المعصومين واذا جمعناها

إلى الآيـة تصـبح عشـر أمثـال جميلـة تعكس بوضوح الجوانب والخصـائص الأـربع التى ذكرناهـا للـدنيا. اللافـت أن المعصومين أينما تحـدَّثوا عن موضوع بيّنوه بنحو واف لا لُبس ولا نقص فيه، وبه تتمُّ الحجـة على الجميع بحيث لا يمكن لأحـد أن يدَّعى عدم العلم أو المعرفة.

۳- ما سبب ذم الروايات الدنيا؟

كثرة مذمّة الدنيا من قبل الروايات إشارة منها إلى نقطة جاءت فى نفس الروايات تحدّد فلسفة وعلة هذه المذمّة، على سبيل المثال جاء ما يلى فى رواية وردت عن الوجود المقدس للامام الصادق عليه السـلام: «رأس كلِّ خطيئة حب الدنيا» «۲». هذه الرواية تُرجع الذنوب كلها (وهى من قبيل السـرقة والتهمـة والغيبـة والاسـتهزاء وإيـذاء المؤمن والزنا واللواط والاعتـداء على الآخرين وترك الواجبات وفعل المحرمات) إلى حبّ الـدنيا وعبادتها. وفى روايـة لافتـة وجميلة يقول الامام الكاظم عليه السـلام: «إعلم أنَّ كل فتنة بذرها حبُّ الدنيا» «۳». وفى رواية يقول رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «أكبر الكبائر حبُّ الدنيا» «۴».

تحليل الروايات

الـدنيا محلّ التزاحم عكس الآخرة، فلا تزاحم فيها، وبعبارة اخرى للتزاحم مجال فى الامور الدنيويـة، ولا يُتصوَّر هذا التزاحم فى الامور المعنويـة. وعلى سبيـل المثـال إذا كنت حافظـاً للقرآن فلاـ يتزاحم ذلـك مع حفـظ القرآن من قبل الآخرين حتى لو حفظه نساء الـدنيا ورجالهـا جميعـاً. وعكس ذلـك فى الأـمور الدنيويـة فـإذا كنت مالكـاً لقطعـة من الارض، تزاحم ذلك مع ملك شـخص آخر لنفس الأرض. أى هناك تزاحم بين ملكك وملك الآخرين أو إذا كان زيـد رئيساً للجمهوريـة فلا يمكن لعمرو أن يكون رئيساً للجمهورية كـذلك. وبما أنَّ هـذه الـدنيا دار تزاحم كانت سـبباً للذنوب. وامكانيات الدنيا لو قسـمت بعدالة بتكافؤ لأمكن للجميع الاسـتفادة منها بالنحو المطلوب إلَّاأن طلّاب الزيادة وعبدة الدنيا حالوا دون حصول تعادل فى توزيع الامكانيات ووفّروا الأرضية للتعدى والتجاوز على الحقوق، وبـذلك تنـدرس حقوق الضـعفاء وتضـيع. وهـذا هو تصوير كون الـدنيا منشأً للـذنوب. إذن، لو اقتنع الانسان بما لديه واتَّخذ القناعة كمنهج لحياته حفظ نفسه بعيداً عن التلوّث بكثير من الذنوب.

المثل الرابع والثلاثون: تنوّع أمثال القرآن

اشارة

«وَلَقَدْ صَرَّفْنا فِى هَذَا القُرْآنِ للنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَىءٍ جَدَلًا» «۱».

تصوير البحث

خلافاً لباقى الأمثال حيث تحـدَّثت عن عينيات خارجيـة فان الحـديث فى هـذه الايـة عن المسائل الكلية وتنوع أمثال القرآن، لعلَّ هذه الأمثال تقنع بتعدّدها وتنوّعها الانسان الجاحد والمجادل وتهديه إلى الصراط المستقيم.

هل هذه الآية من أمثال القرآن؟

اختلف المفسـرون فى هـذا الباب، فبعض عـدَّها من أمثال القرآن وبعض آخر رفض إدراجها فى الأمثال، وبرأيى أن الإجابـة على هذا السؤال يتوقّف على كيفيـة تفسـيرنا لأمثال القرآن، فإذا كان المراد من المثل التمثيل بشـىء ذى عينية خارجية، كما هو حال الكثير من

أمثال القرآن، كانت هـذه الآيـة خارجـة عن نطاق المثل، وإذا كانت الإشارة الكليـة إلى أمثال القرآن كافيـة فى صدق المثل اندرجت هذه الآية تحت هذه الأمثال؛ لأن هذه الآية تشير إلى تنوّع الأمثال القرآنية. امثال القران، ص: ۳۲۶ يُذكر أن بعضاً ممَّن كتب فى أمثال القرآن أخطأ هنا، ومع احترامى له أقول: لا ينبغى عـدّ الآيـة مثلًا بمجرد تضـمّنها مفردة (مثل)، فقد جاء فى الآية: «فأتوا بِسُورةٍ مِنْ مِثْلِهِ» «۱» رغم ذلك لا علاقة للآية بالأمثال القرآنية، بل تحدَّثت عن إعجاز القرآن المجيد. كما وردت مفردة (مثل) فى الآية التالية: «للذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ» «۲» وهى كـذلك لا علاقة لها بأمثال القرآن، بل الحديث فيها عن الإرث. ومن جانب آخر، هناك البعض من أمثال القرآن لم تستخدم فيهـا مفردة (مثل)، رغم ذلك يعـدها الجميع من الأمثال. النتيجـة: وجود أو عـدم وجود مفردة (مثل) لا يـدل على كون الآية من الأمثال أو ليست من الأمثال، بل المثل هو أن تبيّن الآية معنى عقلياً معقداً فى قالب أمرٍ محسوس يسهل استيعابه للجميع.

الشرح والتفسير

«وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا القُرآن للنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ». مفردة «صَرَّفنا» من مادة التصـريف ويعنى التبديل والتغيير، ولذلك يقال صَرَّافاً لمن يبدّل النقد من عملة إلى اخرى فيبدل الدينار بالدولار أو بالعكس مثلًا. وقد اطلق اصـطلاح (علم الصرف) على العلم المعروف؛ باعتبار كونه علماً يعنى بتبـديل الكلمـة إلى أشـكال وصـيغ مختلفـة من الماضـى والمضارع واسم الفاعل والمفعول والجمع والتثنيـة والمـذكر والمؤنث والمخاطب والغائب وغير ذلك. يقول اللَّه فى هذه الآية: إنَّا بيّنّا أمثالًا مختلفة ومتنوّعة للناس، وبيّنا الموضوع المتحد باشـكال وصيغ مختلفة ومتنوعة لعلَّ الانسان يهتدى بها إلى ربّه. امثال القران، ص: ۳۲۷ «وَكَانَ الإنسانُ أكْثَرُ شَيءٍ جَدَلًا».

ماذا يعنى الجدل؟

الجـدل يعنى فتل الحبل فتلًا جيداً، كما يطلق على المتصارعين، باعتبار اشـتداد وانفتال أحدهما بالآخر، كما يُطلق على نقاش شخصـين فى القضايا الفكريـة والمنطقية، حيث تُفتل أفكار كلٍّ منهما بالآخر وتلتحم. النتيجة: كون الجدل فى البداية اطلق على فتل الحبل وشدّه ثم توسّع هذا المفهوم ليشمل كل انفتال مادى حتى لو كان من قبيل تصارع شخصين، ثم اطلق على مفهوم أوسع ليشمل انفتال الأفكار بالنحو المشار إليه فى الأسـطر المتقدّمة. استخدم القرآن ولغرض هداية الانسان أمثالًا متعدّدة ومتنوّعة، لكن الانسان رغم ذلك يجادل فى الحق ويقف أمـامه أكثر من أى موجود شـاعر آخر. الانسـان موجود مجادل، هـذا هو سـبب عـدم تسـليمه للحق وهو سـبب جحود البعض فى صـدر الاسـلام وعـدم إيمـانهم رغم سـماعهم آيـات القرآن من الرسول صـلى الله عليه و آله ورؤيتهم إيّاه كل يوم، وظلوا هكـذا حتى الموت. وقبـال هؤلاء اناس آمنوا بمجرّد سـماعهم آيـة من آيات القرآن دون أن يروا الرسول صـلى الله عليه و آله. سـبب ذلك واضـح، فالـذين لم يؤمنوا كانوا اناساً مجادلين يقلبون الحقائق بالجدل، أمَّا اولئك الذين آمنوا بالرسول لمجرّد جرعة واحدة من جرعـات الهدايـة دون أن يروا الرسول فقـد كانوا يبحثون عن الحقيقـة والهـدى وهـذا هو الشـرط الأساس للهدايـة. أشار اللَّه إلى هـذا الموضوع المهم فى بدايـة سورة البقرة وعبر جملـة قصـيرة حيث قال: «ذلِكَ الكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدَىً للمُتَّقِينَ»؛ وذلك لأن المراد من التقوى فى هـذه الآيـة ليس المعنى المألوف والمصـطلح بل المتقين هنا هم اولئك الـذين خلت قلوبهم من العناد واللجاجـة والجـدل، فالقرآن بالنسـبة إلى هؤلاء سـبب للهداية، أمَّا أصحاب اللجاجة والعناد فما يزيدهم القرآن إلَّا ضلالًا فضلًا عن أن يكون سبباً لهدايتهم. أمثال أبى لهب وأبى جهل لم ينهلوا من القرآن شيئاً، وذلك لأنهم كانوا يفقدون أرضية النهل من بركات ونعم هذا الينبوع، فإنَّ قابلية القابل شرط مضافاً إلى فاعلية الفاعل، فكما أنَ امثال القران، ص: ۳۲۸ نزول قطرات الغيث الشفافة شرط لنمو النباتات كذلك الأرض المعدَّة والخصبة شرط لنمو النباتات.

خطابات الآية

۱- تنوّع أمثال القرآن

سؤال: لماذا استخدم القرآن أمثلة متنوّعة؟ ولماذا بيَّن مطلباً ومضموناً واحداً بقوالب متباينة؟ تارة يمثّل بالحيوانات وأُخرى بالصالحين أو الفاسدين واخرى بالنباتات أو نور الشمس وما شابه ذلك، فما سبب هذا التنوّع؟ الجواب: ذهنية الأشخاص تختلف كاختلاف أشكالهم الظاهرية، فشخصيات الأفراد وقدراتهم على الاستيعاب والتحليل وأذواقهم وثقافتهم مختلفة، وإذا أراد المتكلّم أن يتوفّق ويؤثر فى المخاطبين فعليه صياغة كلامه بقوالب مختلفة ومتنوّعة ناظراً فى ذلك إلى قابليات المخاطبين؛ لأنَّ منهجاً فى البيان قد يكون مؤثراً فى الشباب وغير مؤثر فى الكهول أو بالعكس، وقد تؤثر جملة فى شخصٍ امّى ولا تؤثر فى المثقف، وقد تكون بعض المطالب مؤثرة فى النساء غير مؤثرة فى الرجال وهكذا. إذن، على المتكلّم أن يلاحظ هذه النقطة المهمة وينوّع فى أساليب بيانه سعياً فى التأثير على جميع المخاطبين وبمختلف مستوياتهم. مخاطبو القرآن المجيد اناس كانوا عهد البعثة، وسيكون له مخاطبون إلى يوم القيامة وفى أرجاء المعمورة وبأذواق وأفكار ومستويات وتطلّعات ومعلومات مختلفة فاستخدم أمثالًا متنوّعة علماً منه باختلاف البشر فى مختلف الجوانب. وبعبارة اخرى إنَّ كتاباً من هذا القبيل لا يمكنه أن يتحدَّث بأدبيات واحدة مع اختلافات وتنوّع مخاطبية، بل عليه تنويع أدبياته ليستوعبه الجميع. على سبيل المثال تحدّث القرآن عن نفسه بأنحاء مختلفة، ففى مورد يقول: «قَدْ جَاءَكُم مِنَ اللَّهِ امثال القران، ص: ۳۲۹ نُورٌ وكِتَابٌ مُبِينٌ» «۱» فشبَّه نفسه بنور الشمس حيث ينفذ فى كل مكان ويؤثر أثره حيث ينفذ. وفى مورد آخر يشبّه نفسه بالشجرة ذات الجذر والأصل الثابت والتى تثمر فى كلّ وقت وفصل، حيث يقول: «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طِيِّبةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبةٍ أَصلُهَا ثَابِتٌ وفَرْعُها فِى السَّماءِ* تُؤتِى أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّها وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأمْثَالَ للنَّاسِ لَعَلَّهُم يَتَذَكَّرُون» «۲». القرآن الكريم هو من ضمن التفاسير الواردة للكلمة الطيبة «۳»، فإنَّه بمثابة الشجرة المثمرة والطيّبة دائمة وعامة البركات ويمكن للجميع الاستفادة منها، كلٌّ حسب قابليته. وفى مورد آخر تحدث القرآن عن سعة كلامه الحق قائلًا: «قُلْ لَوْ كَانَ البَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبّى لَنَفِدَ البَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبّى وَلَوْ جِئْنا بِمِثْلِهِ مَدَداً» «۴». القرآن المجيد من التفاسير الواردة فى هذه الآية «۵». إنَّ بطون القرآن ومفاهيمه وتفاسيره ومصاديقه الجديدة كثيرة جداً بدرجة لا يكفيها استخدام بحار الأرض كمداد وحبر للكتابة. عندما نراجع كلمات المعصومين عليهم السلام نجدهم قد انتهجوا منهج القرآن فى الكلام مع المخاطبين، ويعبرون عن المطلب الواحد تعابير مختلفة ويستخدمون له بيانات متنوّعة. على سبيل المثال عندما يجيبون عن السؤال عن قدرة اللَّه يجيبون أجوبة متناسبة مع قابليات الأفراد وقدراتهم على الاستيعاب، لا حظوا النموذج التالى: امثال القران، ص: ۳۳۰ السؤال: قيل لأمير المؤمنين عليه السلام: هل يقدر ربّك أن يدخل الدنيا فى بيضة من غير أن تصغر الدنيا أو تكبر البيضة؟ الجواب: يجيب الامام على عليه السلام كما يلى: «إنَّ اللَّه تبارك وتعالى لا يُنسب إلى العجز والذى سألتنى لا يكون» «۱». لكن هذا السؤال غلط مِن الأساس؛ لأنَّ مفهوم هذا السؤال كون العالم كبيراً وصغيراً فى ذات الوقت، وهو من قبيل القول بأن موجوداً طوله عشرين متراً وعشر أمتار فى آن واحد، فهذا تناقض محال. ولو طلبت من طالب أن يقسّم عشرين جوزة بين ثلاثين طالباً على أن لا يصل لكلٍّ منهم أقل من جوزة كاملة ما استطاع الطالب فعل ذلك، فهل التقصير منه أو من طلبتك غير الممكنة؟ طبيعى أن لا تعكس هذه المسألة عجز الطالب بل انَّ المسألة غلط. الامام على عليه السلام عندما وجد فى السائل ذهنية جيدة ومعرفة بمسائل من قبيل التناقض والامكان وما شابه أجابه بما تقدَّم من جواب. ذات السؤال سأله آخر من الامام الرضا عليه السلام فكان جواب الامام الرضا عليه السلام مختلفاً عن جواب الامام على عليه السلام، فقد قال له: «نعم وفى أصغر من البيضة، وقد جعلها فى عينك، وهى أقل من البيضة؛ لأنك إذا فتحتها عاينت السماء والأرض وما بينهما، ولو شاء لأعماك عنها» «۲». وجواب الامام كان متناسباً مع عقلية المخاطب وقابليته وقدرته على الاستيعاب. النتيجة: هى ضرورة اختلاف الخطاب باختلاف المخاطب من حيث القدرة على الاستيعاب والقابلية على إدراك المفاهيم «۳»، وهذا لا يعدُّ نقصاً ولا يُحمل على قلة معلومات المتكلم بل يعد فناً عظيماً يكشف عن قدرة المتكلم على البيان، ولذلك على مبلغينا أن يلمّوا بألسن جميع المخاطبين وعقليّاتهم لكى ينفذوا فى قلوب الجميع ويؤثروا أثرهم وإلَّا فيُحرمون من الموفقية.

۲- منع الجدال

الجدال والمراء عن غير حق حرام فى الاسلام، ويعد من الكبائر، ولذلك لا يرضى الاسلام امثال القران، ص: ۳۳۱ بالمناظرات إلّاإذا قصد طرفاها اتّضاح الحق والحقيقة وكانا يبحثان عن الحق، أمّا إذا قصد كلٌّ منهما التغلّب على الطرف الآخر كان ذلك جدلًا محرماً. على المناظرين أن يتحلُّوا بشجاعة لقبول الحق، وهذا هو المطلوب فى الاسلام. فى مجال الجدال نقرأ آية وروايتين. ۱- جاء فى الآية ۳ من سورة الحج: «وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطانٍ مَرِيْدٍ». يجادل البعض حول التوحيد وحول اللَّه تعالى دون أن يكون له علم ومعرفة فى هذا المجال، ويطلق مجادلاته عن هوى وهوس، وهؤلاء المجادلون يعدون من أتباع الشيطان؛ لأن الشيطان رائدهم فى هذا المجال، وقد انحرف بواسطة الجدل، عندما أمره اللَّه بالسجود بصحبة الملائكة امتنع عن السجود مستخدماً القياس وقائلًا لربّه: خلقت آدم من تراب وخلقتنى من نار، والنار أفضل من التراب «۱». مع أن السجدة لم تكن لترابية آدم عليه السلام بل للروح الالهية التى نفخها اللَّه فيه. إذن، جدال إبليس هو الذى جلب له الشقاء، كما أنَّ المجادلين أتباع الشيطان المجادل. ۲- يقول رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فى رواية: «ما ضَلَّ قوم إلّاأوتقوا الجَدَلَ» «۲». وهذا الحديث يعنى أن الجدل سبب الضلالة. ۳- يقول الامام على عليه السلام فى رواية قصيرة: «الجَدَلُ فى الدين يُفسد اليقين» «۳». خلاصة ما تقدم كون الجدل غير المنطقى سبباً فى الضلالة ومفسداً لليقين، والمجادلون أتباع الشيطان، وما علينا هو الابتعاد عن الجدل والتسليم إلى الحق والخضوع له.

المثل الخامس والثلاثون: التوحيد والشرك

اشارة

الآية ۳۱ من سورة الحج تشكّل المثل الخامس والثلاثين، وقد جاء فيها: «وَمَنْ يُشرِكْ باللَّهِ فَكَأَنَّما خَرَّ مِنَ السَّماءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهوِى بِهِ الرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ».

تصوير البحث

المثال يحكى موضوعاً هو موضع اهتمام جميع الأديان، أى الشرك والتوحيد، فقد شبَّههما هنا بالسماء والسقوط منها، وسيأتى شرح ذلك.

الشرح والتفسير

«وَمَنْ يُشرِكِ باللَّهِ فَكَأَنَّما خَرَّ مِنَ السَّماءِ». فى هذه الآية شُبِّه التوحيد بالسماء والشرك بالسقوط من السماء ذات الشمس والقمر والنجوم، أى مصادر النور والضياء والبركات، مضافاً إلى أن السماء نفسها تحضى بجمال وعظمة خاصة. التوحيد مركز النور والعظمة الإلهية ويأتى للموحدين بالبركة والضياء، أمَّا الشرك فبمثابة السقوط من سماء التوحيد. مع الالتفات إلى هذه المقدمة تقول الآية: اولئك الذين امتنعوا عن توحيد اللَّه وجعلوا امثال القران، ص: ۳۳۴ شريكاً له وخرجوا عن صفوف الموحّدين بمثابة الذى يسقط من السماء، ومن الطبيعى أن لا يعيش الذى يسقط من السماء إلى الأرض. «فَتَخْطَفُهُ الطيرُ أَوْ تَهْوى بِهِ الرِّيحُ وفى مَكَانٍ سَحِيقٍ». المشرك الذى يسقط من السماء إلى الأرض لا ينجو؛ لأنه سيبتلى- وهو معلق فى الهواء- بأحد مصيرين نتيجة كلٍّ منهما الموت والفناء. الأول: أن يقع فريسة للطيور الجوارح آكلات اللحوم والجيف، بحيث كل طير منها تلتقم جزءً من لحمه، وعندها لا يصل إلى الأرض إلّاعظامه. الثانى: إذا لم يبتل بالطيور المتقدّم ذكرها فسيبتلى بالأثناء برياح وعواصف تلقيه فى مكان بعيد لا يصله انسان لكى ينقذه.

وخلاصة الكلام أن المشرك شُبِّه فى هذه الآية بالذى يسقط من السماء نحو الأرض ويبتلى فى الأثناء بطيور جوارح آكلة لحوم أو رياح وعواصف تلقى به إلى مكان سحيق يستحيل على انسان الوصول إليه.

خطابات الآية

۱- ما المراد من الطيور؟

لا يبعد أن يراد من الطيور المتقدّم ذكرها هو الاهواء «۱». المشرك مبتلى بالأهواء، فبعض من الأهواء تُذهب بماء وجه الانسان، وبعضها الآخر تُذهب بانسانية الانسان، وبعضها الآخر تُذهب بشجاعة الانسان أو مروّته أو غير ذلك، وفى النتيجة لا يبقى من الانسان المشرك شىء، بل طيور الأهواء والهوى والهوس تأكل كل ما لديه من شخصية وانسانية.

۲- ما المراد من الريح

قد يكون المراد من الريح التى أشارت إليه الآية والذى يلقى الانسان الساقط إلى أماكن امثال القران، ص: ۳۳۵ بعيدة يصعب الوصول إليها هو الشيطان الطاغى «۱»، فالمشرك إذا نجى من طيور الهوى والهوس قع أسيراً بريح الشيطان العاصى فيأخذ به إلى حيث لا ناصر ولا معين يعيش الضلال والشقاء.

۳- لا هدوء للمشرك

جاذبية الأرض من نِعم اللَّه علينا، فهى تسبب أن يكون وزن لكل شىء، ولولاها لما كان استقرار وثبات لشىء فى الكرة الأرضية. المنازل والمزارع والمعامل والمدارس والمستشفيات مستقرَّة فى مكانها بسبب وزنها والجاذبية التى ترد عليها. وهذه الجاذبية خاصة بالأرض وتقلُّ كلما ابتعدنا عن الأرض ومركزها، والأشياء تفقد أوزانها خارج ميدان جاذبية الأرض، ولذلك يدخل روّاد الفضاء دورات تعليم وتأقلم على الفراغ والفضاء الخالى من الجاذبية قبل رحلتهم الفضائية لكى يستعدوا لقضاء مدّة فى الفضاء. من سبل تجربة الفراغ وفقدان الجاذبية هو السقوط الحر من الأماكن المرتفعة، عندها يجرّب الانسان حياة لم يجرّ بها سلفاً، ولهذا يعتقد الأطباء أن كثيراً من الذين يسقطون من شاهق تحصل لهم سكتات قبل الوصول إلى سطح الأرض. يشعر المشرك عند سقوطه من السماء بحالة الفراغ والخلو من الوزن، وعندها تنتابه أحاسيس الاضطراب تخيّم على وجوده بالكلية، ويبدو أن الذى ينفصل عن التوحيد ويتوجّه نحو الشرك يودّع الهدوء والطمأنينة ويلتقى بالاضطراب والقلق، ولا يعود له الاطمئنان والهدوء إلّاتحت ظلِّ التوحيد وترك الشرك وعبادة الأصنام «أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ» «۲». وهذا أمر يقرُّ به حتى المشركون أنفسهم، فقد جاء فى الآية ۶۵ من سورة العنكبوت: «فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ»؛ وذلك لأنَّهم يعلمون جيداً بأنَّه لا أحد سيُرجع لهم الطمأنينة غير اللَّه، فيدعونه مخلصين له، أمَّا الأصنام فيعلمون بعجزها عن إنقاذهم، لكن امثال القران، ص: ۳۳۶ توحيدهم مؤقت ويعودون إلى الشرك تارة اخرى بعدما يصلون إلى السواحل حيث ترسو سفنهم. والخلاصة أن الشرك وعبادة الأصنام سبب للاضطراب والقلق، والتوحيد سبب للطمأنينة والهدوء.

۴- لا إرادة للمشرك

الانسان صاحب إرادة قبل السقوط، لكنه عندما يسقط ويعلق فى الفضاء تنسلب عنه الإرادة، ولا يستطيع تقرير شىء، والمشرك عندما يسقط من سماء التوحيد يكون كذلك ويفقد إرادته وقدرته على اتّخاذ قرار.

أهمية التوحيد

التوحيد أهم مباحث القرآن المجيد وباقى الكتب السماوية، وقد دعى الانبياء وأوصياؤهم الناس إليه وحذّروهم عن الشرك وعبادة الأصنام. لا مسألة أهم من التوحيد فى التعاليم الدينية، والشاهد على هذا آية من القرآن تكرّرت بالنص فى موضعين من سورة النساء، هما الآية ۴۸ و ۱۱۶، حيث جاء هناك: «إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُوْنَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ». واللافت هنا أن المراد من الغفران هنا هو الغفران دون توبة، أمّا مع التوبة فيُغفر الشرك كذلك. فإنَّ أكثر الصحابة باستثناء بعض قليل مثل الإمام على عليه السلام كانوا مشركين، وعندما أسلموا وتابوا غفر اللَّه لهم. إذا مات العاصى قبل أن يتوب فلا يُغفر له إن كان مشركاً ولا أمل فى غفرانه، أمّا إن كانت معصيته اموراً اخرى غير الشرك فيحتمل أن يغفر اللَّه له وأن يشفع له أولياء اللَّه، أمّا المشرك فلا يُغفر له ولا يُشفع له، فالشرك لا يقع موضع غفران ولا شفاعة. وهذا يكشف عن أهمية التوحيد وخطره وعظمته فى الحياة الدنيا وفى الآخرة، فالتوحيد ينبوع السعادات والشرك ينبوع الشقاء ودمار لكل حسنة. امثال القران، ص: ۳۳۷ سؤال: ما سبب أهمية التوحيد؟ وما سبب ذم الشرك وبغضه إلى هذا الحد؟ الجواب: فلسفة الأهمية البالغة للتوحيد والذم الشديد للشرك هى امور مختلفة نشير إلى بعضها: الأول: أول أثر وبركة للتوحيد هو اتّحاد المجتمعات البشرية. تختلف البشرية فيما بينها باللغات والأعراف والعقائد والأفكار والتقاليد والثقافة وما شابه ذلك، وفى بلد مثل ايران حيث يشكّل جزءً بسيطاً من العالم توجد لغات عديدة وثقافات وأقوام متنوّعة، وقس عليه باقى أرجاء المعمورة، ففيها آلاف اللغات والقوميات والثقافات، لكن يا ترى ما حلقة الاتصال بين البشر؟ وما نقطة الاشتراك بينهم؟ وإذا قرّرت الشعوب والحكومات العيش تحت ظلِّ حكومة عالمية واحدة فما الذى يشتركون فيه؟ لا شكَّ أن التوحيد المتجذّر فى معتقداتهم الأساسية يشكّل أهم عامل فى اتحادهم، فالتوحيد محور جيّد جداً للاتّحاد وحبل متين يمكن للجميع أن يتمسك به. يشير اللَّه إلى هذا المطلب فى الآية ۶۴ من سورة آل عمران قائلًا: «قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالوا إلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إلَّااللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ». تتجلَّى هذه الوحدة فى مراسم الحج على أرض الحجاز، حيث يمكن مشاهدة الملايين من المسلمين من بلاد مختلفة وبألوان ولغات وثقافات وتقاليد متفاوتة جميعهم محتشدين هناك متجهين نحو كعبة معبودهم، يبدون كالنهر الشفاف قاصداً الالتحاق ببحر الوحدة اللامتناهى ينبعون من قلل الانسانية العالية ويلتقون حول الكعبة معلنين خضوعهم وتسليمهم للحق تعالى. فى آخر صلاة جمعة قبل عرفة فى مكة المكرمة يشترك أكثر من مليون مسلم، وهى أعظم صلاة جمعة للمسلمين فى السنة، يصطفون جميعم فى صفوف العبودية ويرفعون أيديهم دفعة واحدة داعين ربَّهم معظّمينه وممجّدينه، فيركعون متّحدين، ويسجدون متّحدين، وبذلك امثال القران، ص: ۳۳۸ تتشكّل لقطات بديعة فريدة للاتحاد والتلاحم «۱». يا ترى كم ستزداد اللقطة جمالًا وبداعة لو أن رقعة الاتحاد تجاوزت المسلمين لتبلغ مستوى العالم بمختلف ثقافاته، تمسكاً بحبل اللَّه. إذن، الاتحاد من الآثار المهمة للتوحيد، وفى قباله الشرك الذى يؤدى إلى التفرّق والاختلاف. كان للعرب الجاهليين ثلاثمائة وستين صنماً، وهذا يعنى اختلافهم وتشتتهم إلى ثلاثمائة وستين فرقة صغيرة وانقسام مجتمعهم إلى هذا العدد رغم صغره، ومن الطبيعى أن لا يخلو هكذا مجتمع من نزاع وجدال وصراع وقتل وعصيان وأن لا يكون له نصيب من السعادة والهدوء، لكن هذا المجتمع اتَّحد وتماسك فى ظل التوحيد وهداية الاسلام ورسوله، وتفوّق عندها على جميع المجتمعات. الثانى: الأثر الآخر للتوحيد هو منحه الموحّدين قدرة وقوّة، كما أن الشرك يسلب عن المشركين قدرتهم ويجعلهم عاجزين. ما انفك المشركون عن حياكة المؤامرات ضد الرسول صلى الله عليه و آله والمسلمين عندما كانوا اقلية فى مجتمع مكة، فكانوا يأتون كل يوم بمؤامرة جديدة سعياً لإطفاء نور الاسلام وإخماد جذوته. جاء رؤساء قريش لأبى طالب فى يوم من الأيام لكى يعلنوا وقف اطلاق النار- كما يصطلح عليه حالياً- مع الرسول صلى الله عليه و آله وبعد النقاش الذى دار بين الطرفين قال الرسول صلى الله عليه و آله: مخاطباً أبا جهل: «أدعوهم إلى أن يتكلّموا بكلمة تدين لهم بها العرب ويملكون بها العجم»، فقال أبو جهل: ما هى وأبيك لنعطيكها وعشر أمثالها؟ قال: «تقولون لا إله الَّا اللَّه وتخلعون الأنداد من دونه» «۲». لا زالت هذه العبارة التى أطلقها رسول اللَّه صلى الله عليه و آله تشكّل طريق حلٍّ للبشر حيث عيوا امثال القران،

ص: ۳۳۹ الحروب والخلافات والنزاعات؛ وذلك لأن الرجوع إلى شجرة التوحيد الطيبة هو الحل الوحيد لحلِّ هذه المشاكل وبلوغ السلطة المتزامنة مع العزة والأمان والهدوء والطمأنينة والعدالة الحقيقية. تعالوا نفكر ونتأمل فى كيفية تبديل الاسلام عرب الجاهلية فى مكة والمدينة، الذين كانوا غارقين بالاختلاف والنزاعات الدامية، إلى اناسٍ مقتدرين وذوى عزّة استطاعوا تحت ظلِّ الاخوّة والاتحاد أن يفتحوا شرق الأرض وغربها فى أقل من نصف قرن؟ ألم تكن تلك العظمة ثمرة للتوحيد والتمسك بحبل اللَّه؟ الثالث: التوحيد يأتى بالهدوء والطمأنينة إلى المجتمع. السبب الأساس للجرائم والمعاصى فى الدنيا هو الشرك وعبادة الأصنام، والشرك لا يقتصر على عبادة الأخشاب والاحجار بل يشمل كل عبادة لغير اللَّه من المقام والهوى وما شابه، فهذه كلها شرك نوعاً ما، والانسان عندما يعبد هذه الامور يغفل عن اللَّه فيرتكب الكثير من الذنوب والمعاصى والجرائم. تقدّمت الاشارة إلى رواية حكت أن الشيطان قبّل أول درهم ودينار ضربا فى الأرض، ونظر إليهما ووضعهما على عينيه ثم ضمهما إلى صدره ثمّ قال: «أنتما قرَّة عينى وثمرة فؤادى ما أُبالى من بنى آدم إذا أحبوكما أن لا ـ يعبدوا وثناً، حسبى من بنى آدم أن يحبوكما» «۱». لازال الشرك رائجاً فى عصرنا رغم حلول الفكر والتعقل مكان الجهل، فكم من جرائم تُرتكب لأجل جمع المال واكتنازه؟ لا هدوء ولا أمان فى مجتمعات هذا العصر، بل النزاع والاضطراب هو الحاكم فيها، ولو كانت المجتمعات موحِّدة لحلَّ فيها الأمان والطمأنينة والهدوء. لبلوغ المجتمع الموحِّد علينا كسر أصنام أنفسنا، وعلينا مراجعة معبد الأصنام الكائن فى قلوبنا بين الحين والآخر لنكسر الأصنام التى تكوّنت فيها. ما أحلى القلوب التى شأنها شأن الكعبة بعد الاسلام حيث تكسَّرت جميع الأصنام التى كانت فيها. إنَّ قلوب البعض تشبه الكعبة قبل الاسلام حيث كانت تكتض بالأصنام، لكن أصنامها من نوع الثروة والمال والنساء والأولاد والجاه والمقام والأمانى وغيرها. القلب بيت اللَّه علينا تطهيره من كل الأصنام، ومن صدأ الشرك لكى نشاهد من خلاله صاحب البيت الأصلى. امثال القران، ص: ۳۴۱

المثل السادس والثلاثون: عبادة الأصنام

اشارة

جاء فى الآية ۷۳ من سورة الحج: «يَا أَيُّها النّاسُ ضُرِبَ مَثلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُباباً وَلَو اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالمَطْلُوبُ».

تصوير البحث

هذا المثل حول الشرك والتوحيد، كما هو حال المثل المتقدّم، وهما تنويع لبيان مطلب واحد، لعلّ ذلك يفيد الجميع؛ باعتبار اختلاف مستوياتهم. واللَّه تعالى ضرب مثلًا هنا صوَّر فيه ضعف وعجز الأصنام وعبدتها.

ماهية عبادة الأصنام

عبادة الأصنام من المسائل المعقّدة، يمكن الإجابة عن بعض أسئلتها التالية: ما الأهمية التى كان يوليها عبدة الأصنام لأصنامهم؟ هل كانوا يعدّونها خالقهم وربّهم؟ وإذا كان الجواب إيجابياً فكيف يمكن للانسان العاقل أن يعتبر شيئاً قد صنعه بيده خالقاً له؟ وإذا كان الجواب سلبياً فما تبرير عملهم الجاهلى تجاهها؟ طرح القرآن الكريم هذه التساؤلات، كما أجاب عنها. جاء فى الآية الثالثة من سورة الزمر: امثال القران، ص: ۳۴۲ «أَلا للَّهِ الدينُ الخَالِصُ وَالَّذِين اتّخَذُوا مِن دُونِهِ أوْلياءَ مَا نَعْبُدُهُم إلَّالِيُقرِّبُونا إلى اللَّهِ زُلْفى إنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فى مَا هُمْ فيهِ يَخْتَلِفُون». كما جاء ما يلى فى الآية ۱۸ من سورة يونس: «وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ ويَقُولُونَ هَؤلاءِ شُفَعاؤنا عِنْدَ اللَّهِ». وفقاً لما ورد فى هاتين الايتين فانَّهم ما كانوا يعدون الأصنام خالقين، بل كانوا يعتقدون بخالقية اللَّه تعالى،

لكنهم كانوا يولونها قداسة خاصة ويعتبرونها شافعة وواسطة جيدة بينهم وبين ربّهم، فهى تشفع لهم. هذا شأن غالب المشركين، لكن بعضاً قليلًا منهم كانوا يعدون الأصنام خالقين، أمَّا الأغلب فما كانوا يحملون هذه العقيدة، وكانوا يعبدونها لأجل أن تقرّبهم إلى اللَّه خالقهم، فيطلبون منها السعادة والسلامة والسعة والبركة وما شابه ذلك، وبذلك نسوا اللَّه تدريجياً لتصبح الأصنام المعبود المستقل والمناجى الأصيل. سؤال: البيانات المتقدَّمة أوضحت مدى تعقّد عمل المشركين، لكن يبقى سؤال وهو: كيف يمكن للانسان العاقل أن يسجد لشىء صنعه بيده ويعتبره واسطة ينال به من فيض اللَّه، ويعتبره مقدّساً إلى درجة قد يضحّى لأجله انساناً آخر. الجواب: لم تكن أصالة للأصنام فى الأيام الاولى من بداية عبادتها، أى بداية الانحراف الكبير، فقد كانت عندهم نموذجاً للمقدسات. على سبيل المثال لو جاء نبى أو وصى إلى بلدة عُدَّ عندهم واسطة بينهم وبين اللَّه تعالى وحضى باحترام خاص، باعتبار هذه العلاقة، وعندما يتوّفاه اللَّه يُصنع له نصب تذكارى لكى يستمر التقديس والاحترام، لكن هذه العلاقة المفروضة تُتناسى بمرور الزمان بحيث يتَّخذ النصب ذاته طابعاً مقدساً، ولا ـ يتداعى فى أذهان الناس العلاقة الاولى لصاحب النصب وخالقه، بل يصبح النصب بذاته وعلى نحو الاستقلال مقدساً فيُعبد. وهذا هو حال الانصاب والتماثيل التى تُصنع لغرض الإشارة إلى مصادر البركة والنور من الشمس والقمر وما شابه، فإنها تُعبد تدريجياً وبعد مرور زمن. ومن هذا القبيل كذلك أن يؤتى بحجر من مكان مقدس مثل الكعبة فتوضع فى مكان لكى يتذكّر الحاج سفره الروحانى إلى بيت اللَّه متى ما انتبه إلى الحجر، لكن بعد فترة من الزمن تُنسى هذه العلاقة ليصبح الحجر بعد ردح صنماً ومعبوداً بحد ذاته. امثال القران، ص: ۳۴۳ أو من قبيل ما يعتقده البعض من أن اللَّه تعالى أرفع شأناً من أن تحيط به الأفكار، ولا يمكن للأفكار أن تفعل ذلك، ولا فائدة فى ربٍّ لا تحيط به الأفكار، لذلك ينبغى أن نبحث عن مخلوقاته التى هى فى متناول أيدينا ويمكن للأفكار أن تحيط بها فنعبد بعضاً منها. وهذا ممَّا نجده عند بعض الفرق الصوفية المنحرفة، فالمرشد لهذه الفرق يقول لمريديه: عندما تصلون للآية: «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينَ» فى الصلاة تصوّروا مرادكم ومرشدكم، وهذا هو نقطة بداية الانحراف نحو الشرك. على أى حال، كان للأنبياء والرسل أطول مواجهة مع الشرك والمشركين؛ لكون الشرك بلاءً كبيراً على الانسانية فى الماضى والحاضر.

أساليب مواجهة عبادة الأصنام

سؤال: ضرورة مواجهة الشرك وعبادة الأصنام أمر بديهى وواضح، لكن ما هى أساليب هذه المواجهة؟ وما هى الأساليب التى اختارها الأنبياء والأوصياء لمواجهة هذه الظاهرة؟ وكيف كان تعاملهم مع هذا الانحراف الخطر والعظيم والمعقَّد؟ الجواب: وفقاً لما جاء فى القرآن المجيد فإن الأنبياء سلكوا أساليب متنوّعة لمواجهة الشرك وعبادة الأصنام نشير إلى نماذج منها: الأول: تعريف الناس وبخاصة المشركين بخالق الكون الأصيل. وقد أشار القرآن إلى هذا الاسلوب فى الآية ۶۱ من سورة العنكبوت من خلال طرح سؤال والإجابة عليه، حيث جاء هناك: «وَلَئِنْ سَأَلتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماوَاتِ والأَرْضَ وسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فأَنَّى يُؤْفَكُونَ». أى أنَّ اللَّه خالقنا ورازقنا وولى نعمنا وملجأنا ومحيينا ومميتنا، وإذا كان كذلك فلماذا نعبد أصناماً من دونه؟ ألا ينبغى للانسان أن يسلِّم نفسه لولى نعمته ويخضع له؟ سعى الأنبياء لإيقاظ فطرة المشركين ومسح الغبار عنها لربطها بخالقها الأصلى وتوحيدهم إيّاه. امثال القران، ص: ۳۴۴ الثانى: تحقير الأصنام وبيان عجزها وكذبها أمام القدرة الإلهية، وذلك يقلّل من قداستها وقيمتها عند المشركين. فى هذا المجال تُطرح على المشركين أسئلة من قبيل: هل تدرك هذه الأصنام ما يدور حولها من شؤون؟ أو هل يمكنها الإجابة على أسئلتكم؟ أو هل هى قادرة على حل مشاكلكم؟ من الواضح أن السلب هو جواب هذه الأسئلة جميعها، وإذا كان الواقع كذلك كان ذلك يعنى أنها عمياء صماء ولا إرادة لها، وعلى هذا كيف يمكن لها أن تكون حلالة لمشاكلكم؟ فى القصة المعروفة عن النبى إبراهيم عليه السلام عندما سئل عَمَّن كسر الأصنام وحطّمها أجاب: «بَلْ فَعَلَهُ كَبيرُهُمْ هَذا فَسْأَلُوهُمْ إنْ كَانُوا يَنْطِقُون» «۱». القرآن ينقل جواب المشركين كالتالى: «فَرَجَعُوا إِلى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ثُمَّ نُكِسُوا على رُءوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤلاءِ يَنْطِقُونَ» «۲». عندما شاهد فيهم

إقراراً على عدم امكانية تكلم الأصنام فضلًا عن دفاعها عن نفسها بدأ بذمّها تحقيرها والمشركين كذلك وقال: «قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلا يَضُرُّكُمْ افٍّ لَكُمْ ولِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلونَ» «۳». سعى إبراهيم عليه السلام من خلال تحقير الأصنام وبيان ضعفها وكونها ليست منشأً لا للخير ولا للشرِّ لتنبيه المشركين إلى سوء عملهم وبطلان اعتقادهم. الثالث: إيقاظ وجدان المشركين النائم وتوظيف هذا الوجدان فى هذا الطريق، وقد أشارت الآية ۶۵ من سورة العنكبوت إلى هذا الاسلوب حيث تورّط المشركون فى السفينة وسط البحر بأمواج عظيمة شعروا إثرها بقرب موتهم فاذا بهم يدعون اللَّه مخلصين له وطالبين منه المعونة. وهذا يكشف عن لجوئهم إلى اللَّه فى المعظلات حيث ينقطع أملهم بكل شىء غيره وتنغلق عليهم الأبواب إلّابابه، ويعرفون عندئذٍ أن لا معبود أهل للعبادة غير اللَّه تعالى. امثال القران، ص: ۳۴۵ الآية التى هى موضع بحثنا بيان لضعف الأصنام وعجزها، ولمزيدٍ من الإيضاح نشرع بتفسيرها.

الشرح والتفسير

اشارة

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فاستمِعُوا لَهُ». التعبير بضرب مثل قد يكون لأجل أن هذا المثل الجميل وذات المغزى كان دارجاً بين الموحدين منذ الأزمان الماضية ولم يكن جديداً، رغم ذلك طرحه اللَّه هنا تارة اخرى لكونه ذات طابع تربوى عالٍ ويحتوى على عبرٍ جيدة. «إِنَّ الَّذينَ تَدْعُون مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَو اجْتَمعُوا لَهُ». الأصنام التى يعبدها المشركون ويسجدون ويركعون لها ضعيفة إلى درجة أنَّها غير قادرة على خلق ذبابة، كحشرة صغيرة، بل ان اصنام العالم كلها لو تكاتفت واجتمعت لأجل خلق ذبابة واحدة ما استطاعت عمل ذلك. «وإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ». بل ضعف الأصنام أشدّ ممَّا ذكر، فلو أنَّ الذباب أخذ من الأصنام شيئاً ما كانت قادرة على استرجاعه، فهى لا إرادة لها ولا قدرة على عمل شىءٍ ما، أى أنَّها لا تنفع ولا تضرُّ ولا قابلية لها لدفع الشر عن عبادها؛ لأنَّها غير قادرة عن الدفاع عن نفسها فضلًا عن الغير. يقال: كان المشركون فى أيام خاصة من السنة، كأيّام العيد يطلون أصنامهم بالعسل والزعفران أو بموادٍ مشابهة لهما مما يجعلها ملجأً ومصدر طعام للذباب، وتستمر الذباب بالتردّد والحوم حول هذه الأصنام حتى آخر قطرة من العسل، وإذا أخذت الذباب ذرة بسيطة من هذا العسل فإنَّ الصنم غير قادر على استرجاعه «۱»، ولهذا يخاطبهم اللَّه قائلًا: إنَّها أصنام ضعيفة عاجزة عن استرجاع ماسُرِق منها من العسل، فكيف يمكن للانسان أن يطلب منها العون والمساعدة. امثال القران، ص: ۳۴۶ «ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالمَطْلُوبُ». نقلت احتمالات متباينة فى تفسير هذه الجملة، يبدو أن اثنين منها أقوى من الباقى: الاول: المراد من الطالب الذباب، ومن المطلوب الصنم، أى أن الذباب ضعيف، كما هو حال الصنم. الثانى: المراد من الطالب عبدة الأصنام (المشركون)، ومن المطلوب الأصنام، أ ىأن الأصنام وعبدتها كلاهما ضعيفان، أما ضعف الأصنام فواضح، وأمَّا ضعف المشركين، فباعتبار ضعفهم الفكرى والعقائدى. أراد اللَّه هنا التذكير بنقطة هى أن اللَّه هو الوحيد القادر على حل مشاكل الانسان لا الموجود الضعيف والعاجز عن الدفاع عن نفسه. تتداعى هنا عدّة أسئلة:

۱- هل هناك تشبيه فى آية المثل؟

بحث المفسرون قضية الضعف وما إذا كان قد شُبِّه فى الآية بشىءٍ ما أو لا، فبعض قال: لا يوجد تشبيه فى الآية، والحديث فيها عن ضعف الأصنام وعجزها عن خلق موجود صغير مثل الذباب، ولم يشبّه المسألة بشىءٍ ما، وهو كلام أوقع ذلك البعض بمشاكل، وبرأينا مفردة (مثل) ذات معنيين: الاول: المَثَل تعنى الشبيه والمِثْل، وهو تشبيه لأمر معقول خارج عن الحس والتجربة بأمرٍ محسوس. الثانى: المَثَل بيان لمصداق واضح لأمرٍ ما. والمراد من المثل فى الآية هو المعنى الثانى؛ لأن اللَّه أراد أن يبيّن بالآية ضعف عبادة الأصنام

وعقيدة المشركين فى الأصنام، وبذلك حكى مصداقاً واضحاً لهذا الضعف والعجز فى قالب المثل المزبور.

۲- هل الذباب موجود حقير؟

لم يشر القرآن إلى الذباب إلّافى هذه الآية، وهو موجود يبدو للانسان حقيراً وفاقداً للقيمة، فهل هو كذلك حقاً؟ الجواب: ينبغى القول هنا: الذباب لا أنه موجود قيّم فحسب بل من عجائب المخلوقات ومن آيات اللّه. فهذا الموجود رغم صغرة يحتوى على جهاز تنفّس وهضم وفم ولسان ومعدة وأمعاء وجهاز أعصاب وفهم وإدراك وعضلات قوية جداً، بحيث يمكنه تحريك أجنحته بها بسرعة، وله أعضاء اخرى كذلك. اللافت أنه يحضى ببنية هى أكثر تعقيداً ودقة من طائرة كبيرة، ويُعدُّ صناعة طائرة كبيرة أبسط من خلق ذبابة؛ فإنَّ الطائرة لا إدراك لها ولا شعور ولا إرادة ولا جهازاً تناسلياً، وغير قادرة على إعداد غذاء لنفسها ولا يمكنها الدفاع عن نفسها، أمّا الذبابة فلها القابلية على جميع ما تقدَّم. إذن، الذباب من عجائب المخلوقات حقاً، ولا أحد قادر على خلق هذا الموجود، رغم التطوّر والتقدُّم العلمى الكبير الذى حصل فى‌مجالات علمية مختلفة، عندئذٍ يُطرح سؤال آخر. على عتبة القرن الحادى والعشرين سمعنا أن الانسان أصبح قادراً على الاستنساخ، وذلك يعنى تمكنه فى ظروف خاصة من خلق انسان أو حيوان من جزء صغير جداً من أجزاء انسان أو أى حيوان آخر، والنتيجة هى: خلق موجود دون ام وأب، وهذا يكشف عن قدرة الانسان على خلق ما هو أعظم من الذباب، فكيف يمكن عدّه عاجزاً عن خلق ذبابة؟ فى الجواب نقول: لا ـ يمكن عدّ هذه العملية خلقاً، بل هى من قبيل غرس شتلة مأخوذة من شجرة لتصبح بعد مدة شجرة ضخمة ومثمرة، وجسم الحيوانات والانسان من قبيل الأشجار التى يمكن إيجاد أشجارٍ شبيهة لها بعد قطع جزءٍ صغير منها وشتله فى مكان آخر، فيتحوّل بعد فترة شجرة كبيرة؛ والتناسخ من هذا القبيل، وبخاصة أنا نعتقد كون خلية الانسان تحتوى على كل خصوصيات الانسان، وتبقى قضية الحياة لغزاً من الألغاز لم يُحل بعد.

جسر نحو التوحيد فى شهر التوحيد

مهما كنَّا ومهما استطعنا نبقى ضعفاء أمام القادر المطلق، ومرض السرطان المهلك من نماذج ذلك الضعف. تنمو خلايا الجسم بنحوٍ منتظم ومتوازن، لكن قد تكون هناك خلية يخرج نموّها عن حاله الطبيعى فتنمو أكثر ممَّا ينبغى أن تنمو وتكبر كثيراً لتتحوَّل إلى غدّة تشلُّ عضلات جسم الانسان تدريجياً، والانسان رغم تقدّمه وتطوّره علمياً ما استطاع أن يجد علاجاً لهذا المرض، وقرابينه تزداد كل يوم، هذا مضافاً إلى المرض الجديد الذى يُدعى (الايدز)، وذلك هو قول اللّه: «ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالمَطْلُوبُ». إلهى، العزة لك والقدرة لك والعلم لك والحياة والممات بيدك، وكل شىء منك، والسعادة منك نعبدك وحدك لا شريك لك «إنَّكَ عَلَى كُلِّ شىءٍ قَدِيرٌ» «۱».

المثل السابع والثلاثون: ذات اللّه لا مثيل لها

اشارة

الآية ۳۵ من سورة النور تشكل المثل السابع والثلاثين من أمثال القرآن الجميلة، يقول اللّه فيها: «اللَّهُ نُورُ السَّمَاواتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ المِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيتُونَةٍ لَّاشَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىءُ وَلَو لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهدِى اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأمْثَالَ للنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَىءٍ عَلِيمٌ».

تصوير البحث

هـذا المثل من أهم أمثال القرآن المجيد، وقد هَمَّ المفسـرون والعرفاء بتفسـيره، وكلَّ من الطائفتين ذكر له تفسـيراً خاصاً، والآيهٔ تمثيل بيّن وبليغ لذات اللَّه تعالى، حيث شبّهته بالنور، ويأتى شرحه.

الآيهٔ تشتمل على مثلين

فى الآيـهٔ مثلان، الأول هو المسـتبطن فى العبارهٔ: «اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ والأرْضِ»، والثانى هو الذى تسـتبطنه باقى عبارات الآيهٔ. نحن على يقين بـأن اللَّه تعـالى ليس نوراً محسوساً لـذلك علينا تقـدير كاف التشبيه فى الآيـهٔ لتكون كالتالى: اللَّه كنور السـماوات والأرض، فان تجسيم اللَّه تعالى أمر محال ذاتى. وعلى هذا تكون الجملهٔ الاولى لوحدها مثالًا.

هل يجوز التمثيل لذات اللَّه؟

هل يجوز لنا أن نمثّل لـذات الخالق تعالى ونشبِّه ذلك الموجود المعنوى الواجب الوجود بموجودات ماديـهٔ ممكنـهٔ الوجود؟ الجواب بالايجاب والسـلب معاً، فلا إشـكال فى التمثيل وفقاً لما جاء فى الآيـهٔ الكريمـهٔ، فإنَّ اللَّه نفسه مثّل لـذاته، لكن التمثيل ممنوع كـذلك وفقاً لما جاء فى الآيـهٔ ۷۴ من سورهٔ النحـل، فقـد جـاء هناك: «فَلا تَضْـرِبُوا للَّهِ الأمثالَ إنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وأنتُمْ لا تَعْلَمُونَ». وإذا كان التمثيل ممنوعاً وفقاً لما جاء فى الآيـهٔ الأخيرهٔ لماذا مثَّل القرآن لـذات اللَّه فى الآيهٔ ۳۵ من سورهٔ النور؟ جاء الجواب على هـذا السؤال فى ذيل الآيهٔ ۷۴ من سورهٔ النحـل، فقـد ورد هناك: «إنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وأنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ»، أى أنَّه لا مانع من التمثيل للَّهمن قبل اللَّه نفسه، أمَّا التمثيل له من قبلكم فلاـ يجـوز؛ لأـنكم لاـ تعلمون بمـا تمثّلون به، فقـد تمثّلون لـذاته بمـا يثبت النقص له، بينمـا هو لاـ يمثِّل لـذاته إلَّاالتمـثيل المناسب؛ لأنَّه يعلم بـذاته والانسان لا يعلم بها. شأن نزول الآيـهٔ ۷۴ من سورهٔ النحل هو أن المشـركين كانوا يبرّرون عبادتهم للأصـنام بالقول بأنَّ اللَّه بمثابهٔ الملك والأصـنام بمثابهٔ وزراء له، وبما أنَّه لا يمكن الوصول إلى الملك فنقترب إلى الوزراء ونتمسك بهم تقرُّباً إلى الملك «۱». نزلت هذه الآيهٔ لردِّ التبرير المتقدِّم، معلنهٔ منع التمثيل لذات اللَّه على الاطلاق، مغلِّطهٔ ذلك التمثيل؛ وذلك باعتبار أنَّ الملـك أو أى انسـان آخر موجود ضـعيف ومحـدود من حيث الزمان والمكان، فلا يمكن للجميع الوصول إليه، أما اللَّه العالم والقادر فهو موجود وحاضر فى كل مكان وزمان وفى قلب كل انسان، وهو أقرب إليه من حبل الوريد، والاتّصال به ممكن وسهل للجميع، بل أسـهل من الاتّصـال بالام والأب والزوج والأخ والاخت والولـد؛ وذلك لأنه غير محـدود ويمكن مناجاته وخطابه فى كل لحظـهٔ وآن، وفى النـوم واليقظـهٔ، وعنـد القيـام والقعود، وفى الصـحارى والبوادى، وفى الشوارع، وتحت أى ظرف من الظروف. امثـال القران، ص: ۳۵۱ يصف اللَّه العلماء فى الآيـهٔ ۱۹۱ من سـورهٔ آل عمران قائلًـا: «الَّذِينَ يَـذْكُرُونَ اللَّه قِيامـاً وقُعُوداً وعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرونَ فِى خَلْقِ السَّمَـاوَاتِ والأرضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـذَا باطِلًا سُـبْحانَكَ فقِنا عَـذابَ النَّارِ». إذن، لا مشـكلهٔ فى الاتصال باللَّه والتواصل معه لكى نحتاج لإيجاده إلى واسـطهٔ مثل الأصـنام، ولهذا لا يمكن تشبيه اللَّه بموجود ضـعيف عاجز، فهو يسمعنا ويرانا عند الصلاهٔ التى ندعوه فى كل واحدهٔ منها مرّتين على أقل تقدير ونقول: «إيَّاكَ نَعْبُدُ وإيّاكَ نَسْتَعِينُ»، ولا يمكن قياسه مع ممكن الوجود. ونتيجهٔ ذلك: عدم امكانيهٔ التمثيـل للَّهإلَّامن قبـل اللَّه نفسه فحسب. بـالطبع، مـا تُضـرب له من أمثـال توضِّح بعض الجهـات من وجوده وتعيننا على معرفـهٔ جوانب خاصـهٔ منه، ولا تمثيل يُبيّن جميع أبعاد وجوده فهو «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَـىءٌ» «۱» ؛ باعتبـار أن المخلوقات جميعها فانيـهٔ أما هو فباقٍ، كما أنَّ كلَّ شىء متناهٍ وهو غير متناهٍ، وكل المخلوقات ضعيفهٔ وجاهلهٔ، وهو قادر وعالم.

الشرح والتفسير

اشارهٔ

«اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ والأرْضِ». لأجل اتّضاح هـذا المثل الذى شُبِّه فيه وجود اللَّه المقدس بنور السـماوات والأرض علينا دراسة خواص النور. نور الشمس هو المصداق الباز والكامل للنور، وله خواص وآثار متعدِّدة، أهمها أربع:

۱- الهداية

يمكن الاهتـداء بالنور، ويمكن اسـتخدام نور القمر والنجوم لهـذا الغرض. ولهـذا يضلُّ الانسان فى الليالى المظلمـة. فالاهتـداء أثر مهم للنور.

۲- التربية والنمو

الأـثر المهم الآـخر لنور الشـمس هو النمو، فالانسـان والحيوانـات والنباتـات وجميع الموجودات الحيـة تنمو وتتربّى برعايـة هـذا النور، وتنعـدم الحياة أينما انعدم النور. نور الشـمس ينفذ إلى عمق ۶۰۰ أو ۷۰۰ متر فى البحر، وتبـدأ الظلمات الخالصـة فيما بعد هذا العمق، ولأجل ذلك كان العلماء يتصوّرون كون الحياة منعدمة فى تلك الظلمات، بينما عثروا على موجودات حية فيها. والسؤال المطروح هنا هو: كيف أمكن للموجودات أن تعيش وتتربى فى هـذه الأعمـاق دون نور؟ الحقيقـة أنَّ هـذه الموجودات تنـال نصـيباً من النور؛ لأـن بعض الأغذية التى تُعدُّ فى المستويات الأعلى من هذه البحار تسقط إلى تلك الأعماق لتتناولها الموجودات هناك. وهذا يعنى أن اللَّه قد أعدَّ مطبخاً واسعاً بحجم سطح البحار لإطعام الموجودات الحية فى البحر. فالنمو والتربية والحياة أثر مهم آخر للنور.

۳- إيجاد القدرة والحركة

الأـثر المهم الآـخر لنور الشـمس كمصـداق أكمـل للنور هو إيجـاد القـدرة على الحركـة وإيجاد الطاقـة. يعتقـد العلماء أن منشأ الطاقة الموجودة هو نور الشـمس، والحرارة التى تصدر من الحطب عند احتراقه هى فى الحقيقة نتيجة لادّخار نور الشـمس فى الحطب عندما كان شـجرة تنمو بنور الشمس، وتتحررّ هذه الطاقة عند احتراق الحطب لتتبدل إلى قوّة محرّكة. يُعدُّ الفحم الحجرى من مصادر الطاقة، وقد حصل على طاقته من الشـمس كذلك؛ لأنَّه- وفقاً لاكتشافات العلماء- عبارة عن بقايا لأشـجار تحجّرت فى باطن الأرض تدريجياً لتصـبح فحماً بعد مرور زمن طويل. النفط من أهم مصادر الطاقة فى عصـرنا الراهن، وقد اكتسب طاقته من الشمس كذلك؛ لأنه عبارة عن بقايـا حيوانـات تربّت فى البحر وتفسّـخت بعـد جفـاف البحـار إثر تحولاـت امثـال القران، ص: ۳۵۳ وانقلابـات تحصـل على وجه الأرض، تُـدفن بعـدها بقايا هـذه الحيوانات لتتـدّل بمرور الزمان إلى مادة سوداء معروفة بالنفط. ومن الواضح أن الحيوانات تتغذى من النباتات، والأخيرة تنمو بفضل نور الشـمس. الكهرباء من مصادر الطاقـة المهمـة، وهى كباقى مصادر الطاقـة تنال قـدرتها من الشـمس كـذلك، فمـاء البحر يتبخّر بواسـطة نور الشـمس ويصـعد إلى الطبقـات العليـا من الجو، ثمّ يتبـدّل البخار إلى غيث يسـقط على سـطح الأـرض، فتتبـدل قطراته إلى قنوات وأنهـار يُـدَّخر ماؤها خلف السـدود، ويوضع فى السـدود محركات تربينيـة تُحرَّك من خلال الماء المتجمّع خلف السـدود عنـدما تُفتح منافذ له نحوها. الريح هو الآخر من مصادر الطاقة، وهو يحصل بفضل نور الشـمس. والنتيجة: كل مصادر الطاقة فى عالم المادة تستلهم قوتها وقدرتها من نور الشمس.

۴- رفع موانع الحياة

من الآثـار المهمّـة الاـخرى لنور الشـمس هو كونه بمثابـة مضـاد حيوى للميكروبـات، فهو يعمـل على تطهير الأـرض من الميكروبـات والبكتيريا المضـرّة، والشـمس عندما تسـطع تقتل هذه الموجودات إذا نالتها إشـعاعات من الشمس، ولو لم يكن نورها لتبدّلت الأرض إلى مستشـفى واسـعة ومقبرة عظيمة. إذن، تعدُّ الهداية والتربية وايجاد القدرة والطاقة ورفع موانع الحياة من الآثار المهمّة لنور الشمس.

ومع الالتفات إلى الخصائص المتقدِّمة لنور الشمس نبتُّ بشرح الآية الشريفة، لكى يتّضح كيفية تشبيه اللَّه بنور السماوات والأرض. كما أن النور سبب للاهتداء كذلك اللَّه تعالى، فهو مرشد وهادى الموجودات جميعها، المادية منها والمعنوية، وقد جاء فى الآية ۵۰ من سورة طه: «رَبَّنا الَّذِى أعْطَى كُلَّ شَىءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى . هداية اللَّه للموجودات تختلف باختلافها، فيهدى اللَّه بعضها بالهداية الغريزية وبعضها امثال القران، ص: ۳۵۴ الآخر بالهداية الالهامية وبعضها من خلال التعاليم التى يأتى بها الإنبياء والأوصياء، والمسلَّم هو أن الموجودات كلها مشمولة بهداية اللَّه تعالى، ولو لم تكن هدايته لما اهتدى موجود أبداً. على سبيل المثال، توجد طيور لا تعرف امها ولا ـ أبيها؛ لأنها لم ترَ والديها أبداً، فهما يموتان قبل تفقس البيوض، رغم ذلك نرى الفراخ تَخرج من البيوض وهى تعلم منهج حياتها من الطيران والبحث عن الطعام واختيار الطعام المناسب والتزاوج والتلاقح وصناعة العش وما شابه ذلك، فكيف أمكنها تعلُّم ذلك دون أن يكون لها مرشداً من أب أو ام؟ ذلك عين الهداية الغريزية والتكوينية التى منحها اللَّه سبحانه للموجودات، «الذى أعْطَى كُلَّ شَىءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى»! شملتنا نحن البشر الهداية التكوينية والتشريعية كذلك، فمن الذى علَّم حديث الولادة أن يمصَّ ثدى امه؟ ومَن عَلَّمه أن يبكى عندما يشعر بالجوع أو العطش أو الألم؟ هذه كلها من مصاديق الهداية التكوينية، أما الهداية التشريعية فهى التى شملتنا بواسطة تعاليم الرسل والأنبياء والأئمة. كما أنَّ نور الشمس يربّى الموجودات ويجعلها تنمو كذلك اللَّه خالق الموجودات فهو يربّيها، ولهذا اطلق عليه (رب العالمين)، ونكرّر هذه الصفة مرّتين فى كل صلاة نصلّيها. تربية اللَّه للانسان تبدأ منذ انعقاد النطفة وتستمر حتى نهاية عمره، ولو انقطع فيض اللَّه ورعايته لنا لحظة واحدة انتهينا جميعاً، ولهذا نقول بأن حياة جميع الموجودات بيد اللَّه الحسيب. الأثر الآخر لنور الشمس هو كونه منشأ للطاقة، واللَّه تعالى منشأ لجميع الطاقات المتصوّرة فى العالم حتى الشمس التى هى منشأ كل طاقة مادية على وجه الأرض، فهى من مخلوقاته تعالى وتستلهم طاقتها منه، ولو انقطعت فيوضات اللَّه تعالى عن الشمس للحظة واحدة لتلاشت بحيث لا يبقى منها شىء رغم عظمتها وضخامتها، ولهذا يُقال: (لا حول ولا قوّة إلّاباللَّه العلى العظيم). اللَّه عظيم يمكنه منح المخلوقات حركة وقدرة وقابلية، وهو الوحيد القادر على خلق موانع مادية للحركة، وقادر كذلك على رفعها، فلو أراد تلاشت كل قدرة، أمَّا البشر فضعيف إلى امثال القران، ص: ۳۵۵ درجة قد يقتله ميكروب أو فيروس لا يمكن رؤيته إلّابمجهر قوى. علينا التدقيق فى عبارات تتردَّد على ألسنتنا كثيراً من قبيل: (لا حول ولا قوّة إلّاباللَّه) أو (بحول اللَّه وقوّته أقوم وأقعد)، فإن التدقيق فيها يوصلنا إلى نيتجة هى: لو رفع اللَّه فيضه عن الانسان لفقد الانسان كل قواه ولأماتته موجودات ضعيفة جداً ولعجز عن حفظ لعاب فمه كما يعجز عن ذلك حديث الولادة. الآثر الآخر لنور الشمس هو عمله كمضادٍ حيوى، كما تفعل ذلك المضادات الحيوية والمطهرات الصناعية، واللَّه يعمل كذلك، فهو يرفع موانع الحياة ليتسنَّى لموجودات من قبيل الانسان أن يعيش على وجه الأرض. على سبيل المثال، نذكر الأسماك كغذاء للبشر، فاناث الأسماك تفرز بيوضاً كثيرة جداً لو سمح للبيوض جميعها أن تعيش لاكتضَّ البحر بالأسماك بحيث تسلب ماء البحر قدرته على الحركة، لكن تدابير اللَّه تعالى كانت فى خلق موجودات اخرى فى البحر تعيش على هذه البيوض وتقضى عليها، إيجاداً للتوازن والتعادل فى بيئة البحر. ومثال آخر، بعض النباتات تنمو بسرعة فائقة جداً يمكنها أن تغطى مدينة كاملة فى فترة قصيرة. ومثال آخر كذلك هو وجود حيوانات سريعة التكاثر لو سمح لها لما تركت مساحة ومجالًا للبشر وباقى الموجودات. لكن اللَّه تعالى رفع هذه الموانع كلها وجعل تعادلًا فى البيئة ليتسنى للجميع العيش معاً. تحطُّ ميكروبات كثيرة على عيون الناس يومياً وبخاصة فى المدن الملوّثة، بامكانها أن تعمى عيون البشر جميعهم فى فترة قصيرة لكن اللَّه خلق الدموع لدفع هذه الميكروبات وقتلها، فان الدمع يحتوى على مواد من صنف المضاد الحيوى يطهّر العين، وهى مواد موجودة فى لعاب الانسان كذلك وتلعب نفس الدور الذى تلعبه فى الدموع. إذن، اللَّه كالنور سبب للهداية والتربية والطاقة والحيوية ويمنح الحياة ويرفع الموانع عنها، ولهذا هو: «اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ والأرْضِ».

الأشياء التى شُبِّهت بالنور

فی الآیات والروایات شُبِّهت أشیاء کثیرة بالنور، نکتفی بذکر خمسه نماذج. ۱- ذات اللَّه تعالی، «اللَّهُ نُورُ السَّمَاواتِ والأرْضِ»، وقد تقدَّم شرح ذلک فی الأسطر السابقة. ۲- القرآن المجید، کما جاء فی الآیة ۱۵ من سورة المائدة: «قَدْ جَاءَکُمْ مِن اللَّهِ نُورٌ وکِتابٌ مُبینٌ»، والنور فی هذه الآیة إشارة إلی القرآن الکریم. ۳- الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله، کما ورد ذلک فی الآیة ۴۶ من سورة الاحزاب: «وَدَاعِیاً إلی اللَّهِ بإذْنِهِ وسِراجاً مُنیراً». ۴- أئمة الهدی علیه السلام فهم نور الهُدی فی ظلمات الضلال، کما جاء ذلک فی زیارة الجامعة الکبیرة: «خَلَقَکُم اللَّهُ أنْواراً فَجَعَلَکُمْ بِعَرْشِهِ مُحْدِقِین». ۵- العلم کذلک شُبِّه بالنور، فقد ورد ما یلی فی الروایة: «العلمُ نورٌ یقذفهُ اللَّهُ فی قلبِ مَن یشاء» «۱». یُذکر أن العلم من حیث الحصول علی قسمین: الف: علم اکتسابی تحصیلی، وهو الذی یحصل علیه الانسان بالسعی والجهد فی المدارس والحوزات والجامعات. باء: علم إلهی، وهو الذی یقذفه اللَّه فی القلوب الجدیرة والمفعمة بعشق اللَّه والطاهرة، وهو لیس اکتسابیاً. هذه خمسة نماذج ممَّا شُبِّه بالنور، وعند التدقیق فیها نراها تشترک فی شیءٍ واحدٍ، وهو اللَّه تعالی، فالقرآن المجید کلام اللَّه، والرسول صلی الله علیه و آله مبعوث من قبل اللَّه، والائمة خلفاء رسول اللَّه، والعلم یقذفه اللَّه فی القلوب المؤهلة. وعلی هذا، جمیع الأنوار ترجع إلی اللَّه تعالی «مَثَلُ نُورِه کمِشکَاةٍ فیها مِصْبَاحٌ ...». امثال القران، ص: ۳۵۷ تقدَّم أن الآیة ۳۵ من سورة النور عبارة عن مثلین، مضی الحدیث عن المثل الأول حیث شبِّهت ذات اللَّه بنور السماوات والارض، أمَّا المثل الثانی فیبدأ من عبارة «مَثَلُ نُورِهِ ...» إلی آخر الآیة. طرحت بحوث کثیرة فی ذیل المثل الثانی، فکل صاحب تخصُّص نظر إلی الآیة من زاویة تخصصه، وفسَّر علماء الکلام الآیة من وجهة نظرهم، وفسرها الفلاسفة من وجهة نظرهم الخاصة، وفسَّرها العرفاء من وجهة نظر عرفانیة، وفسَّرها مفسرو القرآن بما یتلاءم مع اختصاصهم، سنشیر إلی بعض من هذه التفاسیر، وقبل البتِّ بالتفسیر نورد توضیحاً حول السراج أو المصباح.

السراج فی التاریخ

کان الانسان یعیش فی الظلام قبل اکتشاف النار، وما کان یستفید إلَّامن الأنوار الطبیعیة، مثل الشمس والقمر والنجوم، ثم اکتشف أکبر وأهم نعمة إلهیة، وهی النار، بعد ما شاهد القدحة الحاصلة من اصطکاک شیئین أو احتراق مواد جافة لسبب ما، عندها حصل تحوّل عظیم من جمیع الجوانب فی حیاة البشر، بحیث یمکن الادّعاء بأنَّ النار أهم سبب للتقدُّم الصناعی ولتسهیل العیش علی الأرض. استخدم الانسان النار لإیجاد الحرارة وللإضاءة کذلک، وصنع لهذا الغرض وسائل تکاملت تدریجیاً، منها: السراج الذی اعدَّ لأجل استخدام النار للإضاءة. السراج الذی کان یستخدمه الانسان فی عصر الجاهلیة وأوائل ظهور الاسلام داخل ضمن سلسلة التکامل الذی نالته الصناعات البشریة، وهو آنذاک کان یتکوّن من خمسة أجزاء، ومورد الآیة هو السراج الذی کان یُستخدم آنذاک، لنتعرف هنا علی أجزائه الخمسة. ۱- الفتیلة، وهی الخرقة التی تجتذب الوقود لتحترق وتُضیء، والتی عُبِّر عنها بالمصباح فی الآیة الکریمة. ۲- الزجاجة، وهی التی توضع فوق الفتیلة لکی تنظم جریان الهواء، ولا تترک الفتیلة تخرج منها دخاناً بسبب عدم الاحتراق الکامل، الأمر الذی یؤدی إلی اسوداد السقف بسخام امثال القران، ص: ۳۵۸ المصباح، کما أن الانارة ضعیفة دون هذه الزجاجة. ۳- الوعاء الذی عبّر عنه القرآن بالمشکاة. السراج المزبور یعمل جیداً فی الظروف الاعتیادیة لکنه ینطفأ عند هبوب الریح، کما أن الزجاجة تنکسر إذا صدمها شیءٌ، ولهذا کان یستدعی وجود مکانٍ معدٍّ له، وعلی هذا الأساس تُصنع أوعیة خاصة تُقسَّم إلی قسمین: الف: الأوعیة المحمولة، وهی مستطیلة یحیطها الزجاج من کل الأطراف، فیها نافذة یدخل من خلالها السراج، ویمکن حملها ونقلها من مکان إلی آخر. باء: الأوعیة الثابتة التی لا یمکن نقلها من مکان إلی آخر، وغالباً ما توضع حیث یوجد رفّ أو شباک یطل علی ساحة البیت لیضیء المصباح للبیت ولساحته، ویجعل فوقه منفذ لتبادل الاوکسجین ونافذة لإدخال السراج فی الوعاء. وأحیاناً تجعل الزجاجة فی الجانب المطل علی الساحة ویترک الجانب المطل علی البیت دون زجاجة. فائدة هذا الوعاء هو المنع من انطفاء الشعلة أو تحطم زجاجة السراج. ۴- الوقود، الأمر الآخر الذی یستدعیه السراج هو الوقود الذی تجتذبه الفتیلة ویشتعل بعد إیقاد النار فی الفتیلة «۱». ۵-

مصـدر الطاقـة والوقود، إذا كان وقود السـراج زيت الزيتون فلابـدَّ وأن يكون مصـدر لهـذا الزيت، وهو شـجرة الزيتون. والنتيجة: كون شجرة الزيتون والوعاء والزجاجة والفتيلة تشكّل مجموعها عوامل خمسة لتوليد النور والإضاءة، وهى امور أشارت لها الآية الكريمة.

الشرح والتفسير

«مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ المِصْبَاحُ فى زُجاجة الزُّجَاجَة كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ». امثال القران، ص: ۳۵۹ زجاجة هذا السراج شفافّة ونظيفـة ولامعـة وتنير كإنارة النجم فى السـماء. «يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَـة لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ». مصدر طاقة هذا السـراج شـجرة الزيتون المباركـة والنابتـة لا فى شـرق البسـتان بحيث تكون فى الظلِّ عنـد شـروق الشـمس ولا فى غرب البسـتان بحيث تُحرم من نور الشـمس عند الغروب، بل هى وسط البستان تتمتّع بنور الشمس والهواء الطلق بأفضل ما يمكن. «يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْه نَارٌ». وقود السـراج زيت الزيتون ذات جودة عالية جداً، يؤخذ من الشـجرة المزبورة، وهو شفّاف ويبدو بحدّ ذاته منيراً ومشعاً دون إيقاد النار فيه، فهو خالص جـداً. «نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِى اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ». النور يصـدر من كل أجزاء السـراج، من المصـباح ومن الزجاجة ومن الوعاء، بحيث يبدو السراج نوراً متراكماً، واللَّه سبحانه وتعالى يهدى ويرشد مَن يشاء إلى هذا النور الإلهى. «وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ للنَّاسِ واللَّهُ بِكُلِّ شـىءٍ عَلِيمٌ». يضـرب اللَّه هذه الأمثال لكى يستوعب الناس بمختلف مستوياتهم المفاهيم العالية بنحو أفضل، واللَّه عليم بكل شىء.

خطابات الآية

۱- ما المراد من نور اللَّه؟

شبّه نور اللَّه تعالى فى هـذه الآية بالسـراج ذات الأجزاء المتقدّم ذكرها، فما ذلك النور الذى شبّه بالسـراج؟ أبدى المفسـرون نظريات مختلفة فى هذا المضـمار، لكنَّ هناك نظرية منسجمة مع ما يراه المتكلمون، وهى كون المراد منه نور الإيمان. نور الايمان شعلة متّقدة ومصـباح فى زجاجـة قلب الانسـان، وقلب الانسـان ونور الايمان وضـعا فى وعاء الصـدر. المشـكاة هى صـدر المؤمن، والزجاجـة قلبه والمصـباح نور الإيمان المتّقـد فى قلب المؤمن. يسـتلهم نور الايمان المتّقـد فى قلب المؤمن طاقته من الكلمات النورانيـة للقرآن امثال القران، ص: ۳۶۰ المجيـد وروايات المعصومين، أى أن الآيات والروايات بمثابـة زيت الزيتون الذى يؤمّن وقود سـراج الايمان الكائن فى قلب الانسان، ولهـذا تزداد نورانيته كل يوم وكلّما اقترب من الآيات والروايات. مصدر وقود الايمان (الآيات والروايات) هو شـجرة الوحى المباركـة التى هى لاـ شـرقية ولاـ غربيـة، فليست ذات طـابع مـادى بحت ولاـ ذات طـابع معنوى بحت، بـل تغطى كل الجوانب والأنحـاء. وهـذا الوقود زلال وشـفاف وصاف جـداً، فلا خطأ ولا زيغ فى الآيات وكلمات المعصومين، فهى كلمات مضـيئة ولامعـة لا تحتـاج إلى شـىء آخر لإيقادهـا. كلٌّ من الآيات والروايات نور على نور، آيات اللَّه فى القرآن المجيـد نور، وكلمات المعصومين نور على نور كلمات اللَّه. إن اللَّه يهـدى من يشاء من خلال آياته وروايات المعصومين، واللَّه يضـرب الأمثال المتنوّعـة للناس، وهو يعلم ما يضـرب من الأمثال. إذن، وفقاً لهذا التفسـير، المراد من نور اللَّه هو نور الإيمان، والشاهد عليه ما ورد فى بعض الآيات من التعبير بالنور للاشـارة إلى نـور الايمـان، كمـا جـاء ذلـك فى آيـة الكرسـى: «اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَـاتِ إلى النُّورِ والَّذِين كَفَرُوا أَوْلِياؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِن النُّورِ إلى الظُّلُمَاتِ» «۱». هذا مضافاً إلى الروايات التى دلَّت على أن كلمات المعصومين نور، وبهذا يكون المراد من النور فى الآية هو نور الإيمان.

۲- «يَهْدِى اللَّهُ لنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ» ماذا تعنى؟

سؤال: هل أن اللَّه يهدى من أراد هدايته ولا يهدى من لم يرد هدايته؟ أو هل الهداية الإلهية المبتنية على اساس الحكمة تشمل أولئك الذين شملتهم مشيئة اللَّه فقط؟ الجواب: مشيئة اللَّه تتبع حكمة اللَّه دائماً، والحكيم يهدى وفق محاسبات لا اعتباطاً. امثال القران، ص: ۳۶۱ إن هذه الهداية الالهية شملت سلمان الفارسى الذى طوى مسافات شاسعة بين ايران والمدينة وتحمَّل المشاق والمتاعب الكثيرة لأجل لقاء الرسول وقبول دينه، وقد كان من أوائل المسلمين الذين لبّوا دعوة الرسول وبقى على عقيدته وصمد وقاوم ودافع عنها حتى آخر لحظات عمره الشريف. ولم تشمل هذه الهداية أمثال أبى لهب وأبى سفيان؛ لأنهما كانا إلى جنب الرسول وكانا يرانه كل يوم ويسمعان حديثه وآيات اللَّه، ولم يزدهما ذلك إلَّاعصياناً ولجاجاً ومقاومة لهذا الدين. من الواضح أن شمول أو عدم شمول الهداية لم يكونا اعتباطاً بل كانا عن حكمة، فقد تحمَّل سلمان المشاق والمتاعب الوافرة لأجل هذا الدين، وتحمَّل عبء العبودية والرق مرات عديدة وتحمَّل التعذيب، ولم تثبط هذه الامور عزيمته على لقاء الرسول، فكان جديراً للهداية حقاً، أما العصاة المتعصّبون وعبدة الأهواء والمغرورون، فكان التعصّب والغرور واللجاجة قد ضرب بينهم وبين نور الايمان ستاراً يمنع من نيلهم من هذا النور، فكانوا دون نصيب منه. لا يمكن للأعمى أن يهتدى بنور الشمس مهما كان قوياً، وهذا ليس لنقص فى نور الشمس بل لسقم فى عينيه. والخفاش إذا كان يعيش فى الظلام ويهرب من نور الشمس سعياً وراء الظلمات فلأجل أنه غير جدير ولا مؤهَّل لنور الشمس، بل ذلك هو شأنه. النور نور مهما كان، وما علينا هو إعداد أنفسنا للاستلهام منه، فنتجنّب الرذائل الأخلاقية لكى نكتسب أهليه الهداية الالهية. إذن، الآية: «يَهْدِى اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ» تعنى: يهدى اللَّه لنوره من وجدت فيه الأهلية والجدارة. والآية: «وَاللَّهُ بِكُلِّ شَىءٍ عَلِيمٌ» تعنى: اللَّه عالم بمن تحققت فيه هذه الجدارة فيهتدى ومن لم تتحقق فيه فلا يهتدى بل يُحرم من الهداية. وبتعبير آخر: لا يتوفّق الانسان لعمل إلَّاإذا عشقه، ولو أراد الانسان الهداية الإلهية فعليه أن يحب اللَّه ويترك الأهواء واتّباع الشيطان. شكى شخص عند أحد العظماء بأنه لم يُوفّق لرؤية صاحب الأمر والزمان (أرواحنا وأرواح العالمين لتراب مقدمه الفداء) حتى فى المنام، رغم حبه إياه وعشقه الوافر له. امثال القران، ص: ۳۶۲ فقال له العالم: أدلّك على طريق يبلغ بك إلى الرؤية، كُل هذه الليلة طعاماً مالحاً جداً ونم دون أن تشرب ماء بعده. عمل هذا الشخص بوصفة هذا العظيم، فنام عطشاناً، وقد سرق العطش منه النوم إلَّاأنه كان ينام بين الحين والآخر وكلَّما نام شاهد فى المنام ماءً وأنهاراً ومنامات تتعلَّق بالماء فقط ولم يرَ فى المنام شيئاً غير الماء. وفى الصباح استيقظ وقال مع نفسه: عملت بوصفه ذلك الرجل ولم أرَ إلَّاالماء، فذهب وحكى له ما جرى فأجاب ذلك الرجل: إنك كنت أمس عطاشاً ومشتاقاً للماء حقاً فما رأيت فى منامك غيره، ولو كنت مشتاقاً لرؤية الحجة بن الحسن حقاً (عجل اللَّه فرجه) لرأيته. يناسب بحثنا رواية وردت عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، فقد قال فى طعم الإيمان: «ثلاثٌ مَن كنَّ فيه ذاق طعم الإيمان، مَن كان لا شىء أحبُّ إليه من اللَّه ورسوله، ومَن كان لإنْ يُحرَق بالنار أحب إليه مِن أنْ يرتدَّ عَن دينه، ومن كان يحبُّ للَّهويُبغض للَّه» «۱». وجود هذه الثلاثة فى الانسان يعنى الالتفات والتوجّه الخالص للَّهلا ـ للزوج والأولاد والأهواء والجيران والأصدقاء والمعارف، كما تعنى اختيار الانسان الحرق بالنار فيما لو خُيِّر بينه وبين البقاء على دينه، كما تعنى أن لا ـ يعادى إلَّامَن أراد اللَّه معاداته وان لا يحب إلَّامن أحبه اللَّه، أى أن علاقاته تبتنى على حبّ اللَّه وبغضه، عندئذٍ يذوق الانسان طعم الإيمان وحلاوته. وهناك رواية اخرى يقول فيها الرسول صلى الله عليه و آله: «مَن كَانَ أكثرُ همّه نيل الشهوات نزعَ من قلبه حلاوة الإيمان» «۲».

كيف يقوى إيماننا؟

سؤال: مع الأخذ بنظر الاعتبار الأهمية القصوى للايمان، فما نعمل لتقويته؟ أو كيف يمكننا امثال القران، ص: ۳۶۳ أن نوقد نور الايمان فى قلوبنا؟ الجواب: هناك أساليب متعددة لتقوية الإيمان نشير إلى بعضٍ منها: الاول: التعرُّف على القرآن يقوى إيماننا أكثر كلَّما تعرَّفنا على القرآن أكثر، ويضعف إيماننا كلما ابتعدنا عن ينبوع السعادة هذا، وقد صرَّحت بذلك الآية الثانية من سورة الأنفال: «إِنَّمَا المُؤمِنُونَ الَّذِينَ إذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وإذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زادَتْهُمْ إيمَاناً وَعَلى ربِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ». أيُّها الأعزة، عليكم التعرُّف

على القرآن أكثر فأكثر، فاتلوا القرآن وراجعوا تفسيره، وبخاصة أن تفاسيراً جيدة أصبحت فى متناول اليد هذا العصر. يسرّنى أن أرى بعض المسلمين الذِين يعيشون بين الكفار قد حافظوا على دينهم وإيمانهم بل ازدادوا إيماناً بفضل هذا الاسلوب. الثانى: التدقيق فى أسرار الخلق الدنيا التى نعيشها مفعمة بآيات اللَّه تعالى، وإذا سبق وأن قيل فى ورقة الشجرة: إنها بمثابة كتاب لُاولى الألباب، يقال فيها اليوم: إنها مكتبة لذوى العقول، وتكفى الانسان ليتعرَّف على اللَّه إذا لم يمر منها دون تفكّر، فهى من عجائب الخلق رغم كثرتها وتواجدها فى كل مكان من ساحات المنازل والشوارع والازقة. يقول العلماء: إذا وضعنا الورقة تحت مجهر نجدها تتكون من بناء ذات عدَّة طبقات، لكل طبقة بناء خاص ومسؤوليات خاصة. فى الورقة شبكة معقدة وطويلة ومنتظمة من الأنابيب، لا يمكن للمهندسين تصميم هكذا شبكة لأنابيب المياه فى مدينة. ولهذا يقال: كل ورقة مكتبة لمعرفة الخالق. لبلوغ هذا الهدف، يمكن للشباب أن يطالعوا ما دوِّن فى علم الأحياء والنبات، والتى تُدرّس بعضها فى الإعدادية، وكلَّما دققنا فى خلق اللَّه كلما زادت معرفتنا، وكانت نتيجة هذه المعرفة وثمرتها حب اللَّه، وفاكهة حب اللَّه الصون من الخطأ وارتكاب المعصية. امثال القران، ص: ۳۶۴ الثالث: التقوى والورع الاجتناب عن ارتكاب الذنوب والسير فى طريق الاسلام المستقيم من عوامل تقوية الايمان، وكلَّما زاد تقوى المؤمن وورعه كلما تنوّر قلبه بنور الإيمان أكثر فأكثر، وكذا العكس، أى كلَّما ضعف تقوى الانسان كلما ضعف إيمانه. كما أن هناك علاقة متبادلة بين الايمان والتقوى فكما أن التقوى تقوّى الايمان كذلك الايمان فهو يقوى التقوى ويزيد فيه. الرابع: التوسّل والدعاء التوسّل بلطف اللَّه والمعصومين عليهم السلام من عوامل تقوية الإيمان، فلا ينبغى الغفلة عنهما، والمفروض فى التوسّل والدعاء أن يقترنا بحضور القلب والواقعية، وأن ينطلقا من الإحساس بالحاجة حقاً، فلا ندعو ولا نتوسل إلَّاونعتبر أنفسنا فقراء محتاجين، ونخاطب اللَّه ونقول: (لا نأمل شيئاً إلَّامنك) أو (مَن لنا غيرك)؟ لو أحكمنا علاقتنا مع اللَّه تعالى أصلح اللَّه علاقتنا مع باقى المخلوقات. أتمنى أن نبلغ منازل الإيمان العليا من خلال العمل بهذه الأوامر والأساليب. فى نهاية البحث ننقل حديثاً جميلًا عن الرسول صلى الله عليه و آله يقول فيه: «إنَّ أعلى منازل الإيمان درجة واحدة مَن بلغ إليها فقد فاز وظفر، وهو أن ينتهى بسريرته فى الصَّلاح إلى أن لا يُبالى لها إذا ظهرت وأن لا يخاف عقابها إذا استرت» «۱».

مباحث تكميلية

تفاسير متباينة لآية واحدة!

اشارة

قلنا: للآية تفاسير مختلفة، تقدَّم تفسير واحد وسيأتى تفسيران (التفسير الفلسفى والتفسير الروائى)، وقبل التعرُّض لهذين التفسيرين ينبغى الإجابة عن السؤال التالى: هل يمكن أن يكون عدَّة تفاسير لآية واحدة؟ وهل يمكن أن يكون هناك عدَّة معانى لجملة امثال القران، ص: ۳۶۵ واحدة وفى وقت واحد؟ وهل يجوز استعمال اللفظ الواحد فى أكثر من معنى واحد؟ الجواب: نعتقد أن ذلك ليس جائزاً فحسب بل يُعدُّ فناً ويكشف عن بلاغة المتكلم وجمال وعمق كلامه؛ فاستعمال اللفظ فى أكثر من معنى من محاسن الكلام وكماله «۱». وعلى هذا، فلا مانع للآية أن يكون لها سبعون تفسيراً قصدها المتكلم جميعاً، ونجد نماذج لذلك فى باقى مجالات اللغة العربية بل حتى غير العربية. وعلى سبيل المثال ذُكر سبعون معنى لمفردة العين، كعضو الانسان المعروف والذهب والشمس وغير ذلك. وقد وصف أحد الشعراء الرسول صلى الله عليه و آله بالبيتين التاليين: المرتجى فى الدُّجى والمبتلى بعمىوالمشتكى ضمئاً والمبتغى ديناً يأتون سدته من كل ناحيةويستفيدون من نعمائه عيناً أى أنَّ طوائف أربع تأتى للرسول وتطلب منه شيئاً، هم: ۱- المبتلون بالظلمات يأتون لعين وشمس وجوده. ۲- العُمى الذين يقبلون عليه لنعمة عينه. ۳- الفقراء يأتونه لطلب العين، أى الذهب. ۴- المسلمون الذين يشعرون بالظمأ فيقدمون له لطلب عين الماء. ضمَّن هذا الشاعر الماهر المعانى الأربعة للعين فى مفردة العين التى

وردت فی شعره. علی أی حالٍ، لا مانع من استعمال اللفظ فی أکثر من معنی واحدٍ، ولهذا یمکن للآیة الواحدة أن یکون لها عدَّة معانی وتفاسیر، علی أن یکون لکلٍّ تفسیر شواهده وقرائنه لا أن یکون تفسیراً اجتهادیاً وبالرأی، فنحن ممنوعون من ذلک. بعد هذه المقدمة نَبتُّ بالتفسیرین الآخرین لهذه الآیة.

الف: التفسیر الفلسفی

ذکر الفلاسفة تفاسیر متعدِّدة لهذه الآیة نشیر إلی واحدٍ منها. امثال القران، ص: ۳۶۶ یقول الفلاسفة: هناک ثلاثة عوالم، هی: ۱- عالم المعقولات: وهو عالم العقول والمجرّدات، أی عالم ما وراء المادة، وهو عالم لا زمان فیه ولا مکان ولا جسم ولا أجزاء. ۲- عالم النفوس: وهو العالم الذی تلتقی فیه المجرّدات بالمادة، مثل روح الانسان التی هی من المجرّدات تلتقی بجسمه الذی هو مادی. ۳- عالم الأجسام: وهو الذی أشارت إلیه العبارة: «مَثَلُ نُورِهِ»، فهی تعنی نور الوجود، فقد شبَّه الفلاسفة الوجود بالنور فی کثیرٍ من مباحثهم، وقالوا هنا: المراد من النور هو نور الوجود الذی یقع فی ثلاث مراحل، فی عالم المجردات توجد الملائکة، وفی عالم النفوس یوجد الناس وفی عالم الأجسام توجد الأجسام الاخری المراد من المصباح الذی ورد فی الآیة هو عالم العقول، وهذه العقول تقع فی الزجاجة التی هی عالم النفوس، وهذه العقول التی فی النفوس توضع فی مشکاة تُدعی أجسام. ینشر اللَّه نور الوجود، حیث خلق العقول والمجردات أولًا ثم الزجاجة التی هی النفوس ثمّ الوعاء والمشکاة، وهو عالم الأجسام، أما شجرة الزیتون المبارکة فهی ذات اللَّه تعالی، التی هی مصدر کل الموجودات فی العالم، وأما الزیت فهو فیض الوجود الذی ینبع من اللَّه تعالی. الخلاصة: فسَّر الفلاسفة النور الالهی بالوجود، وطابقوا المصباح والزجاجة والمشکاة علی العوالم الثلاثة.

باء: التفسیر الروائی

یستفاد من الروایات الواردة فی تفسیر هذه الآیة أن المراد من المصباح هو العلم، فهو سراج منیر یهتدی به الناس، والمراد من المشکاة قلب الرسول صلی الله علیه و آله الطاهر، والمراد من الزجاجة هو وصی الرسول، أی الامام علی علیه السلام، فقد حافظ علی الرسول وآثر بنفسه لأجل الرسول وتحمَّل الأخطار والمشاق فی هذا المجال، والمثال البارز لهذا الکلام دفاعه عنه فی معرکة (احد)، فقد کتب الشیعة والسنة أن مَن تبقی حیاً من المسلمین فرَّ إلَّاعلی فقد عکف فی امثال القران، ص: ۳۶۷ ساحة الحرب دفاعاً عن الرسول وللذود عنه فکان یحوم حوله ویواجه کل من قصد الرسول وأراد قتله. انتهت معرکة احد وعلی علیه السلام یحمل معه جروحاً کثیرة، عدَّتها بعض الروایات إلی تسعین جرحاً، وفی روایة وردت عن الامام نفسه یقول فیها: «أصابنی یوم احد ست عشر ضربة سقطت إلی الأرض فی أربع منهنَّ، فأتانی رجل حسن الوجه، حسن اللمّة، طیّب الریح، فأخذ بضبعی فأقامنی ثم قال: أقبل علیهم، فإنک فی طاعة اللَّه وطاعة رسول اللَّه، وهما عنک راضیان» قال علی علیه السلام: «فأتیت النبی صلی الله علیه و آله فأخبرته فقال: یا علی أقرّ عینک ذاک جبرئیل» «۱». جملة «نورٌ علی نورٍ» تشیر إلی الأئمة الاثنی عشر، فکلٌّ منهم نور علی النور الذی سبقه، والمراد من الشجرة المبارکة هو الشجرة الإبراهیمیة المبارکة التی تفرَّع منها الرسول صلی الله علیه و آله، والمراد من «لا شَرقِیَّة وَلا غَرْبِیَّة» هو نفی التوجُّهات الیهودیة والمسیحیة «۲».

المثل الثامن والثلاثون: سراب الحیاة

اشارة

جاء ما یلی فی الآیة ۳۹ من سورة النور: «وَالَّذِینَ کَفَرُوا أعْمَالُهُمْ کَسَرَابٍ بِقِیعَةٍ یَحْسَبُهُ الظَّمآنُ مَاءً حتی إذَا جَاءهُ لَمْ یَجِدْهُ شَیْئاً وَوَجَدَ

اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفّاهُ حسابَهُ واللَّهُ سَرِيعُ الحِسَابِ».

تصوير البحث

وردت هذه الآية فى الكفار غير المؤمنين، عكس آية المثل السابق، حيث وردت فى المؤمنين (وفقاً لأحد التفاسير)؛ فهى أجابت على التساؤل التالى: هل تقبل الأعمال الحسنة لهؤلاء عند اللَّه أم لا تُقبل منهم أيٌّ من الأعمال الحسنة؟ جواب الآية على هذا التساؤل كان من خلال ضربها مثلًا يأتى شرحه.

الشرح والتفسير

«وَالَّذِينَ كَفَرُوا أعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ». لأجل اتّضاح معنى الآية ينبغى شرح المفردتين (سراب) و (قيعة). السراب من مادة سَرْب، وتعنى الحركة والجرى من الأعلى نحو الأسفل، ففى العربية مفردات دقيقة، فقد وضع العرب للجرى من الأعلى إلى أسفل مفردة غير التى وضعوها للجرى من الأسفل إلى الأعلى أو الجرى على الارض المستوية، أى أنَّهم كانوا يضعون مفردة امثال القران، ص: ۳۷۰ مستقلة للحالات المتباينة والمختلفة، فللجرى من الأعلى إلى الأسفل وضعوا (سَراب)، والذى تورَّط بالسراب يقال: (سَرَب)، كما قد يُطلق (سَرْب) على الماء الجارى؛ لأنه يجرى ويسيل من الاعلى إلى الأسفل دائماً، أما علميّاً فالسراب ليس ماءً بل يشبه الماء وينشأ من انكسار الضوء «۱». حرارة سطح الارض إذا ازدادت سببت ترقيق طبقات الجو القريبة من سطح الأرض، والضوء الذى يأتى من الطبقات العليا ينكسر عندما يصل سطح الأرض، ويبلغ الانكسار إلى مستوى الانعكاس الكامل، فيعكس لون السماء الأزرق فتبدو طبقات الجو القريبة من سطح الأرض ماءً، وهو ما يُطلق عليه السراب. أرجع بعض العلماء قصة سعى هاجر زوجة إبراهيم عليه السلام بين الصفا والمروة إلى رؤيتها السراب، وخلاصة القصة: أن هاجر صعدت جبل الصفا سعياً نحو الماء فشاهدت سراباً على جبل المروة، فركضت نحو المروة، لكنها لم تجد ماءً، فنظرت إلى الصفا فرأت سراباً فركضت نحوه كذلك ولم تجد ماءً عندما بلغته، واستمر سعيها للبحث على الماء بين الجبلين سبع مرَّات حتى نبعت عين زمزم تحت رجلى اسماعيل عليه السلام، وبذلك نجيا من الموت «۲». اتضح بذلك معنى السراب لغةً وعلمياً، لكنَّ المعنيين غير منظورين فى الآية، والمراد من السراب فى الآية المعنى الكنائى، الذى هو عبارة عن الشىء الذى يبدو جميلًا وخلَّاباً من بعيد، وهو أجوف فى الواقع. مفردة (قيعة) تعنى الصحراء الخالية من الماء والكلأ، واختُلِف فى كون هذه الكلمة مفرداً أو جمعاً، والإنصاف أنَّها مفرد، كما هو حال السراب. إذن، من كان نور الإيمان منطفأً عنده ولا إيمان له فان أعماله الصالحة وعباداته وسجداته وانفاقه وإعاناته كسراب فى صحراء جرداء خالية من الماء والكلأ. «يَحْسَبُهُ الظمآنُ مَاءً». امثال القران، ص: ۳۷۱ الظمأ يعنى العطش، والظمآن هو العطشان، والسراب يجذب العطشان نحوه؛ باعتبار حاجته الملحّة للماء. «حَتَّى إذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً». الظمآن بعد ما يرى السراب، يتحرّك باتجاهه، وعندما يصل إليه لا يجد ماءً، فينظر إلى حيث كان، فيرى سراباً آخر، فيتّجه نحوه كذلك، وهذه العملية تستمر هكذا، ممَّا يؤدّى إلى ازدياد عطشه. هذا هو شأن الكفار يوم القيامة، فهم يبحثون عن أعمالهم الحسنة التى أدوها فى الدنيا لعلَّها تنجيهم، لكنهم لا يحصلون على شىء فيرجعون خلو اليدين؛ لأن أعمالهم كانت بمثابة السراب الذى يبدو ماءً وما هو بماء. «فَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ». يتعطش الكافر يوم القيامة إلى الأعمال الصالحة، فيرى من بعيد تلًا من أعماله فيتّجه نحوها، وعندما يقترب منها يجدها لا شىء بل يجد اللَّه (أى يجد عظمته أو عذابه) يهتمُّ بحسابه ويريه جزاء أعماله القبيحة. «واللَّهُ سَرِيعُ الحِسَابِ». لا يتوانى اللَّه فى حساب الكفار، بل يُسرع فى حساباتهم. وحساب يوم القيامة يختلف عن الحسابات العادية التى نمارسها يومياً، فهو حساب معقّد ودقيق ويستدعى وقتاً طويلًا، فمن الصعب جداً أن تُراجع أعمال الانسان كلها منذ بداية خلقته، سواء التى نفذّها بيده أو برجله أوبلسانه أو بقلبه أو بعينه أو اذنه. رغم ذلك جاء فى رواية: «إنَّه تعالى يُحاسب الخلائق كلّهم فى مقدار لمح البصر» «۱»، وهذا هو معنى «واللَّهُ سَرِيعُ الحِسَابِ». لكن يا ترى كيف يمكن هذا؟ للاجابة على هذا

السؤال ينبغى إلقاء نظرة على بعض منجزات البشر. يوضع فى الطائرة صندوق يُدعى الصندوق الأسود، وهو فى الحقيقة نظام مراقبة يشرف امثال القران، ص: ۳۷۲ على حركات وإيعازات الطيّار بدقة، وإذا برز نقص أو إشكال فنى فى الطائرة يحدّده مباشرة حتى لو سقطت الطائرة وتحطّمت وقُتِل مَن كان فيها. النموذج الآخر الحاسوب الذى تستخدمه المخابرات فى العالم، فهى قادرة على سرد كل معلومات ذات علاقة بحادث أو قضية أو شخص ما فى لحظات من خلال حاسوباتها. والنموذج الأبسط لذلك أجهزه الحاسوب التى تحدّد ساعات دخول وخروج الموظفين فى دائرة، فهى تعيّن مقدار تأخُّر الموظف وساعاته إن نقصت، ومقدار راتبه فى نهاية الشهر. كذلك أعمال الانسان فإنّها مراقبة من قبل أجهزة إلهية دقيقة جداً، تسجّل عندها كل حركة ونشاط للانسان، وبامكان اللَّه تعالى أن يحصل على أعمال الانسان الكثيرة التى قام بها خلال عشرات السنين من عمره بنظرة واحدة، «واللَّهُ سَرِيعُ الحِسَابِ». غالباً ما تخلو الأعمال السريعة والمستعجلة مِن الدقة الكافية، لكن الدقة هنا فائقة بحيث لا يبقى شىء ولو بسيط دون حساب، رغم السرعة العالية. معاذ بن جبل يسأل رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يا نبيَّ اللَّه، وإنَّا لمؤاخذون بما نتكلَّم به يا رسول اللَّه؟ فيجيبه الرسول صلى الله عليه و آله: «فهل يكبُّ الناس فى النار على مناخرهم إلَّا حصائد السنتهم» «۱». أى أن كلام الانسان لا يُحاسب عليه فقط بل خطره أكثر من خطر باقى الأعمال، ويمكنه إدخال الانسان فى النّار، وبخاصة أن كبائر الذنوب تُقترف باللسان. ولهذا علينا الانتباه عمَّا يصدر منَّا من أعمال، فإنَّا محاسبون على كل واحد منها، خصوصاً اللسان الذى خطره أكبر من غيره. النتيجة: وفقاً لما جاء فى هذه الآية كون أعمال الانسان الكافر بمثابة السراب الذى يبدو شيئاً من بعيد، وهو لا شىء ولا واقع له من قريب، فلا يغنى من جوع ولا يروى من عطش.

خطابات الآية

۱- المثل لدنيا الكافرين أم لُاخراهم؟

سؤال: هل أعمال الكفار فى الآخرة بمثابة السراب ولا فائدة تعقبها أم فى الدنيا كذلك؟ امثال القران، ص: ۳۷۳ وبتعبير آخر: هل أن أعمال الكفار غير مثمرة فى الدنيا والآخرة معاً؟ الجواب: نعتقد أن الآية تشير إلى دنيا الكفار وإلى آخرتهم، فأعمالهم فى الدنيا كذلك سراب لا أكثر. الانسان المعاصر تورَّط بأنواع مختلفة من السراب الذى يسعى حثيثاً نحوه ثمّ يجده لا شىء، ومن ذلك الحرية الغربية. إذا نظرنا إلى العالم الغربى من بعيد نرى الحرية الجميلة تتلألأ فيه وتجتذب الانسان نحوها، لكنَّا عندما ندخل فى المجتمعات الغربية لا نجد أثراً للحرية الحقيقية، بل نجد الغربيين اسرى لُامور مختلفة من قبيل الأهواء والموضات والمخدرات ومختلف الأمراض الجنسية والتمييز العنصرى وما شابه ذلك. الإدمان جعل من الانسان موجوداً لا ابالياً تجاه الدين والشرف والناموس. كما أن الموضات والأزياء لا تنسجم مع العقل السليم؛ لأن ترك لبس الحذاء أو الملابس بذريعة سقوط موضته يُعدُّ نوع إسراف مذموم. أما الأهواء فقد سيطرت على الانسان كالأخطبوط الذى يسيطر على فريسته، وقد سلب من الانسان كل نشاطاته العقلائية. نعم، الحرية الغربية سراب لا أكثر، فهى ذات ظاهر جذاب وباطن أجوف، كما هو حال حياة الانسان غير المؤمن، فهى حياة سرابية من جميع الجهات، فقد نراها حياة مرفّهة وسعيدة من بعيد، لكن واقعها من قريب غريق الهموم والأمراض، بحيث نصيبه عند الغداء أو العشاء قرص صغير من الخبز لا أكثر! كتبت احدى الصحف أنَّ فى أمريكا غابة تدعى غابة انتحار الأثرياء، يقصدها الأثرياء بعد مللهم من سراب الحياة فيقدمون على الانتحار. أليست هذه الحياة سراباً؟ فهى من بعيد قصر فخم وحياة مرفّهة وسيارة فاخرة وعمل مفضَّل وامكانيات وافرة ومعمل وأسهم و ... أمَّا من قريب فمرض واضطراب ويأس وفراغ وما شابه، إذن حياة الكفار سراب لا أكثر. يقول اللَّه تعالى فى الآية السابعة من سورة الروم: «يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُون». امثال القران، ص: ۳۷۴ أى أنهم يعلمون زخارف الحياة وزينتها وما ظهر منها، ويجهلون باطنها الأجوف. ومن نماذج السراب فى حياة الانسان المعاصر هو الامراض النفسية الموحشة. نعلم بتقدُّم العلم والطب كثيراً فى علاج الأمراض العضوية والبدنية، كما أنه قضى على كثيرٍ من الأمراض التى كانت فى العهود السابقة، أمَّا

الأمراض النفسية فقد أخذت بالانتشار، ومن المحتمل أن يأتى يوم يستحيل فيه العثور على انسان سليم نفسياً؛ لأنَّ سراب الحياة سلب منه النوم، ولا يمكنه أن يغفو ساعات متوالية إلّابأقراص منوّمة. تجاوز هذه الدنيا الفانية والخادعة يتم من خلال العمل بالوصفة الدقيقة للطبيب الكبير المعالج لهذه الأمراض، أى الامام على عليه السلام، حيث قال: «تَخفَّفُوا تَلْحَقُوا» «۱». الاسفار القديمة كانت تتمُّ على نحو قوافل، وما كان يتوفّق فيها إلَّامَن كانت أمتعته قليلة وخفيفة وإلَّا يتخلَّف عن القافلة فى مراحلها الاولى والامام عليه السلام يرى شأن السفر فى الدنيا نحو الآخرة شأن السفر مع القافلة، فمن خفّف فيها استطاع اللحاق بها وإلَّا تخلّف.

۲- الاسلام دين النوعية لا الكمية

لم يطلب الاسلام أعمالًا كثيرة من المسلمين بل طلب منهم أعمالًا خالصة، ولهذا قد توضع يوم الآخرة تلًا من الأعمال فى الميزان لا تزن شيئاً. نفس الاشخاص يوزنون كذلك من حيث الاخلاص، وفى هذا المجال جاءت الرواية التالية: «إنَّه ليأتى الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن جناح بعوضة» «۲». إذن، ما يوليه الاسلام من أهمية هو عمق العمل، ولهذا لا يوصى الاسلام بالكثرة والكمية أبداً بل بالكيفية والنوعية. يقول اللَّه تعالى فى الآية السابعة من سورة هود: «لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا»، داعياً الانسان من خلال هذه الآية إلى الاهتمام بنوعية العمل وكيفيته.

المثل التاسع والثلاثون: أعمال المشركين

اشارة

يقول اللَّه تعالى فى الآية ۴۰ من سورة النور: «أَوْ كَظُلُماتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُماتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لم يَكَدْ يَرَاهَا ومَنْ لَمْ يَجْعَل اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ».

تصوير البحث

تضمَّنت سورة النور ثلاثة أمثال، أحدها: الآية ۳۵، وقد تحدثّت عن نور الايمان، وفى المثالين الآخرين (الآية ۳۹ و ۴۰) ورد الحديث عن أعمال الكفار، فشُبِّهت أعمالهم فى الآية ۳۹ بالضوء الكاذب الذى يبدو ماءً (السراب)، أمَّا فى المثل الذى هو موضع بحثنا فلا يعتبر اللَّه أعمالهم ضوءً ولو كاذباً بل ظلمات مطلقة.

الشرح والتفسير

«أَوْ كَظُلُمَاتٍ فى بَحْرٍ لُجِّيٍّ». لجيّ من اللجاجة وتعنى الإلحاح على عمل، كما لو راجعت شخصاً لكى يقوم بعملٍ لك، لكنه يرفض فتراجعه تارة اخرى فيرفض كذلك وتستمر المراجعات ... وهذا لجٌّ. ومن هذا الباب اطلق لُجّى على البحر عندما تتتابع أمواجه، فكأنَّ الأمواج تلجُّ. واللَّه شبَّه أعمال الكفار بظلمات البحر إذا كان لجّيّاً. امثال القران، ص: ۳۷۶ «يَغْشاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ». يصف القرآن هذا البحر الموَّاج بأن أمواجه تتلاحق موج بعد موج أو موج فوق موج وفى ليلة غائمة. البحار كلَّما عمقت كلما ازدادت أمواجها وعظمت، ويمكن تصوّر عظمة الأمواج فى البحار العميقة من خلال قياسها مع الأمواج الصغيرة التى تحصل فى حوض السباحة التى هى أصغر بكثير من أمواج البحار وبخاصة العميقة منها. المستفاد من توصيف القرآن بأن البحر لجّى كونه عميقاً، كما أن العلماء يقولون: لا ضوء فى الأعماق الأكثر من سبعمائة متر، وهذا يكشف عن وجود ظلمات دامسة فى هذه الأعماق. والعجيب أن فى هذه الأعماق توجد نباتات وحيوانات مشعَّة، أى يشعُّ منها ضوء. فمن اين جاءت بالضوء؟ وما هى الأجهزة التى تولّد الضوء؟ يا مَن فى

البحر عجائبه؟ «۱» ما سبب كون أعمال الكفَّار بمثابة الظلمات التى فى البحر اللجّى وفى أعماق لا يصلها ضوء؟ لهذا الأمر علتان، أحدهما: عمق البحر، وثانيهما: أمواجه. الأمواج تسبب انكسار الضوء وتمنع من عبوره إلى أعماق البحر، مضافاً إلى هذه الظُلمات المتراكمة فإن السماء غائمة وممطرة، وعادة ما تكون الغيوم الممطرة متراكمة وتزيد من الظلام، عكس الغيوم الاخرى التى يقل تراكمها ويسهل عبور الضوء منها «۲». «ظُلمَاتٌ بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ إذَا أخْرَجَ يَدَهُ لم يَكَد يراها». ملخّص الكلام هنا أن عوامل الظلام جميعها قد اجتمعت فى هذا البحر، من الليل المظلم والسحب المتراكمة والممطرة التى تمنع من نفوذ الضوء فيها ومن العمق الكبير ومن الأمواج المتتالية التى تكسر الضوء. لقد تراكمت الظلمات هنا إلى مستوى لو أنَّ شخصاً وضع يده أمامه ما أستطاع رؤيتها حتى لو قرّب يده من عينيه، مع أنَّه بامكانه رؤيتها فى الليالى العادية. امثال القران، ص: ۳۷۷ «وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ». اللَّه مصدر كل ضوء ونور، ومن أراد النور فعليه اخذه من مصدره، وهذا هو المراد من هذه الآية، والمراد من النور هنا نور المعنوية والعلم والمعرفة والإيمان، وما يمكن الحصول عليه إلَّا من منبع النور. أعمال الكفَّار مثل الشخص الذى ذكرته الآية حيث يكون فى قعر بحر مظلم تراكمت عليه الظلمات بحيث لا يمكنه رؤية يده، عكس المؤمنين فانَّ نور إيمانهم نور على نور، يفيد منه الآخرون كما يفيد المؤمنون ذاتهم منه.

خطابات الآية

۱- أعمال الكافرين فقط، لماذا؟

سؤال: أهم عامل يشكّل شخصية الانسان هو العقيدة والإيمان، فلماذا شُبِّهت أعمال الكافرين فقط هنا بالظلمات ولم تُشبَّه عقائدهم وكلامهم؟ الجواب: عمل الانسان ترجمة لعقيدته وطريقة تفكيره، وفى الحقيقة العمل يكشف عن ماهية الانسان وواقعه ولا يدع مجالًا للنفاق إلى مدَّة طويلة، مع أنَّ بالامكان إخفاء العقائد الفاسدة والتفوّه كذباً بما يعاكسها بحيث يبدو الانسان صاحب عقائد صالحة. الايمان القوى هو الذى يظهر أثره فى العمل، وقد جاء فى تعريف الإيمان: «الإيمان عقد بالقلب ولفظ باللسان وعمل بالجوارح» «۱». رغم أن العقيدة والايمان يشكلان أهم عاملين لشخصية الانسان، لكن العقيدة تتجسّد فى القول والعمل، وامكانية النفاق فى القول كثيرة، وعمل الفرد هو الذى يكشف عن شخصيته، والآية أكَّدت على أعمال الكفَّار رغم أنَّ عقائدهم وأقوالهم كأعمالهم ظلمات فى ظلمات.

۲- «ظُلُماتُ بعضُها فَوْقَ بَعْضٍ» إلى أى شىء تشير؟

يقول البعض: إن الظلمات الثلاث ناظرة إلى عقائد الكفَّار وأقوالهم وأعمالهم. امثال القران، ص: ۳۷۸ وبعض آخر يقول: الظلمات الاولى تشير إلى ظلمة جهل الانسان، فالجاهل لا إيمان له، وإذا سلك طريق العلم هداه هذا الطريق وأرشده. والظلمات الثانية تشير إلى الجهل الناشئ عن الجهل، أى كون الانسان لا يعلم بأنه جاهل، وهو خطر كبير؛ لأنَّ الذى لا يعلم ولا يعلم أنه لا يعلم يظن كونه هادياً ومصلحاً، لكن واقعه عكس ذلك، فجهله مركب، عكس الذى يجهل ويعلم أنَّه يجهل فإنَّ جهله بسيط. والظلمات الثالثة تشير إلى من يجهل ولا يعلم أنَّه يجهل بل يتصوَّر نفسه عالماً «۱». استخدم القرآن الكريم تعبيراً جميلًا جداً فى الآية ۱۰۴ من سورة الكهف واصفاً هؤلاء بما يلى: «الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فى الحَياةِ الدُّنيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنعاً». مثل هؤلاء يعدون خيانتهم خدمة، فيعصون اللَّه ويظنون أنهم يطيعونه، وهذه هى الظلمات الثلاث المتراكمة بعضها فوق بعض.

۳- الجبر أم الاختيار؟

سؤال: جاء فی نهایـة الآیـة: «وَمَنْ لَمْ یَجْعَل اللَّهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ»، فهل هی تعنی أن اللَّه تعالی یمنح من نوره إلی البعض فیهتدون بـالطبع، ویمنع عن البعض نوره فیضـلّون بـالطبع؟ ألیس هـذا جبراً؟ الجواب: جرت سـنَّة اللَّه تعـالی علی أن یتم توفیر الأرضـیة من قبلنا والإفاضة منه، أی نحن نوجد القابلیة، والفاعلیة منه تعالی وعلی هذا یجعل اللَّه نوره ویعطیه لمن وفَّر فی نفسه الأرضـیة والقابلیة اللازمة للنور الإلـهی. وهـذا لاـ یعنی أنَّ اللَّه تعـالی یجعـل نوره اعتباطـاً ودون حسـاب أو کتـاب، بـل نور الایمـان لاـ یـدخل فی قلب اللجوج والمتعصّب والمعادی للحق وسیئالسیرة ومتَّبع الأهواء؛ لأنّه لم یُعدّ الأرضـیة اللازمة لدخول هذا النور. القلب مرآة الانسان لا ینعکس فیهـا النور الالـهی ما لم تمسـح وتنظَّف، کما لا ینعکس لو کانت قـد صـدأت امثال القران، ص: ۳۷۹ وفسدت، وسـبب ذلک الانسان نفسه. علینا أن نوفّر الأرضیة اللازمة للنیل من الفیض الإلهی فی کل اللحظات. من هنا یتّضح الجواب عن سبب قولنا فی الصلاة: «إهْدِنَا الصِّراط المُسْتَقِیم»، مع أنا لو کنا فی غیر الصـراط المستقیم لما کنا نصلّی؟ ألیس ذلک تحصیل حاصل؟ وجوابه: أنا بحاجة إلی فیض اللَّه تعالی ونوره فی کل لحظة، ولهذا علینا الحفاظ علی هذه القابلیة دائماً وفی کل وقت وعلی کل حال لکی نکون أهلًا لنور الایمان، کما هو شأن المصـباح الکهربائی الـذی یحتاج إلی الکهرباء فی کل آن ولحظـة وإلَّا فینطفأ بمجرّد انقطاع التیار. فی هـذا المجال یُنقل عن الرسول صـلی الله علیه و آله قوله دائماً: «إلهی لا تکلنی إلی نفسـی طرفـة عینٍ أبـداً» «۱»، وهذا الحدیث یشـیر إلی حقیقة هی: أنَّ الانسان یستعدُّ لتقبُّل الهدایة الإلهیة بعنایة منه تعالی، ولا تتأتَّی هذه العنایة إلَّافی ظلِّ سعی الانسان فی طریق العبودیة.

مباحث تکمیلیة

۱- مظاهر من نور الإیمان

فی أول إجراء اتّخذه الرسول بعد الهجرة من مکة إلی المدینة أمر ببناء مسجد وتشکیل حکومة اسلامیة. وعلی هذا کیف یمکن القول بفصل الدین عن السیاسة؟ من خلال الدراسة المبسـطة لسـیرة حیاة رسول اللَّه صـلی الله علیه و آله نعرف أن المسجد فی ذلک العهد کان بمثابة المقر والمرکز للقیادة رغم بساطته. وفقاً لما جاء فی الکتب التاریخیة فان مسجد الرسول صلی الله علیه و آله کان عبارة عن أربعـة جـدران بُنیت من الوحل، ولم یکن له سـقف، وکان ارتفاع الجدران بمسـتوی قامة انسان، وما کان بالامکان الاسـتفادة منه عند هطول الأمطـار، لـذلک جاء بعض الصـحابة إلی الرسول صـلی الله علیه و آله امثال القران، ص: ۳۸۰ یطلبون منه بناء سـقف للمسجد، وبعد أن سـمح بذلک بدأ المسـلمون ببناء السقف، فبنی من السعف، أمَّا أعمدته فکانت من جذوع النخل. وقد بقی هذا المسجد علی بساطته حتی آخر عمر الرسول صـلی الله علیه و آله، لکن بما أن الذین قاموا بهذا العمل أشـخاص مؤمنون، وکلٌّ منهم بمثابة منبع لنور الإیمان، توسع بعـد وفاة الرسول تـدریجیاً لیتبـدَّل إلی أعظم واجمل مسـجد فی العالم الاسـلامی بلغت مساحته حالیاً کل المدینـة عهد الرسول صـلی الله علیه و آله، ولو أن أحدنا بذل أموالًا طائلة فی سبیل رؤیة هذا المسـجد کان عمله فی محله. نعم، إنَّ أعمال المؤمنین التیّرة تنمو وتتسع. عنـدما أخـذوا بأسـری کربلاء إلی الشام أقعـدوهم فی بیت خرب یقرب من قصـر یزیـد الـذی شق السـماء بارتفاعه والذی کان یلفت نظر کل مارٍّ، أمَّا حالیاً فالبیت الخرب أصـبح مزاراً تهوی إلیه قلوب الشـیعة من محبی أهل البیت علیهم السـلام، وأمَّا القصـر فأصـبح خربة لا أکثر، وأمَّا قبر معاویة فمهما بحثت عنه لا تجد إلَّاأثراً ضـعیفاً فی الباب الصـغیر، فی بیت صـغیر خرب، رغم أنه کـان حـاکم الشـام ومطلق العنـان فی تلک البلاد وظالماً جباراً لا یعرف غیر أهوائه وشـهواته. أمَّا بنت الحسـین الصـغیرة فقبرها معمور ویهوی إلیه الناس من کل مکان. نعم، ذلک من خصائص الایمان، فیعلو ضیاؤه وبهاؤه کلما طال عمره، أمَّا الکفر فتتراکم ظلماته کلَّما طال علیه الزمان. المصـداق الآخر لهذا الإدّعاء هو ما حصل فی معرکة احد حیث طُلِب من المسـلمین حفر خندق أطراف المدینة یمنع من عبور المشـرکین رجالًا وفرساناً وفی الأثناء واجهوا صـخرة عجزوا عن کسـرها ورفعها من مکانها فاستعانوا بالرسول، ولنقرأ الحادث علی لسـان الروایـة: «... فبینـا المهاجرون والأنصار یحفرون إذ عرض لهم جبل لم تعمل المعاول فیه، فبعثوا جابر بن عبـداللَّه الأنصاری

إلى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يعلمه ذلك ... فقلت: يا رسول اللَّه، إنَّه قد عرض لنا جبل لا تعمل فيه المعاول، فقام مسرعاً حتى جاءه ثم دعا بماء فى إناء وغسل وجهه وذراعيه ومسح على رأسه ورجليه، ثم شرب ومجّ ذلك الماء فى فيه ثم صبَّه على ذلك الحجر ثمّ أخذ معولًا فضرب ضربه فبرقت برقة فنظرنا فيها إلى قصور الشام، ثم ضرب اخرى فبرقت برقة امثال القران، ص: ۳۸۱ فنظرنا فيها إلى قصور المدائن، ثمّ ضرب اخرى فبرقت برقة فنظرنا فيها إلى قصور اليمن، فقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: أما إنّه سيفتح اللَّه عليكم هذه المواطن التى برقت فيها البرق، ثم انهال علينا الجبل كما ينهال الرمل» «۱». هزأ المنافقون من تنبؤات الرسول، وقالوا: كيف سيفتح المسلمون هذه البقاع وهم يعيشون حالياً تحديات تهدد وجودهم ودينهم، وما أستطاعوا الغلبة على المشركين العرب فضلًا عن غيرهم. انتهت الخندق بنجاح المسلمين وانتصارهم ورفعة رأسهم، ولم يمضِ زمن طويل من تنبؤات الرسول صلى الله عليه و آله حتى رأى المسلمون تحقّقها فى أرض الواقع، واستطاع الاسلام بعد خمسين عاماً من الحادث السيطرة على أجزاء كبيرة من العالم. نعم، ذلك امتياز نور الإيمان حيث يزداد بريقه وضياؤه بمرور الزمن ليبدو أفضل من ذى قبل دائماً، أمَّا الأعمال السوداء لغير المؤمنين فتزداد ظلاماً بمرور الزمن. كل ما لنا فقد حصلنا عليه فى ظل الايمان، ويكفى للمؤمن أن يكون اللَّه وليّه يهديه من وادى الظلمات إلى النور، وبئس حال الكفار، الذين وليُّهم الشياطين يخرجونهم من وادى النور إلى وادى الظلمات.

۲- علامة الإيمان

فى نهاية البحث ننقل رواية عن الرسول صلى الله عليه و آله يحكى فيها واحدة من علائم المؤمن: «لا يستكمل عبدٌ الإيمان حتى يحبُّ للغير ما يحبُّ لنفسه» «۲». من السهل التفوّه بهذه العلامة، ولكن من الصعب جداً العمل بها.

المثل الأربعون: الأضل سبيلا

اشارة

يقول اللَّه تعالى فى الآية ۴۴ من سورة الفرقان: «أمْ تَحْسَبُ أنَّ أكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أو يَعْقِلُونَ إنْ هُمْ إلَّا كالأنعَامِ بَلْ هُمْ أضَلُّ سَبيلًا».

تصوير البحث

المثل يخصُّ الكفار والمشركين الذين سلكوا طريق اللجاجة والعناد أمام الرسول صلى الله عليه و آله، وألحوا على عقيدتهم الباطلة وسعوا نحو أهوائهم حتى ذهبت قواهم العقلية فما باتوا يدركون شيئاً، لذلك شبَّههم اللَّه بالأنعام.

الشرح والتفسير

لاتّضاح خطاب هذا المثل الفريد من نوعه علينا دراسة الآيات التى سبقت آيته. تحدَّثت الآيات السابقة عمَّا أورده الكفار من إيرادات وانتقادات تجاه الرسول صلى الله عليه و آله وقالت: «وإذَا رأوْكَ إنْ يَتَّخذونَكَ إلَّاهُزُواً»، أى أنهم يستهزؤون بالرسول متى ما شاهدوه، وكان ذلك أحد ردود الفعل التى صدرت من أعداء الرسل والأنبياء، واقترنت مع نسبة بعض امثال القران، ص: ۳۸۴ الصفات السلبية للانبياء. فرعون- مثلًا- كان يعتبر نفسه ربَّاً ويقول: «أنا ربُّكُمُ الأعْلَى «۱» وينسب إلى موسى الجنون قائلًا: «إنَّ رَسُولَكُمُ الذِى ارْسِلَ إليْكُم لَمَجْنُونٌ» «۲». «أهَذَا الَّذِى بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا» «۳» ، أى أنَّه لو كان رسولًا فلماذا يبدو كباقى البشر ويفعل كما يفعلون، «مَالِ هَذَا الرَّسُولُ يأكُلُ الطَّعامَ ويَمْشِى فِى الأسْوَاقِ» «۴» ، مع أن المفروض بالرسول أن يكون من الملائكة. بطلان هذا الكلام واضح، فالمفروض بالرسول أن يكون من البشر لا الملائكة «۵»، لكى يفهمهم ويفهم آلآمهم ومشاكلهم ويشعر بها فيعالجها بالعلاج المناسب.

ولو كـان من الملائكـة لمـا أدرك مشـاكلهم ولمـا احس بهـا، مضافـاً إلى أنَّه لاـ أحـد من البشـر يصـغى لكلام الملائكـة؛ لأنَّ الناس سيقولون: مـا تقوله الملائكـة خـاص بأمثالهـا ويناسب ما يجانسـها؛ باعتبارها معصومـة ولا شـهوة لها، ولا يمكن لنا العمل بما تقول به الملائكـة، فإننا غير معصومين و ... أما لو كان الرسول من جنس البشـر فان هـذه الذرائع جميعها ترتفع ولا مجال للتشبّث بها. «إنْ كَادَ لَيُضِلُّنا عَنْ آلهتنا لَولا أنْ صَبَرْنا عَلَيْهَا» «۶» ، وهذا الكلام أطلقه المشركون بعد ما مضى منهم من استهزاء، ويريدون بذلك أنهم قاوموا الرسول وصـمدوا على عبادة الأوثان، ولولا ذلك لانجرفوا مع الرسول، كما يزعمون. كلمات المشـركين متناقضـة هنا، فهم ينسـبون له الجنون من جـانب، ومن جانب آخر امثال القران، ص: ۳۸۵ يبرزون تخوّفهم من تأثير كلام الرسول عليهم، مع أنه لا أحـد يخاف تأثير كلام المجنون عليه، ولو كـان مجنونـاً حقاً فلا ينبغى الخوف من تأثير كلامه، ولو لم يكن مجنوناً فالمفروض أن يكون كلامه صادقاً، فلماذا يُرفض كلامه؟ وكلامهم هـذا يكشف عن سـخف عقائـدهم ويبرز ذلك بوضوح. أجاب اللَّه تعالى بثلاثـة أجوبـة على كلامهم الباطل والمتناقض: الاول: «وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ العَـذَابَ مَن أَضَلُّ سَبيلًا» «۱». وهذا الجواب يعنى الانتظار إلى يوم رؤية العذاب، فعندئـذٍ يتّضـح الحق والباطـل. سؤال: لماذا لم يـدرك الكفار الحق قبل نزول العـذاب؟ الجواب: الأهواء ضـربت على قلوبهم سـتاراً لا يسـمح دخول الحقـائق فيهـا، فالأـهواء وعبـادة الأصـنام والمـال والجاه والمقام الـدنيوى بمثابـة الحجب والموانع التى تمنع من إدراك الحقائق، وهـذه الموانع لا تُرفع إلَّابالعذاب الإلهى. وهذا هو سـبب اعتراف فرعون بحقيقة «أنَّه لا إله إلَّاالَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إسـرائيلَ وَأنَا مِنَ المُسْلِمِينَ» «۲» بعـد ان أوشك على الغرق، رغم أنه كان يقول: «مَا عَلِمْتُ لكم مِنْ إلَهٍ غَيْرى» «۳» ، لكن إيمانه عندئذٍ دون جدوى عنـدما ينزل العذاب الإلهى تُزال حُجب الغرور والغفلة والجهل، وبعدها يفهم الكفّار من هو الأضل سبيلًا. سؤال: الآية الكريمة فى مقام الإجابـة على الكفّار، وهل يُعدُّ التهديد بالعذاب الإلهى جواباً؟ الجواب: نعم، قد يكون التهديد بالعذاب آخر جواب، ولا يوجد جواب غيره. السفسـطائيون ينكرون كـل شـىء ويشـكون فى كل ما يوجـد حتى فى شـكوكهم ذاتها، وكبار الفلاسـفة يقولون: السفسـطائيون يرفضون كـل دليـل يُقـام، وأفضـل دليـل هو أن تُضـرم ناراً وتقرّبهم إليها وتقول لهم: لا وجود لهـذه النار والحرارة الصادرة منها، فهى خيـال لاـ أكثر، ولا يمكن أن يحترق بها أحـد، لأنّ الاحتراق وهم لا حقيقـة، عنـدها يتراجعون عنها تـدريجياً ليتبـدَّل هـذا الانسان إلى واقعى بعـدما كان سوفسـطائياً. امثال القران، ص: ۳۸۶ إذن، لاـ طريق لإيقـاظ المتعصبين واللجوجين من غفوتهم وغفلـة أفكـارهم غير العـذاب الإلهى، فهو الـذى يزيـح سـتار الغفلة ويوقظهم. الثانى: «أَرَأَيْتَ مَنِ اتّخَذَ إلَهَهُ هَوَاهُ أفَأنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا» «۱». كيف يمكن هدايـة من كـان إلهه هواه؟ إنَّ تعـاملهم غير المؤدب مع الرسول صـلى الله عليه و آله ومـا يطلقونه من كلام بـذىء تجاه الرسول، كله يرجع إلى اتّباع الأهواء، وإلَّا فبطلان عبادة الأوثان أمر واضـح. أساساً لا يخفى الحق على أحد دائماً، بل لابدَّ وأن يظهر له فى وقت ما، ومـا يمنع من اتّضـاح الحق هو عبـادة الأوثان. ألم يكن الحق واضـحاً عهـد الامامعلى عليه السـلام فى حربه مع معاويـة (لعنه اللَّه)؟ فى جانب كان على عليه السـلام مركزاً للعدالة والعبادة، وأنصاره عبارة عن ثلَّة من المسـلمين المخلصـين من الصـحابة الذين لا يبغون من الحرب إلَّارضا اللَّه تعالى، وفى الجانب الآخر كان معاوية مركزاً للظلم والتمييز وسـبباً للاضـطرابات وعدم الثبات فى الدولة الاسـلامية، ويحوم حوله مجموعة من الذين جمعتهم مائدة معاوية الدسـمة ورشاويه، وهل يستحيل تشخيص الحق بين هاتين الطائفتين؟ بالطبع لا، لكن الأـهواء والموائـد المنوّعـة والرشـاوى والأـموال هى التى منعت من التشـخيص. يـا رسول اللَّه، أنت لاـ تسـتطيع إنقـاذ هؤلاء، فإن أربـابهم أهواءهم، وبئس للانسـان الـذى يصـبح إلهه هواه، فهو أخطر مـا يمكن أن يكون فى حياة الانسان. يقول المؤلف الشـهير ويل ديورانت: «لمَّا كـان لكـلِّ شـىء روح أو إله خفيٌّ فـالمعبودات الدينيـة لاـ تقع تحت الحصـر»، كمـا يقول: «لا تكاد لا تجـد حيواناً فى الطبيعـة كلها- من الجعران المصـرى إلى الفيل عنـد الهنـدوس- لم يكن فى بلدٍ ما موضع عبادة» «۲». لكن جاء فى روايـة: «أبغض إلهٍ عُبـد على وجه الأـرض الهوى «۳»؛ وذلـك لأجـل أنَّ هـذا امثال القران، ص: ۳۸۷ الصـنم يلوّث الانسـان بكثير من الـذنوب، من قبيل: المسـكرات والمخـدرات والسـرقة والتهريب والقتـل وما شابه. كثير من المجازر التى تُرتكب فى الوقت الراهن تحصل بـدافع من اتباع الهوى والنفس. إنَّ مجزرة هيروشـيما من قبـل امريكـا وقصف مدينـة حلبجـة بالاسـلحة الكيمياويـة من قبل النظام العراقى ودفن النساء

والأطفال البوسنيين وهم أحياء، كلها من الآثار المخرّبة لحكومة الاهواء على حياة البشر. على أى حال، لا مشكلة ولا صعوبة فى تمييز الحق عن الباطل، على أن لايتّبع الانسان هواه. الثالث: «أمْ تَحْسَبُ أنَّ أكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أو يَعْقِلونَ» «۱». فى هذه الآية يخاطب اللَّه تعالى المشركين ويجيب على كلامهم الوارد فى آية المثل، قائلًا للرسول: إنَّ أكثرهم لا عقل لهم يدركون به ولا آذان لهم يسمعون بها، فهم كالحيوانات العاجزة عن الإدراك، بل هم أضلُّ سبيلًا من الحيوانات، فإن صوت الحق ملأ العالم، وآيات اللَّه وآثاره موجودة فى كل مكان، لكن سماع صوت الحق ومشاهدة آثار اللَّه وآياته تستدعى آذاناً تصغى وعيناً تشاهد وعقلًا يعى ويدرك، وهم يفقدون هذه الأشياء. لو أن ضوء الشمس ملأ الأرض كلها ما استطاع الأعمى أن يراه، كما أن الأصم لو كان جالساً على شاطئ البحر ما كان بإمكانه أن يسمع صوت أمواجه، وهذا هو شأن الكفار فلا يسمعون الحق ولا يرونه ولا يدركونه، فهم كالأنعام بل أضل.

لماذا شُبِّه الكفار بالحيوانات؟

كما لا حظنا فان اللَّه شبَّه الكفّار الذين لا يسمعون ولا يرون ولا يدركون من الحق شيئاً بالحيوانات، بل اعتبرهم أضل من الحيوانات، لكن لماذا؟ هناك وجوه شبه بين الكفار والحيوانات، هى: الف: لا تدرك الحيوانات شيئاً، فلا قدرة لها على الفهم والاستيعاب ولا شعور لها، وأعمالها امثال القران، ص: ۳۸۸ تصدر عنها بدافع غريزى، وهذا هو شأن الكفار، فلا شعور لهم، لذلك لا يدركون شمس‌الحقيقة؟ باء: الحيوانات لا تشعر بالمسؤولية، فهى لا تدرك كون المزرعة ليتيم أو موقوفة وأن الدخول إليها حلال أم حرام، فهى لا ترى نفسها مسؤولة تجاه هذه الامور؛ لأنَّها لا تدرك، أى أن عدم إحساسها بالمسؤولية ينشأ عن عدم إدراكها، وعدم احساس الكفار بالمسؤولية من هذا القبيل، فهو ناشئ عن عدم إدراكهم. جيم: الحيوانات تابعة لغرائزها، فهى لا تعرف غير العلف والاصطبل، وكذا حال المشركين، فهم لا يعرفون غير أهوائهم وما تمليه عليهم. دال: الحيوانات غير تابعة للمنطق، ولا ترى معنى للاستدلال، وكذلك الكفار، فهم عاجزون عن إدراك استدلالات القرآن القوية رغم بساطتها، والتى وردت فى مجالات مختلفة مثل التوحيد والمعاد، ويصرّون دائماً على كلماتهم التى يرددونها دائماً. هاء: لا تشخّص الحيوانات المصالح والمفاسد، ولا تعلم بما يصلحها أو يفسدها، ولهذا قد تجازف أو تقرب من المخاطر وهى لا تعلم ما قد أقدمت عليه، كما هو حال الكفار الذين لا يعلمون بأنَّ عبادة الأصنام واتّباع الأهواء لا يجلب لهم نفعاً ولا فائدة، كما لا يعلمون أن السعادة والنجاح يتحقق فى ظلِّ التوحيد. هذه وجوه خمسة يشترك فيها الكفار مع الحيوانات، ولهذا شُبِّهوا بها فى الآية الكريمة. «بَلْ هُمْ أضَلُّ سَبِيلًا». مقارنة الحيوانات بالمشركين تثبت تفوّق الحيوانات على المشركين، وكون الأخيرين أسوأ حالًا من الحيوانات، للامور التالية: الأول: الحيوان حيوان كان ويكون وسيبقى كذلك، وهذا هو شأنه ولا يمكنه أن يتجاوز حيوانيته؛ لعدم قابليته على التطوّر والتقدُّم، أمَّا الانسان فله القابلية على التطوّر ليكون حتى أفضل من الملائكة، لكنه قد يبقى فى مرحلة الحيوانية بسبب تماديه فى العناد وتعصبه، ممَّا يجعله أن يكون دون مستوى الحيوانات. لا يُلام الشخص على عدم انتفاعه من السوق إذا دخله دون أن يكون له رأس مال، بينما امثال القران، ص: ۳۸۹ يُلام لو دخله وقد كان له رأس مال ولم ينتفع منه. والانسان الذى سجدت له الملائكة ونفخ اللَّه فيه من روحه وأصبح أفضل المخلوقات إذا سقط كان أضل من الحيوانات دون شك. الثانى: الحيوانات تقدِّم خدمات كثيرة للانسان، فبعضها تمنح الانسان لبناً يعبّر عنه القرآن تعبيراً جميلًا فى الآية ۶۶ من سورة النحل، حيث جاء هناك: «نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِى بُطُونِهِ مِنْ بَيْنَ فَرْثٍ ودَمٍ لَبَناً خالِصاً سَائغاً للشاربين»، وكثير من المنتجات الاخرى مثل اللحم والعظم والصوف والجلد بل حتى الدم فان الانسان وكذا باقى الحيوانات تفيد منه، هذا كله مضافاً إلى الإفادة منها كوسائل للنقل والحمل، علاوة على كونها أداة طيّعة بيد الانسان «۱». الثالث: الحيوانات تتَّبع منهجاً غريزياً، بعبارة اخرى إيعازات خلقتها هى التى تهديها إلى أهدافها أمَّا المشركون فان الأهواء ضربت على عقولهم وفطرتهم ستاراً، لذلك كان خطر ضلالتهم أكثر. الرابع: خطر الحيوان محدود مهما بلغ، فالذئب من أخطر الحيوانات، وأقصى خطره أن يهاجم قطيعاً من الغنم ويأكل أو يقتل عدّة خرفان، أمَّا خطر الانسان عندما يتَّبع الأهواء ويعصى العقل فقد يلقى بقنبلة نووية فى هيروشيما ويقتل (۸۵۰۰۰) انساناً فى لحظة واحدة

ويصيب آخرين لازالوا يعانون من إصاباتهم. ألم يكن هكذا اناس أضل من الحيوانات؟ الخامس: الحيوانات لا تسعى للتمظهر بمظهر حسن عندما ترتكب ذنباً ولا تسعى لتبرير أعمالها السيئة، أمَّا المبعدون عن الهداية فيبرّرون جرائمهم الكبرى ويقولون فى تبرير قصف مدينتين يابانيتين بقنابل نووية: لو لم نعمل هذا لاستمرَّت الحرب وطالت ولزادت الضحايا والقرابين إثر ذلك! يقول أحد الكبار: لو أنَّ الآية الشريفة المزبورة كانت قد نزلت دون ذيلها «بَلْ هُم أَضَلُّ سَبِيلًا» لمتُّ غيظاً؛ لأن الحيوانات أفضل من بعض الناس بكثير.

خطاب الآية

العزَّة فى ظل الإيمان

يستفاد من مجموع ما قيل فى تفسير هذه الآية الكريمة أن الانسان إذا كان يسعى نحو بلوغ امثال القران، ص: ۳۹۰ مقامه الحقيقى وشأنه الواقعى وأراد تنمية قابلياته والنجاة من خطر السقوط فعليه السير تحت ظل الايمان والطاعة، والعمل بما أوصى به الإمام على عليه السلام حيث قال: «مَن أراد عزّاً بلا عشيرة، وغنى بلا مال، وهيبة بلا سلطان فلينتقل عن ذلّ معصية اللَّه إلى عزّ طاعته» «۱».

المثل الحادى والأربعون: اتَّخذوا أولياءً من دون اللَّه

اشارة

الآية ۴۱ من سورة العنكبوت تشكّل المثل الحادى والأربعين من أمثال القرآن، حيث جاء فيها: «مَثَلُ الَّذِين اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ العَنْكَبُوتِ اتَّخذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ البُيُوتِ لَبَيْتُ العَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ».

تصوير البحث

بما أنَّ التوحيد والشرك من أهم مباحث القرآن ولهما دور أساسى فى سعادة الانسان وشقائه، لذلك خصَّ اللَّه تعالى بعضاً من أمثلته بهذا الموضوع، مستخدماً مبدأ التنويع فى بيانه. والمثل المزبور يتعلق بالشرك وعبادة الأوثان، مشبّهاً فيه المشرك وما يعبد من الاصنام بالعنكبوت وبيته، بياناً لضعف الأصنام وعجزها.

أهمية التوحيد

تقدَّم أن الشرك كان أول اهتمامات الإنبياء والرسل، وكان يشكل أساس المواجهة بينهم وبين معاصريهم، أمَّا التوحيد فكان أهم ما دعى إليه وأساس دعوتهم؛ وذلك لأجل أنَّ الشرك أساس شقاء البشر ومنشأ كل الذنوب والانحرافات العقائدية، أمَّا التوحيد فأساس السعادة ومنشأ النجاح والفلاح. امثال القران، ص: ۳۹۲ التوحيد ينير القلب ويوحّد المجتمع، أمَّا الشرك فلا يجلب معه إلَّاالظلمات والتشتّت والتفرقة فى المجتمع، ولهذا اختص ثلث القرآن بموضوع التوحيد والمسائل ذات الصلة به.

الشرح والتفسير

«مَثَلُ الَّذِينَ اتّخذوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِياءَ». شبَّه اللَّه تعالى المشركين هنا بالعنكبوت وأصنامهم ببيت العنكبوت، والتشبيه لا يختص بالمشركين بل يشمل كل مَن اتّخذ إلهاً غير اللَّه كولى لنفسه، فالآية عامة دون اختصاص بالمشركين. وعلى هذا تكون شاملة لوثن المقام والسلطة والشهوة والأهواء النفسانية والثروة وكل ما يمكن أن يُعصى اللَّه به. «كَمَثَلِ العَنْكَبُوتِ اتَّخذتْ بَيْتاً». أى أن مثل هؤلاء كمثل العنكبوت التى تتّخذ بيتاً لتلجأ إليه، وهؤلاء قد يكونون مشركين أو غيرهم ممَّن اتخذ إلهاً غير اللَّه، ومثل آلهتهم كمثل بيت

العنكبوت، وهو قد يتمثّل بالمقام أو الشهوة أو الصنم أو ما شابه، فهذه كلها بيوت للعنكبوت. «وإنَّ أوْهَنَ البُيُوتِ لَبَيْتِ العَنْكَبُوتِ». وهل يمكن الوثوق بمثل بيت العنكبوت؟ وهل يمكن الوثوق بغير اللَّه والاطمئنان به؟ الجواب بالسلب قطعاً؛ لأن بيوت العنكبوت من أوهن البيوت وأضعفها؛ وذلك لأنها مصنوعة من مواد لا مقاومة لها أمام الحوادث، وتتلاشى بقطرات ولو قليلة من المطر، فضلًا عن السيول، كما أنها تتلاشى بشعلة الشمعة الضعيفة، فضلًا عن الحريق، كما يكفيها نسيماً من الريح لتتلاشى دون حاجة إلى إعصار، كما أنها تتلاشى بغبار بسيط وبما شابه ذلك وهذا يكشف عن ضعف هذه البيوت، كما يلاحظها الجميع. «لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ». أى أن الاتكاء على الأوثان المزبور كالاتكاء والوثوق ببيت العنكبوت لو كان هؤلاء يعلمون بذلك.

خطابات الآية

۱- أصنام جديدة

كما تقدَّم فإنَّ عبادة الأوثان لم تقتصر على عبادة أحجار أو أخشاب، بل تشمل كل عبادة لغير اللَّه، وفى عصرنا الحاضر هناك الكثير من الأوثان من قبيل المقام والشهوة والمال والثروة والأهواء النفسانية والشياطين وكل ما يغفل الانسان عن اللَّه. تحدَّثت الآية ۶۰ من سورة يس عن أحد أشكال عبادة الأصنام قائلة: «ألَمْ أعْهَدْ إلَيْكُمْ يَا بنِى آدَمَ أنْ لا تَعْبُدوا الشَّيْطانَ»، أى أنَّ عبادة الشيطان وطاعته من أصناف عبادة الأصنام، لكن هل تعلمون كيف تكون عبادة الشيطان؟ وهل هى تعنى الصلاة والصوم للشيطان؟ فى الإجابة على ذلك ينبغى القول: كلا، فلا يعمل أحد هذا، وعبادته تعنى متابعة شخص والائتمار بأوامره «۱». العمل وفق أوامر الشيطان عبادة له، وكل أمر لم يصدر من اللَّه وائتمر به الانسان كان نوع شرك وعبادة للأصنام.

۲- بيت العنكبوت من آيات اللَّه العظمى

بيت العنكبوت من عجائب الخلق، كذلك العنكبوت نفسه الذى يبدو بأعيننا موجوداً قليل القيمة. وقد اكتشف العلماء حتى الآن عشرين ألفاً من أصناف العنكبوت ذات أشكال وسلوك وحياة متباينة. فى القسم التحتانى من بطنه توجد حفرة صغيرة بحجم رأس الأبرة، فى داخلها سائل لزج يُدخل العكبوت أطرافه فيها ويخرج مقداراً من هذا السائل اللزج يصنع منه خيوطاً تُستحكم عند تعرُّضها للهواء، وبهذه الخيوط ينسج بيتاً أو شبكة للصيد. يوفر العنكبوت غذاءه من خلال الحشرات التى تقع فى شبكته، فهو من الحيوانات التى امثال القران، ص: ۳۹۴ تتغذّى على اللحوم. بعض الحشرات تقع فى الشبكة وهى طائرة، فيهمُّ بسرعة على لفِّها بخيوطه لتصبح سجينته حتى الموت فيأكلها عندئذٍ. لهذه الخيوط خصائص فريدة نشير إلى بعضٍ منها: الاولى أكثر استحكاماً من الفولاذ، فإذا صنعنا خيوطاً من الفولاذ بنفس مقاسات خيوط العنكبوت كانت خيوط العنكبوت أكثر استحكاماً، وإذا صنعنا أنابيب من سائل العنكبوت بحجم قطر انابيب الفولاذ كانت أنابيب سائل العنكبوت أقوى وأكثر استحكاماً بمرات. الثانية: ينسج العنكبوت من السائل الموجود فى حفرة بطنه ما يقرب من ۵۰۰ خيطاً أو وتراً، وهذا أمر عجيب حقاً. الثالثة: الأعجب من ذلك كله أن بعض الخيوط تشكّلت من أربعة خيوط أقل سمكاً، كلٌّ منها يتشكل من ألف خيط. ألم يكن ذلك من آيات اللَّه؟ «وَكَأيِّن مِنْ آيَةٍ فِى السَّماواتِ وَالأرْض يَمرُّونَ عَلَيْهَا وهُمْ عَنْها مُعْرِضُونَ» «۱». الرابعة: هندسة العنكبوت مما تثير الإعجاب، فهذا الحيوان الضعيف ينسج بيته على غرار أشعة الشمس بنحو مساوى ومنتظم، مراعياً فى ذلك الفواصل والزوايا بدقة فائقة. خلاصة الكلام، أن اللَّه تعالى أعمل دقة ونظاماً فى غاية الدقة عند خلقه هذه الحشرة التى تبدو ضعيفة. كلٌّ من العجائب تكفى لمعرفة اللَّه تعالى، مع أن الكون مفعم بهذه العجائب والآيات، ولا مسألة غير التوحيد تتمتع بهذا المقدار من البراهين والأدلة، فلها مليارات من البراهين، فكلٌّ من النجوم والكواكب وحتى الحيوانات وأوراق الاشجار والبشر كلها أدلة على اللَّه تعالى، فهو ليس بالأمر الخفى. سؤال: إذا كان وجود اللَّه تعالى بهذه الدرجة من الوضوح فلماذا

ينكره الماديون؟ امثال القران، ص: ۳۹۵ الجواب: إنَّهم يقرّون بوجود اللَّه بنحوٍ أو آخر لكنهم يبدّلون اسمه، فعندما يتحدّثون عن عظمة اللَّه وقدرته المتجلّية فى معدة الانسان حيث يمكن له العيش بثلثها فقط، يقولون: (الطبيعة عملت بنحوٍ حيث يمكن للانسان العيش بثلث المعدة إذا تعطَّل ثلثا أجزاء المعدة، فعند التعطيل يقوم الجزء غير المعطَّل بجميع النشاطات المطلوبة من المعدة). وفى الحقيقة مرادهم من الطبيعة هو اللَّه تعالى، فنحن ندعوه ونخاطبه ولا ـ ندعو الطبيعة ولا ـ نخاطبها؛ لأنَّها غير ذات شعور وليست أهلًا للخطاب.

۳- فلسفة التمثيل بحيوان ضعيف

عندما سمع المشركون تشبيه اللَّه المشركين بالعنكبوت وأصنامهم ببيت العنكبوت اعترضوا وتساءلوا عن سبب تمثيل اللَّه بحيوانات ضعيفة، وهل هى تتناسب مع عظمة اللَّه؟ أجاب القرآن عن اعتراضهم وتساؤلاتهم من خلال الآية ۴۳ من نفس السورة، حيث قال: «وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا للنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إلَّاالعَالِمُونَ». أى أن الفصيح والبليغ يتكلَّم بما يقتضيه الحال، فإذا كان الحديث عن ضعف وهون موجودٍ من قبيل معبود المشركين فعليه التمثيل بما يكشف عن هذا الضعف والوهن، وأى مثال أفضل من بيت العنكبوت يكشف عن ضعف وهون الأوثان؟

۴- قيمة العلم

أكّد القرآن على العلم والمعرفة فى موضعين من الآيات المتقدّمة: الاول: فى نفس المثل حيث ذيّله بالعبارة التالية: «لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ». والثانى: عند الإجابة على اعتراض المشركين على تمثيل القرآن بحيوانات ضعيفة مثل العنكبوت والبعوض، فقد جاء هناك: «وَمَا يَعْقِلُهَا إلَّاالعالِمُونَ». مفهوم الجملتين، حيث أكّد فيهما القرآن على العلم، هو كون العلماء والمفكرين هم المخاطبون الأصليون لهذا الكتاب، رغم أنَّه كتاب لجميع البشر. امثال القران، ص: ۳۹۶ كلَّما ازدادت قابلية الانسان العلمية كلَّما ازداد نهماً منه. أهمية العلم فى ديننا بالغة بحيث يُعدُّ رأس الفضائل وغايتها «۱»، كما أنَّه من الأعمال الموصى بها فى ليالى القدر، رغم كون هذه الليالى للدعاء والمناجاة والتوبة «۲».

مباحث تكميلية

۱- لنعتبر من التاريخ

اشارة

عندما نتصفّح التاريخ نجد شواهد كثيرة تحكى عن ضعف وهون كلّ قدرة غير اللَّه تعالى. يحكى القرآن الكريم قصة قوم سبأ فى الآيات ۱۵- ۲۱ من سورة سبأ، وهى نموذج كامل وشاهد حقيقى على ما نقول.

خلاصة قصة قوم سبا

كانت فى بلاد قوم سبأ جبال تجرى منها سيول عند هطول الأمطار، ممَّا يؤدى إلى تدمير مزارعهم ومنازلهم، فأقدموا على إيجاد سدٍّ ترابى يمنع وصول السيول إلى المزارع والمنازل، ويبدو أنَّه أول سدٍّ بناه البشر، فأوجدوا بحيرة عظيمة خلف السد، كما أوجدوا قنوات لرى المزارع والبساتين. تبدّلت بلادهم ببركة هذا السد إلى مزرعة عامرة عظيمة ملؤها الأزهار والثمار والفواكه، فازدهر اقتصادهم،

وكان منشأ لبلورة حضارة سمّيت باسمهم، وقد بلغ الرفاه والنعم فى بلدهم إلى درجة كانت الطرق جميعها مُظلَّلة بالاشجار المثمرة، وكان المسافرون يمشون تحت ظل الاشجار ما داموا فى هذا البلد، كما كانوا فى غنى عن حمل أمتعة معهم باعتبار وفرة فواكه واثمار أشجار الطريق، بل كان يكفيهم أن يحملوا معهم سلة يملؤونها من أمتعة الطريق. لكن وفور النعمة يبعث إلى الغرور والغفلة، فقد بدأ يصدر من البعض ما يكشف عن امثال القران، ص: ۳۹۷ نكرانهم نعم اللَّه، فكانوا يقولون مثلًا: (يا له من وضع، فقد كان السفر خاصاً بالأثرياء، وحالياً الجميع بإمكانه السفر)، أو (يا له من بلد تتّصل فيه القرى بالمدن والقرى بالقرى وكل مكان فيه مشجَّر ومعمور؟ يارب فرّق بين القرى ، وكثير من الكلمات الاخرى التى تصدر عن غفلة. أدَّى نكران النعمة إلى نزول العذاب الإلهى وتدمير ما كان معموراً. هل تعلمون كيف دمّر اللَّه هذا البلد العامر؟ هل دمَّره بالقنابل النوويـة؟ كلا، كانوا ضعفاء كبيت العنبكوت، فما كانت الحاجة إلى قنابل نوويـة، فقد أوكل اللَّه وظيفة تدمير هذا البلد إلى مجموعة من الفئران، لكى يُفهم الانسان أن كل قدرة غير اللَّه ضعيفة كضعف بيت العنكبوت. أوجدت الفئران ثقوباً صغيرة فى السد توسَّعت هذه الثقوب تدريجياً إلى أن أدت إلى انهيار السد فى ليلة تزامن مع صوت مرعب، وغطى الماء البلد لكى يتبدَّل إلى مستنقع بعد ما كان يبدو بلداً أخضر من كثرة الأشجار والمزارع والبساتين، ولم يعد بلداً مؤهلًا للعيش، فهجره أهله إلى البلاد المجاورة.

۲- أليس الاتكال على غير اللَّه اتكال على بيت العنكبوت؟

النموذج الآخر للقدرات الشبيهة ببيت العنكبوت هو قدرة الشاه نادر قلى أفشار، فقد استطاع بقدرته طرد الأفغان الذين كانوا يسيطرون على إيران ظلماً وعدواناً ثمّ أقدم على توسيع رقعة سلطته، فهاجم عدَّة دول حتى وصل الهند وتحوّل إلى اسطورة، لكنَّ هذه الأسطورة وافاها الأجل ببساطة. فى ليلة غضب على أحد طباخيه، وخوفاً من توقيع حكم إعدامه صباح اليوم اللاحق سابق الطباخ وأقدم على قتل نادر شاه ليلًا وقطع رأسه، وهو نائم. نعم، هذا هو شأن كل قدرة بيت عنكبوتيـة، وإذا دقَّق الناس فهموا أنه لا يمكن الوثوق بقدرة غير قدرة اللَّه، ولا يمكن الاتكاء على غير الوحيد الأحد.

المثل الثانى والأربعون: توحيد المالك

اشارة

يقول اللَّه تعالى فى الآية ۲۸ من سورة الروم: «ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِنْ شُرَكَاءَ فِى مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَواءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآياتِ لِقُومٍ يعْقِلُونَ».

تصوير البحث

نظراً للأهمية الفائقة للتوحيد وفروعه المختلفة جاء هذا المثل لبيان أحد فروع الشرك والتوحيد، منطلقاً من بعض عقائد المشركين وموظفاً وجدانهم وفطرتهم للتفكير فى التوحيد، ومن خلال طرح بعض التساؤلات حثَّهم على التفكُّر فى عبادة الأصنام وقضاياه المختلفة.

فروع التوحيد

اشارة

للتوحيد فروع مختلفة نشير إلى بعض منها باختصار.

۱- توحيد الذات

توحيد الذات يعنى القول بأن ذات اللَّه تعالى واحدة، وهو خالق ومبدأ كل شيء، وفى قبال ذلك الوثنيون الذين يقولون بمبدأين الكون هما: اللَّه والشيطان، وأن الانسان مخلوق من الشر والخير، وخالق الخير لا يمكنه أن يكون خالقاً للشر، كما أن خالق الشر لا يمكنه أن يكون امثال القران، ص: ۴۰۰ خالق الخير، واللَّه مبدأ الخير، والشيطان مبدأ الشر. واجهت الأديان التوحيدية وبخاصة الاسلام هذه العقيدة، ومن وجهة نظر المسلم لا شرَّ فى العالم، وكل ما يوجد هو خير، لكن الأشقياء يسيؤون استخدام الأشياء، فالمال والثروة والمقام والشهوة كلها خير، لكن المسيئين يستخدمونها بنحو غير مشروع، وبذلك يتبلور الشر، وسوء استخدام شيء لا يدل على كونه شراً. تجرى هذه القاعدة فى حق باقى الأحياء كذلك، فسموم الحيوانات ليست شراً؛ لأنها وسائل للدفاع عن نفسها، كما أنَّ كثيراً من الأدوية تُعدُّ بهذه السموم، لهذا نرى اهتمام بعض شركات صناعة الأدوية بقضية تربية الحيوانات السامة من قبيل الأفاعى. إذن، لا شرَّ فى الكون لكى نحتاج للقول بوجود مبدأين للكون، وكل ما يوجد يُعدُّ خيراً ولا مبدأ للعالم اكثر من واحد، فهو مبدأ كل شيء وكل أمر وهو ذات اللَّه، وهذا ما يطلق عليه توحيد الذات.

۲- توحيد الصفات

المراد من توحيد الصفات هو كون كلٍّ من الصفات عين الاخرى، عكس صفات الانسان، فكلٌّ منها غير الاخرى يدا الانسان من مظاهر قدرته، ودماغه وسيلته للتعقل والإدراك، أمَّا اللَّه تعالى فذاته كلها قدرة وذاته كلها علم، وذات قدرته عين ذات علمه، وذات علمه عين ذات قدرته. وهناك تفسير آخر لتوحيد الصفات، وهو أنَّه لا يمتلك أحد الصفات الإلهية، وهو وحيد فى صفاته ومنفرد بها، علمه وقدرته ورحمته وحكمته موجودة فيه بنحو استقلالى، ولم يأخذها من آخر، عكس ما عليه الانسان فقد اكتسب قدرته وعلمه من اللَّه ولم تكن فيه على نحو الاستقلال، واللَّه هو الذى منحه هذه الصفات.

۳- التوحيد فى الأفعال

هذا التوحيد يعنى رجوع جميع الأفعال والحركات والنشاطات إليه، وكل ما يملكه امثال القران، ص: ۴۰۱ الآخرون حتى الأنبياء والأولياء من حياة وحركة ونشاط يرجع إليه تعالى. إذا قالت الشيعة بالتوسُّل بالأولياء فلا يعنى ذلك قدرة الأولياء على العمل على نحو الاستقلال وأن قدرتهم على أداء شيء فى عرض قدرة اللَّه تعالى، بل تعتقد الشيعة بقدرة هؤلاء على عمل شيء بإذنٍ من اللَّه تعالى أو أن بإمكانهم الطلب من اللَّه ليلبى حاجاتنا. إذا استطاع عيسى عليه السلام على إبصار الأعمى أو إحياء الموتى أو تبديل تمثالٍ لطير إلى طير حقيقى أو معالجة المرضى الذين انقطعت الآمال عن شفائهم، فذلك كله بإذن اللَّه لا أن عيسى عليه السلام كان قادراً بنحو مستقل على تنفيذ هذه الأعمال، كما صُرِّح بذلك فى الآية ۴۹ من سورة آل عمران والآية ۱۱ من سورة المائدة. خطأ الوهابية فى نسبة الشرك إلى الشيعة وبعض الفرق السنية ينشأ من تصوّرهم أنَّا نقول بالقدرة المستقلة لكلٍّ من الأولياء ونعتبر قدرتهم فى عرض قدرة اللَّه، مع أنَّا نعتقد فى أولياء والائمة المعصومين نفس الاعتقاد الذى صرَّح به اللَّه سبحانه فى حق عيسى عليه السلام. يسرّنى أن بعضاً من مفكّريهم التفت إلى هذا الخطأ وأصلح معتقداتهم فى هذا المجال، ونشرت له كتب تخص الموضوع «۱».

۴- التوحيد فى الحاكمية

الحاكم الوحيد للكون هو اللَّه تعالى، ومَن أراد الحكومة فعليه كسب الإذن من اللَّه والعلم وفق قوانينه، وهذا ما يُطلق عليه التوحيد فى الحاكمية، وهو من فروع التوحيد. الحكومات حتى حكومات الأنبياء تكتسب شرعيتها من تأييد اللَّه لها، وإذا شكّل النبى صلى الله عليه

و آله حكومة فى المدينة فبإذنٍ من اللَّه تعالى. وإذا شكّل الامام على عليه السلام حكومة فى الكوفة فبأمر من رسول اللَّه وإذن من اللَّه، وكذلك حكومة باقى الأئمة عليهم السلام. حكومة الولى الفقيه فى هذا الزمان مشمولة بهذه الضابطة، فالفقيه يتولّى الحكومة فى عهد امثال القران، ص: ۴۰۲ الغيبة، وفقاً لما جاء فى روايات عن امام الزمان (عجل اللَّه فرجه) وباقى المعصومين عليهم السلام، وبهذا تكتسب حكومة الولى الفقيه شرعيتها من اللَّه، رغم أن قبولها من قبل الناس يعد عاملًا مؤثراً جيداً فى المجال التنفيذى. الآية ۱۸۹ من سورة آل عمران تشير إلى هذا الفرع من فروع التوحيد، حيث جاء هناك: «وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ والأرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ».

۵- توحيد المالك

توحيد المالك يعنى اعتبار اللَّه مالكاً لكلِّ شيء فى السماوات والأرض، بعبارة اخرى الملكية الحقيقية للَّهفقط، وما عند الآخرين فبإذن اللَّه ومنه تعالى. ملكية اللَّه للكون ملكية تكوينية، فهو الذى خلق الكون وحافظ عليه. وقد جاء فى بداية آية الكرسى: «اللَّهُ لَاإلهَ إلَّا هُوَ الحَيُّ القَيُّوم» «۱» ، والقيوّم تعنى القائم بالذات والمقوِّم للغير، أى أن اللَّه قائم وباق بالاتكاء على ذاته، وقيام وبقاء باقى الموجودات مرتبط به، فهو خالق الكون وحافظه، ولهذا يُعدُّ المالك الحقيقى له. أمَّا ملكية الانسان للبيت والسيارة وما شابه فملكية اعتبارية لا حقيقية، رغم امكانية تصوّر الملكية الحقيقية فى حق الانسان؛ لأن ملكيته لعينه ويده واذنه وباقى أعضائه ليست ملكية اعتبارية بحيث يمكن بيعها وشراؤها ونقلها بل ملكية حقيقية، بالطبع فى طول ملكية اللَّه لها لا فى عرضها. إذن، اللَّه المالك الحقيقى للكون كله، وجعل مالك له غير اللَّه يُعدُّ شركاً، والمشركون عُدُّوا كذلك؛ لأنهم كانوا يعتبرون الأصنام تملك النفع والضرر، ويقولون بتأثيرها بنحو مستقل لا بإذن اللَّه، وذلك شرك. أشارت آية المثل إلى هذا الفرع من فروع التوحيد، ومع لحاظ ما تقدَّم نبتُّ بشرحها.

الشرح والتفسير

«ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِن أنْفُسِكُمْ». جملة «مِن أنْفُسِكُمْ» تشير إلى مطلب جيّد، وهو أن اللَّه يوظّف معتقدات المشركين الباطلة امثال القران، ص: ۴۰۳ لإبطال عقائدهم الاخرى وهى نقطة مهمة فى المناظرات والمناقشات، ولا تعنى صحة الاعتقادات الموظّفة والمستدل بها. «هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكاءَ مِنْ ما رَزَقْنَاكُمْ». خلاصة المثل: لو كان لك عبد لا يملك شيئاً ولا صلاحية له لعمل شيء إلَّابإذنك، فهل أنت مستعد لجعل ذلك العبد شريكاً لك فيما رزقك اللَّه وفيما جعله ملكاً لك؟ «فَأنْتُمْ فِيهِ سَواءٌ». بأن تتساوى أنت وعبدك فى الأملاك واتخاذ القرارات وإبداء الرأى. «تَخَافُونَ كخيفتِكُم أنْفُسَكُم». ذكرت تفاسير مختلفة لهذه العبارة نبيّن واحداً منها: ان تشترك مع عبدك فى جميع الاموال والممتلكات وتخاف أن يتصرَّف العبد بالأموال المشتركة بنحو مستقل «۱». عندئذٍ فهل أنت مستعد لإشراكه فى أموالك كلها؟ أنت غير مستعد قطعاً. إذن لماذا تجعلون للَّهشركاء من الأصنام، مع أن جميع ما فى الكون من مخلوقات للَّه؟ وهل يمكن أن يكون مخلوق اللَّه شريكاً له؟ عبدك ليس شريكاً لك، فكيف تجعل مملوك اللَّه شريكاً له؟ أنت غير مستعد لإشراك عبدك فى أموالك رغم أنَّ ملكيتك لها اعتبارية، فكيف لك أن تجعل مخلوق اللَّه شريكاً له، مع أن ملكيته للمخلوقات حقيقية؟ «كَذَلِكَ نفصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْم يَعْقِلُونَ». العقلاء والعلماء والمفكرون مخاطبون فى القرآن دائماً، والدين الذى يدعو دائماً للتعقل والتفكير والعلم هو دين إلهى؛ لأنَّ الأديان الباطلة وغير السماوية تدعو للجهل، وتجعل امثال القران، ص: ۴۰۴ أتباعها يعيشون الجهل لكى يتيسَّر لها الاحتفاظ بهم. جاء فى رواية عن الامام الصادق عليه السلام: «إن الثواب بقدر العقل» «۱»، وبناءً على هذا الحديث لو أنَّ عدداً من الناس صلوا ركعتين فانهم لا ينالون ثواباً متساوياً، فقد يعادل ثواب صلاة أحدهم مائة ألف ضعف ثواب صلاة الآخر، بل قد لا يصل ثواب صلاة أحدهم مستوى ثواب ركعتين؛ وذلك لأن العقل مُعامِل لثواب الأعمال.

خطابات الآية

۱- اللَّه مالك لكلِّ ضرر ونفع، ولا يؤثر شيءٍ دون إذنه، وحتى النار لا تحرق دون إذنه، ولهذا لم تحرق نار نمرود إبراهيم عليه السلام ولم تضرّه أقلّ ضرر؛ لأن اللَّه لم يأذن لها بذلك. السكين لا تقطع دون إذن اللَّه، ولهذا لم تذبح إسماعيل رغم ظرافة رقبته ورغم قوّة إبراهيم عليه السلام؛ وذلك رغم أن اللَّه أمر الخليل بالذبح إلّاأنَّه لم يأذن للسكين بالقطع، وهذا ما يُدعى بالتوحيد فى الأفعال. ۲- تقدَّم أن اللَّه يستخدم بعض عقائد المشركين ويوظّفها لغرض إبطال عقائدهم الاخرى، رغم أن العقائد المستخدمة غير صحيحة. وقد استخدم القرآن هذا المنهج فى آية هذا المثل، وأثبت بطلان عقائدهم من خلال عقائدهم ذاتها، وقال: إذا كنتم غير مستعدين لتشريك عبيدكم بأموالكم وممتلكاتكم فكيف لكم أن تجعلوا مخلوقات اللَّه شركاء له؟ بالطبع لا يعنى ذلك أنهم لو استعدوا لهذه الشراكة جاز جعل شريك للَّه. وقد استخدم هذا المنهج فى موارد اخرى كذلك، على سبيل المثال يعتقد المشركون بأن الملائكة بنات اللَّه، مع أنَّهم يخجلون من تبشيرهم بولادة بنت لهم، كما نقرأ ذلك فى الآية ۵۷- ۵۹ من سورة النحل: «وَيَجْعَلُون للَّهِ البَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشتَهُونَ وإذا بُشِّرَ أحَدُهُمْ بالانْثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسوَداً وَهُو كَظِيمٌ يَتَوارى مِنَ القَوْم مِنْ سُوءِ ما بُشِّرِ بِهِ أيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرابِ ألا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ». امثال القران، ص: ۴۰۵ إذا كنتم تعدّون البنت موجوداً غير ذات قيمة فلماذا تجعلون للَّه‌بنات. بالطبع، هذا لا يعنى إقرار اللَّه تعالى بما يعتقدون به تجاه البنات، بل الآية تريد تنبيه المشركين على عدم انسجام عقائدهم، وهو بحدِّ ذاته دليل على بطلانها؛ لأنَّ العقائد الحقة منسجمة دائماً.

بحث تكميلى

الرق من وجهة نظر الاسلام

الرق ممَّا يرفضه وجدان البشرية جميعها، ولهذا انتفضت ضده البشرية قبل قرن، لتعلن اغلاق اضبارة الرق، وما بات لأحدٍ بعدها الحق فى امتلاك انسان آخر أو اعتباره عبداً له، رغم أن بعضاً من مدافعى مايصطلح عليه بحقوق البشر يمارسون هذه التجارة ويشترون أطفالًا من الدول الفقيرة بأسعار زهيدة ليبيعونهم فى الدول الغربية بأسعار باهضة. سؤال: ما رأى الاسلام فى الرق؟ وباعتبار أن الاسلام بشَّر بالحرية، فهل خطى فى هذا المجال؟ وهل سلك منهجاً خاصاً لتحرير العبيد؟ الجواب: لاتّضاح الجواب على هذا السؤال ينبغى توضيح ثلاثة مطالب: الاول: لم يبدع الاسلام ظاهرة العبودية، بل هى كانت موجودة قبل الاسلام بآلاف السنين. الثانى: رسم الاسلام خطَّة لتحرير العبيد ونفّذها خلال مراحل. المرحلة الاولى ترغيب الناس لتحرير العبيد من خلال أقوال المعصومين عليهم السلام وكذا أفعالهم، فعلى سبيل المثال وردت الرواية التالية عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «شرُّ الناس من باع الناس» «۱». طبقاً لهذا الحديث فإن التعامل على الانسان أسوء تعامل، ومعاملته أسوء معاملة، وهناك روايات اخرى نعرض عن ذكرها. رغَّب المعصومون عليهم السلام الناس عملياً فى تحرير العبيد، ومن مفاخر الامام علىّ عليه السلام أنَّه حرَّر امثال القران، ص: ۴۰۶ ألف عبد من كد يده «۱». كما أن الامام الحسن عليه السلام حرَّر إحدى جواريه بداعى أنَّها أهدت له زهرة «۲». المرحلة الثانية: الحدّ من مصادر التعبيد، فالإسلام منع ترقيق الانسان بسبب ديونه أو سرقته، كما منع بيع الأحرار على من غصبهم، كما نهى بشدّة عن بيع الأولاد من قبل والديهم بسبب الفقر. المرحلة الثالثة: اتخاذ الإجراءات العملية لتحرير العبيد، فقد نفّذ الاسلام إجراءات عملية كثيرة فى هذا المجال، من قبيل فتح مجال لهذا الأمر فى باب الزكاة، وجعل كفارة بعض الذنوب تحرير رقبة، كما منع بيع الجارية ذات الولد من مولاها، لكى تتحرَّر من إرث ابنها بعد وفاة مولاها، كما سمح للعبيد الاستئذان من المولى للعمل ولتهيئة المبلغ الكفيل لشراء النفس وتحريرها من مولاها. سؤال: لماذا لم يحرِّر الاسلام العبيد دفعة واحدة، ولم يعلن حريتهم فى وقت واحد؟ الجواب: لم يكن ذلك لصالح العبيد؛ لأنهم كانوا قد قدموا الحجاز من بلاد بعيدة، ولم يكن لهم فى الحجاز أحد، كما لم يكن لهم ثروة، ولو تركوا أحراراً آنذاك لانسابوا فى الشوارع والأزقة، ولشكّلوا كارثة، ولمات بعضهم من الجوع، أمَّا لو تحرّروا بنحو تدريجى لاستقطبهم المجتمع دون مشكلة. الثالث:

غيّر الاسلام مفهوم العبودية، ونهى عن قتل العبيد وتعذيبهم وإيذاءهم، واعتبرهم كباقى الناس، ومنحهم نفس الشخصية التى يتمتّع بها باقى البشر، ولهذا كان الامام على عليه السلام يشترى ثوبين ويعطى واحداً منهما لقنبر غلامه، وفى رواية أنه اشترى ثوبين أحدهما بثلاثة دراهم والآخر بدرهمين وطلب من قنبر أن يأخذ الذى بثلاثة دراهم «۳». امثال القران، ص: ۴۰۷ وبهذا لا يبقى العبد عبداً بل يصبح سيداً، بل أكثر من ذلك حيث سمح الاسلام للعبد أن يصبح إمام جماعة وقاضياً وآمراً عسكرياً. وجاء فى سيرة الامام السجاد عليه السلام: كان له عبد كسول وكثير النوم، فدخل الامام المنزل يوماً ورآه نائماً وقد عرق كثيراً من شدّة الحر فأخذ يروّح له بالمروحة، وبعد ما استراح استيقظ، فقال له الامام: استرح لكن عليك أداء وظيفتك تجاهنا كذلك. للمزيد راجع الأمثل «۱» ذيل تفسير سورة محمّد صلى الله عليه و آله.

المثل الثالث والأربعون: انتصار الفئة القليلة على الفئة الكثيرة

اشارة

يقول اللّه تعالى فى الآيات ۱۳- ۳۰ من سورة يس: «وَاضْرِبْ لَهُم مَثَلًا أَصْحَابَ القَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا المُرسَلُونَ* إِذْ أَرْسَلنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُرْسَلُونَ* قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمنُ مِن شَىءٍ إِن أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ* قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ* وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا البَلاغُ المُبِينُ* قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لئِن لَمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ* قَالُوا طَائِرُكُم مَعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَل أَنتُمْ قَومٌ مُسْرِفُونَ* وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا المَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا المُرْسَلِينَ* اتَّبِعُوا مَن لَّايَسْئَلُكُمْ أَجْراً وَهُم مُّهْتَدُونَ* وَمَالِىَ لَاأَعْبُدُ الذِى فَطَرَنِى وَإِلَيهِ تُرجَعُونَ* ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً ان يُرِدْنِ الرَّحْمنُ بِضُرٍّ لَّاتُغْنِ عَنِّى شَفَاعَتُهُمْ شَيئاً وَلَا يُنقِذُونِ* إِنِّى إِذاً لَّفِى ضَلالٍ مُّبِينٍ* إِنِّى آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ* قِيلَ ادْخُلِ الجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ* بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ المُكْرَمِينَ* وَمَا أَنزَلنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ* إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ* يَا حَسْرَةً عَلَى العِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِن رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ».

تصوير البحث

المثل المزبور يرتبط بوضع المسلمين فى مكة، فقد كانوا فئة قليلة، وكان المشركون يشكّلون الأكثرية، والقرآن استهدف من بيانه هذا المثل إعطاء المسلمين وعداً بالنصر امثال القران، ص: ۴۱۰ وتسكين قلوبهم وطمئنتها من خلال نقل قصص ذات صلة. هذا من جانب، ومن جانب آخر هدَّد فئة الأكثرية من المشركين وحذّرهم من الاغترار بكثرة نفوسهم وقدرتهم فقد تغلب الفئة القليلة الفئة الكثيرة. يمكن النظر إلى آية المثل من زاويتين، وفقاً لإحداهما تكون الآية تشجيعاً وطمئنة للأقلية، ووفقاً لثانيهما تكون الآية تهديداً لأعداء الاسلام ومشركى مكة.

الشرح والتفسير

تذيّلت هذه الآيات بأبحاث مختلفة فى الروايات والتفاسير، نأتى بملخّصها هنا، لكن قبل شرح الآيات نوضّح مفردة (قرية) و (أصحاب القرية). القرية لغة تعنى جمع الناس أو المصر الجامع، ولهذا أطلق القرآن هذه المفردة على مكة «۱» رغم كونها مدينة كبيرة آنذاك، كما استخدمت هذه المفردة فى مصر «۲» (البلد العربى المعروف)، والقرية تُطلق على كل تجمّع للناس سواء كان ذلك فى ريف أو مدينة، وسواء فى المدينة الكبيرة أو الصغيرة أو بلد، فهى تصدق على كل تجمُّع سكانى انسانى، لكن المعنى المراد فى الآية هو الاول، أى تجمُّع الناس. والمراد من أصحاب القرية هو أهالى انطاكية، وهى مدينة تقع فى جنوب شرقى تركيا على ضفاف البحر

الأبيض المتوسط، وقد كانت جزءً من الشامات فى السابق، أى جزءً من الروم الشرقية، ووقعت بأيدى الفرنسيين فى الحرب العالمية الاولى وقد أراد الفرنسيون إرجاعها إلى المسلمين آنذاك؛ لكنهم وجدوا أغلب أهاليها من المسيحين واحتملوا إيذاءهم من قبل المسيحيين فأعطوها لتركيا. كانت انطاكية قبل ظهور المسيح بلداً عامراً ومركزاً لتجمُّع المشركين وعبدة الأوثان، وبعد بعثته أرسل إليها اثنين من حوارييه يُدعيان بولص وبرنابا «۳». امثال القران، ص: ۴۱۱ التقى المبعوثان قرب انطاكية راعياً كبير السنّ يُدعى (حبيب النجار)، فحصل حوار بينهم، سألهما حبيب النجار: من أنتما ومن أين جئتما؟ فقالا: نحن مبعوثا السيد المسيح رسول اللَّه عيسى بُعث مؤخراً، جئنا انطاكية لدعوة أهلها إلى عبادة اللَّه ودين عيسى عليه السلام. قال الشيخ: هذا إدعاء كبير، ويمكن لكلِّ أحد أن يدعيه، فهل لكما دليل ومعجزة لاثبات كلامكما؟ قالا: نعم، نشفى الذين استعصت أمراضهم. قال الشيخ: لى مريض قعيد المنزل منذ سنوات، فإذا عالجتموه كنت أول من آمن بكم. قصد المبعوثان المريض وعالجاه، وبذلك آمن حبيب النجار بالدين الجديد. ثمّ دخلا المدينة ودعيا الناس إلى الدين الجديد، فآمن المشركون بعد ما رأوا معاجز منهما. وانتشر خبرهما وشاع فى انطاكية كلها، فكان الناس يقصدونها أفواجاً أفواجاً ويؤمنون بهما. غضب من هذا التحوّل أولئك الذين كانوا يرون مصالحهم فى الاستمرار على عبادة الأصنام، فهاجموا المبعوثين وانهالوا عليهما بالضرب الشديد. أحاط الخطر ببولص وبرنابا، فقصدا ملك أنطاكية يشتكيان عنده حالهما، لكن هؤلاء منعوهما من لقائه. وبعد التفكير فى الموضوع قرّرا الانتظار جنب جدار القصر ويلفتا نظر الملك بالتكبير (اللَّه أكبر) عندما يخرج، باعتبار كون التكبير عبارة جديدة، وعندها يلتقيان به ويطرحان شكواهما عنده. بعد مدَّة خرج الملك من قصره، فكبَّرا، فسمع تكبيرهما وانتبه لهما، فسأل حواشيه: مَن هما؟ فأجابوه: إنَّهما انتفضا على أصنامنا وأهانوها، فأمر بسجنهما دون أن يسمع كلامهما. بلغ عيسى عليه السلام خبر اعتقالهما، لكن هذا الخبر لم يثنه عن عزمه ولم يثبط عزيمته فى الدعوة إلى التوحيد، فكان يعلم بأن التبليغ لا يتمُّ إلَّابمبالغ طائلة وثمن غالٍ وبشهداء ومعوّقين واسرى وينبغى تحمُّل هذه كلها لأجل القيام بهذه المهمَّة، فأمر شخصاً آخر لاستمرار عملية التبليغ، وهو (شمعون الصفا) رئيس الحواريين. امثال القران، ص: ۴۱۲ بعد دخول شمعون المدينة أدرك ما كان قد أوجده الدين الجديد من ضجيج وصدى فما رأى المصلحة فى التبليغ له بنحو مباشر بل فى التقرُّب إلى الملك مستهدفاً النقطة الأساسية للخطر. ولأجل ذلك أوجد تدريجياً علاقة صداقة مع بعض شخصيات البلاط، وباعتبار حسن بيانه وفكره وأخلاقه كسب ثقة البلاط بسرعة، فعرّفوه إلى الملك، وبعد فترة قصيرة استطاع زرع محبته فى قلب الملك وازداد شأنه عند الملك شيئاً فشيئاً. مضت أيام وهو يترصد اليوم والفرصة المناسبة لإنقاذ زملائه وللقيام بعملية تبليغ الدين الجديد. وفى يوم انفتح الكلام عن سجينين يدعيان بولص وبرنابا، فسأل شمعون الملك: ما ذنبهما؟ فحكى الملك قصتهما بالتفصيل، فسأله شمعون: وهل حقَّقت فى ذنبهما أم لم تحقق؟ فأجاب الملك: عندما شاهدنا نشاطهما غضبنا عليهما وأودعناهما السجن دون أن نحقِّق فى أمرهما. قال شمعون: كان من الأفضل أن تحقِّق فى أمرهما، واسمح لهما حالياً أن يأتيا ليتم التحقيق. فوافق الملك على ذلك وجىء بهما إلى هناك. لم يعرّف شمعون نفسه، وباشرهما بالسؤال: لماذا سجنوكما؟ وما جنايتكما؟ قالا: نحن مبعوثا الرسول عيسى عليه السلام امرنا أن ندعو الناس إلى التوحيد. قال شمعون: وما دليلكما على ما تقولانه؟ وهل لكما معجزة تثبت ذلك؟ قالا: نعم، نعالج المرضى المستصعب علاجهم بإذن اللَّه. أمر الملك للاتيان بمريض استحال علاجه فعالجاه، ممَّا آثار تعجّب الملك وحواشيه. فسألهما شمعون: وهل لكما معجزة اخرى قالا: نحيى الموتى بإذن اللَّه، ففعلا ذلك أمام الملك. عندئذٍ حذّر شمعون الملك من فقدانه التاج والعرش إذا لم يستسلم لمبعوثى عيسى عليه السلام؛ لأن آياتهما صحيحة وتثبت كونهما من مبعوثى رسولٍ بعثه اللَّه. وبهذه الخطة الدقيقة التى رسمها شمعون أسلم الملك بعدما اتّضحت له الحقيقة، وبعد ما بلغ الناس اعتناق الملك الدين الجديد قدموا أفواجاً أفواجاً معلنين اعتناقهم الدين الجديد. اعتنقت انطاكية جميعها هذا الدين الجديد إثر مساعى هؤلاء المبلغين الثلاثة، وإثر تحمّلهم امثال القران، ص: ۴۱۳ المشاق والمتاعب والسجن والتخطيط الصحيح وتغيير اسلوب الدعوة فى الوقت المناسب. وفقاً لهذا التفسير، فإنَّ الآيات الثمان عشرة لهذا المثل عبارة عن طمئنة وتبشير للأقلية المسلمة المتواجدة فى مكة، فهى تخاطبهم: أيها المسلمون الذين تعيشون تحت وطأة الضغط والتعذيب، لا تخافوا قلَّة

عـددكم، فإنكم ستنتصـرون على الأعـداء الأكثريـة فى مكة إذا اسـتقمتم وتحملتم المصاعب وواجهتهم المشاكل والمصائب وخططتم تخطيطـاً صـحيحاً واسـتخدمتم الاسـلوب الأنـجع فى الإعلام والتبليغ، رغم كثرة أعـدائكم وتفوّقهم عليكم بالكميـة. وفقاً لنقلٍ وحكايةٍ اخرى لهـذه القصـة، شـهدت عليه بعض الآيـات حسب الظاهر، فإنَّ رسل عيسـى عليه السـلام قتلوا بعـدما بتّوا بالتبليغ هناك ولم يؤمن الملك ولا الناس بهـذا الـدين الجديـد إلَّا البعض، فابتلوا بعذاب اللَّه، وكان من نوع الصاعقة السـماوية، أشارت لها الآية ۲۹ من سورة يس: «إِنْ كـانَتْ إِلَّاصَيْحَةً واحِدَةً فَإِذَا هُمْ خامِدُونَ». وفقاً لهـذا التفسـير، فإن الآيات المتقدِّمـة تهديـداً للأكثريـة المشـركة فى مكـة، وتخـاطبهم: لا تغتروا بكثرتكم، فلا حاجـة للكثرة والعـدد الكبير لتـدميركم، ويكفيكم صـيحة اللَّه لتوجـد زلزال تحترقون به جميعكم. إذن، للآيات المزبورة تفسيران، أحدهما: كونها طمئنة للمؤمنين، وثانيهما: كونها تهديداً للمشركين.

خطابات الآيات

اشارة

للآيات المزبورة خطابات كثيرة نقتنع بثلاثة منها:

۱- لا تخافوا قلَّة عددكم

لا ينبغى للمؤمنين أن يخافوا الأعداء لقلَّة عددهم، وفى هذا المضـمار يقول الامام على عليه السـلام: «لا تستوحشوا فى طريق الحق لقلّة أهله» «۱»، فإن القلَّة عنـد اللَّه كثرة، كما جاء فى الآية الكريمة: امثال القران، ص: ۴۱۴ «كَمْ من فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَت فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّه» «۱». على الشـباب الـذين يهاجرون للـدول الغربيـة لغرض الدراسـة أن لا يخافوا عنـدما يجـدون أنفسـهم وحيدين فى عبادة اللَّه وطاعته بين مجموعـة كبيرة من عبدة الأهواء، ولا ينبغى لهم أن ييأسوا من هذا الوضع وينجرفوا مع الكثرة. أيها الموظف المتدين فى الدائرة، الذى تجـد نفسـك الوحيـد الـذى لاـ تسـمح لنفسـك أخـذ الرشوة، عليك أن لا تخاف من انفرادك، واسعَ لأن تنهى زملائك عن المنكر وتأمرهم بالمعروف، وإذا صبرت واستقمت فى هذا الطريق فسيلتحق بك الآخرون.

۲- الاتحاد سرّ الانتصار

خطـاب الآيـة الآـخر هو الاتحـاد والوفاق، فقـد انتصـر الحواريون عنـدما تكاتفوا، والتكاتف هو سـر انتصارهم وكل انتصار يحصل فى مكان أو زمان ما، وهو أمر نحتاجه فى هذا الوقت أكثر من أى وقت آخر، وكل ما يدعو للتفرقة هو من الشيطان؛ لأن الفرقة منه.

۳- التخطيط فى التبليغ

ينبغى بالاعلام والتبليغ أن يتم وفق خطـة ومنهـج مُعـد، فعلى حواريى عيسـى الأولين أن يـدعوا الناس إلى التوحيـد علناً، وعنـدما ابتلوا بالسـجن كان على شـمعون أن يسـلك المنهـج غير المباشـر فى التبليغ لكى تحصل النتيجة المطلوبة. هذا هو شأننا كذلك، فلا يمكننا النجاح فى العمل مع وجود عدوٍّ مكّار ومحتال إلَّاأن نسـير وفق منهج وخطة مرسومة، وهل يمكن مواجهة عدوٍّ خطط للاستعمار خلال عشرات السنين المقبلة دون أن يكون لنا خطط وبرمجة مناسبة؟

المثل الرابع والأربعون: الشرك والتوحيد

اشارة

يقول اللّه تعالى فى الآية ۲۹ من سورة الزمر: «ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتشَاكِسونَ وَرَجُلًا سَلَماً لِرَجُلٍ هَلْ يَستَوِيانِ مَثَلًا الحَمْدُ للَّهِ بَلْ أكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ».

تصوير البحث

هـذا المثـل ككثير من أمثـال القرآن يـدور حول محور الشـرك والتوحيـد. شبِّه المشـرك هنـا بالعبـد الـذى يملكه أربـاب متعـددون ومختلفون فيما بينهم كثيراً، كلٌّ منهم يأمر العبـد بأمرٍ مختلف، ممَّا يسـبب حيرة العبـد، كما شبِّه الموحِّد بالعبـد الـذى له مولى واحـد، وكل اموره تجرى وفق برنامج ومنهج محدد.

التوحيد أساس الاصول والفروع

الكـثير من المسـلمين يتصوَّر أن التوحيـد أحـد اصول الـدين فحسب، وأنَّه بمثابـة بـاقى الاـصول الخمسـة من العدالـة والنبوة والامـامة والمعاد، كما أن فروع الـدين عشـر، مع أنَّ التوحيـد يُعدُّ الأساس لُاصول الدين وفروعه، وليس أصـلًا فى طول باقى الاصول، والاسـلام طرح أصل التوحيـد فى مجالات مختلفة، نشير إلى بعض النماذج. امثال القران، ص: ۴۱۶ الاول: نعتقـد أن خالق الكون واحد، «اللَّهُ لا إلـهَ إلَّاهُوَ الحَيُّ القيُّومُ» «۱». الثـانى: الاسـلام يقول بنوع خـاص من التوحيـد فى حق الرسـل والأنبيـاء، ولاـ يفرّق بينهم ويكنُّ الاحترام لجميعهم، «لا نُفرِّقُ بَيْنَ أحَدٍ من رُسُلِه» «۲» ، والفرق فى رسالاتهم ودينهم، فلكلٍّ دين خاص بزمانه وظروفه المكانيـة والزمانيـة، ويُعدُّ حقاً فى ذلك الزمان والمكان، فـدين موسـى كان دين الحق فى زمانه، ودين عيسـى كان دين الحق فى زمانه وعصـره، وهى من قبيل مراحل التعليم التى تبـدأ بالابتدائيـة وتنتهى بالجامعـة وتمر بالمتوسـطة والاعداديـة، أمَّا الاسـلام فهو دين إلى آخر الزمان وقيام القيامة، ويمكن تنفيذه والعمل به فى كل عصر؛ لأن الرسول محمّد صلى الله عليه و آله خاتم الرسل والانبياء. إذن يعتقد المسلمون- وفقاً للآية المتقدمـة- بنوع خاص من التوحيـد فى حق الرسل والأنبياء. الثالث: يمكن تصوّر التوحيـد فى المعاد كـذلك، بمعنى أنَّ الناس جميعاً منذ بداية خلق الانسان وحتى آخر انسان سيجتمعون فى يوم القيامة للحساب، وقد أشارت الآية الكريمة ۴۹- ۵۰ من سورة الواقعة إلى هـذا المطلب، حيث قـالت: «قُلْ إنَّ الأوَّلين والآخرِين لَمَجْمُوعُونَ إلى مِيقاتِ يَومٍ مَعْلُومٍ». إذن، هناك نوع توحيـد يمكن مشاهـدته فى يوم القيامـة. الرابع: الناس والبشـر مشـمولون بنوع خاص من التوحيـد؛ لأنهم جميعاً من أب واحـد وامّ واحدة، وكلهم سواسـية عند اللَّه تعالى ولا رجحان لأحـدهم على الآخر إلَّابالتقوى وقـد أشار القرآن إلى هذا الصـنف من التوحيد فى الآية ۱۳ من سورة الحجرات: «يَا أيُّهَـا النَّاسُ إنَّا خَلَقْنَـاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وانثى وَجَعَلْنـاكُمْ شُـعُوباً وقَبَائِـلَ لَتعـارَفُوا إنَّ أكْرَمَكُمْ عِنْـدَ اللَّهِ أتْقَـاكُم إنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ». كمـا قـال الرسول صـلى الله عليه و آله: «المؤمنون تتكافئ دماؤهُم» «۳»، ولهذا تتساوى دية المسـلمين سواء امثال القران، ص: ۴۱۷ الصغير الذى لم يمضِ من عمره إلَّاعامـاً منهم والكبير الـذى أتمَّ مراحـل دراسـية عُليا. الخامس: القانون والـدين الإلهى واحـد، ولا يُقبل من الانسان إلَّادينـاً واحـداً، وهو الاسـلام: «إنَّ الـدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإسـلامُ» «۱». السادس: يتَّحـد المسـلمون فى القبلـة التى يتجهون نحوها فى الصـلاة. السابع: كتاب المسـلمين السـماوى واحـد، وهم جميعاً تبع لكتاب واحـد، هو القرآن. الثامن: على المجتمع الاسـلامى أن يكون متحـداً ليشـكِّل امَّة واحدة. يوجد حالياً أكثر من خمسـين دولة اسـلامية تفرِّقها الحدود السياسـية والجغرافية، ومن وجهه نظر اسـلامية لا اعتبار بهـذه الحـدود، والمسـلمون جميعهم إخـوة وسواسـية، وفى هـذا المضـمار وردت الروايـة التاليـة: «المؤمن أخو المؤمن» «۲». وملخص الكلام أنَّ الـدعوة للتوحيـد والوحـدة نعثر عليها فى كل مكان، ولهـذا لا يُعـدُّ التوحيد أصـلًا من اصول الدين فحسب بل أساساً لُاصول الدين وفروعه. وهذا هو سبب تعدّد وكثرة الأمثال القرآنية التى تعرَّضت لهذا الموضوع.

الشرح والتفسير

«ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكاءُ مُتَشَاكِسُونَ». مثَّل اللَّه المشرك بالعبد الذى يملكه عدَّة أرباب متشاكسين وغير متفقين. مادة (شَكَس) تعنى الاختلاف والنزاع وسوء الخلق وسوء التعامل والمشاجرة، وأرباب هذا العبد متشاكسون ومختلفون دائماً، ويأمر كلٌّ منهم العبد بأمر يناسبه، فيتحيَّر العبد؛ لأن أحدهم يقول: إذهب إلى المكان الفلانى والآخر يقول له: لا تذهب، أو أحدهم يقول: استرح اليوم، والآخر يقول: عليك العمل اليوم وبذل جهد أكثر، أو أحدهم يقول: سافر اليوم، والآخر يقول: لا تسافر، وهكذا ... امثال القران، ص: ۴۱۸ هذا من جانب، ومن جانب فإنَّه فى حيرة من حيث مؤونته الشخصية واليومية؛ لأن كلًا من الأرباب يلقى مسؤولية تأمين احتياجاته على الآخر. وبذلك تختل حياته ويظل فى حيرة من أمره. مثل المشركين كمثل هذا العبد؛ لأنهم جعلوا حياتهم رهن هذه الأصنام فأصبحوا جاهلين بأهدافهم، وفى حيرة من أمرهم ولا يعلمون بأىٍّ يتعلّقون، فتتعلق قلوبهم بشىءٍ يوماً ما وفى يوم آخر تتعلق قلوبهم بشىء آخر. شأنهم شأن غير الموفقين والفاشلين الذين يبرمون عقدة الصداقة مع أحدٍ فى يوم ويفتحونها فى يوم آخر ليبرموها مع آخر، ويستمرون بنهجهم هذا. أو من قبيل اولئك الذين يميلون مع الريح اين ما مالت وينضمّون إلى راية فى يوم ويلجؤون إلى اخرى فى يوم آخر، فاليوم تهوى قلوبهم إلى الجاه والمقام، وغداً إلى الثروة وبعد غد إلى الشهرة، ولا ينتبهون إلى ما هم عليه إلَّاوقد انتهت أيام عمرهم. «رَجُلًا سَلَماً لِرَجُلٍ». أمَّا مثل الموحد فمثل العبد الذى له أرباب واحد، أمره واضح، وهو غير متحيّر، ومطيع لسيده ومسلّم أمره إليه، ولا مشكلة له من حيث تأمين احتياجاته. نعم، قلوب الموحّدين تعلّقت بمعبود واحد، فهو ملجأهم وناصرهم ومعينهم ومرادهم وملبىّ حاجاتهم، ولا يرجون أحداً غيره، ولا إبهام فى وظائفهم وما ينبغى عليهم فعله، فلا يعيشون حيرة ابداً. أيها الناس، كونوا فى ظل معبود كهذا، ونالوا من نوره الربانى، وأنيروا طريقكم به، فإن العزّة له والقدرة لديه والذلة بيده، ولو أرادت الدنيا بأكملها شيئاً وهو أراد شيئاً آخر فلا تتحقق إلَّاإرادته. كان فرعون قد قرَّر قتل موسى وهو فى بطن امِّه، ووظّف لأجل ذلك جميع امكانياته، فبقر بطون الكثير من الحوامل، وقتل الكثير من الأطفال، وارتكب جرائم كثيرة، لكنه ما توفّق لتحقيق رغبته وإرادته؛ لأن اللَّه كان قد أراد شيئاً آخر، فتربَّى موسى عليه السلام فى حضن فرعون نفسه، إذن علينا التعلق بربٍّ كهذا. «الحَمْدُ للَّهِ». امثال القران، ص: ۴۱۹ الحمد خاص له تعالى ومنحصر به؛ لأنّه خالق ورازق وحافظ وهادى، وما من شىء إلَّا منه عزّ وجلّ. «بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ». المشركون لا يعلمون شيئاً؛ لأن الطغيان والشهوات حالت دون إدراك الحقائق.

خطابات الآية

۱- وحدة مصدر القرارات

أول خطاب للآية هو أن يكون مصدر صناعة القرارات عند المشاكل الاجتماعية واحداً، فلو تعددت مصادر صناعة القرار فى المجتمع ولم تتّحد أو تتمركز أصبح المجتمع بمثابة العبد الذى تعددت أربابه وظلَّ متحيّراً، وبذلك يفقد المجتمع قواه، وسوف تستهلك طاقاته فى النزاعات التى تحصل بين التكتلات، وبعد فترة ينسى المجتمع قضاياه الأساسية.

۲- على عليه السلام مصداق كامل لآية المثل

المصداق الكامل والأتم لهذه الآية التى وردت فى العبد، الذى لا مولى له إلا واحد، ولا يتّبع أحداً سواه ويتوكل عليه، هو مولى الموحدين وأمير المؤمنين عليه السلام. فى هذا المضمار ننقل روايتين، احدهما وردت عن طريق أهل السنة، والثانية وردت فى مصادر الشيعة: ۱- ينقل أبو القاسم الحسكانى فى (شواهد التنزيل)، الذى يجمع شأن نزول الآيات، حديثاً عن الامام على عليه السلام فى ذيل آية المثل يقول فيه: «أنا ذاك الرجل السلم لرسول‌اللَّه». نعم، الامام على عليه السلام سلَّم أمره إلى رسول اللَّه واجتنب عن اتخاذ موالى متعددين، وهذا ليس ادعاءً، بل التاريخ يشهد له بذلك، فقد كان عاشقاً للرسول ومطيعاً له وذاباً عنه فى أخطر اللحظات. ۲- يقول

المفسّر الشيعى الكبير العياشى فى تفسيره وفى ذيل الآية المزبورة: «الرجل السلم حقاً عليٌّ وشيعته». امثال القران، ص: ۴۲۰ كان قلب على مفعماً بحب الرسول، وقلوب الشيعة مفعمة بحب على، كانت حياة على إلهاماً من حياة الرسول، وحياة الشيعة إلهاماً من حياة على، وعلى ضحّى بنفسه فى سبيل الرسول، والشيعة يضحّون بأنفسهم فى سبيل على المرتضى تكميلًا للبحث نذكر نموذجين من تضحيات الامام على عليه السلام فى سبيل الرسول صلى الله عليه و آله. الف: جاء فى الآية ۲۰۷ من سورة البقرة: «وَمِنَ النّاسِ مَنْ يَشْرِى نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ واللَّهُ رَؤوفٌ بالعِبَادِ». العلّامة الأمينى رحمه الله من عشاق أمير المؤمنين ومن شيعته ينقل فى الجزء الثانى من كتابه القيّم (الغدير) تذييلًا للآية عشر مصادر معروفة لأهل السنة يعترفُون فيها بنزول الآية فى شأن على عليه السلام، ويدَّعى التواتر فى الروايات المنقولة هنا. جاء فى روايات هذا الباب: «كمن المتآمرون حول بيت رسول اللَّه صلى الله عليه و آله محدقين به من كلِّ جانب، ومكثوا يرقبون ريثما يغلب عليه النوم لينهالوا عليه بضرباتهم، لكنَّ الحق تعالى أطلع رسوله على مكرهم، ونزل جبرئيل بقوله عزّ وجلّ: «وَإِذْ يَمكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمكُرُون وَيَمكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيرُ المَاكِرِينَ» «۱». وأتاه الأمر بأن ينام أمير المؤمنين عليه السلام فى فراشه وأن يغادر مكة فأخبر علياً عليه السلام أن المشركين آتون فى طلبه الليلة، وأنه أمر بالرحيل عن مكة إلى غار ثور، وأمر بأن يخلّفه فى فراشه، كى لا يعلم المشركون برحيله، فسأله عليه السلام: وهل ستكتب لك السلامة؟ قال: أجل، قال: حبّاً وكرامة، ثم سجد للَّهشاكراً، وكانت تلك أول سجدة شكر فى هذه الامة، ثمّ رفع رأسه وقال: اذهب أينما أمرت روحى لك الفداء، ثمّ احتضنه صلى الله عليه و آله وبكى، ثمّ استودعه اللَّه، وأخذ جبرئيل بيده وخرج به من البيت وهو يقرأ: «وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَايُبْصِرُونَ» «۲». امثال القران، ص: ۴۲۱ فلمّا تقاطروا إلى البيت عند الصبح وقف لهم أمير المؤمنين عليه السلام زاعقاً بهم، فسألوه: أين محمد؟ فأجاب: وهل أودعتموه عندى؟ لقد خرج ...» «۱». وبعدما دار نقاش بين الإمام وأبى جهل، قال الأخير: لا تشتغلوا بعلى المخدوع لينجو بهلاكه محمد، وإلَّا فما منعه أن يبيت فى موضعه وإن كان ربّه يمنع عنه كما يزعم؟ فقال على عليه السلام: «ألى تقول هذا يا أبا جهل؟ بل اللَّه قد أعطانى من العقل ما لو قسّم على جميع حمقاء الدنيا ومجانينها لصاروا به عقلاء ومن القوّة ما لو قسّم على جميع ضعفاء الدنيا لصاروا به أقوياء، ومن الشجاعة ما لو قسّم على جميع جبناء الدنيا لصاروا به شجعاناً ...» «۲». باء: فرَّ المسلمون فى معركة احد عندما واجهوا الخسارة، لكن علياً بقى يدافع عن الرسول ويصدّ كل ضربة توجَّه إليه، فكانت النتيجة ۹۰ جرحاً، وبعد انتهاء المعركة بعث الرسول بطبيبين إلى على، لكنهم عجزوا عن معالجته، وكلما خاطوا جرحاً انفتق جرح آخر لتقاربها. ثم جاء على إلى الرسول قائلًا له: استشهد فى المعركة من استشهد من أبطال الاسلام لكن الشهادة حيزت عنّى وشق ذلك علىَّ. فقال له الرسول صلى الله عليه و آله: «أبشر فانَّ الشهادة من ورائك» «۳». وعندما ضربه عبدالرحمن بن ملجم تذكّر ما بشره به رسول اللَّه صلى الله عليه و آله من الشهادة والقتل فى سبيل اللَّه فصاح بصوت عالٍ: «فُزْتُ وربِّ الكعبة» «۴». النتيجة أن علياً عليه السلام أثبت حبّه الوافر للرسول وتضحيته فى هذا السبيل، كما اتّضح أن الاسلام كأفضل دين وأكمله لم يصلنا ببساطة وسهولة لكى نفقده كذلك، بل علينا الحفاظ والدفاع عنه بأثمن ما عندنا ونضحّى بالغالى والرخيص فى هذا السبيل. امثال القران، ص: ۴۲۳

المثل الخامس والأربعون: المسيح عيسى عليه السلام

اشارة

الآيات ۵۷ إلى ۵۹ من سورة الزخرف تشكّل مثلنا الخامس والأربعين، حيث جاء فيها: «ولَّما ضُرِبَ ابنُ مَرْيَم مَثَلًا إذا قَومُكَ مِنْهُ يَصُدُّونَ وَقَالُوا ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ أمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ إنْ هُوَ إلَّاعَبْدٌ أنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنى إسْرائِيلَ».

تصوير البحث

لم يمثّل القرآن هنا كما فعل فى أمثال القرآن الاخرى بل أشار إلى مثلٍ ضربه المشركون فى حق عيسى عليه السلام. وهناك اختلاف فى اعتبار هذه الآية من أمثال القرآن، فبعض أدرجها فى الأمثال وبعض آخر رفض ذلك.

معنى (المثل) فى استخدامات القرآن

لأجل اتّضاح المطلب المتقدّم علينا التعرّف على معنى أو معانى مفردة المثل الواردة فى القرآن. جاءت هذه المفردة بمعانى مختلفة، هى كالتالى: الاول: المعنى الذى هو موضع بحثنا فى أمثال القرآن، أى تشبيه معنى معقّد غير محسوس بمعنى محسوس وبسيط وواضح يسهل هضمه على الجميع، كتشبيه ثواب الصدقة بحبة أنبتت امثال القران، ص: ۴۲۴ سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة «۱». وأمثال القرآن تبحث عن هذا الموضوع فى الآيات حتى لو لم يرد فيها مفردة (مثل). الثانى: ما يطلقه عوام الناس من تشبيهات للانبياء، من قبيل ما ورد فى الآية ۷۸ من سورة ياسين: «وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًاوَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحيى العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ». وشأن نزول الآية هو شخص يُدعى (ابى بن خلف) أو (امية بن خلف) أو (العاص بن وائل) أو (عبداللَّه بن ابى) نهض للاحتجاج على الرسول صلى الله عليه و آله وابطال أدلّته على المعاد، فأخذ بعظام ومن المحتمل أنَّه فتتها أمامه وقال له: من يحيى العظام بعد ما تفتتت؟ ومن يستطيع إرجاع الحياة لها؟ وأىُّ عقل يمكنه التصديق بعودة حياة هذه العظام؟ فأجابه اللَّه جواباً حاسماً قائلًا: «قُلْ يُحييهَا الَّذى أَنْشَأهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ» «۲». على أى حال، وردت مفردة المثل هنا وتعنى ما ضربه الناس من الأمثال لا ما ضربه اللَّه نفسه، وهى أمثلة خارجة عن موضوع بحثنا؛ لأنَّ بحثنا يخصُّ الأمثلة التى ضربها اللَّه نفسه لا الناس. الثالث: الحوادث المرّة والمؤلمة التى يواجهها الانسان فى طول حياته، فقد اطلق عليها مثل فى القرآن، كما جاء ذلك فى الآية ۲۱۴ من سورة البقرة: «أَمْ حَسِبْتُمْ أنْ تَدْخُلُوا الجَنَّةَ ولَمَّا يَأتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ مسَّتْهُمُ البَاسَاءُ الضَرَّاءُ وَزُلْزِلوا حَتَّى يَقولَ الرَّسُولُ والَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتى نَصْرُ اللَّهِ ألَا إنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ». فالمثل هنا فسِّر بما جرى على مَن تَقدَّم من الأقوام. الرابع: بمعنى العبرة، وهذا المعنى ورد فى الآية ۵۵ و ۵۶ من سورة الزخرف: «فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأغْرَقْنَاهُمْ أجْمَعِينَ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً ومَثَلًا للآخَرِينَ». المثل هنا بمعنى العبرة، كما أنَّ آياتٍ من هذا القبيل خارجة عن موضوع بحثنا، أى أمثال القرآن. امثال القران، ص: ۴۲۵ الخامس: بمعنى النموذج والاسوة، كما ورد ذلك فى آية المثل الذى نحن فيه، أى الآية ۵۹ من سورة الزخرف. المعنى الأول للمثل هو المعنى الوحيد الذى يدخل فى صلب موضوع بحثنا، ويخرج منه المعانى الأربعة الباقية، فهى خارجة عن كونها أمثالًا قرآنية، رغم أن البعض ضمّها إلى أمثال القرآن، وهو أمر مؤسف؛ لأنهم جعلوا كل آية اشتملت على مفردة المثل فى عداد أمثال القرآن، وذلك خطأ.

هل آية هذا البحث مثل قرآنى؟

اشارة

لهذه الآية تفاسير مختلفة ومتباينة، تندرج فى عنوان أمثال القرآن وفق بعض التفاسير، وتخرج عنها وفق تفاسير اخرى نلفت انتباهكم إلى بعض هذه التفاسير:

التفسير الأول

وفقاً لما جاء فى الآية ۹۸ من سورة الأنبياء فان الأصنام وعبدتها كلاهما فى النار، حيث ورد فيها: «إنَّكُم وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أنْتُمْ لَهَا وارِدُون»، أى أنهما يصبحان بمثابة الحطب لجهنَّم. افتعل المشركون ضجيجاً بأن المسيح وفقاً لهذه الآية يدخل جهنم (نعوذ باللَّه)؛ لأنه معبود لبعض المسيحيين، وكذلك الملائكة (نعوذ باللَّه)؛ لانها معبودات لبعض الناس، وجادلوا فى هذا الأمر

وأخـذوا يهزؤون بالرسول ويقولون: إذا كانت جهنَّم مأوى للملائكـة ولعيسـى فلابـدَّ وأن تكون مكاناً جيداً، ونحن مسـتعدون للذهاب إليها من خلال عبادة الأصـنام. أجاب اللَّه على هذه الضـجَّة بقوله: عيسى عبد من عبادنا، لم يدَّعِ الالوهية، والمعبود الذى يدخل جهنَّم هو الـذى يرضـى بأن يُعبد، أما المسـيح لا أنه لم يرضَ على عبادة نفسه فحسب بل يكره ذلك ويتألَّم منه. إذن، ما كانت الضـجّة التى افتعلها المشركون إلَّاجدلًا ومغالطة لا أكثر، وهى بمثابة الفقاعة الجوفاء. وبهذا التفسير تخرج الآية عن كونها من أمثال القرآن.

التفسير الثانى

شبَّه اللَّه تعالى المسيح عليه السلام بآدم عليه السلام فى الآية ۵۹ من سورة آل عمران، إذ قال: «إِنَّ مَثَلَ عِيْسى عِنْدَ اللَّهِ كَمثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ من تُراب»، أى أنَّه كما اسـتطاع خلق آدم من تراب، يمكنه كذلك أن يخلق عيسـى من مريم (سـلام اللَّه عليها) دون زواج. إذا اعتبرنا الآية ۵۷ من سورة الزخرف تشير إلى هـذا المثل وأن ضـجيج المشـركين كان لأجل هـذا الموضوع، فان الآية عندئذٍ تندرج فى أمثال القرآن، لأنها تشير إلى مثلٍ طرحه اللَّه تعالى، وقد استخدم فيه تشبيهاً جميلًا.

التفسير الثالث

عندما انطرح مثل عيسـى بدأالمشـركون بافتعال ضـجَّة قالوا فيها: إن الرسول يريد دعوة الناس إلى عبادته، ولأجل التمهيد لذلك طرح مثل عيسـى عليه السـلام باعتباره معبوداً للنصارى والقرآن ردّ على هـذه الـدعاوى بقوله: عيسـى عبد من عبادنا، ومن نعم اللَّه على بنى اسرائيل. والآية مندرجة تحت أمثال القرآن وفقاً لهذا التفسير.

خطابات الآية

الضجيج من معالم الجاهلية

الجاهل انسان متعصّب، والمتعصّب من أصـحاب الضـجيج لا من أصـحاب المنطق. للامام على عليه السـلام خطبـة فى (نهـج البلاغـة) تُـدعى القاصـعة، أشـار فيهـا إلى الضـجيج كبلاء كبير تعانى منه المجتمعات البشـرية فى الماضـى والحاضـر، والخطبـة وحـدها تكفى للكشـف عـن مقـام الأـمير الرفيـع وعلمـه وعظمته ومنطقه. يقـول أمير المـؤمنين فى جزء من الخطبـة: «فـاللَّه اللَّه فى كِبْر الحميـة وفخر الجاهليـة، فـإنَّه ملاقـح الشـنآنِ ومنافـخ الشـيطان التى خـدع بها الامم الماضـية والقرون الخاليـة حتى أعتقوا فى امثال القران، ص: ۴۲۷ حنادس جهالته ومهاوى ضلالته» «۱». كلام الامام جميل جداً، وكأنَّه بيان لآلآم المجتمع المعاصـر، وعلى متعصّبى مجتمعاتنا الحالية أن يدركوا خطاب الامام ويتخلّوا عن التعصّب الذى ليس فى محلّه ويتركوا الضجيج ويسلّموا أنفسهم للحق والحقيقة.

المثل السادس والأربعون: الصحابة

اشارة

آخر آيـة من سورة الفتح تشـكّل المثل السادس والأربعين من أمثالنا، يقول اللَّه فيها: «مُحَمَّدٌ رسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُـجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْـلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضواناً سِيمَاهُمْ فى وُجُوهِهِم مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذلِكَ مَثَلُهُمْ فِى التوراةِ وَمَثَلُهُمْ فِى الإنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَـطئَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظ بِهِمُ الكُفَّارَ وَعدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنهُم مَغفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً».

تصوير البحث

هـذا المثـل الجميـل الـذى يتكوّن من توصـيف ورد فى التوراة ومثـل ورد فى الإنجيـل يتحـدَّث عن أصـحاب الرسول الحقيقيين، وهو يحكى- من جانب- عمَّا كان يتّصف به الصحابة، ومن جانب آخر يخبر عمَّا ينبغى عمله وما هى مواصـفات من أراد أن يصـير مسلماً حقيقياً وناصراً للرسول صلى الله عليه و آله وأهل بيته.

شأن نزول الآية

نزلت سورة الفتح بعد صـلح الحديبية، إذ طلب الرسول من المسـلمين فى السـنة السادسة من الهجرة أن يسـتعدوا للحج والعمرة وزيارة بيت اللَّه الحرام، فأحرم الرسول بصـحبة ألف امثال القران، ص: ۴۳۰ واربعمائة من المسـلمين فى مسجد الشجرة، وغادروه باتجاه مكة، ولم يأخـذوا معهم من المعـدات الحربية غير السـيف الذى كان يحمله كل مسافر لغرض الدفاع عن نفسه، وبذلك وبارتداء المسـلمين ثوبى الإحـرام بـدى بوضوح كونهم غير قاصـدين الحرب، وظـاهرهم يكشف عن نوايـاهم الحقيقيـة كزائرين. لأسـباب خاصـة تحرَّك الرسول صـلى الله عليه و آله بصـحبة المسلمين باتجاه الحديبية «۱»، وتوقّفوا هناك. قلق المشـركون واضـطربوا بسبب قدوم المسلمين، وكـان قلقهم ناشـىء عن أن دخول المسـلمين مكـة واتيـانهم بمناسك الحـج بالنحو المتباين مع النحو الـدارج يثير انتباه باقى الحجاج ويؤثر فيهم أو يميـل قلوبهم نحو الاسـلام فيسـلمون. ولأجـل ذلك قرروا منعهم من دخول مكـة، وبعثوا إلى المسـلمين شـخصاً يُـدعى (عروة بن مسـعود) وهو من علمائهم وأذكيائهم، وبعـد وصوله إلى المسـلمين سأل الرسول عن سـبب مجيئة إلى مكة، فأجاب الرسول: جاء المسـلمون للزيارة والعمرة المفردة، ولهـذا لم يأتوا معهم بعـدّة حربيـة من الـدروع والخناجر و ... وبعـد المفاوضات تقرَّر أن يبقى المسلمون فى الحديبية حتى يخبر عروة زعماء قريش بنتيجة مفاوضاته مع المسلمين. وفى هذه الأثناء شاهد عروة لقطة كانت مؤثرة فى انعقاد صـلح الحديبية، لقد شاهد الرسول صـلى الله عليه و آله يتوضأ والمسلمون يتسابقون على قطرات الوضوء التى تسقط من أعضائه ليتبرّكوا بها. بعـدما رجع عروة إلى مكـة عرض على زعماء قريش نتائـج مفاوضاته وأوصاهم بعـدم مواجهة المسـلمين؛ لأن المسـلمين ذائبون فى عشق الرسول صـلى الله عليه و آله ومستعدون لكل تضحية وعمل فى سبيله، وذكر لهم قصة وضوئه. امثال القران، ص: ۴۳۱ وبعد نقاش دار بينهم توصـلوا إلى أن يبرموا صـلحاً مع المسـلمين بشـرط أن لا يحجوا هذا العام. قصد عروة وسهيل بن عمرو الحديبية لإبرام عقد الصـلح مع المسـلمين، وبعد لقائهما الرسول صـلى الله عليه و آله واتفاقهما، أمر الرسول صلى الله عليه و آله الامام على عليه السـلام بكتابـة عقـد الصـلح. أمر الرسول عليّـاً بكتابـة (بسم اللَّه الرحمن الرحيم) لكن سـهيل اعـترض زاعمـاً أنَّهم لو كـانوا متفقين مع المسـلمين فى شـعاراتهم لما تنازعوا معهم، وطلب كتابة (بسـمك اللهمَّ) «۱». ثقل على المسـلمين كلام سـهيل، لكن الرسول صلى الله عليه و آله وافق عليه وأمر على كتابـة ما كان دارجاً كتابته ثم قال لعلى: «اكتب! هذا ما صالح عليه محمد رسول اللَّه سُـهيل بن عمرو»، فقال سـهيل: لو شـهدت أنك رسول أنك رسول لم اقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، فقال لعلى: «اكتب: هذا ما صالح عليه محمّد بن عبداللَّه سُـهيل بن عمرو ...»، وعندئذٍ انعقد صـلح الحديبية، وتقرّر فيه أن يقدم المسـلمون العام المقبل ويقيموا فى مكة مدَّة ثلاثة أيام لغرض الزيارة وأداء العمرة المفردة «۲». ترتبت آثار كثيرة على صلح الحديبية، والفتح المبين الذى أشارت له الآيات الاولى من سورة الفتـح هو هـذا الصـلح، فقـد كان فتحاً مبيناً حقاً؛ لكثرة مردوداته الايجابيـة وبركاته، رغم استياء بعض المسـلمين والمتطرّفين وضـيقى الصـدور ممَّن لا ينظرون إلَّاللمسـتقبل القريب، حيث قال البعض: يا معشـر المسـلمين أأردّ إلى المشـركين يفتنونى فى دينى؟ فقـال له رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله: «اصـبر واحتسب، فـانَّ اللَّه جاعـل لـك ولمن معـك من المستضـعفين فرجـاً ومخرجـاً». وبعد الانتهاء من كتابة الصـلح والإشـهاد عليه أمر الرسول المسلمين بالنحر والذبح للإحلال من الاحرام، ثمّ رجعوا إلى المدينة. عندها نزلت آيات تطمئن قلوب المسـلمين وتسـكّنها وتعـدهم بفتـح مكـة ودخولها بعز: «لَتَدْخُلُنَّ المَسْـجِدَ الحَرَامَ إنْ شَاءَ اللَّهُ» «۳» ، وهى تعـدُّ من

معجزات القرآن؛ لكونهـا أخبرت عـن الغيـب. امثـال القران، ص: ۴۳۲ كمـا وعـدت الآيـات المسـلمين الانتصـار على بـاقى الأديان والمـذاهب فى العالم: «لِيُظهِرَهُ عَلَى الـدّينِ كُلِّهِ» «۱» ، ثم أدرجت أوصـاف المؤمنين وأصـحاب الرسول. بعـدما اتضـح شأن نزول الآية نبتُّ بتفسيرها.

أوصاف أصحاب الرسول فى التوراة

«مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ» الانسان المتعصّب والجاهل مثل سـهيل بن عمرو ينكر نبوة محمد صلى الله عليه و آله ورسالته، وهذا لا يغيّر الواقع، ومـا على المسـلمين أن يسـتاؤوا من انكـار مثل هـذا الشـخص؛ لأن اللَّه خالق الكون قـد قبل نبوة محمّـد صـلى الله عليه و آله ورسالته. «والَّذِينَ مَعَهُ أشِـدَّاءُ عَلَى الكُفَّار». الـذين معه ويسـيرون فى خطه ولم يـدّعوا الاسـلام فقط بل اثبتوا كونهم مؤمنين بجـدارة فى ميادين العمل، وكانت عقيـدتهم بالرسول صادقـة وحقيقيـة يحملون خمس صـفات عاليـة. وأنتم كذلك، إذا أردتم أن تكونوا من أنصار امام الزمان (عجل اللَّه تعالى فرجه الشريف) فعليكم الاتصاف بهذه الصفات الخمس. أول صفة هى أن يكونوا أشداء وأقوياء أمام الأعداء، ولا يهابونهم، بل يقفون أمامهم كالسـد المانع ذى قوة على الصد والمنع الشديد. وفقاً لهذه الآية، فإنَّ اسـتخدام العنف فى حق الأعداء لا ـ أنه غير مسـتعاب فقـط بـل مطلوب ولاـزم أحيانـاً. اولئـك الـذين يرفضون العنف بالكليـة فى زماننـا هم لا يعرفون معنى العنف ولا يفهمونه، ولا معرفة لهم بآيات القرآن وتاريخ الاسـلام. ينبغى الوقوف أمام الذئب الذى لا يفهم اللين والمنطق والاسـتدلال باسـتحكام وقوة، بل ينبغى اسـتخدام كل ما نملك من سـلاح لصـده ومنعه. كثير من الناس فى عصـرنا الحالى هم أسوء من الذئب، اولئك الذين يبقرون بطن الحامـل امثـال القران، ص: ۴۳۳ بطلقـة رصـاص ويقتلونهـا مع طفلها تقمّصوا ثوب الانسانيـة وليسوا بأناس، وعلينا الوقوف أمامهم؛ لأنهم لا يفهمون غير العنف، والعدالـة عينها فى الـدفاع والمقاومـة، وهو أمر منسـجم مع الطبيعة، وذلك من قبيل كريات الدم البيضاء التى تفزع للمواجهـة بمجرد احساسـها بالخطر وشـعورها بدخول عدو أجنبى، أى الميكروبات. إذن، أول صـفة لأنصار الرسول هو مواجهة الأعداد بشدّة والوقوف باسـتحكام أمامهم. «رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ». الصـفة الثانية للمسـلمين الحقيقيين هى اللين والرحمة فيما بينهم بنفس نسـبة الشـدة التى يتمتعون بهـا لمواجهـة الأعـداء، فهم شديـدون مع الأعـداء ومتراحمون فيمـا بينهم، أى يتمتعون بجذابيـة تجاه بعضـهم الآخر ودافعة تجاه الأعداء والكفار، والمسـلم الحقيقى هو الذى تجتمع فيه صـفة القهر واللطف. لو لم يكن المجاهدون الشيعة فى جنوب لبنان انعكاساً ل «أشِـدَّاءُ عَلَى الكُفَّار رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ» لاسـتطاعت اسـرائيل الزحف من لبنان إلى باقى الدول المجاورة لها؛ لأن اسـرائيل ذئب، والـذئب لا يفهم شـيئاً غير العنف، فقـد لمع هؤلاء الشـباب وفعلوا فعلتهم، وكما قال فيهم الأمين العام لحزب اللَّه السـيد حسن نصـر اللَّه: إنّهم فعلوا مـا لم تفعله جيوش الـدول العربيـة جميعهـا. «تَراهُمْ رُكّعـاً سُـجَّداً». الصـفة الثالثـة للمسـلمين الحقيقيين هى علاـقتهم المتواصـلة مع اللَّه، فيركعون ويسـجدون للَّه دائمـاً. وهـذه العبـارة تعنى أن أعمالهم جميعها من الركوع والسـجود والاستراحة والترفيه والحب والبغض وكل سـلوكهم عبارة عن عبادة؛ لأنها تصـدر عنهم بنيـة القربة وإرضاءً للَّه‌تعالى، ويسـتلهمون قدرتهم وقوتهم من خلال هـذه العبادة، فيبـدون أشـداء أمام أعداءهم ولينين ورحماء فيما بينهم. «يَبتَغُونَ فَضْـلًا مِنَ اللَّهِ ورِضْوَاناً». صـفتهم الاخرى هى خلوص نيتهم تبعـاً لرسولهم صـلى الله عليه و آله، فلاـ يبتغون ولا يطلبون شـيئاً من خلال أعمالهم غير رضا اللَّه والفضل من قبله تعالى، ولاـ نجـد فى أعمالهم الرياء والتظاهر. امثال القران، ص: ۴۳۴ أيّهـا القرّاء، الإخلاص إكسـير عجيب، والانسان يزداد توفيقاً كلما ازداد إخلاصاً، فالاخلاص والاخلاص ثم الاخلاص. «سِيمَاهُمْ فِى وُجوهِهِمْ مِنْ أثَرِ السُّجُودِ». الصفة الاخرى لأصحاب الرسول صلى الله عليه و آله الحقيقيين هو ظهور علامات وآثار العبادة والسـجود فى وجوههم، فالإناء ينضح بما فيه. السيماء فى العربية تعنى العلامة، وعلامة المسـلم الحقيقى هو ارتسام عقيدته الباطنية وعباداته التى يمارسها فى الخفاء على وجهه وسرايتها إلى ظاهره، ونور إيمان قلبه يشع من وجهه. وإذا وسَّعنـا فى معـانى الآيـة قلنـا: يمكن مشاهـدة آثـار الإيمـان فى جميع لقطات حياته، فى سـلوكه الفردى والاجتماعى، وفى حركـاته وسـكناته. «ذَلِـكَ مَثَلُهُمْ فِى التَّوْراةِ». هـذه الصـفات الخمس لأصـحاب الرسـول صـلى الله عليه و آله ورد ذكرهـا فى التوراة.

أعزتى، الطريق واضح، لكنه بحاجة إلى همّة وإرادة مستحكمة، اتَّصف بهذه الصفات الخمس لترى نفسك فى لواء أنصار صاحب الزمان (عجل اللَّه فرجه). يا أيّها الذين قضوا عمرهم قائلين: (يا ليتنا كنا معكم فنفوز فوزاً عظيماً)، إن الفوز العظيم فى الاتّصاف بهذه الصفات الخمس.

على عليه السلام نموذج كامل للصفات الخمس

فى مجال المقاومة والصمود يقول الامام على عليه السلام: «واللَّهِ لَوْ تظاهرت العرب على قتالى لما ولَّيتُ» «۱»، وهو نفسه الذى كان رمزاً فى الغضب والمواجهة كان فى ذات الوقت بحراً من اللطف والعاطفة عندما يرى يتيماً مسلماً فيجلسه فى حضنه ويلاطفه ويمسح بيده على رأسه ويذرف الدموع عليه، بحيث لا يصدق أحد أن هذا الرجل هو نفسه الذى يقف أمام الأعداء كالجبل الصامد. امثال القران، ص: ۴۳۵ على يذهب لمساعدة زوجة شهيد ويقرّب وجهه من التنور ليذيق نفسه حرارته، خوفاً من أن يغفل يوماً عن الأيتام. على يعيش العبودية دائماً، فهو أسوة العابدين وقدوتهم، وأحياناً يأتى بألف ركعة يومياً «۱». لا ـ مثيل لإخلاص على، فكان قطعة من الإخلاص، عندما بارز عمرو بن عبدود فى معركة الخندق غلبه وكاد يقتله فبصق عمرو فى وجه على وشتمه فتوقف عن قتله ومشى قليلًا فى ميدان المعركة ثم قتله، وعندما سأله المسلمون عن سبب ذلك الإجراء وأنّه لماذا لم يقتله مباشرة بعد ما تغلّب عليه، قال: «قد كان لشتم امى وتفل فى وجهى فخشيت أن أضربه لحظّ نفسى فتركتُهُ حتى سكن ما بى ثم قتلته فى اللَّه» «۲»، أى أنه لو كانه قتله مباشرة كان لانتصار النفس سهم فى قتله فهدّأ نفسه لكى يكون قتله خالصاً لوجه اللَّه تعالى. علائم الايمان كلها مطبوعة فى سلوك على، وآثار العبادة تشع من وجهه النورانى.

مثل أصحاب الرسول فى الإنجيل

قرأنا أوصاف أصحاب الرسول فى التوراة من خلال الأسطر السابقة، وهذا يكشف ضمنياً عن أن الرسول ليس الوحيد للذى كان قد ذُكر فى التوراة والانجيل بل وكذلك أصحابه من خلال ذكر أوصافهم، كما تقدم توضيح ذلك. آية المثل أشارت إلى مثل أصحاب الرسول الحقيقين فى الانجيل وقالت: «وَمَثَلُهُمْ فى الإنجيل كَزَرْعٍ». أى مثل أصحاب الرسول الصادقين فى كتاب النصارى السماوى (الانجيل) كمثل المزرعة أو الزرع الذى له مواصفات خمس. ۱- «أَخْرَجَ شَطْئَهُ». امثال القران، ص: ۴۳۶ للشطأ معنيان، أحدهما: ما يخرج حول اصول الشجر، فينمو تدريجاً ليستقل ويصبح شجراً بعد مدة. ثانيهما: فراخ الحيوانات إذا ازدادت، وعلى العموم الشطأ يفيد معنى التكاثر والتوسّع وما شابه. أول خصلة للزرع المذكور فى الآية هو أنه غير عقيم بل يتكاثر وتزداد رقعته، ولا ـ حدود له. ۲- «فَآزَرَهُ». آزر يؤازر تعنى الرعاية والحماية والتقوية، وقد اطلقت مفردة (الوزير) على المقام المعروف، باعتباره يقوّى الملك ويحميه، كما اطلقت هذه المفردة على الامام على عليه السلام؛ باعتباره يدافع عن الرسول ويحميه ويسعى فى طريق تقوية الدين. الزراعة المفروضة فى المثل لا ـ أنها تتكاثر وتنمو وتزداد فحسب بل فراخها وما ينتج منها ترفع الموانع من طريقها وتؤمن احتياجاتها وتقوى أصلها وتؤازره. ۳- «فَاسْتَغْلَظَ». الخصيصة الثالثة هى أن الشطأ المحمى فى المزرعة يستحكم فى الأرض تدريجياً وفى ظل هذه الحماية يستغلظ ويقوى ۴- «فَاسْتَوَى عَلى سُوقِهِ». تستمر الرعاية والحماية للشطأ إلى حيث تشعر بالاستقلال وعدم الحاجة إلى التقوية والحماية وأن عهد الارتباط والحاجة للغير قد ولَّى وتقوم بنفس العمل الذى كان أصلها يقوم به، ويمرُّ شطؤوها بالمراحل التى مرَّ بها الأصل، أى المؤازرة والاستغلاظ والاستقلال. ۵- «يُعْجِبُ الزُّراعَ لِيَغيظَ بِهِمُ الكُفَّار». نمو الزراعة وتكاثر اصولها كبير ومبارك جداً بحيث تثير إعجاب المزارعين والفلَّاحين وتجعلهم فى حيرة من أمرها، فيضعون أصابعهم فى أفواههم تعجباً، لما يشاهدونه من سرعة نمو الاشجار وازديادها بحيث تغطى المزرعة بعد فترة قصيرة. أما الكفَّار فيمتلؤون غيظاً. «وَعَدَ اللَّهُ الَّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وأجْرَاً عَظِيماً». امثال القران، ص: ۴۳۷ وعد اللَّه أصحاب الرسول بالمغفرة والأجر العظيم إذا تحققت فيهم شرطان، الاول: آمنوا باللَّه واصلحوا

اعتقاداتهم حقاً. الثانى: كانت أعمالهم صالحة كنتيجة للاعتقادات السليمة، وهذا يعنى أن اللّه لم يعد جميع الصحابة بل ذلك البعض الذى تحققت فيه الشروط المزبورة. والشاهد على ذلك هو أنَّ «منهم» تبعيضية، وتخصُّ بعض الصحابة ولا تشمل الجميع. الخلاصة: الآية شبهت أصحاب الرسول بالمزرعة النامية، ولأجل إيمانهم وأعمالهم الصالحة بشّرتهم بالمغفرة والأجر العظيم.

خطابات الآية

۱- الاسلام دين عالمى

الآية المتقدّمة من أمثال القرآن العجيبة، وتحمل معها خطاباً مهماً وعظيماً للمسلمين. وفقاً لهذه الآية، لا ينبغى للمسلمين أن يسعوا لإصلاح أنفسهم وحفظ دينهم وعقيدتهم فحسب، بل عليهم التفكير والسعى لأجل نشر الاسلام وهداية باقى الشعوب والامم. حفظ الدين أمر مطلوب ومستحسن لكنه غير كاف، وعلى المسلم أن يخرج شطأً ويهتمَّ بتربية تلامذة وأولاداً طيبين ويختار أصدقاء جديرين ويهمَّ بإصلاحهم، ويشكّل عائلة نموذجية، ويرعاهم ويحميهم لكى يستحكموا تدريجياً ويستقلوا، ثمّ كلٌّ منهم يدخل خط الانتاج والنمو والحماية والاستحكام والاستقلال. المجتمع الاسلامى مجتمع متنامى ومتسع ومتكاثر، وليس محدوداً ومنحصراً فى حدوده ولا يتقدَّم ولا يتطوَّر. الآية تأمر المسلمين أن لا يقتنعوا بما لديهم بل عليهم السعى لعولمة الاسلام، أى دين الحق الوحيد. ماذا يقول القرآن؟ وماذا انجزنا وما عملنا؟ وماذا أنجز الآخرون وما عملوا؟ القرآن- وفقاً لهذه الآية- يأمرنا باستخدام كل ما لدينا من وسائل وآليات من المرسلات والأقمار الصناعية والكامبيوتر والانتريت والمطبوعات والكتب والصحف والمبلّغين والسينما وتوظيفها جميعاً لغرض تبليغ الاسلام وإيصال رسالته إلى العالم كله. امثال القران، ص: ۴۳۸ هل ترجمنا القرآن، الذى هو وصفة سعادة البشر ويحتوى على أفضل المعارف الدينية، إلى لغات أجنبية؟ هذا فى وقت ترجم فيه الانجيل المحرَّف إلى آلاف اللغات وعرض على جيمع الشعوب والأقوام. وهل عملنا هذا يعدُّ استخداماً مناسباً للوسائل المتقدمة والتقنية الحديثة؟ آية المثل توجّه خطابها للحوزات العلمية لأن يعدّوا مبلغين جديرين وبارزين ملمّين باللغات الأجنبية تلبية للطلبات، سواء فى داخل الدول الاسلامية أو خارجها. بعد تحطّم الاتحاد السوفيتى شعرت اوربا الشرقية بفراغ عجيب، وباعتبار وجود مسلمين هناك تبلورت الأرضية لقبول الاسلام من قبل الاوربيين، لكن ممَّا يؤسف له أنَّا كنَّا نفقد المبلغين الذين ينطقون بلغات اوربا الشرقية، ففقدنا هذه الفرصة الذهبية، فى وقت أرسل البابا إلى هناك مائة ألفٍ من مبلّغيهم الذين ينطقون بلغات اوربا الشرقية مع رأس مال يقدَّر بمائة مليون دولار، وبذلك كانت الفرصة من نصيب المسيحيين. فى هذا المجال مسؤولية الحوزات العلمية والجامعات والحكومات الاسلامية والآباء والامهات والمربين والمعلمين واللّه ثقيلة جداً. زعماؤنا الدينيون كانوا موفقين فى هذا المجال، كما كانوا موفَّقين فى المجالات الاخرى على سبيل المثال كانت لعلى عليه السلام فى عصره كلمات وخطب وحكم ورسائل كثيرة مفعمة بالمعارف، وقد جمع (نهج البلاغة) مقتطفات من تلك الكلمات والخطب والرسائل، ليت السيد الرضى كان قد جمع كل ما صدر منه من رسائل وخطب وكلمات وحكم. كان على عليه السلام بمثابة الزرع الذى يخرج شطأه، كان منشغلًا دائماً فى هداية الناس والنشاطات الاجتماعية والعبادية. نشاهد عدد الألف فى سيرة على عليه السلام كثيراً، فقد حرَّر ألف عبدٍ من كد يده «۱»، وكان أحياناً يأتى بألف ركعة يومياً «۲»، وقتل فى ليلة من ليالى معركة امثال القران، ص: ۴۳۹ صفين خمسمائة وعلى رواية ألفاً من أنصار معاوية، وكان يكبر عند كل ضربة «۱». على الشيعة أن يقتدوا بعلى فى جميع امورهم وبخاصة فى مسائل من هذا القبيل. ما الذى عمله النبى صلى الله عليه و آله فى صدر الاسلام؟ كيف نمى الاسلام الذى ظهر فى مهد الجاهلية وعلى أرض مكة الجرداء؟ كيف أخرج شطأه وتوسّعت رقعته ليغطّى أكثر بقاع الأرض خلال فترة تقل عن مائة عام؟ كانت مكة آنذاك محاطة بخمس حضارات، فى الشمال الحضارة الرومية، وفى الشرق الحضارة الفارسية وإلى جنبها حضارة بابل فى العراق، وفى الجنوب حضارة اليمن، وفى الغرب حضارة مصر، وعندما بدأت تنمو شتلة الاسلام استحكمت واستقلت ثم بدأت تخرج

شطأ فشطأ، وفى فترة تقل عن القرن فتحت ايران واليمن ومصر وبابل، واستطاعت الشتلة أن تغطّى ببراعمها بلاد أربع حضارات. على المسلمين أن يكونوا هكذا، لكن ممَّا يؤسف له أنَّ بعضنا لا يسعى فى تربية أولاده، فهو لا يراهم ولا يلتقيهم إلَّاوهم نائمون، يستيقظ صباحاً وهم نائمون ولا يرجع إليهم إلَّاليلًا حيث غرقوا فى نومهم، ولا مجال له ليباشر عملية تربيتهم. آخر شيء تبقَّى أنَّ المسلمين حالياً إذا أرادوا أن يكونوا كما كان المسلمون فى صدر الاسلام حيث فتحوا بلداناً كثيرة فعليهم أن يصلحوا أنفسهم وأن يدعوا الاختلافات ويبدّلوا فرقتهم إلى وحدة واتحاد وكتبهم وصحفهم إلى كتاب واحد وصحيفة واحدة.

۲- المثل لا يشمل جميع أصحاب الرسول

يُطلق الصحابى على كل مَن تشرَّف فى الكون بخدمة الرسول صلى الله عليه و آله وزاره من قريب، لكن هل المثل الجميل المذكور فى الانجيل يعم كل من كان صحابياً أم يخصُّ البعض من الصحابة؟ الجواب: يتّضح جواب هذا السؤال من خلال التدقيق فى الآية ذاتها، فقد جاء فى ذيلها: «وَعَدَ اللَّهُ الَّذينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالحات مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وأجراً عَظِيماً». امثال القران، ص: ۴۴۰ والآية تقسِّم الصحابة إلى القسمين التاليين: الأول: الذين آمنوا منهم وعملوا الصالحات فلهم أجر عظيم. الثانى: الذين لم يؤمنوا حقيقة وما عملوا الصالحات فهم محرومون من الأجر الإلهى العظيم. إذن، تنزيه جميع الصحابة- كما فعل ذلك بعض أهل السنة- لا ينسجم مع القرآن الكريم «۱»؛ لأن هناك آيات كثيرة خصوصاً فى سورة التوبة وردت فى ذم بعض الصحابة، مع أنَّا لو نزّهنا جميع الصحابة واعتبرناهم جيّدين، فلماذا تنازعوا فيما بعد؟ ألا يعدُّ ذلك تناقضاً؟ فى أحد أسفارى إلى مكة كان لى نقاش فى المسجد الحرام بعد صلاة المغرب مع بعض الاخوة من أهل السنة، جرّنا الحديث إلى قضية الصحابة، فكانوا يقولون: إنَّهم منزَّهون جميعاً، فسألتهم: لو كنتم فى حرب صفين فتنضمُّون إلى عسكر الامام على عليه السلام أم معاوية؟ فقالوا: إلى عسكر على عليه السلام، لكنَّا لا نسيء إلى معاوية. فسألتهم: لو أعطاكم الامام على سيوفاً وأمركم بقتل معاوية فما تفعلون؟ قالوا: ننفّذ أمر على ونقتل معاوية، لكنَّا لا نقول فى معاوية إلَّاقولًا حسناً؟! وهذا يشبه النصب والهزل أكثر من الحقيقة. يبرّر البعض هذا المنهج من التفكير بأن كلًا من على ومعاوية عمل وفق اجتهاده واستنباطاته الشخصية، ولذلك لا يعدان مقصرين، وكذا الحال بالنسبة إلى طلحة والزبير وعائشة، فما خروجهم عن خلافة الامام على عليه السلام إلَّاوفق اجتهاداتهم، ولهذا لا يعدون مذنبين أو مقصرين عند اللَّه؛ لأن كلًا منهم عمل وفق ما تفرضه عليه وظيفته الشرعية. بطلان هذا التبرير واضح جداً، فإذا قبلنا هذا الكلام فلا يبقى مذنب على وجه الأرض، لأن هابيل وقابيل عملا وفقاً لما تمليه عليهما اجتهاداتهما واستنباطاتهما، ولا يمكن مؤاخذة أيٍّ منهما وفقاً لهذا المنهج، كما أنَّ كلًا من موسى وفرعون، وإبراهيم ونمرود، وعيسى وعبدة الأصنام، وشعيب وقومه و ... عمل وفق اجتهاده واستنباطه، ولا يُعدُّ واحد منهم مقصّراً أو مذنباً!!!

المثل السابع والأربعون: الغيبة

اشارة

يقول اللَّه فى الآية الثانية عشر من سورة الحجرات: «يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اجتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظنِّ إنَّ بَعْضَ الظنِّ إثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أيُحِبُّ أحَدُكُمْ أنْ يَأكُلَ لَحْمَ أخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ واتَّقُوا اللَّهَ إنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ».

تصوير البحث

رغم عدم ورود مفردة مثل فى هذه الآية، إلَّاأن أمراً معنوياً وغير مادى شُبِّه فيها بأمر محسوس ومادى، لهذا تندرج فى أمثال القرآن. فى هذه الآية شُبِّهت الغيبة، التى هى من الذنوب الكبيرة والخطرة وبلاءً عاماً، بأكل لحم الأخ الميت، وتريد القول من خلال ذلك:

كما أنَّه لا أحد يأكل لحم أخيه كذلك الحال المفروض فى الغيبة، فلا ينبغى أن ترتكب أبداً.

تعريف مجمل بسورة الحجرات

الحجرات هى السورة التاسعة والأربعون من القرآن، وهى مدنية وذات ثمانية عشر آية، وتضمَّنت مجموعة من الأوامر والآداب تخصُّ كيفية التعامل مع الرسول صلى الله عليه و آله وأولياء اللَّه، ولو سميناها سورة الأخلاق كانت تسمية فى محلها؛ لما تضمّنته من أوامر أخلاقية عديدة. امثال القران، ص: ۴۴۲ فى فضل هذه السورة روى ما يلى عن الرسول صلى الله عليه و آله: «من قرأ سورة الحجرات اعطى من الأجر عشر حسنات بعدد مَن أطاع اللَّه ومن عصاه» «۱». قد يظنُّ البعض أنَّ ذكر فضائل جمّة من قبيل ما ورد فى الحديث الشريف لقراءة سورة صغيرة مثل الحجرات يُعدُّ مبالغة، لكن بطلان هذا الظن واضح؛ لأن الرسول صلى الله عليه و آله والمعصومين عليهم السلام عموماً لم يبالغوا أبداً، ومراد الحديث وما شابهه ليس التلاوة المجرّدة بل التلاوة مع التفكّر فى معانيها مقترناً بالعمل بمضامينها.

الشرح والتفسير

«يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا». المخاطبون فى هذه الآية هم المؤمنون وقد حذِّروا فيها من اقتراف ثلاثة أعمال، هى: ۱- «اجتنبوا كَثِيراً مِنَ الظنِّ إنَّ بَعْضَ الظنِّ إثْمٌ». يطلب أللَّه من المؤمنين هنا أن يتركوا إساءة الظن للآخرين، لأنَّه إن كان خاطئاً كان إثماً كبيراً. يريد اللَّه للمؤمنين محيطاً وبيئة آمنة تحفظ فيها الأموال والأرواح والشخصيات، لا على مستوى البيئة الخارجية فحسب بل على مستوى الأفكار والذهن. انظر إلى تعالى هذا الدين. ينقل المرحوم الفيض الكاشانى الحديث المفعم بالمعانى التالى عن الرسول صلى الله عليه و آله: «إن اللَّه حرَّم من المسلم دمه وماله وعرضه وأن يظنَّ به السوء» «۲». إذا عملنا بهذا الأمر الأخلاقى فحسب فان كثيراً من البغض والعداوة والحسد سينتفى؛ لأن منشأ الكثير من هذه الذنوب هو سوء الظن. سؤال: إساءة الظن ليس إرادياً لكى يجتنب عنه، فقد يتبلور سوء الظن لمجرّد رؤيتنا للقطة امثال القران، ص: ۴۴۳ خاصة دون إرادة أو اختيار منا، فكيف يمكننا ترك ما ليس بأيدينا؟ الجواب: أولًا: ينبغى السعى لحمل أعمال الآخرين وتصرّفاتهم على الصحة وعلى محامل حسنة، وعلى سبيل المثال لو شاهدنا شخصاً يأكل فى شهر رمضان نقول: قد يكون مريضاً أو معذوراً لعذر آخر. وإذا شاهدنا شاباً مع شابة نحتمل أنَّها من محارمه وأقربائه. وإذا شاهدنا تصرّفاً غير مناسب صدر من شخص نقول: لابدَّ وأنه صدر عنه إثر تعب أو اضطرار ... جاء فى الروايات: احمل أعمال الآخر على سبعين محملًا «۱»، وإذا تصوّرنا هذه الاحتمالات انمحت من أذهاننا سوء الظن عن الآخرين تدريجياً. ثانياً: إذا استحكم فى ذهنك سوء ظنٍّ تجاه شخص فلا تبرزه ولا تحرجه عن محيط ذهنك ولا تعمل وفقه، فإذا كان صديقك وتحبه فاستمر فى صداقتك وحبك له، ولا تقلّل منهما شيئاً. خلاصة الكلام: أن لا تسمح لسوء الظن أن يؤثر فى نفسك. ۲- «وَلا تَجَسَّسُوا». ثانى أمر أخلاقى أمرت به الآية هو عدم التجسس على الآخرين. جاء التجسّس والتحسّس بمعنى واحد، وهو الفحص أو البحث أو السعى لادراك الامور، والاختلاف بينهما فى أن التحسس هو التفحّص فى الامور المشروعة والمجازة، بينما التجسس هو التفحّص فى الامور غير المشروع التفحّص فيها. ومن ذلك قول يعقوب عليه السلام لإخوة يوسف عليه السلام: «يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ» «۲». امثال القران، ص: ۴۴۴ للناس أسرار وأعمال سرية لا يرغبون البوح بها ولا اطلاع الناس عليها، والسعى للاطلاع عليها يُعدُّ تجسساً غير مجازٍ. جاء فى رواية: «إذا حدَّث الرجل الحديث ثم التفت فهى أمانة» «۱»، أى أنه إذا كان يلتفت يميناً ويساراً خوفاً من اطلاع أحد على سرّه فعليكم الاجتناب من السعى لإدراك ما يقوله؛ وذلك لأن إفشاء اسرار الناس من الذنوب الكبيرة، وإفشاء أسرارهم يبدّل الدنيا إلى جهنم يصعب تحمّلها. لا يمكن للناس التعايش دون أن يتبادلوا الثقة، والتجسس يزلزل اسس الثقة وأعمدتها. بالطبع هناك موارد مستثناة لا إشكال فيها، من قبيل التجسس على شخص متَّهم بالارتباط بالأجانب يسرّب لهم معلومات، أو من قبيل التجسس على شخص متَّهم

بتهريب المخدرات وما شابه، وهذه الموارد ليست من قبيل التجسس بل هى تحسس، على أن يكون تحسساً منطقياً ووفق ضوابط لا يكون مطلق العنان بحيث يسمح فى الانصات للمكالمات الهاتفية مطلقاً. ۳- «وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُم بَعْضاً». ثالث وصية أخلاقية هو الاجتناب عن الغيبة، فلا ينبغى لأحد أن يفشى أسرار آخر فى غيابه. سؤال: ما العلاقة بين الذنوب الثلاث؟ وهل اقترنت اعتباطاً دون أن يكون بينها علاقة؟ الجواب: الانصاف هو أن هناك علاقة تربط هذه الذنوب فيما بينها، وكلٌّ منها معلول للآخر. عند المعاشرة يحصل سوء الظن، ولو استطاع الانسان مقاومته ومواجهته كان عليه شكر اللَّه، ولو استمر أدَّى إلى التجسس على أعمال الآخرين، ولو استطاع جهاد هذه المرحلة والتغلب عليها فبها ونعمت وإلَّا أنتجت ثمرة غير مباركة، وهى الغيبة، فالغيبة معلول للتجسُّس. امثال القران، ص: ۴۴۵ إذن، سوء الظن منشأ للتجسس، والتجسُّس علة للغيبة، وبعبارة اخرى الغيبة معلول للتجسس، والأخير معلول لسوء الظن. «أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ». بعد ما بيَّن اللَّه الذنوب الكبيرة الثلاثة ونهى المؤمنين عنها يضرب مثلًا للغيبة التى هى فاكهة مجالس أكثر الناس، قائلًا: إنَّها بمثابة أكل لحم الأخ الميت، وهل أحدٌ منكم مستعد لأكل لحم الأخ الميّت؟ سبب هذا التشبيه هو أنَّ الغيبة تذهب بماء وجه المغتاب، وإذهاب ماء الوجه بمثابة قطع قطعة من بدنه، بل قد يكون أصعب من ذلك. وبما أن المسلمين إخوة فاغتياب أحدهم الآخر بمثابة أكل لحم الأخ. وتشبيه الأخ المغتاب بالميّت باعتبار وجه الشبه بين الغائب عن المجلس والميت، فان كلاهما عاجزان عن الدفاع عن انفسهما. التمثيل عجيب جداً، وهل يمكن تصوّر ما هو أسوء من أكل لحم الأخ الميّت؟ وهل يستعد أحدنا عمل ذلك ولو كان مجنوناً؟ يجيب القرآن على هذه التساؤلات بقوله: «فَكَرِهْتُمُوهُ واتَّقُوا اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ». نعم، كلٌّ منا يكره عمل ذلك ويستاء منه. وعلى هذا، ينبغى بالانسان أن يتقى اللَّه ويتجنَّب الغيبة، بل لا يفكّر بها، فالتفكير بها تفكير بأكل لحم الميت. اتقوا اللَّه واتركوا سوء الظن لكى لا تتجسّسوا ولا تطّلعوا على أسرار الآخرين ولكى لا تفشوها، وإذا سبق وأن ارتكبتم هذه الذنوب أو ذنوباً اخرى فعودوا إلى اللَّه وتوبوا منها بعد ما أدركتم قبحها، فاللَّه يقبل التوبة ويغفر الذنوب، فهو غفور رحيم.

خطاب الآية

الغيبة قبيحة للغاية

خطاب الآية الواضح والموجَّه للجميع هو أن التلاعب بكرامات الناس واستعابتهم بمثابة أكل لحم الانسان، بل أكل لحم الانسان ميتاً، وأى ميّت؟ ليس ميّت الأعداء بل ميّت الإخوان، وهو عمل يصدر من الحيوانات الأكثر وحشية فقط. ومن الواضح أن الانسان لو امثال القران، ص: ۴۴۶ كان يحمل شيئاً بسيطاً من العاطفة لا يقدم على هذا العمل. إذن لماذا هذا التساهل فى التلاعب بكرامة الانسان وماء وجهه واعتبار الغيبة فاكهة المجالس؟

مباحث تكميلية

۱- عاقبة الذى يستغيب

أيَّها القرَّاء المحترمون، للغيبة عواقب سيئة كثيرة أشارت لها الروايات، نكتفى هنا بذكر روايتين: الف: جاء فى رواية: «مَن مات تائباً من الغيبة فهو آخر من يدخل الجنّة ومن مات مصرّاً عليها فهو أول من يدخل النار» «۱». باء: ورد فى روايات أنَّ على الذى يستغيب أن يدفع غرامة غيبته، وهى عبارة عن أخذ بعض ذنوب المغتاب (إذا كانت له ذنوب) ووضعها فى صحيفة أعمال الذى يستغيب، وإذا كان المغتاب خالياً من الذنوب تؤخذ بعض حسنات الذى استغاب وتعطى للمغتاب «۲». وفى رواية: «يؤتى بأحد يوم القيامة يوقف بين يدى اللَّه ويدفع إليه كتابه فلا يرى حسناته فيقول: إلهى ليس هذا كتابى، فانّى لا أرى فيها طاعتى؟ فيقال له: إن ربّك لا يضل ولا ينسى

ذهب عملک باغتیاب الناس ...» «۳». الروایات السالفة تکشف عن أن الغیبة من حقوق الناس، وهی أشدّ وأصعب من حقوق اللّه، ولهذا یجب احتیاطاً إبراء الذمة من المغتاب، وإذا کان فیالإبراء مفسدة فعلیة العمل للمغتاب بکثرة إلی درجة یجبر فیها سوء عمله تجاه المغتاب. بئس المصیر مصیر من اغتاب شخصاً ومات الشخص قبل أن یبرء ذمته من الغیبة، فلا یمکن الوصول إلیه عندئذٍ، لکن علیه الإکثار من الأعمال الصالحة له لکی ترضی روحه علیه.

۲- لا نخدع أنفسنا

کثیر من الناس یخدع نفسه فی مجال الغیبة ویسعی لتبریر سوء عمله بنحو وآخر، مثلًا عندما نعترض علی البعض ونأمره بعدم الغیبة یقول: (ذلک لیس غیبة، بل إنّی أقول هذا أمامه) أو (هذه لیست غیبة بل إحدی صفاته)، مع أن هذا تبریر خاطئ؛ لأن الغیبة لو لم تکن ذکراً لاحدی صفات المغتاب کانت تهمة أو بهتاناً علیه، وباعتبار کونها صفة لم یطّلع علیها الآخرون کانت غیبة، وذکرها عند المغتاب لا أنه لا یحلُّ المشکلة بل یضاعف من الذنب؛ لأنها تدخل عندئذٍ فی باب إیذاء المؤمن، وهو من الکبائر «۱». یتشبث البعض الآخر بعذر آخر من قبیل: (أنَّه أساء لی فأغتابه)، مع أن هذا لا یسیغ الغیبة، فلو أن شخصاً أساء لعرض آخر فهل یمکن للأخیر أن یسیء لعرض الاول؟ بالطبع لا؛ لأن الحاکم الشرعی هو الوحید الذی یمکنه تعزیر المذنب.

۳- إضفاء صفة القداسة علی الغیبة

البعض من الناس یغتاب الآخرین بظاهر شرعی مقدس، کما لو سأله آخرون عن فلان فیجیبهم: (آسف علی أن الشرع لم یسمح لی بالکلام عنه)، وحدیثه هذا أسوء من الغیبة، ولو ذکر عیبه بصراحة کان أفضل بکثیر من ما یترکه من إبهام واحتمالات کثیرة فی ذهن المستمع لکلامه، وقد قال بعض العلماء فی هذا الکلام: إن صاحبه یتحمَّل ذنبین: الغیبة والریاء. اللهم وفقنا جمیعاً لترک هذه الذنوب الثلاثة وبالخصوص الغیبة.

المثل الثامن والأربعون: قرب اللّه من الانسان

اشارة

یقول اللّه تعالی فی الآیة ۱۶ من سورة (ق): «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ وَنَعْلَمُ ما تُوسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أقرَبُ إلَیْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِیدِ».

تصویر البحث

لم تستخدم مفردة مثل أو کاف التشبیه فی الآیة، رغم ذلک أدرجناها فی الامثال؛ باعتبار ما تضمَّنته من تشبیه أمر معقول ومعنوی بأمرٍ محسوس. فی الآیة شبَّه اللّه قربه إلی الانسان بقرب الورید إلی الانسان بل اعتبر نفسه أقرب إلی الانسان من قرب الورید إلیه.

إلقاء نظرة علی الآیات السابقة للمثل

آیات القرآن علی العموم مترابطة فیما بینها ترابطاً خاصاً، وهذا الترابط قد یبدو واضحاً وجلیاً، مثل آیات سورة یوسف التی تحکی قصة واحدة، وأحیاناً لا یکون الترابط جلیاً وواضحاً بل یتّضح بعد التأمُّل والتدقیق. العلاقة بین آیة المثل والآیات التی سبقتها من نوع العلاقة الثانیة، فلا تُدرک ببساطة بل بعد التدقیق والتفکیر. وبعد هذه المقدمة نلقی نظرة عابرة علی الآیات التی سبقت آیة المثل. امثال القران، ص: ۴۵۰ سورة (ق) مکیة، والسورة المکیة غالباً ما تتحدَّث عن التوحید والمعاد. ربَّی الرسول صلی الله علیه و آله المسلمین

خلال تواجده فى مكة تربية عقائدية مستحكمة بنحو كانت منشأ للحركات المستقبلية. والانسان إذا استحكمت عقيدته فى مجالى التوحيد والمعاد تعبّد له طريق العقيدة الكاملة واتضح له سبيل السعادة. إشكال الكثير من الناس ينشأ عن ضعف عقيدتهم فى المبدأ والمعاد، وأمثال هؤلاء لا يرون اللّه حاضراً فى كل مكان ولا ناظراً على كل شىء، ممّا يحرّضهم على اقتراف الذنوب وارتكاب الجرائم، وإذا اعتبروه حاضراً وناظراً فيبقى ضعف اعتقادهم أو انعدامه فى الحياة بعد الموت. عندما امر ابن سعد بقتال الامام الحسين عليه السلام، استاء من ذلك الأمر كثيراً؛ لأنه أصبح بين خيارين، إمّا قتال حفيد الرسول وابن بنته وإمّا رفع اليد عن إمارة الرى، ذلك البلد الخصب، فنشبت عنده الحرب بين عقله وأهوائه، وكانت الغلبة لأهوائه واختار إثر ذلك حرب الامام الحسين عليه السلام سعياً لبلوغ إمارة الرى، وأنشد عندها: يقولون إن اللّه خالق جنةونار وتعذيب وغل يدين فإن صدقوا فيما يقولون اننىأتوب إلى الرحمن من سنتين وإن كذبوا فزنا بدنيا عظيمةوملك عقيم دائم الحجلين «۱» إذن، الاعتقاد بأصلى التوحيد والمعاد مفيد لا فى الآخرة فحسب بل فى الدنيا كذلك، وبهما نستغنى عن المحاكم والسجون، وهذا هو سبب تأكيد الرسول صلى الله عليه و آله عليهما خلال تواجده فى مكة، كما أن محور حديث غالب الآيات التى نزلت فى مكة هو هذان الأصلان. أمّا الآيات المدنية فقلَّ التأكيد فيها على هذين الأصلين، وغالبها كان يصبُّ فى قضايا أخلاقية وفقهية وتاريخية وعسكرية، وقلَّما تعرَّضت للمبدأ والمعاد؛ وذلك لأن اسس عقائد المسلمين ثبتت فى مكة واستحكمت هناك. امثال القران، ص: ۴۵۱ تعرَّض القرآن فى الآيات ۶- ۸ من سورة (ق) إلى مسائل التوحيد قائلًا فيها: «أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إلى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَاهَا وَمَا لَهُمْ مِنْ فُرُوجٍ». سؤال: يظنُّ البعض أنَّ السَّماء ليست سقفاً لكى نتصوّر فيه الثقب أو التزلزل، وما نراه شىء يشبه السقف لا سقفاً حقيقياً، ويبدو أن كلام القرآن هنا غير منسجم مع الاكتشافات العلمية. الجواب: من معانى السماء هو غلاف الكرة الأرضية، أى الجو الذى أحاط بالكرة الأرضية ولا ثقب فيه، وهو رغم ظرافته يعد أكثر استحكاماً من السقف المصنوع من الفولاذ السميك جداً، فهو يصد الشهب رغم عظمتها، وخطرها على الأرض كبير جداً، بحيث إذا سقطت على الأرض أمكنها تدمير منازل كثيرة ومزارع واسعة ومعامل وما شابه، لكن اللّه حفظ الأرض وسكنتها من خلال هذا الغلاف الذى يحرق الشهب عندما تصطدم به، لتتبدل إلى رماد. هذا مضافاً إلى أن الغلاف يمنع من دخول بعض الأشعة المضرّة إلى الكرة الأرضية، ولو سمح لهذه الاشعة بالدخول لعرَّضت حياة الانسان إلى الخطر. إنَّ هذا الغلاف بمثابة المصفاة الذى يصفى الأشعة التى تصدر من الشمس ليصل المفيد منها إلى الأرض وينعكس غير المفيد إلى خارج الجو. لو كان فى هذا الغلاف ثقوب لتسنَّى للشهب وكذا الأشعة المضرّة الدخول إلى الأرض، ولعرَّضت حياة الانسان إلى خطر جدّى. ألا يفكر الانسان الجاحد بهذه الآيات لكى يدرك عظمة خالقه؟ «وَالأَرْضَ مَدَدْنَاها وألْقَيْنَا فِيها رَوَاسِيَ وأَنْبَتْنا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ» «۱». كان سطح الأرض يعمّه الماء، وظهرت اليابسة تدريجياً، ولهذا يُعدُّ ظهور اليابسة من آيات اللّه العظمى ومن معالم التوحيد. جبال الأرض بمثابة الأوتاد (الرواسى) التى تصدُّ الإعصارات الشديدة، وتمنع من حصول امثال القران، ص: ۴۵۲ آثار الزلازل المخرّبة، وهى بذلك من آيات اللّه ومعالم قدرته. قضية الزوجية فى الحيوانات والنباتات دليل آخر على عظمة الخالق. فى القرن السابع عشر من الميلاد اكتشف العلماء أن الزوجية لا اختصاص لها بالحيوانات، بل النباتات لها ذكر وانثى وإلَّا لما أثمرت. كشف القرآن المجيد عن هذا اللغز العلمى منذ ۱۴ قرناً وأعلن وجود الزوجية حتى فى النباتات. «تَبْصِرَةً وذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ» «۱». أى أنَّا جعلنا الآيات السالف ذكرها لغرض الإبصار والتذكر لكلِّ عبد تائب. بعدما تعرَّض اللّه تعالى إلى قضية التوحيد فى الآيات الثلاث المتقدِّمة ينتقل فى الآية ۱۵ من نفس السورة إلى قضية المعاد والحياة بعد الموت ويقول: «أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبسٍ مِنْ خَلقٍ جَدِيدٍ». أى أنَّهم ظنوا أنا عجزنا فى الخلق الأول وشكوا فى امكانية خلقنا الثانى أو الجديد. النتيجة: أن اللّه تعرَّض فى الآيات التى سبقت آية المثل إلى معارف توحيدية، وآية المثل تمتُّ بهذه الآيات بصلة؛ باعتبار أنَّ محاسبة أعمال الانسان من الآثار المفروضة للمعاد. المعاد للمحاسبة، وهى عملية منوطة بتسجيل وتثبيت الأعمال، لكن من سجَّل الأعمال وأثبتها؟ هذا ما تجيب عنه آية المثل.

الشرح والتفسير

«وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسانَ وَنَعْلَمُ ما تُوَسوِسُ بِهِ نَفْسَهُ». اللَّه يعلم بكل ما يصدر من الانسان، لا أعماله الخارجية وكلامه فحسب بل بكل ما يدور فى باطنه من أسرار واعتقادات وأفكار. الوسوسة فى الأصل تعنى الصوت الذى يحدثه الحلى عند احتكاك بعضها بالآخر، ثم امثال القران، ص: ۴۵۳ استخدم لكل ما يخدع الانسان، ومنها الأوهام والخيالات غير المرادة التى تنتقش فى ذهن الانسان. إذن، اللَّه يعلم بكل شىء حتى فى بالوساوس والأوهام التى تدور فى الأذهان، فبأى شيءٍ أنتم تشكّون؟ «وَنَحْنُ أقْرَبُ إلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ». اللَّه ليس بعيداً عن الانسان بل قريب وقريب جداً أقرب ممَّا يتصوره الانسان. للوريد معنيان: ۱- الوريد الذى فى أحد طرفى عنق الانسان. ۲- الوريد الذى يتصّل بالقلب. القلب من مخلوقات اللَّه العجيبة، فهو جهاز يعمل متواصلًا ليل نهار مدَّة ثمانين سنة أو أقل أو أكثر. اللَّه أقرب إلى الانسان من وريد قلبه إليه، ومع هذا هل يبقى شىء من الانسان خافياً على اللَّه؟ هل تخفى على اللَّه أوهام الانسان وخيالاته؟ كلا، بل هو يعلم بكل شىء.

خطاب الآية

آثار الايمان بقرب اللَّه

إذا آمنا بقرب اللَّه إلينا وأنه أقرب إلينا من حبل الوريد نبدأ نشعر بأنَّا فى محضرٍ من اللَّه تعالى دائماً، ونخجل من ارتكاب الذنوب والمعاصى فى محضره. العالم الخارجى ليس الوحيد الذى هو محضر اللَّه تعالى، بل كذلك عالم الباطن، وما أقبح المعصية وسوء الأدب فى محضر اللَّه الغفور الرحيم الكريم؟

مباحث تكميلية

۱- أمثال اخرى لقرب اللَّه من الانسان

ضربت أمثال اخرى لقرب اللَّه من الانسان، من قبيل: مثل اللَّه والانسان كمثل الروح إلى امثال القران، ص: ۴۵۴ البدن، أو كمثل الشمس إلى الكون، أو كمثل المولّد للكهرباء إلى المصباح أو الوسائل الكهربائية الاخرى التى تنطفئ بمجرد انقطاع التيار الكهربائى. لكن لا أحد من الأمثال المتقدّمة تبيّن قرب اللَّه إلى الانسان مثلما بيّنه مثل الآية الشريفة. اللَّه تعالى أقرب من كل قريب، ولا ينفصل عنا أبداً، لكن ليتنا نصدق ذلك؟ ولو صدَّق الانسان هذه الآية فقط لاستحال ارتكابه الذنوب وتلوّثه بالظلم والآثام.

۲- حديث للامام الكاظم عليه السلام

ورد فى حديث أنَّ أبا حنيفة (زعيم الطائفة الحنفية لأهل السنة) جاء إلى الامام الصادق عليه السلام يوماً فقال: رأيت ولدك يصلى والناس يعبرون من أمامه «۱» إلَّاأنَّه لم ينههم عن ذلك، مع أنَّ هذا العمل غير صحيح. فقال الصادق عليه السلام ادعوا لى ولدى موسى فدُعى له فكرّر الامام الصادق عليه السلام حديث أبى حنيفة لولده موسى بن جعفر فأجاب موسى بن جعفر قائلًا: «إنَّ اللَّه الذى اصلى له أقرب إلىَّ من حبل الوريد، إنَّ اللَّه عزَّ وجلَّ يقول: نحن أقربُ إليه مِن حبل الوريد» «۲». وإذا كان اللَّه بهذا المستوى من القرب للانسان فما يؤثر عبور المارّة من أمام المصلى؟ إن اللَّه قريب جداً للانسان حقاً، فلماذا لا نستحيى؟ إنَّ عدم حياءنا بسبب عدم فهمنا للآية أو عدم تصديقنا لها، وإذا أردنا تصديقها فعلينا ترديدها والترنم بها كل يوم ليل نهار.

المثل التاسع والأربعون: مثل آخر للحياة الدنيا

اشارة

الآية ۲۰ من سورة الحديد تعدُّ مثلًا آخر للحياة الدنيا، يقول اللَّه فيها: «اعْلَمُوا أَنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنيَا لَعِبٌ وَلَهوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُر بَينَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَموَالِ وَالأَولادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعجَبَ الكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَراً ثُمَّ يكُونُ حُطَاماً وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَديدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضوانٌ وَمَا الحَياةُ الدُّنيَا إِلَّامَتَاعُ الغُرُورِ».

تصوير البحث

هذا المثل ضرب للحياة الدنيا، كما ضربت أمثال اخرى تقدَّم شرحها، لكنه يختلف عمَّا تقدَّم. فى هذا المثل شُبِّهت الحياة الدنيا بالغيث الذى يهبط على الأرض فينبت الزرع ويضفى على الأرض حياة وطراوة عجيبة، لكنه سرعان ما يفقد أثره وتنتهى الحياة والطراوة بعد فترة من الزمن.

الشرح والتفسير

«اعْلَمُوا أَنَّما الحَيَاةُ الدُنْيا لَعبٌ ولَهْوٌ وزينةٌ وَتَفاخُرٌ بَيْنَكُمْ وتكاثرٌ فِي الأموَالِ والأولادِ». المخاطبون فى هذه الآية ليس المسلمين فحسب بل الناس أجمعين، الآية تقول: أيُّها الناس أينما كنتم وعشتم وفى أى زمان ومكان، إن الدنيا لا تخرج عن حالات خمس: ۱- «لَعِبٌ». امثال القران، ص: ۴۵۶ الدنيا لعب يمارسه عدَّة من أتباع الأهواء، كما يفعل ذلك الأطفال، ورغم كبر سنهم إلَّاأنَّ عقولهم وسلوكهم طفولية. ۲- «لَهْوٌ». مجموعة اخرى من الناس هم أصحاب اللهو، وما داموا فى الحياة الدنيا لا يفكرون بشىءٍ غير اللهو، وشعارهم اللهو ما داموا قادرين عليه. ۳- «زِينة». الشكل الآخر للحياة الدنيا هو الزينة، فالبعض لا يهتم بأمرٍ مثل ما يهتم بالزينة، وهو دائماً منهمك فى الزينة والملابس الجديدة والموضات الجديدة والمنزل الجديد والحركات الجديدة، والخلاصة أنه لا شأن للبعض غير الزينة. ۴- «تَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ». التفاخر هو الشكل الآخر للدنيا، وقد يكون المراد من التفاخر هنا هو التفاخر فى الجاه والمقام والشأن الاجتماعى، الذى يتفاخر به البعض على الآخر. ۵- «وتَكاثُرٌ فِي الأمْوَالِ والأولاد». الشكل الآخر للدنيا هو التكاثر فى الأموال أو الثروة والجانب الاقتصادى والأولاد. الدنيا تنحصر أشكالها فيما تقدَّم من الحالات الخمس. سؤال: ما المراد من حالات الدنيا وأشكالها الخمسة؟ هل المراد منها أن الناس ينقسمون إلى خمسة أقسام، بحيث حياة البعض مفعمة باللعب وحياة بعض آخر مفعمة باللهو وحياة بعض آخر مفعمة بالزينة وحياة آخرين مفعمة بالتفاخر أو التكاثر، أو أن المراد كون الانسان يمرّ بالمراحل والأشكال الخمسة من الحياة؟ الجواب: يعتقد بعض المفسرين أنَّ كل انسان يمرُّ بهذه المراحل الخمس حتى يبلغ الأربعين، وعندها يكون كاملًا، والسنوات التى تسبق هذا العمر تنقسم إلى خمس مراحل، كل مرحلة تتكوَّن من ثمان سنوات، المرحلة الاولى هى الثمان سنوات الاولى من عمر الانسان، حيث يقضى وقته باللعب، وفى الثمان سنوات الثانية يقضى وقته باللهو والعبث، وهى مرحلة الأشبال والأحداث، وفى الثمان سنوات الثالثة يقضى الانسان أوقاته فى الزينة، وهى مرحلة امثال القران، ص: ۴۵۷ الشباب، وفى الثمان سنوات الرابعة يسعى لكسب الجاه والمقام والتفاخر به، ومنذ الثانية والثلاثين وحتى الأربعين يحاول جمع أكبر حجم من الثروة والمال والذهب، وبدخوله الأربعين يتكامل وتثبت شخصيته وتستقر «۱». «كَمَثَلِ غَيْثٍ أعْجَبَ الكُفَّارَ نَبَاتُهُ». بعد ما بيَّن اللَّه تعالى ماهية الدنيا وحقيقتها ضرب لها مثلًا فقال بأنَّها تشبه الغيث الذى ينزل على الأرض فيحييها وينبت فيها مختلف النباتات والزهور الجميلة، بحيث تثير إعجاب الكفَّار. المراد من الكفَّار هنا هو المزارعون والفلاحون، والكفر بمعنى الستر والتغطية، وأُطلق الكافر على غير المؤمن باعتبار أنه يستر الحقيقة وما تعتقد به فطرته، كما اطلق هذا اللفظ على المزارع باعتباره يستر البذور ويخفيها تحت التراب، كما يُطلق هذا اللفظ على القبر والليل؛ باعتبار أن القبر يستر الجسد والليل يستر أشياء كثيرة لظلمته. على أى حال، الآية تشير إلى أن الغيث يثير إعجاب المزارعين لما يمنحه من

حياة وطراوة ونشاط على وجه الأرض، فينبت النباتات وتتغيّر وجه الأرض بها. «ثُمَّ يَهِيجُ فَتَراهُ مُصْفَرّاً». لكن عمر النباتات والاشجار والزهور التى نبتت جرّاء الغيث ليس طويلًا، وينتهى بحلول فصل الخريف، فيُذهب بكل ما جاء به الغيث من حياة ونشاط وطراوة. «ثُمَّ يكُونُ حُطَاماً». بعد ما تصفرّ النباتات تتبدَّل إلى حطام يتلاشى بريح بسيط أو نسيم، فيذهب به إلى مكان أو آخر، بعدما كان صامداً أما الأعاصير عندما كان أخضر. نعم، الحياة الدنيا بأموالها وزينتها ومقامها بمثابة هذه المزرعة، أوَّلها زخرف جذَّاب، لكنَّها سرعان ما تتلاشى ولو شككنا فى ذلك يكفينا أن نلقى نظرة عابرة على حياة النباتات التى امثال القران، ص: ۴۵۸ تدوم ستة أشهر، فحياتها تصوير لحياتنا المادية، لكنها تعيش ستة أشهر والانسان يعيش ستين عاماً، والموت هو نهاية كل حياة، وكلٌّ من الانسان والنبات يموت يوماً ما، والانسان ضعيف كالنبات، فهو فى بداية ولادته عاجز على الاحتفاظ بلعاب فمه، وينتهى به الأمر فى الشيخوخة إلى ذلك أيضاً. «وفى الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّه ورِضْوانٌ». سيبتلى الانسان فى الآخرة بأحد المصيرين؛ العذاب الشديد أو المغفرة والرضوان. «وَمَا الحَيَاةُ الدُنْيا إلَّامَتَاعُ الغُرورِ». ليست الحياة أكثر من سلعة للخداع، أى لها ظاهر جذاب خادع دون باطن.

خطابات الآية

۱- الدنيا خادعة وفانية

خطاب الآية هو أن لا تخدعكم الدنيا بظاهرها ولا تصدّكم عن أهدافكم الأساسية، فالدنيا ممَّا لا يمكن الوثوق بها، فهى خادعة زائلة. يصف الامام على عليه السلام الدنيا كما يلى: «تغرُّ وتضرُّ وتمرُّ»، أى أنَّ لها صفات ثلاث: ۱- خادعة تغرُّ الانسان وتخدعه. ۲- تضرُّ الانسان وتصدّه عن الآخرة. ۳- فانية وزائلة وغير دائمة. ثم يقول: «إنَّ اللَّه تعالى لم يرضها ثواباً لأوليائه ولا عِقاباً لأعدائه». ثمّ يمثل للدنيا مثلًا جميلًا ويقول: «وإنَّ أهل الدنيا كركبٍ بينا هم حلّوا إذ صاح بهم سائقهم فارتحلوا» «۱». فى كل تشبيه ثلاثة أركان، هى: المشبَّه والمشبَّه به ووجه الشبه، وعندما نشبّه الانسان بالأسد، يكون الانسان مشبَّهاً، والاسد مشبَّهاً به، والشجاعة وجه الشبه، أى أنَّا نشبِّه الانسان بالاسد فى الشجاعة. امثال القران، ص: ۴۵۹ وفى المثل الذى هو موضع بحثنا تكون الدنيا مشبَّهاً، والغيث والنباتات مشبّهاً به، لكن ما هو وجه الشبه؟ أى ما هو الذى فى النباتات والزهور يشبه الدنيا؟ احتمل المفسرون عدّة احتمالات هنا: الاول: شبِّهت الدنيا بالنباتات من حيث عدم الثبات وكونها مؤقتة وزائلة، فكما أن طراوة النباتات وخضارها ليس دائماً وتصفرُّ بعد فترة من الزمن كذلك الحياة الدنيا فلا دوام لها ولا وفاء لها لأيٍّ من البشر، فهى زائلة وفانية «۱». الثانى: وجه الشبه هو التحولات الدنيوية السريعة، فهى سرعان ما تتغيّر، فالملك قد يتحوّل إلى فقير متسوّل أو يُسجن، والرئيس قد يُقال من منصبه، وتحولات من هذا القبيل كثيرة فى الدنيا، ولا ينبغى الوثوق بها فى أى وقت، فهى كبيت العنكبوت، فإذا كنت شاباً فلا تغرّك طاقتك وقدرتك، وإذا كنت ثرياً فلا تغرّك ثروتك، وإذا كنت صاحب مقام وشأن فلا يغرّك شأنك ومقامك. الخلاصة: لا تغتر بوضعك الراهن، فان الأوضاع غير ثابتة، ويمكن أن تتحول الأوضاع كلها فى حادث واحدٍ. الثالث: اعتبر البعض الخداع هو وجه الشبه، فكما أن النباتات جذّابة وخادعة ومتنوّعة كذلك الدنيا، فهى كالحية ذات الظاهر الجذّاب والخادع. العاقل لا يفكّر بلحظة طراوة النباتات فقط بل بفصل الخريف، الذى سرعان ما يقدم ويبدّل خضار النباتات إلى صفارٍ، فلا يغتر بخضارها الخادع، ولا ظاهرها الفاتن دون أن يفكّر بباطنها الأجوف «۲».

۲- الهدف من الخلق

هل ينثر المزارع البذور فى الأرض دون هدف؟ هل ينمّى الفلاح النباتات والزهور دون امثال القران، ص: ۴۶۰ هدف؟ لماذا لم يزرع الفلاح أعلافاً وأشواكاً بدلًا عن النباتات المفيدة؟ لا شكَّ بأن للفلاح هدفاً، وعلى هذا كيف يمكن للَّهالحكيم والأعقل من كل عاقل والأعلم من كل عالم أن يخلق الانسان والدنيا دون هدف؟ وهل يمكن للَّهأن يخلق الانسان ويخلق جميع المخلوقات لأجله، لغرض

اللهو واللعب والزينة والتفاخر والتكاثر ولأجل أن يعيش أياماً ثم ينتقل إلى عالم الآخرة؟ أيُّها الانسان، خلقك زارع الكون لهدف أهم، وحياتك الخالدة تبدأ بعد الحياة الدنيا، والدنيا بمثابة عالم الأجنّة، حيث موتك فيه هو الحياة «وَانَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيَوانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ» «۱» ، فاسعَ لتلك الحياة الخالدة، ولا تلقِ نفسك فى مستنقع اللهو واللعب والتفاخر والزينة والتكاثر فى الأموال والأولاد.

المثل الخمسون والحادى والخمسون: اليهود

اشارة

الآيات ۱۴- ۱۷ من سورة الحشر تشتمل على مثلين، يقول اللَّه فيها: «لا يُقاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فى قُرىً مُحَصَّنَةٍ أوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأسُهُم بَيْنهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُم جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذلِكَ بأَنَّهُمْ قَومٌ لَّايَعْقِلُونَ* كَمَثَلِ الذِينَ من قَبْلِهِم قَرِيباً ذاقُوا وَبَالَ أمْرِهِم وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ* كَمَثَلِ الشَّيطَانِ إِذْ قَالَ للإنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كفَرَ قالَ إنّى بَرىءٌ مِنكَ إنّى أخَافُ اللَّهَ رَبَّ العَالَمِينَ* فَكَانَ عَاقِبَتَهُما أَنَّهُمَا فى النَّارِ خَالِدَينِ فِيها وَذلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ».

تصوير البحث

الآيات الأربع تضمُّ مثلين جميلين عن طائفة من اليهود تدعى بنى النضير قصدت الحرب مع المسلمين بإيعاز من المنافقين، وهذه الآيات حذّرت هذه الطائفة من الحرب ومن عواقبها لكلٍّ من المنافقين واليهود، وضربت مثلين يأتى شرحهما.

تاريخ اليهود فى المدينة

لاتضاح الآيات الأربع علينا إلقاء نظرة على تاريخ اليهود فى المدينة. كان فى المدينة يعيش ثلاث طوائف من اليهود، هى: بنى النضير وبنى قينقاع وبنى قريظة، كانوا قد صنعوا لانفسهم قلاعاً مستحكمة، وكانوا يعملون فى المجالات التجارية، وكانت أوضاعهم المالية جيدة. امثال القران، ص: ۴۶۲ كان اليهود قد قدموا من شبه الجزيرة العربية إلى المدينة؛ محاولة منهم للقاء الرسول الموعود؛ باعتبار أنَّهم كانوا قد سمعوا من علمائهم أن الرسول سيظهر فى الحجاز. كانوا يعيشون انتظار رؤية جمال الرسول الخاتم صلى الله عليه و آله فى مكة، كما كانوا يبشرون أهل المدينة بظهوره وظهور دين جديد. عندما ظهر الرسول صلى الله عليه و آله وجاء بدين جديد أضاء بنوره ظلمات الحجاز وجد متعصّبو اليهود هذا الدين متضارباً مع مصالحهم وأهوائهم الشيطانية فهموا بالمخالفة. اعاذنا اللَّه من هوى النفس، ماذا يعمل؟ مجموعة تهاجر من وطنها لتسكن موطن الرسول الموعود، حبّاً به وانتظاراً لرؤيته، وعندما تنقضى لحظات الانتظار الصعبة ويرونه أمامهم لا أنَّهم لا يستقبلونه ولا يرحّبون به فحسب بل يخططون لقتله ويتّحدون مع أعدائه ويتآمرون للقضاء عليه. انتصر الاسلام فى هذه المواجهة وفتح القلاع الثلاث ودمَّر اليهود وتركهم بين قتيل وبين مغادر المدينة بذلٍّ وصغار.

شأن نزول الآيات

بعد ما تلاشت طائفة بنى قينقاع إثر المواجهة التى حصلت بينها وبين المسلمين، همَّ المنافقون للإيعاز إلى طائفة بنى النضير لمواجهة المسلمين ولشنِّ حرب ضدهم، وقالوا لهم: لنتعاون معاً لطرد الاسلام واجتثاثه من الجذور ما دام غير مستحكم ولم يشكل حكومة فى المدينة بعد. الآيات المزبورة تحذّر اليهود من التعاون مع المنافقين ومن الوقوع فى مستنقع الشقاء بسببهم، والمنافقون سوف لا ينفعونكم شيئاً، وأنتم لوحدكم غير قادرين على المقاومة أمام المسلمين، ومصيركم هو نفس المصير الذى ابتلى به بنى قينقاع، وعاقبة كلا الطائفتين واحدة، ثم يضرب لهم مثلين.

الشرح والتفسير

«لا يُقاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّافِي قُرىً مُحَصَّنةً أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ». امثال القران، ص: ۴۶۳ أيها المسلمون، لا تخافوا هؤلاء اليهود، فهم لا يتجرّؤون مواجهتكم، وإذا أرادوا مواجهتكم فمن خلف قلاع محصّنة وجدران، وهذا يكشف عن قدرتكم وقوتكم وعن ضعفهم وعجزهم. «بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى . شديدو البأس فيما بينهم إذا تقاتلوا، ممَّا يجعلكم تتصوّرون أنَّهم متحدون وأقوياء، مع أنَّهم متشتتين، واتحادهم ظاهرى، وبذور التفرقة مزروعة فى قلوبهم. هذا هو حال اليهود فى العصر الحاضر، فهم أقوياء ومتحدون عند القتال فى الظاهر، لكنهم عاجزون لا خيار لهم أمام مسلمى حزب اللَّه «۱»، وأن بذور الفرقة مزروعة فى قلوبهم، فهم ماديون ومن عبدة الدنيا، ويميلون حيثما مالت مصالحهم وينفصلون ويتفرّقون أينما اقتضت تلك المصالح. «ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ». سبب اختلافهم وفرقتهم هو جهلهم وعدم كونهم من ذوى العقول والفكر، فالعقل سبب للاتحاد، والجهل سبب للاختلاف والفرقة. إذن، ما على المسلمين أن يرهبوا اليهود. وبعد بيان ما عليه اليهود من الفرقة والاختلاف شرع فى بيان مثلين لهم. المثل الاول: «كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبلِهِمْ قَرِيباً ذاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ». مثل بنى النضير كمثل الذين سبقوهم ممَّن دفعوا ثمن أعمالهم وكفارتها، وهم حالياً يعيشون فى عذاب أليم. وبهذا مثَّل اللَّه بنى النضير بالأقوام الذين سبقوهم من حيث دفعهم كفارة سوء أعمالهم. احتمل المفسرون احتمالين فى المراد من القوم المذكور فى الآية: الاول: المراد هو مشركو مكة الذين دفعوا ثمن أعمالهم أو كفارتها فى حرب بدر. المنافقون أوعزوا لمشركى مكة لخوض حرب بدر، وبعدما نشبت خسروها ورجعوا أذلاء، واليهود امثال القران، ص: ۴۶۴ سيبتلون بنفس المصير الذى ابتلى به هؤلاء. الثانى: المراد هو يهود بنى قينقاع، الذين تأثروا بإيعازات المنافقين واغواءاتهم وخاضوا حرباً مع المسلمين وخسروها وارغموا على ترك المدينة. فيا يهود بنى النضير، إن مصيراً كمصير بنى قينقاع فى انتظاركم. المثل الثانى: «كَمَثَلِ الشَّيطانِ إِذْ قَالَ للإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىءٌ مِنْكَ إِنِّى أَخافُ اللَّهَ ربَّ العَالَمِينَ». كان المثل الاول مضروباً فى حق اليهود الذين حاربوا المسلمين بإيعاز من المنافقين، أمَّا المثل الثانى فيخصُّ المنافقين، وبعبارة اخرى: كان المثل الاول يخصُّ مَن اثيروا تحرَّضوا، وهذا المثل لمَن أثاروا وحرّضوا. يقول اللَّه فى هذا المثل: المنافقون الذين أثاروا اليهود وأوعزوا لهم لحرب المسلمين مثل الشيطان الذى يثير الانسان ويوعز له لأن يكفر باللَّه، ويتركه هارباً بمجرّد أن لا يرى الموقف لصالحه. قد يتجلّى الشيطان بشكل انسان ليخدع وليمرر حيله «۱»، نشير إلى نماذج من هذا القبيل: الف: تمثَّل الشيطان بشكل انسان فى معركة بدر، يدعو المشركين للحرب ويحرّضهم للهجوم على المسلمين، وسحب نفسه عندما مالت كفّه الميزان لصالح المسلمين، وأنزل اللَّه عندها ملائكة لنصرتهم، وعندما سئل عن سبب الانسحاب رغم أنَّه كان يحرّض على القتال، قال: إنّى أرى ما لا ترون «۲». باء: عندما عقد زعماء قريش جلسة لدراسة قضية كيفية مواجهة الرسول صلى الله عليه و آله تمثَّل لهم كشيخ عجوز من أهالى نجد، اقترح عليهم أن يُنتخب من كل قبيلة فتى يجتمعون ويهاجمون بيت الرسول صلى الله عليه و آله ويقتلونه، لكى يتوزَّع دمه على جميع القبائل، وتعجز قريش عن الانتقام من امثال القران، ص: ۴۶۵ جميع العرب، ووافقوا على هذه الخطة «۱». جيم: فى قضية بيعة أبى بكر بعد وفاة الرسول يُقال: تمثَّل الشيطان للمسلمين كشيخ عجوز فى المسجد، وكان أول من أقدم على بيعة أبى بكر «۲». على كل حال، يقول اللَّه للمنافقين مثلكم كمثل الشيطان الذى يوعز للانسان بالكفر ويحرّضه عليه، ثم يلوذ بالفرار من الساحة عندما يشعر بالخطر، ويقول: إنّى برىء منك إنّى أخاف اللَّه ربّ العالمين. هذا الكلام يصدر من الشيطان عندما يرى نفسه على حافة العذاب، فيتوب، لكن لا فائدة فى التوبة عند نزول البلاء والعذاب، كما أن التوبة غير مقبولة على عتبة الموت حيث تنجلى ستار الغفلة، وحيث يتورّط الطرفان، الشيطان الذى حرّض وأثار والانسان الذى تأثّر وتحرَّض، وكذا المنافقون الذى أثاروا اليهود وحرَّضوهم واليهود الذين أُثيروا وتحرّضوا، وعاقبة الطرفين هى جهنَّم وبئس المصير. المثلان ضربا فى اليهود والمنافقين فى صدر الاسلام، لكن هل يختصان بعهد الرسول؟ الإنصاف فى القول بأن المثلين جاريان فى جميع العهود والأزمان والأماكن، وشاملان لكلِّ من همَّ بقتال المسلمين بتحريض من المنافقين، الذين

يرفعون يـد العون والإثارة عنـدما يرون الورطـة بأعينهم، بل أحياناً يهمّون بالـدفاع عمَّن حرَّضوا الآخرين ضده؛ وذلك لانعدام مفاهيم من قبيل العهد والوفاء فى قواميس المنافقين والشياطين.

خطابات الآية

۱– أعداء الاسلام ضعفاء

وفقاً لما جاء فى الآية، أعداء الاسلام ليسوا كما نتصوّر، فهم غير متّحدين ولا أقوياء، ويقاتلون حتى حلفاءهم إذا ما تعرّضت مصالحهم للخطر، فقلوبهم متفرّقة، وأفضل دليل على تفرّقهم هو عدم الاشتراك فى المصالح، فلكلٍّ مصالح تخصّه.

۲– الجهل سبب الاختلاف

جاء فى ذيل الآيـة كون الجهل هو سـبب التفرقـة والاختلاف بين المشـركين والكفّار، إذ يقول اللَّه: «ذلِكَ بأنَّهُمْ قَوْمٌ لَايعقِلُون»، وهـذا يعنى أن الوحدة والاتّحاد يكشف عن النباهة والعقل والدراية. المجتمع الواعى هو الذى يهتم بالمصالح العامة لكل المجتمع، وسـلامة الفرد بسـلامة المجتمع ككـل. هـل أدركنـا هـذا الخطـاب المهم الـذى أوحاه الوحى وقال به العقل؟ وهل نحن مسـتعدون للتخلّى عن اختلافاتنا وميولنا الحزبيـة نزولًا عند طلب العقل والشـرع؟ كم من الطاقات والقوى تُهدر فى النزاعات الداخلية والحزبية؟ من المفروض أن تُصـرف هـذه الاموال والطاقات الفكريـة والثقافيـة فى طريق عمران البلاد والـدين، فلماذا تسـتهلك فى نزاعات داخلية تافهة؟ نعم، الاتحاد علامة العقل، والاختلاف علامة الجهل.

۳– الوثوق بالمنافقين خطأ

عرفنـا من آيـات المثـل أنَّه لاـ يمكن الوثوق بالمنـافقين الـداخليين ولاـ الأجـانب، ولا ينبغى لأنصار النظام الاسـلامى وأتباع المدرسـة القرآنية أن ينخدعوا بحيل المنافقين أو يتعاونوا معهم أو يثقوا بهم، فإنَّهم يلوذون بالفرار ويتركون الآخرين لوحدهم بمجرَّد إحساسهم بالخطر، بل يتعاونون مع الأعداء إذا وجدوهم أقوى كان المنافقون ولا يزالون يشـكّلون خطراً جدياً على الاسلام والمسلمين، وسيبقون كذلك، وما علينا إلَّاالحذر منهم.

۴– تاريخ المتقدِّمين يضىء الطريق للمتأخرين

إذا أردتم اختيار الطريق الصـحيح لحياتكم فعليكم دراسـة التاريـخ ومطالعة سـيرة المتقدِّمين، لكى تسـتفيدوا من تجاربهم وتعتبروا من عبرهم، فـانَّ التاريـخ يكرّر نفسه. يقول الامـام أمير المؤمنين عليه السـلام: «إنَّ الـدهر يجرى بالبـاقين كجريه بالماضـين». «۱» وهذا هو المراد من تكرُّر التاريخ. ينبغى النظر فى تاريخ المتقدِّمين وسـيرتهم، ومن خلال استيعاب ومعرفة عوامل انتصارهم أو خسارتهم يمكننا أن نخطو نحو المستقبل بثقة وبنحو أفضل.

۵– خُطى الشيطان والمنافقين واحدة

النتيجـة المسـتفادة من تشبيه المنافقين بالشـيطان هى أن نهـج الشـيطان والمنافقين واحد، وانهم يخطون فى نفس النهج، كما أن اليهود والمشـركين من هـذا القبيـل، ولهـذا شُبِّه اليهود بالمشـركين. الاختلاف الوحيـد بين الشـيطان والمنافقين هو أن الاوائل شـياطين الجن والآـخرين شـياطين الإنس، أمَّا مناهجهم وخططهم فواحـدة، وينبغى الحـذر من كليهما. إلهى! نعوذ بك من شـر الشـيطان ونسألك أن

تحيمنا منه.

المثل الثانى والخمسون: جاذبية القرآن المتميّزة

اشارة

يقول اللَّه تعالى فى الآية ۲۱ من سورة الحشر: «لَوْ أَنْزَلنَا هَذَا القُرآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأيْتَهُ خَاشِعاً مُتصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وتِلْكَ الأمْثالُ نَضْرِبُهَا للنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرونَ».

تصوير البحث

هذا المثل يتعلَّق بالجاذبية الخارقة للطبيعة التى يتمتّع بها القرآن، وقد شبَّه اللَّه تعالى قدرة النفوذ المعنوى لكلامه فى الانسان بخضوع وخشوع الجبال أمام القرآن، بحيث لو نزِّل هذا القرآن على الجبال لخشعت وخضعت له؛ خوفاً من اللَّه ورهبة منه. ثمّ يعتبر التعقّل والتفكر فى آيات اللَّه هو الهدف من أمثال القرآن.

جاذبية القرآن العجيبة

سيرة الرسول صلى الله عليه و آله تكشف عن أن المشركين كانوا يخافون من جاذبية القرآن القوية. وقد بيَّن القرآن خوفهم هذا فى الآية ۲۶ من سورة فصّلت كالتالى: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذا القُرآنَ والغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ». نعم، كانت جاذبية القرآن كبيرة جداً وكان خوفهم بدرجة حيث كانوا يوجدون ضوضاءً عند تلاوته من قبل الرسول صلى الله عليه و آله، لكى لا تصل كلماته إلى أسماع الناس، وغاية ما كانوا امثال القران، ص: ۴۷۰ يفعلونه فى هذا المجال أنَّهم كانوا يوصون من يدخل المسجد الحرام بوضع قطنة فى اذنه لكى لا يسمع شيئاً من كلام الرسول صلى الله عليه و آله ويُسحر به «۱». ومن المؤسف أن هذا المنهج بأساليبه المتقدِّمة متَّبع حالياً، سعياً للحؤول دون بلوغ صوت الحق أسماع الناس. بعض التُّهم التى ألصقها المشركون بالرسول صلى الله عليه و آله تكشف عن هذا المعنى منها: تهمة السحر التى أشارت إليها الآية الثانية من سورة يونس: «قَالَ الكَافِرُونَ إنَّ هذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ».

الشرح والتفسير

«لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا القُرآنَ عَلَى جَبلٍ لَرَأيْتَهُ خَاشِعاً مُتصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ». نعم، لو أن هذا القرآن كان قد نزل على الجبال لتلاشت، لكن الانسان الغافل يسمعه يُتلى على لسان الرسول صلى الله عليه و آله ثلاثة وعشرين عاماً، وقلبه لا يتأثر به، وكأنَّه أقسى من الحجر. وردت نظريتان فى تفسير الآية الشريفة: الاولى لو كان للجبال عقل وإحساس وقابلية للاستيعاب والفهم وأنزلنا عليها هذا القرآن لخشعت، أى أنَّ الآية قضية شرطية لتنبيه الانسان، وأنَّ المفروض بالانسان أن يخشع قلبه للقرآن إذا كان له عقل، لكنَّه لا يخشع للقرآن ولا يخضع له لماذا «۲»؟ الثانية: الآية ليست قضية شرطية بل حقيقة؛ لأن لجميع الموجودات إدراكاً وإحساساً يناسبه «۳». وهذا المعنى انعكس فى آيات عديدة، منها: الآية الاولى من سورة التغابن، إذ جاء هناك: «يُسَبِّحُ للَّهِ مَا فِى السَّمَاواتِ وَمَا فِى الأرْضِ لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىءٍ قَدِيرٌ». امثال القران، ص: ۴۷۱ ولو لم يكن للموجودات عقل وإدراك متناسب معها لما كان هناك معنى لتسبيحها، بل هى تدرك فتسبح وتقدّس وتحمد وتثنى، لكنا لا ندرك تسبيحها وتقديسها وذكرها، أمَّا الذى يتمتّع بحالة شهود عالم الباطن فيسمع تسبيح الموجودات ويفهمها. الآية تندرج فى أمثال القرآن طبقاً للتفسير الاول، لكنها تخرج عن موضوع بحثنا طبقاً للتفسير الثانى. الآية ۳۱ من سورة الرعد التى وردت فى تأثير القرآن شاهد على التفسير الاول، وقد جاء فيها ما يلى: «وَلَوْ أنَّ قُرآناً سُيِّرت بِهِ الجبالُ أوْ

قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ المَوْتَى بَلِ للَّهِ الأَمْرُ جَمِيعاً». فى شأن نزول هذه الآية يرى بعض الفطاحل أنَّها نزلت جواباً على بعض مشركى مكة حيث جلسوا خلف الكعبة واستدعوا الرسول صلى الله عليه و آله، فقدم إليهم أملًا فى هدايتهم. قال له المشركون: إذا أردت أن نتّبعك فعليك إبعاد جبال مكة، لكى تتسع من خلال ذلك أراضينا، وعليك كذلك تفجير الأرض وجعل ينابيع وأنهاراً فيها، فنغرس أشجاراً ونزرع، فإنك- كما تزعم- لست أدنى من داود الذى سخّر اللَّه له الجبال وكانت تسبّح معه «۱»، أو سخِّر لنا الريح تنقلنا إلى الشام نحلُّ مشاكلنا ونؤمّن حاجياتنا ونرجع فى ذات اليوم، كما سخَّره اللَّه لسليمان، وأنت- كما تزعم- لست أقل من سليمان، كما عليك إحياء جدّك قصى (من أجداد قريش) أو أىّ شخص آخر من الموتى لكى نسأله عمَّا تدعو له من أنَّه حق أو باطل؛ لأن عيسى عليه السلام كان يحيى الموتى وأنت- كما تزعم- لست أدنى شأناً من عيسى عندها نزلت هذه الآية قائلة لهم: ما تقولونه صدر عن عناد ولجاجة لا سعياً للايمان بالرسول، ويكفى الرسول صلى الله عليه و آله ما لديه من معاجز «۲».

خطاب الآية

هيبة القرآن وعظمته

هذه الآية تحكى هيبة القرآن وعظمته، وهى بدرجة تجعل الجبال متصدّعة، ومع هذا كيف هو حال الذين يُقرأ عليهم هذا القرآن متواصلًا دون أن يؤثر فيهم أدنى تأثير، إن قلوب هؤلاء أكثر قساوة من الحجر. إلهى، زدنا علماً بالقرآن، واجعل كل آية منه سبباً لزيادة ايماننا.

المثل الثالث والخمسون: علماء بلا عمل

اشارة

الآية الخامسة من سورة الجمعة تشكّل مثلًا آخر من أمثال القرآن الجميلة، يقول اللَّه تعالى فيها: «مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلوا التّورَاة ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئسَ مَثَلُ القَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بآياتِ اللَّهِ واللَّهُ لا يَهْدِى القَوْمَ الظَّالِمِينَ».

تصوير البحث

الآية تحدَّثت عن اليهود الذين لم يؤمنوا برسالة محمّد صلى الله عليه و آله رغم أن التوراة بشَّرت بها، لكنهم تجاهلوا البشارة، وبتعبير أدق: الآية تضرب مثلًا للعلماء غير العاملين بعلمهم وتشبّههم بالحمار الذى حُمّل كتباً لكن لا يمكنه أن يستفيد منها.

شأن النزول

عندما نزلت الآية الثانية من سورة الجمعة التى قالت بأن اللَّه بعث الرسول صلى الله عليه و آله فى مجتمع امّى، قال متعصبو اليهود: عدم إيماننا بالاسلام بسبب أن الاسلام دين غير شمولى ويخصُّ المجتمع الامى المذكور فى الآية، التى هى بمثابة الاعتراف بعدم شمولية الاسلام «۱». امثال القران، ص: ۴۷۴ غالباً ما يبحث اللجوجون والمغرورون عن الذرائع، واليهود اللجوجون غير خارجين عن هذه القاعدة، والآية جواب لما تشبّث به هؤلاء من ذريعة.

الشرح والتفسير

«مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلوا التوراة ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً». وهب اللَّه تعالى نعمة إلهية كبرى لليهود، وهى كتاب التوراة

السماوى، لكنَّهم لم يؤدوا حق هذا الكتاب، وكأنهم لم يُوهبوا هذه الموهبة الكبرى ومثل هؤلاء كمثل الحمار الذى يحمّلوه كتباً لا يفيد من مضمونها ومحتواها. التوراة بشَّرت بالرسول وذكرت علائم ومواصفات الرسول بنحو دقيق، بحيث أصبحت معرفتهم الرسول كمعرفتهم أولادهم، رغم ذلك أنكروا الرسول أو تنكروه، لماذا؟ «۱» ألم يهاجروا من بلدانهم الأصلية إلى الحجاز شوقاً لرؤية خاتم الرسل؟ إذن، لماذا أدبروا عن بشارات التوراة ولم يؤمنوا بالرسول وبدينه، بل حاربوه؟ مثل هؤلاء الذين لا يعملون بعلمهم كمثل الحمار الذى لا يفيد من مضامين الكتب التى يحملها. «بِئسَ مَثَلُ القَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بآياتِ اللَّهِ» كيف لا يُشبَّه هؤلاء اليهود العنودون بالحمار مع أنهم أنكروا آيات اللَّه تعالى لا فى العمل فحسب بل أنكروها بألسنتهم كذلك؟ وهذا الموقف الذى صدر من اليهود لم يختص بيهود صدر الاسلام، بل اليهود- طبقاً لما ورد فى الآية ۸۷ من سورة البقرة- استكبروا أمام كل رسول جاءهم بما يخالف أهواءهم النفسية، فقتلوا بعضاً من الرسل وكذَّبوا بعضاً آخر، وهذه سيرتهم على طول التاريخ. «واللَّهُ لا يَهْدِى القَوْمَ الظَّالِمِينَ». امثال القران، ص: ۴۷۵ رغم أن ذات اللَّه هى منبع الهداية ومصدرها إلَّاأن قابلية الانسان شرط فى ذلك، واللَّه لا يهدى إلَّامن توفّرت فيه هذه الأرضية، وهدايته لا تشمل من اتَّخذ العناد واللجاجة كمنهج له وظلم نفسه.

خطابات الآية

۱- المثل عام

معنى العبارة: «حُمِّلوا ... ثُمَّ لَمْ يَحْمِلوا» هو أن اللَّه منح اليهود نعمة كبرى دون أن يريدوها، والنعمة هى التوراة، لكنَّهم لم يفيدوا منها. وهذا أمر لايختص باليهود، بل تشمل كل انسان وكل نعمة منحها اللَّه للانسان ولم يفد منها شيئاً. العقل من النعم التى لا بديل لها وقد منحها اللَّه الانسان دون إرادة منه، لكن كثيراً من الناس لم يستفد من هذه النعمة بنحوٍ صحيح ومناسب. السلامة نعمة كبرى مجهولة «۱»، منحها اللَّه للانسان دون إرادة واختيار منه، لكن يا تُرى هل نفيد منها بنحو صحيح ومناسب، أم أنها من مصاديق «حُمِّلوا ... لَمْ يَحْمِلوا»؟ يا ترى هل استفدنا من المعارف الدينية والقرآن وسنة الرسول والائمة وأقوال العلماء والمراجع، التى هى نِعَم كثيرة منحها اللَّه إيَّانا دون إرادة منا، لغرض هداية أنفسنا والمجتمع؟

۲- لماذا الحمار؟

الحيوانات التى تستخدم للحمل كثيرة، لكن لماذا اللَّه مثَّل العلماء غير العاملين واليهود المتعصّبين بالحمار دون غيره من الحيوانات؟ الجواب: يبدو أن ذلك لاشتهار الحمار بالحماقة والجهل، ولهذا يُضرب به المثل فى حق الأحمق من الناس. ويكفى فى حماقة هذا الحيوان أنَّه لو امر بالعبور من طريق وعر ومفعم بالأخطار عشر مرَّات لفعل ذلك دون أن يحاول تغييره. امثال القران، ص: ۴۷۶ لأجل أن يبيّن اللَّه حماقة اليهود ولجاجتهم وكذا العلماء غير العاملين شبَّههم بالحمار الذى لا يفيد من الكتب التى يحملها على ظهره، ولا يعرف عنها غير إحساسه بالثقل والتعب. وهل يمكن تصوّر حماقة أكثر من حماقة الشخص الذى يحمل علوماً دون أن يفيد منها طول عمره؟

۳- سبب التعبير بالأسفار لا الكتب

الأسفار من مادة سِفر، ويعنى الكشف عن شىء، ويُطلق على النساء غير المحجبات سافرات؛ باعتبار كشفهنَّ عمَّا يجب ستره، كما استخدمت هذه المادة فى السفر (أى التنقل من مكان إلى آخر)؛ باعتبار أن الانسان يكشف عن نفسه فى السفر عكس ما كان عليه فى الحضر حيث يكون مستوراً فى محلته وبيته وبنايته التى يعيش فيها أو فى السيارة التى يتنقل بها أو فى دائرته أو معمله الذى يعمل فيه.

كما يُطلق على الكتاب سفر؛ بإعتبار كشفه عن الحقائق والواقعيات والمعارف الانسانيـة. الكتاب السماوى سبب لهدايـة الانسان نحو الحقيقة ويكشف له عن الواقع، لكن الكثير من البشر لا نصيب له من هذا الكتاب إلّاعناء حمله ونقله دون أن يفيد منه شيئاً.

۴- الهداية تستدعى قابلية

كما تقـدَّم، فإنَّ الأنوار الإلهيـة تقـدم من اللَّه، أمَّا القابليات فنحن نوجدها. لا خلاف فى طبع الغيث اللطيف، لكنه لا يُنبت الزهور أينما هطل، بل الأمر يتوقّف على نوعيـة الأرض، فاذا كانت سبخة فلا تنبت الاَّ الأعلاف، وتنبت الزهور قطعاً إذا كانت خصبة. لأجل ذلك قـد يهتـدى الانسان ويبلغ قلّة الكمال إثر سماعه كلمه صدرت من الرسول صلى الله عليه و آله قبل أكثر من ألف سنة، فإن انساناً من هـذا القبيـل يحمـل قابليـة الهدايـة. لكن أشـخاصاً من قبيـل أبى سـفيان وأبى جهـل قضوا عمراً إلى جنب الرسول صـلى الله عليه و آله وسـمعوا منه مباشـرة آيات كثيرة وبلغتهم مواعظه العديدة، ولم يخطوا ادنى خطوة باتجاه الانسانية، بل كانوا يبتعدون عن الانسانية شيئاً فشيئاً ليصبحوا كالأنعام بل أضل سبيلًا «۱»؛ وذلك لأجل انعدام القابلية فيهم.

۵- الآية شاملة لكلِّ عالم غير عامل

كمـا تقـدَّم، فـإن الآيـة رغم نزولها فى اليهود إلّاأنها دون شك شاملـة لكل عالم لم يعمل بعلمه. يقول المفسـر الكبير المرحوم العلامة الطبرسـى فى ذيل هـذه الآيـة: «قال ابن عباس: فسواء حمل على ظهره أو جحـده إذا لم يعمل به، وعلى هـذا فمن تلا القرآن ولم يفهم معناه وأعرض عنه إعراض من لا يحتاج إليه كان هذا المثل لاحقاً به وإن حفظه وهو طالب لمعناه فليس من أهل هذا المثل» «۱». إذن، الآية تحذير للمسـلمين جميعاً بأن لا يبتلوا بالمصـير الذى ابتلى به اليهود، وقد شملهم فضل اللَّه بتنزيل القرآن عليهم، على أن لا يترك على الرفوف يتراكم عليه الغبـار أو يعلّق على الجـدران لـدفع العيون أو ليُهـدى للعرائس أو ليُقرأ فى مجالس الفاتحـة فقط، أو لتجويد آياته وتلاوتها بصوت حسن وحفظه على أقصى تقدير دون أن تنعكس تعاليمه فى سلوكنا الفردى والاجتماعى، ودون أن نجد له أثراً على عقائدنا وأعمالنا.

العلماء غير العاملين فى الروايات

للعلم والعـالم قيمـة عاليـة فى الثقافـة الاسـلامية، حيث وصـفت الروايـات العلم بما يلى: رأس الفضائل، ووراثـة كريمـة، وأفضل غنيـة، ومصـباح العقـل، ونعم دليل، وأفضل هدايـة، وجمال لايحظى وأفضل الأنيسـين، وأفضل شـرف، وأشـرف الأحساب «۲». كما وصفت العـالم بما يلى: العلماء ورثـة الأنبياء، ومصابيـح الأرض، وخلفاء الأنبياء «۳». ومن الواضـح أن هـذه الفضائل والقيم خاصة بالعلم الذى يُجسّـد فى الخارج ويُترجم إلى واقع وللعالم الـذى يعمل بعلمه، وإلّا فالعلم الـذى يخلو من العمل لا أنه لا يسـبب الهدايـة ولا يضـيىء الـدرب للآخرين بل لا يهدى حامله كذلك. ورد فى رواية يقشـعر لها البدن عن الرسول صـلى الله عليه و آله: امثال القران، ص: ۴۷۸ «مَن ازداد علماً ولم يزدد هـدىً لم يزدد من اللَّه إلّابُعداً» «۱». ممَّا يبعث إلى التأمُّل فى هـذه الرواية هو أن الرسول صـلى الله عليه و آله لم يقل من لم يزدد هـدى بعلمه لم يقترب إلى اللَّه بل قال: يزداد من اللَّه بُعـداً؛ وذلك لأن عـذر الانسان مقبول عند اللَّه ما دام جاهلًا، لكنه عنـدما يزداد علمـاً فلاـ يقبـل اللَّه له عـذراً، ولهـذا يتراجع ويتخلَّف أكثر من ذى قبل. النتيجـة: ينبغى السـعى لكسب العلم وينبغى تحمّل جميع المتاعب التى تواجهنا فى هـذا الطريق، كما ينبغى العمل بالعلم وجعل هـذا العلم وسـيلة لهدايـة أنفسـنا وهدايـة الآخرين، لكى لا تصدق علينا الرواية والآية السالفتان.

المثل الرابع والخمسون: من خصائص المنافقين

اشارة

جاء فی الآیة الرابعة من سورة المنافقون: «وإذا رأیتَهُمْ تُعجِبُکَ أجسَامُهُمْ وإنْ یَقولُوا تَسْمَعْ لِقَولِهِمْ کَأنَّهُم خُشُبٌ مُسنَّدةٌ یَحْسَبُونَ کُلَّ صَیحةٍ عَلَیْهِمْ هُمُ العَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أنَّی یُؤفَکُونَ».

تصویر البحث

بما أنَّ المنافقین أخطر أعداء الاسلام کان من المفروض التعریف بهم والکشف عن واقعهم، من هنا وردت أوصافهم فی آیات مختلفة، منها الآیة المزبورة، التی أشارت إلی ثلاثٍ من خصائصهم، التی تکشف عن واقعهم وزیف ظاهرهم للجمیع.

أوصاف المنافقین

من الضروری التعرّف علی أوصاف المنافقین ذوی الوجهین، لغرض مواجهتهم، ومن هذا المنطلق بتّ اللَّه بالتشهیر بهم وتعریفهم فی کثیر من الآیات. وفی سورة المنافقون أشار إلی عشرة من أوصافهم «۱»، ثلاثة منها فی آیة المثل. امثال القران، ص: ۴۸۰ ونحن نبت بدراسة هذه الأوصاف الثلاثة، أملًا بالتعرُّف علی المنافقین من خلال هذه العلائم الثلاثة، کما یتعرَّف الطبیب الخبیر علی المرض المزمن والخطر من خلال علائمه.

الشرح والتفسیر

۱- «وإذا رأیْتَهُمْ تُعجِبُکَ أجسامُهُمْ». صفة المنافقین الاولی هی أن لهم ظاهراً جذّاباً وخادعاً، أمَّا باطنهم فضعیف، ولا یتمتَّعون بشخصیة ثابتة، ولهذا یهتمّون بظاهرهم کثیراً، فیبدون بظاهر قوی وجمیل ومنتظم، لکن حقیقتهم شیء آخر. أیها النبی، إذا نظرت لهم فلا یعجبک ظاهرهم ولا یخدعک، وهم عکس المؤمنین ذوی الظاهر البسیط وشخصیات ثابتة وواقعیة. روی بعض المفسرین فی صفة رئیس المنافقین (عبداللَّه بن ابی): «کان عبداللَّه بن ابی رجلًا جسیماً صبیحاً فصیحاً ذلق اللسان، وقوم من المنافقین فی مثل صفته، وهم رؤساء المدینة، وکانوا یحضرون مجلس رسول اللَّه صلی الله علیه و آله فیستندون فیه، ولهم جهارة المناظر وفصاحة الألسن، فکان النبی صلی الله علیه و آله ومن حضر یعجبون بهیاکلهم ویسمعون إلی کلامهم» «۱». ۲- «وإن یَقولوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ کَأنَّهم خُشُبٌ مسندة». الصفة الثانیة للمنافقین هی کونهم یشبهون الاخشاب التی تستند أحدها علی الاخری (الخُشب) جمع (خَشَب)، و (مسنَّدة) تعنی الیابسة التی لا تعتمد علی نفسها بل تحتاج لشیءٍ آخر تعتمد علیه «۲». امثال القران، ص: ۴۸۱ یستبطن هذا التشبیه نکات مختلفة، وبتعبیر آخر: شُبِّه المنافقون بالخشب المسندة لوجوه مختلفة: الف: کما أنَّ الخشب المسنَّدة لا أصل ولا جذور لها، کذلک المنافقون فلا أصل ولا أساس لهم، وهم بحاجة إلی الآخرین دائماً ولا یمکنهم الاعتماد علی أنفسهم، فلا استقلالیة لهم بل هم بحاجة إلی الأجانب والکفار، فیرتبطون بهم، وتاریخ صدر الاسلام یؤیّد هذا. وقد تقدَّمت قصة مسجد ضرار فی المثل الثامن عشر، وشاهدتم کیف تعاون أبو عامر النصرانی مع الرومیین واعتمد علیهم وبنی مسجد ضرار فی خطة للتآمر علی المسلمین. وبهذا تتّضح إحدی صفات المنافقین ألا وهی الارتباط بالأجانب والاعتماد علیهم لإیجاد البلبلة والاضطراب فی البلاد الاسلامیة. باء: الخصیصة الاخری للخشب المسنَّدة أنَّه لا فائدة فیها غیر استخدامها کوقود وإحراقها لهذا الغرض، فلا تثمر شیئاً ولا تنمو فیها الأوراق ولا توجد ظلًا، کما هو حال المنافقین، فلا فائدة فیهم. جیم: الخشبة الیابسة لا تقبل الانعطاف، کما هو حال المنافق، فلا یمکن تغییره؛ لتعصّبه ولجاجته، حتی لو أقمت له أفضل البراهین والأدلَّة وأوضحها، فلا یلینوا أمامها أبداً، عکس ما علیه المؤمنون من اللین والانعطاف، وهذا هو الذی یسبب اقتحامهم الأعاصیر. التفتوا إلی هذه الروایة الجمیلة التی وردت عن الرسول صلی الله علیه و آله: «مَثَلُ المؤمن کَمَثَلِ الزرْع، لا

تزال الرياح تفيؤه ولا يزال المؤمن يُصيبه بلاءٌ، ومثلُ المنافق مثل الشجرة الأرزة لا تهتز حتى تُستحصد» «۱». والحديث يشير إلى قابلية الانعطاف التى يتمتع بها المؤمن ولا يتمتع بها المنافق، فالمؤمن كالزرع الـذى تحنيه الرياح ثم يرجع إلى ما كان عليه، أمَّا المنافق فمثل شجرة الصـنوبر ذات القامة المستقيمة التى لا تقبل الانحناء ممَّا يجعلها تنكسر بالرياح الشديدة. امثال القران، ص: ۴۸۲ خلاصة ما تقدم أن المنافق ذا الوجهين لا قابلية له على الانعطاف، وبمثابة الخشـبة المسـندة التى تستند على غيرها ولا أساس لها ولا فائدة ولا ثمرة. ۳- «يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَة عَلَيْهِمْ». الصـفة الثالثـة للمنافقين هى أنهم يسـيئون الظن، ويحسـبون كل صـيحة وضوضاء ضدّهم، فهم مصاديق للمثل المعروف (الخائن خائف) «۱». السـارق يتلقَّى كل نظرة تُلقى عليه نظرة ذات معنى ويقول فى نفسه: أخاف أنه علم بسـرقتى، أو أخـاف أن يفشـى سـرقتى، أو أخـاف أن يكون شـرطياً يعقبنى، ومـا شـابه ذلك من الأوهام والتصوّرات، هـذا مع أنه من المحتمل أن يكون النـاظر لم يرَ السـارق من ذى قبـل، لكن طبيعـة الخـائن أنه يشـعر بـالخوف والاضـطراب دائمـاً، عكس الانسان الـذى لم يتلوّث بالخيانـة وصـحيفة أعمـاله طـاهرة فلاـ يخاف الحساب والتحقيق، ولا ينتابه الخوف والاضـطراب ولو نظرته آلاف العيون، ولو كان فى مركز الشـرطة فلا يخاف شـيئاً، بل سوف يشعر بالاطمئنان الأكثر عندما يجد نفسه جنب قوى الأمن. وخلاصة الكلام هنا أن سوء الظن «۲» من صـفات المنـافق. «هُمُ العـدو فَاحْـذَرْهُمْ». مع الأخـذ بنظر الاعتبـار صـفات المنـافقين السابقـة فهم أعـداء وليسوا أنصاراً، بل هم الأعـداء الأصـليون وإن كـان لكم أعـداء آخرون، لكن خطرهم أقـل من خطر المنـافقين، ولهـذا عليكم الحـذر من المنافقين أكثر من غيرهم. الجملـة الأـخيرة انعكست فى كلاـم الرسول صـلى الله عليه و آله بنحو آخر، حيث قـال: «إنّى لاـ أتخوّف على امـتى مؤمنـاً ولا مشـركاً، أمَّا المؤمن فيحجزُهُ إيمـانه، وأمَّا المشـرك فيقمعه كفره، ولكن أتخوّف عليكم منافقاً عالم اللسان، يقول ما تعرفون ويعمل ما تنكرون» «۳». امثال القران، ص: ۴۸۳ وهذا الحديث يكشف عن سبب اعتبار الآية المنافقين الأعداء الأصليين بصراحة. «قَاتَلَهُمْ اللَّهُ أنَّى يُؤفكُونَ». بعد ما بيَّن اللَّه الصفات الثلاث للمنافقين يشير إلى خطرهم البالغ ويعتبرهم أعدا المسلمين الأصليين يدعو عليهم بأن يقاتلهم اللَّه مثلما انحرفوا وضلوا وأضلّوا الآخرين «۱». إذن، ينبغى التعرُّف على المنافقين من خلال ما تقدَّمت الاشارة إليه من صـفات وعلائم، وبعد التعرُّف عليهم ينبغى الاجتناب عنهم، وبخاصة فى زماننا الحاضر، حيث أصبح خطرهم أكبر ونشاطاتهم أوسع وأكثر تعقيداً.

خطاب الآية

معيار النفاق

إذا وجـدت ضـميرك لا يهتز بسـماع آيات القرآن. وإذا وجـدت نفسك لا تخطو نحو الأعمال الصالحة ولا تبتعد عن الأعمال السـيئة عنـدما تقرأ آيـات الثواب والعقـاب الإلهى. وإذا وجـدت نفسك لا تتأثر بكلام الحق وتسـتمر فى طريق الباطل فاعلم أن فيك رساً من النفاق قد نفذ فى قلبك جعلك تخطو فى طريق المنافقين. نعم، إنَّ المنافقين كالخشب المسنَّدة وكل من تشبَّه بهم صُنِّف معهم.

مباحث تكميلية

۱- مَن هو المنافق؟

للمنـافقين وجهـان وشخصـيتان، ظـاهرهم شـىء وباطنهم شـىء آخر، فى الظاهر يـدَّعون امثال القران، ص: ۴۸۴ الإيمان ويصـنّفون مع المؤمنين ويؤدون العبـادات، لكن قلوبهم تخلو من الإيمان أو فيها إيمان سـقيم «۱». وقد ورد هذا المعنى فى الروايات الاسـلامية، فقد ورد فى واحدة منها أن اللَّه خاطب عيسـى بن مريم عليه السلام بالخطاب التالى: «يا عيسى ليكن لسانك فى السرِّ والعلانية لساناً واحداً وكـذلك قلبك، إنّى احـذّرك نفسك، وكفى بى خبيراً، لا يصـلح لسانان فى فمٍ واحـدٍ ولا سـيفان فى غَمَـدٍ واحد ولاقلبان فى صدرٍ واحدٍ» «۲». على أى حـال، النفـاق هو أن يكون للانسـان وجهـان وظـاهر يضاد الباطن، ولا يمكن للانسان أن يتطهّر منه بالكامل إلَّاأنْ

يتّحد ظاهره مع باطنه ويتطابقا. اللهم، أعنّا على هذا الأمر الخطر.

۲- أخطار النفاق

خطر المافقين فى كل مجتمع أشد من أى خطر آخر، وخطر الأعداء الذين يعلنون الحرب أقل بكثير من خطر المنافقين ذوى الوجهين؛ لأن الانسان عندما يتعرَّف على أعدائه يستعد لمواجهتهم ويتّخذ الإجراءات اللازمة ضدهم، أمَّا الأعداء الذين تقمّصوا الصداقة فإنَّهم يباغتون الانسان ويهجمون عليه قبل أن يستعد للمواجهة. وهذا هو سبب كون خطر المنافقين أكثر وأشد من غيرهم من الأعداء. وإذا راجعنا تاريخ امثال القران، ص: ۴۸۵ الاسلام وجدنا المنافقين كانوا سبباً لأكثر الضربات والانتكاسات، وقد تحمَّل الاسلام الكثير بسببهم، ولو جمعنا فى كتابٍ مؤامرات المنافقين وما افتعلوه من مشاكل ومصائب للمسلمين أصبح كتاباً تربوياً جيداً. نشير هنا إلى بعض النماذج. الف: قصة الإفك يستفاد من مجموع الآيات ۱۱- ۱۶ من سورة النور أن امرأة بريئة ذات شأن وجاه اجتماعى تعرَّضت لتهمة تمسُّ بعرضها من قبل أحد المنافقين، وكان الغرض من هذه التهمة تشويه سمعة الرسول وتدنيس عرضه فى المجتمع. حاول بعض المنافقين المتظاهرين بالاسلام والايمان لاستغلال الحادث والتصيّد بالماء العكر وكسب بعض النتائج لصالحهم، فنزلت الآيات المزبورة وأفشت مؤامرتهم «۱». باء: إيجاد العقبات فى الحديبية قرر الرسول صلى الله عليه و آله بصحبة المسلمين فى السنة السادسة من الهجرة أن يقصدوا مكة للإتيان بالعمرة «۲». ثمّ أطلع الرسول المسلمين أنَّه رأى مناماً يدخل فيه بصحبة المسلمين المسجد الحرام ومكة، والجميع منهمك بالاتيان بمراسم العمرة. تحرك المسلمون باتجاه مكة وبعد ما بلغو ذو الحليفة «۳» أحرموا فيها، ثمّ تحرّكوا مصطحبين معهم نوقاً لأجل تضحيتها «۴». وبما أن الرسول لم يقصد من رحلته هذه غير العبادة العظمى امثال القران، ص: ۴۸۶ (الاتيان بالعمرة) لم يحمل معه من الاسلحة إلَّاسيفاً، وهو سلاح كل مسافر، وكذا باقى المسلمين، حتى بلغوا أرض الحديبية» .بعدما اطَّلع زعماء قريش على حركة المسلمين باتجاه مكة أغلقوا الطريق أمامهم ليمنعوهم من الاتيان بالعمرة، وبعد حوادث مختلفة حصلت آنذاك انتهى الأمر إلى انعقاد معاهدة صلح بين قريش والمسلمين تُدعى صلح الحديبية. أثناء تدوين المعاهدة خالف ممثل قريش (سهيل بن عمرو) كتابه (بسم اللَّه الرحمن الرحيم) و (محمّد رسول اللَّه) فى بداية العقد، ممَّا أثار حفيظة المنافقين، واتخاذ ذلك ذريعة لايجاد بلبلة، فأخذوا يقولون مثلًا: أيُّ منام أنت رأيته لنا؟! أى زيارة وعدتها إيّانا؟! يا له من امتياز منحته للكفّار! وقد تعمّقت الاعتراضات إلى أن بلغت كلام اللَّه، حيث عدَّ صلح الحديبية فتحاً مبيناً «۲»، فقال بعضهم: أيُّ فتح هذا، حيث صُددنا عن زيارة بيت اللَّه وصُدَّ هدينا؟ وقال بعض آخر: لم نشك برسالة الرسول يوماً مثلما شككنا به اليوم. هذا مع أن صلح الحديبية أحد أكبر انتصارات المسلمين وقد كان له آثار إيجابية جمَّة «۳». جيم: فشل محاولة اغتيال الرسول صلى الله عليه و آله «اثنى عشر رجلًا وقفوا على العقبة ليفتكوا برسول اللَّه صلى الله عليه و آله عند رجوعه من تبوك، فأخبر جبرئيل عليه السلام رسول اللَّه بذلك، وأمره أن يرسل إليهم ويضرب وجوه رواحلهم، وعمّار كان يقود دابة رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وحذيفة يسوقها، فقال لحذيفة: اضرب وجوه رواحلهم، فضربها حتى نحاهم ...» «۴»، وبذلك فشلت محاولتهم لاغتيال الرسول صلى الله عليه و آله. دال: اجتماع المنافقين فى السقيفة خبر موت الرسول صلى الله عليه و آله أفجع قلوب المسلمين، وقبل أن يتم تغسيل وتكفين ودفن امثال القران، ص: ۴۸۷ الرسول اجتمع عدَّة من المغرّر بهم والمنافقين فى سقيفة بنى ساعدة تلبية لنداء الشيطان، فحاكوا مؤامرة خطرة ضد الاسلام، ورغم إيصاء الرسول صلى الله عليه و آله بعلى عليه السلام كخليفة بعده إلَّاأنَّهم توفّقوا لابعاده عن الخلافة، وبذلك أوردوا أكبر ضربة قاصمة على الاسلام «۱». اللهُمَّ العن أوَّل ظالم ظلم حقّ محمّد وآل محمّد وآخر تابع له على ذلك. من الصعب إحصاء كل ما أوجده المنافقون من عقبات ومؤامرات وضربات قاصمة ضد الاسلام، فهؤلاء هم الذين جاءوا بمعاوية الذى ارتكب جرائم بشعة، وهؤلاء هم الذين جعلوا من الامام على عليه السلام والامام الحسن عليه السلام قعيدى البيت، وهؤلاء هم الذين خلقوا حادثة كربلاء المفجعة، التى ذبح فيها أفضل البشرية و ... ملخص الكلام أن المنافقين أخطر الأعداء لا للمجتمع الاسلامى فحسب بل لكلِّ المجتمعات، ولذلك هاجمتهم الآيات القرآنية بأعنف ما

يمكن، وكشفت عن حقيقتهم المزيّفة فى سورٍ مختلفة كسورة المنافقون والتوبة والبقرة والاحزاب. اللهم، احفظ الاسلام والمسلمين من شر المنافقين وافضحهم واخزهم. امثال القران، ص: ۴۸۹

المثل الخامس والخمسون: الضوابط لا العلاقات

اشارة

يقول اللَّه تعالى فى الآية ۱۰ من سورة التحريم: «ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَروا امْرأةَ نُوحٍ وَامرأةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتاهُما فَلَمْ يُغنيا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيئاً وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلينَ».

تصوير البحث

لاشكَّ أن لكلِّ شيء معياراً، فما معيار نجاة الانسان فى الآخرة؟ هل ملاك النجاة العلاقة والانتساب إلى الرسول صلى الله عليه و آله والأئمة عليهم السلام وأولياء الدين أم أنَّ الملاك الأساسى هو الإيمان والتقوى والعمل الصالح؟ اختصَّت هذه الآية بالحديث عن هذا الموضوع.

دراسة إجمالية لسورة التحريم

لأجل اتّضاح العلاقة بين آية المثل والسورة ككل ينبغى إلقاء نظرة إجمالية على جميع آيات هذه السورة. السورة مدنية، ولها اثنى عشرة آية، والذى يبدو من اسمها أنها تتحدّث عن شيء حرَّمة الرسول على نفسه، كما تشير إلى الملابسات التى أدَّت إلى هذا التحريم. يدعو اللَّه الرسول فى هذه السورة إلى نكث ما حرَّمه على نفسه، كما هدَّد المتواطئون بعذاب إلهى شديد إذا لم يتوبوا، ثمّ بيَّن مطلباً، وهو أن العلاقة والقرابة لوحدها دون الأعمال الصالحة امثال القران، ص: ۴۹۰ لا ـ تنجى الانسان، فلا ـ ينبغى له أن يعتمد عليها، ثمّ يضرب مثلين جميلين فى أمرأة نوح عليه السلام وامرأة لوط عليه السلام اللتين لم ينفعهما قرابتهما بالرسولين المذكورين؛ وذلك لأنهما لم يعملا صالحاً، فكان مصيرهما جهنم كباقى من دخلها من الناس.

قصة التحريم

وردت أقوال متباينة فى قصة التحريم، أنسبها ما يأتى: «إنَّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله كان يذهب أحياناً إلى زوجته (زينب بنت جحش) فتبقيه فى بيتها حتى تأتى إليه بعسل كانت قد هيّأته له، ولكن لمّا سمعت عائشة بذلك شقّ عليها الأمر، ولذا قالت: إنَّها قد اتفقت مع حفصة (إحدى أزواج الرسول) على أن يسألا الرسول بمجرّد أن يقترب من أيٍّ منهما بأنَّه هل تناول صمغ المغافير «۱»، علما أن الرسول كان يصرّ على أن تكون رائحته دائماً «۲». وفعلًا سألت حفصة الرسول صلى الله عليه و آله هذا السؤال يوماً وَرَدَّ الرسول بأنَّه لم يتناول صمغ المغافير ولكنَّه تناول عسلًا عند زينب بنت جحش، ولهذا أقسم بأنَّه سوف لن يتناول ذلك العسل مرة اخرى خوفاً من أن تكون زنابير العسل هذا قد تغذت على شجر صمغ المغافير وحذرها أن تنقل ذلك إلى أحدٍ لكى لا يشيع بين الناس أن الرسول قد حرَّم على نفسه طعاماً حلالًا فيقتدون بالرسول ويحرمونه أو ما يشبهه على أنفسهم، أو خوفاً من أن تسمع زينب وينكسر قلبها وتتألّم لذلك. لكنها أفشت السرَّ فتبيَّن أخيراً أن القصة كانت مدروسة ومعدَّة، فتألّم الرسول صلى الله عليه و آله لذلك كثيراً فنزلت عليه الآيات السابقة لتوضيح الأمر وتنهى من أن يتكرَّر ذلك مرة اخرى فى بيت رسول اللَّه صلى الله عليه و آله» «۳». طبقاً لهذه الرواية فإنَّ عائشة وحفصة ارتكبتا ذنوباً ثلاثة: ۱- حسدهما زينب بنت جحش لكثرة حب الرسول لها. امثال القران، ص: ۴۹۱ ۲- كذبهما على

الرسول بأن فيه رائحة كريهة. ۳- إفشاء سر الرسول. وهذه الذنوب ثلاثتها من الكبائر.

الشرح والتفسير

بعد اتّضاح العلاقة بين آية المثل وباقى آيات السورة نبتُّ بشرح آية المثل. «ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا للذِينَ كَفَروا امرأةَ نُوحٍ وامرأةَ لُوطٍ». رغم أن المثلين وردا فى امرأتين محدّدتين إلّاأنَّ استخدام (الذين) يفيد التعميم والشمول للجميع. رغم أنَّ صلة كانت تربط بين نوح عليه السلام وامرأته وكذا بين لوط عليه السلام وامرأته إلّاأن هذه القرابة والصلة ما نفعتهما؛ لأنه لم يكن لهما أعمال صالحة. يعتقد بعض المفسرين أن اسم امرأة نوح (والهة) وامرأة لوط (والعة) «۱»، لكن البعض عكس ذلك واعتبر اسم امرأة نوح (والعة) وامرأة لوط (والهة) أو (واهلة) «۲». «كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتاهُما». المراد من العبدين الصالحين هو نوح ولوط فلم يستفيدا من نعمة تواجد هذين العبدين إلى جنبهما ولم يستضيئا بهما الدرب ليهتديا، بل منعا الهداية عن الآخرين، خانتا زوجاهما. ينبغى التذكر بأن المراد من الخيانة هنا ليس الانحراف عن جادة العفة، فإن ذلك لم يحصل لأيٍّ من زوجات الأنبياء، وقد ورد عن الرسول صلى الله عليه و آله قوله: «ما بَغَتْ امرأة نبيٍّ قط» «۳»، وهذا الحديث يدلُّ على أن الخيانة لم تكن خيانة زوجية جنسية، بل كانت من نوع آخر، وهو إفشاء سر الزوج. امرأة نوح كانت تفشى أخبار من آمنوا سراً بنوح وتبوح بأسرارهم للوثنيين، ممَّا يؤدى امثال القران، ص: ۴۹۲ إلى إيذاء النبى والموحّدين. أمَّا امرأة لوط فعندما شاهدت رسل اللَّه عند لوط خرجت إلى الناس تخبرهم بمجىء شباب صبيحين إلى لوط، سعياً منها لإثارتهم جنسياً، وكما هو المعروف عن قوم لوط فانهم كانوا يمارسون اللواط. على أى حال، خيانة هاتين المرأتين فى إفشائهما اسرار زوجيهما، وافتعال مشاكل لهما من خلال ذلك. ومن الصعب بمكان احتمال زوجةٍ تفشى أسرار زوجها وتوجد له المشاكل وتوتّر البيت وتعكّر صفوه، رغم أن المفروض بها أن تكون سبباً فى سكينة البيت والعائلة «۱». «فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُما مِنَ اللَّهِ شَيئاً وقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدّاخِلينَ». مقياس نجاة الانسان- كما تقدّم- هو الأعمال الصالحة لا العلقة الزوجية والعائلية وما شابه، لذلك لم ينفع هاتين المرأتين علقتهما الزوجية باثنين من الأنبياء، فدخلا جهنم كما يدخل باقى الناس ممَّن لا علاقة له بنبى. وهذا لأجل أن يفهم الجميع بأنَّ الأعمال الصالحة هى الوحيدة التى يمكنها أن تنجى الانسان من العذاب الإلهى وتسبب له الفلاح والسعادة.

خطاب الآية

ملاك النجاة هو العمل الصالح

كما تقدّم فإن الملاك الأساسى والوحيد لإنقاذ الانسان يوم القيامة هو أعمال الانسان الصالحة لا العلقة العائلية والقبلية، ولا ينجو من ذلك اليوم من لم يكن له أعمال صالحة ولو كان زوجة رسول. زوجة شيخ الأنبياء نوح وابنه نموذجان كاملان لهذا المطلب، وعندما استعدَّ نوح لركوب امثال القران، ص: ۴۹۳ السفينة وشاهد ابنه موشكاً على الغرق طلب من اللَّه الطلبة التالية: «رَبِّ إِنَّ ابنِى مِنْ أَهْلِى وإِنَّ وَعدَكَ الحَقُّ وَأنْتَ أحْكَمُ الحَاكِمينَ» «۱». وهو يشير بالوعد إلى ما ورد ذكره فى الآية ۴۰ من سورة هود، حيث وعد اللَّه نوحاً أن يحمل أهله ومعه ويركبهم السفينة. أجاب اللَّه نوحاً فى الآية ۴۶ من سورة هود، وأشار فيها إلى أنَّه لا تأثير للعلقة والقرابة النسبية فى هذا الموضوع، إذ ورد هناك: «قَالَ يا نُوحُ إنَّه لَيْسَ مِنْ أهْلِكَ إنَّهُ عَمَلٌ غَيرُ صَالح فَلا تَسْألنَ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلمٌ إنّى أَعِظُكَ أنْ تكُونَ مِنَ الجَاهِلِينَ». نعم، العلقة لا تؤثر ولو كانت قوية بدرجة النبوّة، فهى غير مفيدة ما دام الانسان غير صالح، ولهذا كانت عاقبة ابن نوح، كباقى الكفار، الغرق. فى قصة الامام السجاد عليه السلام مع طاوس الفقيه عبرة، نقرأها هنا: يقول طاووس الفقيه: رأيته يطوف من العشاء إلى السحر ويتعبّد، فلمَّا لم يرَ أحداً رمق السماء بطرفه وقال: «إلهى غارت نجوم سماواتك، وهجعت عيون أنامك، وأبوابك مفتّحات للسائلين، جئتك لتغفر لى وترحمنى وترينى وجه جدّى محمّد صلى الله عليه و آله فى عرصات القيامة»، ثم بكى

وقال: «وعزّتک وجلالک ما أردت بمعصیتی مخالفتک، وما عصیتک إذ عصیتک وأنا بک شاک، ولا بنکالک جاهل، ولا لعقوبتک متعرّض، ولکن سوّلت لی نفسی وأعاننی علی ذلک سترک المرخی به علیَّ ...» ثم بکی وقال: «سبحانک تُعصی کأنَّک لا ـ تری وتحلم کأنَّک لم تعصَ، تتودَّد إلی خلقک بحسن الصنیع کأنَّ بک الحاجة إلیهم، وأنت یا سیدی الغنی عنهم» ثم خرَّ إلی الأرض ساجداً. قال: فدنوت منه وشلت برأسه ووضعته علی رکبتی وبکیت حتی جرت دموعی علی خدّه، فاستوی جالساً وقال: «من الذی أشغلنی عن ذکر ربّی»؟ فقلت: أنا طاووس یا ابن رسول اللَّه، ما هذا الجزع والفزع؟ ونحن یلزمنا أن نفعل مثل هذا، امثال القران، ص: ۴۹۴ ونحن عاصون جانون، أبوک الحسین بن علی وامک فاطمة الزهراء، وجدّک رسول اللَّه صلی الله علیه و آله؟ قال: فالتفت إلیَّ وقال: «هیهات هیهات یا طاووس دع عنی حدیث أبی وامّی وجدّی، خلق اللَّه الجنّة لمن أطاعه وأحسن، ولو کان عبداً حبشیاً، وخلق النار لمن عصاه ولو کان ولداً قرشیاً «۱»، أما سمعت قوله تعالی: «فَإِذَا نُفِخَ فی الصُّورِ فَلا أنسَابَ بَیْنَهُمْ یَومَئِذٍ وَلَا یَتَساءَلُونَ» «۲» واللَّه لا ینفعک غداً إلَّاتقدمة تقدّمها من عمل صالح» «۳». نعم، إذا لم یصطحب الانسان معه عملًا صالحاً یوم القیامة فلا ینفعه شیء ولا ینجیه؛ لأن القیامة- کما عبَّر عنها القرآن الکریم- عبارة عن یوم «لا یَنْفَعُ مَالٌ ولا بَنُونَ إلَّامَنْ أتَی اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِیمٍ» «۴». النتیجة هی أن الحسد والکذب وإفشاء أسرار الآخرین توجب بعداً عن اللَّه، والملاک الأساسی لانقاذ الانسان یوم القیامة هو الأعمال الصالحة لا القرابة السببیة أو النسبیة.

المثل السادس والخمسون: استقامة زوجة فرعون

اشارة

یقول اللَّه فی الآیة الحادیة عشر من سورة التحریم: «وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِینَ آمَنُوا امرأةَ فِرْعَوْنَ إذْ قَالَتْ رَبِّ ابنِ لی عِنْدَکَ بَیْتاً فِی الجَنَّةِ ونجِّنی مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ ونَجنِی مِنَ القَوْمِ الظَّالِمِینَ».

تصویر البحث

کما قلنا فإنَّ سورة التحریم تحدَّثت عن بعض المشاکل التی واجهها الرسول صلی الله علیه و آله وفیها تنویه ببعض الضغوط التی أوردها الأعداء علی الرسول صلی الله علیه و آله، فَإنَّ ضغوط الأعداء بلغت درجة ما بات یشعر إثرها بالأمان الکافی حتی فی منزله، وقد مضی ذکر مؤامرة اثنین من زوجاته، حیث أفشتا سرّه صلی الله علیه و آله. المؤامرة المزبورة وإفشاء سرّ الرسول صلی الله علیه و آله سببتا نزول سورة التحریم، ولأجل أن تفهم أزواج النبی وکذا باقی الناس بأن الأعمال الصالحة هی الوحیدة التی تنجی الانسان من عذاب یوم القیامة ضرب اللَّه مثلین فی هذا المجال، فی أحدهما تحدّث عن امرأتین خانتا نبیین من أنبیاء اللَّه، وفی الآخر تکلَّم عن امرأة مؤمنة لم تؤثّر علاقتها بطاغوت مثل فرعون علی درجتها عند اللَّه تأثیراً سلبیاً.

الشرح والتفسیر

«وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِینَ آمَنُوا امرأةَ فِرْعَوْنَ». کانت هذه المرأة تعیش فی جهاز ملک هو أحد أکبر الملوک ظلماً، ورغم أنها کانت تعیش فی ظل نِعم ورفاه عالی إلَّاأنَّها وجدت نفسها فی مفترق طریقین، هما: الدنیا والآخرة، فإمَّا أن تختار العیش فی دنیا سعیدة مرفّهة، وإمَّا العیش بقرب اللَّه ودخول الجنة. اختارت القرب الإلهی ورجحته علی الحیاة الدنیا، واللَّه جعلها فی أفضل الجنان عنده، وعَدَّ حیاتها نموذجاً ومثلًا لکلِّ النساء بل حتی الرجال. رغم أنَّ آسیة بنت مزاحم کانت زوجة فرعون الظالم وقریبة منه إلَّا أنها اختارت ضابطة الإیمان باللَّه، وکونها زوجة جبار کفرعون لم یثنها عن اتباع الحق، ولم یجعل منها أمرأة تعیسة، کما لم یؤثّر القرب بالعباد

الصالحين فى زوجتى نوح عليه السلام ولوط عليه السلام، ولم ينقذهما من عذاب يوم القيامة، بل إحداهما غرقت كابنها، والاخرى دفنت تحت تلٍّ من الأحجار الإلهية؛ وهذا كله لأجل أن الانتساب والعلاقة لا دور لهما عند اللَّه ولا يترجحان على الضوابط، فهى الحاكمة فى جهاز الحكمة الإلهية. «إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابنِ لى عِنْدَكَ بَيْتاً فِى الجَنَّةِ ونجِّنى مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ ونجّنى مِنَ القَوْمِ الظَّالِمِينَ». حياة آسية بعد إيمانها بربّ موسى اسوة وقدوة فى كل لحظاتها، وهذه الآية تشير إلى بعضٍ من تلك اللحظات التى عاشتها تلك المرأة العظيمة، وهى لحظات كونها ترزخ تحت أشدّ الضغوط ومختلف أساليب التعذيب، فضرب اللَّه مثلًا بهذه اللحظات. أصبحت آسية اسطورة فى الصبر والمقاومة، وفى أحلك اللحظات وأشدها رفعت يديها إلى السماء طالبة من اللَّه تعالى ثلاث طلبات: الاولى «رَبِّ ابنِ لى عِنْدَك بَيْتاً فى الجنَّة». كان القرب إلى اللَّه تعالى يشكّل أول طلبة طلبتها هذه المرأة، وهو شىء أرفع من الجنة، ولا يمكن قياسه بالجنة. امثال القران، ص: ۴۹۷ وقد استُخدم هذا التعبير فى حقّ الشهداء كذلك «عِنْدَ ربِّهِمْ يُرْزَقُونَ» «۱» ، وآسية على عتبة الاستشهاد طلبت شيئاً هو جدير بالشهداء. الثانية: «ونجِّنى مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ». وهذه الطلبة تكشف عن أنَّ الذى كان يؤذى آسية ليس التعذيب والضغوط؛ لأنها تبدو لا شىء أمام رضا اللَّه، بل الذى يؤذيها هو أعمال وأفكار وعقائد فرعون، فهى لا تحتمل هذه العقائد القاصرة، لذلك لا يحلو لها العيش بقرب فرعون، فدعت اللَّه لانقاذها منه. فى اللحظات الأخيرة من العمر وتحت أشد الضغوط والآلام أعلنت آسية عن استيائها من فرعون ومظالمه وجناياته. الثالثة: «ونجّنى مِنَ القَوْمِ الظَّالِمِينَ». الطلبة الأخيرة لهذه المرأة الصالحة هى النجاة من المجتمع الفاسد الذى تعيش فيه، أى لا أنها لا تنثنى للمجتمع الفاسد ولا تتأقلم معه بل تعتبر التأقلم معه والانصياع له عاراً، ولهذا أعربت عن استيائها منه فى أعمالها وأقوالها. الجمل الثلاث التى شكَّلت دعاء هذه المؤمنة والعارفة فى اللحظات الأخيرة من عمرها جميلة ودقيقة ومحسوبة، وبإمكان هذه الجمل أن تنير درب المؤمنين من الرجال والنساء، فهى تنفى ما يتمسك به البعض من ذريعة الضغط الذى يواجهه الانسان من قبل المجتمع أو الزوجة لترك طاعة اللَّه ولالتزام التقوى

خطابات الآية

۱- الاستقلال الفكرى

لماذا آمنت آسية بربِّ موسى رغم كونها تعيش فى قلب الشرك وإلى جنب فرعون؟ كيف استطاعت هذه المرأة الثورية الصبورة أن تخرق الحجب جميعها وتبلغ الدين الحق؟ امثال القران، ص: ۴۹۸ سرّ موفقيتها يكمن فى استقلالها الفكرى، فما تركت المسائل الهامشية تؤثِّر سلباً على فكرها وتحرفه أو تسلبه منها. آمنت آسية وتنوّر قلبها عندما رأت معجزة موسى، حيث أسلم له سحرة فرعون وسيطر الاضطراب والخوف على فرعون الذى كان يدّعى الربوبية، وازداد إيمانها وشعلته النيِّرة فى قلبها تدريجياً بعد ما منعت من تأثير المجتمع والعائلة على فكرها ونفسها «۱».

۲- لماذا لم تستخدم آسية التقية؟

حقيقة التقية هى تغيير شكل المواجهة، وتجب فيما إذا كان إظهار العقيدة يعرِّض الانسان للخطر دون فائدة، لكن لماذا لم تستخدم آسية زوجة فرعون التقية؛ حفظاً لنفسها وتغييراً لظاهر المواجهة؟ الجواب أولًا: التقية تجرى فيما إذا كان بإمكان الانسان أن يخفى عقيدته ويكتمها، لكن حبّ الانسان للَّه بمثابة الشعلة التى تعلو ألسنتها لتظهر على حركات الانسان وسكناته حتى لو حاول إخفاءها. شعلة حب اللَّه كانت قد اتقدت وارتفعت إلى درجة لا يمكن إخفاؤها بأى نحو من الأنحاء، وهذا هو الذى جعل من آسية أن تعلن إيمانها وتصمد أمام المشاكل والعقبات. ثانياً: قد يكون إظهار الايمان والشهادة فى هذا الطريق يعقبه فوائد أكثر من فوائد الحياة وكتمان الايمان، وقد كان إظهار آسية لإيمانها وانتشار خبرها وخبر تعذيبها وصمودها فى هذا الطريق حتى الشهادة من هذا القبيل.

مضافاً إلى أن هذه القضية بحدّ ذاتها تعدُّ وثيقة دامغة على حقانية موسى عليه السلام وبطلان دعاوى فرعون، وسبباً لطمأنة المؤمنين وتعزيز ثقتهم بأنفسهم، باعتبار أنها تكشف عن امكانية نفوذ الايمان قلوب الأعداء، وتهديدهم فى قعر دارهم. وهذا يسلب الذرائع التى قد يتمسك بها البعض لترك الايمان بالواحد الأحد. امثال القران، ص: ۴۹۹ وقد شهد التاريخ لعلماء أصبحوا شمعة أضاءت درب المؤمنين وزرعت الأمل فى قلوبهم إثر تركهم التقية.

۳- التعذيب عامل تكامل أو وسيلة قهر!

يتوسّل الجبابرة والظلمة بوسائل شتى للمنع عن الحقائق والخضوع لها، والتعذيب واحدة من تلك الوسائل. استخدم فرعون أقسى أنواع التعذيب فى حقِّ آسية لكى يثنيها ويثبط عزمها وإرادتها الحديدية ويردها عن اتِّخاذ دين الحق، ورغم كونها امرأة إلَّاأنَّها صمدت وقاومت وواجهت جميع حيل فرعون حتى آخر لحظات عمرها، عكس ما عليه ضعيفو الإيمان، حيث يستسلمون إثر أدنى نوع من التعذيب. من المسلَّم به أن لا وجود لجهاز ودنيا أعظم زخرفة وأكثر جبروتاً من جهاز فرعون، كما أنه لا تعذيب ولا اضطهاد أعظم ممَّا مارسه فرعون المجرم، لكن لا- زخرفة دنيا فرعون وجبروته أثنت آسية المؤمنة ولا- اضطهادة ولا- تعذيبه، بل قد جعلت من التعذيب- الذى هو وسيلة للقهر- وسيلة لتكاملها، وأفدت بنفسها فى طريق العشق الإلهى.

قصة إيمان آسية

ذهبت آسية ملكة مصر بصحبة فرعون إلى مشاهدة سحر السحرة ومعجزة موسى عليه السلام فى ساحة المدينة، فألقى السحرة حبالهم وعصيهم التى كانت مملوءة بالزئبق لتتحرّك إثر حرارة الشمس ولتبدو أفاعى حقاً «۱»، فرح الناس وأستأنسوا بعد ما حصل هذا وصفقوا للسحرة وأطلقوا شعارات لصالح فرعون. لكن لم يمضِ وقت طويل على الفرحة وعلى إغواء الناس حتى جاء الدور إلى موسى عليه السلام، فألقى بعصاه، امتثالًا لأمر اللَّه، فبدت حية كبيرة بلعت كل ما كان ألقاه السحرة من العصى والحبال وتحرّكت باتجاه فرعون. امثال القران، ص: ۵۰۰ عندئذٍ تبدَّل الموقف لصالح موسى عليه السلام، وتغيّرت الابتسامة والتصفيق والهلاهل إلى هموم واستياء وتعجّب، وخيَّم الرعب على فرعون والتعجّب على المشاهدين. ظنَّ فرعون أن هذه الأفعى ستبلعه، وبدا الاضطراب على وجهه واضحاً، وبخاصة بعد ما سقط التاج من على رأسه. أسلم السحرة جميعهم وسجدوا ولم تؤثر فيهم تهديدات فرعون ولم تثبط عزمهم على الايمان بربِّ موسى بعدما شاهدت آسية هذه اللقطات غرقت بالتفكير، وبعد مشوار انقدحت شعلة من الايمان فى قلبها ازدادت تدريجياً لتنير كل وجودها بل وحتى خارجه. أخذت آسية بمناجاة اللَّه فى الخلوة، وبادرت بالقيام بالأعمال الصالحة، وبعد ما شاهد فرعون آثار الايمان وحب اللَّه فى سلوكها سألها عن الحقيقة، فما استطاعت كتمان حبها المقدس وما استطاعت الكذب عليه فقالت الحقيقة له. غضب فرعون الجبار كثيراً وهدّدها، لكن تهديده لم يؤثّر فيها أدنى تأثير، وكما قال الصادق عليه السلام: «إن المؤمن أعزُّ من الجبل، إن الجبل يستقلُّ منه بالمعاول والمؤمن لا يستقل من دينه» «۱» أى لا أنه لا ينثنى أمام الريح فحسب بل يغيّر اتجاهه. بدأت النصائح والملامات تمطر على آسية من كل مكان وبخاصة الأقرباء والأصدقاء، فكانوا يقولون لها: كيف يمكن لك أن تدبرى عن هذه النعم من الخدم والحشم والنعم التى تحيط بك كملكة لمصر؟! لكن جواب آسية لهذه الاعتراضات والملامات هو: أنّى لا أرفع يدى من الايمان باللَّه. ما كاد فرعون يحتمل نفوذ موسى فى بيته وفى قلب شريكة حياته، ولو استمرَّت آسية على إيمانها بإله موسى شكلت أزمة كبيرة لفرعون الطاغوت، لذلك أصدر حكماً بالقضاء عليها. أخذوا بآسية إلى صحراء قاحل وأوتدوا رجليها على الأرض ووضعوا صخرة ثقيلة على صدرها وحرموها من الماء والغذاء لعلَّها ترجع إلى دين فرعون أو تموت، فاختارت هذه البطلة الطريق الثانى. امثال القران، ص: ۵۰۱ عندما أوشكت أنفاسها على الانقضاء أخذت تدعو بالدعاء التالى: «رَبِّ ابنِ لى عِنْدَكَ بَيْتاً فِى الجَنَّةِ ونجِّنى مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ ونجّنى مِنَ القَوْمِ الظَّالِمِينَ». استجاب اللَّه لدعاء آسية وجعلها قدوة للمؤمنين والمؤمنات، وصنّفها فى زمرة

أفضل نساء العالم، كما ورد ذلك على لسان الرسول صلى الله عليه و آله، إذ قال: «أفضل نساء أهل الجنّة خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمّد ومريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون» «۱». ممَّا يُلفت أن زوجة فرعون حقَّرت البلاط الفرعونى الطاغى بطلباتها الثلاث، حيث رجّحته على بيت فى الجنَّة، واعتبرته لا شيء فى قبال جوار رحمة اللَّه، وبذلك أجابت من لامها على ترك كل هذه الامكانيات التى كانت فى متناول أيديها؛ باعتبارها ملكة مصر، وعلى توجهها إلى راعٍ مثل موسى وهذا درس وعبرة للجميع. إلهى، وفقنا لحفظ الايمان حتى آخر لحظات من عمرنا. ربّنا، نحن ضعفاء أمام الوساوس الشيطانية، فأعنَّا عليها. آمين رب العالمين. امثال القران، ص: ۵۰۳

المثل السابع والخمسون: مريم بنت عمران

اشارة

يقول اللَّه تعالى فى الآية ۱۲ من سورة التحريم: «وَمَرْيمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتى أحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنا فِيه مِنْ رُوحِنا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ ربِّها وكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ القَانِتِينَ».

تصوير البحث

ورد هذا المثل فى نفس الاتجاه الذى ورد فيه المثلان المتقدِّمان، وهو يؤكّد أن المعيار الوحيد للقرب إلى اللَّه والحلول فى ضيافته هو العمل الصالح والالتزام بالضوابط الالهية، ولا تغنى الأواصر والعلاقات مهما كانت قوية. بالطبع، هناك اختلاف بين هذا المثل والمثلين المتقدّمين نشير إليه فيما بعد.

الشرح والتفسير

«وَمَرْيمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتى أحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنا فِيه مِنْ رُوحِنا». الجانب الذى لاحظه القرآن فى التمثيل بآسية غير الجانب الذى لاحظه فى التمثيل بمريم بنت عمران، فقد لاحظ هناك جانب الصبر والاستقامة وهنا جانب العفّة والطهارة. بيَّن القرآن ثلاثة امتيازات لمريم: الأول: العفّة، فقد كانت مريم عفيفة بدرجة أنها كانت تخاف جبرئيل ويرتعش جسمها امثال القران، ص: ۵۰۴ عندما كان يأتيها متمثلًا بشاب جميل، وهى فى الخلوة تغسل جسمها وتقول له: «إنّى أعُوذُ بالرّحْمنِ مِنْكَ إنْ كُنْتَ تَقِياً» «۱» ، ورغم أن جبرئيل طمئنها وقال لها: «إنَّما أنَا رَسُولُ ربِّكَ لأهَبَ لكِ غُلاماً زكياً» «۲» إلَّاأن الاضطراب لا زال يسيطر عليها، لذلك قالت له: «أنَّى يَكُونُ لِى غُلامٌ ولَمْ يَمْسَسْنى بَشَرٌ وَلَمْ أكُ بغيّاً» «۳»، وهذا كله يكشف عن مستوى عفتها وطهارتها. الثانى: «وَصَدَّقَتْ بكَلِمَاتِ رَبِّها وكُتُبِهِ». التسليم المطلق والخالص إلى اللَّه والعبودية هى الامتياز الآخر الذى بيّنه القرآن لمريم. كانت مريم مصدِّقة لكتب اللَّه السماوية ولكلمات ربّها. اختلف المفسِّرون فى أنّ (كتبه) عطف تفسيرى على (كلمات ربِّها) أم لا، وأنا أعتقد انعدام العطف التفسيرى أو قلة موارده فى القرآن. وعلى هذا يكون المراد من (كتبه) هو الكتب السماوية، أى التوراة والانجيل والقرآن، والمراد من (كلمات ربِّها) هو الأحاديث القدسية، أى كلام اللَّه الذى لم يرد فى الكتب السماوية «۴». الثالث: «وَكَانَتْ مِنَ القَانِتِينَ». قنوت مريم هو امتيازها الثالث، وهو يعنى العبادة والطاعة، وبما أنه جاء مطلقاً ودون قيد كان يعنى أنها مفعمة بالطاعة والعبادة لربِّها ربّ العالمين. ليس من السهل أن يكون الانسان مطيعاً خالصاً دون قيد أو شرط، وكثير من أعمال عباد اللَّه منتقاة، أى أنَّه ينتقى ما ينفعه ويذر ما لا ينفعه، بينما عباد اللَّه المخلصون يعملون له مطلقاً مهما كانت آثار العمل ومردوداته. نتيجة العفَّة التى يُضرب بها المثل وكذا الايمان والاعتقاد بجميع ما أنزل اللَّه والطاعة والعبادة الخالصة التى لا مثيل لها أن نفخ اللَّه فيها من روحه ومنحها ولداً طاهراً كعيسى بن مريم عليه السلام.

فوارق هذا المثل مع المثلين المتقدِّمين

رغم أن الأمثال الثلاثة المذكورة فى سورة التحريم تابعت هدفاً واحداً، وهو بيان الملاك الأساسى لنجاة الانسان، أى الضوابط الالهية لا ـ العلاقات والانتساب بأولياء اللَّه، إلَّاأنها متباينة فيما بينها. كان الحديث فى المثل الاول عن امرأتين مشركتين أدبرتا عن الضوابط الإلهية فدخلتا جهنم مع الداخلين، ولم ينفعهما علاقتهما بزوجيهما اللذين كانا من كبار أنبياء اللَّه، والمثل تحذير لضعفاء الايمان الذين تمسكوا بالانتساب لبعض أولياء اللَّه. فى المثل الثانى كان الحديث عن أمرأة صبورة ومقاومة، قد تمسكت بالتعاليم الإلهية وما أكترثت بشىء إلَّابرضا اللَّه، ولم تنتسب إلى أحدٍ من أولياء اللَّه، بل إلى طاغوت، فقد كانت زوجة فرعون الأكثر ظلماً فى البشرية، رغم ذلك لم تؤثّر هذه العلقة وهذا الانتساب فى عزمها وإرادتها، وكان قرارها التزام الإيمان باللَّه وحفظه حتى آخر لحظة من حياتها. وهذا المثل يُضرب لمن عاش فى عائلة ومحيط غير مساعد، تكثر فيه العقبات والموانع الموضوعة فى طريق الإيمان، فالاقتداء بها يعنى تجاوز الموانع والانتصار عليها وعدم التشبُّث بها كذرائع. الحديث فى المثل الثالث عن إمرأة عفيفة تمتعت بامتياز الانتساب وكذا العمل بالضوابط الإلهية فى أعلى مستوياتها، ولهذا عُدَّت اسوة. مزيد ايضاح: البيئة التى كانت تعيشها آسية غير مناسبة ولا تساعد على انعقاد الإيمان من جميع الجهات، فقد كانت تعيش منزلًا يُعدُّ بؤرة للكفر والشرك والعناد والوثنية، وما كان يسمع فيه صوت التوحيد أبداً، وكان زوجها يعدُّ نفسه ربّاً أعلى «۱» بل ربّ الأرباب، أمَّا البيئة التى كانت تعيشها مريم فكانت بيئة طاهرة ومفعمة بالإيمان، وقد كانت تسمع الترنمات الإلهية وهى جنين فى بطن امِّها. ينقل القرآن المجيد مناجاة ام مريم فى الآية ۳۵ من سورة آل عمران كما يلى: امثال القران، ص: ۵۰۶ «رَبِّ إنّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنى مُحَرَّراً فتقَبَّلْ مِنّى إنَّك أنْتَ السَّميعُ العليمُ». الطهارة حكمت بيئة مريم حتى بعد الولادة، فقد تكفّلها بعد وفاة أبيها نبى عصرها زكريا عليه السلام بعد حوادث لطيفة حصلت، ممَّا زاد فى قداستها وسمح لها دخول بيت المقدس والمسجد الأقصى لتقيم عباداتها هناك. وبلغ بها القرب إلى اللَّه أن كان اللَّه يبعث لها الغذاء، كما جاء ذلك فى الآية ۳۷ من سورة آل عمران: «فَتَقَبَّلَهَا رَبُّها بِقَبُولٍ حَسَنٍ وأنْبَتَها نَباتاً حَسَناً وكَفّلَها زَكَرِيّا كُلَّما دَخَل عَلَيْها المِحْرابَ وَجَدَ عِنْدَها رِزْقاً قَالَ يا مَرْيمُ أنَّى لَكِ هذا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إنَّ اللَّهَ يَرزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ». خلاصة الكلام أن بيئة مريم عكس بيئة آسية، رغم ذلك كلتاهما بلغتا الكمال. جاء فى رواية عن الرسول صلى الله عليه و آله: «كَمُلَ مِنَ الرِّجَال كثيرٌ ولم يكمل من النساء إلَّاأربع، آسية بنت مزاحم امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد» «۱». مريم وآسية عاشتا بيئتين متضادتين وبلغتا الكمال، وفى ذلك درس عظيم وعبرة للجميع. وعلى الناس أن يفهموا أن المقياس الأساس هو إرادة الانسان وعزمه، فلا يُعدُّ فساد العائلة أو المجتمع والبيئة وما شابه ذلك عذراً، فإنَّه يصعب بلوغ الهدف مع وجود هذه الامور لكن لا يستحيل، ويمكن الانتصار والتغلب على الموانع من خلال التحلّى بإرادة صلبة؛ سعياً لبلوغ القرب الالهى، كما فعلت آسية، والارادة والعزم هما اللذان يلعبان الدور الاساسى فى هذا المجال.

خطابات الآية

۱ـ العفَّة رأس مال عظيم

آية المثل أكّدت على فضيلة العفة التى كانت مريم تتحلّى بها، وهى صفة لو تمتع به أحد (سواء كان رجلًا أو امرأة) حصل على كل شىء ولو فقدها فقد كلّ شىء. لو تحلَّت المرأة بهذه امثال القران، ص: ۵۰۷ الصفة ما تلوّثت بالذنوب ولو توافرت جميع العوامل والأرضيات المساعدة على التلوّث، ولو لم يتمتّع بها شخص تلوّث بالذنوب ولو كان جنب أفضل البشرية. العفة تعدُّ النقطة التى تقابل عبادة الشهوة والبطن، ومن أهم فضائل الانسان، ويعتبرها علماء الأخلاق صفة بين عبادة الشهوة والاغتمام والكسل. وفى هذا المجال وردت مباحث مختلفة كثيرة فى القرآن والروايات «۱».

۲- الارادة أساس العمل

لاشكَّ أن للعوامل والأرضيات، من قبيل: العائلة والمجتمع والبيئة والحكومة وتوافر أرضيات الطاعة أو المعصية، دوراً وتأثيراً على سعادة الانسان وشقائه، لكنَّ أيّاً من العوامل المذكورة لا يمكنها أن تقهر الانسان وتجبره على انتخاب الطريق الذى يخالف إرادته. نفهم من الأمثال الثلاثة المتقدّمة، وبخاصّة مثل آسية ومريم عليه السلام، أن الارادة تشكل أساس العمل أو العامل الأساسى لأفعال الانسان وأعماله واعتقاداته. أثبتت آسية أنَّ بامكان الانسان أن يحكِّم إرادته للايمان والتقوى فى أحلك الظروف وأتعسها، وأنه يتوفّق رغم هذه الظروف، كما عرفنا من سيرة زوجة نوح عليه السلام وزوجة لوط عليه السلام أن عاقبة الانسان لا تكون إلى خير حتى فى أفضل الظروف إذا لم يتمتع بإرادة ثابتة وقوية. إذن، الآيات المتقدّمة جواب داحض لمن يعتقد بالجبر، وتدلُّ بوضوح على أن السبب الاول والأخير للسعادة والشقاء هو إرادة الانسان.

المثل الثامن والخمسون: تصوير للمؤمنين والكافرين

اشارة

يقول اللَّه تعالى فى الآية ۲۲ من سورة الملك: «أفَمَنْ يُمْشى مُكِبّاً عَلَى وجْهِهِ أهْدَى أمَّن يَمْشِى سَوِيّاً عَلَى صِراطٍ مُسْتقيم».

تصوير البحث

الآية الكريمة- بقرينة ما سبقها وما لحقها- تصوير لحال المؤمنين والكافرين «۱»، ومثل جميل لهذه القافلة التى تبدأ من نقطة العدم ثم تلبس ثوب الوجود متّجهة نحو نقطة اللا نهاية، أى ذات اللَّه تعالى. وهى قافلة قد ينحرف البعض عنها فى بداية حركتها أو فى وسطها، وبعض يستمر معها فى حركتها المستقيمة حتى نهاية شوطها.

نظرة إلى الآيات التى سبقت المثل

الآيات الاولى لهذه السورة تحدَّثت عن المبدأ وصفات اللَّه تعالى، ودعت الانسان للتفكير فى صفات اللَّه وآياته، ثم شرعت ببيان حال المؤمنين والكفار، وفى المرحلة الثالثة ذكَّرت ببعض آيات اللَّه، من قبيل آية خلق نظام الكون العجيب، وبخاصة السماوات والكواكب والارض ونعمها وخلق الطيور. امثال القران، ص: ۵۱۰ ندرس هنا إحدى الآيات الإلهية ذات الصلة بآية المثل. «أوَ لَمْ يَرَوْا إلى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ». خلق الطير وطيرانه بأشكال مختلفة من آيات اللَّه المنَّان. وإذا دقّق الانسان فى خلق الطير وكيفية طيرانه العجيب أدرك قدرة الخالق صاحب كل قدرة فى الكون، وكل شىء يقابله هو كلا شىء، ويمكن الوثوق به والاتكاء عليه كافضل ما يمكن الاتكاء عليه. يمكن للانسان أن يكتسب القدرة على الطيران بالتامُّل فى ظرافة خلق الطير، ويمكنه كذلك اختراع الآليات التى يمكن فتح السماوات بها وبلوغ محالٍّ من السماوات لم تبلغها الطيور. كلَّما زاد العلماء من دراساتهم على الطيور كلّما استطاعوا أكثر على رفع نواقص الطائرات. وعلى سبيل المثال كانت عجلات الطائرات مفتوحة عند الطيران ممَّا يسبب بعض المشاكل لها، وبعد تدقيق العلماء فى طيران الطير شاهدوا أنها تضمُّ رجليها عند الطيران، وهذا هو الذى دعاهم إلى صناعة طائرات تضمُّ عجلاتها عند التحليق. وهذا ممَّا يدعو حقاً إلى تعظيم الخالق وتمجيده. «صَافَّات وَيقْبَضْنَ». من خلال هذين الجملتين القصيرتين بيّن اللَّه نوعين من طيران الطيور، ففى الجملة الاولى بيَّن نوعاً مرموزاً من الطيران، وهو الطيران بصفّ الأجنحة دون تحريكها، كما نلاحظ فى طيران بعض الطيور فى طبقات السماء المرتفعة. والنوع الثانى هو الذى يتم من خلال تحريك الأجنحة، كما هو ملحوظ فى أكثر الطيور. وهناك نوع ثالث من الطيران، وهو الذى يكون خليطاً من النوع الاول والثانى، فتقبض أجنحتها تارة وتصفها تارة اخرى. وهناك نوع رابع من الطيور، وهى

التى تحرّك أجنحتها لفترة ثم تضمّها وتتحرك فى الجو على غرار الذى يريد الغطس، كما نلحظ ذلك فى العصافير. والخلاصة أن جميع الطيور تشترك فى أصل الطيران، لكن كلًا منها تطير بنحو خاص يتناسب وفيزلوجية جسمها والفضاء الذى تطير فيه، والالتفات إلى نوعيات الطيران يزيد من ايمان الشخص ويقينه بخالقه القادر. امثال القران، ص: ۵۱۱ «مَا يُمْسِكُهُنَّ إلَّاالرّحْمنُ إنَّه بكُلِّ شَىءٍ بَصِيرٌ». من الذى خلّص هذه الطيور من جاذبية الأرض القوية التى تجذب حتى ذرات الغبار المتناهية فى الصغر؟ ومن منعها من السقوط على الأرض؟ يا لها من قدرة فائقة ساعدت هذه الطيور على التحليق والطيران كل يوم، متغلبة بذلك على جاذبية الارض؟! هناك بعض من الطيور المهاجرة التى تقطع بالطيران ۱۸۰۰۰ كيلو متراً فى السنة! من الذى أنقذها من جاذبية الأرض؟ كيف يمكنها تهيئة الغذاء لنفسها فى سفراتها الطويلة؟ كيف أمكنها التعرّف على الاتجاه الصحيح؟ «۱» هل هناك قدرة بإمكانها فعل ذلك غير قدرة اللَّه العالم والمحيط بكل شىء؟ مع الالتفات إلى ما تقدَّم من شرح مبسط للآيات التى سبقت آية المثل، وبخاصة مسألة التأمّل فى خلق الطيور، نرجع إلى آية المثل لنبتَّ بشرحها وتفسيرها.

الشرح والتفسير

«أفَمَنْ يَمْشِى مُكبّاً عَلَى وجْهِهِ أهْدَى . تقسَّم الحيوانات من حيث الحركة والمشى إلى ثلاثة أقسام: الاول: مستقيمة القامة، وهى التى تمشى على رجلين اثنين، مثل الانسان، الثانى: ذوات الأربع، وهى التى تمشى على أربع، رجلين ويدين، الثالث: الزواحف، مثل الأفاعى. شبَّه اللَّه الكفَّار فى هذه الآية بالزواحف التى تزحف على بطنها. «أمَّنْ يَمْشى سَوِيّاً عَلَى صِراطٍ مُسْتقِيمٍ». كما شبّه المؤمنين بمستقيمى القامة الذين يمشون بنحو سوى وعلى طريق مستقيم. ومع هذا التشبيه كيف يمكن المقارنة بين من يمشى مستقيم القامة وسوياً وبين من يمشى زاحفاً على بطنه؟ فمن هو أهدى منهما؟ امثال القران، ص: ۵۱۲ ترك اللَّه الحكم والجواب على المقارنة إلى مخاطبى القرآن، وحرّضهم على معرفة الاختلاف بين الاثنين.

مشاكل حركة الزواحف ومعايبها

للزحف مشاكل متعدّدة: الاولى تتحدّد عنده قدرة النظر، والأخطار تهدّده دائماً، ويكون عرضة للسقوط فى وادٍ أو الانحراف عن الطريق؛ لأنه عاجز عن تحديد الأخطار وتشخيصها فى وقتها. الثانية: سرعة الزحف قليلة جداً، وقد تكون نسبتها إلى المشى العادى نسبة الواحد إلى العشرة. الثالثة: الزحف يتعب الانسان بسرعة، هذا على فرض عدم مواجهة موانع فى الطريق وعدم انحرافه عنه وعدم سقوطه فى وادٍ والزاحف يتوقف عن الحركة بسرعة؛ لكون الزحف متعباً جداً. إذن، الخطأ فى تحديد الخطر وعدم القدرة الكافية للنظر وبطء الحركة والتعب المفرط يعطل الزاحف عن الاستمرار فى الطريق، وتعدُّ تلك الامور من معايب الزحف ومشكلاته. أما الذى يمشى مستقيم القامة فقابليته على الرؤية أكثر ويرصد الأخطار من بعيد- وبخاصة أنَّ أكثر حواسه واقعة فى رأسه- ويحدّدها ويتّخذ القرار المناسب فى الوقت المناسب، ولا ينحرف عن الطريق، مضافاً إلى أنَّه يتمتع بالسرعة الكافية ولا يتعب عاجلًا، فلا يتوقف. هل يتساوى هذان الاثنان؟ بالطبع لا، والذى يمشى مستقيم القامة أهدى لطريقه من الذى يمشى زاحفاً. المؤمن الذى يمشى سوياً ومستقيم القامة فى الصراط المستقيم ونور إيمانه يضىء له الدرب أهدى من الكافر الزاحف الذى لا نور له يضىء دربه ولا سرعة ولا قابلية له لتحديد المخاطر ولا السير لفترة طويلة. هذا مضافاً إلى أن الكافر الزاحف لا قدرة له على إبصار آيات اللَّه التى تقدَّمت الاشارة إليها فى الآيات السابقة من السماوات والطيور وما شابه، أمَّا الذى يمشى سوياً فله القابلية على امثال القران، ص: ۵۱۳ إبصار آيات اللَّه جيداً، فيتأمَّل فيها ويتدبّر، ويدرك بذلك عظمة اللَّه وقدرته أكثر، فيخطو فى طريق الهداية باستحكام واستقامة.

خطاب الآية

الإيمان ينبوع المحاسن

تقدَّم أن الآية نزلت فى توصيف المؤمنين والكفَّار، وهى ليست الوحيدة التى وصفت الفريقين بل تقدمت آيات وكذلك روايات فى توصيفهما. لماذا كل هذا الحديث والتأكيد على الايمان وما يقابله، أى الكفر؟ الحقيقة هى أن الايمان والتقوى مصدر الخيرات والبركات، وينبغى القول دون مبالغة: كلّ شىء يتحقق فى ظل الايمان والتقوى

من هو المؤمن؟

إذا كان الايمان قلة عالية وارتقاؤها يُعدُّ منشأً لجميع المحاسن وإذا كان ثوباً ثميناً فينبغى معرفة من هو الجدير بهذا الثواب الثمين والصعود إلى هذه القلة المليئة بالافتخارات. وصف الرسول صلى الله عليه و آله المؤمن فى ثلاث جمل قصيرة لكنَّها ذات معنى عميق، حيث قال: «المؤمن كيِّسٌ فَطِنٌ حَذِرٌ» «۱»، ومن خلال هذه الصفات الثلاث يجتاز المخاطر، أمَّا غير المؤمن فكالزواحف لا يتمتع بفطنة ولا ـ كياسة ولا ـ حذر، ويقع فى المصيدة ببساطة، وانسان من هذا القبيل يظن نفسه كيّساً، وليس كذلك، وبذلك يتلف رأس ماله الأعظم، وهو عمره، ونهايته الهلاك دون جدوى

مراتب الايمان

كتاب الزرّاد: قال: قلت لأبى عبداللَّه عليه السلام: نخشى أن لا نكون مؤمنين. قال: «ولِمَ ذاك»؟ امثال القران، ص: ۵۱۴ قلت: وذلك أنا لا نجد فينا من يكون أخوه عنده آثر من درهمه ودينارة، ونجد الدينار والدرهم آثر عندنا من أخ قد جمع بيننا وبينه موالاة أمير المؤمنين عليه السلام، قال: «كلَّا انكم مؤمنون ولكن لا ـ تكملون إيمانكم حتى يخرج قائمنا، فعندها يجمع اللَّه أحلامكم فتكونوا مؤمنين كاملين، ولو لم يكن فى الأرض مؤمنون كاملون إذاً لرفعنا اللَّه إليه وأنكرتم الأرض وأنكرتم السماء، بل والذى نفسى بيده انّ فى الارض فى أطرافها مؤمنين ما قدر الدنيا كلها عندهم تعدل جناح بعوضة» «۱». يتمنَّى الامام فى رواية إدراك المؤمنين الذين تكامل الايمان عندهم وبلغوا القمة فى الايمان، ويوصى من أدركهم أن يستفيض من نورهم، ودنيا الحرام عندهم لا تعدل أكثر من جناح بعوضة. اللهمَّ وفقنا لطى مدارج الايمان حتى بلوغ قمة جبله الشامخ. اللهمَّ ارزقنا كياسة المؤمنين الحقيقيين وذكاءهم لكى يتسنَّى لنا رفع عقبات الرقى وبلوغ أعلى درجات الايمان.

المثل التاسع والخمسون: البخلاء

اشارة

يقول اللَّه تعالى فى الآيات ۱۷- ۳۳ من سورة القلم: «إنَّا بَلَوْنَاهُمْ كما بَلَوْنا أصحابَ الجَنَّة إذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّها مُصبحِينَ* وَلَا يَستَثْنُونَ* فَطَافَ عَليها طائِفٌ مِن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ* فَأَصبَحَتْ كَالصَّرِيم* فَتَنَادوا مُصبِحِينَ* أن اغدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إن كُنتُم صَارِمِينَ* فانطَلَقُوا وَهُم يَتَخافتُونَ* أن لا يدَخُلَنَّهَا اليومَ عَلَيكُم مِسكِينٌ* وَغَدَوا عَلَى حَردٍ قَادِرِينَ* فَلَمَّا رَأوهَا قَالُوا إنَّا لَضَالُونَ* بَلْ نَحْنُ مَحْرُمُونَ* قَالَ أوسَطُهُم أَلَمْ أَقُل لَكُم لَوْلَا تُسَبِّحُونَ* قَالُوا سُبحانَ رَبِّنا إنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ* فَأَقبَلَ بَعْضُهُم عَلَى بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ* قَالُوا ياوَيْلَنَا إنَّا كُنَّا طَاغِينَ* عَسَى رَبُّنَا أن يُبدِلَنَا خَيراً مَنهَا إنَّا إلى رَبِّنَا راغِبُونَ* كَذَلِكَ العَذَابُ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أكبَرُ لَو كَانُوا يَعْلمُونَ».

تصوير البحث

قد يجسِّم اللَّه الحقائق التربوية المهمة جداً فى قالب تشبيه محض، وقد يجسّمها من خلال قولبة قصة حقيقية من الواقع الخارجى فى

إطار مثل، والآيات السبع عشرة من سورة القلم من قبيل القسم الثانى.

الشرح والتفسير

كان الحديث فى الآيات السابقة لآيات المثل عن المناعين عن الخير «۱»، وعقب ذلك ذكر امثال القران، ص: ۵۱۶ قصة أصحاب الجنّة فى قالب تمثيل جميل. يستفاد من تعابير الآيات الجميلة أن هذه القصة كانت معروفة عند العرب قبل الاسلام، بالطبع ليس بالتفصيل المذكور هنا، وحاول القرآن بيان نكات ظريفة فى هذه القصة، أوضح من خلالها عاقبة المنَّاع للخير. جاءت قصة أصحاب الجنة فى القرآن كالتالى: «إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كما بَلَوْنا أصحابَ الجَنَّة». يا رسول، إنَّا أدخلنا امتك فى اختبار كما أدخلنا من قبلهم أصحاب الجنة «۱»، ويراد من الجنة هنا البستان لا ما تقابل جهنم. كان فى الامم السالفة والد خيّر، له بستان واسع، عندما يحلُّ فصل جنى الثمار كان هذا الرجل السخى يخبر الفقراء والمساكين لينالوا نصيباً منها، ولأجل ذلك كان البستان ينمو ويثمر كل عام أكثر فأكثر. توفى هذا الأب السخى وترك البستان لُاولاده، الذين كانوا بخلاء وقصيرى النظر، ويرون ثمار البستان حقهم الخاص بهم دون غيرهم، فمنعوا الفقراء والمساكين من النيل من البستان، كما كان يفعل ذلك والدهم، وكان لسان حالهم يقول: لِمَ نعطِ هؤلاء مع أنَّهم لم يفعلو لنا ولبستاننا شيئاً ولم يعملوا فيه، كما أنهم لم يستثمروا شيئاً من أموالهم فى البستان؟ وهل هم يدينون لنا بشىء؟ وهل هو إرث آبائهم؟ والحق ينبغى أن يرجع لصاحبه، ونحن أصحاب هذا الحق وما لنا وهؤلاء الفقراء؟ ولماذا يعيش الفقراء؟ فليموتوا! ولأجل تحقيق أفكارهم الشيطانية رسموا الخطة التالية: «إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّها مُصبحِينَ* وَلَا يَستَثنُونَ». تقضى خطتهم التى أقسموا عليها أن يذهبوا فى الصباح الباكر مع غلمانهم إلى البستان امثال القران، ص: ۵۱۷ ويجنون ثماره قبل أن يأتوا الفقراء، وإذا جاءوا فلا يشاهدون شيئاً يأخذونه معهم «۱»، فذهبوا إلى فراشهم بهذا الأمل. «فَطَافَ عَليها طائِفٌ مِن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ». الطائف تعنى الذى يطوف، وقد اطلق هذا الاصطلاح على من يطوف الكعبة بهذا الاعتبار. كما يُطلق الطائف على البلاء الذى ينزل ليلًا، من قبيل السرقة التى غالباً ما تحصل ليلًا، وسبب الاطلاق هو أن السارق غالباً ما يطوف البيت الذى يقصد سرقته قبل أن يسطو عليه، وذلك ليتعرَّف على نقاط ضعفه وفجواته ليدخل منها. تأوّهات المظلومين تبلورت على نحو طائف وبلاء إلهى نزل على بستانهم وأتلفه. «فَأَصبَحَتْ كَالصَّرِيمِ». عند الصباح لم يجدوا أثراً من الثمار والفواكه التى خططوا لها بالأمس، فقد تبدَّلت جنتهم إلى قطعة من الفحم. ما هو البلاء الذى نزل على هذه الجنة؟ قد يكون عبارة عن صاعقة أمرها اللَّه أن تحرق الجنة لتبدّله إلى فحم ورماد. تكفى درجة حرارة بمستوى مائة لإحراق هذه الجنة، أمَّا إذا كانت درجة حرارة الصاعقة خمسة عشر ضعفاً فما تفعل بالجنَّة؟ إنَّ هذه الدرجة من الحرارة تذيب كل أنواع الفلزات فضلًا عن الأشجار والفواكه والخضار. «فَتَنَادوا مُصبِحِينَ* أنِ اغدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إن كُنتُم صَارِمِينَ». استيقظ أصحاب الجنة صباحاً ولم يكونوا على علم بما كان قد حصل لبستانهم، فنادى أحدهم الآخر ليستعجلوا فى اليقظة والذهاب لجنى الثمار، وبعد حمل المستلزمات الضرورية امثال القران، ص: ۵۱۸ تحركوا باتجاه البستان. «فانطَلَقُوا وَهُم يَتَخافتُونَ* أن لا يدَخُلَنَّهَا اليومَ عَلَيكُم مِسكِينٌ* وَغَدَوا عَلَى حَردٍ قَادِرِينَ». أيقظ أحدهم الآخر بإيجاد ضوضاء، لكنهم خرجوا ببطء ودون إيجاد أى صوت ودون أن يتكلَّموا، وإذا أرادوا مبادلة الكلام همس أحدهم فى إذن الآخر، وما كان كلامهم إلَّاتحذير أحدهم الآخر من أن يطلّع واحد من الفقراء على الموضوع. نعم، كانوا قد قرروا أن يحولوا دون اطلاع الفقراء، وأن يمنعوهم بقوّة دون الوصول إلى الجنة، ومن المحتمل أنَّهم وظّفوا بعض الأقوياء ليمنعوا الفقراء عن دخول الجنة إذا ما اطَّلعوا رغم الإجراءات التى اتخذوها للحؤول دون اطلاعهم. «فَلَمَّا رَأوهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ* بَلْ نَحْنُ مَحْرُمُونَ» بعد الاجراءات والاحتياطات التى قاموا بها وصلوا جنّتهم وفقاً لخطّتهم، لكنَّهم عندئذٍ تعجّبوا حيث لم يعثروا على أثرٍ للطراوة والخضار، ولا نسيم، ولا صوتاً للطيور ولا للقنوات، ولا فاكهة ولا شجرة، فلم يبقَ من الجنة غير الفحم والرماد، عندئذٍ اعترفوا بخطأهم وأقرّوا بصحة منهج والدهم واعتبروا أنفسهم ضالين. «قَالَ أَوسَطُهُم أَلَمْ أَقُل لَكُم لَوْلَا تُسَبِّحُونَ». يبدو أن واحداً من الاخوة كان أعقلهم، وكان مخالفاً لهم منذ البداية وكان مصرّاً على العمل وفق نهج الوالد، إلَّاأنَّ إخوته كانوا

يشكّلون الأكثرية، وهو الاقلية، لذلك لم يكن لرأيه تأثير عليهم، لكنه بعد ما شاهد- كاخوته- ما آلت إليه جنتهم قال لهم ما ورد فى العبارة المتقدّمة. «قَالُوا سُبحانَ رَبِّنا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ* فَأَقبَلَ بَعْضُهُم عَلَى بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ». كانت ملامة أخيهم بمثابة السوط الذى جلد ضميرهم وأيقظه من سبات الغفلة، عندئذٍ جرى تقديس اللَّه وتسبيحه على ألسنتهم، وبدأوا يعترفون بأنَّهم ظالمون. إنَّهم ظلموا أنفسهم، كما ظلموا الفقراء، ثم أخذ أحدهم يلوم الآخر، ويحمّل أحدهم الآخر مسؤولية هذا العمل، وهو سيرة المذنبين دائماً. نعم، فى الصباح الباكر كان أحدهم يوقظ الآخر بصوت عال، وتحرّكوا باتجاه الجنَّة امثال القران، ص: ۵۱۹ باحتياط، وهم حالياً يتَّهم بعضهم الآخر. ممَّا يلفت أنَّ الآية «قَالُوا سُبحانَ رَبِّنا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ» تكشف عن أنَّهم لم يتلقّوا نزول العذاب ظلماً من اللَّه عليهم، بل نزّهوا اللَّه من كل ظلم، واعتبروا أنفسهم سبباً لهذا العذاب. إنهم أعلنوا من خلال هذه الجملة كونهم ظلموا الآخرين فكانوا أهلًا لنزول العذاب، ولم يكن ذلك ظلماً من اللَّه عليهم، بل ما صدر منه هو عين العدالة والحكمة ونوعٌ من اللطف فى حقّهم؛ لأن وجدانهم استيقظ من سباته إثر هذا العذاب فتابوا إلى اللَّه وأنابوا إليه. «قَالُوا ياوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ». ربّنا، أغوتنا نعمك وأغفلتنا عن صاحب النعم، فانحرفنا. ربّنا، ما كنا نعلم أنَّ الأموال التى وهبتها لنا لم تكن بأكملها لنا، بل جعلت سهماً للفقراء فيها. ربّنا، علمنا أن ذلك كان اختباراً منك لنا فنتوب ونقرُّ بذنبنا، وها نحن جئناك تائبين نادمين داعيك بالدعاء التالى: «عَسَى رَبُّنَا أَن يُبدِلَنَا خَيراً مَنهَا إِنَّا إِلى رَبِّنَا راغِبُونَ». يقظ أصحاب الجنة من سبات الغفلة بصفعة العذاب الإلهى، فاعتبروا ممَّا حدث لهم وتابوا ودعوا اللَّه بهذا الدعاء. بعد التوبة والدعاء عزموا بجدٍّ ومثابرة على العمل على الأرض، فلم يمضِ وقت طويل- كما ينقل ابن مسعود- حتى رزقهم اللَّه بلطفه جنَّة أعظم وأفضل ممَّا كانت لهم «۱». لكن بعض المفسرين يرى أن توبتهم لم تُقبل لعدم توافر شروط التوبة فيهم «۲». «كَذَلِكَ العَذَاب وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أكبَرُ لَو كَانُوا يَعْلَمُونَ». هذه الآية استنتاج لقصة أصحاب الجنَّة، وهى تحذير لكلِّ من كان يعيش حياة ذات وجوه شبه مع حياة أصحاب الجنَّة، فهى تقول: إن العذاب الاخروى أشدّ وأكبر من العذاب امثال القران، ص: ۵۲۰ الأليم والمفجع الذى أنزلناه على هؤلاء. وعلى كل من توفَّرت عنده امكانيات وثروة أن يترك منها سهماً للفقراء، ولو بخل فى ذلك وخطى فى هذا الاتجاه بحيث لا هو بذل ولا ترك الآخرين يبذلون فليطمئن من نزول عذاب اللَّه عليه فى الدنيا والآخرة. بالطبع لا ينبغى أن يكون العذاب دائماً عبارة عن صاعقة سماوية تحرق ممتلكات البخيل، بل للَّه‌جنود لكل زمان ومكان، من قبيل: الآفات والحروب والسيول والأمراض المستعصية والجفاف وانعدام البركة، فهذه كلها جنود للَّه‌يبعثها حيث يشاء.

خطابات الآية

۱- الاستئثار بلاء خطر

إذا اتُّخذت الأموال والثروة جسراً للوصول إلى الغايات، ولم يخرج حبّها عن مستوى الاعتدال كان ذلك أمراً مطلوباً ومستحسناً، أما إذا بلغ حبُّها مستوى الإفراط وعدَّت بحد ذاتها هدفاً وليس وسيلة وأنتجت ثماراً من قبيل الاستئثار كان ذلك أمراً مذموماً. ولأجل ذلك فرض الاسلام الحقوق الواجب دفعها، كما دعى المسلمين إلى الإنفاق الزائد على ذلك (الانفاق المستحب) لكى يحول بذلك عن انتاج أو نمو شجرة الاستئثار البغيضة. تتجلَّى أخطار الاستئثار عندما تتسع رقعة آثاره الذميمة لتشمل المجتمع كله بعد ما كانت منحصرة فى المستأثر فقط، كما هو حال باقى الذنوب، وذلك لأن آهات المظلومين والمستحقين والمساكين قد تتبدَّل إلى إعصار يكتسح المجتمع بأسره. علينا تطهير أنفسنا من هذه الصفة الذميمة، وذلك من خلال إنفاق بعضٍ من أموالنا (قدر الإمكان) لمحرومى المجتمع وفقرائه، ولنقتدِ فى هذا المجال بالأئمة المعصومين عليهم السلام. ينقل فى أحوال الامام الصادق عليه السلام قوله التالى: «كنت آمر إذا أدركت الثمرة أن يثلم فى حيطانها الثلم ليدخل الناس ويأكلوا، وكنت آمر فى كل يوم أن يوضع عشر بنيات يقعد على كل بنية عشرة كلَّما أكل عشرة جاء عشرة اخرى يلقى لكلّ نفس منهم مدّ من رطب، وكنت آمر لجيران الضيعة كلهم الشيخ والعجوز

والصبى امثال القران، ص: ۵۲۱ والمريض والمرأة ومن لا يقدر أن يجىء فيأكل منها لكلِّ إنسان منهم مدّاً ...» «۱».

۲- الهدف من البلاء والعذاب

البلاء والعذاب والمرض والمشاكل الاجتماعية والفردية والغلاء والتضخّم وما شابه، كل ذلك ليس عقوبة دائماً، بل قد يكون بمثابة الصدمة التى يوردها الطبيب على المريض لكى يشعره ويحسّسه. واللَّه قد يستهدف من العذاب تربية الانسان وإيقاضه من غفلته. العذاب الذى نزل على أصحاب الجنَّة كان من هذا القبيل، بناءً على رأى اولئك الذين يرون أنَّ توبتهم قد قبلت، بعد ما أعربوا عن ندمهم، لينتهجوا بعدها نهج أبيهم فى الانفاق على الفقراء والمساكين، ممَّا وفَّر الأرضية لأن يرزقهم اللَّه الجنة مرَّة اخرى

۳- العلاقة بين الذنب وانقطاع الرزق

للعصيان والذنوب والتخلّف عن القوانين الالهية عواقب سيئة لا فى الآخرة فقط بل فى الدنيا كذلك، فآثار العصيان مشهودة فى الدنيا، كما هى ثابتة فى الآخرة. البحث فى الآثار الدنيوية للذنوب بحث جميل ويكشف عن وجود بعدين للدين لا بعد واحد، وقد انعكس هذا البحث فى آيات وروايات كثيرة. الآيات التى هى موضع بحثنا تشير إلى هذا المطلب، والبخل والأسوء منه منع الخير لا أنه لا يوجب زيادة ثروة الانسان وأمواله فحسب بل يكون بمثابة الحريق الذى يحرق الزرع ويترك الانسان يعيش البؤس والتعاسة. الرواية التالى ذكرها واحدة من كثير من الروايات الواردة فى هذا المجال، يقول الامام الباقر عليه السلام: «إنَّ الرجل ليذنب الذنب فيدرأُ عنه الرزق» وتلا هذه الآية: «إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّها مُصبِحِينَ ...» «۲». امثال القران، ص: ۵۲۲ كما نقل عن ابن عباس قوله: إنَّ العلاقة بين الذنب وقطع الرزق أوضح من الشمس، كما بيّنها اللَّه عزَّ وجلَّ فى سورة ن والقلم «۱». النتيجة: العلاقة بين الذنب وانقطاع الرزق واضحة، وعلى الانسان ترك العصيان حتى لو كان طالباً للدنيا فقط.

۴- العناد أو الإنابة؟

عندما يشاهد الانسان نتيجة أعماله فى الدنيا يختار أحد الطريقين، إمَّا اللجاجة والعناد وإمَّا الإنابة والرجوع. البعض يتلقى البلاء لطفاً من اللَّه يوقظه به من سبات الغفلة ويمنعه دون تكرار الأخطاء، فيتوب ويخجل، ولاشك أن اللَّه سيتغمدّه بألطافه. وبعض آخر فى سبات عميق، لا شىء يوقظه منه إلَّاالموت، فلا توقظه هذه الحوادث من نومه فيستمر فى المضى فى درب الخطأ، بل تزيد الحوادث من سرعة مشيه فى هذا الطريق، أى طريق المعصية والذنوب عناداً ولجاجة، وهو فى الحقيقة فى عنادٍ مع سعادته، وكلَّما تقدَّم كلما نقص احتمال نجاته، وكلما ابتعد عن رحمة اللَّه. العناد ناشئ عن الرذائل الأخلاقية، ومصدرها الأساسى هو الجهل، الذى خلَّف للانسان على طول التاريخ آثاراً مشؤومة وغير مباركة كثيرة «۲». وفقاً لما جاء فى بعض الروايات فإنَّ أصحاب الجنة اختاروا الطريق الاول فتابوا وأنابوا إلى اللَّه فشملتهم الألطاف الالهية. أمَّا أفراد من قبيل أبى لهب وأبى سفيان ومعاوية فاختاروا درب العناد فأصبحوا لعنة على ألسن المؤمنين إلى يوم القيامة.

۵- العلاقة بين التسبيح والتوبة

عندما التفت أصحاب الجنة إلى خطأهم تابوا وبدأوا توبتهم بتسبيح اللَّه، كما ورد فى الآية: «قَالُوا سُبحانَ رَبِّنا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ». كما نلحظ هذا المعنى فى قصة يونس التى وردت فى الآية ۸۷ من سورة الأنبياء، فعندما أدرك أنَّه ترك الأولى تاب وقال: «لا إِلَهَ إِلَّاأنتَ سُبْحَانَكَ إِنّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ»، فسبَّح اللَّه أولًا ثمّ تاب. كما نلحظ هذا المعنى فى قصة موسى عليه السلام الواردة فى الآية ۱۴۳ من سورة الأعراف. سؤال: ما العلاقة بين تسبيح اللَّه والتوبة والندم؟ الجواب: حقيقة المذنب كونه جاهلًا لبعض صفات اللَّه ذات الصلة

بـذنبه أو أنّه تجاهلها وأنكرها عملياً، فالسارق- مثلًا- يجهل صـفة الرزق التى يتصف بها اللَّه أو أنه أنكرها عملياً، وعندما يدرك خطأه يصـحِّح اعتقاده فى البداية فيسبّح اللَّه وينزهه من كل عيب ونقص ثم يبتُّ بإصـلاح أعماله وسلوكه، ويجبر ما سبق منه بالتوبة والعمل الصالح. النتيجة: الذنب ينشأ عن عاملين، الاول: الاعتقاد، والثانى: السـلوك والعمل، ولهذا يُفرض بالتوبة أن تكون اعتقادية وسـلوكية. ابتُلينا حالياً «۱» باختبـارات مختلفـة، وما هى إلَّانتيجـة لأعمالنا واعتقاداتنا، فالجفاف بلغ مـدناً كانت محاصـرة بالأنهار والمياه، من قبيل اصـفهان وعبادان، وقد أعملت الحكومة بعض القيود ونظام الحصـص فى اصفهان وغيرها من المدن ممَّا سبب مشاكل للناس. هذا من جـانب ومن جـانب آخر فـان حرب الصـحافة والاتهامـات والافـتراءات تسـتمر بلاـ هـودة، وبعض الصـحف اسـتهدفت بجسـارة جميع المقدسات، يسـتحى القلم من ذكر ولو نموذجاً واحداً منها «۲». امثال القران، ص: ۵۲۴ ومن جانب آخر كذلك فان مؤامرات الأعداء تزداد وتتعقّد يومياً ويزداد خطرها كل يوم. والأسوء من ذلك الاختلاف والنزاعات الكلامية بين الأحزاب السياسـية، فقد بلغت مستوى أن نسوا أرباب الأحزاب مشاكل الناس إثرها. ألَمْ تـدعُنا هـذه الحوادث للإنابة إلى اللَّه؟ ألم يأن لنا أن نسـبّح اللَّه وننزّهه ثمّ نتوب إليه لكى يتغمّدنا بلطفه ورحمته وفيضه؟ اللهم، اجعل البلاء الذى سببناه لأنفسنا عاملًا ليقظتنا ووعينا. اللهم، أرنا طريق الإنابة ووفقنا للتوبة.

المثل الستون: الموقف تجاه الكلام الحق

اشارة

يقول اللَّه فى الآيات ۴۹- ۵۱ من سورة المدثر: «فَمَا لَهُمْ عَنِ التذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ* كَأَنَّهُم حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ* فَرَّت من قَسْوَرَةٍ».

تصوير البحث

فى هذه الآيات الثلاث، التى تشـكّل آخر مثل من أمثال القرآن الجميلة، شـبَّه اللَّه جماعة الوثنيين المتعصبين والمعاندين المتهربين عن تذكرات القرآن والرسول بالحُمُر الفارَّة من صوت الأسد.

الشرح والتفسير

«فَمَا لَهُمْ عَنِ التذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ». بعد ما ينقل القرآن المجيد حوار أصحاب الجنة وأصحاب الجحيم، يطرح السؤال التالى: لماذا أعرض أصـحاب الجحيم عن التـذكرات فى الـدنيا؟ تكرَّرت مفردة (تذكرة) تسع مرّات فى القرآن، واريد منها القرآن فى جميع هذه الموارد، أمّا مفردة (ذكر)، التى هى من نفس المادة، فتكررت خمسـين مرّة، واريد منها القرآن المجيد كذلك فى كثير من الموارد، منها: الآية ۶ من سورة الحجر: «يَا أَيُّها الذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ» والقرآن هو الذى نُزِّل على الرسول صـلى الله عليه و آله. امثال القران، ص: ۵۲۶ وباعتبار أن الرسول صـلى الله عليه و آله جاء بالذكر والتذكرة (القرآن المجيد) سُمِّى مُذكِّراً، فقد جاء فى الآية ۲۱ و ۲۲ من سورة الغاشـية: «فَذَكِّرْ إِنَّما أَنْتَ مُذَكِّرٌ* لَستَ عَلَيْهِم بمُصَيْطِرٍ». إذن، القرآن المجيد ذكر، والرسول مذكِّر، لكن من المؤسف أن بعضاً من العنودين والمتعصبين لا يصـغى إلى تذكرات الرسول، بل يفرُّ منها. «كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ». الحُمُر جمع حمار، وبما أنها مطلقـة فتشـمل جميع ما يندرج تحت هذا الصـنف من الحيوانات، لكن المراد منه هنا ليس الحمار الأهلى الذى يسـتخدمه الانسان لأداء أعماله بل المراد هو الحمار الوحشـى؛ وذلك للُامور التاليـة: أولًا: الحمار الوحشـى يخاف الأسـد أكثر ويفرُّ منه، وقيد «مُسْتَنْفِرَة» يفيـد كون المراد الحمار الوحشـى لا الأهلى. ثانياً: الحـديث فى الآية عن الأسد والحمار «۱»، ومن الواضح أن هناك تناسـباً أكثر بين الأسد والحمار الوحشـى، وبخاصة أن للأسد رغبة خاصة بصـيد الحمار الوحشـى، والخوف يستولى على الحُمرُ بمجرّد أن تسمع صوته بحيث تفقد صوابها ولا تعلم إلى أين تتجّه، ويتفرّق الفصـيل إلى جهات عديدة. أحسن القرآن بيان كلّ شىء أراد بيانه واستخدم أرفع

مستويات التعبير وأكملها فيه، وفى هذه الآية رسم اللَّه أكمل أنواع الفرار والهروب، وذلك من وجوه فصاحة القرآن وبلاغته. لماذا يفرُّ الوثنيون من تذكيرات الأنبياء؟ لماذا يفرون من الجنة المدعوون لها باتجاه جهنَّم؟ لماذا يتجهون إلى الظلمات تاركين خلفهم النور؟ لماذا يتركون الأماكن الآمنة ويتجهون نحو اماكن خطرة يحتمل السقوط فيها؟ يزداد إعجاب الانسان عندما يفكر بهذه الآيات وكذا روايات وردت فى هذا المجال. امثال القران، ص: ۵۲۷ كان عبدة الأصنام المتعصبون يفرّون من نداء الحق بذرائع مختلفة، فبعض منهم كان يجعل القطن فى اذنيه لكى لا يسمع شيئاً من كلام الحق. جاء أسعد بن زرارة (من كفار المدينة) يوماً إلى مكة لتهيئة بعض وسائل الحرب وحاجات اخرى، فشاهد جنب باب المسجد الحرام واحداً من كفار مكة بيده كيس من القطن يدعو كل من أراد دخول المسجد أن يجعل قطناً فى اذنيه. سأله أسعد عن سبب ذلك، فقال له: هناك ساحر جنب الكعبة يُدعى محمّد يسحر الناس بكلماته، والقطن يحول دون تأثير سحره على الناس ... «۱». وكان بعض آخر منهم يجعل أصابعه فى اذنيه لكى لا يسمع شيئاً من كلام الحق الجذّاب الذى يتفوّه به الأنبياء، بل كان البعض لا يكتفى بذلك ويجعل ثيابه فوق رأسه لكى لا تنقر اذنيه ولو كلمة من كلمات الحق. فى هذا المجال خاطب نوح ربه قائلًا: «وإنّى كُلَّما دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أصابِعَهُمْ فِى آذانِهِمْ واسْتغشَوْا ثيابَهُمْ وأصَرُّوا واسْتَكْبَروا اسْتِكْباراً» «۲». وبعض آخر كان يأمر غلمانه ومن تحت يديه أن يحدث ضوضاء بالصراخ والصفير والتصفيق عند تلاوة القرآن لكى يحولوا دون سماع نغمات القرآن الجميلة. يقول اللَّه فى الآية ۲۶ من سورة فصّلت: «وَقَالَ الَّذينَ كَفَروا لا تسْمَعُوا لِهذا القُرآنِ والغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ». خلاصة الكلام: أن المشركين والوثنيين كانوا يحولون دون بلوغ صوت الحق أسماع الناس، ويستخدمون لهذا الغرض أساليب مختلفة. أسأل تارة اخرى لماذا كانوا يفرّون من تذكيرات الأنبياء والرسل؟ امثال القران، ص: ۵۲۸ لماذا كانوا أعداءً لسعادتهم وهدايتهم ونجاتهم؟ جواب هذه الأسئلة ينحصر فى أربع جمل: العناد، والحماقة، والتعصّب الذى فى غير موضعه، والجهل. نعم، هذه الامور تحوول دون سماع صوت الحق وتؤدّى إلى فرار الانسان وهروبه من الحق. اللهم، وفقنا لترك هذه الرذائل الأربع، لكى نقبل نداءك الحق بكل وجودنا.

خطابات الآية

۱- القرآن ذكر والرسول مذكِّر

سؤال: لماذا اطلق على القرآن (ذكر) و (تذكرة) وعلى الرسول صلى الله عليه و آله (مذكِّر)؟ وما السر فى هذا التعبير؟ الجواب: هذه التعابير تستبطن نقطتين مهمتين، هما مصادر لمعارف عليا. النقطة الاولى ممَّا يمكن استفادته من الآية التى هى موضع بحثنا وكذا آيات وروايات اخرى كون التذكير إحدى مهام الأنبياء ووظائفهم. وهذا يعنى أن فطرة الانسان الطاهرة مجبولة على الايمان وتعاليم الأنبياء «فِطرَةَ اللَّهِ التى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا» «۱» ، لا فيما يخصُّ اصول الدين فحسب بل وكذا فروعه، والفطرة بأعماقها تستبطن هذه التعاليم الرفيعة. بناءً على ذلك تكون وظيفة الأنبياء هى التذكير بهذه المعارف والقضايا الفطرية، لكى لا ينساها البشر، بل يبقى واعياً متذكّراً لها وموحداً فى فكره وسلوكه، ومعتقداً بالمعاد والحياة بعد الموت، ومتداعياً فى ذهنه ما استبطنته الفطرة بأعماقها من مفاهيم من قبيل: العدالة والتقوى أوضح الامام على عليه السلام فى الخطبة الاولى من (نهج البلاغة) وظيفة الانبياء ببيان جميل جداً، وقال فى الإجابة عن سبب بعثة الانبياء: امثال القران، ص: ۵۲۹ «ليستأدوهم ميثاق فِطرته ويذكّروهم منسيَّ نعمته ويحتجّوا عليهم بالتبليغ ويثيروا لهم دفائن العقول ...». للبعثة أهداف مختلفة: الاول: مطالبة البشر بأداء ميثاق الفطرة. ومن هذه العبارة يستفاد أن اللَّه أبرم مع فطرة البشر عهداً، وعلى الانسان أن يؤديه فى حياته، وقد يكون العهد الذى أشارت إليه الآية ۱۷۲ من سورة الأعراف هو هذا. الثانى: تذكيرهم بما نسوه من نِعم اللَّه، فهو نوع تذكير، ولو بحث الانسان عن تلك النعم لوجدها فى أعماق وجوده، لكنه نساها؛ لأنه غرق فى الماديات، ومن خواص عالم المادة أنَّه يُنسى، فالدنيا تُغفل الانسان وتنسيه. الثالث: أن يتمّوا عليهم الحجة عن طريق البراهين العقلية،

مضافاً إلی القضایا الفطریة، وبذلک یبلّغون الانسان تعالیم السماء. الرابع: أن یکتشفوا الأرضیات والجواهر المستودعة فی فطرة الانسان وعقله ویستخرجوها. الرسول بمثابة المزارع الذی لا یخلق البذر بل یزرعها ویهییء الأرضیة اللازمة لنموّها، والأنبیاء بتذکیرهم بالتعالیم التی تستبطنها فطرة الانسان یسعون فی نموّها وازدهارها. هناک شواهد من الآیات والروایات علی هذا الکلام، منها ما ورد عن الرسول صلی الله علیه و آله قوله: «الناس معادن کمعادنِ الذهب والفضة» «۱»، أی أن الجمیع یتمتع بوجود ذی قیمة ینبغی استخراجه بإشراف الخبیر. إذن، النقطة الاولی التی استبطنتها هذه التعابیر هی کون اصول الدین وفروعه متجذّرة فی فطرتنا، وما یقوم به الانبیاء هو التذکیر بها. النقطة الثانیة: هی ما ورد فی الآیة ۲۶ من سورة الغاشیة، من أن التذکیر هو الوظیفة الوحیدة للأنبیاء، ولا سلطة علی أکثر من ذلک، وبعبارة اخری: الدین غیر اجباری، فهم امثال القران، ص: ۵۳۰ یذکرون الناس بالمعارف الالهیة ولا یمکنهم أن یجبروهم علی قبول الدین، والدین من شؤون الناس ذاتهم قبلوهام لم یقبلوه. لم یجبر الرسول المشرکین علی قبول الدین، بل دعاهم إلیه، وترکهم یقررون ما یشاؤون، والنتیجة هی أن بعضاً منهم ما استعدَّ حتی للاصغاء إلی کلامه.

۲- ینبغی الإصغاء لنداء الحق

خطاب الآیة الثانی هو ضرورة الإصغاء لنداء الحق من أی شخص صدر، حتی لو کان طفلًا وأصغر من الصاغی بل حتی لو کان عدواً، فینبغی الإصغاء للحق والانصیاع له دائماً ومن أیِّ صدر.

۳- عوامل التذکُّر

آیات القرآن وکلمات الأنبیاء لیست الوحیدة التی تذکّر الانسان، بل جمیع الحوادث التی تحصل للانسان تعدُّ عوامل للتذکُّر، فالکوارث والجفاف والأمراض والزلازل والسیول وما شابه، کلها عوامل تساعد علی التذکُّر. لکل معلول علة ینبغی البحث عنها ومعرفتها للاعتبار منها، والتجربة تثبت وتدعو الانسان لأن یبحث عن علّة کل ما واجه من مشاکل ولو کانت من قبیل جرح بسیط، خوفاً من أن یکون نتیجة لجرح لسان أو سوء أدب صدر منه. الخلاصة: لا یحدث شیء من لا شیء، بالطبع هذه الحوادث بحد ذاتها ألطاف إلهیة، وبمثابة السوط الذی یوقظ الانسان إذا ما جُلد به، وبمثابة الغرامة التی تمنع من حصول الجریمة مقبلًا. إلهی، نسألک بعظمة القرآن المجید، هذه التذکرة العظمی وبحرمة المذکِّر أن تجعلنا یقظین نعی ونتذکَّر دائماً. وآخر دعوانا أن الحمد للَّهربّ العالمین

تعریف المرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

جاهِدُوا بِأَمْوالِکُمْ وَ أَنْفُسِکُمْ فی سَبیلِ اللَّهِ ذلِکُمْ خَیْرٌ لَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱). قالَ الإمامُ علیّ بْنُ موسَی الرِّضا – علَیهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْیَا أمْرَنَا... َ یَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ یُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ کَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فی تلخیص بحار الأنوار، للعلّامة فیض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُیونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّیخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷). مؤسّس مُجتمَع "القائمیّة" الثّقافیّ بأصبَهانَ – إیرانَ: الشهید آیة الله "الشمس آبادی" – رَحِمَهُ اللهُ – کان أحداً من جَهابذة هذه المدینة، الذی قدِ اشتهَرَ بشَعَفِهِ بأهل بَیت النبیّ (صلواتُ اللهِ علَیهِم) و لاسیَّما بحضرة الإمام علیّ بن موسَی الرِّضا (علیه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرجَهُ الشَّریفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درایته، فی سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجریّة الشمسیّة (=۱۳۸۰ الهجریّة القمریّة)، مؤسَّسةً و طریقةً لم یَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَی و أحسَنِ مَوقِفٍ کلَّ یوم. مرکز "القائمیّة" للتحرِّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إیرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریّة القمریّة) تحتَ عنایة سماحة آیة الله الحاجّ السیّد حسن الإمامیّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّیجی الحوزات العلمیّة و طلاب الجوامع، باللیل و النهار، فی مجالاتٍ شتّی:

دینیّة، ثقافیّة و علمیّة... الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشیعة و تبسیط ثَقافة الثَّقَلَین (کتاب الله و اهل البیت علیهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزیز دوافع الشَّباب و عموم الناس إلی التَّحَرِّی الأدَقّ للمسائل الدّینیّة، تخلیف المطالب النّافعة – مکانَ البَلاتیثِ المبتذلة أو الرّدیئة –فی المحامیل (=الهواتف المنقولة) و الحواسیب (=الأجهزة الکمبیوتریّة)، تمهید أرضیّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافیّةٍ علی أساس معارف القرآن و أهل البیت– علیهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققین و الطّلّاب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِج العلوم الإسلامیّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهیل رفع الإبهام و الشّبُهات المنتشرة فی الجامعة، و... - مِنها العَدالة الاجتماعیّة: التی یُمکِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحدیثة متصاعدةً، علی أنّه یُمکِن تسریعُ إبراز المَرافِق و التسهیلاتِ – فی آکناف البلد - و نشرِ الثّقافةِ الاسلامیّة و الإیرانیّة – فی أنحاء العالَم - مِن جهةٍ اُخرَی. - من الأنشطة الواسعة للمرکز: الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ کتبٍ، کتیبة، نشرة شهریّة، مع إقامة مسابقات القِراءة ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقیقیّة و مکتبیة، قابلة للتشغیل فی الحاسوب و المحمول ج) إنتاج المَعارض ثّلاثیّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّکة و... الأماکن الدینیّة، السیاحیّة و... د) إبداع الموقع الانترنتی" القائمیّة "www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَ ه) إنتاج المُنتَجات العرضیّة، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمریّة و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعیّة، الاخلاقیّة و الاعتقادیّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴) ز) ترسیم النظام التلقائیّ و الیدویّ للبلوتوث، ویب کشک، و الرّسائل القصیرة SMS ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراکزَ طبیعیّة و اعتباریّة، منها بیوت الآیات العِظام، الحوزات العلمیّة، الجوامع، الأماکن الدینیّة کمسجد جَمکرانَ و... ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفیذ مشروع" ما قبلَ المدرسة "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِکین فی الجلسة ی) إقامة دورات تعلیمیّة عمومیّة و دورات تربیة المربّی (حضوراً و افتراضاً) طیلة السَّنَة المکتب الرّئیسیّ: إیران/أصبهان/ شارع"مسجد سیّد/ "ما بینَ شارع"پنج رَمَضان" ومُفترَق"وفائی/"بنایة"القائمیّة "تاریخ التأسیس: ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریة القمریّة) رقم التسجیل: ۲۳۷۳ الهویّة الوطنیّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶ الموقع: www.ghaemiyeh.com البرید الالکترونی: Info@ghaemiyeh.com المَتجَر الانترنتی: www.eslamshop.com الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱) الفاکس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱) مکتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱) التّجاریّة و المَبیعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹ امور المستخدمین ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱) ملاحَظة هامّة: المیزانیّة الحالیّة لهذا المرکز، شَعبیّة، تبرّعیّة، غیر حکومیّة، و غیر ربحیّة، اقتُنِیَت باهتمام جمع من الخیّرین؛ لکنّها لا تُوافِی الحجمَ المتزاید و المتّسِعَ للامور الدّینیّة و العلمیّة الحالیّة و مشاریع التوسعة الثّقافیّة؛ لهذا فقد ترجّی هذا المرکزُ صاحِبَ هذا البیتِ (المُسمَّی بالقائمیّة) و مع ذلک، یرجو مِن جانب سماحة بقیّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرَجَهُ الشَّریفَ) أن یُوفِّقَ الکلَّ توفیقاً متزائداً لِإعانتهم - فی حدّ التّمکّن لکلّ احدٍ منهم – إیّانا فی هذا الأمر العظیم؛ إن شاءَ اللهُ تعالی؛ و اللهُ ولیّ التوفیق.

مركز القائمية للبحوث والتحريات الكمبيوترية
اصبهان

للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٠٩